

تَهَجُّجُ الْبَيَّانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

سَمَاحَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْمُخْتَارِ السَّلَامِيِّ
مُفَتًى الْجُمْهُورِيَّةِ التُّونِسِيَّةِ سَابِقًا

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهرومائية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف .



9 789938 141900

ISBN: 978-9938-14-190-0



L.R.A

مطبعة دار المنارة
Imprimerie Dar Al Manara

الهاتف: +216 74 432 030

الفاكس: +216 74 432 248

البريد الإلكتروني

refurc.dart@tunet.tn

• إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَنتَظِرُونَ لِقَاءَ أَعْيَانِهِمْ وَهُمْ يَعْتَذِرُونَ ۚ وَأَنَّ يَكُونُوا مَعَ
 الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
 إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنُوا كُنْمْ لَكُمْ قَدْ كُنَّا اللَّهُ مِنْ عَمَلِكُمْ وَنُورَى اللَّهُ
 عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ إِلَى عَذَابِ الْغَيْبِ وَالْغُيُوبَةِ فَنُفِخُ فِي سُفُوفِهِمْ
 ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَقْرَبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ
 رَجِسٌ وَمَآزِنُهُمْ فِي هَنَاءٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ سَخِلَفُونَ لَكُمْ لِرِضَا
 عَنْهُمْ لَنْ يَرْضَا عَنْهُمْ وَلِلَّهِ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

التلقين : رجعت من الغزو.

رجس : خبث.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرر المنافقون تقديم أعضادهم عند رجوع المؤمنين من غزوة تبوك، أسكنهم بمصارحتهم بالنهي عن معاودة الاعتذار وأنك لا تصنعهم، قائلين : إن الله قد أطلعنا على جلية أمركم. والله يعلم حقيقة ما أنتم عليه في الحاضر والمستقبل، فمن الخير لكم أن تتوبوا، بإفلاحكم عن النفاق الذي أنتم عليه ،إنكم سوف ترجعون إلى ربكم فيؤلفكم على ما فعلتم ثم يجازيكم عن أعمالكم.

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيعملون على إعراضكم عن لومهم وتقريرهم، فحقوا لهم الإعراض. لكنه إعراض قاطع للصلات بهم. إن نكاهة نفوسهم جعلتهم كالخبث الذي يبتدئ الناس عنه. ونهايتهم ستكون في جهنم جزاء بما اكتسبوه .

يقابلونكم بالأيمن ليتمكنوا من خذاعكم فترضون عليهم. وهم فسقة، والله لا يرضى عن الفسقة، والمؤمن لا يرضى بما لا يرضى الله عنه .

بيان المعنى العام :

93- إنما السبيل ... لهم لا يعلمون.

ثم قابل القرآن بين الأصناف الذين عذرهم لصنعتهم وإخلاصهم، قابل ذلك بالسذين يطالبون منك الإن ليقوا في المنيعة حتى لا يشاركوا في الغزو، ولا عذر لهم

بمنعهم، فهم أغنياء يملكون الرزاق والملاح والزاد، وليست بهم علة تقعدهم عن الغزو، ولكن فقدوا الشهامة وتألوا وقلبوا أوجه النظر، فأنهوا إلى الرضا بأن يتوا مع النساء والعجزة. وتبع اختيارهم هذا أن طبع الله على قلوبهم فهي مغلقة كالرسالة التي أغلقت، ثم أضيف الطبع عليها بطبع على التسمع يبقى أثره فلا تفتح إلا بإيمانه، والطبع من الله فلا يتصور إزالته، واختيارهم للإعراض وختم الله على قلوبهم انتهى بهم إلى جهل ظلامي لا يخرجون منه.

84- يعتذرون اليكسهما كنته لعلون.

الذي فهمته أن شأن المنافقين شأن المعتذرين للكاذبين الذين يحسون في باطنهم أن الناس لا يصدقونهم، وهم لذلك يمدنون على أسماع الناس أعذارهم لعلهم ينتهون إلى بقائهم. فكان المنافقون بعد رجوع المؤمنين من غزوة تبوك يعيدون ما قدموه من كاذب المعاذير. ويقمعهم القرآن بإرشاد المؤمنين إلى ما يجيبونهم به؛ قل، الخطاب للنبي والمؤمنين؛ إن نصدقكم أبداً، ولو كررتم إلى ما لا نهاية. ملكنا حقيقة أمركم، فقد أعلمنا الله بما كنتم عليه وأخبرنا به. وأنتم مقضوون عند الله ورسوله. ويحصل معناه: دعوتهم إلى التوبة التي سيطلع عليها الله ورسوله فيقبل تحولاتكم إن صدقتم.

ثم حذرهم الآية بالكشف أمرهم، يوم يرجعون إلى الله يوم القياس، فلا يستطيعون ستر كذبهم بالمعاذير. وفي ذلك تحذير من تماديهم على اللحاق وترغيب في التوبة فإن الله يعلم ما غاب عن البشر ومنه ما تتطوي عليه الضمائر، كما يعلم ما يصدر من الفعل لكل إنسان.

85- سيخلصون لكنهم سيعن القوم المنافقين.

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيلاقونهم على طريقهم في الكذب والخداع والاستخفاف بالإيمان عند رجوعهم من تبوك، يهلون إلى قبول ما يبرروا به تخلفهم فتعرضوا عن لومهم وتقريعهم، فأمرُوا أن يقاطعهم مرة واحدة فيحرقوا الإعراض لكن لا على النحو الذي يريده المنافقون من بقاء التعامل والصلات على النحو الذي كان قبل الخروج إلى الغزو، بل يهلونهم فيعتبرونهم كأنهم غير موجودين في المجتمع نكايه بهم واحتقاراً لهم -إنهم لكذبهم ولأيمانهم الساجرة تكلمت نفوسهم فهم كالخبث الذي يبتعد الإنسان عنه ويحاشي أن يتلخ به، وحقق الله ما ذكره من قبل: أن مثلهم الخزي يوم القيامة في جهنم، وذلك جزاء لما عقدوا عزمهم عليه وأنجزوه.

إنهم يريدون أن يخدعوك بالإيمان فترضون عنهم ويستولون نعمتكم عليهم. اعلموا أن الله لا يرضى عن اللّوثة الماسقين، والمؤمنون لا يرضون بما لا يرضى الله عنه. وذلك لتسقمهم المتضمن كما قلنا الجمع بين فساد العقيدة وسوء السلوك.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُفَرِ الدَّوَابِّ
عَلَيْهِمْ ذَا بَرَةٍ السَّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ بُرْنًا لَهُمْ سَيَذَلِّلُهُمْ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ
وَالْأُولَئَاءِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُمْ يُحَسِّنُ اللَّهُ لَهُمْ وَرِثَتَهُمْ وَوَضَعُوا عَنْهُمْ أَصْحَابُ السَّابِقِينَ
فَمَنْ تَبِعُوا سَبِقَهُ فِي الْأَمْرِ فَعَلُوا مِثْلَهُمْ ۚ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ الْفُرُسَ وَالْأَنْصَارَ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يُحَسِّنُ اللَّهُ لَهُمْ وَرِثَتَهُمْ وَوَضَعُوا عَنْهُمْ أَصْحَابُ السَّابِقِينَ ۚ فَمَنْ تَبِعُوا سَبِقَهُ فِي الْأَمْرِ فَعَلُوا مِثْلَهُمْ ۚ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ الْفُرُسَ وَالْأَنْصَارَ

بهائی معنی (الانسان)

المصدر : الحق والمولى .

الحدود : الفواصل المميزة.

المعلوم : ما يدفع من المال ظلما وقهرا.

پیشکش : فقط

الفرق: المصائب التي لا مخلص منها.

دائرة السوء : مصيبة السوء.

الزيت : جمع قربة ما يتقرب به إلى الله .

المسلمون الأولون : الأولون للذين سبقوا إلى الإيمان .

الانصار : جمع نصير وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يطلق على ذرياتهم من بعدهم.

اعد : هيا .

بيان المعنى الإجمالي

علي القرآن بتفصيل ملاح الفئات التي يتركب منها المجتمع، فزيادة عما قدمه في الآيات السابقة، تعرض لنصف آخر ممن يتعامل معهم المسلمون، فنبيههم إلى أن الأعراب سكان البادية تأنزوا بقسوة الطبيعة التي يعيشون فيها، فأورثتهم غلظة

وجفاء، إذا كان كفرهم أشد وكذلك نفاقهم، وهم أحرق بأن لا يميزوا بين حدود ما أنزل الله على رسوله، أعلمكم الله بخصائصهم لأنه هو العليم، ولأن حكم بحكمته لأنه هو الحكيم.

ونعط آخر من الأعراب يفاق، فيقصد من النفقات التي يقدمها التقصى على أنها إثارة، ثم ينطوي على بغض لكم ينتظر حلول كارثة بكم، دعا القرآن عليهم أن تحل بهم للكارثة، على معنى أنها ستحل بهم قطعاً، والله يسمع ويعلم ما يتحدثون به سرا في مجالسهم وما تنطوي عليه صدورهم لأنه هو السميع العليم.

ونعط آخر من الأعراب، يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر، يقصد من نفقاته أن تكون له قرينة إلى مداخل مدخرة عند الله، يقصد أن يدعوا لهم الرسول، بشرهم الله بأنه حقق لهم ما يقصنون وكتبها قربت لهم، وسيدخلهم في واسع رحمته ويعفو عن زلاتهم، إن الله غفور لعباده الصالحين رحيم بهم.

والقسم الممتاز هم الذين سبقوا للدخول في الإسلام، من المهاجرين أهل مكة والأنصار أهل المدينة، يلتحق بهم من الذين ساروا على منهجهم وكانوا محسنين في عقيدتهم وسلوكهم. أولئك جزاؤهم تحقيق أن الله راض عنهم، وأنه سيجازيهم بما يبلغهم درجة الرضا عما هم فيه فلا يعلمون لذي أي شيء آخر، وقد هيا لهم جنات تتخللها الأنهار. لقد فازوا الفوز الأعظم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

97- الآية: الأعراب أشد كفرا شديداً من الذين كفروا من قبل. ولهم عذاب عظيم .

الأعراب سكان البادية غلظت طباعهم تبعاً للبيئة التي يعيشون فيها. ولزمتهم الشدة في حياتهم متأثرين بقوة الطبيعة المحيطة بهم، فبهت الأية سكان المدينة عن طباعهم، لقلة الاختلاط بهم حتى لا يظنوا بجميعهم خيراً، بيئت أن كفارهم أشد كفراً من كفار المدينة يتمكنون بالكفر أشد التمسك، وكذلك نفاق المنافقين منهم، سكان المدينة تآزرهم الحضارة على التنازل عن بعض الأمور ليمتثلوا من العيش مع الآخرين، أما البدوي الأعرجي فهم عصي عن التراجع عما ارتسم في ذهنه. كما أن الفرص التي يتحاور فيها الحضري مع من هو أسمى منه معرفة وأعرق تفكيراً متكررة في المدينة، فتفتح مداركه وتسمو، بينما يقتباس البدوي من غيره لا يتأني إلا في أحوال قليلة، وفوق ذلك، إن سكان المدينة على صلة دائمة برسول الله الأموة الحسنة في كل شيء، يتلقون منه ما يصقل عقولهم ويهذب أرواحهم، وما يزالون يرتفعون من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى استلارت عقولهم ومشاعرهم

بما لم يحصل لغريم على مر التاريخ. ولذا كان أهل المدينة أطوع لتقبل الأحكام والتأديب بالآداب الإسلامي، على عكس أهل البادية فهم أحق أن لا يميزوا بين المشابهات، وقد لا يدركون الفواصل بين الأشياء. والله عليم حكيم لا يفتنه شيء وقدر كل شيء تقديراً على أتم وجه وأكمله.

ثم نرى القرآن بالكشف عن نفاق المنافقين من الأعراب الذين يجهلون ما ينفقونه من زكاة أو من إسهامات في المصالح العامة، القصد منه التنصيص على المطالبة على أنه إقادة من الإكاثات، أي ضريبة ظلم، يضعمرون لتتظار التخلص منها. وامتنعوا من أداء الزكاة، بمجرد ما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، لخلفته أبي بكر رضي الله عنه، فحاربهم وغلبيهم. ومن ناحية أخرى هم لا يقدرون لكم في المستقبل إلا أنه مستحق بكم كارثة، هم ينتظرون حلولها عليكم. وعلق الله على أيمانهم بالدعاء عليهم أن تحل كارثة الموت عليهم. والدعاء من الله لا يقصد منه تمنى الحصول ولكن تحقيق ما تضمنته صيغة الدعاء. ستحل بهم كارثة الهلاك. والله يسمع ما يتاجون به عليهم بمقاصدهم ونياتهم.

من شأن القرآن الاتصاف كما اشترنا إليه في مناسبات عديدة. وقد أنصف القرآن الأعراب فإنه إن كان قد شنع على الفريقين اللذين كشف عنهما في الآيتين السابقتين، فإنه في هذه الآية لفتى على بعض الأعراب بأنهم يؤمنون بالله إيماناً صادقاً يعطيهم تصوراً للكون ونظامه وعلاقة كل ما يحويه بخالقه، ويؤمنون بما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤمنون بصفة خاصة بيوم الآخر فهم يرقبون أعمالهم سرقة من يعلم أنه حاسب على ما قدم بين يدي ربه. ولينسى على ذلكم الإيمان أنهم يقصدون بما ينفقون التقرب إلى الله ليُدخِرَهُ لهم عذبه ويجزيهم به، ويقصدون أن يدعو لهم الرسول، إذ من عادة رسول الله أن يصلّي على المتصدقين المسهمين في بناء الدولة الإسلامية، كما سيأتي في الآية 103 من هذه السورة: **(هذه سورة)**

أموالهم صنفه تكثيرهم وتوهمهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)

وبشرتهم الآية بأن ما يتقربون به منكر عند الله، مؤكداً ذلك بصلوات الرسول، مبدخلهم به في رحمته، ورحمة الله إذا جلت تبعها كل خير وتنقى عندها كل مكروه. مما يدل على أنهم سيلقون جزاءهم في الجنة. ومن المؤكد أن الله غفور قهّار سبق توحيتهم ودخولهم للإسلام سبعموه، ومسيرهم كأنهم لم يفعلوا إلا الخير الخالص.

أتم القرآن تفصيل وضع المجموعات التي تُكوّن المجتمع العربي في عهد الرسالة وموقفهم من الدعوة، ومآل كل نوع منهم، بالتنبؤ به بأكملها وأفضلها على الإطلاق، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله وقتلوا قلوبهم وعطولهم للدعوة وأسهموا بأموالهم وأنفسهم في سبيل نشر الإسلام: أعظم سعادتهم أن يكونوا المبشرين به الرافعين لولائه على ما يصيبهم من ضرر. واللفظ لم يضبط من هم السابقون، وقد اختلف المفسرون تبعاً لاختلاف الروايات وتحمل النص للتأويلات في تعيين السابقين الأولين. فرأى بعضهم أنهم الذين آمنوا برسول الله قبل فتح مكة من المهاجرين، ومن الأنصار. وقيل من آمن قبل بدر، وقيل من صلى إلى القبليين أي بعد بدر بشهرين. وغير ذلك من الاحتمالات والذي يترجح عندي هو التأويل الأول لأن لقب المهاجر لا يطلق على من هاجر بعد الفتح لقوله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. ولقوله تعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنطَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَطْعَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنطَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا)¹.

وعطف عليهم في رقيهم إلى المنزلة الرفيعة الذين ساروا على هديهم، والتزموا طريقتهم، وبلغوا درجة الإحسان في حياتهم الباطنية والسلوكية. هبأ الله لهم جميعاً جنات تتخللها الأنهار، وحل عليهم رضا ربهم، قبلوا بما تجمع لديهم من نعيم نفسي وروحي وبدني مرتبة الرضا التي لا يسأل صاحبها شيئاً آخر بعد ما أوتيته من فضل إلهي، وذلك هو النجاح الذي ليس بعد نجاح، والفوز الذي لا يمكن أن يوصف بوصف يبلغ من كونه عظيماً.

وَمِمَّنْ خَلَّكَ مِنْ الْأَنْعَامِ مَنَافِعَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْبَنَاتِ لَا تَعْلَمُهُنَّ عَنْ تَعْلَمُهُنَّ سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ نَزَّوَتْ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ وَآخَرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَّلُوا عَلَماً صَلَاحاً وَآخَرُ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُتُبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عُفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ هَذِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَعَلَّوْهُمْ وَتَرْكُومَ بِهَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَواتِكَ سَكَنٌ لَكُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَقُولُوا أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقُولُ الْقَوْلَ عَنْ عِبَادِهِ وَنَاخِذُ الْمَسَدَقَاتِ وَأَنْ اللَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَتَرَى

اللَّهُ غَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ غِلْبِ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ لَتَنْفِكُنَّ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

بيان معنى الألفاظ ،

مردوا على النفاق : تكذبوا وتمروا عليه حتى حذقوه .

اعترفوا : أقروا بذنوبهم وأعلنوا التوبة منها .

تزيههم بها : تنمي خيراتهم .

السكران : الاطمئنان والراحة .

بيان المعنى الإجمالي ،

حذر القرآن المؤمنين من الأعراب المنافقين المتخفين حول المدينة الذين لم يشعروا بهم، وكذلك من المنافقين في المعينة المباغين في التستر الذين تدربوا على النفاق، حتى إنك يا محمد لا تعلمهم بأعينهم، ولكن الله يعلمهم لا يخفون عليه سعيهم مرتين في الدنيا، ثم يكون عذابهم يوم القيامة عذابا عظيما .

ونوع آخر هم من المؤمنين الذين يعيشون معك في المدينة خلطوا بين العمل الصالح، وبين القعود عن الغزو بدون عذر . إنه يرجى أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم بعباده .

لقبل من التائبين ما يقدمونه من الصدقات، فالصدقات تظهر النفس من الإثم، وتتمى للفضائل والخيرات، وزدهم فصل عليهم بمعنى لدع لهم، فإن دعاك لهم يحل به في قلوبهم الطمأنينة وصلاح المعتقد . يؤكد القرآن قبول التوبة وقبول الصدقات لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده وهو الذي يقبل الصدقات والله تواب فيعظم للرجاء عند التائب وكذلك يقبل الصدقة بالنسبة للمصدق .

وقل لهم يا محمد اجتهدوا في العمل الصالح، لتعوضوا ما فاتكم وتلتحقوا بالسابقين، واحرصوا أن يكون عملكم خلاصا نغيا مرضيا، فأنتم مراقبون من الله، ومطلوبون أن تعملوا وفق ما سنه رسوله، وأن تتحروا ما يرضي الجماعة . وفوق كل ذلك فستعرض عليكم أعمالكم وتحاسبون عليها يوم القيامة .

بيان المعنى العام ،

101 - ومن حولكم من الأعراب ... إلى عذاب عظيم .

أسلمت قبائل بدوية كانت مستقرة حول المدينة، وأظهروا الطاعة الكاملة، منهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية . ولم يستقر الإيمان في قلوب

جميع أعضاء تلك القبائل، بل بقي منهم من كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر. وكذلك بعض سكان المدينة تدبروا أيضا على النفاق ومرتوا عليه حتى حقتهم، يظهرون لتسليمهم للإسلام والمسلمين حتى ليخالفهم من لا يعرف حقيقتهم أنهم من فضلاء هذه الأمة، وهم إذا آمنوا من الأعين التي ترقبهم ظهروا على حقيقتهم من الكيد للإسلام. إن هذه المجموعة بلغت من التخفي أنك لا تعلمهم ولكن علم الله محيط بهم، يترصدهم لينزل عليهم عذابه الذي وصفه بأنه مرثين. واختلف المفسرون في تعيين المرثين فحملوه على نوعين من العذاب، وحمله الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على أن العذاب يضاعف وينكرر عليهم، وهو أولى ما حمل عليه لفظ التكرر، ولكنه جعل المضاعفة لا تقف عند حد. والذي ترجح عندي والله أعلم: أن الله كما أخفى أسماءهم، أخفى كذلك نوع عذابهم، ولقد صرحت الآية على تأكيد أن كل واحد منهم سيعذب في الدنيا مرثين، لا لخصصهما بنوعين من العذاب بسببان على الجميع، بل كل واحد منهم يعذب، ثم يعاد تعذيبه. ثم يردون إلى عذاب واحد يوم القيامة هو عذاب جهنم.

102- وأخبرون استغفروا... غفور رحيم.

وفريق آخر تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين المبرئين من النفاق، ولكن ضعفوا في لحظة خروج الجيش واعتذروا، فهم قد خلطوا ما سبق أن فعلوه من الصالحات، خلطوا بين تلك الأعمال الصالحة والأعمال السيئة، ثم استغفروا فتابوا. يقول الله تعالى: يرجى أن يقبل الله توبتهم فيتوب عليهم. إن الله غفور رحيم لقبول توبتهم لأنني صيغت في قالب الرجاء للإشارة إلى عظم الذنب من ناحية، ولأن الله غير ملزم بقبول توبة الذائب المخلصة له من العذاب، ولأن التوبة تقع في وقت ما يزال فيه التائب يباشر الحياة، وربما يستحسن من نوع المعصية التي عصاها فيضعف مرة أخرى.

103- تحذ من أموالهم... والله سميع عليم.

الآية تحتمل أن يكون المراد بها لا تزد ما قدموه لك من الصدقات، وتحتمل أنه مأمور بأن يرشدكم إلى ما يمكن توبتهم من القبول وهو الصدقة. فالآية تدل على أن مما يساعد المذنب على الخروج من تبعات ذنبه أن يقرن التوبة بالصدقة من ماله، وليس كل ماله، لما تدل عليه كلمة (من أموالهم - من إقادة التبعية) هذه الصدقة التي تطهرهم بها من دنس الإثم. وتنمي خيراتهم النفسية بالفضائل والחסنات، وصل عليهم والصلاة من الرسول ﷺ للمؤمنين دعاء لهم، يعمر بها

قلب المصلي عليهم بالرحمة والطمأنينة والأمن وصلاح المعتقد، ويذهب عنهم الفلق والاضطراب والحيرة.

والله يسمع دعائك ويحبك، أرشدك للدعاء لهم وهو العليم بما يصلحهم.

104 - ألم يعلموا... هو الثواب الرحيم.

ثم حثهم على التوبة والصدقات بصيغة التعجب كأن الكلام على معنى ما لهم لم يعلموا حقيقة ما كان ينبغي أن تخفى عليهم؛ أن الله يقبل.....، ذلك أن الأتيين السابقين تضمنا الرجاء في قبول التوبة وأمر الرسول بأخذ الصدقات وأن لا يردّها عليهم. فكان الحث في هذه الآية بتقرير أن الذي يقبل التوبة هو الله، وأن الذي يقبل الصدقات هو الله. والله موصوف بأنه الثواب الرحيم. وذلك ما يشجع على الإسراع بالتوبة وعلى التقدم بالصدقات، مما يرجح عند التائب أن الله يقبل توبته لأن الله هو الثواب، وكذلك عند المتصدق أن الله يقبل صدقته لأن الله رحيم بعباده لا يردهم خائبين عن بابه.

105 - وقال عملوا... بها صحتكم تملكون.

هذا أمر من الله لنبيه أن يطلب من المؤمنين الذين تسابوا وقدموا الصدقات، أمر لهم بأن يجتهدوا في العمل. ذلك أن الله وقد تفضل عليهم فوعدهم بقبول توبتهم بما يحسن ما كان منهم من تقصير وخاصة قعودهم عن الغزو، حتى يجبروا ما فاتهم ويرقوا بصلاح الأعمال إلى مرتبة السابقين.

وحرصهم أن يكون عملهم صالحا خالصا لله، وأن يجتنبوا ما نهى الله عنه، وذلك لأن الله مطلع على مقاصدهم وما ظهر وما خفى من أعمالهم، ويرقبوا رضا رسول الله عليهم، فميزان الصلاح مأخوذ من سنته التي بينت الطريق الرشيد. وأن يقدروا أنهم منتسبون إلى المجتمع الإسلامي يعيشون معهم ويتكاملون معهم المنافع فيجتهدوا ليكون عملهم يمكن للتلاحم الاجتماعي، فلا يعملون عملا يسئ إلى الجماعة وترفضه. وفوق ذلك أن يكونوا مستحضرين دوما أنهم سيعودون إلى ربهم الذي دفع بهم إلى الوجود، سيعودون إليه يوم القيامة وسيحاسبهم عما عملوا من خير أو شر، فيكشف يوم القيامة كل ما قدموه.

وَأَخْرُوتَ فَرَجُونَ لَأَمْرَ اللَّهِ إِنَّا نَعْبُدُهُمْ ذُنُوبًا عَظِيمًا وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
الَّذِينَ اتَّخَذُوا نَسَبًا مِثْلَ بَنَاتِهِمْ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيُحْكَمْ
بِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ قُلْ إِنَّا نَحْنُ الْغَافِلُونَ وَاللَّهُ نَبْهَتْ إِلَهُمْ

لَكَذِبُونَ ﴿١٠﴾ لَا تُلَاقِهِ أَبَدًا لَمْ تَمُوتْ أَمْشِرْ عَلَى النَّفْثَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَخَذَ أَنْ
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ خُيُّوتُ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمُتَلَفِّينَ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ
أَمْسَرَ بُنْيَانَهُ عَلَى نَفْثَى مِنْ اللَّهِ وَرِثَونَ خِزَامٍ مَنْ أَمْسَرَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا
جُرْدٍ هَارٍ فَاتَّخَذَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ لَا يَزَالُ
يُتَيْنُهُمُ الَّذِينَ يَخَوَّيْنَهُمْ وَاللَّوِيَّةُ إِلَّا أَنْ تَقُطَّ فَلَوْ تَدْرَأُ اللَّهُ غَالِيَةً كَبُرَ ﴿١٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

مَرَجُونَ : مؤخرون ينتظرون .

ضُرُّوا : مبالغة في الضرر .

الإِرْصَاد : التهيئة .

لَا تُلَاقِهِ : لا تصل إليه .

الشَّفَا : الحاشية والطرف للهوة .

جُرْد : الحفير من ولد أو مهواة .

هَار : منهزم .

أسس : بني أساسه وهو قاعدة الجدار .

بيان المعنى الإجمالي :

حدثت الآية 107 عن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، ولا نفاق، ولكنهم تباطؤوا حتى فاتهم الجيش، سأل عنهم النبي ﷺ في تبوك، ولما رجع لئوه وصدقوه، فلم يكلمهم وأمر المؤمنين بمقاطعتهم، أخبرت الآية أنه سينزل فيهم حكمه إما بتعذيبهم وإما بقبول توبتهم، والله عليم بأمرهم حكيم فيما سيملكه عليهم، ثم عرضت سورة التوبة أمرا آخر من شأن المنافقين حول المدينة، فشذت بالمنافقين الذين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من رسول الله أن يصلي فيه، وكان قصدهم أن يفرقوا كلمة المسلمين لينفردوا بالصلاة فيه بناء على ما طلب من ملهم عبد بن عمرو الزاهد المتصبر والمقيم في بلاد الروم، ليقبلوه فيه عندما يأتي بجيش من الروم يقضى به على الإسلام من المدينة، وحلفوا ليستحبوا الرسول على الصلاة فيه بأن قصدهم أحسن القصد، يساعدون من يشق عليه الصلاة في مسجد قباء، على حضور صلاة الجماعة. ونزلت هذه الآية تنهى الرسول ﷺ من الصلاة فيه وتقصح نواياهم، مبينة أن المسجد الذي أقسم من أول يوم بقصد الإخلاص

والتقوى أحق أن تعد الله فيه، خاصة وهذا المسجد يعمره رجال يحبون الطهارة حتى أصبحت خلقا لهم، فأحبهم الله لذلك، والله يحب المتطهرين في سلوكهم والمواظبين على التطهر المادي.

يعلم المسجد الذي بني مع قصد التقوى وتحصيل رضوان الله، ويكون جامعاً للخير كله في الحاضر والمآل، وينزل إلى أسفل الدرجات من صاحب تأسيس بنيانه للتمسك بالخير، فهو كالبنيان على طرف حفير منصدع، فما إن يعلو قليلاً حتى يثاقل في القاع ركناً ينهدى إلى نار جهنم. والله يمنع هدايته عن القوم الظالمين.

إنه وإن بعث النبي ﷺ من هدم البناء وأحرقه، وتحول إلى مجمع للقاذورات والفضائل، إلا أن قلوب بنياته سيصحبها التلوث بما صنعوه إلا إذا تمزقت وثاقت، على معنى أن التلوث مرتبط بهم دائماً. إن الله علّم بدقائق الأمور وخفاياها، يقرر في كل أمر ما يدل على كمال حكمته.

بيان المعنى العام :

108. اتخذوا مرجئاً منكم عليهم عكة .

تتابع هذه السورة ما يتعلق بغزو تبوك . فنذكر هذه الآية لأن بعضاً من المطالبين بالخروج للجهاد تخلفوا عنه، وهم ليسوا من ذوي الأعدار ولا من المنافقين ولا من الكافرين للجهاد. ولكن اشتغلوا بدواعي خاصة في حياتهم حتى خرج الجيش، وليسوا من اللحاق به . فبقوا في المدينة أسفين . وسأل عنهم النبي ﷺ وهو في تبوك . وهم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومراة بن الربيع. ولما رجع إلى المدينة، أتوه وصدقوه، فلم يكلمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم، وأمرهم أن لا يقربوا نسائهم حتى يحكم الله فيهم، فهم ينتظرون نزول حكم الله فيهم هذا الحكم المنتظر، إما رفض توبتهم وتعذيبهم، وإما توبته عليهم وغفران ذنبهم. والله يتصرف بصرفا يعال العلم الكامل، والحكمة. فهو العليم بصدق توبتهم، وهو الحكيم في الحكم الذي سيظهره.

107-108. الذين اتخذوا سجداً للمعلوكين.

تعرض هذه الآيات نوعاً آخر من مخازي المنافقين حصل قرب الخروج لغزوة تبوك، ذلك أن جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف بتدبير من عيد عمرو الراهب الذي كان قلبه يغلي حقداً على الإسلام، فقد أعلن الأحزاب عند غزوه للمدينة، ثم فر إلى مكة، فلما فتحها المسلمون احتسب بتيقن. فلما دخل أهلها في الإسلام فر إلى أرض الروم. وقد أمرهم أن يبنوا مسجداً قريباً من مسجد قباء،

بنفردون بالصلاة فيه عن الجماعة. فبنوا مسجدهم وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يستعذره للخروج إلى تبوك أن يصلي فيه تمويها وتقريرا، فلزل الله هذه الآيات التي سنتابعها بالبيان .

يعرفهم القرآن بالصفة الثغالية عليهم التي فضحتهم: أنهم بنوا مسجدا قصدتهم منه إدخال الضر على المؤمنين من أهل قباء، ليفرقوا كلمة المسلمين، وينعزل اتباعهم المنافقون عن جماعة المؤمنين، ولتحدث الفرقة بينهم بعد ما وحد الإسلام بينهم. وكان مما كتبهم به الراهب أن يتهاوا بالمبنى، ليكون إسمهم فيه حين يقدم عليهم في جيش من الروم للقضاء على الإسلام في المدينة.

ثم كان شأنهم كشأن المنافقين، في الإصرار للحلف بالأيمان الفاجرة، حلفوا لرسول الله: أنهم ما أرادوا مسجدهم الذي بنوه إلا الذببة الحسنى، إذ يستمكن الضعيف وذو الحاجة الذي يعسر عليه الذهاب إلى مسجد قباء، أن يصلي فيه ولا تقوته صلاة الجماعة. ويعلق الله عليهم بما في الصنور، أنهم كتبوا في يمينهم، فما كان قصدهم ما عرضوه ولكن ما سجلته الآية من الضرار والتفريق .

وإذ نبين القصد الخبيث، صرح القرآن بنهيهم ﷺ أن يصلي فيه .

فلزلت الآية عند رجوعه ﷺ من تبوك، ودعوة المنافقين له للصلاة فيه . وعندها أمر ﷺ بعضا من الصحابة أن يذهبوا إليه ليهتموه ويعزقوا عنده وأبوابه. ونم ذلك وانقلب مجمعا للفضلات وللزبل، ثم بين القرآن البون الشاسع بين مسجد الضرار، وبين المسجد الذي أسس على التقوى، (المسجد أسس على التقوى من أول يوم) قيل: هو مسجد المدينة. وهذا ما يؤيده الحديث الذي أخرجه مسلم وعبد بن أبي سعيد البخاري أن رجلين من الصحابة اختلفا في تعيين أول مسجد أمو مسجد قباء أم مسجد الرسول ﷺ ؟ فأتيا ﷺ فسألاه فقال: (هو مسجدي هذا، وفي الآخر خير كثير) وقيل هو مسجد قباء . ولولا الحديث لكان نسق الآية يرجح أنه مسجد قباء.

ثم أضافت الآية مزية أخرى لمسجد قباء زيادة على كونه للمسجد الذي محجب الإخلاص ببناءه، أن اثنين يقومون الصلاة فيه، وهم الأنصار، بحدود لذة في الطهارة جعلتهم يحبوها فأكرمهم الله بإعلانه عن محبتهم لهذه المزبة التي اختصوا بها. فالطهارة وإن كانت فرضا واجبا، إلا أن الأنصار اختصوا بحبهم لها حتى صارت خلفا لازما لهم، فكانوا جديرين بثناء الله عليهم.

ثم أكد وفصل ما ذكرته الآية (108) أن المسجد الذي يشهد الله بأنه أسس من يوم تخطيعله الأول ولشروع في بنائه، وقد تحققت إرادة التقوى من إقامته، يكون أحق

الأمكنة بأن تقوم فيه بالعبادة. وتطبق هذه الشهادة على مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ومسجد قباء. فكلاهما أسس من أول يوم على التقوى والإخلاص لله.

ملحظة ثمانية:

ذكر السهيلي في شرحه لسيرة ابن هشام، أن هذه الآية حجة لرأي الصحابة رضوان الله عليهم في اتخاذ عام الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي، إذ بناء المسجدين قباء ومسجد المدينة كانا إثر الهجرة، وقد عبر القرآن عن ذلك التاريخ بقوله : من أول يوم .

109 آية أسير بغيانه صلى تقوى... والله عليهم حكيمة .

ثم جسعت الآية، مع المقارنة بين مسجد الضرار والمسجد الأول . فنذكر أن المسجد الأول صاحب إقامة أسامه الذي ارتفع عليه البناء قصد رفيع من التقوى والتقرب إلى الله، فكان القصد الصالح لاحتياط بالبناء فقوى ماسكه، وجرى به في المنهج الذي أراده به. وأن مسجد الضرار لمسوء قصد لصحابه. كانه فقد القوة والالتحام والتهات بما خالط بداءه من القصد الخبيث، فهو كإقامة بناء على طرف حفرة متصدعة، فلا يتصور منه إلا أن ينهار سريعا ليتلعه القاع وقد تلاشى إلى ركام . وتكون النهاية القرار في فاع نار جهنم للبناء عذابا على ما حاولوه من تفرق للكلمة، وكنل المبني الذي أقاموه إهانة لهم . والله يحجب هدايته عن القوم الظالمين فلا يفتح لهم منها بولرق تضيء لهم معالم الطريق .

الآية - 111 - إلى مسجد الضرار وإن بناه له قد هدم وحرق ولم يبق له أثر مادي، ولكن الآية أثبتت أن أثره العقدي لم يذهب بذهابه، فقد قدر الله تقديرا لا انكسار له لأن البناء الذي بدوه سيفي مزعزا لقلوبهم تقسيم به الحيرة والتردد في عقولهم، سيصحبهم الخوف من المصير الذي سيصرون إليه، لا ينقذ ذلك عنهم إلا إذا تمزقت قلوبهم وفارقوا الحياة . والله عليم لا نخفى عليه خافية من توابعهم، وهو الحكيم في تناوله لأمرهم وإحلال للنهاية التي أحلها بهم.

هـ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا قَتَلُوا وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمَّا قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِمَا كُنَّا نَنْهَى عَنْهَا فَأَنفُسُهُمْ أَشَرٌ مُنْذُ بَدَأَ الْإِنْسَانَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَالْغُرَّةِ الْأُولَى وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِمَا كُنَّا نَنْهَى عَنْهَا فَأَنفُسُهُمْ أَشَرٌ مُنْذُ بَدَأَ الْإِنْسَانَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَالْغُرَّةِ الْأُولَى وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِمَا كُنَّا نَنْهَى عَنْهَا فَأَنفُسُهُمْ أَشَرٌ مُنْذُ بَدَأَ الْإِنْسَانَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَالْغُرَّةِ الْأُولَى

الْمُشْكُورَاتُ الرَّاجِعُونَ الشَّجْدُونَ الْأَمْوَنُ بِالْمَعْرُوفِ : الْغَائِبُونَ : عَنِ الْمُنْكَرِ : الْحَافِظُونَ : لِقَوْلِهِ اللَّهِ وَنِعْمَ الْمُؤْمِنِينَ

بيان معنى الآية:

المشكرون : وعد وعدا مؤكدا .

المشكروا : أبقروا .

بيان المعنى الإجمالي :

ذكرت الآية أن الله ، وهو الذي مكن كل إنسان من حياته ورزقه ، ميز المؤمنين بأنه اشترى منهم ما سكنهم منه ، وأن الثمن الذي يبذله لهم : الجنة ، ووضح طريقة بلوغهم إياها : أنهم يقتلون في سبيل إعلاء كلمة عالمين مقدما ، أنهم إما أن يقتلوا أعداءهم ، أو يقتلهم أعداؤهم . تؤكد هذا الوعد من الخالق في الكتب السماوية السابقة للتوراة والإنجيل ، كما يؤكد أنه لا يتصور واحد في بوعده كما يفى الله بوعده .

ونوه بالمؤمنين الذين جمعوا بين ثمانية مزايا : الإسراع للتوبة ، الإقبال على العبادة ، الحامدون لله على نعمه التي تفوق الحصر ، السباحة في أرض الله للقيام بدورهم في عمرانها ، المعبون للصلاة بإدائه أركانها من ركوع وسجود ، الذين يعملون على صلاح المجتمع ، ونظافته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمنفذون لكل ما ورد عليهم من تشريع أمرا كان أو نهيا . ويحق لهم أن يتفلقوا البشارة من ربهم بمب صدقهم في الإيمان .

بيان المعنى العام :

111 112 . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ .

هذا وعد من الله موثق ومؤكد صريح في صيغة عقد بيع تمت جميع مفوماته واكتملت أركانه الأربعة : المشتري ، والبائع ، والثمن ، والتمتع . ثابت في الماضي والحاضر والمستقبل ، لا يأتيه ما ينقضه ، ولا يلحقه ما يبطله . فلتأمل في هذه الأركان حسب الصياغة البليغة في الآية :

المشتري : هو الله رب العالمين ، وفي البداية بإسناد الثراء إلى الله ما يؤكد ثبات العقد لأنه غير عنه بالفعل الماضي (اشترى) واستمراره لأن ما هو ملك له لا يأخذه منه أحد .

البائع : المؤمنون . يتناول المؤمنون من هذه الأمة تقالولا أوليا من كان في حاضرا وقت نزولها ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ، كما يتناول المؤمنين في تاريخ البشرية الطويل الذي تحقق فيهم ما حدثته الآية .

الثمن : هو الجنة . ولا انفس ولا أجل ثمن ولا غاية وراء الجنة ، يقول تعالى :
(الذين اخرجوا من القرى واسموا لنصرة لثمة فذوقوا)

المبيع الثمن : الحياة والأموال . وهبهم الحياة ، وهبهم المال ، فكلاماً ملك له ، ومع ذلك فإن حيازتهما من طرف المؤمنين حيازة لا ينفصل عنها أنهم يبتلون ما وهبهم في مرضاته ، فهم يخرجون لنصرة دينه ونشر الحق في العالم ، وهم يطمعون مقدماً لهم لا يخرجون عن احتماليين :

(1) للمقدم عندهم أن ينصروا الذين ويهزموا الأعداء فيقتلونهم بسبب ما منعواهم من حرية نشر الحق .

(2) أن يشقوا ثباتاً يصحبهم إلى آخر لحظة من حياتهم فيموتون في ساحة الشرف ، ساحة الجهاد .

ثم يؤكد القرآن ما تضمنه المقطع الأول من الآية ، بأن هذا وعد من الله حق ثابت ، وبقه في كتبه التي أنزلها على رسله ، ذكر منها الكتب التي بقيت البشرية تحفظ بشيء منها ، وهي التوراة والإنجيل ، والكتاب الباقي المحفوظ أيد الدهر في القرآن .

ثم يستفهم استقهما تفريرياً مثبتاً ، أنه لا يمكن أن يتصور أن يبلغ أي عهد من التحقيق ما يبلغه الوعد من الله ، لأن كل واحد سوى الله ، قد يحول بيبه وبين تحقيق وعده موافات تخرج عن سلطانه ، والله مالك الأمور لا يخرج عن سلطانه شيء ولا ينقص من ملكه شيء .

ثم يكرم المؤمنين الذين عفتوا هذه الصفقة ، فيترجمه إليهم رب العزة بالخطاب بقوله :
 أبشروا بربح الصفقة التي فكتموها ، ولا صاحب صفقة يبلغ من الفوز والنجاح ما بلغتم . يروي ابن عطية عن والده أنه سمع الواعظ أبا الفضل ابن الجوهري يقول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقة ، البائع فيها رب العلاء ، والثمن جنة المأوى ، والواسطة محمد المصطفى . هكذا هو مثبت في الصفقة ، ولعل : العثماني فيها رب العلاء لا البائع . والله أعلم .

ثم أخرج القرآن المؤمنين في إطار بنوه بجزائهم ويتابعها في تسلسل بسديع فأنشئت لهم ما يأتي :

التائبون : التوبة تنطلق بالقسبة للمؤمنين الأولين ، من التوبة من الكفر وطراح للشرك ، ثم تسمو في ربطة رابطة بين المؤمن وربيه ، فكلاماً منه طائف من الشيطان

تذكر، فإذا بصيرته تجنيبه جذبا قويا إلى طريق الهدى طريق الله . وكلمة قارف تنبأ أسرع إلى التوبة .

العابدون : لعبادة رشح شعور مرفق، بصفة الإنسان بريء، يجد طعائنته ورضاه النفسي عندما يتصل به عباده حسب ما تلقاه منهم، ثم هو يرتبط بالكون كله في موكب سائر إليه فيجد في كل نشاط عبادة للخالق سبحانه .

العامدون : هي النعم تتابع على الإنسان . وقد يكون لتتابعها ذلك ما يفعل به الإنسان عن قيمتها، فإذا توفد الإيمان في القلب استوقظ إلى تلكم النعم فانطلق لسانه وتلاه بالحمد للواهب الكريم، خذ لذلك مثلا: أنفاسك التي تجري فيك بيمر نعمة من أجل النعم، لو حياق تفمك قليلا لوجدت الدنيا كلها لا تعدل تلك النعمة.

المانحون : الذين يشعرون بوظيفتهم في عمارة الكون، بما يقتضون بالسياحة من نشر للفصيلة، والمعرفة التي هي أول خطوة في الفعل الصالح، وتأكيد العلاقة مع البشرية، إننا إذا تذكرنا أن الصحابة رضوان الله عليهم بلغوا الحدود القريبة لأفريقيا، وأن المسلمين وصلوا إلى أراضي الشرق الأقصى فاشروا الإسلام في جرر أندونيسيا، وماليزيا وتايلندا، يتكشف لك قيمة السياحة الإيجابية التي وصف الله بها المؤمنين .

الراكون الساجدون : هو تعبير عن إقامة الصلاة عمود الدين وأعظم صلة بين المؤمنين وربهم، بإقامتها يجتمعون ويتعارفون في الحي والمدينة . وبها يكون الإيمان حيا نابضا في أرواحهم، فإذا إلى سلوكهم قال تعالى : **(إن لمصلاة تهدي عن الخشاء والمنكر)**¹ .

الأمور بالمعروف والنهي عن المنكر : هذا الوصف يمثل الحرص العام على أن تشيع الفضيلة في المجتمع، فالمؤمنون المنوع بهم لا يفعلون بصلاحهم، لكنهم يعملون بصفة مسنمة على نشر الخير، كما يحرصون على نظام المجتمع من كل لحراب، واستتكار أي نابذة تظهر، والعمل على اجتثاثها.

الحافظون لحدود الله : هذا وصف جامع يمثل الانسجام بكل ما شرعه الله، فهم يحفظون على تطبيق الأوامر، وعلى اجتناب ما نهى عنه، وتؤكد خاتمة الآية خاتمة الآية السابقة، وذلك الفوز العظيم، بأن الله يبشرهم بأنهم سيحظون بذلك الفوز العظيم .

مَا كَانَتْ لِلنَّيِّنِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَتَغَيَّرُوا بِمَا كَانُوا أَوَّلَ نُزُولٍ مِنْ بَعْدِهِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ فَتُحْجِمُونَ عَنْهُمْ وَتُقَرِّبُونَ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ غَرِيبٌ زَلَّ الْوَجْهَ إِذْ هَدَيْتُمْكُمْ إِلَى الْوَجْهِ لَا أَوَّلَ خَلْقٍ وَلَا آخِرَ يُخَوِّدُكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُخَوِّدُ مَنِ ارْتَضَى إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ نَحْيِي وَيُكْرِهُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بيان معنى الألفاظ :

النَّيِّنَ : الوعد .

يُخَوِّدُ : يفتنه بقطع صلته .

أَوَّلَ : المكثر من قول : أو . وله معان ترجع إلى رقة القلب والرافة والنضج .

ملك : التصرف والتكبير .

بيان المعنى الإجمالي :

لما كان للكفر والإيمان اتجاهين متعاكسين، فلا يتصور حسب المنطق السليم أن يتقدم النبي والذين آمنوا بطلب المغفرة للمشركين ولو كانت تربطهم بهم رابطة القرابة، إذا ما تبين لهم أنهم هالكون ألكون إلى النار . ولا تظنوا أن إبراهيم عليه السلام خرج عن هذا المنهج لما استغفر لأبيه المشرك، لأن أباه إبراهيم وعده بأنه سيتكبر أمره في الإيمان بالله، ففهم منه أنه أخذ في الطريق الصحيح، فاستغفر له طلباً من الله أن يسدده بوعده، فلما تبين له أنه مصر على الكفر قلع ما بينه وبينه . وإبراهيم الخليل ووقف رقيق القلب منضج، رزق عقلاً راجحاً .

واعلموا أن الله لا يعذب المؤمن بعد أن هداه، إذا ما أقدم على أمر منهي عنه قبل أن ينزل الحكم وضحا، فلا تتزعجوا من استغفاركم لبعض من تحبونهم قبل النهي . إن الله عليم بكل شيء، كيف لا وهو المتدبر للسموات والأرض، المتصرف في الحياة والموت، فاعتمدوا على ربكم فليس لكم ولي ولا ناصر سواه .

بيان المعنى العام :

113- ما كَانَ لِلنَّبِيِّ...صَاحِبِ الْجَحِيمِ.

العلاقة التي يعتبرها الإسلام ويرتب عليها حقوقها تقسوم لولا على الإيمان، فإذا لم يجمع الإيمان لم يبق إلا علاقة إنسانية يتبعها عدم الظلم، أو التعاون فيما يتصل

بالحياة الدنيا. ذلك لأن التصور الإيماني والتصور الكافر يذهب كل واحد منهما في اتجاه معاكس للآخر. يقوم الإيمان على ربط الإنسان عقله وروحه ومشاعره وانتظامه في الكون، على أن الكل موكب واحد صدر عن الله وهو سائر إليه حسيماً قدراً. ويقوم الكفر على قطع العلاقة بين الخلق والمخلوق، بين الإنسان وربّه، وبين الكون والله. ويتبع ذلك أن النهاية متعكسة طبيعياً، فالمؤمنون يعتقدون ويسعون إلى الثور بالجنة، والكافرون لا ينظرون إلى اليوم الآخر، فهم إلى النار. وهذا أمر مقطوع به ثبت بالنصوص القرآنية العديدة وبالسنة حتى أصبح ضرورياً من ضروريات الدين.

إن ضعف الإنسان قد بحجب على بريق إيمانه حجاب، فيذهل في لحظة من لحظات حياته ويرفع في الخطيئة، ومن رحمة الله أن فتح لعباده المؤمنين باب التوبة والالتجاء إلى الله يطلب المغفرة ليحوي الذنب ويعفو فقال تعالى: **(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَنْتَهِمْ عَمَلًا طَيِّبًا لَمْ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَمَلًا سُوءًا)** ^١ وأذن لنبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات فقال تعالى: **(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ^٢ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ^٣ اللَّهُ لَا يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ^٤ أَتُغْفَرُ لَهُمْ^٥ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْغَاثِينَ)** ^٦ وأخبرنا القرآن أن حملة عرشه يستغفرون للذين آمنوا^٧. فاستغفر المؤمنين واستغفر الرسول لهم واستغفر حملة العرش^٨ كل ذلك محقق لما خص به رب العزة المؤمنين من جزاء الجنة. وأما طلب المغفرة لمن كفر فإنه يسير في اتجاه معاكس لما كتبه الله لهم من دخول النار، فحري بالرسول وبالمؤمنين أن لا يقدموا على طلب المغفرة للمفسرئين، وقد تبين لهم أن مآلهم الجحيم، وحذرهم أن يضعفوا لعوامل الرحمة أو القربة.

١٩٤- وما كان استغفارهم... لأوأه عليه.

ولما ورد في القرآن أن إبراهيم استغفر لأبيه وكان كافراً، قال تعالى: **(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيظًا)** ^٩. وما شرحنا به الآية لا يعطى لإبراهيم العذر في الاستغفار؛ فلزال القرآن موجب هذا التوقف، بأن إبراهيم لم يستغفر لأبيه مع كرهه لأنه فهم من كلامه، وعاد منه بالإيمان، فكان دعاؤه طلباً من الله أن

١ سورة النساء، آية ١١٥

٢ آل عمران ١٥٥

٣ سورة النور آية ٥٥

٤ سورة المتحة آية ١٢

٥ سورة غافر آية ٢٦

٦ سورة مريم آية ٤١

يسعده بتأييده ليتم ما وعد به. ولذا فإنه بمجرد ما تحقق أنه مصر على الكفر قطع صلته به وانقطع عن الاستغفار. ثم أثنى على إبراهيم عليه السلام بأنه رؤوف رقيق القلب متضرع إلى الله، ذكي الفؤاد راجح العقل.

115 وما كان الله ليضل...بشكل شيء عليم.

ثم طمان القرآن المؤمنين الذين حملتهم رقة عاطفتهم، ونبل مشاعرهم، فاستغفروا للمشركين قبل نزول الآية القاطعة في هذا بتسجيل قاعدة هي من الثوابت في معاملة الله للبشر: أنه لا يكتب الضلال (المعصية) على أحد بعد أن اهتدى إلى الإيمان والعمل به، حتى يبين ما ينهى عنه ويحرمه ويلزم بالابتعاد عنه فيؤاخذهم بعد ذلك. إن الله عليم بكل شيء ومنه ما يصلح البشر وحقيقة ما يصدر عنهم.

116 - إن الله له ملك...ولا نصير.

ثم أكد مفصلاً ما يدل عليه قوله : إن الله بكل شيء عليم، بلغت الأنظار إلى التصرف في السماوات والأرض وتسييرها بدقة ونظام لا اختلال فيه مما يقوم شاهداً على علمه الكامل، ويصرفه في الحياة والموت، وكلاهما أقرب شيء للإنسان: دمع ذلك لا يعلم أحد متى تهبط فيه الروح ولا متى تنزع منه. تؤكلوا على ربكم وتؤوا انكم لا تجدون من يرعاكم ويتولى أموركم وينصركم على أعدائكم غيره.

لَقَدْ نَابَ اللَّهُ عَنِ الْبَيْنِ، وَالْمُهَنْجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ إِنَّهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْجزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَأُولُو الرُّجُبِ إِنَّ بَيْنَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَكَفَرُوا نَحْنُ لَصَادِقُونَ وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَولِهِمْ بِنِ الْإِعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَنْصَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عِزًّا نَجِيبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا ظُلْمٌ وَلَا يَخْضَعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ مَوْجِعًا يُغْصَقُ الْكُفْرَانُ وَلَا يَمْلَأُونَ مِنْ عَذَابٍ إِلَّا نُجِيبُ لَهُمْ بِهِ عَمَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُقْوِتُ

نَفَقًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا تَقْطَعُوا رِجْلَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ تَابًا لِحَسْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ
مَا كَتَبُوا أَنْ يَمْلِكُوا ﴿٥٥﴾

بيان معنى الآيات ٥٤ ،

التوبة : رجوع الله بعبده من حالة إلى حالة لرفع منها .
تنبهوا : أظاعوا .

فصرى : للشدة وضيق الحال .

الرجوع : الميل عن الطريق المقصود .

كُتِبُوا : تأخر قبول عذرهم .

ضُفَّتْ عَلَيْهِمُ الرِّجْلُ : أحسوا كأن الأرض ضاقت عليهم .

بما ربيت : على سعتها .

ضُفَّتْ عَلَيْهِمُ الرِّجْلُ : ثقل عليهم الغم والحزن .

يَقْطَعُونَ رِجْلًا : يجتازون واديا .

بيان المعنى الإجمالى :

دفع القرآن بالمهاجرين والانصار الذين أسرعوا بتلبية الدعوة إلى الخروج للجهاد في غزوة تبوك ، وأعلمهم أنه قد تاب عليهم توبة تتمثل في رفع درجاتهم عنده . نوه بهم لأنهم لتنبهوا في وقت فيه ضيق وعسر ، ولحق بهم الذين رجحوا الخروج بعد تردد قليل وتاب عليهم ، إن الله رؤوف بعباده يرعى ضعفهم ، رحيم بهم .

وتاب الله على الثلاثة المعلومين عند الصحابة وقت نزول الآية وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، الذي تخلفوا عن المشاركة في الغزو . ولما سألهم الرسول عند عودته من تبوك ، صدقوا رسول الله أنه لا عذر لهم ، وعرضوا توبتهم . فلم يكلمهم النبي ﷺ ونهى الصحابة عن الاختلاط بهم ، ولهاهم عن فرسان زوجاتهم ، فكان حصار اجتماعيا خائفا ، حتى أصبحت الأرض الواسعة في نظرهم تضيق بهم ، وغمهم الكد والحزن فضاقت عليهم أنفسهم ، لم يبق لهم أي رجاء إلا أن يشملهم الله بعفوه فهو الملجأ الوحيد . وبعد خمسين يوما تاب الله عليهم لأنه للتواب الرحيم .

ويعد تبين مال الصدق في غزوة تبوك ، حرص الفرسان المؤمنين أن يلتزموا تقوى الله وأن يكون مجتمعهم مجتمع الصدق .

إن الذين تلقوا أنوار النبوة مباشرة من سكان المدينة لا يتصور منهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم للجهاد ، ولا يتصور عنهم أن يحسوا أنفسهم مفقدين لها على

نفس رسول الله، ووعدهم الله مقابل هذا الميثاق للنصرة رسول الله لأنه يوثق لهم جميع ما يقومون به في الجهاد ما قصوه وما لم يقصوه. قلبيلا كان أو عظيما، فعتلشهم، وتبهم، وجوعهم، ودخلهم في ارض الأعداء بخيولهم أو روادحهم أو أقدمهم مما يذل للكفر وبغيظه، ولا يستحذون على شيء من التكفار ولو قل؛ للكل ميثاق لهم عند الله على أنه عمل صالح. وهم محسنون في ميزان الله. والله لا يهمل أجر المحسنين. وكذلك جميع نقاتهم ما قل منها وما كثير. وما يقعون منه من المسكيات يوثق في ميزان حسناتهم، ويجزيهم الله عن كل ذلك باعتبار أن كل ما قاموا في الجهاد هو من أحسن أعمالهم، فيجزون عنه بناء على ذلك الاعتبار.

بيان المعنى العام :

117- لقد تاب الله من رزوق رحيم-

تهين هذه الآية لما سيأتي بعدها، مضمونها أن ما كان من المؤمنين بعد دعوتهم إلى التهنيد لغزو الروم قد اختلف اختلافا غير جذري .

وجد في قمة المواقف الشريفة النبيلة موقف النبي ﷺ وموقف المهاجرين والأنصار، الذين أطاعوه بمجرد ما دعاهم. فتهاياوا للقتال وسمحوا بالمخى من أموالهم في وقت ما كان فيه أهل المدينة في سعة من الرزق بل كانوا في ضيق وعسر. يروى أن سيدنا عثمان بن عفان أعطى ألف جمل وألف دينار وتسابق كثير منهم للذيل، هؤلاء تاب الله عليهم توبة رفعتهم من الوضع الذي كانوا فيه قبل الغزو إلى مرتبة أعلى وأسمى. كما أن فريقا آخر تحاذبه عاملان: عامل مثبط من شدة الحر وطيب الثمار وبعد الثقة للبلاد المفصودة، وعامل الانسحاب لدعاء الرسول ﷺ، وأخيرا تغلب نداء الطاعة وخرجوا مع الجيش. وأخير الله أنه تاب عليهم من النقص الذي علق بهم وعفا عنهم. هذه الآية بما اكتنه من التوبة المبينة على ما اتصف به الله من الرأفة والرحمة، كانت فاتحة لتسجيل ما تم في قضية ثلاثة من الأنصار كانوا معروفين بصدق إيمانهم. وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. تخلف هؤلاء الثلاثة عن الانضمام إلى الجيش القاصد تبوك. توجه إليهم الطلب مع بقية سكان المدينة، وما اعتذروا لرسول الله بأي عذر، ولم يأن لهم النبي ﷺ في البقاء بها.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة منتصرا من تبوك، سألهم عما اعتذروا عن كذب، لكنهم اعترفوا بذنوبهم وبدا عليهم الحزن لتناقلهم عن الخروج .

أعرض عنهم رسول الله، ولم يهرم أن يعتزلوا نساءهم ونهى الصحابة عن التعامل معهم، فصر عليهم حصارا اجتماعيا ذاقوا منه الأمرين مدة خمسين يوما، وصفته الآية أنه خبل إليهم لنهم يعيشون في مسجى مضيق، فالأرض التي لا يجدون فيها

تجاوباً لا من زوجاتهم ولا من أصدقائهم وإخوانهم. بنت لهم على سمعتها ضيقة كاشد ما يكون الضيق. بل إن أنفسهم ضغط عليها للكمد والحزن حتى كانت تنفجر من ثقل ما تنصر به من الذنب ومن الوحدة. وبقي مع ذلك لهم خيط من الرجاء هو الوحيد الذي أبقى عليهم. هو اعتقادهم أنه لا ملجأ لهم من غضب الله ومقته إلا العفو الذي لا يملكه أحد غيره.

ثم يعد الخمسين يوماً نزل على رسول الله ﷺ ما يقرر أن الله قبل توبتهم وعفا عنهم، ليكون هذا الفضل الإلهي دافعاً لهم للثبات على العمل الصالح فيما يستقبل ويحصدوا أنفسهم من المعاصي، وهو معنى: تائب عليهم لينوبوا، ليدوموا على وضعهم الذي من الله به عليهم بعد توبتهم فلا ينسوا أنفسهم بالآثام بعد أن طهرها فضل الله عليهم.

ملحظة جيدة:

يقول ابن عطية في هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمفتدى به لكل عنوا في المصنوع من مواء، وكتب الأوزاعي إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: (واعلم أن قربك من رسول الله ﷺ لن يزيد عليك حق الله إلا عظماً، ولا طاعته إلا وجوباً، ولا الناس فيما خالفك ذلك إلا إنكاراً) .

120 ما سكار لأهل البيت شيع أحمد المحسنين.

هذه الآية تمثل ما ينبغي أن يستقر في عقول المؤمنين، بعد ما قرره الآيات السابقة من أن الله رضى على المؤمنين الصائقين، ورضى عن الذين تردوا ثم صدقوا ورضى عن الذين تخلفوا وصدقوا معترفين بالذنب. فتتوهم بالصدق وحسباً عليه، أمر الله المؤمنين أن يثبتوا على التقوى، وأن يمثلوا في المجتمع الإنساني المجتمع الذي يشيع الصدق فيه في كل مظاهر الحياة الروحية والاجتماعية.

نلقينا الدور الهداية الإسلامية من القرآن ومن السنة المطهرة، ووصلتنا بواسطة النقل الصحيح، وما يمثل للمؤمن القرآن بفكر وتأمل إلا ويحد نفسه سمو وتشريف، وتحل في روحه الطمأنينة الراضية. وإذا قلنا هذا بالإشباع الرباني الذي كان ينفذ إلى أرواح الصحابة رضوان الله عليهم مباشرة، وهم يرقبون ويستمعون ويجلسون إلى رسول الله ﷺ نجد منازل من الفيوض التي تعجز عن تصويرها الكلمات، تجعلهم فوق بقية المؤمنين الذي لم يحضروا مجالس الوحي والتذكير

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ أَوْ مَرَّةٍ ثُمَّ لَا يَنْتَوُونَ وَلَا يَذْكُرُونَ ﴿٦٦﴾
 وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْظِرْ مُضِيَّهَا إِلَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّكُمْ مِنْ أَهْوَاؤِكُمْ أَنْتُمْ أَنْصِرُوا
 صِرَتِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَفْهَمُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معنى الانقضاء ،

التفرقة : الجماعة من الناس الذين تربطهم رابطة توحد بينهم .

طائفة : جماعة غير محصورة بعدد .

تفتنه : بذل الجهد لتحقيق الفقه الذي هو فهم دقائق العلم .

الأنذار : الإخبار بما ينوقع شر منه .

تفتنة : الشدة . بالجمع بين الجراءة والصبر على القتال . والعنف في القتل والأمر .

الاستبصار : النظر البشري في النفس .

بيان المعنى الإجمالي ،

كما حرض القرآن المؤمنين على الجهاد، حرضهم على التعمق في الدين بإبرائه أسرار ومعرفة أحكامه من الحلال والحرام، تخصص في كل فرقة طائفة ممن لهم استعداد لذلك، يتلون لئلا قومهم ليحذروا الخروج عن حدود الدين من الأوامر والنواهي .

وكما ينتشر الإسلام بالعلم كذلك ينتشر بالجهاد، فالمؤمنون مأمورون بأن يوسعوا في أرض الإسلام في الأراضي المجاورة لهم، وليتدربوا على القتال مما يفرغ قلوبهم الشجاعة والثبات، ومواجهة الكفار بحزم وثبات يرهب العدو . وليتقوا ويتقوى الله فانه يساعد المتقين وينصرهم .

وسما فضحت هذه السورة من أمر المنافقين، أنه إذا أنزلت سورة، التفت بعضهم إلى بعض متوجها في سخرية : هل زالت هذه السورة في إيمانكم كما يتحدث القرآن عن إزدياد الإيمان بما ينزل من سورة ؟

رد القرآن عليهم بأن كل سورة من سور القرآن تنزل تتبعها زيادة، لكن الزيادة بالنسبة للمؤمنين تعميق لإيمانهم وزيادة في الوحي الذي آمنوا به، وتنتشر في قلوبهم البصيرة ، والزيادة بالنسبة للذين فسدت عقيدتهم ومرضت قلوبهم بالنفاق تضاعف كثرهم وانحرفهم وتضم إلى ما امتلأت به نفوسهم من خبث خبثا جديدا .

ما لهم لا يتعظون بما يلحقهم كل عام من نكال؟ ومن عنادهم أنهم لا يتدبرون بما يسلط عليهم .

وإذا أنزلت سورة نقص ما أخذوا به في سر، رأيت بعضهم ينظر إلى البعض الآخر، مستسرا هل رآكم أحد ليس منكم فنقل أخباركم؟ ثم تصرفوا حائرين. صرف الله قلوبهم عن الحق ولم يسعفهم بالعون للاهتمام إليه، وذلك لأن عقولهم واقفة عند الظواهر القريبة لا تتأمل في بواطن الأمور .

بيان المعنى العام .

122- وما كان المؤمنون—سماهم يحدوون

حرص القرآن فيما سبق من الآيات المؤمنين على القتال، وكشف المنافقين وأوعدهم، ونعى على المخلفين تخلفهم وإن كانوا مؤمنين . وكانت تلكم الآيات تتوجه إلى الذين دعوا للحروب للغزو مع رسول الله ﷺ، والحكمة في تربية الأمة أن تكون لطاعة لسانها في تنظيمها وفي علاقة الأفراد بالدولة، كما أن الحكمة تقتضي أن تتحصن الأمة بالعلم كما تتحصن بالقوة العسكرية.

وإذا كان دور الجند في الدولة الإسلامية الدفاع عن الأمة وعن الدين، وتمكين دعائه من لشده في العالمين، فإن التعمق في معرفة الدين وإدراك أسراره وفهم الفهم الصحيح، هو الذي يوحد الأمة ويفتح بصيرتها على الحق، ويعطي للجيش التصور الصحيح للمفاهيم التي يجاهد في سبيلها، مما يجعل ثباته وشجاعته أتم واكمل . فهما أساسان لبقاء الدولة: الجهاد، والعلم . وكما اخبرنا لحدما صغفت للدولة وأسرع إليها الزوال.

وجمعا بين هذين للركنين بنيت الآية : أنه لا يغفل أن يتمحض المؤمنون للجهاد جميعا . فتحرض الآية كل فريق من المؤمنين أن تتصرف جماعة منهم ليدرسوا للدين دراسة تمكنهم من الاطلاع على مراميهِ البعيدة وعلى مقاصده، وعلى تنظيماته وأحكامه، ليتولوا نشر المعرفة الإسلامية في أقطابهم عندما يعودون إليها، ويتولون القيام على تعليمهم وتنقيحهم، ويكشفوا لهم عن الحرام والحلال، وينفروهم عافية ثم ارتكاب المحرمات. رجاء أن يحذروا ملامسة ما حرمه الله، وأن يهتدوا بالقيام بما أوجبه عليهم.

إن تخصص طائفة في العلوم الإسلامية، ثم قياسهم بتصوير إخوانهم بعد بلوغهم مستوى القدرة على الإفادة والتعليم، كلاهما فرض كفائي تأثم الأمة إذا فرطت في ذلك. لقد رزت ولاية سيان في الصين وحضرت صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، وهو مسجد كبير يبلغ مع ساحاته أكثر من عشرة آلاف متر مربع، وتقدم الإمام ليصلي بالناس فكان ما قام به تمثيلية ليس فيها شيء من صلاة الجمعة ولا حتى من الصلاة . نتيجة للجهل، لما حالت الأنظمة بين الشعب وبين تخصص جماعة

منه لتفقه في الدين، فمضوا كل شيء، ولم يبق في قلوبهم وفي معارفهم إلا انتساب بحرصون عليه.

123- يا أيها الذين آمنوا سمع المتقين-

لما كان الإسلام في جوره ديناً عالمياً، ولما كانت الحكمة في انتشاره تقتضي أن يتوسع شيئاً فشيئاً، إذ تتمكن قوته ويتسع سلطانه كلما اقتربت لقطاره. ولذلك اهتم النبي ﷺ أولاً بتخليص الجزيرة العربية من الشرك، ثم كانت غزوة تبوك امتداداً للإسلام إلى أطراف الجزيرة من ناحية الشام. وصرحت الآية بهذه السياسة التي نواهاها النبي ﷺ، وحمل المؤمنون أن يقاتلوا الأطراف القريبة منهم، وهكذا كلما نشروا الدين في طرف، توجه الأمر لنشر الإسلام فيما يتلوه من الأرض. وبجانب هذه السياسة في أولوية الانتشار، دعاهم إلى التحارب على القتال تدريجياً يبلغوا به درجة القوة على الأعداء، بنفي عنهم الخوف والضعف ويمكن فيهم الجراءة والصبر والشدة في حملاتهم، شدة ترهب أعداءهم، ثم هزمهم لينتقلوا الوصية للقبيلة بعقول متفتحة، بقوله: واعلموا: أن الله يساعد المتقين، ويفتح لهم أبواب النصر، ويزيدهم في جهادهم، ولا ينزكهم لغرلتهم فقط. فليحرصوا على التمسك بالقوى.

124-125، وإذا ما أنزلت سورة... وهم كافرين-

تتابع هذه السورة كشف أحوال المنافقين، وفساد دخلاتهم، ذلك أنهم إذا أنزلت على رسول الله ﷺ سورة من القرآن، رأيت أعين المنافقين ينظر بعضها إلى بعض: وبعضهم يهمس إلى من كان في جواره فلاناً: أيكم زلّته هذه السورة إيماناً؟ استهزاه مذهب بما ألبيته القرآن أن المسلمين يزداد إيمانهم وضوحاً، كما يزداد بالوحدات التي يؤمنون بها، كما يرداد فيظلم بأولات الله المنكوة عليهم، قال تعالى:

(وإذا تليت عليهم آياته زلّتهم إيماناً) ١.

ثم تولى القرآن الرد عليهم مبرراً جهلهم نعم، إن السور تزيد في قلوب البشر ما يتناسب مع ما استعملوا إليه زيادة متعاكسة. أما الذين تغتحت أرواحهم بالإيمان فتزيدهم إيماناً على حسب ما أوضحناه، ويصحب هذه الزيادة أن يعم البشر كيانه، ولما الدين انحرفت عقولهم وسامت بدخلاتهم وفقدوا للصحة العقلية وتمكن منهم المرض الروحي، غرلتهم كفراً إلى كفرهم وتراكمت القذورة في كيانهم، وصحبهم ذلك الفساد والكفر إلى آخر لحظة من حياتهم.

126- أولا يرون ..ينسكرون.

ما لهم صموا ولم يحطوا، فقد توالى التنز عليهم، فانه بسلاط عليهم كل عام الغتن في الأنفس والأموال. مصائب من الأمراض والجوائح ونقص الذرية، ولتكشاف أمرهم بما يظهره القرآن مما يبالغون في كتمه والظهور بخلافه، وكل ذلك يوجب الوقفة ثم التوبة، لو كانوا ينكرون ويتغدهم المواعظ.

127- وإذا ما أنزلت سورة...لا يفتقروا.

هذه آخر آية في سورة التوبة تفصح المنافقين وتهك ما سقروا، وتسميهم بأن الله مطلع عليهم. فإذا أنزل الله سورة تكشفهم وتعلن شيئا مما تحدثوا به في خلواتهم وديروهم فيما بينهم، وأطلع القرآن عليه الرسول والمؤمنين، تحيروا وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض مما تكتب عنه خائفة الأعين من العجب، كيف لتكشف سرهم، من الذي كتمه، وأخذ كل فرد يسأل المناق الأخر هل يراكم أي شخص ليس منكم قيلغ عنكم ؟ ثم انصرفوا عن المجلس وحيرتهم مصاحبة لهم، لقد صمروا الله قلوبهم فلم ينعها بالتوفيق ولا يمنع ما يحول بينها وبين الاهتداء، وذلك لكون عقولهم محدودة النظر، قصيرة التأمل، لا تنفذ إلى ما وراء الظواهر، فائدة للغة.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا يَنِفِرُ خِصْمٌ عَلَيْكُمْ
بِأَلْسِنَتِهِمْ رِئَاسَةً لِّمَن يَشَاءُ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَأَنَا عَلَيْهِمْ أَعْيُنٌ

بيان معنى الألفاظ :

جاءكم : توجهت إليكم للدعوة.

من أنفسكم : تعرفون نسبه فيكم، ليس غريبا عنكم ولا لصيقا.

عزير عليه: يجد شدة على نفسه وقلا.

ما عنكم : وقوعكم في الشدة والتعب.

خويسر : شديد الرغبة في إيمانكم.

رؤوف : رقة في القلب

رحيم : يحسن للمرحوم.

الدونى : الإعراض.

حسبى الله : الله يكفينى شركم .

بيان المهتم الزجمالي :

نشأ من الله على نبيه وتوحيه به، وإيقاظ للبشرية للمنة ببعثه. فهو رسوله معروف منبه، جريتموه فما رأيتم إلا كمالاته. قلبه الكبير بكم جميعا، وبأسف لكل ما يلحقكم من تعب وأذى. لا يألو جهدا لهدايتكم، يراف بكم ويشارككم أساكم، ويحمل قلبه الرحيم حب الخير لكم .

فإن أعرضوا عنك وثبتوا على ما كانوا عليه من الشرك، وأخذوا يخبرون لك للمكائد، فقل لهم : الله يكفيني أمرى ويكفيني مكائديكم، فأنا متوكل عليه، ومن يتوكل عليه لا يضربه مكرهم، فهو رب العرش العظيم. ولا يوجد في الكون مما حوته السماوات والأرض ما يقارن بالعرش العظيم .

بيان المعنى العام :

128 129، لقد جاءكم رسول-سورة رب العرش العظيم -

ختمت سورة براءة بهاتين الآيتين. وتضمنتا :

أولاً: شهادة من الله بما جمعه رسوله ﷺ من صفات الكمال الإنساني، بحق على قلوبها أن يفهم مثلاً في كل صفة من صفاته، ليرى مثلاً من المسمو الإنساني اجتمع فيه ما تفرق في غيره ولم يبلغ أي بشر مبلغه .

(١) مدة الله على العرب، ثم على البشرية جميعها، أنه بلغتهم دعونه التي بينت الحق وهتت الناس، ورفعت الحيرة، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور. وصلتهم فضلاً من الله دون أن يبدلوا فيها جهدا .

(٢) من أنفسهم : ليس غريباً عنكم تتوفون في مقامه وفي أخلاقه وفي سلوكه، عرفتموه فالكشف لكم عن صدق وعن فضل وعن أمانة، وعن استقامة، وعن ترفع عن السقاسف، فهو من خياركم نسباً، ويسائر هذا المعنى قراءة (أنفسكم)

(٣) عزيز عليه ما عنتم : يؤلمه ويقل عليه، أن تحل بكم مشقة لو يلحقكم تعب، فهو لا بدعوكم إلى ما فيه مشقة وعسر، بل كل ما جاءكم به ودعاكم إليه ميسر تحقوه يزيد حياتكم رخاء وفضلاً .

(٤) حريص عليكم: هو لا يكتفي بأن يبلغكم ما أوحى إليه ثم يسركم، ولكنه يتابع بالتوضيح والبيان، وتكرار الدعوة ليوقظكم إلى ملازمة الهدى، ويتابع أحوالكم المعيشية وينال من كرمه وسخائه المحاويج، ويرعى ضعفاءكم .

(٥) رؤوف : يرق قلبه لأي ألم يحل بكم، فيجد كل من يتصل به من معالي أخلاقه ورقة قلبه تلطيفا لما حل به. وفي الرأفة شعور الطرف الآخر بمشاركة وجدانية.

6) رحيم توصف أعم من الرأفة، فالرحمة تشمل القريب والبعيد، وتدل على شموله من العنف ورفض له.

ثانيا : إعلان التأييد الكامل لرسوله : إنه بعد هذا التشاء من الله العظيم، وتبعاً لما يستقر في النفس وهو يتابع الأوصاف النبيلة تترى، فإنه يحق ويجب على كل من شاهد هذا المثل الأعلى مجسداً في محمد، أن يؤمن به وأن يدخل في الدين الذي يدعو له وأن ينصره.

وتوجه القرآن إلى النبي ج : لا يضرك أمرهم إن تولوا وتمسكوا على الكفر، وكون وانقا من رفيع مقامك وصدق ما جئت به، وقل لهم كلمة فاصلة: حسبى الله . هو ربي يكفيني كيديكم وما يدفعكم إليه الحميد، لا أتوكل إلا عليه فهو الذي يستعني بالتوفيق لنشر الدعوة، وحر الشرك، والنجاح في مهمتي، مما يعبر عن سعة الملك، وذلك يزيد في كسدهم ويشد أزرك، فإنك تستند إلى الله المتقود بالأوهية، رب العرش العظيم، وفي التذكير بكونه رب العرش العظيم ما يفيد الاستهانة بما يدبرون، فما هم إلا شيء، ناله أمام العرش العظيم الذي هو أعظم مخلوق.

22 جمادى 1432 - 2011/4/26

سورة يونس

لقد كتبت المصاحف وكتب المسنة على تسمية هذه السورة بسورة (يونس) الرسول الذي كتبه قومه ثم آمنوا قبل أن يعاجلهم الله بالعقوبة فعفا عنهم كما سنكتبينه عند قوله تعالى: **(إِنَّا نَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا فَكُنَّا عَنْهُمْ ضَالِبِ الْخُرَى)** آية 98

وهي سورة مكية في مجموعها واختلف في بعض الآي فروي ما يفيد أنها نزلت بالمدينة وعند آياتها : 109 آية، ونزلت في النزل الحادية والخمسون. نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود، وهي العاشرة حسب ترتيب المصحف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ ۝ أَكَانَ لِلنَّامِ عَجَبٌ ۝ أَنِ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نَجَارٍ أَنَّهُ أَنْذِرِ النَّاسَ وَفِيهِ الَّذِينَ ۝ آمَنُوا أَن لَّهُمْ قَدَمٌ مِّدْقِي عِندَ رَبِّهِمْ ۝ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّخِرُ لَبَشِيرٌ ۝ نَزَّلْنَا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۝ بِسْمِ اللَّهِ ۝ ثُمَّ أَسْتَوْفَىٰ عَلَى الْفَرْشِ ۝ يُذَكِّرُ الْأَمْرَ ۝ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝ ذَلِكُمْ اللَّهُ ۝ رَبُّكُمْ ۝ فَاعْبُدُوهُ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَهُهُ تَرْجِعُكُمْ فِيهِمَا ۝ وَعَدَ اللَّهُ خَقًا ۝ فَاعْبُدُوا ۝ الْحَقُّ ۝ فَاعْبُدُوا ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝ بِالْبَسْمِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ۝ لَهُمْ عَذَابٌ ۝ بَشِيرٌ ۝ وَهُمْ فِي عَذَابٍ ۝ أَبَدٍ ۝ وَمَا أَتُوا بِمَكْفُورٍ ۝

بيان معنى الألفاظ :

الكتاب : القرآن.

عجوبة : خارجا عن المألوف يثير ذهن بحثا عن حقيقته.

مدق : أصل الصدق موافقة الشيء للواقع، ويراد منه مصادقته المأمول منه المرضي.

السخر : تخيل ما هو غير واقع واقعا.

يقيم : التدبير هو النظر في عواقب الأمور وما يحف بها من مؤيدات أو معوقات.

التذكير : التأمل في الحاصل الذهني مطابقا ليرتقي به إلى ما يلزم عنه.

المسط : العدل.

عذاب : شديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بثلاثة أحرف - ألف - لام - ر - : تنبهوا إلى آيات الكتاب الذي ينرس في قلوبكم الحكمة. لقد عجب المشركون أن يتخير الله من بين البشر رسولا لوحى إليه لينبه الضالين من سوء العاقبة، وليبشر المؤمنين الصالحين أن الله كتب لهم في اللوح المحفوظ مكانة رفيعة ثابتة عند ربهم الذي اعتنى بهم فوقهم، تحير الكافرون من اختصاص الرسول، البشر بتبليغ وحى الله، فرموه بالمحرر .

اعلموا أن الله ربكم لا إله غيره، هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش منصرفا في خلقه، يدبر شؤون العالم كبيره وصغيره، لا يستطيع أن يقدم أحد بين يديه بالشفاعة في مقصر إلا بعد أن يصدر له الإذن بالشفاعة، المتعالي العظيم هو ربكم لا إله غيره خصوصه بالعبادة التي هو حقيق بها، ما لكم لا تتعفون فيما تدفونكم به فطرنكم من حقائق كاملة في بنائكم العلى.

إنكم ستعودون إليه جميعا لا يفلت أحد من هذا المصير، هو وعده الحق الذي لا يخلف، من حكمته أنه بدأ الخلق وأظهره للوجود، ثم يعيده إليه كما خلقه، إن ذلك هو مقتضى الحكمة حتى لا يكون الخلق عبثا لا يسير إلى غاية، بل هو جزري للذين ظهرت بواسطهم بالإيمان وعملوا بما يقتضيه إيمانهم من تطبيق لأحكام الله، سيوفهم أجورهم بالعدل، وأما الذين كفروا فقد أعد لهم سريابا يغشى كاشد ما تكون للحرارة، ويصحنه عذق نفسي وجسمي يبلغ غاية حدود الأثم.

بيان المعنى العام :

1- الر لكك آيات الكتاب الحكيم،

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقرة، وما ذكر هناك ينطبق هنا، وتطلق هكذا: ألف - لام - ر - مفتوحة بدون مد.

تتألف هذه الحروف فيه إشارة دالة على كون القرآن المركب من هذه الحروف معجز، هي الحروف التي تتصرفون فيها، وأنتم الأمة التي من أعظم مزاياها قدرتها على البيان، وبسج الكلام الفصيح المتمتع، إنه إذا رفعت عنكم عناد تدعون ولا شك بأن هذا الكتاب من عند الله، وقد تحذاكم، ولم تستطيعوا أن تأثروا بسورة من لطراز الرفيع الذي جاء عليه، كما يدل قوله: **تلك آيات الكتاب الحكيم** مع أن القرآن تضمن من المعاني والحكم والتشريع ومن الحقائق ما يدل على أنه من عند الله، إذ لا يتأتى لرجل شيء أن يأتي بذلك من عنده، وهو كتاب حكيم بالنظر إلى أنه حلّم على ما سبقه من الكتب يفر ما أراد الله إقراره بولسطه، ويصحح ما دخل

فيها من تحريف، وينسخ ما أولاه الله توقيف العمل به، كما أنه يكسب من تدبره وتأمل في مضامينه، حكمة ومثلاً في النظر،

2- أكان للثامن عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم -سابق هذا المحرمين-

لماذا تمكن العجب من المشركين؟ الأنهم وجدوا أن الله القادر على كل شيء، قد أوحى إلى رجل غير غريب عنهم يعرفونه معرفة تامة، خبروه فوضوا أخلاقه واستقامته؟ وما للذي أوحى به رب العزة لهذا الرجل؟ أوحى إليه لمؤمن

(1) أوحى إليه ما يدل على عناية الله بالإنسانية بما يشمل إبدانهم بتبسيهم إلى ما يترصد من خسار وموه منقلب، إن هم ملكوا طريق الضلال.

(2) ولوحى إليه أن بشر الذين آمنوا بك وصدقوك واتبعوا النور الذي أنزل معك، أن الله قد كتب لهم عهده، فتحقق ما قدم لهم في سابق علمه من الخير والسعادة، في اللوح المحفوظ.

بلغ بالكافرين العجب فتحيروا في إدراك سر للوحي، ونظروا من زوايا الرفض والعدا فقالوا: إن ما جاء به سحر به لا شك فيه، وذلك أنهم قد عابوا أن هذا الوحي الذي لوحيه قد نفذ إلى العقول فلماها على طريقة جديدة، وحولها من منهج الأسطورة إلى منهج يرفض الأسطورة، ونفذ إلى العواطف والسيول فربطها بقيم خلقية جعلها تفكر لما كانت تقيم عليه حياتها وتعودت عليه من قبل، إن هذا الوحي الذي خلق من الإنسان الجاهل إيماناً مختلفاً عما كان عليه من قبل، لا يكون إلا سحراً، زعماً منهم أن السحر يؤثر في عقل المسحور ويقلب ما كان ثابتاً في نفسه قبل تدخله، ومن ضلالهم: أن السحر يهدف إلى الإفساد وتزييق الأوصار الجامعة، وهذا الدين يدعوهم إلى الخير والاستقامة، وإلى ما يوحد بينهم، ويحميهم من عادات الاختلاف الممزق.

3 إن ربك الله الذي خلق...أهلنا نذكرون-

تأكدوا أن الذي تولاكم بالإيجاد والإمداد هو الله لا إله غيره المتفرد بالخلق، خلق السموات والأرض وهذه حقيقة لا يستطيع المشركون أن يجعلوا لألهتهم دخلاً فيها، وما عجب خلق السموات والأرض (في حجة إمامهم لسوء على العرش) تقدم بباله في تفسير الآية -54- من سورة الأعراف.

ثبت القرآن عجب خلق السموات والأرض والأكوان أنه هو المتولي تسييرها وتدبير ما حوته وما بث فيها من دابة، وهو ما يبطل ويرد على الذين يزعمون أن

الله خلق الكون، وأعطاه توليس سيرة، ثم تركه يسير ويتقلب في أحواله منفصلا عن التأثير المباشر لعزته.

كما بطلت الآية أيضا ما يعتقد المشركون: أنهم لا يخشون العقاب لأن آلهتهم ميتولون الدفاع عنهم ويشفعون لهم في نصيرهم عند الله فيسلمون، ففتت الآية أن يتقدم أي كان للشفاعة بين يدي الله، واستتلت ما أخبر به الله من الشفاعة لمن يأن له في الشفاعة، وقد اختص محمد ﷺ بالشفاعة العظمى في أهل المحشر، والشفاعة الخاصة لأمة.

إن الله الذي هو ربكم، وتولاكم فخلقكم، ويسر لكم الهداية على لسان رموه، ورزقكم، هو الحقيق بأن تزدوه بالعبادة، فاعبدوه. انظروا في الحقائق الكاملة في نومكم وتاملوا فيها، سوف تهديكم إلى إفراجه بالعبادة سبحانه. فطركم تنادي بأن الله هو المسحق أن يقرب إليه وأن يعبد.

4. إليه مرجعكم جميعا، وعدنا آية بما كنتم تكفرون.

إن الكمال الإلهي يقتضي له ما خلق السموات والأرض وما فيها عبثا وباطلا، ولكن هذا الخلق مينهي إلى امد له الذي قدره له فتظهر حكمته، وصرح في هذه الآية بهذا المعنى. يستعدون إلى الله وحده، لا شريك له، فكما أنشأ كل فرد منكم ومكنه من مقومات الحياة الجسمية والعقلية والروحية، ثم سلب ما أعطاكم عند ما أراد، فكنلك سيرجكم إليه لا يفت من هذا التقدير أي كائن. تأكدوا من هذا المصير فإنه وعد الله الحق الذي لا يتخلف.

من مقتضيات حكمته في الخلق، عندما أحدثه له مبعود إليه، هذه الحكمة التي أصبحت عنها الآية نضمنت جزاء البشر المخلوقين وسيكون الجزاء على قسمين:

أولا: الذين جمعوا بين صفاء العقيدة، فأمروا بالحقائق التي يقتضيها قانون العقل في الخلق والتصرف وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال، ومن بعثة الرسل وما أخبروا به من المصنوعات التي لا تناقض العقل ولكن لا يستطيع أن يصل إليها بامكاناته. وبين التطبيق العملي الصالح لما تلقوه عن رسل الله من السلوك الرضي. إن الله سيجزيهم بآمنهم وبصالح أعمالهم جزاء عادلا لا يهمل أي خير صدر عنهم صغيرا كان أو كبيرا. وفي الإشارة بالقسمة العدل، زيادة تكريم للمؤمنين الصالحين، إذ الموعود بالنعمة تكون أتم عندما يجد المجزي أنه كان في حياته محفوا بطابه ربه الذي يحسب له كل أعماله ويجزيه عنها يوم القيامة، وأن حفظه في الجزاء مع الكرم الإلهي موفور.

ثانياء الذين كفروا بربهم ولم يذعنوا لما مكنهم من الآيات الظاهرة في الكون ومن الهداية عن طريق رسله، جزاؤهم شراب يفسى فسي بطونهم. وقد تقدم نظيره في الآية (70) من سورة الأنعام. ويصحب ذلك الشراب عذاب خاصته: أنه بولم أشد الألم، ولشاه بما يشمل الألم النفسي والجسمي. تلك جزاؤهم بما استمروا عليه من الفكر كامل حياتهم.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّةَ الْبَاقِينَ
وَالْجَنَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُصَلِّى الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي
أَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ الْآخِرَةِ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِرُحْمَتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٤﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَعْيَتْهُمْ لَيْلًا عَسْفًا وَآخِرُ
دَعْوَتِهِمْ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الضياء : النور الساطع القوي.

المنازل : مواقع القمر التي يبدو فيها كل ليلة من كونه هلالا إلى المحاق.

لا يرجون : لا يتوقعون.

اطمأننوا بها : سكنت نفوسهم لها فلا تتطلب شيئا وراءها.

ماواهم : المأوى مكان الرجوع، للمصير.

يهديهم : يخلق فيهم ميلا إلى الخير.

الدعوى : الدعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

من تدبير الله لأمر الكون، أن خص الشمس بضياء وجعل القمر ضياءا تفلذ أشعتها ساطعة في الأرض وما حوته، مما يبعث على النشاط، وجعل القمر ضياءا لا يزجج الإنسان عندما يعول إلى السكون. وقد سيره في منازل ثابتة لا تتغير بمضى الأيام. واللهم البشرية الاستفادة من هذا الضبط المحكم، فهداهم بذلك إلى استنباط معرفة التاريخ

في علاقاتهم. وتكونوا من معرفة الحساب بواسطة هذا المرحح الدقيق. وكل ذلك يدل على أن الله هو الخالق المحكم لما صنع. صنفهما ملتبس بالحق الذي لا يدخله القابل ولا العيب. مما ينبه العقين إلى ما أودع من آيات في هذا التسيير.

إن الكفرة الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلى ربهم ليحاسبهم، وجعلوا كل همهم في الحياة الدنيا وقصروا نظرهم عليها فلا يبهون شيئا وراهما، واضلوا إلى ذلك أنهم غفلوا ولم يتأملوا في الآيات المثبتة للمخلوق، إن مصيرهم إلى النار جزاء بما تواصل منهم من عقيدة فاسدة وعمل خبيث.

وفي المقابل فإن الله يمن على المؤمنين الذين عملوا بما يرضى الله عنه، فجعل في عقولهم حبا للخير والعمل للصلاح، ينصرفوا إليه تلقائيا، ويجزيهم جنات تغلها الأنهار. جمعت كل ما يطمحون إليه، فلم يبق لهم إلا التمتع بدعاء ربهم مسبحين. يشيع السلام بينهم، ويختمون بالثناء على فضل رب العالمين وعلى جلالة.

بيان المعنى العام .

5- هو الذي جعل الشمس ضياء - ففصل الآيات فتقوم يعلمون.

لفت القرآن في الآية الثالثة من هذه السورة إلى حقيقة؛ هي أن الله يدبر الأمر في هذا الكون الذي خلقه. وصرحت هذه الآية بمظاهر التدبير المحكم في الكون الذي خلقه بفصل ذلك في تقديره أن جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نورا، يتعاقبان على الكون بصفة تامة. وهما ظاهرتان متكررتان على الناس في تسابع تكاد رتابته تجعل الإنسان غافلا عما في ذلك من دلالة على الخالق وعلى إكماله.

ترتبط بضياء الشمس الحياة كلها من الحرارة المناسبة للتكوين والنشاط الإنساني، إلى ما تنتجه الأرض، إلى تغذية المحيط من الثلوث، إلى ما يرقبه العالم من الانتفاع بهذه الطاقة المتجددة النظمية المنبثقة من الشمس. وتجد في المقابل القمر فيه ضياء متغير لا يزجج الإنسان فيحرمه الهدوء والراحة. وظاهرة أخرى، أن الله قدر سير القمر منكملا في منازل، يبدد كل ليلة من ليلتي الشهر في منزلة ثم ينتقل منها إلى منزلة أخرى إلى أن يبلغ تمام مسيرته، ليعود للظهور من جديد، وبذلك يتم للشهر لقمره. وتحل الشمس في بداية كل شهر من السنة في برج، تتبعها الإنسان فوجدما لا تتغير، وعلم منها بداية السنة الشمسية ونهايتها والفصول وما يرتبط بها، وخاصة في النواحي الفلاحية. وكان لهذه الحركة في كوكبي الشمس والقمر تأثير على الفكر الإنساني وعلى الحضارة كلها إذ ضبطت بذلك الحركة حياته وعلاقاته في عهده وفي نشاطه في الأرض. وضبط التاريخ الماضي والمستقبل، وكان ذلك منهما له لضبط تقديره الذهني والمعرفي بالحساب.

هاتان الظاهرتان تمران بالإنسان في رتبة جعلته قد بفعل عما في ذلك من التدبير والحكمة. ولذلك ليعطت الآية الإنسان ليتدبر في الحكمة الإلهية في الخلق، وأن يتأمل ولا يمر في غفلته ساهوا، وأن الباطل والزيف والمصانعة لا متخل لها في هذا للنظام. وبهذا الفت فتصل وبين ما في ذلك من الآيات الدالة على أن كل أمر قدرة تقدير في سابق علمه، ونفذه على ما اقتضته تلك الحكمة، وهو ما يؤكد الأمر السابق: [فاعدوه] وهذا التمهيد لا يستعيد منه إلا الذين رفعوا عن بصائرهم حجاب الغفلة فساروا في الحياة متأملين في كل مظهر من مظاهرها، متعمقين في الأسباب ومسبباتها، وبذلك يتجدد لهم العلم وينمو ويتعمق الإيمان ويزكو.

6- إن في اختلاف الليل والنهار.... تقوم يقفون.

يتعاقب الليل والنهار على الكون، ويتكرر ذلك كل أربع وعشرين ساعة في النظام لا يخل، الليل والنهار. ويمر الإنسان بهما غافلا عما في ذلك من التدبير والإحكام البالغ الغاية. فأدق ساعة صنعها الإنسان وكانت نتيجة مجهود علماء كبر، وفنيين مهرة، لا تتنظم بصفة دائمة بل بلحقها للتعطيل. وتفقد لضبط. والليل والنهار مصبوطان بأربع وعشرين ساعة لا يلفص أمددا ولا يزداد حتى أقل ما يتصور من أجزاء الثانية. ملايين السنين في الماضي والمستقبل إلى أن يفتر الله زوالهما، وفي ذلك آية من آيات الخلق الإلهي والتصرف الحكيم. وبجانب هاتين الظاهرتين مخلوقات لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، تتأثر بالليل والنهار وتعمل بما يحيط بها وتدبر في طريقها المرسوم لها حسب السنين التي أعطاها. عرف الإنسان بعضها منها وما هو محبوب عنه كثير. وهو ممكن من ضبط ما أجزاها عليه خالقها ممن هو النور. والتفوى تجعل الإدراك لهذه الآيات يتعمق بالشعور الموصول باستحضار أن يد القدرة الإلهية تخلق وترتب وتنظم.

7- إن الذين لا يرجون لقاءا... بما كانوا يحسبون.

صرحت الآية بالنتيجة التي تعب موقف المعرضين عن التدبر في الآيات المنتشرة في كون الله القريبة من كل ناظر. والكامنة في أجزائه. أبرزتهم وقد انصفت بهم خصائصهم التي دمروا بها أنفسهم وهي تشمل:

- 1) أنهم لا يتوقعون أن يعيدهم الله بعد موتهم ليلقوا جزاءهم عنده. فهم لذلك لا يلتفتون إلى ما وراء الظواهر الكونية من تدبير حكيم، وخالق عظيم.
- 2) أنهم رضوا بالحياة الدنيا فكانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، فوفوا بنظرهم عليها، وحسبوا أنها البداية والنهاية. فسكنوا لها. وقصر تفكيرهم وعملهم عما وراءها فلم يعرفوا له

مر : مضى في طريقه غير ملتفت إلى ما سبق منه.

الإسراف : الإكثار في شيء غير محمود.

الإهزاء : الإهانة.

الفزون : جمع قرن القوم المقترون في زمن واحد.

البيئات : جمع بيئة وهي للحجة الواضحة على الصنق.

لننظر : لنعلم علما يتطابق فيه العلم الأزلي بالعلم للتجيزي

بيان المعنى الإجمالي :

أهل الله للكافرين ولم يعاجلهم بالعقوبة، فصرخوا : (إنه لو كان الإسلام من عند الله، ونحن قد كفونا به) لمجل لنا العقوبة، فعدم تعجيل العقوبة دليل على أنه ليس من عند الله حسب زعمهم. كما أن المؤمنون استكبروا إهمال الكافرين وعدم معاجلتهم بالامتثال، فكان الجواب في الآية واضحة : إن الله قد رتب أمر الخليفة على نظام أحكامه في سابق علمه، ولم يبن أمر الحياة الدنيا على المبادلة السريعة، بل على أطرافه وفضله وإهمال المسرف للتوبة والرجوع إلى الحق، وهذا ما نشاهدونه، فم كمال الأمر على ما تصورون لخرب الكون، ولكن حكمته تعالى اقتضت إهمال الذين لا يتقنون البعث فتركهم يسبزون في طغيانهم متحيزين.

ومن شأن الإنسان أن يشعر بالحاجة إلى العون الإلهي بمجرد ما يمس به ضرر بشي أو نفسي، فيدعو ربه سواء أكل الضرر تقبلا لزمه الفرائض، أو خفيافا بقي معه جالسا أو منتصبا قائما، فإذا لطف الله به وشفاه نسي ضعفه السابق، وعلى هذا النحو يزين الشيطان للكافرين أعمالهم.

والله قد استأصل شعوبا من قبلكم، بسبب ظلمهم، بلغنكم أحبارهم، وبعد أن أرسلت إليهم رسلي مؤيدين بالآيات البيئات الواضحة على صدقهم، لم يؤمنوا، وعلى ذلكم النحو نجزي القوم الذين تأصل الإجرام في نفوسهم. وفتبها فقد منأا عليكم بأن مكناكم فجعلناكم خلفاء لهم في الأرضي التي كانوا يعمروها، وسنقوم ما تقومون به لتجرون عنه جزاء عادلا، لا يستوي فيه الخبيث والطيب.

بيان المعنى العام :

١١ ولو يجعل الله للناس الشروع في طغيانهم يعمهون.

دعوة بيئة ربطت الإنسان والكون بالله، نادى بها رسول الله في فم الدنيا، وما تزال تتردد أصداؤها تسير مع الحق ويمير الحق معها، ولو رفع البشر عن عقولهم الكبر والعناد، لما بقي فرد يعادي ذلكم النداء المستجيب للظفرة، الفاتح للبشرية

متأذٍ للرقى والسلام. قابل المشركون تلك الدعوة بالرفض والتعدي، وحججهم عن الحق تصور ساذج: أنه لو كان الدين الإسلامي حقاً من عند الله، وهم قد كفروا به، لعجل الله عليهم عذابه واستأصلهم. كما جاء في قوله تعالى: (وَلَوْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كُنْ عَذَابُكَ حَقًّا فَامْطَرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ ...)¹.

كما أن المؤمنين لاحظوا أن كثيراً من الكافرين يتعمون مترفين في الحياة الدنيا، سلمت لهم أيدانهم ونريتهم وأموالهم، فاستبصاراً نزول العذاب عليهم. فعرفت هذه الآية الغريبيين بقانون الله في الكون: أن الله لم يبن الكون على تقابل سريع بين الشر والعذاب، وأن رحمته والطاقه هي الظاهرة الغالبة في الكون، وأن ما سبق لتصور الغريبيين منالض لتكبير الله في الخلق. سجل القرآن، أنه لو يجعل الله للناس الشر الذي يطلبوه تجعلهم الشديد لتحقيق الخير الكثير في تقدير الله، لأنهموا من الوجود، أي بمجرد ما يرتكبون الشر. ولكن الله قدر أن يبقى للكون والبشر إلى أجالهم المفتره لهم. وبناء على أنه لا يتحقق في الكون إلا ما قدرته في مسابق عظمى، فإني أنا الله أبغى الذين لا يتوفعون أن يعودوا إلينا لحسابهم على ما قدموه، أبقئهم في ضلالهم وكفرهم سائرين. يتخبطون لا يتبينون طريقاً بنجهم.

12- وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ الضَّرَّ بِمَاذَا... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

كشفت الآية عن طبيعة من طابع الإنسان إذا أطلب عليه الكفر، إن الإنسان الكافر إذا ضربه مما يؤلمه لنفسه أو جسمه، أسرع بدعاء الله لينقوى على الحدث المولم، كيما كان حاله عند نزول البلاء، سواء أكان على جنبه، أو جالسا، أو منتصباً قائماً. هذا ما فهمه معظم المفسرين.

والذي ترجع عندي أن قوله تعالى: دعائنا لجنبه يشمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى قريباً منه، دعائنا للكون عنده نمده بالعون والرعاية والتلطيف. وثانيهما أن يكون القصد منه وهو على جنبه الحالة التي هي إحدى حالات الإنسان الثلاث.

ثم إن هذا الإنسان الكافر، إذا نعلقت لإرتقا وقدرتنا بإزالة ما به من ضرر، وعوفي بعد ما كان يشعر بالضعف، يتحول كانه ما لقي ضرراً ولا الماء، وكأنه ما كان محتاجاً ضارعا. وعلى هذا النحو من التسلط الشيطاني على النفوس التي بعدت عن الاعتدال ومالت إلى الإصراف، يتسلط علوها بإضلالها وإغوائها وطمس الحقيقه عنها، فيفقدون سلم القيم، وينقلب الفبيح حسناً تألفه نفوسهم، والحسن قبيحاً تنفر منه.

13- ولقد أهلكنا القرون من قبلكم... تجزى القوم المجرمين.

سنة من سنن الله في تكميله بالقوم الظالمين، نفوس شاهدة على ما ذكرته الآية السابقة: (ولو يعجز الله للناموس...) إذ من الأخبار التي كانت شائعة عند المشركين من أهل مكة: أن الله أهلك أمما في فترات سابقة، تقدمت في تاريخ الإنسانية، وأن استئصالهم وإفناءهم كان بسبب ظلمهم، والشرك ظلم عظيم. وما سلب عطيتهم عوبته إلا بعد أن بعث لهم رسلا من عنده، قوى جانبهم ورفع المعازير عن قومهم، بما أيدهم به من حجج واضحة بينة قامت شاهدة على صدقهم. ومع ذلك كابرُوا عداوا ولم يؤمنوا، فكان استئصالهم جاريا على سنن الله في إهلاك القوم المجرمين، وفي ذلك إنذار للمشركون أنه سيحل بهم من العذاب ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم.

14- جعلناكم خلائف... فكيف تعلمون.

ثم بعد استئصال القوم المجرمين من الأمم التي أهلكت في جزيرة العرب، مكلّام من أن تخلفوهم في ديارهم ومساكنهم، ليكون ما يقومون به من أعمال مفضيا بكم إلى النتيجة العادلة. إن علمه سبحانه لا يتغير، فمن كان منكم قاضيا في علمه الأزلي، وعمل صالحا إذ لا يقع إلا ما تقرر في علمه القديم، يجزى حسب ما قدم من الخير كما هو في سابق علمه، ومن ضل ولم ينظر في مال القوم الكافرين من قبله، وسار على طريقهم الضال، فإنه يعاقب عقوبة عادلة.

وَإِذَا نَقَلَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا نَسْرُ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنَّهُ بِقَرَّةٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلًا فَلَا مَأْكَورٍ لَّهُمْ أَوْ بَدَلًا مِنْ بَلَاءِهِمْ قَسِيٍّ إِنَّا أَنشَأْنَا نَحْنُ الْإِنِّ أَخَافُ إِنَّا عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَلَا تَوْفَاقَ اللَّهُ مَا لَوْ أَنَّ عَلَيْهِمْ وَلَا أَدْرَكَكَ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِمَّنْ قَلِيلًا أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤﴾ قَمَرًا أَظْلَمَ بِمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ ﴿١٥﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ قُلُوبُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ عِنْدَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ أَفَلَا يَعْلَمُونَ السَّمْعُونَ وَلَا يَرَوْنَ أَعْيُنُهُمْ وَتَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾

وبيان معنى الألفاظ،

بطله : غير.

من ثغاء نلسي: من حجة نفسي.

أطيع: لا ألتصرف فيه بأي تغيير.

التلاوة: قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ.

أرأيتكم: عرفكم.

التيبون: أتعلمون.

بيان المعنى الإجمالي:

سورة من صور معاناة الرسول ﷺ من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، إنهم إذا تلى عليهم القرآن، يكون ردهم أنت بفران آخر غير هذا الذي نسمعه منك، يفهم علينا مثل ما هو موجود في كتب الفرس، أو بدل ما تواجهها به من إبطال الهتاء، ومن إنذارنا سوء المصير. قل لهم إن القرآن الذي أولفكم هدايته ليس لي أن أعجز منه شيئاً، فإنا لا ألتصرف فيه وإلما أطيع ما ألقاه من وحى ربي. إلي مستحضر عظمة الخالق، فمن يكذب عليه ويعصيه لا يفلت من عقابه العظيم يوم القيامة. ثم أضف إلى ذلك إن ألتصرف بيد الله، فلو شاء الله أن يجرمني وحبه ما ثلوت عليكم القرآن، ولو شاء الله أن يجرمكم لحرمكم معارفه.

ثم إنكم قد عرفتموني أربعين سنة، فما كنت لباري الفسحاء، وتعلمون أنني أسي لا علم لي بتفاصيل الماضين، ولا بحقائق الكون. وهذا القرآن أمامكم معجز في لفظه وفي معانيه، أنيس لكم عمل يهديكم؛ إنه لا يوجد ظلم لساوا من ظلم الذين يكذبون على الله، أو الذين تصلحهم آياته البينة فيرفضونها، إن هؤلاء مجرمون. ومال المجرمين للخمارة الكاملة في الدنيا والآخرة.

إنه من فساد ملكاتهم، وسوء تفكيرهم أنهم يعبدون من دون الله أصناماً عاجزة لا تضر ولا تنفع، ثلما لما أوهمهم به سننها أنها تنفع لهم يوم القيامة، فلا يلحقهم بشفاعتها عذاب، فاعترفوا بأن بيد الله أمر الآخرة وعبدوا الأصنام، إن أوهمهم لا حقيقة لها ولا أصل، وعلم الله الذي يضبط كل شيء ضبطاً محكماً، ولا يغيب عن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض يشهد بأن ما ليقيموه من شفاعاة الهتهم لا أصل له. تتره ربنا وتعالى عن شركهم.

بيان المعنى العام:

15- وإذا تلى عليهم آياتنا جهنات، سعذاب يوم عقوبة.

تعرض هذه الآية تلدد المشركين، ونماذج مما عاها للنبي ﷺ منهم، فكانوا إذا عرض عليهم ما لوحي الله له من آيات القرآن البينة الواضحة، الالفة للعقول

الحبيبة للأرواح، قال الكافرون الذين لا يتوقعون حياة أخرى غير الحياة الدنيا، وينكرون البعث، قالوا: إذا كنت ترغب أن نسمع إليك فانت يقرآن غير هذا القرآن الذي نتلو على مسامعنا، تكون مضامينه مغايرة له، يؤمنون إلى أن يكون شبيها بما يسمعون من قصص الفرس وملاحمهم، لو بدل ما نقرع به أسماعنا من ترك ما نعبده ونقدسه، فتكى عليهم، ومن تحذيرنا سوء المصير بالبشارة وفتح الآمال، وفي كلامهم إنكار واضح لكون القرآن من عند الله.

كأن الجواب قاطعا رفعا لتوهمهم الذي بنوا عليه سؤالهم، مضمونه: إن هذا القرآن هو كلام الله وليس لي أي دخل فيه، فأنا غير مخول أن أتصرف فيه أي تصرف، ألقاه من ربي، وأبلغه كما أوحى إلي، دون أن أزيد فيه أو أنقص منه، أو أحول لفظا من ألفاظه أو معنى من معانيه، فأنا متبع أمين على ما أوحى إلي، أرفعوا عنكم هذه الأوهام، ذلك أنني أخاف أن تجاوزت ما أنا مكلف به من التبليغ الصادق، أن يسلب علي عذابي يوم القيامة الذي يكون عذاب الكذبة على الله فيه عظيما يسوق الوصف، إنه لايفلت الكلاب على الله من العفوية.

16- قل لوشاء الله ما تلوته....أهلا تعقلون.

أرغبت الآية حجة أخرى تدفع شبهات الكافرين المماندين، مضمونها: إن الله المتصرف في الكون هو الذي يسر لي المقام الذي التخبيني له، ومكنني من تلاوة آيات كتابه عليكم، ولو تعلقت إرادته ومشيئته أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لاستحال علي تلاوته، ولو تعلقت مشيئته بإيقانكم على ضلالكم لما أوحى إلي ما فتح به العقول ولا عرفكم به (أو لا إدراك به) بل لما أرسلني وواصلت حياتي على النحو الذي تعرفونه مني طيلة عمري الذي لقمت بينكم ولتم ترقيوني، فما كنت يوما في الأربعين سنة التي قضيتها بينكم من المتباشرين في القول والبيان، ولا من دعاة الإصلاح وعرض الدعوة إلى الله، ما لكم لا تتدبرون ولا تتأملون بما يقترح عقولكم فحما يوجب عليكم أن تصدقوني، لأن ما أقول به كلام معجز، في مضامينه الكاشفة عن الحقائق التي لا تتأتى لرجل أمي، ومعجز في صياغته، ما كان لي سابقة بهذا المستوى قبل الوحي الذي تلقينته من ربي.

17- فمن أقتله ممن اتقى على الله...لا يفتلج المجرمون.

يواصل القرآن الاحتجاج على المشركين ودهس شبهاتهم بطرق متنوعة، فتمهمم وتكشف أنهم ما رفضوا الإسلام إلا بناء على العناد، فنذكرهم الآية في طاعتها بأنه لا يتصور أن يبلغ الظلم بالإنسان مبلغا يساوي ظلم من اختلف من عنده ما

نسبه إلى الله كذبا وبهتاناً. فالنبي ﷺ شاعر بمقام ربه مفرد لعاقبة ذلك الظلم، فلا يتصور منه أن يقدم عليه وشعوره بالغ هذا الحد، وفي المقابل تلقى على المشركين عبادة هذا الظلم الفاحش بسبب أنهم كذبوا بالآيات البينة الواضحة، وتقدم الآية بالتهديد بأن هؤلاء الظلمة، بالشرك والتكذيب، هم مجرمون مثلهم الخيبة في الدارين.

18. ويعبدون من دون الله وتعالى عما يشركون.

ثم إن القرآن يشهر بالمشركين، ويكشف فساد تفكيرهم وعقيدتهم، إذ أنهم يعرضون عن عبادة الله خالق الكون، ويتقربون إلى أصنام لا تنفع ولا تنفع، تمثل العجز الكامل، متولين بأنها تلفعهم عند الله وتنفع لهم. فما أشد غباءهم بمبدون الأصنام، ويعترفون بأنهم وسائل تنفع لهم عند الله. فقد اعترفوا بالله وأعرضوا عن عبادته.

إن هذه الأصنام لا تأثير ولا قيمة لها، ومن تناولكم أيها الكافرون على الحق، أنكم تريدون أن تعرفوا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأحاط بكل شيء علماً، تريدون أن تعرفوه بوجود ما لا وجود له في السموات ولا في الأرض، تنزه ربنا وتعالى عن سفالة الشرك.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ سَعْيُكُمْ لِيَمَّا يَبْتَغِيهِمْ ۖ يَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ إِنْ نَبَذَكُمْ فِي الْأَرْضِ قُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ وَإِذَا أُلْقُوا النَّاسُ وَتَدْنُو مِنْ يُعْتَدِ صَرَاةً سَعَيْتُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آثَانَا قُلْ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝

بيان معنى الألفاظ :

أمة من ربه : علامة على صدقه حسبما يفترحونه.

الغيب : ما غاب عن الحواس . والمراد به الآيات المقترحة منهم.

أدنى : مكن من الإثراك.

الرحمة : نعمة.

المكر : الاستهزاء والظعن فيها لتوهين شأنها.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الناس كانوا موحدين لا خلاف بينهم في ذلك. ثم إن الشياطين أغوتهم، والشهوات أضلتهم. ولو كلف الله بواخذ الخارج عن الإيمان بمجرد ما ييدر منه الكفر، لعجل العقوبة ولإن الحق ناصعاً، فينتهي التكليف تبعاً لذلك. ولكن إرادة الله كانت غير ذلك.

ومن شغب المشركين أنهم يقترحون ملحين، أن ينزل الله على رسوله معجزة تصدقه، على العفاس الذي يتصورونه. قل لهم إن ما سيأتي به المستقبل هو غيب، والغيب بيد الله يظهر منه ما يشاء حسب حكمته لا حسب مقترحاتكم، فانتظروا ما سيأتي من عنده.

عحب أمر البشر، فإذا أدركتهم نعمة من النعم بعد أن مسهم الضر، فابلقوا الفرج من الكرب بإنكار الفضل الإلهي وشككوا. هدمهم القرآن بأن ما يمكرون به وما يقبلون به الأوضاع، سينالون جزاءه من الله العتاك الذي سينتقم منهم ويفلب أوضاعهم. ولا يضيع شيء من مفاصلهم السيئة وأعمالهم الخبيثة، فلي الله لوكل بهم ملائكة الذين أرسلهم لإحصاء أعمالهم فلا يفلتون من العقاب.

بيان المعنى العام :

19- وما مكان الناس إلا أمّة واحدة هيما هيما يحتلّون.

هذه الآية هي قرينة الآية "213" من سورة البقرة. ولي كل واحد لكل واحد منهما خصائص تركيبية تتناسب مع ما سبق كلامهما، إلا أن المعنى الأسس لهما يكاد يكون واحداً.

تؤكد الآية على أن الإسلام دين الفطرة، على معنى أن العقل البشري إذا لم يلحرف بمعطيات دخيلة عليه، فإنه لا يكون إلا مؤمناً بالله الواحد الأحد لا شريك له. إذ إن الاستقامة في التفكير لا يمكن أن تصل إلا لهذه النتيجة الصادقة، وقد فصلنا القول في ذلك عند تفسيرنا للآية "213" من سورة البقرة. وبناء على ذلك فإنه مضى زمن من عمر البشرية وهم متفقون في التصور: أن الله خالق العالم وأنه منصف بصفات الكمال. اهتدوا إلى ذلك فطرياً ولم يحدث بينهم خلاف فيه. ثم حدث بعد ذلك أن تدخل الشيطان بوسسته، والفرانس بعنفها، والأنانية بطغيانها، ففرقت بين البشر، فمنهم من حماد الله فيفي مؤمناً، ومنهم من اتبع هواه وعره الشيطان فكفر. ويعت الله تفضلاً منه لتبناه ليبينوا الحق وليقيموا الدين كلما تقتدر الكفر.

وإنه من سنن الله في الخليقة أنه لا يعجل نعمته فيستأصل الكافرين، ويظهر الحق منتصرا وحده في العالم، ولكنه سبحانه يمهلهم لينجو المهتدي، ويخسر المبطل.

20- يذوقون أولا الأزل عليه آية... من المنتفقون.

من الشغب المتتابع من المشركين ما تضمنته الآية: أن ينزل الله على رسوله دليلا ماديا يشهد بصدقه حسبما اقترحوه، وبناء على ذلك أنه إذا لم يأتيهم بمقترحهم فذلك دليل على عدم صدقه وأن الله لا يؤيده. وهو من باطل ألوهاتهم إذ قُتروا أن الله ينتظر ما يقترحونه فيسرع بتفيذه ليلجئهم إلى الإيمان، بل إن ما تأيد به رسول الله كاف لهداية من تكبر ولم يعاند.

أمر الله رسوله أن يرد عليهم، بأن كل أمر لم يقع بعد في الوجود، هو من الغيب الذي يتصرف فيه الله وحده، فيتحقق في الوجود إذا تعلققت الإرادة بإيراده، ولا يظهر إذا أراد الله عدم حدوثه. وإني منتظر ما يأتي به الله المتصرف وحده في الكون حسب حكمته لا حسب رغبتكم ومقترحاتكم. وبما أنكم لا تملكون أي تأثير على اختيارات الله فانتظروا، وليس لكم إلا الانتظار الذي يفي علىكم في حيرتكم. ففرق بين انتظار الرسول لما يأتيه من ربه فيؤمن به، وبين انتظارهم الذي لا يستجاب له فيستمررون على ضلالهم، ولا يترقبون إلا شرا عليهم في الحاضر والمعاد.

21- وإذا ألقنا الناس رحمة من بعد ضراء... حتمصرون.

هذه الآية تمجّل على الكافرين وتوبخهم في أن واحد، ذلك لأن الله يتفضل عليهم فينقذ عليهم نعمه، التي هي رحمته التي نعم العالمين، ويفرج كربهم ويبدل ما يصيبهم من ضر إلى شفاء بعد السقم، وخصب بعد الجذب، وأمن بعد الخوف، فإذا أركوا هذه النعم قابلوها بنكران أن تكون له يد في ذلك، وإذا ذكروا بها استهزأوا وهوتوا من شأنها. يقصدون من وراء ذلك أن لا يجعلوا تلك النعم أثرا يؤكد الإيمان. تهددهم الآية بأن رسل الله يكتبون ما يمكرون به ويخسونه عليهم، ليسلم عليهم عندما يريد، في مرة خاطفة، ما ينتقم به منهم انتقاما لا يجدون له مردا.

هو الذي يُسرّرك في السر والنجوى... إذا كنت في الغلج وخزن هم يربح... الجاني
وخرحوا بها... غنارياً... عاصف وجاءه... الموق من كل مكان وظواهم أحيط بهم
دعوا الله يحلهم من الذين لهم أنجحتنا من هذبه... لتكون من الشكرين... فلما

اجْتَبَهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَمْرِ الْوَيْحِيِّ يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانُ لَغَافُلٌ
مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنْشِقُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

الملك: السفينة.

الجرى : السير السريع.

طيبة: سائمة.

عاصفة : شديدة المراجعة.

من كل مكان : من جميع جهات السفينة.

أحبته بهم : أهلكوا.

البقي : الاعتداء.

المناع : ما يتنفع به الإنسان لنقاها غير دائم.

بيان المعنى الإجمالي :

الله الذي بنى لكون على نظام مكن به الإنسان من التنقل في البر والبحر . ويعطي لفران صورة إبراز أن التصرف لله وحده مسافرون في سفينة خرجت من المرفأ والبحر هادئ جميل، والرياح مواتية تدير بهم في الاتجاه المناسب، وفي لحظة تكفهر السماء وتشد الرياح عاصفة، وتعلو الأمواج من كل الجوانب، أشفقوا على أنفسهم وعلا الموج حتى إن كل واحدة ستطفي فتسحب السفينة إلى القاع. وابتهلوا إلى الله أن ينجيهم مسترفين بتقصيرهم معتلين عزمهم على الطاعة والشكر له إذا هو أنجاهم.

ويتفضل الله عليهم فيبلفهم سواحل اللجاء، فارتد المفسدون إلى ما كانوا عليه مشركين بالله، سائرين في التمتع بما تقدمه لهم الحياة، لا يحترمون قيمة ولا أمرا، ولا يفوق عن قبحام منكرا . إنه إذا قطع الإنسان صلته بالله ضل في سلوكه وظلم غير ملتزم بالحق. وما يحصل عليه لا يعدو ما يتمتع به الإنسان في الحياة الدنيا للمناع القصير، ثم يكون مصيره إلى الله فيكشف له ما كان عليه من ظلم.

بيان المعنى العام :

22- هو الذي يسيركم في البر والبحر.... لتحكولن من الشاكرين.

تضمنت الآية دليلا على نعمة الله بالتقدير في تلبية الكون، وعجز الإنسان عن التأثير، ومقابلة المشركين نعمته بالكفر .

بُني العالم على قوانين لا تدخل للإنسان فيها، رغم أن حياته لا تتنظم إلا بها، فتتقلب الإنسان في البر والبحر، ما كان ليتيسر لولا تلكم القوانين التي بُني عليها أمر الخليفة، فلو كانت جاذبية الأرض أقوى مما هي عليها لتسمر الإنسان في مكانه، ولولا أن الماء يدفع الفلك إلى السطح لغرقت السفن وهي على الشاطئ قبل أن تجر. فالتفسير في البر والبحر هو بتقدير إلهي عجيب اختص به ربنا سبحانه.

ثم إن القرآن اقتطع صورة من صور السير في البحر فعرضها بما لاسها من معطيات، جماعة ركبوا سفينة وسارت بهم في بحر هادئ جميل، رقت نسائهم، وامتد فيه النظر إلى افق بعيدة، وتعمد صفحاته زرقة السماء، والمبحرون فرحون بما توفر لهم من حظ، وفي لحظة تعصف الريح فتعلو أمواج البحر، وتحيط بالسفينة من كل جهاتها، ويخيل للراكبين أن كل موجة ستطغى على السفينة لتأخذها إلى قاع البحر، لا تسال عن القلوب وقد اضطربت، وعن الخوف وقد استبد بالنفوس، وعن الشعور بالضعف الذي عبه الاستسلام إلى القدر.

لئن الإنسان حتى من كان إيمانه وإهيا، يشور في باطنه شعور بأنه في ساعات الحرج الكبرى لا ملاذ له إلا رحمة إلهية تنقذه من برائن الهلاك، ولذا توجه راكبوها مؤمنين وكافهم إلى الله مبتهلين: أنه إن عطف عليهم فأجابه من الكرب الذي هم فيه، فإنهم يقبلون نعمته بالشكر والثناء على الإيمان.

23. هَذَا أَنْجَاهُ إِذَا هم يَفْشُونَ. سِمَا حَكْمَتُهُ تَعْمَلُونَ.

استجاب الله دعاءهم، ونجوا من العاصفة، وبلغوا شاطئ سلامة، كان من الواجب عليهم أن يوفوا بعهدهم، وأن يستقيموا في حياتهم، وأن يذكروا ضعفهم وأن ما يحسون به من قوة إن هو إلا خيال يتبدد عند مباشرة الواقع بما يجعله من مفاجات. ولكن طائفة منهم تكلمت لما عاهدت عليه، وأعلنت في وقاحة عن ظلمها، وأعظم ظلم هو لشرك بالله، فزله تعالى (إِذَا هم يَفْشُونَ) لا يشمل كل ركاب السفينة وإنما يستحب على المشركين منهم المواصلين للشرك. رجعوا إلى عبادة الهنهم، وما تطبع به قلوبهم تبعاً لذلك من غلظة واستبداد.

يخاطبهم القرآن مهدداً: إن استبددهم وظلمهم يعود عليهم بالويل في الدنيا والآخرة. إنهم إن استمتعوا بما يجنون من ظلمهم، ويتجرهم من القسيم الخافيه وانغمسوا في الرذيلة، واشبعوا شهواتهم، فإن ذلك متاع وقته في الحياة الدنيا، هم خاسرون للذة الشعور بالمسوء، وخاسرون لسلامة أبنائهم وملكاتهم. والعجب أن المستبدين لا يتعظون بما جرت عليه سنن الله في الكون. إذ كمل مستبد ظالم جبار يتوهم أنه

أنكى ممن سبقه، وأن منة الله لا تجري عليه، ويمهله الله لأجل قدره في علمه حتى إذا حل عليه، ذاب ما بناه كما يذوب الجليد تحت وهج الشمس. ولعذاب الآخرة أخرى، وسوف يعرض عليه يوم القيامة جميع ما كان يعمل من سوء، وظلمه وإفساده في الكون، ليكون ذلك مقدمة للعذاب الأكبر.

إِنَّمَا عَلِ الْخَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ بِمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا مِنَّا عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بِمَا أَتَوْا بَارَأ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبْ، وَالْأَمْشَى كَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾ هَذَا الَّذِيرُ أَحْسَنُوا الْحَسَنُ زِيَادَةٌ وَلَا حَقَّ وَجْوهُهُمْ قَرَرٌ وَلَا ذُلٌّ وَلِلَّهِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَنَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْجَعُهُمْ ذَلَّةٌ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ بِرَ غَاصِبٍ فَأَنَّا أَخَذْنَا وَجْوهَهُمْ سُلْعًا مِّنَ النَّارِ مُظْلِمًا لِّأَعْيُنِهِمْ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخْلُذُونَ ﴿١٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

الزخرف : ما يتزين به.

زيت : ظهرت زينتها.

لرما : ما يسلطه من الجوائح كالريح الشديدة البرودة أو للحرارة (السموم).

حصيداً : ثالفة - أصله الزرع المقطوع من منابته.

لم تغن : لم تعمر.

تنت : القاتل المنعمق.

مدهو : يطلب بما حتم من التكليف بالفعل أو بالترك.

دار السلام : الجنة.

يهدي : يمكن بالطفه من الانتهاء.

الحاصل : الجنة.

مرفق : يقش.

قتر : لون فيه ظلمة وكابة من البؤس والشقاء.

عاصم : مانع.

أغضب : غطيت.

بيان المعنى الجمالي :

قرب الله للناس حقيقة الحياة الدنيا، بالمفارقة بينها وبين ما يحصل في الأرض عقب نزول الغيث، من جمال وخضرة وثمار، ومالكوها يتوقعون إنتاجا طيبا واقرا، ثم يسلب عليها الجوائح الماحقة في لحظة لا يتوقعها أحد، فبإذا الأرض جرداء كان لم تثبت نباتا ولا لمتلات أشجارها ثمار، وهكذا الدنيا بعد أن تغري قلبا بمباهجها وفنيها خلفها في لحظة لا يعلم أحد زمن وقوعها. وفي هذا المثل موعظة لمن يعمل فكره ويتأمل.

والله يدعو البشر جميعا لامتنال ثمره حتى يدخلوا الجنة، ويجود بالطفه وعونه فيمكن من أراد له الخير من اتباع طريق الهدى.

وعلى العكس، فإن الذين محضوا خيارهم للشر والزيلة، فإنهم يجزون جزاء يعادل ميثانهم، وتغشاهم ذلة اليائس الذي لا يجد من يمنعه من عذاب الله، تنظر إلى وجوههم سوداء، كن قطعا من ظلام الليل متراكسة عليها. هم ملازمون للار لا يخرجون منها أبدا.

بيان المعنى العام :

4- إنما مثل الحياة الدنيا سماء الزلزلة... تقوم بتفكرتون.

تشبه جسم مغربا حالة الحياة الدنيا في سرعة زوالها بعد البهجة المغمورة بجمالها، بحال النبات الذي يكون خضرا نحيرا في شبايه بعد نزول الغيث، ثم يبس ويصير حطاما.

تعلق البشر بالدنيا تعلقا كبيرا ذهلوا معه عن التأمل في نعمها، حتى بلغ بهم الأمر أن غفلوا عن سرعة زوال ما تغري به من نعيم. نبيههم القران بهذا المثل الذي ضربه حتى لا تخدعهم مباهجها وذلتها. هو مثل ملحوظ لا يستدعي قبح الفكر لإدراكه، ولكن الكافرين يغفلون عنه. يقتر قلباري سبحانه إزال الماء من السماء، فيسري في باطن الأرض ويختلط هذا الماء بمفومات النمو المخرونة فيها، لينفذ إلى عروق النبات، فيمنص كل نبات ما هو في حاجة إليه مما حمله السماء معه، ويتنوع إلى ما يتحول إلى قوت للناس، وإلى ما يتحول إلى قوت للأنعام. وتنظر إلى المزارع والأشجار فإذا هي تملأ العين إعجابا بجمالها: بساط مزركش الأكوان، وأشجار تحمل من الفلال المختلفة الأشكال والأحجام والمناظر. وأصحاب المزارع يترقبون عطاء اقرا، ومضاعفة لثروتهم، وتعظم آمالهم كلما اقرب موعد الحصاد

للزروع وللقطاف للثمار . وهي في هذه الحال كحال الحياة الدنيا بما تقرى به من مباحج الحياة . تعرضها على البشر فينعمون بها وتفرهم لذاتها ليحطم تعلقم بها ، وتتعلق آمالهم إلى المستقبل لا يتوقعون تقطاعا لما هم فيه من خير ونعيم .

ويتحول المشهد في لحظة لا يتوقعها أحد ولا هي محددة بزمن ، تأتي في الليل والناس نيام ، أو في وضح النهار والناس في يقظة وجد . في هذه اللحظة يفجا البشرية نوع من أنواع الجوائح المهلكة ، التي تدمر كل ما كان بهجة للإنظار ، ومحطا للآمال . تسحقه حتى كأنه ما عمر سطح الأرض ولا كان له وجود . وكذلك الحياة الدنيا ، يأتيها في لحظة غير متوقعة ولا معروفة ما ينهيها ، يستوي في ذلك الأفراد ، والحياة الدنيا وما نحوه بصفة عامة وشاملة .

وعلى هذا النحو من البيان يمرض القرآن بصفة مفصلة لا سجملة ، ما يغيب عن الإنسان ، فيوظف من كان له فكر ابهره ، فتبين له الحقائق التي كانت خافية ، فيجد في اختلاله بالقرآن نورا يكشف له ما استتر ، ويقدم له الموعظة الحسنة .

25-والله يدعو إلى دار السلام...إلى صراط مستقيم.

هذا شأن من شؤون الخالق كشفت عنه الآية جمع بين أمرين :

أولهما : أن الله يدعو البشر المكلفين جميعا إلى اتباع طريق الصلاح بتطبيق أوامره واجتباب ما نهى عنه .

ثانيهما : أنه يختص بالمساعدة ، من يشاء على الاستجابة والقيام فعلا بما تضمنته الدعوة العامة .

فالدعوة إلى الخير واجتباب الشر تشمل كل فرد من الناس ، وبين طريق الصلاح وطريق الفساد قام عليه دليلان من السوي والعقل . ولما الاهتمام فعلا فذلك يحققه فضل الله ، يعون من يشاء فيشرح له قلبه الخير ، ويريج عنه المعوقات .

26. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...هم فيها خالدون.

إن الذين تأملوا في آيات الله ، وتفكروا فيها ، ثم اهتوا إلى فعل الخير فأحسنوا في نواياهم ، وضبطوا أفعالهم على الوجه الذي هتت إليه الشريعة ، وكانوا محسنين في سلوكهم وفي علاقاتهم بأخوتهم في الإنسانية ، أعد الله الجنة جزاء لهم ، ويكرمهم إكراما فوق ذلك . يحتمل أن الله يتجلى لهم فيحشرون أنهم في حضرته بدون حجاب ، ولا توجد نعمة تفوق تلكم النعمة . ويحتمل أن تكون الزيادة شعورهم برضوان الله عليهم .

وحقق القرآن لشراح وجوههم وصفاءها ، فلا تلوها كابة ولا ظلمة ، وميزهم بأنه ملكوا الجنة ملكا لا يزول أبدا .

27-والذين مكسبوا السيئات جزا سيئاتهم فيها خالدون.

ذكر القرآن في المقابل للذين اختاروا طريق الضلال، ومحضوا نشاطهم لفعل السيئات، بترك المأمور به، وفعل المنهي عنه، وتفضيلهم المنكرات على المعروف. يظهر العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدا في مقابلة ما كسبوا، فيجازي كل سيئة بجزاء يناسبها. ويشرح هذا التمثال بأن تغشاهم ذلة وصغار، هي الكآبة التي تراها على وجوه المكروبين في حال اليأس. رؤوسهم منكسة وهم في ذهول، إذ لا يمنهم مانع من عذاب الله ومقته. ثم جسيمة الآيسة الهوان البادي على الوجوه، بتشبيه وجوههم، كأنها أنست قطعا متراكمة من الليل الشديد الظلام، لم ينفذ لها أي نور. والخاتمة لهم يميزون بتملكهم لجهنم تملكا بصحبهم أبد الأبد.

وَنُورُ خَشْرَتِهِمْ خِيَمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَضْوَؤُهُمْ مُزْكَوُّوهُمْ فَزَلَّلْنَاهُمْ
وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ بِإِلَهِائِنَا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فَكَفَرُوا بِاللَّهِ عِجْثًا يَتَّبِعُوا وَيَتَّبِعْكُمْ إِن كُنَّا عَنْ
عِبَادِكُمْ لِلْعِبَادِينَ ﴿٢٧﴾ هَذَلِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَمْلَقَتْ وَزُودُوا إِلَى اللَّهِ سَائِلِينَ
الْحَقِّ بِضَلَالَةٍ عَلَيْهِمْ سَاكِنُوا يَذَرُونَهُ

بيان معنى الألفاظ:

نحشرهم : نجتمعهم.

مكسبكم : قفوا حيث أنتم.

شركائكم : الأصنام التي كانوا يعبدونها.

زيتا: فرقنا بينهم تفريقا قويا.

كفى: أجزأ وأغنى عن غيره.

تبلى: تخبث كل نفس ثمرة ما قدمت.

ضل ضلهم : ضاع عنهم فلم يجدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يجمع الله البشر جميعا يوم القيامة، ويجمع مع المشركين الأصنام التي كانوا يعبدونها. ويفرض على المشركين وعلى أصنامهم أن لا ينجسوا من أمكنتهم، ويقطع الجامع الذي كان بينهما. ويواجه الأصنام بقوة يخلقها الله فيهم المشركين بقولهم: ما كنتم تعبدوننا، ويشهد الله عالم كل شيء أننا ما رضىنا عبادتكم لنا، وما كنا عالمين بها. وفي هذا اليوم تعلم كل نفس حقيقة ما قدمت من خير أو شر وما

مستفاد من الجزاء، وقد رجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، وضاع فلا أثر له مما كانوا يعبدونه، مما كان كدبا مولدا من خيالاتهم.

بيان المعنى العام :

28-30- يوم نعتزلهم جميعا...على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون.

مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة فصلته الآيات الثلاث ننتبه فيها إلى:
أولاً: يوم القيامة يجمع الله للبشر جميعاً من مواقعهم المختلفة، وتصور البشر من
لبن آدم إلى يوم انتهاء الحياة على الأرض. وقد أقبل كل واحد منهم من مكانه الذي
استودع فيه، ليتم جمعهم بقرة الخالق العظيم.

ثانياً: ثم بعد اجتماعهم يصدر الأمر الذي يخضع له كل المحشورين، يصدر الأمر
للمشركين ولأصنامهم: أن يلزموا مكانهم ولا يتحركوا. ويشير الأمر بالتوقف عن
الحركة، يشير إلى أنهم مسؤولون عن جريمة ائتركوا فيها.

ثالثاً: تكف الفترة الإلهية فتفرق بين المشركين وأصنامهم تفرقة كاملة، فيظهر من
هنا أن الرابطة التي كانت تجمعهم في الدنيا قد تمزقت ولم يبق لها أثر.

رابعا: ينطق الله الأصنام التي ادعى الكافرون أنهم شركاء الله، فيواجهون عابثيهم
للمحشورين في صعيد واحد معهم بقولهم قولا صريحا: ما كنتم تعبدوننا في الدنيا،
وهذا التبريد الكامل عنهم بوضحة ما يرد بعد. إذ الواقع أنهم كانوا يعبدونهم.

خامساً: لا يقصدون من نفي عبادتهم نفيها أصلاً، فالهم عبودهم وتقربوا إليهم
وتبجوا لهم الفرائين، وادعوا أنهم يشعرون لهم عند الله. ولذلك أكدوا نفي العبادة
بالقسم علوها وقالوا: كذباً لئلا على ذلك أنا نشهد الله عليهم بكل ما يجري في
الكون كبيره وصغيره، أنا ما كنا راضين عن عبادتكم لنا، ولا أمرناكم بذلك، ولا
كنا شاعرين بأنكم تتوجهون إلينا بالعبادة. فأنتم تحملون وزركم وجراعتكم على
الله.

سابعاً: في هذا المشهد تنكشف لكل نفس اكتشافاً تاماً ما قدمته في الدنيا، كأنها
تخبره فيصّل بها الاختبار إلى إدراك يقيني لنتائج ما قدمته في الدنيا، ينكشف لها
الخير الذي هدت إليه، أو الشر الذي اقتحمته، وأثار ذلك من الكرامة أو المهانة.

سابعاً: ينطق المشهد معلناً الحقيقة التي كانوا يجحدونها في الدنيا ويكابرون فيها:
لقد رجعوا إلى الله متولي أمورهم وهو الحق، لا الزائف الذي تولد من خيالهم
الباطل. وذهبت ضياعاً كل أكاذيبهم وصدع الحق وخابوا فواجهوا جزاءهم.

قُلْ مَنْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ مَلَائِكَةُ السَّيْرِ وَالْمَلَائِكَةُ مُسَوِّمَاتٌ لِمَنْ يَمْسِكُ
 مِنَ الْعَرْشِ يَوْمَئِذٍ الْعِلْمُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ وَهُوَ بَصِيرٌ ۝ قُلْ مَنْ يَدْعُوا الْآخِرَ قَسِيْفُوْلُوْنَ ۝ قُلْ مَنْ يَدْعُوا
 تَتَقَوُّوْنَ ۝ قُلْ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَخُذُوا حَقِّيْكَ الْخَلْقِ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِ تُصْرَفُونَ ۝
 كَذَلِكَ خُفِّيَتْ لَكُمُ الْكَيْدَاتُ عَلَى الْكَاذِبِينَ فَنُفِخُوا فِيهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ مَا مِنْ
 شَرِّكَائِكُمْ مِنْ يَدْعُوْا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۝ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَىٰ هُدًى فَمَنْ يَدْعُوْهُ فَإِنَّهُ يَهْدِي ۝
 قُلْ مَا مِنْ شَرِّكَائِكُمْ مِنْ يَدْعُو إِلَى الْخَلْقِ قُلِ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْخَلْقِ أَفَمَنْ يَدْعُو إِلَى الْخَلْقِ
 أَخَيْرُ أَمْ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى الْهَدْيِ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ وَمَا يَشْعُرُ
 أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طَمَإً إِنَّ لَطْفًا لَا يُفْعَلُ ۝ مَنِ اتَّبَعَ شِعْرًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

تسبوا : خرجوا عن طريق الهدى والحق.

تؤفكون : تصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل .

يهدى : يبين طرق الصواب ويدعو إلى العدل.

لا يتهدون إلا الظن : تقتصروا على الأخذ بالظن الواهي الذي لا أساس له.

الحق : الثالث، وهو معرفة الله.

بيان المعاني الإجمالية :

هذه أسئلة ملجئة لكل من انصرف عن الاعتقاد في الله، فبرز تفرد به خصائصه
 الألوهية، وعجز كل ما تصوره البشر من القوى التي عبدها.

المسألة الأولى: بلغت فيه القرائن النظر إلى أن الرزق الذي يأتي من السماء لو من
 الأرض هو من فضل الله، ولا أحد غيره يمكن الإنسان من رزقه. وكذلك حواس
 الإنسان هي ملكه سبحانه. وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي
 بقدرة عجيبة. ومن يرعى أمر القوم فيسيرها على نظامها المحكم؟ لا أحد غيره.
 ألح عليهم هذه الأسئلة فإنهم لا يجدون إلا جواباً واحداً: الله فاعل كل ذلك، فضل لهم
 إذن ما لكم لا تتقون ربكم وتدعون أن له شركاء.

نلكم هو الله الحق الذي خلقكم وأعطاكم بالطفه؛ وهو الحق وحده، وإذا ثبت أنه هو
 الحق فكيف تصور لرب مواء باطل، فإلى أي جهة تتجهون ولا تكونوا إضياعا؟
 ومن متين الله أن الإنسان إذا ألف ارتكاب المعاصي فإنه يحجب قلبه عن الإيمان.

قل لهم يا محمد: هل يمكن لأحد من شركائكم أن يخلق الكون ثم يعود بعد فواته؟ ولا جواب لهم. فعاجلهم بالجواب الصحيح الواحد: إن الله هو المتفرد بالبدء والإعادة، فإلى أي جهة تلصقون عن الحق فتكفيهم في الباطل.

أقم عليهم للحجة وأسألهم. هل لأي واحد من شركائهم للتكبر من هداية غيره ليسمو به إلى إدراك الحق والفرامة، وعجل إليهم الجواب. هم أصنام لا يعقلون. والله هو المتفرد بالهداية. وعجب كيف يعرضون عن اتباع المتفرد بالهداية ويتبعون من لا يملك الهداية، إلا أن ينقل من مكان إلى مكان آخر، ما كان يجري مقنما إلى أين يسير.

عجب لكم كيف تحكمون بهواكم. على ما هو صحيح غفيا وما هو فاسد.

ولكن أكثرهم إنما يعتمدون على ظنون لا أساس لها، والبعض الآخر وإن عرف ضلاله إلا أنه لم يرفضه تنظيرا لحظوظ مادية عاجلة، ولظن الزائف لا يقوم بشيئا عن الحق الثابت. وسيجزون يوم القوامة جراه عادلا تابعا لما علمه الله منهم.

بيان المعنى العام:

31- قل من يرزقكم من السماء والأرض... أفلا نتقون.

يثير القرآن العقل الإنساني للتأمل فيما حوله. فيعرض في هذه الآية وما يتلوها توجيه الرسول الله ﷺ للإثارة أسئلة متلاحقة للمشركين. مما يجري حولهم. بل في ذوقهم وهم يقفون عند ظواهرها ولا يتعمقون فيما وراء ذلك.

السؤال الأول: من يرزقكم من السماء والأرض؟

الرزق النازل من السماء ينال كل المنان حظه منه، ويغفل معظم البشر عن أهميته، فلنتأمل فيه قليلا لنبين لنا عظمته. ولنفذ لولا إمام كوكب الشمس. والأرض واحدة من المجموعة الشمسية، نجد أن النبات ما كان لينمو لولا الشمس ولولاها لتجمد كل شيء على سطح الأرض، ومنها تستمد الطبقة الطاهرة منها القوة المتجددة، وتقوم الأشجار بالتفاعل مع أشعتها بتصفية الهواء، وتنبخر مياه البحار بواسطة حرارتها لتتكون منها السحب وتنزل الأمطار، وهي خزان لا يحد من الطاقة، تنتظر من الإنسان أن يسمو في معارفه ليستمد منها ما هو في حاجة إليه من الطاقة النظيفة. وبضيانها عرف الإنسان الكون وما يحويه من إسمان وحيوان وجماد، ولكل فرد حظه من نعمة الشمس، ولا يمكن له أن يجيا على وجه الأرض بنون رزقه وأخذ حظه من الشمس.

ومن السماء تنزل الأمطار التي تقوم عليها الحياة، وبدونها تكون الأرض قاحلة لا تنبت زراعا ولا ثمارا ولا كلاً، ولا تعيش مائتية ولا حيوان. وكل فرد يناله رزقه المقدر له من السماء.

و تقابل الأرض مع السماء، كما أشرنا إليه قريبا، مقوم حياة كل إنسان في قوته ومكنه ولياسه، وكل ما يساعده على الاستخلاف في الأرض.

السؤال الثاني: ألم من يملك السمع والأبصار؟

ينتقل القرآن من العالم الخارجي إلى الإنسان ذاته، فينصب السؤال على الحواس الظاهرة التي يظن الإنسان أنه ينفرد بملكها، ويخص منها السمع والبصر لقوة ظهورهما. والحاستان لا يملكهما إلا الله، فهو الذي يوجدهما ويحفظهما إلى الأسد الذي يخره. ومن يحرمه السمع يولد أصم، ومن يحرمه البصر يولد أعمى. بل أبلغ من هذا فكثيرا ما يصطدم شخص بغيره أو يسقط في حفرة أمامه، ويخبر عن نفسه أنه لم ير ذلك مع سلامة بصره وتوفر الضياء. وكذلك كثيرا ما تخترق موجات الهواء المحيط، وبعض الحاضرين لا يسمع الصوت رغم عفه، فلذا نبه أدرك.

السؤال الثالث: من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟

الظاهرة المحيرة التي تقف على كل إنسان وحيوان ونبات، هي ظاهرة الموت والحياة، تتعاقبان عليها جميعا. يعلم الإنسان مما تنبئه الأرض ومن اللحوم والأكلان بعد طهيها، فتدخل في جهاز الهضمي ولا حياة فيها، فينمو بها، وتدخل في تركيب كل خلية من خلاياه فيتولد من كل نوع منها خلايا حية. ثم يبرز ما لا حياة فيه من الإفرازات والخلايا الميتة، وفي كل لحظة من لحظات حياتنا يجري علينا الموت والحياة فتموت خلايا وتنشأ أخرى إلى الأجل المقرر.

السؤال الرابع: من يدبر الأمر؟

يسير الكون على نظام دقيق محكم. في مكوناته العظمى كالكوكيب، وفي جزئياته الصغرى التي لا ترى إلا بالمجاهر الإلكترونية، فمن يدبر أمر هذا الكون فلا يحيد عن مداره لحظة؟

اسألهم يا محمد عن هذه الظواهر الأربعة، وألجئهم إلى الجواب عنها. إنهم لا يملكون إلا أن يقولوا هي من خلق الله. ثم صعب ذلك، الأسئلة بمسائل تعجب واستغراب، إنه إذا كانت لا مندوحة لكم عن الاعتراف بأن الله هو الذي يرزقكم من السماء والأرض. وهو المتصرف في أنفسكم. وفي الموت والحياة، وهو المدير للكون كله، فما لكم لا تتقونه بتزويجه عن الشرك!

والعلمانيون في عصرنا يجيبون هي الطبيعة، ولو سألهم ما هي هذه الطبيعة المختارة للفاعلة التي تنظم العالم كله، وتعجز عقولكم وعقول البشرية جميعا من أول تاريخها إلى الآن أن تجيب عن تلك الأسئلة؟ يريدون الطبيعة بيغانيا.

32- فذمكم الله ربكم ... فأنى تصرفون.

ذلك الجامع للقدرة التي لا تحد، المنصرف للتصرف الحكيم العام، الذي لا يستغنى عنه أحد منكم، هو الله، هو الذي تولاكم فأنشاكم ويمرركم أسباب النعم والحفظ حتى بلغت ما بلغت وما يزال يحيطكم بعنايته (ربكم) وهو ربكم الحق لا ما تسميه لأنفسكم من الهة زائفة وباطلة، ويتقابل حسب القسمة العقلية الحاصرة، إما الحق وإما الضلال، فثبت أن الله هو الرب الحق، فيكون كل اله عبد من دونه باطلا. ويتبع ذلك أن الحق لما كان واحدا، فمن انصرف عن طريق الحق لا يكون إلا ضالا، ذلك أن الحق واحد، والباطل متعدد، فمن كان مثلا في مفترق طرق قاصدا جهة معينة، فالطريق السالك به إلى قصده واحد، وكل للطرف الأخرى تشترك في أنها ضلال كلما أوغل فيها السائر لرداء بعدا عن القصد.

33- كذلك حقت كلمة ربكم ... أنهم لا يؤمنون.

هذه سنة من سنن الله في مال البشر المرتبط بأسئرتهم على الخروج عن الطاعة وإيتائهم هوامهم، يتأكد لكم بالمصادفة ومتابعة أحوال المجرمين، أن السذين ألفوا المعاصي، والخروج عن حدود الله، أن قلوبهم تحجب بالمعاصي، وما تزال المعاصي تتراكم على بصائرهم وعقولهم حتى يضرب بينها وبين أنوار الهداية بحجاب صقيق، تنفصل به انفصالا كاملا عن الحق، فلا يقد من الإيمان أي شعاع من نور إلى قلوبهم. وهذه سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير: في اتباع الإقامة على المعاصي بالصرف الكامل عن الإيمان.

34- قل هل من شركائكم من بيننا .. فأنى تكلمون.

يواصل القرآن تلقين النبي ﷺ بالحجج الملقنة للمشركين إلى الاعتراف بفساد عقيدتهم، وإبراز تناقضهم. فيؤمر أن يسألهم سؤال إنكار مع تقرير، هل يوجد واحد من شركائكم الذين تعبدونهم وتعتمدون عليهم، من يدعي أنه بدأ خلق الكون، وأنه سيبيده بعد فواته إلى ما كان عليه أو هذا سؤال ليس له إلا جواب واحد، فلذا عاجلهم بالجواب: وهو أنه لا أحد منهم يدعي هذه القدرة، وإنما هي لله وحده. ويماجلهم بالاستنراب والإنكار: إلى أي جهة تصرفون فإنكم تنفسون في الباطل.

35- قل هل من شركائكم من يهدي .. فلما حكم كيف تحكمون.

يتابع القرآن الانحجاج على المشركين، وكشف قصر نظرهم، ويوجه للنبي ﷺ إلى توكيهم بسؤالهم: هل يوجد واحد من الشركاء الذين تعبدونهم، له قدرة على توجيهكم إلى طريق الصلاح والخير ؟ فبعد أن أثبت عجز شركائهم عن التصرف بالإيجاد

والخلق العادي لأي شيء في الكون، أعفاه بعجزهم عما هو أعلى منزلة ولكمل في العلم والحكمة، وهو التفضل بهدية البشر إلى طريق الهدى والصالح، الذي به يتمكن الإنسان من احتلال المكانة التي تليق به من الخلافة في الأرض. ويقول القرآن الجواب لأنه لا جواب غيره، فثبت هذا الفضل لله وحده وينبغي نفياً قاطعاً عن الشركاء.

ثم يرتب على هذه الحقيقة، أن ما يجب على العفلاء أن يتمسكوا به هو عبادة من يهديهم إلى الحق وطاعته فيسمو بمداركهم، ويهذب لأرواحهم، وهو وحده للعليم بما يصلح أمرهم في العاجل والمآل.

أما الأصنام فإنها لا عقل لها تهتدي به، وليس لها جانب روحاني تسمو به عن درك المادة، وغاية ما يتحقق لها أن يأخذها المتحكم فيها فيبطلها من سكان إلى مكان آخر، **(إلا أن يهدي)** وذلك الدرك، المسأل من المعز والبعد عن الهداية الروحانية.

ويتبع هذا البيان بالتعجب من مستوهم الفكري والعفدي، مآلكم ؟ أي شيء تملكونه من الفعل حتى تتحدروا لهذا المستوى المسأل من التفكير الذي هداكم لعبادة الأصنام ! ثم أضاف إلى ذلك التعجب تعجبا آخر يؤكد، كيف تصدرون الأحكام التي تفتنون بها، مع وضوح عجز وتبعية الذين اتخذتموهم الهة.

36- وما يتبع استكبرهم إلا تلك الاستعلاء بما يفعلون.

وبعد أن أبرز التعجب من ضلالهم، أبان سبب ذلك، أن أكثرهم إنما يعتمدون على أوهام لا أساس لها وخيالات لا تمت إلى الواقع والحق بسبب. وأثبت القرآن هذا للسلوك لأكثرهم، على طريقة القرآن في الإنصاف والضبط في تسجيل الواقع، فإن بعض المشركين متميزون بفعل راحة ونكاة وفطنة، لكنهم عجزوا الأصنام لا عن اعتقاد بالوحيات، ولكن حرصا منهم على استبقاء مكانتهم في القيادة والزعامة، وفي ذلك إيقاظ للتأنيح حتى لا يواصلوا الاغترار بهم.

وتختتم الآية بقاعدة في التفكير : إن الظن الذي يستند إلى الأوهام والخيالات لا يكون بديلا عن الحق وعوضا عنه لا في قليل ولا في كثير.

ويهددهم القرآن بأن الله عليم بمن أشرك عن عمية وتقليد، ومن أشرك لحظوظ مادية وزعامة، تطيبا لذلك على إظهار الحق والإيمان به. والله يجزي كل واحد منهم جزاء عادلا حسب ما أحاط به علمه سبحانه.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا يَذْكُرُهُ مِنَ رَبِّهِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَنُ أَمْ يَتَّبِعُونَ الْمَلِكِينَ أَمْ يَكُونُونَ أَوْسَادًا مَتَكَثِرِينَ ﴿١٠٢﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْسُهُ تَفَافُوا ﴿١٠٣﴾ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ تَتَذَكَّرُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُظْلِمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٥﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمِلْتُ لَكُمْ أَنْتُمْ تَبْرَهُونَ ﴿١٠٦﴾ أَمْ أَعْمَلُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ إِحْسَاءًا فَانْتَبِهَ وَمِنْهُمْ كَذَّبُوا وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ مِنْ رَبِّهِمْ إِمْرًا فَتُلَاقُوا أَوْسَادًا تَلْبَسُونَ ﴿١٠٩﴾

بيان معنى الالتفات:

الانفراء : الكذب.

وبين يديه : الكتب التي نزلت قبله.

التفصيل : الكثرين بمختلف أنواعه.

لم يحيطوا بعلمه : لم يعلموه علما دقيقا.

التأويل : يطلق ويرك منه تفسير المعنى. ويطلق على توضيح ما خفي من المعاني البعيدة أو الإشارة.

أنا بريء : لا نعمة علي، ولا مواخذة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن هذا القرآن المعجز في نصه وفي مضمونه، لا يمكن أن يصدر عن بشر. فيكذب مدعيا أنه من إلهائه وينفيه عن الله. ولكن هذا القرآن متصل بالكتب السابقة، يصدق ما فيها من حقائق ويحقق البشارة التي وردت فيها بمجيء محمد ﷺ ويبقى ما لحق إيقلاؤه وينسخ ما لحق نسخه. لا شك في أنه من عند الله.

إن الكفرة يقولون: إن محمدا افترى القرآن. قل لهم: إذا كان هذا الكتاب من طوق البشر فأتوا بسورة تساوي سورة من مسوره، واستمعينا بمن شئتم من الفصحاء والأنبياء، ولكنكم عاجزون فالتهم كاذبون فيما تدعون .

هم رفضوا قبول القرآن قبل أن يتجمع لديهم ما يمكنهم من علم ما جاء فيه، وكتبوا قبل أن يتابعوا ما نزل في شرحه والكشف عن فلسفته، شأنهم في ذلك شأن الذين كذبوا من الأمم السابقة؛ فانظر حقيقة ما لهم بسبب ظلمهم، ومن هؤلاء الكفرة من وصل في باطله إلى الاقتناع بالقرآن، ولكن العناد حرمه اتباعه، ومنهم من أعرض عنه من البداية، وكلاهما مفسد في عقيدته ومسلوكه، وريك لا يخفى عليه شيء من فسادهم وسجارتهم بما قاموا، وإن أصلوا تكذيبك فقل لهم: إنني ماض في سبيلي سألقي جزاء ما عملته، وسألقون جزاء عملكم. وأنا غير مواخذ بما تعملونه من شر، وأنتم لا تحصلون على شيء مما أعمل من خير.

ثم إن الكفرة يستمعون إلى ما قيلهم إياه من الوحي، ولكنهم لعنادهم لم ينتفعوا به شأنهم شأن من كان أصم لا يسمع، ومع ذلك فقد العقول فلا تفتح ملكاته ليدرك بنبأته ما نقوله له، ومنهم من يظفر في مسيرته في الحياة بالبلافة نرجة الكمال، ولكنه لم يحس بشيء فهو قد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة.

وسيجازيهم الله بما قدموا، وهو ما يؤكد أن الله لا يظلمهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم إذ أغفلوا عقولهم وحواسهم وقدموا شهواتهم، ففسدوا الطمأنينة في الدنيا والعاقبة الحسنة يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

37- وما كان هذا القول أن يفتري... لا ريب فيه من رب العالمين.

يوصل القرآن الورد على المشركين المشككين في القرآن، وقد تضمنت الآيات السابقة في هذه السورة تقليد مزاعمهم، والكشف عن الشبهات التي أصابهم وحرمتهم توجيه العقل إلى طريق الهدى. وجاءت هذه الآية مؤكدة لتلك المضامين بطريقة جديدة، فأنشئت مستحضرة القرآن أمام الناظر بالإشارة إليه (هذا) أنه إذا تأمل فيه المتأمل وتعمق فيما تضمنه، وتبع أحكامه وأدابه، وما قصه من أخبار العاضين وما أجمع فيها من حكم وعبر، وما تأسس به من منهج فكري متكامل، وطريقة صياغة ذلك كله صياغة تميزت بأنها معجزة :

أولاً: بأن جعلته صادقاً في زمن نزوله حسب المستوى الذهني للبشر وأنت نزوله، وصادقاً كلما تقدمت المعرفة الإنسانية ليتجدد الفهم تبعاً لذلك.

وثانياً: من حيث المستوى التعبيري اللغامي إلى مرتبة معجزة، لا يسقطيح أحد لا في زمن الوحي ولا فيما تلاه من أزمان أن يأتى بكلام يساويه أو يدانيه في الدقة والفضاحة والجمال.

إن ما جمعه القرآن يقوم شاهداً من ذاته، على أنه منزل من عند الله، ولا يعقل أن يؤلفه أحد سواه، لو أن يدعى كاذب أنه كلام أحد غير الله .

وإذ انتفى أن يكون مفترى من دون الله فما هو إذن هذا الكذاب؟

هو أولاً: يصدق للكتب السابقة التي أوحى الله بها إلى رسله، فثبت ما هو حق منها، وينفي ما أضفاه للناس من أساطير، وما حرفوا من أحكامه أو عقائده، ويصدق ما أخبرت به من البشارة به، ونبيه الأتباع على وجوب الإيمان به.

وثانياً: هو يفصل ما تضمنته الكتب السابقة تفصيلاً يثبت ما أراد الله بقسامه، ونسخ ما أراد الله نسخه، ويبين ما أجمل فيها، ويهدي للفهم السليم فيما كان متشابهاً فيها، كما قال تعالى: **(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَهُدًى وَإِذْ خَضَعْتَ لِحُكْمِهِ)** .

وإذ وضعت طبيعة هذا الكتاب وخصائصه، فالنتيجة الحتمية لذلك أنه لا شك في أنه منزل من عند الله رب العالمين، الفاعل على كل شيء، لا يرتاب في ذلك من كان سليم العقل والإدراك.

38 أم يقولون اقتراء بل كنتم ماذنيين.

لوتق للقرآن في ليطال ما يدعيه الكافرون ، وكانت طريقته في ذلك: أولاً: أن كُتف عن دعواهم الباطلة دالاً على التكافؤ أن يكون لها أي نصيب من الواقع، متعجبا من مستواهم الفكري الذي انحط بهم إلى ادعاء أن النبي لا اقتراء من عنده ناسباً له إلى الله.

وثانياً: يتحذوهم أن يأتوا بمسورة مثل سور القرآن، وأن يتلوهوا بمن شلووا لتحقق ذلك، ولهم أن يستعينوا بالبلغاء والفصحاء، والأدكياء والحكماء من كل القبائل والمقدمين في البيان، ليأتوا بمسورة تماوي نظمه ومحتواها، إن كانوا صادقين فيما زعموه أنه مفترى. فعجزهم عن الإتيان بمسورة من مثله يقوم حجة مضمرة على أنه من عند الله لا دخل لمحمد فيه، وهو معجزته المثبتة لصنعه.

39 بل كذبوا بما لم يحيطوا .. عاقبة الظالمين.

ترفت الآية مشنعة على الكافرين ، بالكشف عن جهلهم وعجزهم وتنطيرهم. أولاً: بادروا بالكذب دون تبين وإعمال نظر ، وتعمق فيما جاءهم به رسول الله ، فإن ما أنزل عليه يتضمن صلاح الدنيا والاخرة، ويقضي تغيير سلم القيم الذي

كان قدرا مشتركا بينهم إلى سلم قيم جديد ينمي الحياة عليه. وهذا أمر ليس بسيطاً، ولكنهم لعندهم بادرُوا بالتكذيب قبل أن يعلموا بدقة مضامين القرآن.

ثانياً: استعجلوا فلم ينتظروا ما يرد من بيان لمتشابهة، وكشف عن الأسرار البعيدة لظلمته، وتوضيح لما أشكل عليهم فهمه.

ثالثاً: هم بهاتين الصفتين كغيرهم من الأمم السابقة الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، فسُلط الله عليهم عقابه. وفي ذلك وعيد بالذاب للمكذبين، وأنه سيحل بهم ما حل بالأمم السابقة، إرضاء لسنته سبحانه في جزاء المكذبين. وفي ذلك أيضاً تسلية للتبني ﷺ بأن ما يلقاه قد لقيه إخوانه المرسلون من أممهم، وبناء على ذلك فانظر يا محمد في آثار المكذبين الذين خلت ديارهم وتشتت شملهم وساعت عقبتهم .

40- ومنهم من يؤمن بشيء لمعهسددين.

وحقق القرآن أن المكذبين ليسوا نمطا واحداً، فلهذا فلهذا الذين رفضوه بمجرد ما سمعوه، ومنهم من غلب ما في القرآن من حق غظه فصنقه في لباطن، لكنه لتقليبه حظوظ نفسه العاجلة، وإثارة لشهوته على الاستقامة التي يدعو إليها القرآن انحاز إلى المكذبين، فكلا الفريقين مقصد بتكثير الكافرين، مقصد لعدم الضباطه في سلوكه بالفضيلة. والله يعلم كبرهم كما يعلم ما قاموا به من إصاد في الكون، وسوف يجزيهم، فكان ختام الآية يُنظن تهديداً.

41- وإن يكذبوا فقل لي: عمتي. مما نعلمون.

بعد هذا البيان والإجاء والكشف والذلل نفوسهم فلن واصلوا تكذيبك فأعلن مفاصلك عليهم مفاصلة يتحمل بها كل فريق نتائج أعماله. إنها مصارحة بأنه ﷺ مطمئن إلى نتائج أعماله وجزاء ما قدم، وأنذره بأنهم سيقفون أيضاً نتائج أعمالهم. ولحكم لا تؤخذون بما أعمل، وكذلك من الإنصاف أنه لا تبعه علي من أعمالكم، فأنا بريء من كل مفاسدكم لا يؤخذني ربي بما تعملون.

42- ومنهم من يستمعون إليك لا يسمعون.

تبعث الأيثار أحوال الكافرين في مقابلة ما يأتيهم من الوحي فقسمنهم إلى قسمين: أولاً: الذين يقولون عليك فيستمعون ما أنزل من القرآن والهدى، ولكنهم لعزمهم على الرفض لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينفذ شيء من كلامك إلى قلوبهم التي قصدوا إلى إبطالها، فهم بذلك قد استوا مع من كان أصم لا يسمع، وعجب منهم إذ أعماهم التعصب إلى هذا الحد. وبالف على عدم انتفاعهم بأنه وإن كانوا بأعراضهم

كفقدتي السمع، فإنه أيضا ليست لهم عقول، ذلك أن الأصم إذا كان ذا فطنة فإنه كثيرا ما يفهم من قرآن الكلام ما يتأثر به فيعلق بذهنه مراد المتكلم.

ثانياً: الذين يعيشون معك ويشاهدون سمو أخلاقك، وكمال أدبك، وحسن معاملتك، وبصفة عامة طريقتك في الحياة، ينظرون إلى كل ذلك ولكنه لا يقضى بهم إلى الإيمان بك، والاهتداء بهديك ولتأسى بك، وبذلك فهم ومن فقد بصره سواء، بل هم مغرورون في الصلاة، لأن بصيرتهم بسبب عنادهم قد غلفت بحجاب فلا ينفذ إليها نور الحق.

44 إِنْ إِلَهُ لَّا يَضِلُّهُ الثَّامِسُ أَنْفُسُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ

ما قدره الله للثامس السذين أعرضوا عن الهدى وكذبوا الرسل، واقتلوا عقولهم وأسماعهم، ولم يستفيدوا مما نقله إليهم أبصارهم، فتراكم على بصائرهم من العناد والفساد حجبا صفيقا، لولئك سينالهم نصيبهم من العذاب، وما ظلمهم الله إذ قدر لهم المصير الخاسر في جهنم. ولكنهم هم السذين ظلموا أنفسهم، إذ رزقوا العقول التي بها يدركون الحقيقة ورزقوا الحواس التي بها يهتدون، ولكنهم أثروا مشاع الحياة الدنيا من الرئاسة أو التقايد والشهوات فعمطوها، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُ تَلْيُوثًا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ فِيهِمْ فَذُ خَيْرِ النَّاسِ
كَلْبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُعْتَبِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا لَنُرِيكَ أَفْعَاكُ أَوْ تَقُوْكَ
فَلَنَرْجِعَنَّ عَنْكَ إِلَى اللَّهِ فَهَبْ عَلَى مَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَكِنْ أَمْرٌ رَسُولٌ إِذَا جَاءَ
رُسُلُهُمْ فَمِنْ بَيْنَهُمْ بِالْبَیْضِ وَهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿٤٧﴾ وَتَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي شَيْئًا وَلَا لِقَوْمِي إِلَّا مَا اللَّهُ يَكُنْ أَمْرٌ أَجَلٌ
إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يَتَعَارَفُونَ بِلِقَاءِ : يعرف كل واحد الآخر .

شَهِيد : عالم علم تحقيق .

لَا أَمْلِكُ : لا أستطيع تحصيل نفع أو إبعاد ضرر .

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن أن مما يشمر به الكافرون يوم البعث، ظنهم أنهم ما مكثوا فسي قبورهم إلا وقتا قصيرا، وأنه يعرف بعضهم البعض فيرون سوء حالهم جميعا. ويوقنون بأنهم خسروا آخرتهم بتكذيبهم بالوحي، ولهم سلوا في حياتهم على غير هدى.

و سيحل بهم العذاب، إما في حياتك في الدنيا كما حرمهم القبر سبع سنوات متوالية، وكما نهزموا في بدر؛ وإن الله لا يفلتهم. فإذا توفاك الله، فإنهم لا يفلتوا من قبضة الله. وهم راجعون إليه جميعا يوم القيامة. ليوفيهم حسابهم؛ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

وسنة الله أن يبعث في كل أمة أرك هديتها رسولا؛ فبإذا جاء الرسول، كان حسابهم على موقفهم من هدايته حسابا عادلا، يجزي فيه الصالحون الجزاء الحسن ويهان فيه الكافرون بسوء ما قدموا، دون أن تظلم أي فرد من المبعوث إليهم.

وينوجه المشركون يسؤال يرتؤونه بين الفينة والأخرى يقولون: متى هذا الوعد الذي تهددنا فيه لو أعلم الله رسوله الجواب؛ أن الله قدر الكون وما يجري فيه. وهذه العقيدة مستقرة في نفسي، فأنا موقن بأنني لا أستطيع جلب مصلحة لنفسي ولا دفع ضرر عنها. وأنا لا أعلم إلا ما علمني وبصره لي، فمن باب أولى وأحرى أن لا أعظم متى سئط علىكم نعمه. وكل أمة لها أجلها الذي سيظهر فيه ما قدر لها، ولا تستطيع أن تؤخر الأجل عن مواعده ولا أن تقدمه.

بيان المعنى العام :

45 ويوم نحشرهم حشا له ويملأوا...وما كانوا مهتدين..

من أهم ما هد به القرآن الكافرين أنهم سيعتدون يوم القيامة بعد الموت. فكانوا نارية ينكرونه مستبشرين أن تعود الأجسام بعد تحللها إلى الحياة، ونارية يسألون عن معاده. وهذا التهديد ينرك لثرا في نفوسهم ويدخل عليها الحيرة. وقصص القرآن كثيرا مما سيجري يوم القيامة. ومن ذلك ما جاء في هذه الآية التي أثبتت أن الله سيحشر المكذبين يوم القيامة، وأنهم يشعرون كأنه لم يمتض على مفامهم في قبورهم سوى ساعة من النهار، وأنه يعرف بعضهم بعضا، ويذكر كل واحد منهم مخازيه ومخازي قريته. ونعلق الآية على مال الذين كذبوا بيوم البعث بأنه خسارة تامة إذ لم يستعدوا له، وأنهم لحرفوا عن الهدى وسلكوا مسلك الضلال.

46 وإما أولئك...ستعثر ما يفتنون.

نوجه القرآن بالخطاب للرسول ليؤكد له أن الله لا يفلت الذين اعرضوا عن الإسلام، وأن هذا الوعد بالانتقام له حالتان:

الحالة الأولى: أن الله يسلط عليهم أنواعا من العذاب في الدنيا، فيرى النبي ﷺ ما يحل بهم من المقت والتكيل، كما سلط عليهم القحط سبع سنين متوالية، وكما

هزمهم شر هزيمة يوم يثّر، وقتل صناديدهم وسبى منهم من سبى، وغنم ما غنم، وشاع انكسارهم في القبائل العربية.

الحالة الثانية: أن يواصل التتكيل بهم بعد أن يتوفاه الله، فلا يشهد ما يحل بهم، فالآية تضمنته على أن ملاحقة العذاب بهم موصولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأن الدين برعاية الله محمي من أعدائه. ولهم أن أفنوا من العذاب في الدنيا فيأنهم صانرون إلى العرض على الله يوم القيامة، والله عليم العلم الدقيق الشامل بما كانوا يفعلون في الدنيا، وهو وعيد بأنه سيسلط عليهم الجزاء العادل.

47- ولعلكم آتية رسول...وهم لا يخلمون.

جرت سنته سبحانه أن يبعث في الوقت الذي يريد، في الأمة التي تتعلق إرادته بهدائها، أن يبعث فيها رسولا، فيحثون من عدم المواقفة على أعمالهم، إلى حالة الرشد الإنساني بمعرفة الحق من لسان الرسول، ولتمحاسبة على العمل حسب الأحكام التي يبينها ويفصلها. ويتبع ذلك أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

قسم: يؤمن بالرسول ويتبع ما جاء به فتكتب له الفجاء والفوز برضوان الله والكرامة،

وقسم: يرفض ما جاء به الرسول ويكابر في الحق فيخسر دنياه وأخرته.

وهذا هو القضاء بالعدل بين الرسول وبين الأمة التي يبعث فيها، وقد تحقق النقاء الظلم عن المبعوث إليهم؛ فالمؤمنون حسن جزائهم على صالح أعمالهم ونقاء عقيبتهم موفور، وما يلقاه الكافرون من العذاب لا ظلم فيه، لأنهم لم يؤمنوا إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

48- 49، ويشترون متى..ولا يستقدمون.

يسجل القرآن بعض ما كان يدور بين الكفرة وبين الرسول ﷺ، فيعرض شبهاتهم وحاصل ما كذبوا به. يقولون لرسول الله ﷺ: متى سيحصل ما تعدنا به من العذاب في الدنيا؟ ومتى يكون عذاب يوم القيامة، أي متى يأتي هذا الميعاد؟ ويقولون سؤا لهم بإنكار حقيقة ذلك الوعد المذكور في الآية السابقة بإحراقهم: إن كنتم صادقين فيما سيجل بنا، وليكن الله رسوله الجواب المعبر عن النظرة الشاملة للكون، وما استقر في قلبه تبعا لذلك، فيأمره أن يقول لهم: إنني لا أستطيع أن أدفع ضرا عن نفسي، ولا أن أجلب لها نفعاً، إلا إذا شاء الله وتعلقت إرادته بمساعدتي على ذلك. ففي الحقيقة الجالب هو الله والمانع هو الله. وإذا كنت عاجزا عن الاستعداد بما ينبغي علي يقينا الضر في المستقبل، أو أن يجلب لي النفع والرفاه؛ فإن الحقيقة النابعة من ذلك أن الأمر كله بيده. وأنه هو وحده العليم بما سيجل بكم ومتى سيجل بكم، وإذا كان سبحانه لم يطلعني عليه، فجواب سؤاكم اقتنيت على الله، وسوء ادب منكم بسؤاكم عنه.

ويتبع هذه الحقيقة أن الله قدر لكل لمة أجلا، سيلتقيها في هذا الأجل ما قدره لها من نفع أو ضرر، وأنه إذا حان الأجل المكتوب في علمه تحقق ما قدره وسيطره، وإليه كما لا يمكن للإنسان أن يوخّر ما قدر له عن أجله، فكذا لا يستطيع أن يقدمه عن أجله، سواء أكان تكريما أم عقابا، إذ كل ذلك هو مقتضى الحكمة الكاملة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ غَازِيَةٌ فَمِنْكُمْ أَصْحَابُ الْمُنَافِقِينَ إِذَا ضَلُّوا فَهُمْ يَلْتَمِزُونَ أُولَئِكَ يَلْمِزُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَسْتَعِزُّونَ بِالَّذِينَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يُطْغَى عَنْهُمْ وَعَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَلَمُهُمْ أَظْفَرُ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْكَافِرِينَ يَكُونُونَ لَهُمْ سِمْطٌ وَمَنْ بَدَّلَهُمْ هَيْدًا فَتَبَدَّلُوا هَيْدًا أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْكَافِرِينَ يَكُونُونَ لَهُمْ سِمْطٌ وَمَنْ بَدَّلَهُمْ هَيْدًا فَتَبَدَّلُوا هَيْدًا أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْكَافِرِينَ يَكُونُونَ لَهُمْ سِمْطٌ وَمَنْ بَدَّلَهُمْ هَيْدًا فَتَبَدَّلُوا هَيْدًا

بيان معنى الألفاظ :

بيننا: باعهم بالليل .

الذوق : الإحساس .

أحق هو : هل هو ثابت لا شك فيه .

إي : حرف جواب لتحقيق ما تضمنه سؤال سائل .

المعجزون : الغاليون .

أفنت : تكلفت فداء نفسها .

بيان المعنى الإجمالي :

ما ذا نظنون إذا وقع عليكم عذاب الله الموعود به بغتة بالليل أو النهار؟ ماذا يفرككم استعجالكم؟ ولوق هذا عذابه وقوعه فعلا يقال لكم أنتم من آمنون به الآن وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم للعذاب مظهر تكذيب .

ثم يواجه الذين ظلموا بالشرك والعناد يوم القيامة بهذا الخطاب الدال على التكيل بهم: ليكن إحساسكم بالعذاب على أشد ما يكون الإحساس، هو العذاب الذي لا تخرجون منه . وهو جزاء عدل لما كسبتم في حياتكم الدنيا من الفساد .

ويسألكم مظهرين البلاء، هل إن وقوع عذاب الخلد ثابت؟ أجيبهم إي نعم . هو ثابت ولا تستطيعون الانفلات منه .

ويوم القيامة تكون الحالة النفسية حالة اليأس، يؤذ كل مشرك لو أمكنه أن يفدي نفسه من العذاب بتقديم ما حوته الأرض من خيرات، وإن تلك لا يفيد له لو كان يملكها. ويصعب حالة اليأس هذه كيست لأحاسيسه، فيأكله النعم الذي لا يستطيع أن يصرح به. ويصدر الحكم للعدل على كل مشرك بتون ظلم.

ويؤكد القرآن ما اهتم به أعظم اهتمام، فيذكر البشر بأنه وحده مالك ما تحويه السموات والأرض. وملكه العظيم هذا يحقق أن ما وعد به من الحشر والجزاء لا ريب فيه. ولكن الذي أعمى بصائر المشركين هو الجهل. إن من علم بالتأويل في هذه الأكوام، النظام الدقيق الذي يبت عليه، لا يمكنه أن ينسب لله ضريراً أو يكذب بما أخبر به. وأقرب شيء من الإنسان هو حياته وموته، فلا أحد يدعي التصرف فيهما، إذ هما له وحده سبحانه.

بيان المعنى العام :

50- 51- قل، أرايتم... كنتم به تستعجلون.

سأل الكافرون عن موعد العذاب في الآية (49) وهو سؤال يتضمن لهم مسؤولون يوم تحقق العذاب الموعود به. وبناء على ذلك فهم يستعجلون حصول العذاب ليؤسوا، وتنبههم هذه الآية إلى شدة عذابهم، فإنه إذا وقع العذاب فإنه لا يكون إلا عذاباً ماحقاً يستأصلهم ولا يمهلهم حتى يؤمنوا. وأنجح في الجواب ما يفيد تحقق وقوع العذاب بغنى إذ أنه سيأتيهم إما بالليل وإما بالنهار. ومعنى ما ذا يستعجل منه المجرمون ؟ أي إنه لا شيء يصلح لاستعجال المجرمين للعذاب، لأن مثل هذا لا يستعجل بل يطلب تأخير، وفي التعبير عنهم بالمجرمين ما يفيد استحقاقهم للعذاب لإجرامهم بالشرك.

ثم إنه فوق ذلك إذا وقع العذاب تؤمنون به ؟ ويبرز من المشهد مخاطب يقول لهم سؤال إنكار عليهم: تؤمنون به الآن، وقد كنتم به مكذبين تستعجلونه؟ فيجمع بين العذاب وبين التوريع على العناد والمكابرة.

52- ثم قيل للذين ظلموا... تهكسبون.

وعذاب آخر أشد: يوم يواجه الذين ظلموا بالشرك والمكابرة والعناد، وهذا مشهد من مشاهد يوم القيامة، ولعذاب الآخرة أشد، فيقال لهم تكذبا بهم: ليكن إحساسكم بالعذاب إحساساً بايقاً، وإنكم لا تجزون إلا جزاء وفقاً لما كسبتم من الفساد. فكرتم فيه ونفتموه فأنتم على الباطل بإرادة وإصرار.

53- ويستنبذونك أحق... وما أنتم بمعجزين.

تسجل هذه الآية صورة أخرى من مواقف المشركين. حاصلها أنهم تقدموا الرسول الله ﷺ سائلين ليعرفهم: هل إن وقوع عذاب الخلد الوارد في الآية السابقة حق لا شك فيه؟

عرف القرآن الرسول بالجواب الذي يرد عليهم ما نظأهوا به من الله، قل لهم: إي ! نعم - إنه حق لا شك فيه، وأقسم على هذا بربي سبحانه الذي لا يقسم به بار إلا على ما كان حقاً. وردنا على مظهر بلههم : إنكم معبورون مغلوبون لا تستطيعون إعجاز القدرة الإلهية عن تنفيذ ما تعلقت به الإرادة القديمة.

54- ولو أن لكل نفس ظلمت... وهم لا يظلمون.

هذا تحذير يحذر به القرآن المشركين، لعلهم يحذرون للمآل الصعب الذي ينتظرهم. إنه لو ملكك كل نفس، رفضت الإيمان واختارت الشوك، لو ملكك ما في الأرض جميعاً من خيرات وثروات، لو تحقق لها ذلك فإنها سود أن تقصه لتفدي نفسها من العذاب، وهذا وإن كان فرضاً كما يفرض المحال، إلا أنه لا يقبل منها ولا يخفف من عذابها شيء. وفوق ذلك هم لا يستطيعون الجهر بما يحصل في نفوسهم من اللذم عندما يرون العذاب، هم مكبوتون عاجزون عن التكفيس مما يحسون به من الأذى عندما يشاهدون الأحوال. ويصدر الحكم الثابت الذي لا ماثوية فيه على كل منهم. الحكم للعالم الذي لا ظلم فيه.

55- 56، ألا إن الله... وإليه ترجعون.

هاتان الآيتان تثبتان وتؤكدان كل ما جاء في الآيات السابقة. فما سبق من وعيد للمشركين، وبعثهم يوم القيامة وحسابهم، وكشف ما أراد كشفه مما سبق في ذلك اليوم، يقوم دليلاً على ذلك مبدعاً كل شك فيه: أن الله مالك السماوات والأرض، فمن تصرف في هذا الكون العظيم الذي يظهر الإنسان فيه ضعيفاً، يكون قادراً على تنفيذ كل ما ورد في الآيات السابقة. وإن ما أخبر به هو حق ثابت غير قابل للنفي. وما أرتياب أكثر المشركين في صدقه إلا أثر من أثار الجهل بحقائق الأمور. وتعلق الحكم بالأكثر لأن بعض المشركين في الظاهر، المنتمجين مع بقية المشركين، يعلمون الحقيقة ولكن لا يظهرون بمظهر التصديق مغلوباً لحظوظ الدنيا التي يخشون ذهابها لو أعلنوا إيمانهم.

و أكد ما سبقه المشركون باستفاح الجملة ب (ألا) المبهمة: إن وعده بحشرهم ثم بحفيهم حق لا شك فيه. ويدخل البشر تحت سلطانه بتقوده بالإحياء والإماتة، يجريهما بارأته وقدرته على كل إيمان، ولا يستطيع أي كائن أن يتدخل في بعثه للوجود ولا في بقاء وجوده.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَنِفَاقٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَعَذَرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِي مِنْ ذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتَمِعُونَ ۝
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أُثَرُ اللَّهُ نَحْمُ مِنْ رَبِّي فَنَجْعَلُهُ مِثْنَهُ خَرَامًا وَخِلَافًا لِمَا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

جاءكم : بلغكم.

الموعظة : النصيح والتحذير مما يضر .

الصدور : جمع صدر والعرد به النفس .

الفرح : السرور الشديد .

يجمعون : يحصلون من المال .

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ الله البشر جميعاً ليقرؤا ما أنزل عليهم، المحرك لقلوبهم فكشف لها عن الخير ليفعلوه وعن الشر ليبتعدوا منه. والمحسن لمقولتهم وملكاتهم من الزيغ والضلال، والمعروف بطريق السلامة في الدارين، والمساعد على السير فيه.

إن جميع ذلك هو من فضل الله ورحمته بكم، فكونوا ممتوريين أنتم السرور بما جاءكم، وإن ذلك الفصل مما يجمعه المشركون من الأموال.

إن تحكم المشركين في ما يجمعونه من الأموال، التي أنزلها الله وحده عليهم، ولا دخل لآلهتهم ولا لأفئدتهم في قليل ولا كثير فيما حصلوا عليه من الرزق، فأبلوه بالتحكم التعسفي فحرموا ما شألوا وأحلوا ما شألوا. قل لهم ملجأ هل اعتمدتم في التحليل والتحرير على إنن وصل إليكم من الله، أم أنتم تكذبون على الله؛ وإذا كان الله لم يأنن لهم، فهم كذبة مقتررون.

وما هو المصير الذي يقطن الكاذبون أنهم مقبلون عليه يوم القيامة ؟ إن الله هو المتفضل على العباد وفضله لا يحد، ولكل أكثر الناس ينكسرون فضله ولا يشكرون نعمه، والمؤمنون يقدرون نعم الله عليهم فيشكرونها معترفين بالفضل.

بيان المعنى العام :

57- يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

هذا نداء للشمسية في جميع الأعصار ومتتابع الأزمان، بلغت فيه أنظارهم إلى النعمة التي أنعم بها عليهم بإزالة القرآن الذي بلغهم إيحاء رسول الله ﷺ، وفصل هذه النعمة في المقومات التالية التي لخص بها:

أولاً: هو موعظة، والموعظة تقوم على النصيح العام والخاص لمن يتوجه المخاطب بها. وبذلك فهي تشمل بيان ما يمكن من النجاة والفوز والطريق السالك لبلوغ ذلك، وتشمل أيضاً التنبيه على ما يعترض السالك من المهالك التي تتحرف به عن بلوغ قصده. فهي بذلك بيان للحقائق وأوامر ونواه. وهذه الموعظة متميزة بأن الذي يعظ بها هو من يعلم عواقب الأمور كعلمه بحاضرها، فأمن للمستجيب لها على تحقيق غايته لمر لا شك فيه، مصديها هو الذي أحاطكم بالطفاه بما تشير إليه كلمة الرب من معاني الألفاف والعناية.

ثانياً: شفاء لما في الصدور. والمراد بالصدور الملكات التي تسير الإنسان في حياته من روح وغفل وعوطف وغيره. وكل واحدة من هذه الأربعة معرضة للاستقام والانحراف. والعلاقة بينها على التغالف الذي يحرم النفس للسكرية. فالمواطف والغرائز تدفع بقوة إلى الأثرة والضلال والشر، والعقل قد تفرق له مسالك الخير فوسقتم في تفكيره، وقد تحجبه العوائد للسخرية والمجتمع وغواية الشيطان فيفضل، والروح تصفو بمقدار ما يلغى صاحبها في الخير والطهر، وتظلم في عكس ذلك. إن هذه الأسقام التي تتعرض لها الملكات الإنسانية تجد شفاها فيما جاء به القرآن فهو حصانة من الاختلال المهند لنظام تكلم القوي وتوازنها. ومن ناحية أخرى فهو الذي ينبه إلى المرض، ويصف الدواء الشافي، ويصف للمريض ما يحب عليه فعله وما يجب أن يمتنع منه حتى يشفى.

ثالثاً: هو هدى، الإنسان في الحياة كسائر بلغ مفترق طرق متساوية في الظاهر، كلها تضل إلا اتجاه واحد يبلغ به قصده إن هو اتبعه. ولما كانت الغاية التي يشدها السائر في حياته هي السعادة، وحصولها لو ضياعها أمر لا يعلمه إلا من تمكن من معرفة الغيب، ومعرفة الغيب لله وحده، فليطمئن الإنسان إلى أنه إن طبق في حياته المنهج القرآني أنه سيحقق سعادته.

رابعاً: هو رحمة. وقد بينا في سورة الفاتحة هذه الرحمة العلية الشاملة، ولكن لا يعيش في ظلالها الوارفة وفي أمنها إلا المؤمنون.

58- قل بفضل الله. مما بجمعون.

أمن القرآن بجمعون هذه الآية اهتماماً خاصاً، فافتتحها بأمر النبي ﷺ أن يقول ما ورد فيها ويبلغه. والنبي ﷺ لا يكتم شيئاً مما يأتيه من الوحي، فكان الأمر بالقول

مبرزاً للاحتمام بما جاء فيها، فما الذي أمر به ؟ قل للمؤمنين: إن ما لفت إليهم الأنظار في الآية السابقة: موعظة من ربكم، وشفاء لهما في الصدور، وهدي، ورحمة؛ للعناصر الأربعة التي بينها هي جماع الخير، وبها تكمل معادة المؤمن. فعلى المؤمنين أن يتركوا هذه النعمة التي خصهم بها رب العالمين، ولتنتشر قلوبهم لنزول القرآن عليهم بما يحويه، وليعلموا أن ما خصهم به هو بفضل الله ورحمته، ولن عليهم أن يشعروا بالغبطة والسرور للخير الذي وصلهم. وإن هذا الفضل بما أنزله عليهم في القرآن من الهداية، والرحمة التي طلت في قلوبهم فاتبعوا ذلك الهدى، هو لا يفسد بما يجمعه البشر من متاع الحياة الدنيا، إذ إن هداية القرآن والتوفيق لاتباع ما جاء فيه، يجعل قلوبهم مطمئنة راضية، وهممهم عالية، وعقيدتهم واضحة صحيحة، وحبهم للخير والفضيلة يرفع مكانتهم الاجتماعية في الدنيا، ويمتد الروابط بينهم. فما حرموه في أول أمر البعثة، وما عليه بعضهم من الفقر خاصة بعد استيلاء المشركين على أموالهم، سيعقب ذلك قبض الأموال عليهم في الدنيا، ويصل بهم إلى جنات النعيم في الآخرة.

59- قل أطيعوا الله تعتقون.

هذه الآية نظير الآية السابقة الفتحت بكلمة (قل) والموجه له الخطاب بهائم المشركون. قل لهم يا محمد، إظهاراً لخلل تفكيرهم، وتحكيهم لأهولتهم، ولجاء لهم ليذعنوا: ما هو رأيكم وما هي عقيدتكم فيما أنزل الله لكم من الرزق، فحكمكم فيه أهواكم، يجعل بعضه حلالاً وبعضه حراماً، تقرر الآية ما لا يستطيعون نكرانه، أن ما وصلهم من رزق مما تلبثه الأرض، أو من الأنعام الزراعية، هو من عند الله بما أنزله من بركات السماء المنبثة للأعشاب والموعى، والزروع والثمار، إنه لا مدخل لهم ولا لأحد من الهتهم في بلوغ ذلك إليهم، وإذا كان السالك المعطى هو الله، فكيف حكموا فيما لا يملكون ؟ حكموا فيه حكماً نسفياً، حكموا على بعضه فجعلوه حلالاً، وحكموا على البعض الآخر بالحرم. كما تقدم لنا في سورة الأنعام الآيات (119/121/136/138-144) والجاهم القرآن بسؤالهم عن سندهم في أحكامهم تلك، فقسم ما يفترض من السند إلى قسمين لا ثالث لهما، إذا فتى أحد الشافعين ثبت الآخر.

هل إن مستحكم في التحريم والتحليل إذن مصدر عن الله، إذ هو المالك وبالتالي هو المحلل أو المحرم ؟ أم لنتم تكذيب على الله فتوليت التحليل والتحريم وليس ذلك لكم، فاتبعتم ديناً لا أسس له، فما اعترضكم ونكرانكم للسند الثالث بالأئمة القويينية؟ وإذ لفتني أن يكون الله لنا لكم، فلم يبق إلا أنكم مفترون كاذبون.

60- وما خلقنا الذي يفترون ساجدوه ولا يشكرون.

عجب لأولئك الكذبة المفتريين، ما يفتنون أنهم سيلفونه، ما إذا ستكون مكائنتهم وما هو حالهم إهم سيقيمون مجردين من كل حول وقوة يوم القيامة، وقد كانوا لفتين مواصلين للكذب على الله، فيصحبهم خزي الكتب وكلفة المنظر. إنهم لوقعوا أنفسهم في الخمران العميقين. نلتك أن الله تفضل على البشر جميعا ببيان طريق الهداية والنجاة، ومنهج العقل المميز بين الحق والباطل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة ربهم، فغطلوا عقولهم عن النظر، وقابلوا النعم بكفرانها، وقابل المؤمنون نعم الله عليهم بالاغراف بها والشكر لله على ما تفضل به عليهم، والاجتهاد في القيام بما يرضيه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ مَّا تَفْعَلُونَ مِمَّا قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا سَعَيْنَا عَلَيْهِمْ شُورًا إِذْ تَبْتَغُونَ فِيهِ وَمَا يَكُرُّ عَرُؤُكَ مِنْ تَفْقَاهُ لَدُنَّكَ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا تَسْأَلُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۚ أَلَا يَتَذَكَّرُ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ الْآيَاتِ ۚ وَتَعَاوَنُوا لِقَايَتِهِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ الشُّجْرَ ۚ وَالْحَبَّ وَالذُّهْنَ ۚ وَالْأَفْجَرَ لَا تَبْدِيلَ لَهُ ۚ وَاللَّهُ ذَاكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَلِيمُ ۚ وَلَا تَزِدْ لَهُ لُؤْلُؤًا إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

تشأن: العمل، والحال العام.

شورًا : جمع شاهد، بمعنى العالم علم للمشاهدة.

تلبسوز : الإقاضة في العمل الاندفاع فيه.

يكره : يخفى.

مقال : معيار يعرف به الوزن.

الفرقة : أصغر الأجسام حجما ووزنا. وتطلق ويراد منها القملة الصغيرة التي هي أصغر حيوان مدرك وقت نزول الآية.

كتاب : علم الله.

أولياء الله : المقربون منه بامتياز هم القريب منه والأئمة به، وهم الذين يقربهم إليه برعايته لهم الرعاية الخاصة، ويوفهم لما يرضيه.

لا تبدل : لا يطل.

بخرصون: يقولون قولاً يستدلون فيه إلى التخصيص معرضين عن المصطلحات الهادية.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله نبيه بإعلامه بأنه يرعى في كل أمر هام يقوم به، وكلما تلا على النمر ما أنزل عليه من قرآن، وأنه يرعى كذلك المؤمنين وهم يكافحون في الحياة ويدفعون. وعلم الله شامل للكون كله، فلا يحجب عنه أي كائن مهما ضيول وزنه كالنملة الصغيرة ولا ما عظم كالمجرات، سواء أكان حالاً في الأرض أم في السماء. كل ما يجري على الحوادث مثبت في سابق علمه، موثق في اللوح المحفوظ.

ويتميز من بين المرضى عنهم أولياء الله المقربون منه، الذين يرعاهم رعاية الرضا، وهم الذي صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أفعالهم، فبينهم وبين الخير مسبب قوي ونسب. يلتزمون بالطاعة ويحضر في عقولهم صلواتهم برزهم على جميع الأحوال. جزاؤهم أن الله كتب لهم البشارة بالخير في الدنيا والآخرة ووكّل ملائكته بتنفيذ ذلك، وما قرره سبحانه ثبت لا يتغير. وما ذلوه هو الفوز الأكبر الذي ليس وراءه مرتبة.

ولا تلب يا محمد لفبح لقوالهم، ولا تلتز لها تلتزاً يدخل الحزن على قلبك. فهي أقوال لا قيمة لها، والله أعلى وأجل من أن يتأثر بأقوالهم، إن الله متفرد بالعزة ولا عزة لغيره؛ إنه يسمع لقوالهم ويعلم نواياهم، وسيجازيهم عنها.

ومن مظاهر عزته، أن كل من رحل في السموات ومن سكن في الأرض، مملوك لله، ولذين يعتقدون في قدرة الأصنام فيدعونهم من دور الله، على أنهم شركاء له، هم قد حجّبوأ عقولهم عن النظر ولتبعوا ظنوننا لا أيمان لها وتمسكوا بخيالات كاذبة.

بيان المعنى العام :

64 وما تكون في شأن. هي كتاب مبين.

الذي فهمته من هذه الآية أنها حققت غرضين:

الفرض الأول: أن الله يرعى رموله ويرعى أمته في جميع الأحوال، ويشير ذلك إلى ما لرسوله بين البشر من المكانة والعزة، وما لأمته من الكرامة عند ربه.

الفرض الثاني: التنبيه التكميلي على شمول علم الله لكل ما يحدث في الكون، ولنتوقع بعد ذلك نسق الآية في تفاصيلها.

1) يخاطب الله نبيه معلماً له أنه لا يكون في حال من أحواله التي يقوم فيها بأداء مهمات الرصالة، بما يشعل القلب والقيام على تدبير أمور المؤمنين، وتنظيم

علاقتهم، ورفع معيولانهم، وبما يشمل إقباله على العبادة وقيام الليل؛ لا يكون في حال من هذه الأحوال إلا والله شهيد عليه يرقبه ويؤيده، ويوقفه لما يرضيه، وفي ذلك إلماعة للطمأنينة في قلبه بعناية الله به، وفيه تسلية عما يلغاه من الكفرة من الإذنية لأن الله معه في جميع أحواله.

(2) ما يتلو: من الأمر للهام الذي أنت قائم به خير قيام، من نشر القرآن وإذاعته بين البشر، القرآن الذي يوضح المنهج ويبين القصد، ويؤمن الطريق، كر واتقا أن الله شهيد عليك، يوفقك لتثبيت الصالح، ويقمع الجاحد.

(3) ولا تعملون عملاً أيها المؤمنون مما توجهون له جهدكم، وتتدفعون لإنجازهم، إلا والله معكم يرعاكم ويسد خطاكم، وعبر سبحانه عن ذلك العلية بضمير الجمع (كنّا) بظهارا لعظمته سبحانه.

يستند كل ذلك إلى أن علم الله هو علم شامل لكل ما يجري في الكون، فلا يغيب عن علمه أي كائن مهما ضلّ وزنه، ولو كان نملة صغيرة أو هبالة، مما لا يدركه البصر إلا في الحزمة الضوئية في محيط قليل ضوؤه، وكذلك مهما عظم، إذ عظمه لا يحجب علم الله عن الإحاطة به وبقتلياته. وسواء أكان مستقره في الأرض فوق انديمها، أو في محيطها، أو في باطنها، أو في السماء في مرامي أبعادها للهائلة، كل ما يجري على الكائنات هو مثبت في علم الله المعبر عنه بالروح المحفوظ، فلمه لا يتغير بحدوث الحادث إذ هو سابق على الحدث.

62 63، ألا إن أولياء المؤمنين

هذه الآية مفتحة بما يدل على الأهتمام بمضمونها وتحققه، وذلك مأخوذ من كلمة (الأ) مضمونها: أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأولياء الله هم المؤمنون من عباده توفيقاً بلغ درجات من السمو والنقاء، أخلصهم ليعملوا هذه الصفة المرتبطة برب العزة لرباطاً من الجهتين، من الله ومنهم.

قولي الله هو من جميع بين أمرين:

(1) الإيمان الذي لا يدخله شرك ولا شك، والذي يجد به المؤمن نفسه في كل لحظة من لحظات حياته، قريباً من ربه، يختلج أن يطلع عليه في موقف أو مكان لا يرصاه، كما يخشى أن يغيب عن موقف يتحتم وجوده فيه. فهو ليس المؤمن إيماناً منوئاً في ساعات كثيرة ومغفولاً عنه، ولكنه الإيمان المتعيقط صاحبه إلى ما يحمله من غفيدة قاعلة في وجوده.

(2) المتقوى لله يتقوى الله فتح بصيرة المؤمن على الخير فتجيبه إليه، وتردعه عن الشر فيكرهه ويمقتّه. وتكون التقوى ملازمة له، فكلما حضره اختيار لعمل سوء، قلّفته تقواه إلى الخير وأبعثته عن الشر.

64 - لهم البشرى في الحياة الدنيا والفوز العظيم.

تذكر الآية ما خص الله به أوليائه من تكريم فى الدنيا والآخرة، ذكرنا يعطى للتصور أن يذهب فيه كل مذهب، إن لهم وحدهم البشرى، بما يفيد الثقة الكاملة والرضا بما خصوا به من فضل. وإذا أخذت النفس حظها بمستوى لا تطلب بعده المزيد فذلك هي السعادة الكاملة. إذ المبشرون ولتقون فى المستقبل املون فى أنهم بمنزلة من رعايه الله وحبه.

وبعض العامة والدماء يخصون أوليائه الله، بأفراد ضعفت مداركهم العقلية، وربما سأل لعابهم على لفتاتهم، لا يعتقدون بنبأهم ولا بنطاقه أجسادهم، ويكادون يكونون عائلة على غيرهم فى جميع شؤونهم. وهذا الفهم باطل وغير صحيح. تلك أن أفضل المؤمنين فى هذه الأمة محمد رسول الله ﷺ، وصحابته الذين أكرمهم الله بالسبق للإيمان به، وبالجوس إليه والأخذ المباشر من هديه، هم كانوا حملة الدين إلى من أتى من بعدهم، وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده وكانوا مع رسول الله فى غزواته، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لتكون كلمة الله هى العليا، وكانوا على حظ عظيم من راحة العقل وحسن السمات والأخذ من الدنيا فى غير صرف. لبسوا الجيد من الثياب وأخذوا رينتهم عند كل مسجد. وما أعرضوا عن الدنيا ولكن أخذوها على أنها مطية للآخرة. وقد فتح الله لهم أبواب الرزق، وما حفظته كتب السيرة من بذل سخى لأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم يوم شاهدوا على أن التقوى محلها القلب، وليس بينها وبين الإعراض عن الدنيا الإعراض للكامل أي صلة.

وقال معظم المفسرين إن هذه البشرى إن الفوز بالجنة ويسم للقيامه، ولما فى الدنيا فرورى أنها هي الرزقيا الصالحة، وقيل هي المنزلة التي يشتر بها المؤمن عند موته. والذي أرجحه هو ما ذكرته من تقهيم بالمستقبل الذي تؤكد بقوله تعالى: لا ينالون ثبات الله. فقد كتب الله هذه العناية بهم ووكّل بها من يرعاها من ملائكته. ثم ختم كل ذلك بإقرار التقوى بما أوتوه: أنهم حازوا العضل العظيم. وكفى بذلك تقديرا إذ هي شهادة الله العظيم سلطانته الذي لا يحد ملكه، فهو يشهد بأنهم أوتوا الفوز العظيم. وهذا يناسب ما رجحناه من أن البشرى لا تختص بأمر واحد، وما ذكر هو عرض لبعض ما يصح أن يتناوله النص.

65- ولا يحزنكم قولهم... وهو السميع العليم.

ولا انتفى الحزن عن أولياء الله، فإن الرسول ﷺ كان يشد عليه ما يسمعه من المشركين من تمجيد لأهلهم، ومن التناول على مقام الجلالة سبحانه، وما يصحب ذلك من إذابة المؤمنين، وتقننهم في الاستهزاء والسخرية بالمقدمات، فلذلك أمر رسوله أن لا يتأثر بما يقولونه، ولا لتناولهم بما استخرجوا به من قوة وأموال وعصية إيماء إلى أنها مجموعها أعراض زائلة، وقوة يقبها ضعف وانحلال. وللعاقبة للمؤمنين، فإن الله سينصر دينه ويمحق الشرك ويظهرك على أعدائك. فالقوة التي لا تغلب، والإرادة التي لا تقهر هي لله وحده، ويجسن بقارئ القرآن أن يصكت سكتة خفيفة عند تلاوته الآية عند إتمام كلمة (قولهم) ثم يستأنف: إن القوة لله جميعا.

ثم يؤكد القرآن للنهية الطافرة: أن العزة والغلبة لله وحده. فهم ألبون إلى ذلته ونكالي. يتبنت هذا: أن الله سميع لما يقولونه في الجهر فيعتنهم بمقدار ما أجموا، ويسمع همساتهم فيما بينهم وما يدونه من مكر، وهو يعلم ما تنطوي عليه ضمائرهم من بقص للحق، وإعداد للمكر بالدين. وهذا الإعلان بطلاعه التدقيق على خبئهم الباطن والظاهر، هو وعيد لهم.

66- ألا إن لله... وإن هم إلا يخرون.

ويقوم شاهدا على أن العزة لله جميعا، هو أن ما تحويه السموات والأرض مما يعقل وما لا يعقل ملك لله. والعزة الحقيقية هي للملك الواحد. وما يتبع الذين انحرفت عقولهم وفسدت فطرهم، فادعوا الهة من دون الله وأشركوهم معه سبحانه في الملك، هم لا يتقون إلا ظنونا كاذبة لا سند لها، فهم في الحقيقة يلقون عقولهم عن كل المعطيات التي تساعد الإنسان على المعرفة، ويستندون إلى تخيلات من الأوهام الباطلة.

هو الذي جعل لكم أئلكم لتسكنوا فيه... من غير أن في ذلك لآية لمن يعقل
 يسمعون ﴿٦٦﴾ قالوا اتخذ الله ولداً ما من شيء مثله ولا شيء مثله وما
 في الأرض إن عجدكم من خلقه بهذا تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٦٧﴾ قل
 إن الذين يقولون على الله الكذب لا يفلحون ﴿٦٨﴾ متع في الدنيا ثم آتينا
 من بعدهم ثم ندينهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

تَتَخَذُ : الاتخاذ أخذ شيء موجود للاستئثار به. أو إيجاد شيء للاختصاص به.

المسلطين : البرهان والحجة.

الغُلاح : حصول المبتغى من العمل مع سلامة العاقبة.

المنافع : المنفعة الآتلة إلى الزوال في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بجعل الليل للناس في هذه الحياة وقتاً يسكنون فيه، يحددون نشاطهم ويريحون أبدانهم وعقولهم من عناء العمل اليومي، وجعل النهار ضياءً يبصرون فيه ما حولهم فتتصق معارفهم فيما يحويه للكون، ويفقدون صلاتهم ببعضهم. إن في سماح القرآن ما يوظف العقل ليندرك ما في هذا التنظيم من الدلائل على تفرد الله بالتنظيم الحكيم.

قال الكفرة: إن الله اتخذ ولداً، والله منزى أن يكون له ولد. وكلامهم باطل. وذلك لأنه هو الغني الذي لا يتصور أن يكون محتاجاً لاتخاذ ولد، وهو مالك ما في السموات وما في الأرض، وس الدافق أن يكون له ولد وهو مملوك له، ولما اطلقوا كلاماً غير مستند إلى دليل يصدقه، كان كلاماً باطلاً، واستحقوا أن يوبخوا لتجاوزهم بالقول على الله بغير علم.

إن الذين تبلغ بهم وقاحتهم أن يكتذبوا على الله هم خاسرون في الدنيا، فلا يحقق لهم كذبهم أي نفع. وما يحصلون عليه من مظاهر تلفت للظفر في الحياة الدنيا من رئاسة أو مال، هو ما لا قيمة له امرعه زواله، ثم يسلط الله عليهم عذابه الشديد الذي يحسونه أشد الإحسان بسبب كفرهم.

بيان المعنى العام :

67 - هو الذي جعل لنعمة... لتقوم بسمعونه.

من مزايا القرآن أنه يجعل الإنسان يقظاً لما يجري حوله، لا تصحب منه الرذيلة ولا التكرار ما وراءها من حقائق عيفة. فهذه الآية ترفع الغفلة عما يتنازع بصفة منتظمة على الإنسان من تبادل بين الليل والنهار. وتجاوزت الآية الظاهرة إلى ما وراءها من ارتباط الإنسان بهذا التحول، الذي يعطيه ما تتم به حياته. فالليل والنهار يتعاقبان بصفة منتظمة. يأتي الليل فيسكن الإنسان إلى الراحة ليجدد ما فقد من طاقاته، ولينعم في سكون الليل بعلاقات حميمة للنفس ممتعة وصلات عائلية بها تتمكن الرابطة الأسرية. والظلام يساعد على تحقق ذلك. ويأتي النهار مضيقاً فينفذ

إشراقه إلى الكائنات بما يمكن الإنسان من التعرف عليها، ثم النشاط وعقد صلات بها فيتكون المجتمع ويتقدم العلم، ويستطيع القيام بما لوكل إليه من الخلافة في الأرض لتعميرها.

إن في هذا التنظيم الدقيق ما يقوم شهادا ودليلا على تفرد الله بالقدره الشاملة والحكمة البالغة، إن من يسمع كلام الله سماع المقل عليه ينتفع من عرض القرآن، فيستيقظ إلى ما في نظام الكون من دلالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، فيتعمق إيمانه.

68- قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا...بِمَا لَا تَعْلَمُونَ.

من أقوال المشركين الفاسدة والباطلة، قولهم إن الله قد اصطفى من خلقه من اتخذ ولدا، فتمسوا له سبحانه بعض الملائكة أولادا، وقال آخرون إنه تولد من الله ما هو ولد له، وهذا غير ما تعتقده النصارى من بنو عيسى.

نفي القرآن أن يكون لله ولد بأمر:

(1) أن هذا مخالف لتزيه الله عن النقص، وهو معنى: سبحانه، إذ يتناقض القول بألوهيته مع نصبة ولد له.

(2) أنه الغي لكماله فلا يتصور أن يكون محتاجا لما يكمل به ذاته، وطلب الولد إنما هو للنقص في الأصل يمثل في أن الأصل مثرك لذاته، فهو يرغب في الولد ليكون امتداده في الوجود، أو يرغب في الولد لمساعدته عند الحاجة، فاعتقاد كمال الله بغناه، ونسبة الولد له تناقض مرفوض.

(3) سيدخل تحت ملك الله كل ما تحويه السموات والأرض، بما يشمل جميع المخلوقات، والملك والبنوة متنافيان، ولذا كان من أحكام الشريعة أن الولد إذا دخل في ملك أصله خرج حرا في الحال.

(4) إن كل قول لا قبة له إذا لم يستند إلى دليل يثبت صحته، والدعوى الفاقدة لستند، لا يحتج بها، وليس لهم دليل على ما ادعوه من اتخاذ الله ولدا، فكأن دعواهم أن الله ولدا دعوى مرفوضة من أسامها.

ثم وبخهم على التجني على الله، منكرًا عليهم أن يقولوا على الله ما لا علم لهم به ولا سند من عقل أو كتاب.

69- 70- قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ...بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ.

واجههم يا محمد بالحقيقة التي لا مفر لهم منها: قل لهم: إن الذين ينتمون من خيالاتهم مما لا أصل له، فيكذبون على الله وينسبون له الباطل ماله للخرن المبين

في الدنيا، ولا يجنون من فتراتهم على الله أي نفع دائم، ومظاهر النعمة التي يمكنهم منها، ما هي إلا نعمة زائلة مؤقتة، ثم نسلط عليهم العذاب الشديد يوم القيامة، فيحسون ألمه أشد الإحساس، وما ذلك إلا بسبب استمرارهم على الكفر.

• **وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ تَبَأَ أَوَّحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ عَسَا فَنَدُوكُمْ مِّنْ حِينٍ لَا تَذَكَّرُونَ** **كَانَ كَبِيرٌ لَّيْكُم مَّقَامِرٌ وَتَذَكِّرِي بِقَائِهِمْ** **اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ** **بَشْرًا** **لَّئِنْ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيَّ** **عَمَلًا لَّآتَوْا إِلَىٰ لَا تُحْطَرُونَ** **فَارَاقُوا** **لَيْسَ لَكُمْ مِنَّا أَحَدٌ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْجِبِينَ** **فَكَذَّبُوهُ فَتَبَعْنَاهُ وَمِن مَّعَدٍ لِلْفَلَاقِ** **وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لَأَكْذِبُنَّ كَذِبًا كَانَ عِقَابُ الْمُذْذِبِينَ** **ثُمَّ نَعْتَبِرُ بِهِ** **رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَذَّبُوا بِهَا كَذِبًا** **وَيَوْمَ يَرْجُفُ الَّذِينَ كَذَّبُوا** **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَى قُلُومِ الْمُتَعَبِينَ**

بيان معنى الألفاظ :

كبر عليكم : شق عليكم ولوقعكم في الحرج.

مقامي : حالي وشأني.

توكلت : عولت.

اجمعوا أمركم : اعزموا على الفعل بعد التردد.

لا يكن أمركم عليكم شعة : لا يكن ما نقصدون فعله غير واضح.

اتقوا : اتقوا ما عزمتم عليه.

الأجر : العوض الذي يأخذه العامل.

نظيبح : نختم ختمًا لا يحصل بعده الفتح.

بيان المعنى الإجمالي :

أول ما محمد الخبر الذي قصه القرآن عن نوح. حاصِل هذا الخبر الهام: أن نوحا بعد أن وَّالَى دعوة قومه انتهى إلى اليأس من استجابتهم؛ فقال لهم يا قومي إن وصل بكم الحد إلى استنقال وجودي بينكم وتخرجكم من تذكيري لكم بالآيات البينات والنعمة التي تتعمون بها، فاعلموا أنني معول على ما يستنقني به ربي من العون. وهذا يجعلني لا أخاف شيئا، فاتفقوا مع شركائكم على الأمر الذي ترونه، وليكن ما تجمعون عليه واضحا بينا، ثم نفقوا ولا تتراخوا. فإن وصلتم الإعراض

وتوليتهم مستمسكين بالكفر، فإني أنكركم أني ما طلبت منكم أجرا على ما بلفظكم إياه من الحق؛ وذلك لأن أجري على الله الذي أمرني أن أكون موحدا له، مخلصا لجلاله في جميع شؤون حياتي. فواصلوا تكذيبه ولم يقلعوا عن الكفر، فنجاه الله ومن كان مؤمنا معه في الفلك، وأهلك المكذبين بأيات الله بإغراقهم. وكانت عقابتهم واضحة هي الاستئصال لأنهم أنذروا فلم يقد ليهم الإنذار.

ثم إن الله تولى البشر بالطفاه فأرسل إلى الأقسام الذين حلوا عن طريق الهداية رسلا، فكذبوهم رغم ما كانوا مؤيدين به من المعجزات، وواصلوا التكذيب. أفد طبع الله على قلوبهم فلا ينفذ إليها من نوره الرسالة شيء بسبب عبثهم بالشرك ورفض النظر في الحق.

في بيان المعنى العام :

71- وأتى عليهم نوح...ولا تغفلوا.

بعد أن أقيم للقرآن الحجة على المشركين، وبعد أن ذكرهم بنعمه، وبعد أن هددهم ليقطعوا عن الكفر والعناد، تولى تذكيرهم بما حصل لقوم نوح الذين كان موقفهم من رسولهم نوح أخيرا كموقفهم من محمد ﷺ.

أتل على المشركين خبر نوح عليه السلام مع قومه ليعتبروا بما سلط عليهم من عذاب فيقطعوا عن العناد. فيكون هذا النبا نوعا آخر من أنواع للتأثير الداعي إلى الإيمان.

خاطب نوح المرسل إليهم متحبا إليهم متطفا معهم، ناداهم بقوله يا قومي، وشأن الإنسان أن يكون محبا لقومه ناصحا لهم بمعنى لما فيه خيرهم. وهذا هو شأن المرسلين، وما ينبغي أن يكون عليه الدعاة إلى الخير والصلاح، من اللطف في الخطاب، وإثارة الروابط المحركة لنيل المواطنين، حتى يقرن ما يقتضيه العمل بما تدعو إليه العاطفة، وعرض عليهم أنهم إن شق عليهم مقامه بينهم ومنعوا طريقته التي يدعوهم بها، التي هي التذكير بالأدلة البينة على التصور الحق والمقيدة الصحيحة في خالق الكون وكمالاته، وما أفاضه عليهم من خيرات، فاعزموا على تعذيب ما يترتموه، وأشركوا معكم شركاءكم الذين تعتقدون بأن لهم قدرات تفوق قدراتكم. إني لا أباي بما استعذتم به من الإضرار بي ولا أخشاكم. اجتهدوا في تدبير أمركم حتى يكون ما تقصودون يلقاه واضحا بينا لا نرد فيه ولا غيبش. ثم قوموا بتنفيذ ما صممتم عليه، ولا تتأخروا بي لإيقاع ما عزمتم عليه.

72- إنا أنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به الحبوب.

فإن أعرضتم عما دعوتكم إليه، فتذكروا أنني ما سألتكم من حزاء على ما قدمته لكم من هداية، وما بينته لكم من الحق. لا أنتظر أجراً على ما قدمت به (إلا من الله، الذي أمرني، وأمره واجب للطاعة والتطبيق، أن أكون من المسلمين الموحدين لله المخلصين له في العبادة.

73- فكذبوه فتجينا...سكان عاقبة المنذرين.

قابل قوم نوح رسولهم في النهاية بالتمادي على التكذيب، وترتب على هذا الموقف الرافض المتمسك بالتكذيب، وياس نوح من إيمان أي واحد من المصممين على الكفر، أن نجاه الله والذين آمنوا معه في السفينة، وأن يبارك فيهم فجعل أعقابهم خلفاء في الأرض بعد إغراق المكذبين واستئصالهم .

وإن تمت الصورة حتى كافها حاضرة، ورد الأمر بالنظر إليها تحقيقاً للنبا الذي انتجعت به القصة. شاهد الوضعية التي كانت عليها عقبة المكذبين، وما كانت إلا جثثاً طافية على سطح المياه تتقاذفها الأمواج. وفي ذلك تهديد لمشركي مكة إن هم أصلاً رافضهم وعنادهم.

74- ثم بعثنا من بعدهم...على قلوب المعتدين.

عذية الله بالشرية مسترسلة، فبعد أن أغرق المكذبين من قوم نوح، توالى رسالاته للبشر، كلما حانوا عن الطريق الصحيح في الإيمان. ولم تسم الأية المرسلين كما وقع في مناسبات قرآنية أخرى، وهي معلومة من مواقعها في القرآن. ومن الألفاظ الإلهية أن كل رسول بعث في قومه معروف عندهم غير غريب عنهم، جربوا صدقه وأمانته قبل تحمله مهمة التبليغ والهداية. فكان كل رسول يقدم لقومه المعجزات التي تأيد بها ليتمكن من هدايتهم، وقابلوا تلكم البراهين والمعجزات بالتكذيب، وواصل الرسل الدعوة وطرد الأوهام والكشف عن المنهج المعقول، واستمر المكذبون على التكذيب الذي أعلنوه من قبل. وعلى هذا النحو من إشفاق منادى الحق إلى عقولهم بدم الطبع على قلوب المعتدين بالشرك والعناد. والطبع أصله ختم ينقش بالشمع على الرسالة حتى لا تفتح.

لَمَّا بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا فَجُورًا ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُرْقُ مِنْ عِبَادِنَا قَالَوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْخُرْقِ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْسَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَوا

أَحَدًا نَفْسًا مِّنْ وَجْهٍ عَلَيْهِ سَاءَ مَا يَكُونُ لَكُمُ الْعَذَابُ فِي الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْكُمْ
 لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَنِّي بِكُلِّ مَسْجَرٍ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ
 لَهُمْ مُوسَى الْقَوْلُ مَا أَنتُمْ مُلْقَوْنَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا الْقَوَا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ
 اللَّهَ سَيُعَذِّبُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلُحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَحَقُّ اللَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِمْ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملا: خاصة للناس، وسائرهم.

الاستكبار: المبالغة في التكبر.

مجرمين: مرتكبين لعظيم الذنوب.

لتلفتنا: لتولينا وتصرفنا.

الكبرياء: التلوق على الناس.

الإلقاء: رمي الشيء إلى الأرض.

جئتم به: لظهورتموه.

سيبطله: يظهر عدم تأثيره في عيون الناس.

لا يصلح عمل المفسدين: لا يزيد عمل المفسدين.

وحق الحق: يثبت الحق.

بكلمته: بواسطة أمره الذي يقول فيه للشيء كن فيكون.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد موكب المرسلين الذين تتابعوا لإهداية البشرية، بعث الله سيدنا موسى وهارون
 إلى فرعون وأصحاب الجاه والتقدم من قومه. ودهماء ذلك العصر كانوا تبعوا لهم
 ليس لهم رأي، وقد أيدها بالمعجزات الواضحة، فحملهم الكبر المستمكن منهم وما
 ظفوه من التصيان والإجرام على رفض الدعوة. بل تجاوزوا ذلك إلى رمي الحق
 الذي جاءهم بأنه سحر وامتح لا شك فيه.

رد عليهم موسى منكرا: أتقولون للحق إنه سحر، مع أن مال السحرة الفشل؟

ردوا عليه قائلين: أنت تعرض علينا ما يقطع بيننا وبين ما التزمه أبائنا في حياتهم.
 بل إن قصتك أن يكون لك المقام المقدم فسي أرض مصر لتحكم أهلها. ولماذا فإننا لا
 نؤمن بك.

قال فرعون: ردا دعوتهما؛ علينا أن نبين للناس أن ما جازوا به، هو سحر لا حق، ولذا أمر حاشيته أن يجمعوا له من أقبالهم مصر قنايين من السحرة. وفعلوا حضر السحرة ومعهم الاتهم، وحضر موسى.

قال موسى للسحرة قوموا بعرض ما عندكم. فلما ألقوا ما هيلوه قال لهم موسى: إن ما قمتموه هو سحر. وإن الله سيضحو أثره، لأن الله لا يؤيد عمل المجرمين، وهم مجرمون لأن عرضهم صد الناس عن الإيمان بموسى. وأن الله يقبض الحق لقلب المجرمون الآثمون لو كرهوا.

بيان المعنى العام :

75- ثم بعثنا من بعدهم...مجرمين.

بعد موكب المرسلين المذكورين في الآية السابقة، ذكر القرآن بعثة سيدنا موسى مؤيدا بأخيه هارون. بعثه الله لحاكم مصر فرعون، وللأعيان والوجهاء من حاشيته. وقد أيدهم الله بالمعجزات التي هي لولا، غير خارقة لفضايا العقل، وثابتة هي خارقة للعادة لكونها تفوق طاقة البشر. فظهورها على أيديهم مصاحبة لدعوة الناس لاتباعهم تقوم الدليل على صنفهم.

فرعون كان ملاغاة مستبدا بذل شعب مصر ويمتدني عليهم ويسلبهم حقوقهم الإنسانية، ويعتد أنه مخول بأن يجري على سلوكه هذا، فمقاييس الحق مفقودة من حسابه، يرى نفسه أكبر من أن يراعيا ويخضع لها، وعلى نهجه كمال المقربين من حاشيته. ويتبع الانتفاخ بالكبر التعدي على الناس، والاستيلاء الظالم على حقوقهم، والاستهانة بالقيم الخفية. ولذا عبر القرآن عن وضعهم بأنهم كانوا قوما مجرمين، تأصل فيهم الإجرام، إذ لا يحصون عدد قتلهم الأثام بفساد ارتكاب الإثم، ولا تتحرك أرواحهم فتبتز لارتكاب الخلوقة. ومضى التاريخ على ظهور مستبدين يقرعون كثيرا لو قليلا من الفراعنة الذين بعث فيهم موسى، لا ينتصرون ولا يخشون عقبة. ومعظمهم حصصوا ما قدموا في الدنيا من ثل وصغار، ولعذاب الأحرى أكبر.

76- فلما جاءهم الحق...سعد ميين.

بعد أن عرض عليهم موسى دعوتهم، وأظهر لهم المعجزات الدالة على صنفه وأنه مرسل من عند الله، أخذت المحاوراة تجري بينه وبينهم: كذبوه ورفضوا ما جاء به، ورموه بأن ما قدمه دليلا على صنفه في أنه مبعوث من خالق الكون، لا يعنو أن يكون سحرا يخيّل للناس ما يموه به أنه حق، وهو في الواقع تخيلات من مهرة في اللعب بحول الناس.

77 - قال موسى اتقولون... لا يفلح الساحرون.

ود عليهم موسى منكرًا: عجب لكم كيف تطلقون على الحق للذي علمتموه، أنه ساحر، مع انكم رأيتم رأي العين أنه حق لا باطل ولا تمويه فيه. وكيف اتيكم بسحر وأنا أعلم أن السحرة مآلهم لفضاضة أمرهم وخسرانهم.

نفعهم الاستكبار إلى المعنى في نفع عاجل، به بإظهار أنهم من الذكاء والتجربة بمحل لا يروج عليهم ما خفي من قصده. اتهموه بأنه يرمي بما جاءهم به إلى تحويلهم عن المنهج الذي تمت تجربته، وسار عليه أبائهم من قبلهم. وشأن كبراء القوم أن يتسكروا بعبادات أصولهم لما فيها من تأكيد لمقامهم الاجتماعي، وبصرفهم عن عادات وتقاليدهم تزل مقاماتهم، ويضعف تأثيرهم في المجتمع، فيتخذ موسى وهارون ذلك سبيلًا ليظهرا تفوقهما وعظمتيهما في عقول الناس. فتكون لهما بذلك الرئاسة ويستوليان عليهما ويقودانهم، فمما دعوتهما إلا طمع في الرئاسة والاستيلاء على أرض مصر وشعبها.

وإنه نتيجة لذلك، بطلطنا إلى ما ترسمان إليه، فنحن مصممون على رفض الإيمان بما قدمتموه لنا.

79، وقال فرعون اتتوني... سكره المجرمون.

بعد الطلاق المحاور كما جاء في آية 75 تحول الأمر إلى مقارنة تطبيقية بين ما عرضه موسى على أنه حق، وبين ما رمي به من الساحر. فكان المشهد يتمثل في تسجيل الوقائع الآتية :

لولا : فرعون وقد انتخبت أوداجه، يأمر الملأ من حوائه أمرا جازما، أن يجمعوا له مهرة للسحرة من جميع أنحاء مملكته.

ثانيا: تنفيذ هذا الأمر انطلقوا في أنحاء مصر يبحثون عن المتميزين في علم السحر، ولما بهم لفرعون.

ثالثا: حضر موسى المعابلة بينه وبينه السحرة وبأمرهم بقوله: ألقوا إلى الأرض ما هو معكم من الآلات التي أعدتموها، وحركوها وأظهروا ما عندكم من السحر.

رابعا: قدم السحرة أمام الجمع ما استطاعوا أن يبدعوا به عيون المشاهدين، وكان مشهدا يجذب الأنظار، أبهر جميع المشاهدين إلا موسى عليه السلام، فإنه توجه إليهم وهم محزونون بما قدموه قائلا: إن هذا المشهد لا يعينوني أن يكون خيالات لا حقيقة لها، وسيظهر ربى بطلانها ويفضح أمر لوها. والله لا يزيد عمل القسدين، الذين يقصدون تضليل الناس واللعب بعقولهم حتى يستولوا على مذابحكم وينقادوا إليهم.

وفسادهم في هذه المقابلة أوضح، لأنهم كانوا يرمون من وراء ما قلموه أن يصرفوا الناس عما جاء به موسى وأخوه من الحق. ويثبت الله الحق الذي أنبت به، ويظهر زيف ما أنبت به من الباطل بكلماته التي تعبر عما تعلقت به الإرادة والقدرة الذاتيان. قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)^١ والحق بكلامه ما يفيد عجزهم وأن إرادتهم غير مؤثرة، وأن الفعل لله وحده، الذي يلجئ في الوجود ما تعلقت به إرادته ولا أثر لحب المجرمين أو بغضهم.

فَمَا نَزَرْنَا لَهُ مِائِيْنٌ إِلَّا دُرَّةً مِّنْ فَوْزٍ عَلَىٰ خَوْدِهِ فَمِنْ هَرَجَاتٍ وَمَنْزِلَاتٍ أَنْ يَفْقَهُنَّ أَنَّ لَهُنَّ رِجْعَاتٍ لِّمَالٍ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُتَرَدِّينَ ۝ وَقَالَ نَارِي يَقُومُ إِذْ كُنْتَ نَائِمٌ يَا إِلَهِي بَعْلِي وَكَانَ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا وَإِنَّا لَا تَخَفُنَا إِنَّ قَدْرَهُ الْخَلِيبِينَ ۝ وَخِجْنًا بِرِجْمَتٍ ۝ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝

بيان معنى الألفاظ :

وفقهم: تسلط على الملكات العقلية بالقهر حتى تنصاع .

قال: مستبد.

الإنسلاف: تجاوز حد الاعتدال.

بيان المعنى الإجمالي :

لهزم السحرة وتبين للحاضرين أن موسى ليس بساحر، وأنه رسول وأن ما قدمه ليس من عمل البشر، ولكن رغم ذلك لم يؤمن برسالته إلا قليل من الشباب من قوم فرعون. كانوا حذرين من أن يذهب مع ملته ليرتدوا، وذلك لأن فرعون حاكم مستبد متعالي، مسرف في غضبه كما برأه في ملذاته .

ثم توجه موسى لقومه يحضهم على الثبات، وأن يحسنوا التوكل على الله إن كانوا حقاً مؤمنين مسلمين. والإيمان محلة القلب، والإسلام تصديق لما استقر في القلب بالعمل الظاهر بالجوارح.

أجابهم قومه بأنهم متوكلون على الله، ثم توجهوا مظهرين لحسن ثوبهم، مبتهلين إلى الله أن لا يجعلهم سبباً لافتتان المؤمنين الآخرين، بما يسلط عليهم من عذاب وتكبد، حذراً منهم أن يكون عذاب فرعون وملته سبباً لارتداد المؤمنين الذين لم

يكن إيمانهم بالقوة التي يصممون بها عندما يشاهدون تعذيب المؤمنين، وأن ينجزهم برحمته الواسعة من القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83- فلما آمن موسى إلا ذرية تائهة فمن المصطفين.

المشهد التالي الذي أظهرت الآية وجها منه، هو الوضع الجديد بعد أن ظهر موسى على السحرة الذين أعلنوا في الحين إيمانهم بموسى، متحدين فرعون كما هو مفصل في قصة موسى في غير هذه السورة.

الذي يتصور من القصة كما جاء في قوله تعالى: (وقيل للناس هل السحرة معكم مجتمعون لعننا طبع السحرة إن كانوا هم الغافلين) أن الناس توجهوا إلى الساحة التي جرت فيها المقابلة، تبعاً للدعوة العامة، ولما في المشهد من غرابة تدعو إلى الحضور. وأنه بعد ظهور الحق ظهوراً اعترف به السحرة أنفسهم، وتغفل في قلوب المشاهدين أثره، اندفع شباب من قوم فرعون، وإن كان عددهم قليلاً، إلى الإعلان عن إيمانهم ملتجئين بالسحرة، وهذا هو شأن الشباب في انتفاضهم وتحديهم للسلطة، لكون قواهم بقيت سليمة من النقص.

وإيراز العلاقة السلطانية من فرعون على قومه، كان هؤلاء الشباب خائفين من الفتنة التي من عادة الجبارين العادة إزالتها بمن لا يخضع لهم، فيخرج عن إرادتهم، والتي يسبق المتعلمون من الحاشية لإيقاعها على من لا يتقيد بقياد النذول الأعلى للتصديق، وذلك بالتعذيب النفسي والجسدي الذي يتجاوز حد التحمل. ولأنه في الآية عذره في هذا الخوف يكشف طبيعة فرعون: إنه مستبد قلس يحتقر من هم تحت نظره، وهو مسرف متجاوز للحدود في التكيل، وفي مباشرته للحياة، وأقل مظاهره الإسراف في الملذات الذي يطبع على النفس ويفشيها بظلام السادة الهابطة، وهذا من طبائع الاستبداد.

84-86. وقال موسى يا قوم..سولجنا برحمته من القوم الكافرين.

يتحول بعد ذلك موسى لقومه، ليثبتهم بعد انتصاره على السحرة، بما يشحن عزائمهم حتى يكونوا أكثر على تحصيل الأذى والثبات. يدعوهم أن يحسنوا التوكيل على الله في مجابهة ما يوجبه الكفاح للانتصار على ظلم فرعون. وأن هذا التوكيل هو من موجبات الإيمان، لا خيرة لهم فيه. إذ الإيمان الصادق هو الذي يكون به

المؤمن مستشعرا دائما اعتماده على عون الله الذي ملأ قلبه وحسه وتغلغل في أعماقه، وبدون هذا الشعور لا يكون الإنسان مؤمنا. ثم أكد هذا الارتباط بينهم الذي يلزمهم بالتوكل بشرط آخر، وهو قوله: **لن كنتم مسلمين**. وإذا كان الإيمان محله القلب والمشاعر، فإن الإسلام مظهره في العمل والتطبيق. فيما شرطان متكاملان الإيمان بالعقيدة الصالحة، والإسلام بالثبات على العمل حسبما يقرره الدين. **لن** الإيمان نور يحل بالقلب، والإسلام هو ظهور أثر ذلك النور في السلوك العملي. والتوكل شعور بالاستناد إلى تعون الإلهي ومحله للقلب، والسير العملي في الحياة على وفق العقيدة هو الإسلام. ولا قيمة لأحدهما دون الآخر وأكد عليهم موسى حسن التوكل بجمعه في التعليق بين الإيمان والإسلام: **توكلوا على الله لن كنتم مؤمنين لن كنتم مسلمين**.

و استجاب قومه لندائه، وأعلنوا ذلك بقولهم: **على الله توكلنا واستندنا إليه وحده**. نستمث منه القوة لمواجهة بطش فرعون وفتنته. فالإيمان طاقة ندفعهم إلى الصبر والطمأنينة، والرضا بالمقدور، وعدم التردد، والإسلام طاقة يرتبط فيها العمل بالعقيدة، فيحسنون الاستعداد، ويتضامنون فيما بينهم للقلب على مكر فرعون وملكه.

ثم تسجل الآية أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام في ابنهالهم إلى الله لن يحميهم من أن يتغلب عليهم فرعون هيفتن بقة الناس بما أصابهم ويكفرون. ولن يدخلهم في رحمته، الرحمة التي تنجيهم من بطش القوم الذين تمالأوا على الظلم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ سَوْأَ لِقَوْمِكُمَا بِبَهْوَكَ وَأَجْنَلُوا بِهِوَنَكُم بِبِلَّةٍ وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَنَا زِينَةً وَأَمْوَالًا وَالْحَقُّ أَنَّا رَايُنَا بِهَؤُلَاءِ غِيَرِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ آمُونِيهِ وَأَشْدُدْ عَلَى الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ بَشِّرْنَا بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ ۖ قَالَ لَا تَأْتِيكَمْ هَؤُلَاءِ لَنُفَعَلَنَّ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ ۖ لَا تَخْلُفُونَ ﴿١٢﴾

بيان معنى الألفاظ :

سَوْأَ : اتخذ مكانا لمساكنه.

بِلَّةٍ : يحتمل أن يكون المراد إلى جهة القبلة كما يحتمل أن تكون البيوت متقابلة.

الزينة : ما يحسن به الناس مظاهرهم أو محيطهم.

الطمس : المحو والإزالة.

أشد : من الشدة بمعنى العسر والجرح .

الاستقامة : مفهوم جامع لخصال الخير والصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

لوحى الله إلى موسى وأخيه بعد أن ظهرا على السحرة، وأمن بهما من أمن، لمرهما أن يرشدا المؤمنين إلى طريفة بنائهم الحضاري، وذلك بأن يجتمعوا في حي يبنون فيه مساكنهم على هيئة هندسية واحدة، مشرعة ليوصلها إلى القبلة، وهو الاتجاه نحو الكعبة، التي هي ما بين المشرق والمغرب بالنسبة لأرض مصر. كما أمرهم أن يودوا الصلاة على لكل الوجوه لتكون أرواحهم نقية مثالية. وأعلمهم بأن الله يشرهم بالتأييد والعافية الطيبة.

كان موسى الله يجد في نفسه الحرج الشديد، لأن فرعون والمقدمين من قومه أثروا على الكفر، ورأى أن سبب ذلك هو السعة والنعمة التي نولت لهم من رزق الحياة ومباهجها، ومن كثرة الأموال التي أساهم الله، فتوجه إلى الله أن يسلب الحيرات التي سكنهم منها، وأن يسلب عليهم من الكروب والدواهي ما يجعل قلوبهم في حرج شديد حتى يرتدعوا عن غيهم ويشعروا بضعفهم فيؤملوا إلههم لتعزدهم بسبب النعم التي يعشون فيها لا يؤمنون حتى يتوقوا العذاب الأليم الذي يفتح بصائرهم للحي حجبها الترف.

قال الله: قد استجبت لدعائكما. ولتواصل تنفيذ استجابتي لكما، عليكما بالاستقامة على الطريق الصالح عقيدة وعبادة وسلوكا، وإياكم أن تتعوا سبيل الجهالة الذين ضلوا عن الحق.

بيان المعنى العام :

87- وأوحينا إلى موسى وأخيه -يوشع- المؤمنين.

بتبليغ مرمى الرسالة، وإظهار المعجزات المؤيدة، وإيمان قومه مع جماعة من القبط منملهم من الشباب، تحقق عامل الوحدة العقيدة المكونة للأمة. وحسب سنف الله في الكون لا يغنى للوحدة العقيدة عن جوامع مادية تحفظ تلكم الوحدة، وتمكن لها من التواصل والاستمرار.

أوحى الله لموسى وأخيه عليهما السلام ليقوما بما يحقق ذلكم التوحد للمؤمنين في الحياة لبناء حضارة متمامة على توحيد الله وعبادته، وإن مُرط البناء الحضاري الذي كان الدين المفوم الأول فيه، هو الاستقرار الممكن لمتابعة التكوين الفكري

والعقدي، وتمتصير الامتزاج بين أعضاء الأمة، لذلك لوحى الله لهما أن يوجها للمؤمنين لبناء أحياء سكنية خاصة بهم، وأن لا يبقوا على حالة التشتت التي كانوا عليها. وأن تكون أحياءهم مطبوعة بطابع مميز يبرزها للاستقلال الحضاري، فأمروا أن تكون هندسة بناء مساكنهم على نمط واحد متجهة إلى القبلة، وهل القبلة هي جهة مكة الجنوبية، أو أن تكون البيوت متقابلة ٢ وترجع الاحتمال الأول، لأن ما بين المشرق والمغرب هو جهة القبلة (الكعبة) وهو ما يجعل الدور معرضة لدخول أشعة الشمس غالبا، فتكون أنقى هواء وأكثر ملائمة للإقامة فيها. وينتظم شكل البناء الظاهري الذي هو مظهر توحيد.

ومع ذلك يبرز التأكيد على العناية بالمقوم الديني، فأمرهم بالمواظبة على أداء الصلاة على أتم وجه وأكملها، لتكون أرواحهم حافية متعقدة بالصلة مستحضرة بواسطة الصلاة ارتباطها بالله وارتباط بعضهم ببعض.

إنه بالتكامل بين النواحي المادية الموحدة، وبين النواحي الروحية المقومة، تتحقق أسباب النجاح، تلحم الأسباب التي لا تفعل فعلها إلا بتيسير من العزيز الحكيم، فلذلك أمره، أن يبشرا الأمة برعاية الله لها ولها بذلك سيكتب لها الفوز.

88- وقال موسى ربنا... العذاب الأليم.

لأقى موسى من فرعون ما لاقاه من العذاب والإصرار والمكر، وفي حالة من حالات تأملاته في الوضع الذي عليه قومه، وما يرجو لهم من الهداية والمنفعة، توجه مع أخيه إلى الله بهذا الدعاء الموقن بأنه نتيجة تأملات في وضع فرعون وطريقته في الحياة. مضمون هذا التوجه: ففتحه بإيراز الصلة المضارعة بينهما وبين الله، فهو ربهما الذي وإلى عانيه بهما؛ إنهما يواجهان كافرين عبيدا، يتقوى مع حاشيته ولتباعه، وجهاه قومه بما أتاهم الله من النعمة في الرزق، تبعوا التقدم الحضاري الذي كان عليه أهل مصر في زمن موسى، وبذلك تمكنوا به من التفتن في مظاهر الرتبة في لباسهم وأحسامهم ومحيطهم، فألهي ذلك الناس عن النظر إلى ما ينملون عليه من شر وفساد. وتملكهم الإعجاب بذلك وطوعهم للانقياد لهم.

رزقهم ربنا سعة في المال، إذ أن الحضارة يتبعها الرخاء المادي، وكثرة الأموال نطوع الدهماء للانقياد والتبعية، فاستعملوا ذلك للاستلال وانحرفوا بهم عن الطريق المستقيم طريق الله.

هذا كان حاصل تأملات موسى، وما توصل إليه من الأسباب التي جعلت نعت مصر على الحالة التي هو عليها. وإنه ليرغب رغبة أكيدة، كشأن كل المرسلين، أن

يتحولوا عن طريق الضلال إلى طريق الهداية. فأعدا ضرارته بقوله: (**يُنَا**) أخذ في الدعاء الذي يظن أنه باستجابته ينقصر الإيمان على الكفر.

طلبنا من ربهم أن يزيل ما يتقوون به من الأموال، وأن يخرجهم من حالة الرفاه والأس والراحة، إلى حالة من الشدة والعسر فتتوالى عليه الأنكاد، وتتابع القوولع والأحزان، فتضيق قلوبهم عن تحمل المصائب، حتى يفيقوا إلى ضعفهم وعجزهم فيؤمنوا. إنهم ربنا لغلط لكيلاهم وما استدرجوا به من أنواع النعيم، لا يؤمنون إلا إذا نفذ فيهم العذاب الشديد الإيلام وأحسوا به بالغ الإحساس.

89 قال قد أجيبتم... لا يعلمون.

أظهرت هذه الآية سنة من سنن الله في استبقاء الخير، واستدامة النعمة. علمي المؤمنين أن يواصلوا ما هم عليه من التقوى والالتزام بشرع ربهم. أعلم الله موسى وأخاه أنه حقق لهما ما طلباه، واستجاب لدعائهما في فرعون وملئه. وأمرهما أن يواصلا السير على الطريق المستقيم بتطبيق ما شرعه الله لهما من الأحكام في المعاملات والنظام في الأخلاق والسلوك لينفذ الوعد في فرعون وقومه ويتواصل، وتأكيدا لهذا الأمر صرح بالنتهي عن ضده، وهو اتباع طريق الجهلة الذين حجبهم جهلهم عن معرفة الحق فاتبوا طريق الضلال.

• **وَجَنُودًا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَلْهَجُوا فِئْتَهُمْ فِرْعَوْنُ جُنُودًا بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ إِنَّهُ دَمَةٌ الَّتِي دَامَتْ بِكُمْ يَوْمَ الْإِزْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** : **وَالَّذِينَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ هَٰذَا مِنْ الْمُفْسِدِينَ** **فَالْيَوْمَ نَخْلِكُكَ بِمَذَكِّكَ لِقُورِكَ** **إِنَّمَا خَلَقَكَ أَنَّهُ وَإِنْ كُنتَ مِنَ النَّاسِ فَرًّا** **وَالْبَعْدُ أَتَمَلُوكَ** **وَأَعَدُّ نَوَآئِلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ نَبَأًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ فَمَا اسْتَخْلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ أَوَّلَ بَقِيَّةٍ يَتَذَكَّرُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِمُ أَنْ يَتَذَكَّرُوا**

بيان معنى الألفاظ :

أتبعهم : لمتهم.

بغيا : ظلما.

العدو : الظلم الشديد.

الإمارة : للحاق.

خلقك : الذين يأتون من بعدك.

يوثانم : أنسكتاهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يسر الله لبني إسرائيل أن يخرجوا من أرض مصر دون أن يتفطن لهم فرعون في أول الأمر. فاتباع أثرهم يريد أن يبطئ بهم على عاقبته في الظلم والقسوة. طحق بهم وهم قرييون من البحر، فسلكوه على مراءى منه، فاتباع طسربهم فيه مع جنوده، فاطبق عليه البحر وأخذ يهبط ويعلو حتى إذا خارت قواه أظن قاتلاً: أمنت بالذي أمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. ويدخل سمعه هاتف للحق منكراً أن يفعله بقراره في ذلك الظرف شيناً، ثم يؤذبه بما كان عليه طيلة حياته من العسيان والتمرد من الفساد بالظلم ومنع الناس من حقوقهم والكفر والإسراف. وأن ما رجاء من النجاة قد تحقق، لكن لجنته فقط. وفعلنا قذفها البحر سليمة من نهش الأسماك، ليكون على وضعه وهو ملقى على الشاطئ ميتاً لا حراك به، آية ودليلاً للذين يأتون من بعده، من الفراعنة ومن الحاشية ومن الناس، على أن قدرة الله لا تغلب. إن ما يقيمه الله من الآيات يهدي لمعرفة الحق، ولكن غفلة للناس عما في الآيات من دلالات هو الذي يجعلهم لا يتفطنون. أسمع الله على بني إسرائيل أنسكتهم في أرض مباركة بعد أن اجتازوا البحر، كما أسمع عليهم بتوسعة الرزق. الطيسب. ومضوا على تلك الحال إلى أن أنزل الله عليهم للتكليف، فاختلّفوا اختلافاً فرق كلمتهم، وسبحكم الله بين المتخالفين فيظهر الحق ويجاري كلا حسب قصده عند الاختلاف.

بيان المعنى العام :

90 وجاؤنا ببني إسرائيل...وأنا من المسلمين.

ينقل القرآن متحدثاً عن بني إسرائيل، طابوا للفكرة بين مفاد الآية السالفة وهذه الآية. إن ما قدّمه موسى من جمع قومه في حى واحد معبر سهل الاتصال بينهم، كان لحكمة تظهرها الله في الوقت المناسب، السذي أن فيه لموسى وقومه أن ينادروا أرض مصر، محتازين اليابسة والبحر إلى الضفة الأخرى، دون أن يتفطن فرعون وزبائنه لخروجهم. والظلمة المستبثون يعتبرون هذا تحدياً غير مقبول. وأذلك جمع جنوده مصعماً على ققاء أثرهم والحقاق بهم وتطويقهم ليردهم صاغرين، لينفذ فيهم ما هو شأنه من الظلم والتعذيب. إن كان ينفعه لذلك ظلمه واستبداده (بغيراً وعدوا). إنه من حقهم الإنساني أن يقيموا في أرض مصر أو أن

يخرجوا منها؛ فاقفء آثارهم لئلا يأتهم قسرا ثم على الحرية الإنسانية وهو ظلم، بل هو من أشد الظلم.

إن تظن فرعون مؤخرًا لخروج بني إسرائيل بنون استئذان، أسرّح في اللحاق بهم، ووجدهم قد دخلوا في البحر يقطعون ما بين الضفتين، فأخذ الطريق الذي سلكوه، فلما كان في وسطه أطبقت عليه أمواج البحر هادرة فغرق.

ألق بالهلاك وهو يهوي ويطفو، فأعلن إيمانه بالذي آمن به بنو إسرائيل. وتفيد الآية أنه لعنده ما كان يتمنى، وهو في ملطانه وعتوه، الهداية التي جاء بها موسى، والتي تقوم على أن خالق الكون واحد أحد هو الله الكون كله. فلذلك عرف الإله بأنه إله بني إسرائيل. مع أن الله سبحانه هو إله السموات والأرض بينهما، وإله البشر جميعا.

91، 92، الآن وقد عصيت... عن آياتنا نقاتلون.

تفصل الآية ما فرعون بعد أن أخذ البحر بين يديه. وهو في آخر لحظة ينادي: اني امنيت بالله بني إسرائيل وأنا من المسلمين. وعندها يتوجه لفرعون نداء صادق كان آخر ما طرق سمعه. استبهم إكثاري عما صرح به. لقي هذا الظرف الحاضر تعلن إيمانك؟ إنكار أن يكون ما صرح به ينقذه من الفرق، أو يكتب له به الدجاة. ذلك أن الإيمان لا تترتب عليه آثاره ولا ينفع صاحبه، إلا إذا كان عن اختيار. بل إن كل ما يصدر عن الإنسان في الحياة من أفعال لا ترقى إلى درجة القبول إلا إذا صدرت عن صاحبها وهو مختار لا مضطر. وبالحيلة فالاضطرار وسلب الاختيار هو خروج الإنسان عن دائرة التكليف في الخير أو في الشر. وتتكرر إذا كان بالقوة القاهرة، كما أوداه الله من استخلاف الإنسان في الأرض. وأضاف الصوت الذي بلغ دخائل سمعه، وما بقي من وعيه، مؤيلا له عما قدم بسوم كائن بيده الحكم، لقد سرت على العصيان قبل هذه اللحظة، وأضفت إلى عصيانك أنك كنت تمكّن للفساد بالميطرة مع العلأ الذين كانوا حولك. ظلمت الناس، وحلت بينهم وبين الإيمان، وقويت السحر والتمويه بما الخد غول شعبك. إنك إن كنت تهدف من إقرارك هذا النجاة، فقدم لك ذلك، ولكن نتجيك ببعدك، وتحفظ بجنتك، و نسلها من نهش الأسماك، وينفعها إلى الشاطئ لتكون لمن يأتي من بعدك من الفراعنة والأنبياء وكل من يعلم بمصيرك، دليلا على أن قدرة الله لا تغلب، وأن مال الجبابرة إلى الهلاك والخزي. وأن ما يدعيه الناس لفرعون من كونه من نسل الآلهة وأنه مخلص، وأن روحه تعود إلى جسمه لتتمتع بما كان يفضل في حياته، مما تدل عليه الآثار

الفرعونية في الأهرام التي بنوها على هذا التصور؛ كل ذلك أوهاهم يقوم إلقاء للبحر لجنتك، على زيفها. إن آيات الله الداعية للتأمل فيها والاعتاط بها محققة للمراد منها، إذا نظر فيها الإنسان وتعمق فيما نحل عليه، ولكن للتقصير من كثير من الناس بالغفلة عنها، هو الذي حجبهم عن الإفادة منها.

93- ولقد يوأنا بنى إسرائيل، عليه يختلفون.

بكل تأكيد أنعم الله على بني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، وتجاوزوا من فرعون وملئه، فاستكنهم في مساكن آمنة بعيدة عن الاضطراب والخوف، وزادهم نعمه بتوسيع الأرزاق، ومكنهم من طيبات الأطعمة، فهم لم يخشوا جوعاً ولم يضطروا إلى شطط العيش والمنكر من الفداء.

ثم مضوا على هذا الحال مدة، كلمتهم واحدة وحياتهم رخيصة آمنة. إلى أن توالى عليهم التكاليف التي حددت لهم ما يقبلون عليه، وما ينصرفون عنه، فجاءهم التشريع المفصل لعلاقة الإنسان بمتنوع مظاهر الحياة المذنوبة، وعندها اختلفوا، لم يفصل القرآن ما اختلفوا فيه وما تفرقت عليه كلمتهم، ولكنه نبه المؤمنين أن عليهم أن يتخذوا من التشريع ما يوحد الكلمة ويقوي أوامر الاتصال بين المخاطبين به. كما نبه إلى أن الاختلاف إذا انعكس فإنه سيستمر، ومن الاختلاف البسيط يدخل الشيطان ليفرق ويقوي التحزب، ويصرف عن إتباع الحق والرضوخ له إلى محاولة للغلبة والانغماس في التناويل. وقرر القرآن أن الله سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه يوم القيامة، فيجازي من كان همه إتباع ما يظنه الطريق الذي يرضى الله جزاء مضاعفاً إن هو وصل إلى الحق، ويجزيه عن اجتهاده إن هو صدق في اجتهاده ولم يوفق إلى الحق المقرر عند الله. ويعاقب من عرف الحق وكتمه وحاد عنه، أو من كان جاهلاً معانداً متظاهراً بالعلم.

فإن كُنتَ شاكراً بما أنزلنا إليك فنسلك الذين يقرءون الحِكْمَ، مِن قِبَلِكْ لَفَدْ جَاءَكَ. الْحَبْرُ مِن رَّبِّكَ فَلَا تُكُونُ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تُكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقِيَامَةِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِذْ أَلْهَيْتُمْ خَلْقَ عَالَمِهِمْ حِينَتْ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كُفُّوا عَنِ الْكُفْرِ الْآلِيَةِ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الانقضاء:

الأمراء : هو الشك فيما لا شبهة تبرر الشك فيه.

ذهب: ثبت.

كل آية : آيات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا كنت تعجبت من اتباع فرعون وجنوده لموسى حتى دخلوا الطريق الذي سلكه وسط البحر، وأخذت تتساءل كيف يصل به الغيابة إلى هذا الحد، فاسأل السذجين بفراولن التوراة، فإن القصة معلومة عندهم. فاهنا بما يسره الله لك من معرفة الحق. ثم توجه للخطاب لكل فرد ممن يبلغه كلام الله أن لا يكون من الواقفين عن تقبل حقائق الوحي، وثنى بالنهاي عن التكذيب بالأدلة الأتية من ربك، فإن من كذب بها يكون من الخاسرين الذين ذهب كل ما عملوا من خير هباء.

لن الذين علم الله نصيبهم على الكفر ولأنهم لا ينظرون في الآيات التي تبليغهم، ويعرضون عن كل تعلم أو تفكير، هم الذين ثبت ما سبق في علم الله، أنهم لا يفتخرون للإيمان، ولو توالى عليهم الآيات المتتلمة الكثيرة. ولا يؤثر فيهم ذلك، ولا يفتادون للحق إلا بعد أن يدينهم الله بالعذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

94-95، فإن كنت في شكك، فلا تستولن من المفسرين.

هذه الآية إن فهمت على ما يقتضيه ظاهرها كانت مشكلة.

أولاً: لأنه ثبت يقيناً بأدلة العقل والنقل أن النبي : بلغ إيمانه درجة من الوضوح واليقين والحضور في الروح والمشاعر بصفة دائمة، ما لم يصل إلى مستواه أي فرد من البشر. وهذا أمر لازم ولم يفارقه لا في لحظة ولا في مقام. وفي آخر لحظة من حياته كما رونه عائشة رضي الله عنها قال: مع الرفيق الأعلى.

ثانياً: صياغة الآية جاءت بشكل الخطاب للنبي : إن كنت في شك، مما أنزلنا إليك، فاسأل، من شكك، جاءك، مما يقتضي ظاهره أنه خاطب بتعريفه بالطريقة التي يزيل بها شكك إن وقع.

وبناء على ذلك فزاع المفسرون إلى الخروج بالكلام عن ظاهره، دعوا للتناقض الذي يقتضيه ذلكم الظاهر. وقد اعتنى الإمام الرزي فخره على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن الضمائر موجهة إلى النبي : والمقصود غيرهم. وهذا نظير قوله تعالى لمحمد: لأن أشركت لمحيطن عملك، وقوله لعيسى: أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين، ومن الأمثلة المشهورة: إياك أعصي وأسمعي بأجارة. وهذا من باب التعريض.

وجه الخروج عن الأصل إلى الخطاب بسبعة أوجه. في كثير منها مظاهر نكاه وتصل، وفي تنوعها ما يخرجنا عن المنهج الذي التزمناه.
لطريقة الثانية: الخطاب ليس مع الرسول. ولكن مع القساكين: **إِنْ كُنْتَ مِنْهَا الْإِنْسَانَ فِي شك مما أنزلناه إليك.**¹

وخرج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على احتمالين:
الأول: أطلق الشك وأريد به أصحاب الشك، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلناه إليك، فاسأل اليهود يخبروك عما عندهم وهو عيسى ما أخبرتهم به. فتكون الآية ملجئة للمشركين ليعترفوا بصديق الرسول. باعتبار أن التوافق بين ما أنزل عليك وما هو موجود في الصورة بشهادة أهل الكتاب قاطع لمعزرتهم. إذ لا يشهد اليهود بما يصدقك وهم لا يؤمنون بك.

ثاني: أن يكون للكلام صيغ صياغة التعريض. فالمقصود هم المشركون في الحقيقة، وظاهر الكلام موجه إلى النبي ﷺ.

والذي فهمته من الآية أن الآية السابقة أثبتت أن فرعون وجنده اتبعوا موسى وقومه، ودخلوا من قلمك الذي سلكته بدو إسرائيل، وهو مسلك يعرف فرعون ومن معه أنه في وسط البحر المتلاطم الأمواج. وكيف أن فرعون الذي كان يدبر ملك مصر بدهاء واستبداد، كيف يملك هذا القسك الذي لا يرمي بنفسه فيه حتى لشدة الناس غيابة؟ أخذ النبي ﷺ يتدبر فيما أنزل إليه، ويعجب من الحادثة، إذ أن الذين سحقوا بالعذاب العاجل من المشركين في تاريخ البشرية، من الذين فهم علينا القرآن مآلاتهم، كان العذاب مسلطاً عليهم بقوة قاهرة، أما فرعون وقومه فقد هلكوا باختيارهم ما لا يختاره من له سكة من العقل، ففي هذا التدبير الذي يفرض الظروف لتصور الحادثة، والذي يرقى به الإيمان ببحثه عما يزيل العجب، جاءه الوحي ينير له ما ينبغي تحجبه، باعتبار أن ذلك أمر معروف عند الذين يقرؤون التوراة. وثبت أن ما نزل عليه في هذه القصة من الحق الذي بلغه من ربه، وأنه حق لا شك فيه. فالمقصود والله أعلم أن هذه الآية متعلقة فقط بقصة غرق فرعون، لا بكل ما أنزل الله عليه من القرآن.

وعنى هذا النسق من الحق الثابت في كل ما أوثبه النبي ﷺ من الوحي، يترتب عليه أن على كل مخاطب أن لا يكون شاكاً في أي مما عرضه. وتنتهي بقوله تعالى:

¹ التفسير الكبير ج 5 ص 28/29

عن التَّكْذِيبِ بآيَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَكْتَبَ بآيَاتِ اللَّهِ نَيْسَ لَهُ إِلَّا مَقْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَقْرُونًا لِمَزْمَرَةِ الْقَوْمِ الْمُقْسِمِينَ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَنْقُضُونَ بِأَيِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ نَفْعٌ فِي الظَّاهِرِ، إِذْ هُوَ عَمَلٌ مُحِيطٌ.

96-97: إن الذين حقت عليهم بالعذاب الأليم.

من الناس من إذا جاء أمر جديد تأمل فيه وورثه بميزان عقله وتجاربهم، ومنهم من يقوم في عقله سد يمنعه من النظر، ويحجبه عن التدبر. إن النوع الثاني هم الذين تصمكوا بالرفض لكل ما جاء به النبي ﷺ، ولو تكاثرت ورود الأيآت الواضحة للدلالة على عقولهم ما انتصوا، لقد سبق في علم الله اختيار هؤلاء لهذا المنهج في حياتهم، فهم لا يؤمنون حتى يسلط الله عليهم عذابه الأكبر كما وقع لفرعون عند غرقه.

[illegible]

بیان معانی: الألفاظ

كَثَّفْنَا عَلَيْهِمْ : رَفَعْنَا عَنْهُمْ فَلَمْ نَصْبِهِمْ.

الخز و : السهانة و اللؤلؤ.

الإكراه: الإلجاء وفرض إرادة الشخص على غيره.

الرجيم : الخُبث والفساد، وهو الكفر في الآية.

الأهم : ما يقع فيها من الأحداث العظيمة للقاهرة.

مبدأ المعنى الإجمالي :

تَسْجُلُ الْآيَةَ لِلْوَمِّ وَالْمُخْطِئَةِ لِكُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى الْمُنَاقِقَةِ الَّتِي دَعَاها رَمُومُهَا إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ، تَنْتَقِمُ بِإِعْمَارِهَا، وَوَأَصْلَتْ الْعُنَادَ إِلَى أَنْ حُلَّ عَلَيْهَا الْعَذَابُ، الْإِقْوَمُ

يؤمن من الذين تابوا وأمنوا قيل أن نحل عليهم النعمة، فرقع الله عنهم العذاب بعد أن تهيأوا له، وامتعم بنواقل فضله في الحياة الدنيا.

هذا قانون الله الذي أجرى عليه خلق البشر، أن كل فرد ممكن من الخير والشر والإيمان والكفر، ولو شاء الله أن يؤمنوا كلهم لأمنوا ولما وجدت كافرين. فهون عليك فإنك لا تستطيع أن تجعل للناس كلهم مؤمنين.

إنه لا يستطيع أي فرد أن يفتح للإيمان إلا بإذن الله، فيلوع عقله للإيمان تبعاً لما يحمله به من العون ويصرفه عنه من الصوارف، ويسلب الله العون عن الذين اختاروا للكفر فلفظوا عقولهم حتى آمنوا مع غير العلاء.

كتاب الكون أمامكم فانظروا ما تحويه السماوات والأرض من دلائل تنادي بأنها مخلوقة لله، وإن الله هو المنصرف فيها، ولكن الأدلة الناطقة لا تقيده من أطبق الكفر على عقله، كما لا تقيدهم الزواجر ولا الوعيد.

بعد هذا الإيقاظ لما يقتضيه العقل، ولما تقوم عليه شواهد النظام في الكون، ما الذي ينتظره الكافرون ؟ هل ينتظرون أن يحل عليهم العذاب الذي سلب على من كان قبلهم ؟ قل لهم انظروا ما سيحقق في المستقبل، فإني منتظر تحققه معهم. أنتم تنتظرون أن يحل عليكم غضب من ربكم وذلة، وأنا أفتنر أن ينصربي ربي. وعلان الله أنه ينجي رسله والمؤمنين من العذاب الذي سألونهم. فإنه على هذا النحو من قصر العذاب عليهم، وحماية المؤمنين جرى قدره.

بيان المعنى العام :

98- قلولا كانت لقوله: مولى حق.

صيغت هذه الآية صياغة خاصة، تدعو المتطلب لفهمها أن لا يجعل، وأن يتبع الطريقة التي صيغت بها بآمل، ويتحقق للاهتمام العربي في الأدوات التي نخلت في تركيبها.

افتتحت الآية بقوله تعالى (قلولا) وهذه أداة، الأصل فيها أن تفتح بها الجمل لتكشف عن قصد المتكلم حث المخاطب على الاستجابة لمضمون كلامه، وهي قريبة من (هنا). وذلك عندما يكون الكلام للزمن المستقبل كأن تقول للتميزة: لولا اجتهد أكثر لتفوق في الامتحان. أما إذا كان مدخولها ماضياً فالحديث منفذ، وتكون عندها للدلالة على أن المخاطب وقع في خطأ يلام عليه ويوبخ. كأن تقول لمن سرقت داره: لولا أحكمت قفل بابك ما تمكن السارق من الدخول إلى منزلك. والآية متحضرة للمضي. إذ مضمونها: لتشهير بالغلط الذي وقعت فيه القرى الماضية

التي جاءها المرملون وعرفوهم بهدية ربهم فصمموا على الإعراس، ولو امنوا لانتقموا بايمانهم ولم يسلط عليهم العذاب. فهو توبيخ لجميع القرى السابقة المعرضة عن قبول الهدية إلى أن حل عليهم العذاب. وقد مسقت قصصهم في هذه السورة واخرها قصة فرعون.

واستثبت الابه من القرى التي واصلت رفضها إلى أن استقم الله منها. استثبت قوم يونس : الذين أنذروهم نبيهم عاقبة التملد على الكفر، وهددهم بما أخبره الله به من العذاب الذي سيحل بهم إن لم يؤمنوا ويصلحوا أمورهم ويتبعوا شريعة ربهم. ووصل الأمر بيونس إلى أن عاجله اليلس من صلاتهم وغائهم. ونظفوا عندما لم يجدوه بين أظهرهم أنه ما خرج من قرينهم، نيتوى بالعراق على ضفاف دجلة، إلا أن العذاب يوشك أن ينزل بهم، فأنابوا إلى ربهم. وامنوا وطبقوا ما شرعه الله لهم، فرفع الله عنهم العذاب، ويسر لهم محيشتهم فلم يواخذهم، كرماته، بما سبق منهم من التكذيب والمصيان، بسرهم من مناع الدنيا الذي ينقضي بانقضاء أجل كل واحد منهم. وأما صمهم يوم القيامة فإنه يجري على العدل الإلهي الذي ميفضى به على جميع البشر.

وسيعرض القرآن في سورة الإمراء إلى تفاصيل لوقى عن يونس . وهذه الآية تحريض لمشركي مكة كي يتقذوا أنفسهم ويؤمنوا كما فعل أهل نينوى، قبل أن ينحق فيهم الوعد.

99-ولو شاء ربك...يحكمونا مؤمنين.

تنظم هذه الآية مع أخواتها في القرآن الكريم لتؤكد: أن الله فطر الناس ممكنين من الاختيار، وأنه أعطى لكل فرد القوى العقلية التي بها يميز بين الخير والشر. هذه مشيئته وما شاء وقع ولا يمكن أن يقع غيره، فلم يسهل أن يجعل الناس كلهم منصرفين إلى الخير وإلى الإيمان لكانوا مؤمنين، ولا نجد نبعا لذلك أي رفض للحق، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر نعما واحدا.

وتخلف هذه الآية وتملي رسول الله . إذ شديد حرصه على إنقاذ البشرية من الكفر، وغرس الإيمان في قلوبهم، جعله يحمل هذا الهم ويود لو وجد السبيل إلى النجاح في انتشالهم من الكفر، فكانه لشدة حرصه بعمل على حمل الناس على الإيمان حملا ولو بالقوة. وفي هذا توبيه بالنبي . بما يحمله في نفسه الكريمة من حب الخير البشرية جميعا.

100-وما حكمنا للظلم...الذين لا يعقلون.

تعمق هذه الآية مضمون مسبقتها بتقرير أن أي نفس لا تستطيع أن تحقق إيمانها في الوجود إلا إذا أذن لها الله بأن تؤمن . ومعنى ذلك، أنها لا تستطيع أن تؤمن إلا إذا أيدها الله بالأدلة التي تأخذ بعقلها إلى طريق الإيمان، وأن يصرف عنها المعتقدات التي تحول بينها وبينه. مع بقاء الاختيار للإنسان في الإيمان أو الكفر، وفعل الخير أو فعل الشر. فإذا أذن الله في إيمانها انسقت لها الظروف الداخلية والخارجية للإيمان فيحصل الإيمان دون أن يتعطل العقل أو يحجب عن الاختيار. وفي المقابل فإن الله يمنع أطرافه وتأييده للذين فسدت عقولهم فبتركهم إلى أنفسهم فيختارون الكفر المسؤولون عنه. خذ لذلك مثلاً: كون الإنسان يولد في بيئة مؤمنة، وييسر له الاتصال بأهل الخير والفضل الذين يؤثرون فيه التأثير الصالح، وينشأ عقله على تقديته بما يعينه على الاستقامة في النظر، ويكون عقله محصناً من الزيف أو من تقبل التشكيك. هذه أمور لا تسلبه الاختيار الذي هو مسؤول عنه وهي بإذن الله، وهي التي يتبعها الثبات على الإيمان.

فإذا انحرف العقل فساق إلى الضلال والفساد وبالتالي إلى الكفر، إذ تعطلت ملكاتهم للعقل، فهم لا يعقلون، ولو استقامت عقولهم ما كفروا.

101- قل الغافلون لا يعلمون.

قل لهم: افتحوا أبصاركم. وافتحوا بصائركم للتأمل العقلي فيما حوته السموات، وما تستقر في الأرض. إن ما ينقله لكم البصر مما تحويه السماء من كواكب ومن سحب ولطائر إلى آخر ما يقع تحت المشاهدة، وإن ما تؤثره تلك المشاهد في العقل من دعوة للتأمل في القوانين المسيرة والتنسيق المحكم والنظام الحقيق. وكذلك ما تتلقونه من مشاهد الأرض، التي تسيرون في مراكبها، بأبصاركم أو عقولكم، هو كتاب التكون الذي يقوم ثيلًا وشاهدًا يومصلكم إلى الإيمان. إن الظالميين من الذين ينكرون الخالق، الذين وسعوا أنفسهم بالعلمانيين، وهموا ولو هموا لهم لا يحكمون إلا العقل، لو سألهم فقلت لهم: إن النظام كمال، والقوضى نقص، ونحن جميعاً نشاهد هذا النظام فمن أحكمه؟ قالوا: الطبيعة. وإذا سألتهم ما هي هذه الطبيعة الفاعلة التي يستندون إليها للتأثير؟ لا يزدون عن ترداد: الطبيعة. فهم خرجوا من نور العقل والإيمان إلى ظلام الطبيعة والكفر. إنهم لم يفهموا من هذه الآيات المبثورة في الكون ما تنطق به من الدلائل، كما لم يستفيدوا من تنبيه المرسلين والمصلحين إلى ما يترصدهم من خسارة ما لهم تبعاً لكفرهم بالله.

102- 103، فهل ينظرون -إلى المومنين-

إنه بعد التذكير، ولفت الأنظار إلى مشاهد الكون الناطقة بما وراء نظامها، وإحكام خلقها من القدرة الإلهية، يثور سؤال: أي شيء ينتظرون قدومه ليؤمنوا ويقطعوا عن الكفر؟ وإياي الجواب مضمناً في السؤال، ينتظرون أن يحل بهم مثل الأحداث العظيمة التي حلت بمن سبقهم من المعاندين؟ ثم توجه الخطاب لرسول الله ليقول لهم: ترقبوا مثل تلك الأيام، فإنني مترقب مثلكم ما يقضي به الله، على معنى: إنكم تترقبون حلول العذاب بكم، وأنا أترقب للتأييد من الله.

وتصرح الآية بأن حلول العقاب بهم ونزول العذاب عليهم، يفصره الله عليهم وينفردون بحزبه؛ ويتولى الله إنياء الرسل والمؤمنين كقاعدة سبقت وتستمر، إن ما لوجه الله على نفسه أنه يحفظ المؤمنين من مواقع الإللال والعذاب والمهانة التي يسلطها على الكافرين.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي مُنْعِمٌ بِكُمْ فَأَنِبُوا لِمَن يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝
 أَفَعَبَدْتُم مَّا دُونَ اللَّهِ مَا يَنبِئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۝

بيان معنى الألفاظ :

بمسك : يصيبك.

الضر : كل ما يكره الإنسان حصوله لنفسه أو لمن يحب.

بيان المعنى الإجمالي

أمر لرسوله أن يعلم كل إنسان وجد عند نزول الآية أو ميثاق من بعد، يعلمه بأنه إن كان قد احتواه الشرك في ديس الإسلام، فإنني راقض لما تعبدون من دون الله، سواء أكان صنما أو هو. ولكنني أفرد الله بالعبادة الذي يتصرف فيكم فيميتكم في الوقت الذي حددته لوفاتكم. وإني مأمور بأن أكون في موكب المؤمنين.

كما أمرت أن أخلص جميع كيالي للدين، منصرفاً عن كل التصورات المخالفة لما قرره، ولأن أبتعد عن مجموعة المشركين بالله، فكل صلة بهم مقطوعة.

هذا الإخلاص في التوحيد يعترضني مني أن لا أمتنع بالعاجزين عن نفعي كمعجزهم عن الإضرار بي، فأنا لا أتقرب ولا أتوسل إليهم، لأن من يفعل هذا ويربط أماله بغير الله يكون ظالماً لنفسه، إذ علق بالتحصيل على النفع لو دفع الضرر بمن لا يستطيع عونه ولا التأثير في الواقع.

إنه إن يصيبك الله المتصرف وحده في الكون، بما يضرك فلا تستطيع أي قوة أن ترد قضاءه، وإن تعلقت إرادته بأن يمتك ما ترغب فيه من الخير، فإن فضله سيأتيك ولا تستطيع أي قوة رده، إن فضله يمكن منه من يشاء من عباده، وهو فضل منه، يتجاوز ربنا عن تقصيرنا وقصورنا، لأنه هو الغفور الرحيم.

قل للناس جميعاً مقالاً يتردد ما بقي الزمن: لقد بلغكم القرآن وشرع الله، فمن أخذ بما جاءه، وأذعن له، فإنما نفع نفسه لما يرجوه من رحمة الله، والوفاء به من عذابه. ومن حاد عن طريق الحق، فكفر بالله، ورفض شريعته فإنما أوقع الضرر على نفسه. وإني مبلغ عن ربي وقد بلغت، ولست ملزماً أحداً بما بلغتته فها.

و بعد هذا: وأصل اتباع الطريق المستقيم الذي أنت عليه، وأسير على أذى المشركين، حتى يحكم الله بينك وبينهم بنصرك عليهم وظهور الإسلام، والله هو الحاكم القوي الذي لا يرد حكمه ولا يجوز فيه.

بيان المعنى العام :

104- قل يا أيها الذين آمنوا آمنوا

أمر من الله لرسوله أن يقول لمن لم يبلغ نعمة اليقين من صدق ما أتى به: إن كنتم لم تعلمنوا إلى أحقية ما أثبت به من ديني الذي أنا واثق من كونه من عند الله، برأني الله من الشك فيه، وقد خالط قلبي ومشاعري حتى صار جزءاً مني. فإني نسيه القرآن لنفس محمد (دينه). وإذا كان الشك ينخر عقولكم، فأني على يقين من صدق ما أثبت به، وأن ما تدعون به باطل فاسد وغير صادق، فأنا لا أتبعه ولا أعبد ما تعبدون. ولكني أعبد الله الواحد الأحد الذي يتصرف قبكم تصرفاً لا تستطيعون الإنفلات منه. فهو الذي يعيستم في اللحظة التي قدر أن يتوفاكم فيها. ومن حكمه القرآن أن اختار للتبديل على تصرف الله بالتصرف تقديره، ويتخذ ما قدره في أجل كل نفس؛ فإن الحياة أقرب ما يملكه الإنسان ظاهراً، فالتصميم على أنه وأهم غير مالك لها في الحقيقة، لأن الله يقبضها إليه متى شاء، لاظهر دليل على

فساد معتدلتهم، والمعقبة الواضحة الصحيحة؛ هي ما أمرني به ربي أن أكون سائرا في موكب الإيمان المهتدي في الكون.

105 - 106، وإن أقم وجهك عن الظالمين.

و أمرت بتخصيص عقلي ومشاعري ومداركي للتمسك بالدين الإسلامي المقترود بمنهجه وغايته عن غيره، وأن أجعله وجهتي الوحيدة، في المعقبة والسالك، فلا أتبع في قليل أو كثير غير ما جاء فيه، ولتحقيق هذا المعنى عطف عليه النهي للمؤكد عن اتعاع الشرك وجماعته.

ثم إن كل إنسان يشعر بضغفه عندما يريد تحصيل المرغوب فيه وبخشي أن يفوته، أو يخشى ضرا يصيبه ولا يستطيع أن يكون لنفسه مناعة منه، فتجده يطلب من سمعه بالوعن، فيتوجه بالدعاء للقوة القاهرة التي بيدها ذلك، ولا يوجد من يملك الأمر كله إلا الله . فلا ندع أحدا غيره لعونك على الفوز بما ترغب فيه، أو لحمايتك مما تخشاه، إنك إن استعنت بشيئه تكون فردا من القوم الظالمين السائرين في عماية من الذين ظلموا أنفسهم فخرجوا بها عن الطريق المبلع للمقصود إلى الطريق المسدود في نفق مظلم لا نور فيه.

و مما يحقق ذلك أنك إذا أصبت بضر في نفسك أو في مالك أو فيما يحزنك ضربه، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله، وفي المقابل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه.

وفي هذه الآية تحذير شديد من الاستعانة بغير الله، فإنه إذا فرض كما يفرض المحال أن الرسول لا على جلسته غيره عند ربه، فعل ذلك يكون من الظالمين.

107 - وإن يستسك الله بضره، المقصور الرحيم.

ومما يحقق ما ورد في الآية السابقة أنك إذا أصبت بما تكره في نفسك أو في مالك أو فيما يحزنك ضربه، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله، وفي المقابل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه له، فإنه لا يستطيع أي قوة أن تحجب عنك ما أراد الله لك منه، فإذا تعلقت الإرادة الإلهية بإنجاز أمر في الوجود عجزت كل القدرات أن تعطل ما تعلقت به الإرادة قبل حصوله فضلا عن تعطيله بعد، إنه لا راد للخير الذي يحصل لك والذي هو من فضله وليس كفاء لعملك. هذا الفضل الذي يمكن منه من يشاء تبعاً لحكمته، وربنا سبحانه لا يحاسب الناس على تفسيرهم، فيحرمهم فضله ولكنه غفور رحيم، رحمته وسعت كل شيء ومنها ذنوب

المذنبين وتقصير المعصيرين، فهو راحمهم وإن تفاوتت مراتبهم في الكمال، ماداموا لم يشركوا به ولم يبدلوا شريعته.

108- قل يا أيها الناس: إنما أنا نذير مبين.

تكرر الأمر بكلمة (قل) أربعاً وعشرين مرة في هذه السورة، وختمت بهذا الإعلان المفتوح بها، فكانت جامعة في عميق مدلولها كل ما جاء من بيان وحاجة ودعوة، وكانت وجهة للناس جميعاً مضمونها: أن الله الرؤوف بكم الذي يغني لكم الهدى والنزاد (ربكم) قد اعتنى بكم فليترك عن طريق رسوله، للحق الذي لا يشوبه باطل، فأخرجكم به من الحيرة والضلال. ثم إنكم مختارون لا مجبرون، فمن أعمل عقله ونظره ووصل إلى الالتزام بما جاءه من ربه، فإن اعتداه وما يترتب عليه من خير في الحاضر والمآل هو غنم لنفسه، بمعنى أن عليه أن يحمد الله على ما هداه، وتعالى الله أن يعود له نفع من إيمان المؤمنين وصالح الصالحين، كما أنه في المقابل، من صل للطريق فكفر بالله ورفض ما جاءه على لسان رسوله، فإن جريرة ضلاله لا تقع إلا على نفسه. إنه ينادي وإعراضه أهلك نفسه في الحاضر والمآل، وإن حضر كفره النبي ﷺ، وقل لهم إني لست موكلاً بهديتكم ولا أتحمل ضلالتكم.

109- واتبع ما يوحى - وهو خير الحاكمين.

إنك على الهدى الكامل، وعلى الصراط المستقيم المأمون عقليته. هو طريق بينك لك ربك بما أوحاه إليك، فاتبعه واصل مسيرتك في الحياة عليه مع الوثوق الكامل والطمأنينة التامة، واصبر على أذى المشركين والمعادين ولا تضجر إن تأخر النصر، وذابر على ذلك حتى يحكم الله بينك وبين الكافرين بحكمه العادل، فهو ناصرك، والله في عظمته لا يرد حكمه. فهو الحاكم الكامل، وكل حاكم سواه ناقص، فهو بذلك سبحانه خير الحاكمين.

سورة هود

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وقد تكرر ذكر اسم ميّنا هود فيها خمس مرات. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبها الثانية والخصون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وهي السورة الحادية عشرة حسب ترتيب المصحف.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُكْمِلُونَ

الرَّاسِيبَ أَخْرَجْتُمُوهُنَّ مِنْهُنَّ ثُمَّ فَضَّلْتُمْ بَيْنَهُنَّ لَدُنَّ حُكْمِ عِلْمٍ ۖ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ
إِنِ لَكُمْ مِنْهُنَّ فَتَنَةٌ وَنُفُوسٌ مُّتَمَرِّضَةٌ ۚ وَإِنِ اسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْحَشُونَ ۚ فَمَنْ عَسَا
رَآكُمْ عَنِ اللَّهِ فَمَنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ خِيفَةٌ ۚ لَوْ كُنْتُمْ عِلْمًا ۚ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِ أَحْبَبْتُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ صُدُّوا عَنْهُ
لِيَنْتَفِلِخُوا بَشَرًا ۚ أَلَا حَسْبُ عِلْمٍ أَنْ يَلْمِزُوكَ ۚ لَوْلَا مَا أُعْزِمُوا ۚ وَمَا يَغْنُفُونَ ۚ اللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ۚ • وَمَا مِنْ ذَاتٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وْمُسْتَوْدَعُهَا ۚ كُلٌّ فِي كِفْلٍ مِّنْهُنَّ ۚ

بيان معنى الألفاظ ،

أحكام : الأحكام الإتيان.

الامتياز : طلب العفوة والصفح عن الذنوب.

المثوبة : الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العود.

بمَنَعِكُمْ : يمنعكم مما تتفكرون به وتجدون فيه منعة.

مناقشة حصة : حياة طيبة.

الخطبة : الأول: العمل الصالح، والثاني فضله، ثوابه في الآخرة.

الاستخلاص : الاختفاء البليغ.

الأمسفتما : التفسير .

ذات الصدور : ما استقر في عقولهم.

الدابة : ما يتحرك من الحيوانات الأرضية.

الترغيب : ما به قوام حياة للتواب.

بيان المعنى الإجمالي :

بثوه الله في فاتحة السورة بالقرآن، أخبر عن آياته، بأنها محكمة بلغت الغاية من الدقة، وأنها بيّنة واضحة لا يدخلها التردد، الذي أزلها هو الموصوف بالحكمة، فلا بد أن يكون كلامه حكيماء. وهو الذي بلغ علمه دقائق الأمور فلا تكون آيات كتابه إلا مستوفية للمعاني المقصودة بوضوح.

لقد روا الله بالعبرة، تفصيل بإرسالي إليكم أنبأ المؤمنين وأنذر المعاصدين ليقعسوا. فاطلبوا من ربكم العفوة لما سلف منكم من كفر ولستكن بوبنكم نامة بإفلاكم عما كنتم عليه. علمين على عدم العودة إليه، إنه بذلك يملككم ربكم من حياة أمية طيبة، ويوفر لكم يوم القيامة من فضله ما تعملون به في آخرتكم. واحذروا إنه إن عرضتم فإني أخاف عليكم أن يسام الله عليكم عذابه في يوم كبير عقابه. واعلموا أنكم لا تتفلتون من العودة إلى ربكم فإله قد ير على كل شيء.

من غياه الكافرين لهم يظنون أن الله لا يعلم ما يجري في عقولهم إذا هم انتشوا فأخفوا صدورهم. لينبئوا أنه سبحانه يعلم كل ما يعلنونه وما يظهرونه، وإن غفوا أنفسهم بتيابهم، فإن الله عليم بما تكنه العقول ما جهرت به أو ما أخفته.

إن علم الله الواسع وقدرته العظيمة، لا يخرج عنهما أمر البشر ولا أمر الدواب، فكل ما يتحرك في الأرض. يمكنه الله من رزقه، يعلم الممكن الذي هو فيه، ويعلم تكاثره، فيوفر له في كل حال ما يبقى على استمرار الأنواع. وكل ذلك مسطور في علمه لا يتبدل، شأن الأمور الموثقة بالكتابة.

بيان المعنى العاشر :

1- أَلَمْ يَكُنَّا مِنْ دُونِ حَكِيمَةٍ آيَاتِهِ ... مِنْ دُونِ حَكِيمَةٍ عَجَبِهِ.

ما ذكرنا في فاتحة سورة البقرة وفي السور المفتحة بحروف غير متواصلة يجري فيما افتتحت به هذه السورة (الز).

والكتاب هو القرآن، أخبر الله عنه بأنه قد أحكم آياته، أي إن آيات القرآن بلغت الغاية في الإكثار، سواء من ناحية المضمون لا يحطنها الصدق والمطابقة للحق والواقع، أو من ناحية الصياغة، لكل كلمة فيها وقفا الخاص، لا تقبل غير ما نطقت به إلا على ضرب من النقص في البيان. وقوف ذلك تناولت بالتفصيل الموضح ما ينفي الإبهام وحيرة المخاطب لفهم المقصود منها.

إن ما اختلف به القرآن، لا غريبة في أن يكون على هذه الحال، لأنه صادر من نبي للحكمة، إذ هو كلام الله الحكيم، ولا يصدر عن الحكيم كلام إلا وهو موصوف بالحكمة. وهو العظيم بخفايا الأمور لا يغيب عن علمه شيء، فلذا كان كلامه مفصلاً كاشفاً عن المقصود بلا التواء ولا تعمية.

2- ألا تعبدوا إلا الله إني لأؤكد منه كثيراً وشيئاً.

وجماع الأحكام والتفصيل يرجع إلى القاعدة الأساسية التي بُني عليها الدين، وهي إخلاص العبادة لله، بـإحجاب عبادة الله وحده والنهي عن عبادة غيره. والإخلاص في العبادة ليس متروكاً للإنسان يطبقه حسب تصوره وإلهامه، ولكنه هو المنهج الذي جاء به رسوله، ينشر المستقيمين على الطريقة التي بينها برضوان من الله بما يتبعه من الفوز في الدنيا والأخرة، وينذر المعرضين عنه بما يفرصدهم من مسخط الله وعذابه.

3- فإن استقيموا إليه، وإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير.

من التفصيل في آيات القرآن، ما ورد في هذه الآية: وهو أمره للبشر أن يطلبوا من الله مغفرة ما سلف منهم من الكفر قبل إسلامهم، وأن يغفروا بين طلب المغفرة والتوبة بالندم على ما فات منهم، على معنى أن تستيقظ في يوم أظنهم نولزع الخير فيجتاحوا لشغور أرا مما فرط منهم من كفر أو من ذنب.

إن طريق التوبة والاستغفار يتبعه قبول الله لعبده المستغفر الذائب، فيمنع عليه بأن يمكنه مما يجد فيه معة في حياته الدنيا، تتواصل ولا تنقطع إلى أن يبلغ الأجل الذي قدر له في الحياة. وإلهام لعملة خالصة من المكدرات، فتكون الحياة الدنيا للثابتهين المستغفرين حياة طيبة، كما أنه يمكن كل من عمل صالحاً، وهو صاحب الفضل، من فصل الله وهو الجزاء الأخروي.

وفي المقابل فأخبرهم أنهم إن أعرضوا ولم يؤمنوا، بأنك تضاف عليهم أن يسلط الله عليهم عذاباً شديداً في يوم تكون النعمة فيه عظيمة، في الدنيا بتفريق كلمتهم وقهرهم بالقتل والتكيد، وفي الآخرة بالعذاب الشديد، فكما كانت النصارة شاملة الدنيا والآخرة بالنسبة للمؤمنين، فكذلك الإنذار للمعرضين الكافرين.

4- إني إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.

إنكم لا تتفكرون من قبضة الله وتصرفه فيكم، سواء في حياتكم الدنيا أو بعده موتكم أمركم بيده. وتأكدوا أنكم لا تستطيعون حماية أنفسكم لا بمشيئ ولا بقوة لأنه سبحانه هو القادر، العظيمة قدرته على كل شيء.

5 - ألا إنهم يفتنون صدورهم... بذات الصدور.

هذه الآية تقضح غياب الكافرين، فتعرض تصوره الماذج: إنهم يتنون قاتمهم قنقني صدورهم وهم ينتنون، فلنا منهم أنهم أخفوا على الله ما يجري فيها من الكفر والشر. وهم يظنون أيضا أنهم لن استكروا بثنابهم فتغلوا بها إلى رؤوسهم لن الله لا يعلم ما يفعلون وما يمكنون.

وتبين الآية ضلالهم وسخافتهم، لأن الله يستوي علمه بما يعلمونه وما يخفونه. ويؤكد الآية الحقيقة التالية: إن الله عليم بما احتوته العقول وما استقر فيها من أمور، وإذا كان الله يبلغ علمه القصوى لما تخفيه عقولهم مما لم تتحدث به ألسنتهم، فمن باب أول وأخرى إن لا يخفي عنه ما يعملون.

6. وما من دابة إلا على الله رزقها... هي «كتاب مبين».

مظهر من مظاهر عظيم قدرته وواسع علمه وتصرفه لأتقنه هذه الآية: ذلك أن علم الله وقدرته يتعلقان بالدواب فتعلقهما بالبشر من ذلك أن كل دابة تسكن الأرض على سطحها أو في جوفها في اليابسة أو في الماء، تكفل الله برزقها فلا يضيعها ويبني ذلك في بقاء الأجداس وتوالدها، رغم تفاوت قواها وتعرض بعضها للانقراض من غيرها، إنه الرزق الذي أخبر أنه سيمن منه كل نوع من السباع الدواب، إنه يعلم مكنها التي هي فيه فيمكنها من الرزق المقدر لها، وهو يعلم وضعها قبل أن تتكاثر بمختلف أنواع التكاثر من الانقسام وغيره، فيحيطها برعايته ويمكنها من رزقها لتستمر سلسلة الحياة في الأنواع، كل ذلك لا يأتي عن طريق الصدفة، وإنما هو مرتب موثق في علم الله شأن ما هو مكتوب لا يزيد ولا ينقص.

[illegible]

السَّيِّئَاتِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ضَلُّوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَجْمَةٌ وَآخِرَةٌ كَثِيرَةٌ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ ،

ليقبلوكم : ليختبركم.

سنة معية : فترة قليلة.

حسنة : بملعه.

حسنة : أحاط.

انقضا : مكانه من إدراك الرحمة.

بيان المعنى الإجمالي ،

تذكر القرآن بالقدرة العظيمة والإحكام لله في خلقه للسموات والأرض في ستة أيام. وأضاف على ما سبق في الآيات الأخرى أن عرشه كان على الماء. وتصور كيفية ذلك حسب مقاييس الحياة الدنيا وعقل الإنسان وحواشه الخائفة مضلل، فمن ذلك ونكل الكيفية إلى الله سبحانه. إن حظ الإنسان من هذا الخلق العجيب أنه مختبر لتظهر استقامته وحسن عمله فيجازي تبعاً لذلك. وإذا نهت النفس إلى أنهم سيبعثون بعد الموت للجزاء. لكن رد المعاندين إلى عودة الحياة للإنسان بعد موته ضرب من السحر الواضح لا حقيقة له.

والله يسلط عذابه على الكافرين في الأجل الذي حددته، فإذا تأخر عنهم العذاب بعد إذارهم به، كان قولهم: ما الذي منع العذاب؟ قل لهم: إن كل أسر هو مقدر عند الله وفي الزمن المحدد المقدر يأتيهم ولا منجى لهم منه، سحيط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه.

ومن طبع الإنسان أنه إذا شملته النعمة من الله، ثم صرفها عنه، وتلحق عليه اليأس ويستحود عليه الكفر برحمة الله. وإذا من عليه بالنعمة بعد الضرر يفخر بما تحقق، ويبالغ في الانغماس في اللذة ناسياً كل خير أنفسه كافرين بالنعمة الله عليه. ولا يخلص من هذا الانحراف إلا الذين صبروا على النعمة وعلى الضرر، فغنى حال النعمة هم شاكرون، وفي حال الضرر هم متضرعون أملون. إنهم في رعاية ربهم الذي وعدهم بالمغفرة إذا قصروا، وبالثواب غير المحدود.

بيان المعنى العام ،

7 - وهو الذي خلق السماوات والأرض بيان هذا إلا شعر مبين.

أكدت هذه الآية في الجزء الأول منها ما أثبتته القرآن من خلق السموات والأرض في ستة أيام، وقد بسطنا القول في شرح هذا المضمون في الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف. وأضافت أن عرشه كان على الماء. والذي نؤمن به أن اللغة تقصر عن التعبير عن الأمور الغيبية المتعلقة بالذات الإلهية، كما تقصر مداركنا عن تصور تلك تصورا حقيقيا. ولذا فالأسلم في تناول هذه الآية وأمثالها الطريقة التالية:

فجزم بأن عرش الله لا يحده ولا يحويه، ونفخى عنه كل تصور بشري مجسم أو مجرد... عارفته بالعروش الخبوية خطأ وضلالا. أطلق القرآن عليه العرش فذئبته كما أثبتته القرآن، وكل المولد منه لله. إنه تجري فيها الروح فنشئها لأفئسا ولغيرها، ونفخها عن الأموات، والروح التي به قلوبم وجوفها وإبركها، نسمو عن إبركها لنكبتها، وعجزنا عن إبرك كبتها لا ينفي وجودها،

وكنك كون هذا العرش على الماء، نؤمن بمسده ومن المسخافة أن نتصوره تمينا يطفو على سطح الماء. فالحق أن أثبت ما أثبتته القرآن والله أعظم بمراده، ولا يضيرنا عجزنا عن إبرك، حسب القدرات البشرية في الإدراك، والله يقول: **إِذَا مَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ (الْكَلَامِ)**¹

ليبلوكم ليختبركم بمعنى لينظر في الواقع ما سبق في العلم، فيتبين المحسنون من غيرهم الأحسن عملا: الأحسن عملا عقليا بالتدبر في ذلكم الخلق العجوب، كما أشرنا إلى بعض ما يدل عليه في الأيتين {190/191} من سورة آل عمران، والأحسن عملا في الاستخلاف في الأرض، حتى تكون عمارة الكون أتم وأكمل بالعمل الجاد المراعي للقيم الدينية والأخلاقية، والأحسن عملا في العلاقات الإنسانية حتى ترتقي الحياة الإنسانية بشمر الخير والفضيلة واجتثاث الشر والذبلية. وفي هذه الميادين الثلاثة بقاوت البشر. صملاهم بمقدار استحضارهم ومراعاتهم للعالم الذي سيصيرون إليه يوم القيامة.

وهذا الملحظ هو الذي يعمل الكافرون على نسيانه وعلى إنكاره، فإلك إذا نبهتهم إلى أنهم سيبعثون من قبورهم للحساب والجزاء، يجرون عن إنكارهم، بأن ما تهددهم به من عودة الأرواح إلى الأجسام، أمر لا حقيقة له، هو سحر واضع، تخيل لا أسس له.

8. ولئن أخرفا عنهم العذاب إلى أمة معدودة تسعاً كانوا به يستهزئون.

وإذا هدّيتهم بالعذاب الذي سيترضون له بكفرهم، وتأخّر تسلطه عليهم وسيأتهم عند أجله المضبوط في عزم الله ضابطاً محموباً، نقلاً بعددهم، لو كنت صادقاً فيما تهدّدنا به، لوقع علينا العذاب، على معنى أنك تهدّدنا بالعذاب القريب تبعاً لرفض ما جئت به، ولو كنت صادقاً في تهديدك لوقع العذاب، فعدم وقوعه ينشئ بأن ما تدعيه غير صادق.

أجابهم القرآن بتأكيد لحفية المضمعون بتقديم أداة الاستفتاح: ألا- وتقديم الوقت في أول الكلام (يوم) للدلالة على أن ما قدر لهم من العذاب مضبوط لأجله تبعاً لحكمة التقدير في هذا الوقت المحدد مقدماً، وتأخير لا يترتب عنه إغلاطهم منه، فإنه محيط بهم إحاطة لا مخرج لهم منه، وكان إغلاطه عليهم بسبب استهزائهم بما أخبرهم به الرسول من انتقام الله منهم.

9. ولئن أذقنا الإنسان منا سيئاً ليقول سنفور.

تبرز هذه الآية طبيعة الإنسان إذا لم تهذب بالتربية الدينية. فالإنسان إذا مكّنه الله من الاستمتاع برحمة من رحمائه في بذله لفعلاه، أو في ماله ففروعه، أو فيمن يحب فأجبرى عليه نعمته، واستمر هذا الفضل إلى الأجل المغدّر له دون أن يشعر بأن حفظه فيما أوتيّه ليس كل شيء، وأن الذي يستر له ما يستر هو الله العالِك الحقّ فعلاً سلطه ما مكّنه منه من نعم، أسرع إليه اليأس والتسرم من وضعه، ولا يصدر منه إلا ما ينشئ عن كفر بما سبق أن ناله من نعم، والكفر لفضل الله عليه، فهو منقطع عن الماضي، ومنقطع عن المستقبل غير أمل، وهي التعاسة التي يعيش فيها للكفرة للمحدون.

10. 11. ولئن أذقناه نعماءً. واجر كبير.

ولك الصورة للإنسان في حالتي النعمة والسلب بعد العطاء، يكملها القرآن بصورة أخرى. كاشفة عن وضعه إذا أوصّل الله إليه النعمة فاستمتع بها بعد ما أصابه من ضر. هو في هذا الوضع أيضاً كافر بنعمة الله عليه، يدعي أن ذهب السوء عنه، وعودة الخير إليه، كان نتيجة لما أوتيّه من كفاء وفطنة وقدره على الخروج ممن الأزمات والسقالات. فينغمس في الاستمتاع بما أوتيّه من البسر بعد العسر، ويبالغ في الانتشاء بوضعه الجديد المعاد، ويفتخر بمكتمباته، غير ذاكر لنعمة الله عليه ولا مقدر لما يتحمّ عليه من الشكر ومن الاستقامة.

إن هذه الطبيعة للإنسان التي صورها القرآن في الأيتين، في حالة يسره ثم عسره، وفي حالة يسره بعد عسره؛ صوره على أنه مُنْبِتٌ عن الله غير سعيد السعادة الحقة في جميع أوضاعه؛ فلذلك استثنى القرآن الذين صبروا الصبر الإيجابي، الذين إذا مستهم السراء لم تشغلهم عن صلاتهم يربهم ويأخوئهم وبالكون كله؛ كما أنهم إذا مستهم البأساء لا تضعف تقههم في ربهم فهم أملون في رحمته وعونه. بشرتهم الآية تبعاً لهذه الصلة الرفيعة بينهم وبين الله بالوعد للكرام للجامع بين المغفرة لتقصيرهم، والثواب الكبير غير المحدود، إنه عطاء من وسعه ملكه السموات والأرض.

[illegible]

بيان معالي الألفاظ

ضمائلي به صبرك : ألقم والأسطى.

الأقزام : الكذب المفضوح الذي لا شبهة للكاذب فيه.

بہار المعنی الجمالی

يُؤيد القرآن النبي ﷺ في مواجهة إصرار المشركين وعنادهم، فيقول له: لا تحزن ولا تهتم ولا تأسف، وواصل الدعوة بجد دون أن تقتر نعم إن مقترحاتهم الممتنة قد تترك في نفسك حرجاً، إذ هم يطلبون مثلاً أن ينزل عليك ذهب وفضة من السماء، أو أن يصحبك ملك يؤيدك. إن مقترحاتهم لو تحققت لخرجت بالإنسان من دائرة الاختيار والتكليف إلى دائرة الإلجاء على الخير، وما خلق الإنسان إلا ليختبر ويثاب أو يعاقب على اختياره، فلو ترك هو يذلهم سوء العاقبة إن هم لم يؤمنوا .
لما لذي بيده التحكم في البشر فهو الله الواحد الأحد.

وأنوع آخر من العناد يتمثل في رميهم النبي ﷺ أنه افترى القرآن ولم يتلق الوحي به عن الله. ورد للقرآن عليهم: إنكم فوارس البيان وأنتم الفصاحة، فقدموا كلاماً يسلمون القرآن في عشر سور من سوره، واستعينوا بمن سئلتهم من البشر: فإذا تبين

عجزكم وهو فعلا ما استمر مع الأعصار، فقد قامت عليكم الحجة أنه منزل يعلم الله، وعليكم أن تعلموا إسلامكم، فهل أنتم مسلمون بعد هذا التحدي ؟

بيان المعنى العام :

12- الفصل الرابع: بعض ما يوحى اليكمسوالله على كل شيء وكيل.

هذه الآية تصور إصرار مشركي مكة على رفض الدعوة الإسلامية، وعمق غلادهم، فجاءت الآية في صورة تحذير للنبي ﷺ أن يبلغ به الأمر إلى لبأس من استجابتهم لدين الله فيترك تكرار عرض ما يوحى به إليه عليهم. إن هذا التوقع بقصد منه ما وراءه، وهو تقوية الرسول ﷺ على متابعة التبشير بالقرآن نون أن يقل في عزيمته إصرارهم على الرفض، أو امتهازهم به أو اقتراحهم تأييده بمعجزات على سقايسهم. بقوة القرآن عزيمته حتى لا يفتن ولا بأسف؛ وإن كانت مقترحاتهم وعروضهم عليه هابطة عن المستوى الذي طبعت عليه الدعوة الإسلامية. قالوا: لولا أنزل عليه من السماء كنز، يعنون ذهباً وفضة مما شمله أن يخفى فلا يطلع عليه غير صاحبه الذي يشره ويعني على مكانه. كما اقترحوا أن يصحبه ملك ينادي: هذا رسول الله صادق فيما يقوله. ويرد القرآن عليهم مقترحاتهم: بأن مهمة محمد أن ينفذهم حلول المذاب بهم إن هم لم يتبعوا هداية الله التي ببلها لهم. والإنذار غير الإلجاء والفهر ولكن تعريف الإنسان بالعاقبة التي يختارها بعقله ومواعيه. وما اقترحوه ينفي الاختيار الذي هو مناط الثواب والعقاب. وأن المتفرد بالقدرة التامة والتصرف في المخلوقات هو الله، فهو الوكيل على البشر قادر على أن يصرفهم للخير بإحاطتهم بالمساعدات، أو أن يصرفهم عنه إلى الشر بحجبه العون ونزك الإنسان لنفسه.

13 1:4 أم يقولون اتراء، سألوا أأنتم مسلمون

وصورة أخرى من غلادهم: أنهم يواجهون الحق الذي لا يستطيعون رفضه بالمنطق السليم، غير موفك بالافتراء ونسبة القرآن إلى الله مع أنه من عندك. ويشول القرآن تلقين الرسول ما يهيم به موجهتهم: إذا كان هذا القرآن مما يمكن أن يفترى قباني لتحداكم أن تأتوا بعشر سور مماثلة للقرآن في بيانه ومضامينه. ثم يبلغ في تحديهم أن لهم أن يستعينوا بمن شأوا من البشر، ولهم أن يؤلفوا فريقاً من أصحاب الاختصاصات المختلفة لتحقيق ذلك.

وهذا التحدي للمتكبرين أن القرآن من عند الله، قد تكرر في القرآن، فقد وقع تحديهم بأن يأتوا بسورة مثله كما هو نص سورة البقرة وسورة يونس، أو بعشر سور كما هو في هذه السورة،

أو بالقرآن كله كما في سورة الطور. وما استطاعوا ولن يستطيعوا. وفصل القرطبي رحمه وجوه إعجاز القرآن التي تحدى بها المشركين في مقدمة تفسيره ص 73/78 فأجاد. ثم أعلن القرآن أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، لا في سورة ولا في عشر سور ولا بما يساوي جميعه، ويقوم عجزهم مع أنهم معروفون بالإجادة في القول، والقدرة على حسن النظم، وجمال الأسلوب والتوفيق في البيان. فإذا كان هذا معلوما عنهم وعجزوا واستمر عجزهم. فإن ذلك يقوم مناديا بأنه منزل من معين العلم الإلهي الفائق للقدرات البشرية. وأن الله واحد لا شريك له، وكلامه واحد لا يتلقى لأي فرد ولا جماعة من البشر النسخ على منواله بما يساويه.

وإذ تبين العجز بعد التحدي نالاهم القرآن: ارتفع عنكم وموجبات الشك في صدقه، وما بقيت لكم أي نعمة، فهل أنتم مسلمون؟

مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ فَإِنَّ رُبِّيَّ مُبْتَغِيًا إِلَيْهِمْ أَعْمَلُكُمْ فِيهَا وَهَذَا صَبَاحٌ مِمَّا يُخَسِّرُونَ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآيَاتِ إِلَّا النَّارُ وَخِيطٌ مَا شَقَعُوا بِهَا وَيَسْتَلِ مَا
 كَانُوا يَفْعَلُونَ ٢٢ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتَمِّ بْنِ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدًا مِنْهُ يُرَى لِقَائِهِ كُتِبَ
 مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَأَمَّا يَنْفَرُونَ ٢٣ بَيْنَ الْأَحْزَابِ لَأَلَا تَأْتِيهِمْ
 مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُنْ مِنْ مَنَادِيهِمْ ٢٤ أَلَمْ يَخْلُقْهُمْ أُولَئِكَ أَعْيُنَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٥

بيان معاني الألفاظ :

الكلية : إعطاء الشيء كاملاً غير منقوص.

لا يخسرون : لا يخلعون بالتقصير من حظوظهم.

شعيط : الجلال والالتهام، وحرمان الثواب .

سعدوا : عملوا.

الجلال : ما يذهب ضياعاً وخساراً.

البيئة : الحجة الواضحة.

الأحزاب : جمع حزب، القوم الذين يجمعهم تصور واحد.

مؤتاه : مصيره .

المرية : الشك.

بيان المعنى الإجمالي :

مذهبان في هذه الحياة الدنيا لا ثالث لهما: مذهب المؤمنين الذين تعلفوا بهداية ربهم وأسلوا في رضاهم فهم يزنون أعمالهم بميزان الشرع. ومذهب الذين لحصر همهم في

اغتنام متاع الحياة الدنيا ومباهجها والتعلق بزينتها. وهذا القسم الثاني مع ضلالهم لا يحرمهم الله من الحظوظ الدنيوية التي عملوا على تحصيلها، ولا ينقصهم شيء منها بسبب كفرهم. ولكن مآلهم في الآخرة العذاب المهيئ في النار، ولا يجدون أي نواب عن أعمالهم الحسنة، لأنها انهارت آثارها بانقطاعها عن الله. وخلاصة الأمر تنضح بهذه المقارنة، بين من كان متمكنا من هدي ربه، متأكدا بالقرآن السدي يشهد أنكم الهدي وهو منه، كما يشهد له من قبل القرآن للتوراة كتاب موسى للجوامع بين كونه مرجعا كما أوصى به عيسى عليه السلام، وكونه رحمة بما تضمنه من صحيح العقيدة وكثير التشريع، وبين من ضل وأعرض عنها، ونهى البشر جميعا نهيا مؤكدا عن الشك في صدق القرآن. بكل تأكيد هو الحق من عند الحق نزل بالحق، ولكن أكثر الناس رغم نور الحق المبين به اتبعوا شهواتهم وأعرضوا عن الإيمان به.

بيان المعنى العام :

15 من حكان يريد الحياة وزينتها: يهتسون

تؤكد هذه الآية مبدأ الاختيار الذي خلق الله عليه الإنسان وجملة به مكلفا. فهو سبحانه لا يلجئه، ولكن يمكنه من الاختيار في حياته الدنيا يسلك الطريق الذي ينتهي به إما إلى السعادة، وإما إلى الشقاء. فمن كان همه ما تقدم له الحياة الدنيا مما يسمع غرائزه ويلي شهواته، وتأخذه مسحة جمالها فيحتضنها ويحتضنه، ويوغل في اللعب من الغنى، دون أن يعكر عليه صغر ذلك مراعاة للحدود التي حددها له الخالق أو تذكره، فإن الله لا يجازيه في الدنيا بحرماته مما سعى إليه وسلك إليه السبيل للوصول، وإن فاتته شيء من ذلك فمردده إلى عدم توفقه في اختياراته لتحقيق ما يسعى إليه، فأكدت الآية أن الله لا يحول بينه وبين شهواته من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يختلط بمتعهم تكاليف الإيمان، فإن تكلم التكليف واستحضر المحاسبة ينصرف من استمتاعهم بما يقرؤونه من الآم.

والآية تشير من ناحية ثانية إلى من يعمل عملا حسن في ظاهره لا يصحبه منه الفصد الصالح والأمثال إلى الله، فهو وإن كانت له قيمة دنيوية، إلا أنه والحالة تلك لا يرقى ليكون عملا صالحا مجزيا عنه من الله، إذ أن فاعله لم يقصد بعمله وجه الله، فقلعه عن مفيض العون فلا يرجو أن يناله جزاء منه.

16 أولئك الذين يسروا لهم...ويأخذوا ما حاكوا يعملون.

أولئك : الذين وصفوا في الآية السابقة بالإقبال على متع الحياة صالحها وطالحها دون مراعاة أعمالهم لما قرره ربهم من أحكامهم لا ينتظرون بعد ما نعموا بجرائهم في الدنيا، لا

ينظرون إلا شيئا واحدا، وهو أن يمدحوا بالنار؛ ولا يجدون في متخزاتهم شيئا من الأصنام التي فيها جانب من الخير، لأنها قد بطلت فلا ثواب لها، لما انفصلت عن الله، ولم يقصد أصحابها جزاء منه، فمن العدل أن يحرموا الجزاء للصالح.

17- أَلَمْ نَكُنْ عَلَى بَيْتِهِ مَن رَّبِّهِ... وَلَمْ نَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

هذه الآية تتضمن معادلة ذكر أحد طرقها وبفسر الآخر، فيكون المعنى: ألمن كان على بيته من ربه.... كمن ضل عنها فكفر باللهو برسوله.

و بعد فإن هذه الآية قد كثرت فيها الضمائر واختلفت معادلتها مما تبعه إنشكال في تحقيق المراد منها، وقد أحسن بذلك معظم المفسرين، واختلفوا تبعاً لذلك في ضبط المراد من تفاصيلها، والذي فهمته منها والله أعلم.

افتتحت الآية بهزمة استقامت سبقت الفاء لكونها مستحقة للتصدير في الكلام (أ) مع أن الآية معطوفة على ما سبق من مجادلة الكافرين، واعتراضاتهم وتحدي القرآن إياهم، فتأملت الصورة السابقة من الكفر والعناد، بهذه الصورة الوضعية، صورة من التزم التزاماً قوياً وتمكن من البيئة التي جاءت من ربه، والبيئة هي الهداية التي جاء بها محمد ﷺ، والتعبير بها هو نظير قوله تعالى (لَا يَكُنِ الْفَكِّينَ كُفْرًا مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) والمشركون منافقون حتى تكلمهم البيئة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة¹

المقطع الأول: (لمن كان على بيته من ربه) أقاد لهم كانوا متمكنين من الهداية للربانية التي وصلتهم من رسول الله ﷺ (ويتلوه كما قد علمه) ويتبع الهدي المحمدي شاهد هو القرآن من نفس الهدي، ومؤيد بما نزل قبل القرآن على موسى ﷺ، (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) وهي التوراة التي نزلت فيها البشارة بالنبي ﷺ ونوه القرآن بالتوراة بأنها مأمور باتباعها فهي بذلك إمام، جعلها عيسى عليه السلام المرجع لأتباعه، ورحمة من الله لعباده بما بيّنه من تشريع هاد ومن تفصيل للمقيدة الحق.

أولئك ممن كان على دين اليهودية أو النصرانية أو المشركين من العرب، الذين يؤمنون بالقرآن، هم أهل للتبوية بهم وجعلهم في مقابل الرافضين.

ومن يكفر بالقرآن من مختلف الفرق فجزاؤه: أن مصيره إلى النار، وهو ما يحتم اعتقاد كونه حقا منزلا من عند الله لم يدخله تحريف بنقص ولا زيادة، وليفظ للمنزل لهم تبعاً لذلك أن يبتعدوا عن الشك في مضامينه وعن الشك في كونه حقا

وصل إلى البشر محميا من كل تغيير عن الوجه الذي أنزله ملك الوحي جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ. والقرآن هو الحق نزل من الحق سبحانه، بالحق الهادي للبشرية إلى الطريق المستقيم من عبادة ربك بخلقه. ورغمنا عن ذلك فإن أكثر الناس يتمادون على كفرهم ولا يؤمنون، يتبعون شهواتهم، ويخشون إن دخلوا في الإيمان أن يطرهم الالتزام الديني عنها، ويحولهم عن اتباع غرائزهم إلى الاستقامة في سلوكهم، وإلى المنهج العقلي في عقائدهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَذْكُرُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُمَوِّنُا بِوَجْهٍ مُذْمَرٍ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ أَتَعْلَمُونَ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَنْشَاطُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُصْبِرُونَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ لَا يُصْلَحُونَ ﴿٥٣﴾ لَا تَحْزَنْهُمْ الْآخِرَةُ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَامُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْخُمْرِ وَالسَّمِيعِ فَلَنْ يَسْتَوِيَانِ نَحْلًا أَفَلَا يَكْرَهُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللغة : الإبعاد.

يصدون : يمنعون.

سبيل الله : شريعته.

يؤمنونها : يطلبون لها.

وجه : انحرافا يؤدي إلى الفساد.

معجزين : منغلغلين فلا يقدر عليهم.

الأرض : الدنيا.

خسروا أنفسهم : لم ينتفعوا بها.

الضلال : تبعوا طريقا غير موصل، فلم يحصلوا على ما أمكروا.

لا جرم : لا محالة، جزما مؤكدا.

الإكليات : الخضوع والتواضع.

من: حالة.

تفويج : الجماعة التي يخالف حالها حال جماعة أخرى.

بيان المعنى الإجمالي

أُفحِش الظالمين من اِختلاق تصورات من عنده ونسبها إلى الله ككُفْداء، كعبادة الأصنام وتحليل المحرم وتحريم الحلال. عاقبتهم انهم يوقعون أمام ربهم فيشهد عليهم ملائكته: أنهم هم الكاذبون على ربهم، ولعنة الله عليهم وعلى من كان على نهجهم من الظالمين. من ظلمهم أنهم يحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام، ويحبون أن يكون طريق الضلال غالباً، يكفرون بالآخرة فيقصرون تصوراتهم على أيام الدنيا. إن الله قادر على إزال العذاب بهم في الدنيا عقاباً لهم، لا يجدون من ينصرهم أو ينص لهم إذا تخلقت إرادته سبحانه، سيكون عذابهم عذاباً مضاعفاً، لأنهم أصموا أذانهم عن الاستماع للسوحي ولم ينظفروا في ما تبدل عليه مشاهد للكون من حكمة، فهم بما جمعه من فساد قد ختموا حسارة أهلكت ذواتهم، ولم يجدوا ما يؤمونه نصيراً، إنها حقيقة ثابتة لهم هم الأشد خساراً يوم القيامة .

وفي المقابل، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما يقتضيه إيمانهم فطبقوا شرع الله وأخلصوا له، تميزوا بأنهم سيخلفون في جنات النعيم. ثم ضرب القرآن مثلاً يقرب به الحقائق التي بسطها، فقال إن مثل جماعة الكفار كمثل الأعمى الأصم يلقه الظلام وفقدان الإحساس بما حوله، ومثل فريق الإيمان كمثل السليم البصر السليم الحواس يتفاعل مع ما حوله ويدركه، فإذا كان الفريق الأول لا يدري مكانه ولا إلى أين يسير، فإنه على العكس من ذلك يتميز المؤمنون بوضوح الرؤية وإدراك منزلتهم في الكون، مالكم أيها الكافرون لا تتاملون ولا تتفكرون!

بيان المعنى العام :

18. وَمِمَّنْ أَمْلَكُم مِمَّنْ تَقْرَىٰ عَلَىٰ الْوَلَدِ...إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ عَلِيمُ الْظَّالِمِينَ

سؤال لا يستعصى جواباً فتحت به الآية، إن المفصود نفي تصور وجوده والباحث عنه يائس منه، فمعنى الآية: إنك لو بحثت عن ظلمة بلغوا من الظلم أقصاه، ما وجدت أشنع ظلماً ممن بلغت بهم الجراءة أن نسبوا الله ديناً زائفاً وتشريعاً من خيالهم، كانوا عن أصنامهم لهم شفعاء، وكثرتهم ما أحلله الله وتحليل ما حرمه الله، وإن تحقق فسادهم العظيم، فالجزاء الذي يستحقونه : أنه يتم إحضارهم أمام ربهم الذي تولت عليهم مقفه وجحدوها. ولذا ناسب أن يكتبوا فيقوم الشيداء عليهم

من ملائكة الرحمن فيعلنون في الملأ: هؤلاء الظلمة الواقفون للحساب هم الذين بلغت بهم الوقاحة أن كذبوا على ربهم، فتحقق منهم الكفر عقيذة وعملا، ولا أشد ظلما من تكفر بآيات الله والافتراء عليه، لعنهم الله لعنة مججلة بسبب ظلمهم .

19- الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

فصحت الآية سورة من ظلمهم: إنهم كانوا ينفون حاجزا مانعين الناس من الاهتداء إلى الطريق للسالك الأمن الذي بينه الله على لسان رسوله، بل تجاوزوا منع الناس من الاهتداء، فسدت نفوسهم حتى أصبح العمل على انحرافهم عن الطريق المستقيم طريق الحق (ويغنونها عوجا) مقصدا أساسيا لهم. وتجدّر في أعمالهم الكفر بيوم القيامة.

20 أولئك لم يَكُونُوا مَجْزِيْنَ... مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

إن تأجيل حسابهم إلى يوم القيامة لا يُحْمَلُ على أن لهم قوة تمنعهم من ثم طبع المهانة والعذاب عليهم في الدنيا، فإنه لا يعجزه شيء ولا يحول بينه وبين تنفيذ مراده محقق، فلا مكان يحميهم يلجؤون إليه ولا قوة يستندون إليها لتسيهم من عذابه، فما اتخذوه من الأضنام على أنها أولياء يستندون إليها ويثقبون، لا يحصل لهم منه أي نفع.

ثم أعلنت الآية عما يحل بهم يوم القيامة: أنهم يصدون عذابا يتضاعف لهم ثمته وفي أثره جسديا ونفسيا، كما أعلنت عن تعمدهم الضلال وقوة عنادهم، فهم وإن مكنتهم الله من حاسة السمع التي تنقل إلى أدمغتهم آيات القرآن ومواعظ الرسل، إلا أن عنادهم قوى إرادتهم في الانصراف عن الوحي، فتمطل سماعهم له بالأعراض عنه والاشتغال بغيره. كما أنهم لم يتأملوا فيما تنقله لهم أبصارهم من آيات الله في الكون التي تنادي بتقوى الله بالخلق والتدبير. فكان تلكم المشاهد العجيبة لا تنقلها أبصارهم، فهم يصدون مع العنى .

21- أولئك الذين خسروا... الله في الآخرة هم الخاسرون

لبرزهم ليلقي عليهم للحكم غير مختلطين بغيرهم (أولئك) إنهم خسروا أعظم خسارة، خسروا أنفسهم، فسلهم أشد أنواع الفشل، فالتاجر يرجو من تجارته ربحا فإذا فاته الربح فقد خسر، وهؤلاء الكفرة الذين حذت ملائحتهم الآيات السابقة، خسروا أنفسهم فأردوها في المهانة والعذاب، كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يأملونه من أصنامهم فذهبت آمالهم فيها ضياعا.

إنه من المؤكد أبلغ تأكيد، إن خسارتهم كانت أعظم خسارة، يوم القيامة، إذ يواجهون العذاب، وقد تحولت أعمالهم التي فيها ظواهر من الحصن إلى هباء، وألتهتهم التي يعززون بها إلى تلة وصفار، ولا يجنون ملجأ يلجؤون إليه ولا قوة تشفع لهم فتخفف عنهم مما قدر لهم من العذاب في جهنم.

23- **بَنِي الدِّينِ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... فِيهَا خَالِدُونَ.**

بعد أن توسع القرآن في تتبع ملامح المعتدين وجزأتهم، ذكر مقابلتهم، وهم الذين تحقق منهم صفاء العقيدة وقوتها، وضموها إليها صلاح أعمالهم بمطابقتها للصواب والأحكام الشرعية المفصلة، وبمصاحبتها للفصد الصالح الذي سما إلى حالة الخضوع والطاعة لربهم. فتميزوا بأنهم الملازمون للجنة، الذين لا يفارقونها، وهم خالدون فيها أبداً.

24- **مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ مِثَالُ الْأَعْمَى وَالْأَسْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ... أَفَلَا تُذَكَّرُونَ.**

بعد أن استوفت الآيات السابقة خصائص الكثرة وعاقبتهم، وخصائص المؤمنين وعاقبتهم، انتهت بتقريب تمايز أحوال الفريقين بضرب مثل مجسم لما تضمنته.

إن مثل الكافرين؛ مثل الذين يسبرون في الحياة وقد فقدوا حاسة البصر فهم لا يعرفون للطريق المبلغ، تسوي عندهم الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، إذ الممالك يخشيها الظلام، وهم مع ذلك صم لا يسمعون فلا يهتدون بالأصوات التي يمكن أن تدعوهم للتحويل عن الطريق الذي يسبرون فيه. فلا مشاهد الكون تهديهم لمعرفة طريق الله، ولا الوحي المنزل يفرع أسماعهم ليوقظهم إلى ما هم عليه من ضلال.

وفي المقابل مثل المؤمنين مثل الذين سلمت أبصارهم ففقت لهم من مشاهد الكون وعجائب الخلق، والجزئيات الصغيرة والكليات الحاسوبية، ما يوقظهم على القدرة المبدعة للخالق العظيم فتعمق إيمانهم وإطمانوا. ومع ذلك سلمت أسماعهم فبلغت إلى عقولهم كلمات الوحي الهادي والمعجز. فآمنوا بصدقه وسلخوا ما أمرهم به.

هما صورتان يعيد كل البعد أن تكون إحداهما مساوية للأخرى. صورة الكفر بظلامه وفقدان الحس، وصورة الإيمان البصير المنفتح على مشاهد الكون وإيات الصدق. ثم تبرزهم الآية هراً عنيفاً ليذكروا ما في هذا المثل من الصدق، ومن التجميع للحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَّهُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ عَذَابًا بَئِذَ الْيَوْمِ إِلَهُكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ الَّذِي كُفِّرُ بَعْدَكُمْ عَنْ ذُنُوبِكُمْ وَإِلَىٰ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿٢﴾ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ عَذَابًا بَئِذَ الْيَوْمِ إِلَهُكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ الَّذِي كُفِّرُ بَعْدَكُمْ عَنْ ذُنُوبِكُمْ وَإِلَىٰ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿٣﴾

بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّائِ الرَّايِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ كَانَتْكُمْ كَبِيرَةً ۖ قَالَ يُقِيمُونَ آيَةً ۖ إِنَّ كُنتَ عَلَىٰ تَقْوِيمٍ ۖ نَفَىٰ وَآيَتُنِي زَيْتُونَةٍ مِّنْ عَيْنِهِمْ ۖ فَمِثْلُنَا ۖ عَلَيَّكَ أَكْثَرُ مَكْرَهُمَا ۖ وَأَنشَأَ مَا كَرِهُوا ۖ ۚ وَتَقْوِمُوا لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّكْتَفَوْنَ ۖ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ أَتُونَكَ ۖ وَمَا يَكُونُ لَكُمْ ۖ وَتَقْوِمُوا ۖ يَنْصُرُونَ مِنَ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الَّذِينَ يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ أَكْثَرُ ۖ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ بِبَدِئِ حَزْزٍ ۖ اللَّهُ وَلَا أَكْثَمُ الْقَمَرِ ۖ وَلَا أَقُولُ لِي مَالِكٌ ۖ وَلَا أَقُولُ بِاللَّيْلِ ۖ فَتَرَوِي أَهْبَتَكُمْ لِي ۖ فَمِثْلُنَا ۖ اللَّهُ ۖ فَمِثْلُنَا ۖ اللَّهُ أَكْثَمُ ۖ وَمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنَّ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

التقويم : الموقظ من الغفلة التي يتبعها شر .

الملا : سادة القوم .

الأراذل : جمع أرذل، وهم سفلة الناس .

هادي : زائر : في ظاهر الرأي .

فضل : قدر زائد من الكمال .

الدين : الحجة الواضحة .

الرحمة : نعمة النبوة .

الطرز : الإبعاد عن مكان الحضور تحقيرا ، أو زجرا .

الخرائن : جمع خزائنة وهو ما يحفظ في المال ويقفل عليه بباب .

الارزاء : الاحتقار .

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا نوحا إلى قومه فأعلمهم : أنه يحذرهم ببيان لا غموض فيه، يحذرهم من الشرك وأن يخلصوا لله في العبادة، وأنه يود لهم الخير ويخشى أن يساجلهم الله بالمذاب إذا هم لم يقلعوا عن الإشراك بالله.

نقدم له الكافرون من قومه معتبين أعراضهم عما جاء به، معتبين بأنه في نظرهم لا يعدو أن يكون بشرا مثلهم، والبشر لا يصلح لتحمل الرسالة. وأن الذين اتبعوه لا وزن لهم في المجتمع، فهم في نظرهم من السفلة، وقد انتفى أن يكون لك فضل أو لمن اتبعك، حتى تكون أهلا لاتباعك؛ والخلاصة أنا لا نصدقكم ونجزم بأنكم كاذبون.

أجابهم سيدنا نوح: ما ذا ترون من فائدة لاعتراضكم؟ فإني واثق الوشوق كله أني متسكن من الحجة البينة التي جاعتي من ربي، وأنه أكرمني بالنبوة الرحمة التي صمرت فكري وقلبي، وأنه لا ينقص من قيمتها خفاؤها عليكم. وإنما لا تقهركم على اتباعها مع كراهتكم لها. وإني لا ألكفكم يا قومي أن تدفعوا لي مالا على هدأيتي لكم، إن أجري تكفل به الله الذي أرسلني. وما عرضتموه من طرد المؤمنين برسائي مرفوض، إذ لهم قوم قويث صلتهم بربهم وأنهم سيعودون إليه وينصفهم ممن يظلمهم، ولكن الذي موع لكم مثل هذا الطلب هو جهلكم بكونهم على الحق. انتبهوا فإنني لا أجد من يصرنني بين يدي ربي لو طردتهم وهم على الحق؛ مآلكم لا تنبهيون إلى العواقب!

ومن ناحية أخرى إني واضح في رسائلي لا ادعي ما ليس بحق؛ فلا أقول لكم إنني ألتحكم فيما عند الله من خزان ملكه الذي يتصرف فيها وحده حسب حكمته، وكذلك لا أعلم إلا ما علمني ربي، فلا أخبركم إلا بالحق الثابت، وكذلك لا أقول للمؤمنين الذين تحتلونهم أن جزاءهم سيكون حرمانا لهم من الخيرات حسما ما تكفرونه بظلالكم، لي الذي يؤلى جزاءهم هو ربهم وهو العليم بما تملوي عليهم نفوسهم. وأد تجاوزت حدودي فإني أكون من القوم الظالمين، وقد ظهر ربي لأخلاق من الظلم.

بيان المعنى العام

25- 26. ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه... عذاب يوم أليم.

من القصص البينية وفي تباعد زمانها قصة سيدنا نوح مع قومه التي أكد القرآن أنه أول مل نوحا إلى قومه. فللتابع هذه القصة.

المشهد الأول: يخاطب نوح قومه مقدما لهم محتوى رسالته والحامل له على مناعة تبليغها رغم العراقيل المبعدة. فقال: إن مهمتي أن أحذركم ببيان واضح بعيد عن الاحتمال والشبه. خصوصا ربكم بالعبادة ولا تعبدوا أحدا غيره وطرحوا كل معبود سواه. وذلك لي أخاف عليكم إن واصلتم الإشراك بالله، أن يسلط عليكم عذابه الأليم في الدنيا بما يردعكم عن الشرك. فالتفتوا لفسكم قبل أن يأتيتكم العذاب. وربط العذاب بيوم أيتيهم إلى أن العذاب يشتد حتى ينقلب الزمن في نفسه إلى عذاب.

27- **المشهد الثاني:** أمرع كبراء قومه الكافرون به الرفضون لدعوته وقالوا مقتنعين لما نخبوه مندا لرفضهم:

(أ) إنك بشر مثلكم، لا تختلف عما في شيء من الخصائص الجسمية الإنسانية. ظنوا أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر، أو أن يكون له من الكمالات الجسمية الظاهرة ما يتفرد به عن بقية أفراد الجنس.

(ب) إن تأثورك ضعيف فلم يتحرك إلا ضعفاء القوم الذين لا مال لهم ولا منزلة اجتماعية مرموقة، واعتبروهم لذلك من السفلة الذين لا شأن لهم في المجتمع. وبالفرا في احتقارهم بأن منزلتهم الاجتماعية المحططة معروفة بدهاء دون نظر وبحث في سيرتهم. وهذا خطأ ثانٍ صنهم إذ جعلوا القيمة التي بها يتميز البشر، ثراؤهم ومكانتهم الاجتماعية. وأعملوا من سلم القيم القيم الحقيقية، رجاحة العقل، وطهارة النفس وجمال الخلق.

(ج) إنه لا فضل لكم بوجوب اتباعكم والانتماء إليكم، تأملنا في كل ما يحيط بكم وما أنتم عليه، فلم نجد لكم أي ظاهرة تفضلون بها علينا فلماذا نتبعكم.

(د) إنه تبعاً لذلك، لا نطمئن إلى أنكم مساندون، لا فسي أدعائك الرسالة، ولا قبي أدعاء اتباعك اقتناعهم بما جنتهم به.

28-31 قال يا قوم أوابتكم إن حكمتكم إلي. إذا لمز القائلين.

المشهد الثالث: تصور الآيات نوحاً الذي هادئ الطبع وقيماً بهم، رغم ما لسمعوه من غلوظ الرد. افتتح خطابه بقوله يا قوم، فهم منه بالمنزلة التي لا يبغي لهم إلا الخير، وصلته بهم حاضرة في ضميره تؤكد سعيه إلى ما يجلب لهم النفع ويحميهم من الضر. يقول لهم: فكروا في الملاحظات المحيطة بدعوتي إليكم، أولاً: إلى واتق تمام الوثوق من أبي مائر على طريق واضح تمام الموضوع، ورهائ لا شك فيه ما اخترت عنه وإنما هدائي إليه ربي، الذي مكنتني من رحمته بالرسالة التي جعلني لها التي تجدون ثمرات صدقها في مضايفها، ولكنها خفيت عليكم وخفاها لا يبرر رفضكم السريع لها، ولكن يحتم عليكم أن تتأملوا فيها. إنه لا يقبل أن نخضعكم لنا واتباعي لقبولها في الوقت الذي أنتم لها رافضون كارهون. فالذين لا يكون بالإكراه. وما أنزل لي ربي بأوامر أحد على الإيمان بي. فأعيدوا نظركم فيما دعوتكم إليه.

إن ما يؤكد إرادة الخير لكم ولا شيء وراء ذلك: أنني لا أطلب منكم أن تعطوني شيئاً من أموالكم، فأتقل عليكم بذلك، فأنا لا أسألكم أجراً على الهداية ولكني أسأل ربي أن يتولى ثوابي بقول ما محضت له كل جهدي من فتح بصائرهم على الحق، وإن ما نجحت فيه بهداية الذين آمنوا بما بعثني الله به، مما لتتظر ثوابه منه على ذلك، لا يتصور أن أطردهم عن مجالسي أو أبعدهم عني. ألا تعلمون أنهم يجنون

في مجالس ما يزيدهم قريبا من ربهم بما يتفوقونه من الوحي المتواصل، كما أنهم سيلفون ربهم يوم الحساب فيسألهم عن علاقاتهم ويتصفهم ممن ظلمهم. ولكن غلبة الجهل عليكم جعلكم لا تذكرون نعمة طردهم.

ثم أعاد استمالتهم إليه بأنه ذكر دائما صلته بهم وأنهم قومه، ناداهم يا قوم: إن ما اقترحتموه علي من طرد المؤمنين بي خطير جدا، سيكونون خصمائي عند ربي، ومن ينصروني من الله إن أقدمت على طردهم بدون موجب، على معنى الإنكار إن يوجد له نصير على ذلك، مالم لا تتاملون تأملا يبصركم بالعواقب.

ثم عرض عليهم حقيقة أمره مما ينفي كل الخيالات التي عشت في عقولهم فاحذروا بها عن إترك الواقع. اعترف بحدوده للبشرية التي لا تزل به عن التكليف بالرسالة، خلافا لما بتوهمه قومه من أن الرسالة تقتضي أن يكون له طاقات تفوق البشر تجعله يتحكم في كل شيء. إن ملك الله بيده لا يتصرف فيه رسول ولا أي كائن خارج ما يألن به. فخيرائن الله التي يمكن منها البشر بقدر حسب حكيمته، أو يرسل ما يرسله ليمحق به من يشاء كالريح العاتكة والمام للمفرق والحركة المزلزلة، كل ذلك بيده سبحانه، وبوصفي رسولا لا أملك التصرف لا في قليل ولا في كثير من خزان الله، كما أن علمي لا يتجاوز ما يعلمني ربي. فما شاب عن إحساسي وعن إدراكي مما لم يعرفني به ربي (الغيب) لا أعلمه، وطبعني طبيعة البشر است ملكا، وكانهم سألوه كما سألت قريش النبي ﷺ ما نقاه نوح ﷺ عن نفسه، كما نفى عن نفسه نفا يقطع كل أمل لهم في طرد المؤمنين به من الضعفاء، ولا أن يدخل الليل في قلوبهم بأن يصرح لهم بما يظنون أن الله لما لم يخذلهم من واسع رزقه في الدنيا أنه لن يمكنهم من الخير يوم القيامة. ذلك أن نوال الحظوظ الأخروية والنعيم والكرامة يوم القيامة مرتبط بصلاح الباطن، والله هو وحده الذي يتولى السرائر. تنبهوا فإني مدرك لما ينزب عن موافقي وعن أعمالي، فلو تجاوزت حدودي أكون إن من الظالمين الذين يحق عليهم جزاء الظلمة.

فَالْوَأَنفُوحُ قَدْ جِئْنَا لَنُنَاجِيَنَّكُمْ فَاحْكُم بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفِرْعَوْنَ ۖ
 ٥٥ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ وَلَا يَعْطِقُ لَكُم بِشَيْءٍ
 ٥٦ إِنَّمَا يَنْصَحُ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْنِيَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ وَأَلَّا تَعْبُدُوا ۖ
 ٥٧ أَفَرَأَيْتُمْ أَفَرَأَيْتُمْ قُلُوبَنَا أَنْ يَفْعَلَهُ فَعَلَهَا ۚ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْبَاطِلُ وَالظَّالِمُونَ ۖ

بيان معنى (الأنصاف) :

للمجادلة : المخاصمة بالقول مع الاحتجاج .

بمعجزين : منفلكين من العقوبة.

وغيوكم : يصلكم عن الحق.

الإجرالم : ارتكاب الجرم، الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

سُمِّيًا يَا نُوحُ مِنَ الْإِسْتِمَاعِ لِمَا نَقِيَمُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْحُجَجِ الْمَتَوَالِيَةِ لِتَحْضُرَ كُلَّ مَا نَقْلِيْدُ بِهِ، فَانْزَلَ عَلَيْكَ الْعَذَابَ الَّذِي كُنْتَ تَوْعِدُنَا بِهِ وَكَفَى. قَالَ نُوحٌ: لِلْعَذَابِ بِإِثْمِكُمْ بِهِ اللَّهُ لَا أَنْهَ، مَتَى شَاءَ وَعَلَى الْمَسْتَوَى الَّذِي يَرِيدُ، وَلَكِنْ الْمَوْكِدَ لَكُمْ لَا تَقْلَتُونَ مِنَ الْعَذَابِ، أَنْتُمْ لَا تَنْتَفِعُونَ بِنَصْحِي لِأَنْ إِصْرَارَكُمْ عَلَى الْعِنْدِ حَرَمَكُمْ كُلَّ تَأْيِيدٍ مِنَ اللَّهِ فَأَوْكَلَكُمْ إِلَى نَفْسِكُمْ فَاتَّبَعْتُمْ شَهْوَاتِكُمْ وَخِيَالَاتِكُمْ فَوَقَعْتُمْ فِي الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ، وَابْتَعَدْتُمْ عَنِ مَنَاجِرِكُمْ الَّذِي سَمِعُوا مِنْ إِلَهِهِ لِيُحَاسِبَكُمْ.

وتوجه القرآن إثر هذه المقاطع من قصة نوح ليرد على المشركين ما يرمسون به الذي % من نسبة القرآن لله باطلا، فقال لهم: إني مدرك تمام الإدراك لمقام الألوهية، فلا يتصور مني أن أكذب على الله، وإثم ذلك فتحمله وحدي، كما أنكم تتحملون إثم تكذبي ولا تحمل شيئا منه.

بيان المعنى العام :**32 34. هَالِكُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُنتَ...وإليه ترجعون .**

المشهد الرابع: يبرز في هذا المشهد طرفان تقابلا قبلنا الذهنية: نوح (الملك) من ناحية، وقومه من ناحية أخرى.

لما نوح فالظاهر أنه واصل دعوته لقومه، وتابع الرد على شبهاتهم، كما قال تعالى **فَأُثِّبَتْ لَهُمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْآخِرَةِ** على النمق الذي فصلته الآيات السابقة، يدعوهم بالحكمة والموعة الحسة، وكلما قدموا له حجة، يبين لهم زيفها وأنها باطل لا تقبل عفلا.

تمكن منهم العناد والرفض لما جاء به نوح؛ وسَمِعُوا مِنْ مَوَاصِلَةِ الْحُجَاجِ مَعَهُ، إِذْ كُلَّمَا قَدَّمُوا مَا يَخَالُونَهُ حُجَّةً أَجْهَزَ نُوحٌ عَلَيْهَا وَنَفَضَهَا وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ بِالْمَنْطِقِ وَالْوُضُوحِ زَيْفَ مَا عَرَضُوهُ. فَقَالُوا كَفَى! انْتَبَا بِالْعَذَابِ الَّذِي كُنْتَ وَعِدْتَنَا بِهِ؛ فَأَمَقَّتْنَا تَوَقُّفَتِ عَنْ الْمَتَابَعَةِ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا أَخْبَرْتَنَا بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ.

رد عليهم نوح بتصويب ما وقوا فيه من أخطاء في صيغة سؤالهم.

أولاً: أن إنزال العذاب عليهم ليس من شأنه، وإنما الأمر بيد الله وحده (**إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ**)
 ثانياً: أن إنزال العذاب عليهم مرتبط بمشيئة الله لإنزاله عليهم في الوقت وبالمقدار (**إِنْ شَاءَ**)
 ثالثاً: أنه لا يستطيع أي فرد منهم أن يفلت من العذاب أو يجد ملجأ يلجأ إليه فيحميه فلا تَجَاةَ
 لكم (**وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

ثم علق على طلبهم قطع الحول معه، أنه اختيار غير صائب، إنكم لم تتفعلوا
 بنصحي لكم واقتلتكم عقولكم عن التأمل فيما دعوتكم إليه. إن ما دعوتكم له بلغ من
 الوضوح والمغولية ما يوجب الأخذ به؛ ولكن الله حرمكم تبعاً لعنادكم تاليده،
 ولو كلمكم إلى غير ذلكم وشهواتكم التي تقودكم إلى الضلالة والهلاك.
 واعلموا أن الله ربكم، يشير إلى أنه لطيف بعباده الذين يهتدون أنفسهم لقبول الرشاد
 لا الذين يغفلون عقولهم وقوى إدراكهم عن النظر. ثم إنكم تحضرون إليه يوم
 القيامة فيجازيكم عن تقصيركم، وعلق ملائكة المعرفة حتى لا تصل إليكم.

التعليق :

لا يقصد القرآن من القصص التي تدخل ببيانها تلهية البشر ببرد ما وقع في
 التاريخ، وخاصة البعيد منه. ولكن يفهم من تلك القصص حجة على أن الرسول
 صادق. فتفاصيل ما وقع لروح مما سبق من الآيات وما سيتلو بعد هذا التذكير، ما
 كان له أن يخبر به اعتماداً على ذكائه، فهي أمور طواها التاريخ وتفاصيلها
 ودقائقها لم ترو في المجتمع العربي، بل حتى ما بقي من التوراة والإنجيل لا يبلغ
 في الصحة والدقة ما سجله القرآن. ومع هذا فإن المشركين ينهمونه بأنه نمبه إلى
 الله كذباً (**افتراه**) فمن القرآن الحجة لمحمد ﷺ، فل لهم: إن كذبت على الله قلنا
 نحمل وحدي إثم الجريمة العظمى ولا نتحملون شيئاً من إثم جريمة الانسواء الذي
 ويمشون به كتبنا وبهتانا. كما أني لا نحمل شيئاً من إثم تكذيبكم لي بالباطل
 واتهامي بما ليس بحق. فالحق في الجواب قاعدة المسؤولية في دين الإسلام .

**وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ أَنِ اقْبُرُوا مِنْ قَوْمِكِ إِلَّا مَن قَدْ ذُنِبْنَا فَلَا يَسْمَعُ بِنَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ وَأَنذَرِ هَٰؤُلَاءِ نَارَ أَتْلُوكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَلَٰكِن يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ
 وَمَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ وَتَمَنَّيْنَا أَنُلَاقَ مَنَاسِكُورًا مِّنَ السَّمَاءِ
 فَتُصَدِّقُنَّ بِنَارِ اللَّهِ فَتَقُولُنَّ هَٰؤُلَاءِ مَنَاسِكُورٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصَدِّقُنَّ
 بِنَارِ اللَّهِ فَتَقُولُنَّ هَٰؤُلَاءِ مَنَاسِكُورٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصَدِّقُنَّ بِنَارِ اللَّهِ فَتَقُولُنَّ هَٰؤُلَاءِ
 مَنَاسِكُورٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصَدِّقُنَّ بِنَارِ اللَّهِ فَتَقُولُنَّ هَٰؤُلَاءِ مَنَاسِكُورٌ مِّنَ السَّمَاءِ
 فَتُصَدِّقُنَّ بِنَارِ اللَّهِ فَتَقُولُنَّ هَٰؤُلَاءِ مَنَاسِكُورٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصَدِّقُنَّ بِنَارِ اللَّهِ**

كُلُّ رَوْحٍ آتَيْنِ وَأَمَلَكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ تَعْمًا إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ .

لا تبتسم : لا تهتم ولا تحزن .

بأعنتا : برافقتنا بما ينفي الخلل والخطأ في الصنيع .

استهزاء : استهزاء بعد المستهزئ به أحق .

محرية : يهينه .

معيبة : لا ينقطع .

جاء أمرنا : تم أمرنا بالطوفان .

فار : انبعث بقوة .

الفتور : موافق الدار لإيضاح الخبر .

أهلك : قزأته .

سبق عليه القول : سبق الحكم عليه بالكفر .

بيان المعنى الإجمالي .

أعلم الله نوحا أنه قد انتهى ما كلف به من دعوة الناس إلى الإيمان ، لأنه لا مطلق له في هداية من بقي على كفره . ومواساة له طلب منه أن لا يحزن فإن ذلك كان نتيجة أعمالهم .

و أمره أن يصنع سفينة بسعده ربه في إنجازها بالبرعاية والتسديد ، ويوحى إليه طريقة صنعها لتكون صالحة للقيام بوظيفتها .

شرع في العمل وكان عمله لافتا للأنظار ، فكلما مر عليه كبار قومه ، وهو يجهد نفسه في القيام بما أمر به ، يسخرون منه ، ولا يزعجون عن الإفصاح بما تفيض به أنفسهم المريضة من الاستهزاء . وكان رد نوح عليهم أنهم إن استهزأتم بعملنا فإنا نسخر منكم يوم يسلط عليكم عذاب ربكم كما سخرتم منا . وهدمهم بأنه سوف يظهر من تكون علاقته سليمة ، ومن يسلط عليه عذاب يهينه ويجب له عذاب دائم لا يرفع ولا ينقطع .

ثم أمره أن عليه أن يلاحظ الأمارات الدالة على الوقت الذي اختاره الله للإنزال عذابه (الغرق) بهم . وذلك إذا تدفق الماء من الفتور .

وعندها هو مأمور بأن يحمل معه في السفينة ، من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى ، وأن يحمل معه قرابته الذين آمنوا به ، وأن يترك من كان كافرين منهم ، وأن يحمل فيها كذلك الذين آمنوا به وثبوا على إيمانهم . وما كان عددهم كثيرًا .

بؤن المؤمن العام

36- 37- وأوحى إلى نوح أنه سبحانه مفرقون

نوع للقطيع التي سألها للكفرة من قوم نوح، إعلام الله له بأن الباقيين من قومه الذين لم يؤمنوا سيستمرون على كفرهم ولا مطلق في هدايتهم. وفي ذلك أمران هامان:

الأمر الأول: أن نوحاً قد انتهت مهمته فلم يبق مطالباً بدعوة قومه للإيمان.

الأمر الثاني: أن إعلامه بأن كل من لم يؤمن به لحد اليوم الذي خاطبته الله بهذا الخطاب لا رجاء في إيمانهم، كان هذا الإعلام شديداً على نفسه. إذ شأن المرسلين أنهم يؤثرون الدعوة ويتحملون في سبيلها ما يتحملون من المكافاة، ويجتهدون في ذلك رضا، شعوراً منهم بشرف الأمانة الموكلة لهم.

ولذا قواه ربه فقال له: لا تحزن عليهم فإن ما سيقفونه هو سبب إصرارهم على الكفر.

ثم أمره أن يصنع سفينة، وهي أول سفينة صنعت في العالم. فهو ينجزها على غير مثال سبق. ولذا قرأ الأمر بأن الله سيكون ملهماً له ومساعداً حتى لا يقع منه خطأ في الصنع، كما أنه سيؤيده بوجيه لطريقة العمل حتى تقوم السفينة بوظيفتها التي من أجلها هو مأمور بصنعها، وأعلمه أن الحكم بنوع العذاب الذي سيمسك على قومه قد اتخذ، فلا يتقدم بالشفاعة فيهم أو تخفيف العذاب عليهم، حكم الله سينفذ فيهم (إبهم مفرقون)

38- 40- وبصنع النخلة وصنعاً ما أوحى الله إليه من قبله

المشهد الخامس: يتحول الرسول من دافع إلى منهج الله الذي أوحاه له ليبلغه، يتحول إلى صانع ماهر، هدية الله شوقه، ووجيه يحدد له الطريقة والأدوات التي تساعد على إنجاز السفينة. هو في سحر عمله المفتوح يقوم بأعمال لا عهد للناس بها.

يمر عليه أكابر القوم وهو منكب على عمله بجهد، ينجز ما لا يدرون له قائدة ولا أنه يحقق غاية. فكانت أوجاعهم أنهم يسخرون من نوح ويستكثرون من سخافته: أمامه ركام من الأنواع ومسامير، وهو لا يصنع باباً ولا كرسيًا ولا ما شأنه أن ينتفع به صانع. وتفيد الآية أن من المؤمنين به من كان معه بمساعدته ويعينه، فهم هذا من قوله تعالى **ثُمَّ تَسْخَرُوا مِنْهُ** ولم يقل مني.

تهكموا عليه ووجهوا له من سخف الخطاب ما لا يصدر إلا من فاقد التربية عديم الأدب. فرد عليهم إني لا أبتدعكم بالسخرية ولكني أقول لكم: إنكم إن تسخروا مني

لما نعمله والذي ندرك الخاية منه، فإننا نقابل سخريتكم منا بسخريتنا منكم، من سفه عقولكم وإعراضكم عن خالقكم. مما يؤمن إلى أن استهزاءهم بعمله سيعلمون قاننته له ولأن آمن به، فيضاعف أساهم. وأعداء تهديدهم بأنهم سوف يتفنون من هو الفاجي ومن هو الخاسر، ومن يتسلط عليه العذاب المهين الملازم الذي لا ينقطع في العاقبة يوم القيامة.

40- واصل عملك في إعداد السفينة إلى أن يحصل أمرنا بحدوث الطوفان، وجعل الله لنوح لمارة على القفرة بإحداث الطوفان تبعاً للإرادة والعلم. هذه الأمانة هي قرآن التتور. وهي أن ينزع الماء من موقد إنباج الخبز.

وحكى القرآن أن الله أمره أن يحمل في سفينته من كل أنواع الحيوانات ذكراً وأنثى، بما يحفظ استمرار النوع بعد ذلك بواسطة التوالد، وأن يحمل معه قرابته المؤمنين، إلا الذين سبق أن قدر الله عذابهم ممن اتروا البقاء على الكفر، كإحدى أسرته لثني خائنه فلم يؤمن المذكورة في سورة التحريم، إضره الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانت تحت عبدين من عبادنا صالحين فخالتاهما فلم يؤمن بهما فنفخ الله فيهما من الريح ريح عذاب وقيل لهما من الله ليلتين - وابنه الذي سولكننا خبره بعد. وأن يحمل معه كذلك من آمن به من قومه الذين كان عندهم قليلاً.

• وقال أركبوا فيها باسم الله خزنها... إن زلزلنا خلقنا جحيماً وهو جوى يوم لا موج كالجبال فنادى نوح أبنته وكاتره مغزل بني أركمه، معننا ولا تكرو مع الكافرين قال متجاوز إلى جبل خمسين مرة الماء قال لا غاصم ألنوم من أمر الله إلا من وجد وحال بينهما الموج فكانت من أمر الله وقيل ينار من أنبى ماءك بمنسما ألقى وبعث الماء وقضى الأمر وأسنوت من الجودي وقيل بعد للفرقة الطليعين

بيان معنى الألفاظ:

مجرها ومرسها: عند سيرها للمربع، وعند وقوفها على الشاطئ.

مغزل: مكان منفرد به عن أهله.

مناج: مناجا.

يحصني : يحميني.

يلقي : يلقي أصله دخول الطعام من الفم إلى الجوف، والمراد هنا دخول الماء في حوف الأرض.

غيض الماء: غضب وذهب.

فني الأمر : تم وانتهى.

الجوء : مكان نزول السفينة.

بيان المعنى الإجمالي .

كان نوح يرفق بالذين حملهم معه في السفينة، وقف عنهم ودعاهم أن يستصحبوا بركة الله وعنايته عند سيرهم وعند نزولهم، وإن الله غفور لتقصيرهم رحيم بهم. ولا حظ نوح ابنه منزلاً عن أهله فناداه ليلتحق بهم ويخلص إيماناً لله، ولكن الابن، وقد غلب عليه للشقاء، صد عن الاستجابة لدعاء والده، وأظهر عدم خوفه مما توعد به نوح قومه، وقال: لا أخشى الطوفان فإني سألجأ إلى جبل عال لا يبلغ الماء قمته. قال له لوه: به لا منجى اليوم إلا لمن قدر الله له رحمته من المؤمنين. وما لي ثم الحوار بينهما حتى أخذته الأمواج فأغرقته، وأخذت السفينة طريقتها بين أمواج تتدفق كالجبال، ونم ما أراده الله من إهلاك القوم الكافرين فصدر الإنان الإلهي للأرض بأن تفتح أبوابها لابتلاع الماء والسماء بأن تتوقف عن إسقاط الأمطار. وبسرعة ذهب الماء وتطهرت الأرض من الكافرين واستقرت السفينة في المكان المقدر لرسولها، ونودي في الكون: بغداً وهاكلاً ولا رجعة للقوم الظالمين.

بيان المعنى العام .

41- 43، وقال اركبوا فيها سمكنا مما أمرناك به.

للمشهد السادس: نوح عليه السلام، وقد ظهرت العلامة التي أعلمه الله بأنه سيأبى تنفيذ الوعد، يأمر من سيأخذه معه في السفينة بالركوب، ويرشدهم أن يذكروا اسم الله مستعينين بالطائفة في حالة جري السفينة وفي حالة وقوفها، يطمئنهم بقوله: إن ربي غفور لتقصيركم السابق، رحيم بكم رحمة تظهر فيما مكنتكم من النجاة، وفيما سيتلو ذلك من متابع فضله عليكم .

سأه نوح بما تحمله روحه الكريمة من ود وحب وعطف، أن لا يكون ابنه معه ناجياً من الطوفان، ومن غضب الله . ناداه يا بني تعال ! اركب معنا وأسلم وجهك لله ولا تكن مع الكافرين، ولكن ابنه كان شقياً لم يفد فيه رفق والده، ولا تأكيده عليه بمحركات رابطة الأتوة والنبوة (يا بني) بما توحىه كلمة بنى بالتصغير من

بِأَنفُسِهِمْ بِنَا غَذَابٍ آتِيَةٍ ۖ فَلَمَّا مِنَ الْأَمْرِ الْغَيْبِ تَوَجَّعَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا
أَشَدُّ وَلَا يُؤْمِنُكَ مِنْ قَبْلِ غَدَا تَأْخِذُكَ إِلَّا الْعَذِيبَةُ الْمُتَّقِيَتُ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

الهيبت : الخزل.

بركانه: خيرات نامية.

قهاء الغيب: الأخبار المغيبة عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

رسمت السفينة سالمة بعد رحلتها بين الأمواج المتلاطمة. وشارت العاطفة الأبوية في نفس نوح عليه السلام. وقد بقي ابنه مع الكافرين فغرق وسيكون مع الكافرين يوم القيامة، فتوجه بالدعاء إلى ربه مقبلاً بين يدي ابتهالاته ما يقربه من الاستجابة لدعائه: رب إن ابني جزء مني، وفرد من عائلتي، وواحد من أسرتي، وإن عندك محقق حصوله، وأنت وحك ربك الحكم الذي لا تنقض أحكامه، إن هذا الاستعطاف النابع من قلب والد رحيماً ما كان ليغير الحق الذي يسير الله به للكون، فقبض الله نوحاً: أن صلة الأبوة تنقطع إذا اختلفت المقيدة، فهو ليس من أهلك لذلك، لأنه فاسد في عقيده، وعمله القلبي وأعماله الأخرى. فلذا لا نطلب مني شيئاً لا تتحقق أنه منسجم مع العدل الذي أحكم به الكون، وإياك أن تكون مع الجاهلين.

وقع للتحذير من قلب نوح الموقع المؤثر فابتهل إلى ربه تائباً قائلاً: ربي إني أحتج بك من أسألك ما لا أعلمه. إني موقن أنه إن لم أفسد بفقرتك لتقصيري، وحرمت من رضاك؛ فإني أكون مع القوم الخاسرين.

وتقبل الله من نوح ابتهالاته، وأذن له أن ينزل من السفينة مصحوباً بسلام تكميم من الله ووعد بمضاعفة الخيرات له ولمن معه ولمن سيتكامل منهم من الأمم التي توأصل السير على منهج الله. وأما الأمم التي ترفض طريق الهدى فإن الله لا يعاملهم بالعقوبة ولا يحرمهم سماع الحياة للدنيا، ولكن سيسلط عليه العذاب الأليم يوم القيامة.

ثم توجه الخطاب لرسول الله ﷺ ممتناً عليه بما أعلمه به من تفاصيل قصة نوح، التي ما كان يعلمها هو ولا قومه ولا أهل الكتاب. إذ هي تفاصيلها الواردة في القرآن من الأمور المغيبة عن علم البشر في وقته. وهي تعطيه صورة لعاقبة الصبر الذي تدرج به نوح والمؤمنون معه، فاصبر يا محمد بالتأكيد النهائية الطيبة تكون للمؤمنين .

ببإذن المعظمي العلام .

45 47، وتنادى نوح ربه وتوحيهمني أصدق من الضامير.

للمشهد الثامن: برزت الأرض لنوح خالية بعد أن رست السفينة، وشاء في نفسه ما يعتلج في قلب الولد، حينما يتبين هلاك ابنه وأنه غير ناج من غضب الله وعقابه يوم القيامة، ولا تسأل عن حزنه وقد خسر ابنه حياته وخسر آخرته. وفي هذا للطرف الأليم لم يبق له من أمل إلا في الإيهال إلى ربه أن يعفو عن ابنه فتوجه إليه داعياً، مفتحاً بين يدي دعائه بالتعبير عن شدة ألمه للخاتمة التي ختم بها ابنه حياته فقال: يا ربي إن ابني جزء مني وفرد من أسرتي وواحد من أهلي الأقربين، إن ما يؤلمه يؤلمني. يا رب إنني أعلم أن ما تعد به واقع لا ينقض، وأعلم أن حكمك ماض لا يرجع، ولا راد لما حكمت به وقضيت.

ثم يرد في النص ما دعا به نوح، بل لا ندل الآية على أنه دعاء والاحتمال وارد: هل إنه دعا بالمغفرة لابنه وطوي دعاؤه لفهمه من المقام، أو إنه قدم ما قدم استطاعه واستدأنا وعلى الوجهين فإن نوحاً قد يود أن لو من الله على ابنه ففقد له ذنب الكفر الذي حكم به حياته.

أجاب الله نوحاً بتصحيح ما وقع في نفسه من خطأ: إن قوله: إن ابني من أهلي كلام غير دقيق، ذلك أن الترابط بين البشر يجب أن يقوم على أساس التوافق في العقيدة لا على أساس القرب الدموي. وإذا اختلفت العقيدة انتهت كل الصلات التي يمكن أن تكون معتبرة، وبين سبب الحلال الرابطة: أنه كافر لا يعمل عمل الصالحين، فسدت عقيدته وفسد تبعاً لذلك كل ما يصدر عنه من فعل.

ثم عاتب الله نوحاً لجريان تكثيره بسؤال ربه المغفرة لمن مات على الكفر، فهو لم يتدبر فيما يترتب على استجابة دعائه من اختلاط بين الخير والشر والإيمان والكفر، ولو تأمل فلم ما فكر في السؤال. وأضاف غاية نوح: إن الله تولى وعظه وإيقظ عظه حتى لا يملك مسلماً يوقع فيما يقع فيه الجهلة الذين يخلطون بين ما ينبغي وما لا ينبغي.

وقعت تلك الموعظة من نوح موضعاً هزته إلى الاعتذار مع الالتجاء إلى ربه لرحمته من الوقوع فيما لا يرضيه، وصرح بأن كل همه أن يكون في حصن ربه يحوطه بالتوفيق، وأن يحميه من سزاله ما لا يعلم مقبلاً رضا الله بالسؤال عنه. ثم أعلن عن ضراسته بسؤال ربه أن يغير له ولا يؤاخذه بتقصيره، وأن يوالي عليه رحمته. معترفاً أنه إن لم يتفضل عليه بالمغفرة والصفح، والرحمة والرضا، فإن يلتحق بالقوم الخاسرين للعاقبة.

48- قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَعَذَابٍ أَلِيمٍ.

المشهد التاسع: استجاب الله لضرارة نوح، فأُنزل في السفينة مكرماً بسلام من الله عليه، مصحوباً ببركات تبشر بمزيد من الخيرات نامية. وهل تجد ما يدل على رضا رب العالمين عنه أبلغ من هذا الخطاب لنبيه ولقومه الذي رعاهم في لاج البحر الهائج حتى وصل بهم إلى مستقر العلامة.

وشمل سلام التكريم الإلهي من كان معه من المؤمنين في السفينة، وعبر عنهم بأمر بالغفر إلى ما سيؤول أمر مسلمهم من التكاثر فيكون منهم أمم وشعوب، فالتكريم والبركات تشمل الأمم التي تتعامل من نوح، ومن المؤمنين المحمولين معه في السفينة، وهم الذين يلتزمون التوحيد لله وتطبيق شريعته. ولكن الأمم الذين يضلون ويكفرون بالله ورسله، فقد أعلم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم فمن أصر على الكفر إلى خاتمة حياته الدنيوية سيسلط عليه عذابه الأليم يوم القيامة.

49- لَنَجْزِيَنَّكَ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْغَيْبِ لَوْحِيهَا... إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

قصة نوح كما وقع تصميلها في الآيات السابقة، من الوقائع التي طواها الزمن فعمي خبرها عن الناس، فما كان النبي ﷺ يعلمها قبل نزولها عليه، ولا كان قومه يعلمونها، ولا كان المخالفون لأهل الكتاب من قومه ولا أهل الكتاب يحيطون بجميع التفاصيل التي وردت فيها. وبذا فهي من الأخبار التي فقد من يروونها فانقطع سندها ولها الجهل. فأعلام الله نبيه بها ينادي بأنه يتلقى الوحي من عالم الغيب الله رب العالمين.

ولكن هذه القصة محققة لهنفها، فإن نوحاً ومن آمن معه صبروا على التكذيب من قومهم وتمالأ الكافرون واستهزأوا بهم. وواصل نوح دعاءهم إلى النهاية التي أعلمه الله فيها أنه لا يؤمن أحد منهم بعد اليوم. فليكن نوح مسلماً تقدي به في الصبر على المواصله. كما جاء في قوله تعالى (وَلَتَكُنَّ الْخَافِضِينَ بِهِرَبِ اللَّهِ) (الأنعام) ١ - وسما يساعذك على الصبر ويفتح لك أبواب الأسفل مشرعة: لن النهاية الصالحة تكون نصراً للمتقين الذين يخلصون لربهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيْهِمُ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بِهِمْ غُرْفَةٌ ۚ إِنَّ أَصْحَابَ الْفُتُورِ ۖ لَا شَأْنَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ أَجْرَ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مُفْتَرُونَ ۖ

تَعْبَلُونَ ﴿١٠﴾ وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
 وَنَزِّلُكُمْ فِي قُودٍ إِلَى قَرْيَتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا خَيْرِيَّتٍ ﴿١١﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
 نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا
 اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرَةٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
 ﴿١٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَبِكَيْدٍ ذِي خِيَمَةٍ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ نَبِيٌّ وَزَيْكُمُ
 مَا مِنْ دَائِدٍ إِلَّا هُوَ رَاجِدٌ بِتَامِيَّتِهَا إِنْ نَبِيٌّ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾ إِنْ نَقُولُوا فَقَدْ
 أَتَيْنَاكُمْ مَا أَرْسَلْنَا بِهِ الرِّسَالَاتِ وَتَسْتَخْلِفُنِي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ
 نَبِيٌّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاسِيطٌ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ

يرسل السماء : ينزل المطر .

مدرارا : غزيرا .

لا تتولوا مشركين : لا تعودوا إلى الشرك .

اعتواك : أصابك .

الخذ بناصيتها : الناصية شعر مقدم الرأس ، والأخذ بناصية الدابة معناه التحكم فيها .

النولي : الإعراض .

يسئبل : يزيلكم .

حليقة : قائد قاهر .

بيان المعنى الإجمالي

أرسل الله سيدنا هودا إلى قومه، فهو واحد منهم يعرفونه ويعرفهم .

مضمون رسالته : دعوته لعبادة الله وحده فلا إله غيره . وما هم عليه من عبادة الأوثان
 والشرك كذب على الله وعلى الحقيقة . وقربهم لاتباعه بأنه لا يطلب منهم لجزا على هدايتهم .
 فأنه الذي خلقه من لا شيء ثم أفاض عليه ما أفاضه هو الذي سيتولى تمكينه من أجره . فما
 لكم لا تنظرون بفعلكم فيما دعوتكم إليه . ثم ثنى بدعوتهم إلى الاستغفار مما سبق لهم من
 الشرك بالله . وأن يتوبوا إليه من ذلك الإثم العظيم . يقول لهم : إنكم إن صدقتم برسائلي وقرعتم
 بما أوحاه الله لي وبلغتكم إياه ، فإن الله سيرسل لكم القوث النافع من السماء . ويضاعف قواكم .
 وإياكم أن تعرضوا وتقبلوا إلى التماذي على الإجماع بالشرك .

أجابوه : بئنا لم نجد فيما أتيتنا به أمرا بينا واضحا يرجح صدقك، ولا يتصور أن نترك الهتنا لمجرد قولك، ولذا فتمسارك بأننا لا نؤمن بك. ونحن نقدر أنك تجرات على أحد الهتنا فالتقم منك بأن منك في مداركك، فخرجت علينا بهذا الكلام.

أجابه هود: إني أشهد الله الذي لا يقبض عن علمه شيء من علمي ومن عنانيكم، واشهدوا لي لا أتحمل شيئا من ضلال شرككم، وإني أتحذركم أن تتحدوا مع أصنامكم للكذب. بل إني أقول لكم عجلوا بما تدبرون من الإضرار بي ولا تنتظروا. إن قوتي مستمدة من الله الذي أعتمد عليه وحده، وهو ربي وربكم، وكل ما يدب على الأرض هو في قبضته لا يخرج عن سلطانه، وإنه سيحلقه عائل أتم للعل لا يسلمني إليكم.

إكم إن تتولوا وتثبتوا على كفركم فإني قد قمت بهمثي وألغيتكم ما حملني ربي، وإن الله قادر على محكم وإنشاء قوم آخرين يحلون محلكم يعذونه ولا يشركون به أحدا، والله حافظ لجميع الكائنات لا يستطيع أحد أن يصل إلى محفوظات ربي إلا بإذن منه سبحانه .

بيان المصنف العام :

50-52. وإلى عاد أخاهم هودا...ولا تتروا سجرمين.

أعظم القرآن قصة نوح عليه السلام. كما تقدم لنا في سورة الأعراف من الآية 64 إلى الآية 71.

حمل الله هودا أمانة الرسالة، وأرسله إلى قومه، وهو واحد منهم يشاركونهم في نعمهم، يعلمون ميراثه وصلاحه ونبل خلقه، عبر القرآن عن ذلك بقوله (الخامس هودا)

- كيف عرض هود رسالته على قومه المبعوث هو إليهم؟

- قال: يا قومي ! ناداهم بما يجمعهم به من صلة للنسب التي من شأنها أن تجعله لا يسمي (إلا لما يجمعهم، ليؤكد الثقة التي تليق بها نفوسهم لاتباعه، وترفع صدمه المواجهة بما يناقض مألوفهم. ولقد الحقيقة التي يدعوه إليها، بأنهم إذا تأسلوا، فإنهم لا يجدون من يستحق وصف الربوبية غير الله، وإذا كان هو حده المستحق لذلك فما عظمت وعبدتم ونسبتم إليه الأوهية، هو كذب محض وتزييف للحقيقة.

ثم أزال ما يمكن أن يدخل في نفوسهم من عوارض الشك في دعوته، من تصورهم أنه ينبغي لها أن يحصل على أجر منهم مقابل غايته بهم وصرفهم عما كانوا يعبدونه، وتعليمهم المنهج الذي ينبغي أن يسلكوه في حياتهم؛ فصرح بوضوح كامل: أنه ما ينتظر الأجر إلا من الذي أنشأه بعد عدم، وأفاض عليه من العناية ما

سما به إلى مرتبة النبوة، مالمكم لا تكون مدارككم، ولا تنظرون بقوة عقولكم للتسي تخرق حجب اللبس، وتكشف الحق واضحا. على معنى أن ما قدمه من كونه واحدا منهم، لا يفي منهم مقابلا، وأنه لا يتصور العقل أن يكون إليه غير الله، وأن ما عبوه من دون الله ليست له حقيقة وكذب محض.

ثم أضاف إلى أفراد الله بالعبادة المرتبة التالية لذلك: وهي أن يتوجهوا إلى الله طالبين منه أن يفر لهم ذنوبهم، بأن يمحوا ما تلوثت به نفوسهم من الشرك بالله، وأن يصمموا على عدم العودة إلى ما كانوا عليه، فلا يكون استغفارهم حالة عارضة، بل عزيمة صارمة تفرع ما كانت عليه، ثم أنبأهم بأنهم يجمعون بذلك بين صلاح بولطتهم، ورضا الله عنهم فيسعدهم بالطاعة بهم؛ التي منها أنه يضاعف محصولهم الفلاحي، بما يرسله لهم من الأمطار المتتابعة، التي يزكو بها الزرع، وتصلح الثمار؛ والتي منها أن يزيد إلى قوتهم قوة في صحة الأجسام، والحمائية من الأوبئة، ووفرة النسل، وسعة الرزق، ثم ختم دعوتهم بنهيهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من الشرك، الذي هو أعظم ما يمكن أن يفترقه الإيمان من الإجمام.

فيما عرضه هود على قومه، ما يشير إلى أنهم كانوا أصحاب مزارع، يتميز أراضيهم بالخصب ووفرة المحصول، مما لا يتحقق إلا بغيث السماء، وأن بنيتهم كانت قوية تبعا لذلك، وأنهم كانوا يخشون الحبلن الأمطار المتمر لحياتهم.

53- 56. قالوا يا هود ما جئتنا ببينة... إن ربنا على كل شيء حفيظ.

بعد أن بسط هود ذلك عرض ما يدعوهم إليه، وما يستند إليه، سجل القرآن الحوار الذي دار بينه وبين قومه.

ورفضوا ما دعاهم إليه وقدموا مبررا لرفضهم: أنهم نظروا فيما أُرِدَ به رسالته، فما وجدوا أمرا يبينوا واضحا يفرض قبوله على سامعه لنصاعة الحق الذي يتضمنه، وإذا تجردت دعوته عما يريدها، في رعمهم، فلا يتصور منهم أن يتخلوا عن الهتهم التي يعمونها بسبب قول مجرد صادر منه، ومن الطبيعي تبعا لذلك أن لا تتوقع أن تؤمن برسالتك.

وتأييدا لكفرهم ورفضهم قدموا تأويلا، جعلوه السبب، في ظنهم، الذي حمل هودا على عرض ما عرضه عليهم. هو أنه يمكن أن يكون هودا قد تجسرا على بعض الهتهم فسلبوه عقله حتى أصبح يقول ما يقوله من حصل له من في مداركه.

رد هود على ما قدموه ردا منبأ: أنه شديد الاتصال بربه مستحضر أنه معه لا يغيب عنه شيء من أفعاله، فهو يشهد الله سبحانه على ما بذله من جهد لإقناعهم بما

أوحاه إليهم، وعلى عبادهم ورفضهم وعلى أوليائهم الباطلة، وثقى بإشهادهم على تبريه مما يعبدونه من الأصنام التي يعتقدون أنها شركاء الله. وثقى بتحذيرهم تحذيراً يظهر عجزهم وعجز آلهتهم معهم أن يصلوا إليه أو يتمكنوا من تحقيق ما يريدون له من سوء. وبالف في التحدي بأن ينفذوا مكرهم وكيدهم سريعاً إن كانت لهم قدرة على الإضرار به.

أعلن هود أن هذه الثقة الكبيرة في سلامته وعجزهم عن الوصول إليه بسوء، مؤسسة على صديق توكله على الله الذي تولاني كما نولكم بالظلمة، فما كان لي أن أبلغ المستوى الذي أنا عليه، وما كان لكم أن تصلوا إلى المستوى الفكري والقوة والسعة في الأموال إلا بالظلمة. كما أنه سبحانه هو القادر وحده على كسر الخلق وقدرته مثلها بالأخذ بالناصية، وهي الممسك بشعر مقدم الرأس إمساكاً يمثل الحركة ويتبعه الخضوع. فهو سبحانه مالك لكل واحد من الدواب، من البشر والحيوان مهما بلغت قوته، لا يعجزه أي منها ولا يفلت من تصرفه.

إن تصرفه سبحانه يجري حسب الحكمة البالغة والمعدل، فربنا لا يظلم أحداً ولا يهمل أوليائه، وبهذا يشير هود إلى من نكته في توكله على الله، فهو لغفرته وحكمته سحيمة من كيدهم.

و إن قولوا: أصله وإن تقولوا: وحذفت إحدى التاءين شأن ما بدئ بتأين، يقول ابن مالك:

وما بتأين ابتدئ قد يقتصر *** فيه على تا كتبتين العبر

وهذا خطاب من هود إلى لقومه في النهاية يقول لهم: إنكم إن تقبلوا معرضين فإني أسأل عليكم: أني قد أبغضتكم ما أنزل علي من ربي ولا تبعه علي من كفركم! ثم يهددهم بأن الله قادر على إفنائكم جميعاً، ويخلق غيركم يعبدونه ويطيعونه. وإنه يحقكم أن تستطيعوا أن تضروه بشيء.

وحمله بعض المفسرين على أن هذا الخطاب من رسول الله ﷺ لغريش، فيعد أن قص عليهم قصة هود التي من شأنها أن تعظم فلا يسيروا على خطاهم. ويهددهم بمحقهم واستبدالهم بقوم غيرهم.

والتخريج الأول أوفق، لأن الفصة لما شئت بعد، لأن عتاب قوم هود سيأتي في الآية التالية. وتختتم الموعظة بأن الله حافظ لكل شيء، وشأن الحفظ لتمام أن لا يتمكن أحد من الوصول إلى المحفوظ، فالله ممسك لكل الكائنات، له وحده القدرة عليها ولا يستطيع غيره أن يشاركه في تصرفه فيها.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِيَّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّيتَهُم مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٥٤﴾ وَتِلْكَ ءَاثَارُ نِعَمٍ وَعَذَابٍ لِّئَلَّامٌ لِّلْجَبَّارِ عَنِيْدٍ ﴿٥٥﴾ وَأَنبِئُوهُ بِهَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَآ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ ءَاثَارَ نِعْمِهِمْ ءَلَا يُعَدُّ ۚ لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ .

أمرنا: نزل أمرنا، وهو العذاب.

الغلِيظ: للخشن، بمعنى الشديد.

النجدة: الإنكار الشديد.

الجبَّار: المتكبر.

العيْد: المكابر الذي يرفض المعقول.

اللَعْنَةُ: الطرد المصاحب بالإهانة.

بيان المعنى الإجمالي .

إنه عندما قارب نزول العذاب بقوم عاد تبعوا لتصميمهم على للشرك. يصر الله لهود والذين آمنوا معه النجاة من الريح المهلكة، كما أنجاهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

هذه عاد التي أنكرت لشد الإنكار الآيات التي تأتي بها هود، وعصوا رسل الله جميعا وتمسكوا بالشرك، وقلدوا أمورهم كل ظالم منقطع عن يرفض الحق الواضح، ويكابر . جزاؤهم أن لعنة الله تنالهم في حياتهم الدنيا ولا تنفك عنهم يوم القيامة. ألا إن عادا عصوا ربهم. أبعدهم الله معقوتين.

بهاج المعنى العام .

58- ولما جا أمرنا لنجينا...ولنجيناهم من عذاب غليظ

إنه عندما قرب تحقق إزال العذاب بقوم هود لاستمرارهم على الشرك وتكذيب هود، نجى الله هودا ومن آمن معه قبل نزول العذاب الماحق لقومه. وذلك الإتجاه كان بسبب رحمة من الله. بفضله تمت لجاتهم من الاستئصال بالريح التي أهلكت كل شيء، كما جاء وصفها في سورة الذاريات: (وُفِّي عَمَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَشِيْرَهُمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَرَ مِنْ شَيْءٍ لَّكُنَّ عَلَيْهِ إِلاَّ جُفُفَةٌ كَالرَّمِيمِ)¹ وفي سورة الحاقة: | وَأَمَّا

ثَلَاثَةَ أَهَامٍ ذَلِكَ وَغَدُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۖ فَلَمَّا جَا أُمْرًا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ
 دَانُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنَ الْخَرَىٰ إِنَّا زَلَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْغَازِي ۖ وَأَخَذَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْحَوْا إِنَّا فُتِحُوا ۖ جَنَّتِمْ ۖ ۝ تَارَ لَمْ يَنْقُتُوا لِيَهَا
 أَلَا إِنَّا نُمُودَا كَفَرُوا زَيْمٌ ۚ أَلَا بَعْدُ النُّمُودَا ۝

بيان معاني الألفاظ :

الإششاء : الإيجلا والإحداث.

استعركم : جعلكم معمرين للأرض بالزرع والفرس والبناء.

مجيب : إعطاء السائل ما سأل .

تمتعوا : انتفعوا بمتع قريب زوالها.

داركم : بلدكم .

وغد غير مكذوب : صادق غير مختلق.

الخرى : النذل.

الصيحة : الصاعقة.

كل لم يفتوا فيها : كلهم لم يقيموا فيها.

جانثمين : باركين على ركبهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله لبقيلة نمود صالحا رسولا منهم يعرفون كمالاته فدعاهم إلى ما يدعو إليه
 جميع المرسلين : أن يقرءوا الله بالعبادة، وأنه لا إله غيره. وأن دليل وحدانيته
 وجوده في نفوسهم فقد أنشأهم من الأرض، ومكأنهم من تطويرها. ولذا قالوا يجب
 عليهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة تقصيرهم. وأن يتوبوا إليه مما وقعوا فيه من
 أخطاء، والله قريب من عباده بجيب سؤالهم.

كان جوابهم عن تلك الدعوة الرفيعة: خيبت آمالنا فيك. كنا نتوقع أن نبليغ
 للزعامة فينا، فكيف تتهانأ عن عبادة ما عبده أبائنا وسرنا عليه قرونا. ولذا فإننا
 نشك في صدقك شكاً يجعلنا نرتاب فيما أتيتنا به.

أجابهم: تأملوا إنني كنت وثقا أشد الوثوق مما أوحى به إلي ربى، ورحمنى بالرسالة
 الهادية إلى طريقه المستقيم، فكيف يكون حالى إن عصيته. إنكم ما تزيدون بكلامكم
 وعنادكم إلا خسرفنا.

ثم عرض عليهم معجزته: ناقة تخلق لا من أم، شاهدوا خروجها نائمة الخلق، فهي من خلق الله لم تتوسط رحم في إيجادها، فأنكروها نزعى في لومض الله وأنهاركم عن إذابتها بسوء، إنكم تعرضون أنفسكم، إذا اعتديتم عليها إلى عذاب عاجل لا يبطئ.

تحتوا نبيه وغفروا للذلة. حقق عليهم للعذاب وقال لهم صائح: أنتم مؤجلون ثلاثة أيام لا تستطيعون الخروج من دياركم؛ هذا وعيد صادق تحققة.

لجى الله صالحا ومن آمن معه برحمته تعالى من العذاب وما صحبه من ذل. إن ربك يا محمد هو القوي الذي لا يتقل عليه أي شيء، العزيز الذي ينصاع له كل شيء.

أهلك الظالمين بالشرك والذكذيب بصحية قوية تركتكم باركين في أماكنهم، أحدث آثارهم كآلهم لم يعمروا تلك الأماكن، ألا إن تعودا عصوا ربهم وكفروا به. فليذهبوا خزايا مقوتين.

بيان المعنى العام :

61- وإلى هود أخاه صالحا... إن ربي قريب مجيب.

عطف القرآن قصة هود مع قصة هود مع قومه على قصة هود مع قومه. وكانت بداية دعوتهمما واحدة: بالتأكيد على المقوم للصالح والنجاح: ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة، وأنه لا إله لهم يدير شؤونهم غيره.

ثم لفت أنظارهم إلى حقيقة لا يستطيعون أن يجادلوا فيها لو أن ينكروها، هي ما يقتضيه التأمل في إيجاد البشر وتكوينهم بتحويلات عجيبية، فهم من الأرض خلقوا سواء أنظرت إلى خلق ليهم أم، أم نظرت إلى ما يدخل في تركيب الذكر والأنثى (الزوجين) من عناصر أرضية بها توجد الخلية الأولى منها، وتنمو بما تنفذي به من الأرض عن طريق الوريد السري الذي يمر منه إلى الجنين ما تبلغ به الخلية في كل مرحلة من مراحل وجودها المستوى الذي تكون به خلفا آخر، وملحظ آخر لفت إليه الأنظار، أن كل إنسان وإن كان قد خلق من الأرض، فإنه بعد أن يولد ويشد عوده، هو ممكن من التأثير فيهما بما يحققه من منجزات في الزراعة والغراسة والبناء، بما يكون به معزرا للأرض محصلا للخيرات منها.

وإن تصح أن المدبر لخلق الإنسان، وللممكن له في الأرض هو الله، وأن سعيه في أرض الله قد يقارنه بتصير لو تجاوز للحدود، ونعد من المستخلف في الأرض على ما مطره خالفهما من حدود التصرف التي يرضى عنها، دعاهم صالح الله أن يضلوا ما تلوثوا به في نشاطهم من الآثام، أن يغسلوها بطلب المعفرة، لستر

اثامهم بان يقرنوا دعاءهم بيقظة ياطنية تتمثل في التمسك على ما ارتكبه من اثم، والعزم البصير على عدم العودة للنشر. (فاستغفروا ثم توبوا اليه).

لن لذي يحرض الانسان المتجاوز على الاستغفار والتوبة، هو ما تحقق من ان الله رحيم بعباده يقربهم اليه كلما ابتعدوا عن سراطه فالتفتوا وتوجهوا اليه، وهو بفضلله يجيب دعاء الداعين المخلصين التوابين، ويحقق لهم مطالبهم.

62 - 88: قالوا يا صالح قد حكمت فيما مرجوا... ألا بعدا للهود.

يصل القران هذا العرض الواضح الجميل، بالحوار الذي دار بين صالح وقومه. أولاً: أذكروا عليه ما دعاهم اليه، وعبروا عن ذلك بخيبة امالهم فيه فقالوا: لقد كنا نرى فيك الشاب الذكي الجامع لخصال النباهة، و نأمل أن تبلغ فيما مكانة السيادة، وتقوا بلومه والإنكار عليه أن يدعوهم لمسا دعاهم اليه، تلك الدعوة التي قطعهم عما استقر عليه امر ابايهم من عبادة الأصنام، يشيرون إلى الاعتزاز بمنلوكم في عقيدتهم مسلك ابايهم. ثم حققوا مصرحين بما يترتب على ذلك: لانهم شاكون في صدقه شكاً قوياً يمكن للريبة في قلوبهم.

ثانياً: رد عليهم صالح بتذكيرهم بالارلطة التي تربطه بهم (يا قومي)، والتي تقتضي لمن كان في مقامه الخلقى الرفيع أن لا يكون إلا ناصحاً لهم ساعياً فيما يصلح لهم. نأملوا بما يرفع عنكم اللبس: إني كنت على يقين بالغ اطلى درجات الوضوح مما أوحى إلي من ربي، وإثاني النبوة الرحمة المهداة من فضله، أؤذّر في شككم لو بضرفي تكذيبكم، أو بحملي من عذابي إن اتبعتمكم. لا أحد يستطيع أن يصرني أو يدفع عني إن عصيته وقصرت في تليينكم ما أمرت بتليينه. فما تعرضونه على وتكذونني إليه لا يحصل منه إلا خسرتي.

ثالثاً: أيقظهم بالنداء: يا قومي، ليكنوا واعين لما يقوله لهم وليحذروا من التهاون بمضمونه، فقال لهم: هذه الثقة هي ناقة الله، أنشأها إنشاء على غير ما عهد قسي غيرها من النوق، لم تلدها أم. هي معجزة لتأييدي ولتزيك قدرة الخلاق العظيم. ما تتاملت مما يملكه أحد، بل خلقها الله خلقاً بدون واسطة فهي ملك خالص له، لذا نسبها إليه (هذه ناقة الله) لا تكلفكم شيئاً إلا أن تكونوا من الرعي في أرض الله، ولا تعدوا عليها، إنكم إن تهاونتم بحقها في الحرية وعلى السلامة بسلط عليكم عذاباً مريعاً، لا إيهال فيه.

رابعاً: قالوا تحذيرهم من الاعتداء عليها، بعقرها، فأصابوها في المنحر وسقطت جثة هامدة، وعندها أعلن لهم أنه بقي لهم ثلاثة أيام يتمتعون فيها بالحياة في بلدهم

لما ليث : عجل ولم يبطئ.

حتيث : مشوي بطريقة خاصة لن يغطي بحجارة أو رمل محمي أو بحائل بينه وبين النار.

أوجس منهم خيفة : لص بالخوف منهم.

يا ويلنا : صيغة تستعمل في مقام التعجب.

ليل : للزوج.

بيان المعنى الإجمالي :

حاجت ملائكة الله لإبراهيم حاملين البشارة، فسلموا عليه ورد عليهم السلام بما هو أحسن. وعجل باستضافتهم فهربا لهم عجلا مشويا قدمه لهم. واستوحش إبراهيم منهم، لأنه لاحظ أنهم لم يتناولوا شيئا من الطعام الذي أكرمهم به، وإن بدا عليه الحيرة من أمرهم، أعلموه بلهم رسل من الله لإزال العذاب على قوم لوط الفجرة.

كانت امرأة إبراهيم حاضرة مستبشرة، وضججت مما رأت وسمعت، فبشرها الملائكة أنها ستحمل من إبراهيم نبيا الله إسحاق، وأنها ستبقى إلى أن ترى ولده يعقوب، تعجبت أشد العجب مما سمعت وقالت: كيف أحمل وقد أصبحت عجوزا جاوزت بكثير السن الذي نحمل فيه النساء عادة، وكذلك روجي كما هو أمامكم شيخ كبير السن. إن ما أخبرتموني به يدعو للعجب !

طمأنها الملائكة وبددوا حيرتها لما قالوا لها: كيف تعجبون من نقاذ قدرة الله، فهو القادر على خرق العادات كقدرته على إمضاء سنن الكون. ولا تعجبين من تخصيصكم بهذا الفضل فإنكم أهل بيت عمركم رحمة الله وتظهرت عنايته بكم، إن الله بما يتوالتى من فضله وبما اختص به من كمال حفيظ بشأن بحمده وهو المجيد سبحانه الموصوف بأسمى الصفات وأنبها.

بيان المعنى العام :

هذه قصة ألمجت فيها قصة رسولين عاشا في زمن واحد سيدنا إبراهيم وابن أخيه سيدنا لوط. فلنتابع القصة كما عرضها علينا القرآن:

(19) -- 70، **واتقد جاءت رسلنا إبراهيم يسبحون وإسمه يستوحش.**

قدمت على سيدنا إبراهيم رسل من ملائكة الله يحملون البشارة. يحتمل أن تكون البشارة ما سنحرف به الآية التالية: إعلانه بأنه سيولد له من زوجته امرأة بعد كبير سنهما نبي يخلفه نبي، ويحتمل أن تكون البشارة إهلاك قوم لوط الفاسدين وكبشيره بإنحاء لوط. وكلا الأمرين مما ينتهج به إبراهيم.

قدم الملائكة المبعوثون من الله على إبراهيم في صورة لا تدل إلا على أنهم بشر قد يكونون في تصورهم من المسافرين الذين يقطعون الأرض متكئين، انتحوا لقاءه بنحيته، بالسلام عليه، ورد عليهم بأحسن مما سمع منهم .

كان إبراهيم حزيناً كريماً، وتوقع أن ضيوفه قد يكونون في حاجة إلى الطعام، فأسرع إلى بقره، ولخذ عجلاً سمينا الضحى بين بارين من أسفله ومن أعلاه، ولقيل به يعطى دهنه وقمحه إليهم.

كان يتوقع أن يتأوله الصيوف بشراته، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إليه. فدخل موقفهم هذا حيرة في نفسه، بعد الاستئمان بهم ضيوفاً في بيته. وهذا وجد لذة نفسية في إكرامهم. وصرى الخوف منهم إلى قلبه وظهرت ملامحه على وجهه. ذلك أن العادة حذرت أن للمشاركة في الطعام يتبعها أمن كل واحد إلى صاحبه فأعرضهم عن الأكل قد يكون نذير شر .

وهنا يرتفع الغموض : طأطؤوه وقلوا له: لا نخف منك، إنما لسنا بشرًا ولكننا ملائكة أرسلنا الله، بمهمة نفذهما، إلى قوم لوط.

71- وامراته قائمة ضحككت -ومن وراء إسحق يعقوب-

تدخل في المشهد امرأة إبراهيم التي كانت حاضرة واقفة تسمع كل ما دار بين زوجها وضيوفه، وبمسجل القرآن أنها ضحككت، وشأن الضحك أن يصدر عن الإنسان إذا سُرَّ بما سمعه، أو تملكه شعور ممزوج من التعجب والاستغراب.

وختلف المفسرون في توجيه سبب ضحكها اختلافًا كثيرًا، حتى حمله بعضهم على أن الضحك هو إحساسها بالعادة الشهرية، وهو محمل بعيد لغة ومعنى. والذي ألفه من الآية أنها كانت مسرورة، قد يكون سرورها لما علمت أن ضيوفها ملائكة وكلهم الله بالانتقام من قوم لوط الفجرة. وقد يكون لما ذكر في الآية، وهذا مما جبلت عليه النساء سرورهن بالحمل ينشر في نفوسهن البهجة. أو بسامر آخر مطوي، ولا يهتما في حبك النفس معرفته على وجه الثقة، فلتنصرف عن ذلك إلى ما ميأتي واضحا في مراحل القصة.

كانت سارة زوج إبراهيم متشرحة، كأنها مهياة لحدث مار، ويأتي هذا الحدث أيضا فتبشرها الملائكة أنها ستحمل بإسحاق، وأنها سترى من ابنها هذا حفيدها يعقوب أيضا.

72- قالت ياويلتا والد سؤله حميد مجيد-

البشارة صادقة لا تشك في تحقيقها، ولكن هذه البشارة كانت غريبة نظر للظروف المصاحبة التي عبرت عنها سارة في تسألها. وصرحت بذلك في قولها: ياويلتا!

صيغة تدل على التعجب للمروج بالشعور بالصدمة. كيف ألد بمعنى كيف يتأتى مني الحمل، وأنا قد تجاوزت السن الذي تحمل فيه النساء لجنة! لقد بلغت سن اليأس وأصبحت عجوزاً مسنة. وزوجي كبير وأصبح شيخاً طاعناً في السن. فكونها عجوزاً، وكون زوجها شيخاً، حسب المعروف من سنن الحياة أنهما قد تجاوزا سن الإنجاب، فكيف تتحقق هذه الإشارة ؟

أجابها ملائكة بما يرفع حيرتها ويزيل تعجبها قائلين: **اتعجبون من أمر الله (فلا قدرة الله) ليس هو القادر إذا أراد شيئاً يأمره فيستجيب. ولا عجب أن يصدر هذا من الله، ولا عجب أيضاً في تخصيصكم بخرق العادة، لأن تعلق إرادته بإعطائكم الولد في مثل هذا السن هو رحمة وبركة. ولستم أهل للرحمة والفضل يا أهل البيت، وتختم الآية بأن الله حميد، لا يسع المتأمل في كمالاته إلا أن يتلوى عليه بما هو أهله. وأنه مجيد: متصف بأوصاف العلو الذي لا يشاركه أحد فيها.**

فَلَمَّا أَتَتْهُمُ الرُّوحُ وَخَازِنَةُ السَّمْرِ: عَسَلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّهُمْ أَرَاهِمُ لَخَبِيرٌ آيَةً مُبِينَةٍ: يَذَلُّوهُمْ أَغْرَضْنَاهُ عَنْ مَعْنَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَخَبِيرٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُونٍ

بيان معاني الألفاظ :

الروح : الروح والحواف.

المجاللة : المقابلة في القول والحجج، المعاورة.

الحلم : كمال العقل مع لئاة واحتمال.

لواء : كثير التوجع والاهتمام بشؤون غيره من الناس.

منيب: كثير الرجوع إلى ربه.

بيان المعنى الإجمالي :

أطمان إبراهيم لما تحقق أن الذين قدموا عليه ملائكة الرحمن، ولما تتابعبت عليه البشائر. ثم أخذ يسأل الإمهال لقوم لوط لعلهم يرتدعون. وذلك لأن من طبيعة إبراهيم ومن مزاياه أنه راحق العقل يتحمل الأذى ولا يصرع بالرد، كثير التأسف على كل من يصيبه مكروه، وهو في حضرة ربه يعود إليه بصفة دائمة.

و ناداه ربه: يا إبراهيم أعرض عن توسلاتك بهم؛ إنه قد حق عليهم الوعيد، وإنه سيلحق بهم العذاب الذي لا مرد له.

بيان معاني الألفاظ :

سرى بهم : حصل له السوء بسبب قدمهم عليه.

ضائق بهم ثوعا : ضاق ذراعه فلا يستطيع مده إلى غايته. أي لم يجد حيلة في الخروج من الأمر الذي ألم به.

حصب : شديد فحما لا يرضى.

يهرعون : مقبلون بشدة كأنهم مدفوعون من خلفهم.

ولا تخزون : ولا تكلوني بالاعتداء على ضيوفي.

من حق : من رغبة.

ومن شديد : قوة تمنعني.

أقبل من الليل : جزء من الليل.

مسجل : من ولد من جهنم .

منضود : متتابع.

مموءة : عليها علامة نقرها عن غيرها.

بيان المعنى الإجمالي :

انقلبت القصة من إبراهيم إلى لوط، بتحول الملائكة إليه في صورة بشرية، فاستاء من قدمهم وشعر بالضعف والخرج، وعبر عن ذلك بأنه في يوم شديد، وبمجرد ما سمع قومه بقدوم ضيوف جدد على لوط أمرعوا إلى بيته على ما هو عادتهم من ربط علاقة شذوذاً جنسي مع كل قائم، رجاءهم لوط أن يحترموا ضيوفه، وعرض عليهم أن يزوجه من فتيات هن أفضل من الذكور استمناحاً وطهارة. وحضهم على تقوى الله التي تحصلهم من الإثم الذي تعودوا عليه. ونهاهم أن يهينوه بالتعدي على ضيوفه، وتعجب أن لا يوجد فيهم رجل رشيد يحسن التدبير.

أجابوه بكل وقاحة؛ لما دا التلف والدوران، إنك تعلم ما نريد من ضيوفك ولا ترغب في بناتك. قال لوط عند ذلك مظهراً الحرج الكبير الذي هو فيه بتعيبه أن لو كانت له قوة يستطيع بها أن يوقف فسادهم، أو لو كان في المنطقة رجل قوي يساوي إليه وحميه ويمده بالتأييد لحميه من هلاك قومه، وعزمهم التعدي على ضيوفه.

عند بلوغ اليأس بلوط هذا الحد كشف له الملائكة عن حقيقة ثم وقالوا له نحن ملائكة الله. فكن مطمئناً، إنهم عاجزون عن النيل منك أو منا. وإنهم قد حرق عليهم ما قدر لهم من عذاب. فأخرج مع أهلك في الليل وسر بهم مبعذاً عن القرية، ولا يلتفت منكم أحد إليها، واستنثوا أمرته التي مستهلك مع الهاالكين. إن موعدهم المهلك مع الصباح، والصبح قريب انسلاجه.

لما حصل الأمر التجيزي لتقلب القرية بما تحويه فأصبح عاليها سافلها، وتتابعت عليهم حجارة من نوح خالص لا ينجو منها أحد. وهي تصل إلى الظالمين أينما كانوا.

بيان المعنى العام .

77- ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ... يوم عصيهم.

انتقل الملائكة المرسلون من إبراهيم، بعد أن أكملوا ما كلفهم الله به من البشارة ومن إخباره أن قوم لوط قد حق عليهم كلمة العذاب، انتقلوا إلى سيدنا لوط فقدموا عليه في صورة بشرية. ويصف القرآن الموقف الحرج الذي كان عليه، لقد ساءه قذومهم، ووجد نفسه في ضيق، خشية من قومه الذين شاعت قبيح الفاحشة شيوعا جعلهم لا يتورعون من الوصول إلى فعلتهم الذكراء طوعا أو كرها . ووجد مجال حفظ ضيوفه وحمايتهم مجالا ضيقا، عبر عنه بأن ذراعه أصبح محصورا لا يستطيع أن يقوم بدوره من المداخلة. وفاض صدره بما يثل على الكرب الذي لسولى عليه، فقال: هذا يوم عصيب، بالغ الشدة بما يلحق به من مكروه لا يستطيع دفعه، إذ هو يتجاوز قدراته.

78- وجاءه قومه يهرعون...ألهم تنصحه رجل رشيد.

وشاع الخبر في البلد، وتسابق نحو بيته الذي ياري الضيوف بالانفاج، جماعة من قومه، كالآلة قوة من خلفهم تدفعهم، قصدهم ما هو دلبهم من فعل الفاحشة ولتعددي على الضيوف إشباعا لمرامة تنوذهم الجنسي.

بلغ الحرج بلوط لقصاه، وحاول أن يصدهم بالإقناع عما عزموا عليه فقال لهم: يا قومي ! مقربا لهم بما يربطه بهم من النسب الذي من شأنه أن يصرفهم عن إيذائه. ثم فتح لهم باب الانصراف عن الفاحشة بأنه يمكن من يرغب في إشباع شهوته للمتهيجة بالزواج من بنات قومه. لقم على هذا العرض باعتبار أنه النبي فيهم، فبدأت قومه كينته. وحرصهم على قبول عرضه بأن الزواج بين الرجل والمرأة أظهر من الفاحشة بين ذكرين شرعا وذوقا. وأضاف تنكيرهم، أمرا لهم بتكوى الله الذي يفت فعل الفاحشة. ثم جسد لهم الوضع الحرج الذي هو فيه قائلا أن لا يذلوله وأن لا يهينوه بإهانة ضيوفه، فإن من كرامة المضيف أن تحترم ضيوفه، يجتنب في حماه العرة والمنعة. ومألهم في الختام متعجبا: ما لكم قد اتفقت على الفساد واختلت القيم عنكم ؟ ألا يوجد من بينكم رجل رشيد في مداركه يحسن التدبير، عاقل ذو بصيرة في تقييم الأمور، يكشف لكم سوء ما لستم مقدّمون عليه، ويردعكم عن المضى في الفساد.

79-80، قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا إِلَىٰ رَيْصِكَ شَيْدٌ.

بلغت الأزمة أشدها. وتحول الحوار بين لوط وقومه إلى حوار الصم. فما نفذ تكثيره ولطفه وحسن تأكيده في المحاورة إلى عقولهم، ولا حرك فبيهم داعية الخير والرجوع إلى ما هو حق بين. وقالوا له: ما لك تتجاهل ما أنت عالم به، إنك تعلم من سلوكنا ومن قيمنا الاجتماعية أننا لا نرغب في النساء اللاتي عرضتهن علينا، ثم اكنوا في وقاحة: إنك يا لوط تعلم ما نريد أن نحصل عليه، فنحن مصممون على النيل من ضيوفك فلماذا الدوران؟

بلغت الحيرة من لوط أشدها، واكتشف له أن قومه جمعوا بين الوقاحة والتحدي. فرجع إلى نفسه معبرا عما بلغه من اللبس: ليت لي قوة ذاتية لمنع بها ضيوفى منكم، بما يوحي أن كثرتهم كانت تفوق قدراته الذاتية. أو ليت لي قوة خارجية أستند إليها لمنعى. فونه الذاتية أضعف من أن تقاوم هذا الرسل المتصايغ من قومه، ولا يوجد في محيطه من يحمي الحق أو يسنده. فالتعبير يوحي بأن اللبس استولى على مشاعره، وصاقت به الحيل التي تخرجه من المأزق الذي هو فيه.

81-83، قَالُوا يَا لَوْطُ إِنَّا نَبِلْ رَيْصَكَ .. وَمَا هِيَ مِنَ الْخَلَائِعِ بِبَعِيدٍ.

جاء الفرج بعد الشدة فسجلت الآيات الثلاث الألفاظ التي تدارك الله بها لوطا. -حضر الملائكة ما دار بين لوط وقومه، وشهدوا إصرارهم على الفساد فتم تسجيل ذلك عليهم. ولما يش منهم لوط ويئس من وجود قوة تساعد في محنته، صرح له الملائكة بما يخرجه من الضيق الذي هو فيه. قالوا له: لسنا بشراء، ولكننا ملائكة الله أرسلنا إليك. إليهم عاجزون عن الوصول إليك لو عن النبل منا. فقد أصمى الله إصرارهم كما جاء في سورة القمر: (وَلَقَدْ رَئَوْهُ عِنْدَ ضَيْفِهِ لَطْمَاسًا عَيْنَهُمْ) ١ - فكان مطمئنا يا لوط. وأنت مأمور بأن تخرج مصاحبا أهلك ليلا وتسير بهم، واظلموا علاقتكم بالقريبة الخالصة للعاسدة، فلا تلتفتوا إليها. ولم يبين القرآن السر في هذه الوصية. ويحتمل أن لا يبقى في نفوسهم ثقل بهاء كما يحتمل أن العذاب السدي سينزل بها مما لا تحتمل الطائفة البشرية مشاهدته. ولا تأخذ امرأتك معك، أو أن امرأتك سلتكت فوصيها ما أصابهم، وعلى التقديرين فزوجته هالكة ولا بد. وسينزل بهم العذاب مع الصباح. ومن المؤكد أن وقت حلول الصبح قريب وليس بعيد.

النهاية؛ لما أن الموعد الذي حدده الله في سابق علمه لإهلاك قوم لوط، في لحظة انقلب للقرية فأصبح أسفلها أعلاها، وتتابع عليهم من السماء القذف بحجارة حمراء قد تكون من واد بجهم، وقد يكون ذلك على التثنية كأنها من ذلك الوادي، وهي حجارة ليست كالحجارة تتميز بعلامتها التي تفرزها عن غيرها من أحجار الأرض بتقدير من ربك يا محمد.

ثم التفت القرآن إلى المشركين يهددهم، بأن آثار الخسف والعذاب قريبة منهم وليست بعيدة عن الظالمين وهم ظالمون بالشرك، فليتردعوا عن الشرك، كما يحتمل المعنى أن إصابة قوم لوط بالحجارة من سجيل ليس بعيدا عن الظالمين.

وَإِنْ مِنْكُمْ أَصْحَابُ شُعَيْبٍ قَالَ يُتَقَوِّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الصَّكَّالَ وَالْمِيزَانَ إِلَى أَرْضِكُمْ يَخْتَرُ وَلِي آخِزٍ فَنُحِيطَ بِعَذَابِكُمْ ۖ يَوْمَ يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَيُنْفِقُ مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَنْ تَبْكُوا ۚ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَنفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۚ بِهَيْبَةِ اللَّهِ يَخَافُ لَكُمْ أَنْ تُحَنِّتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَآ أَنَا لَكُمْ حَافٍ ۚ قَالُوا بِفَعْمٍ أَصْلَاؤُكَ فَاكْرُكْ أَوْ تَرَكْنَا مَا نَعْبُدُ آبَاءَنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ ۖ أَمْؤَلُنَا مَا شَاءُوا ۖ لَكَ لَأَكْثُ الْخَبْلِ الرَّحِيمُ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

الخبر : حسن الحالة، ومنه وفرة الخير أو رخص الأسعار.

محيط : يحيط بكم فيه العذاب.

القسط : العدل.

الرخس : النقص.

تنفوا : تمسعون في الفساد.

وليا الله : ما يقيه الله لكم وينوم، أو ليقاء الله خير لكم.

حلمة : مجبر.

الحثيم : صاحب العقل الراجح.

الرشيء : الموفق في التصرف في الأموال.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله إلى قبيلة مدين رسوله شعيبا، وكان فردا من أفراد القبيلة ليس غريبا عنها، طلب منهم أن يفسدوا الله بالعبادة، وأن لا يحتالوا على المتعاملين معهم

بالتفويض من الكيل أو من الميزان، ونكرهم بأن وضعهم المالي وضع ميسر فهم بخير، الأمر الذي لا يجدون معه عذرا لما يقومون به. وحذرهم من اليوم الذي يحيط بهم العذاب فلا يجدون منه مخرجا، ولهم أن يحكموا العدل في تعاملاتهم، وأن لا يحطموا أمل العارضين للسلع بإظهار عيوب موهومة ولتقصا في القيمة ليستولوا عليها بثمن دون قيمتها الحقيقية. وأن يتذكروا يوما أنهم مستخفون في الأرض فلا يفسدوا فيها، وأن تطبقهم لما عرضه عليهم هو طريق الخير فطبيهم لن يلتزموا. إن كانوا مؤمنين، وختم موعظته: بأنه لا يجبرهم على اتباع ما دعاهم إليه. كان جوابهم الرفض لما تضمنته رسالته، وتألوا أن ما جاءهم به إن هو إلا تصورات نشأت من الصلوات التي شاعدها ملازمها لها، وإلا فكيف ينهاهم عن عبادة ما استتر عليه أباؤهم! ثم إن الأموال التي تدخل في طريقة التصرف فيها بتحريم التطفيف وبحره، هي أموالهم التي حصلوا عليها بجهدهم، فلا يقل أن يتدخل أحد في تصرفاتهم، وهي الحرية الفوضوية التي ما سزال إلى اليوم حجة من فسدوا الإيمان، ثم ختموا تعجبهم بأن ما صدر منه لا ينسجم مع ما عرفوه من كمال عقله، ومن حسن تصرفه في الاستثمار.

لبيان المعنى العام:

84-86 وإلى سدين أخاهم عبد تليكم بحقيقة

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم كما أرسل نوحا وهودا وصالحا، مما يبين أن الله يفصله ورحمته، يساعد البشر على الهدى، فيرسل رسله من نضر الأقوام المرسل إليهم، يكونون قد خبروهم واطمأنوا قبل دعوتهم إلى صنفهم وكمال أخلاقهم.

ومدين قبيلة منسوبة إلى جدهم مدين، كانت موطنهم بين الحجاز وخليج العبيدة بالقرب ساحل البحر الأحمر، وما روي في نسبهم لا يطمأن إليه.

يعت الله إليهم شعبيا ليهدبهم بعد ضلال كبير في العقيدة واختلال في بنائهم الاجتماعي. فدعاهم:

أولا: إلى توحيد الله وإفراذه بالعبادة، وهي الدعوة التي انطلق منها كل رسول لتوجيه المرسل إليهم إلى الحق الذي تبنى عليه العقيدة والسلوك. وإن الانحراف عنه هو الضلال والصياع. يترتب عنه هساد في التصور، وفساد في العلاقات الاجتماعية، وفساد في ارتباط الإنسان بالكون الذي يعيش فيه.

ثانيا: إلى الصنق في المعاملة والابتعاد عن الحيل التي يستمكن بها أحد الطرفين من مخالطة الطرف الآخر والاستيلاء على حقه. فنهاهم عن تقسيم حق المتعامل معه

من الوزن، أو الكيل، بإيهامه أنه أعطى حقه كاملاً، والمحتال قد غالطه واستولى على ماله باطلاً. وشع على هذه الطريقة التي شاعت فيهم، بأنهم لا يجدون مبرراً ولو وهمياً لما يفعلونه، فهم يعيشون في سعة ووفر من التخيّرات، وليس بهم حاجة لمثل هذه التصرفات. وبنهبهم من ناحية أخرى إلى أنهم يعرضون أنفسهم إلى عذاب الله في يوم عظيم أخذه، إما في الدنيا وإما يوم القيامة يوم الحساب. هذا العذاب الذي يحبط بهم لا يجدون عنه مخرجاً.

أكد شعيب هدايته تلك، بأن تنبى مصرحاً بما يقبده انتهى. فأمرهم بإبقاء الكيل والميزان؛ أي إعطاء الطرف المقابل حقه كاملاً غير منقوص، ووضح ذلك بربطه بالعدل الذي لا يظلم فيه أي طرف الطرف الآخر. وهو معيار مفروض في الفطرة البشرية.

ثم نهاهم عن نوع آخر كان فاشاً فيهم، وهو أن بعض أصحاب المعرفة يظهرون ما ينقص من قيمة المعروفين. ليستولوا عليه بشئ ناقص عن قيمته، وهو استغلال التجالين للسلع باعتبار أن الخبير مترك للقيم والجودة، فيكون قصده مما يظهره من جوانب سلبية في السلعة، يرمي من وراءه أكل المال بالباطل.

ثم نهاهم نهياً عاماً عن كل مساك في الأرض، فقال: ولا تعثوا في الأرض مفسدين - ولا تعثوا أي: ولا تصدوا في الأرض فساداً مخرباً. ذلك أن عمط حقوق الناس، كالاختيال في الكيل والميزان، وكاختلاق العيوب المنقصة من قيمة السلع، هي ودعوا مما يعطل النمو ويزهد الناس في الإنتاج، وذلك بمساك في الأرض التي استخلفنا الله فيها للعمرها. والتعمير لا يكون إلا بالتنمية.

وواصل حذّهم على الاستقامة بأن ما يقيسه الله لهم من البركة في أروافهم، وما يقيسه فيمخره لهم من الثواب على التزامهم بالصدق في المعاملة، هو خير لهم مما يستعجلون الحصول عليه بالطرق المتلوية. وإنكم لتدركون ذلك إذا رجعت لما يقتضيه التأمل للعقل في الصلاح الاقتصادي، وما يدعو إليه الإيمان.

وختم مواعظته بأنه مبين لهم، ومبلغ لهم ما لوحى إليه، ويبقى كل واحد منهم مختاراً مسؤولاً عن اختياره، ولا أكره أي أحد.

87: قالوا يا شعيب أئستألفنا من التعليل الرشيد.

قابل قوم شعيب دعوته بالفرض، وذلك بفرض أن ما طلبت منا اعتقاده والتزامه، قد نتقش في عقلك بسبب ما نراك ملتزماً به من الصلوات. كأنهم يعيرون عليه مواظبته على الصلاة، ولا يرون إلا أنها كانت سبباً في تصورات هي حقيقة دعوته التي قامت:

أولاً: على ترك عبادة ما عبده أبائهم، يردون عليه بأن مخالفة الأبناء على ما كانوا يقيمون عليه، والذي نجحوا به في حياتهم غير مقبول.

وثانياً: على التحكم المرفوض في طريقة تصرفهم في أموالهم. ذلك أن تلك الأموال جمعوها بجدهم، فلا يقبل أن تتدخل فيها.

و ختموا باستغراب أن تصدر هذه التعاليم عنه، فإنه معروف برجاحة العقل وحسن التفكير فلا يقبل منه أن يطرح ما ثبت عليه أبائهم، وبأنه رشيد محسن للتصرف المالي، عارف بوجود تكميته، فكيف ينهاهم عن التطفيف وما عطف عليه. وبه تنمو ثروتهم؟

قَالَ يَنْفِقُونَ أَمْ يَخْشَوْنَ إِنْ كُنْتُ عَلَيَّ يَمْنَةً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ وَقَدْ خَشِئْنَا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَتَمُنُكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ يَنْفِقُوا لَا تَجْعَلُ لَكُمْ فِيهَا حَسَبًا أَنْ تُبْسِجُوا بِهَا أَصَابَ قَوْمٌ ثُورٌ أَوْ قَوْمٌ مِوْءٌ أَوْ قَوْمٌ مُلْجٍ وَمَا نَزَّلْنَا قَوْمَكَ عَلَى تَرْبٍ وَمَا اسْتَغْنَوْا رَبُّكَ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ لَهَيَّكُمْ سُبُلًا لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَحِمْتِكَ وَمَا أَدَّبُ عَلَيْكَ بَعْزُهُمْ قَالَ يَنْفِقُونَ أَفَعَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ اتَّخَذَ مِوْءَ زَوَاجٍ إِلَهًا بَدَلًا نَقَىٰ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِطَ رَبِّي يَنْفِقُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ كَتَابِنَا إِلَىٰ غَيْبٍ مُّوَدَّ نَعْلَمُ مَرَّ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْتَلِفٌ يَوْمَئِذٍ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْزَقُوا إِلَىٰ نَجْعِكَ رَبِّيَ ثُمَّ جَاءَ أَمْرُنَا فَجَمَعْنَا شُعَمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمْنَا بَيْنَا وَالْأُولَىٰ نَلْعَمُوا أَلَمْ نَكُنْ فَاظْهِرُوا فِي دِينِهِمْ خَبِيرَاتٍ رَبِّي كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ يَٰ آلَ آدَمَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمْ بَعْدَ

نُفُوءٍ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ .

التوفيق : خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

توكلت : توفيت بحسن ربي.

رهط الرجل : القرابة الأشد قرباً منه.

رحمتك : قتلناك بالرمي بالحجارة.

ما أنت خليفته يعزى: لا يعجزنا قتلك وذلك حين.

ظهوريا: وراء الظهر أي سنسيا.

محبة: لا يخفى عنه علم أي عمل من أعمالهم.

بيان المعنى الإجمالي:

واصل القرآن تسجيل ما دار بين شعب وقومه فقال لهم: يا قوم ما ذا تطلبون أن يقع بي من سوء إذا أنا لم أذل كل جهدي لإبلاغكم ما أوحى إلي، سمع أني أستمكن من هدي الله ورزقني النبوة خير ما يرزق، ولا أقصد من تذكيركم أن أظهر بمظهر المخالف لكم، بل ما أريد إلا الإصلاح على قدر طاقتي. وإذا وفقت فيفضل الله علي، ولأنني معتمد عليه، وأعود إلى فضله ليؤثني. وثني بأن نهبهم عن أن يحملهم مضادة للحق الذي جاء به على العناد فيصيبهم من العذاب ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وقوم لوط قريبون منكم زمنا ومكانا، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم. وتقرؤا إلى ربكم بطلب المغفرة لما سلف منكم والسموا على ما فرط منكم، فإن الله رحيم بعباده إذا ما توجهوا إليه، ويحصلون على حبه رشم ما فعلوه قبل توبتهم من المصيان.

كان جوابهم: إنك لم تفلح في توضيح مرادك، وقومك فتبين لنا أنك ضعيف لا تقدر على مقاومتنا، ولولا مكانتك عند قاربك الأكرين لرجمناك بالحجارة، وما أنت بالرجل العزيز علينا.

أجابهم شعب منكرا عليهم أن يفتنوا في رعايته أقربه، ويؤمنون أنه سيعوث من عند الله الذي هو حاميهم، والله لا يغيث عنه أي عمل من أعمالكم.

وهذه هي النهاية بعد أن بسس منهم، فقال لهم: استمروا على فسادكم، وإنني مستمر على صلاحي، سوف تتبين لكم العاقبة، من يهلك بالعذاب المنزل، ومن هو كاذب، وانتظروا حلول ما وعدتكم به فاني منتظر معكم.

ولما قرب الموعد أنجس الله شعبيا والذين آمنوا معه وشملتهم رحمته، وأخذ الله شعب مدین بصيحة قوية تجاوزت طاقة الإيمان فأصبحوا في ديارهم جائعين على وجعهم لا حراك لهم، كأنهم لم يعمروا تلك الأماكن فلم يبق لهم أثر. أبعد الله مدین كما أبعد نودا تلحقهم الفلة والمهابة، وكلاهما ملك بالصيحة.

بيان المعنى العام:

88- 90، قال يا قوم -رحيم ودود-

واصل القرآن تسجيل الحوار الذي دار بين شعب وقومه:

قال شعيب: ما هو ظنكم إن كنت موثقاً بأنني متمكن من الحق للبين الذي تلقفته عن ربي، ولكرمي بأن رزقي النبوة، وهي الرزق الحسن، وأسرعتم إلي تكذيبني ما ذا تكون عقبتكم ؟ ليس من الحزم أن تصدقوني خاصة وأن مضمون رسالتي إن تأملت فيه لا تجدونه إلا محصلاً لخبركم.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإني لا أريد أن أتهاكم عما بهيئكم عنه، ثم أعمل بخلاف ذلك في حياتي. فأنا ملتزم بتطبيقه، سائر على ذلكم النهج. كما أنني لا أقصد أن أظهر مخالفتي لكم، وما فرضتموه من أنني أقصد إلى الخروج عن معتادكم وإظهار أنني مخالف لكم، هو فرض خاطئ، فإني ما أريد إلا أن أصلح روابطكم الاجتماعية وتصوركم للكون وللخالق. وأعمل ليلوع ذلك بأذنا كل ما أمك في حدود طاقتي.

ثم إن تحقق ما أسمى إليه، وخروجكم من الضلال إلى الهدى، وتقوية روابطكم الاجتماعية، لا يتم إلا بعمل من الله، فإنه سبحانه الموفق للخير بتيسير الأسباب ورفع المعوقات. إلي معتمد عليه في حمل دعوتي لتحقيق الآثار الطيبة، وإني أعود إلى ربي فهو المرجع الذي استقي منه الهداية وييسر لي العون.

و يا قوم لا يحزنكم. هذه عبارة تكررت في القرآن تفيد النهي عن التشكك والعزم على العصيان مما يجعل للشخص يقرر القيام بعمل يستجيب لمواظفه مع أنه يعلم في باطنه أنه غير صالح. لا تحملنكم مخالفتي، واختياركم طريقاً هو لي شق وأنا في شق بقلبه، من أن يفضى بكم ذلك إلى أن يسلط الله عليكم كلالاً مثل ما أصاب قوم نوح، أو ما أصاب قوم هود. أو قوم صالح. وكانت عاقبة هذه الأكوام معروفة عندكم. ثم إن قوم لوط لم يمتض عليهم أمد بعيد فعمل النسيان في ستر ما أصابهم، بل عهدكم بهم قريب، وكذلك منذلهم قريبة من منذل لكم.

وبعد أن افتح بصائرهم ليبتوا إصابتهم بمثل أصاب المعرضين عن هدايات الرسل الصالحين، أرشدهم لما يرقق القلب، ويجلب رضوان الرب، إلى طلب المفسرة من الله بستر ما اقترفوه من ذنوب وما ارتكبوه من آثام، وأن يعانوا بالإلاعهم عن سيرتهم السابقة، ويظهروا الندم على ما فرط منهم، فيجدوا صلواتهم بالله وتوقفي أشواقهم إلى القرب منه. ومما يفتح آمالهم في القبول أن الله رحوم بعباده، يحب لهم الخير وسلوك طريق الرشده.

91 قالوا يا شعيب ما نطقه سهيز.

قابل قوم شعيب بإصاحه عن تقريره لهم وإفائه للخير لهم وتذكيرهم أجمل تذكير وأطفه، قابلوا ذلك بقولهم:

إننا لم نفهم كثيرا من كلامك. فلم تفصح في الإجابة عن مرادك. ودعوتك غير واضحة. ومن ناحية أخرى فتقويعنا لك كشف لنا عن ضعفك، فأنت لا تقوى بحجة ملزمة، ولا بقوة جسمية تمليك من بطشنا. وشيء واحد راعيناه فلم نجعل برجمك بالحجارة، هو مكانتك من أقرابك الأقربين الذين نوفرهم، ولا نريد أن نغيظهم برجمك. وفي اختيار العقوبة بالرجم، ما يفيد شدة نفمتهم على شعيب لأن الرجم عقوبة فيها تحقير وإذلال. وصرخوا بهذا المعنى لما قالوا له: مفاذك هين ولا عزة لك، ونعلم أنك لا تجد من ينصرك منا.

92- 93. قال يا قوم أرهقني سمعكم رقيب .

أجابهم شعيب عن وقاحتهم، وتهديدهم، وسوء تقديرهم لمقام الأنويسة، بقوله: يا قوم! إن لمركم لعجيب، تذكرون أنكم قصرتن في إذائتي تقديرا منكم لو هطلى وقرابني الأقربين، وأغلظت لكم وضلائكم لي معتر يتفيد الله لي. أبلغت بكم الغفلة من بسيم قدره الله، وجعلتم الله وراء ظهركم نسيا منسيا، لا ترقبونه ولا تتذكرون في حضوره سعمكم في كل لحظة وأوان. واعلموا أن علم الله قد أحاط بكم فلا تعملون عملا إلا والله شهيد عليكم، مطاع على ما يصدر منكم وعن نياتكم الباطنة ولا بلغت شيء من علمه سبحانه.

ثم كرر لنداهم ليوقظهم مهددا لهم مظهرا باسمه من هدامهم فقال: يا قوم اعملوا على الحالات التي تعملون عليها، واضربوا على السيرة التي تباشرون بها الحباة العملية والعقدية، وفي المقابل إني ماض على طريقتي التي دعوتكم إليها فأبينم، سوف تعلمون علم اليقين الواقع، من تكون عاقبتهم العذاب المذل، ومن يفضح بأنه كاذب. وانتظروا حلول ما ألتزكم فأني معكم من المنتظرين. فهو مطر لهم أن للعذاب قريب منهم.

94- 95. ولما جاء أمرنا..جعتنا نمود.

بعد أن يش شعيب من امتداء قومه أعلن لهم مفارقتهم، وأن عليهم أن ينتظروا تحقق ما أوعدهم به. ولما قرب الموعد ظهر في الواقع مصداق قوله الحق "ولتقربوا إلي معكم رقيب" فأتجى الله شعيبا والذين آمنوا معه بسبب ما قدر لهم من الدخول في رحمته، واستولت على الذين ظلموا بشرهم وعنادهم صيحة لفظوا بها جثا مامدة، فما قدم الصباح إلا وهم منكبون على وجوههم لا حراك لهم. أمضى تاريخهم في لحظة كالهم لم يعمروا تلك الأرض ولم يقيموا فيها. ذهبوا يلحفهم الخزي وتتبعهم المهانة فهلكوا كهلك نمود. وتثناه العذابان إذ كان كل منهما هلك بالصيحة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَنَارِيذِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ
فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٦﴾ يَقْدَمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ
أَلْوَدَّ الْمَوْتُونَ ﴿٩٧﴾ أَلَيْسَ الْإِنْعَامُ لِعَنَتِهِمْ يَوْمَ ذِئْبِ الْعُتَمَةِ وَمِنَ الْإِنْعَامِ الْمَرْكُوبُ ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان : البرهان.

رشيد : الرأي الرشيد هو المعبر عن الصواب.

الورد : أصله الماء الذي يقصد إلى الارتواء منه.

يقتد : يتقدم.

الرفد : ما يرفد به، أي يعطى.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا موسى مؤيداً بالمعجزات الظاهرة وبالحج الواضحة للبالغه، إلى
فرعون وأكابر القوم الذين كانوا يفتنون الدهماء إلى حيث يريدون. فجسروا على
عاندتهم، وما هي إلا إتياع ما يأمرهم به فرعون، وما كان فرعون ذا رأي مسديد
ولا فكر رشيد. يتبين تلك من العقاب التي يصيرون إليها، فقد أختلهم النار، وبئس
المصير. وحلت عليهم اللعنة والعذاب والهوان في الدنيا، وتتابع ذلك يوم القيامة
وبئس ما غلبوا من إتياعه وملحفهم.

بيان المعنى العام :

96- 99 ، ولقد أرسلنا موسى بالرفد المرفوق

أُتبع القرآن قصة شعيب وقومه بقصة موسى فتح مع فرعون وقد أظلهما زمن
واحد. إذ تزوج موسى بنت شعيب،

ذكر من قصة موسى أن الله بعثه مؤيداً ببراهين قوية وواضحة لا تقبل الرد، أرسله إلى
فرعون وأصحاب الجاه الذين كانوا يدبرون أمر الدولة مع فرعون. وبقية أفراد الشعب كانوا
يأثمرون بما يأمرونهم به، ولا يخرجون عن طاعتهم. ولذلك نصبت الآية على فرعون وملئه.
أسرع فرعون بتكذيب موسى واتبعه من كان حوله فقاموا رأي فرعون على رسالة موسى.
وكان فرعون سفیه الرأي بعيداً عن الرشيد في التفكير.

ويحشرون معه يتقمعهم ويفتقون أثره. فكان قائلهم إلى النار. وما أمواها من قيادة
رمت بهم في الجحيم. وتبعتهم اللعنة في الدنيا فأغرقوا مهانين، وتتبعهم اللعنة يوم
القيامة. وما أسوأ من مصير. وأصل معنى الرفد ما يعطى بقصد الإعانة من

مال (رفد) المرفود المتبوع. فهم قد لعنوا في الدنيا، وأضيفت إلى لعنة الدنيا لعنة الآخرة.

ذَلِكَ مِنَ النِّجْمِ الْقَرِيِّ فَهُمْ عَنْكَ بِهَا قَابَهُ وَحَصِيَّةٌ ۖ وَمَا تَلَفْتُهُمْ
وَلَكُمْ لَلْمَوْتِ أَنْفُسُهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْكُمْ آلَاؤُكُمْ أَنْ تَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ مَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَضَرُّعًا ۖ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ
الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۖ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ يَمْشِي عَلَى الْمُنَادِي ۖ وَإِلَٰهُكَ لِتِلْكَ الْأُمَّةِ عَدَاوَةٌ
الْآخِرَةِ ۚ لَكَ يَوْمَ تَحْمِلُونَ أُلُوَّ النَّاسِ ۚ لَكَ يَوْمَ تَحْمِلُونَ أُلُوَّ النَّاسِ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا لَاحِقٌ
مَعْدُودٍ ۚ يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ لَا تَعْلَمُ لَهُ نَفْسٌ إِلَّا بِوَلَدِكُمْ ۚ لَكُمْ فِيهَا نَكَبَاتٌ ۚ فَأَمَّا
الَّذِينَ شَقُّوا نَفْسَ الْأَرْضِ لَمْ يَرْكَبُوهَا زَكَّ ۖ وَهُمْ فِيهَا كَالْفِئَةِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ
سَجَدُوا فَهُمْ فِيهَا نَجْتٌ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ سَجَدُوا فَهُمْ فِيهَا نَجْتٌ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ
عُطُوا ۖ غَيْرَ يَدْعُونَ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرَّةٍ وَمَا نَعْبُدُ هَؤُلَاءَ مَا نَعْبُدُ آبَاءَنَا ۖ
نَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ ۚ فَصَبِّحْهَا غَيْرَ مَقْنُونٍ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

الانباء : الأخبار.

فهم : باق آثارها.

حصيد : ذهب آثارها.

نصيب : خسرانها.

الشيء : من أحاط به سوء.

المعبد : من جمع الأحوال الصنة.

مجدود : مقطوع.

موية : شك.

الوافية : إكمال الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القصص التي تتابعت في هذه السورة ما كان لك أن تعلم تفاصيلها لولا ما
مكتك منه من الوحي. لقد نفذ فيهم الوعيد فبعض القرى دُمرت ولم يبق لها أثر،

وبعضها ما يزال شيء من آثارها ثابتا، إن ما حل بهم لا ظلم فيه. ولكن للكافرين الهالكين هم الذين ظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر وتعليق أمالهم بالأصنام، فما استطاعت آلهتهم التي عبدوها أن تصرف عنهم العذاب عندما قدر الله إزالته بهم. وبذلك تكون تلك الآلهة ما زلتهم إلا خسرا على خسرا.

وعلى ذلكم الدحو بهلك ربك الأمم الظالمة المكتوبة وينفذ عقابه بصحبته الأمم الشديدة الذي يحيط بالظالمين فلا يستطيعون أن ينفلتوا منه.

إن في تلكم القصص الصائفة ما يعوم دليلا على تحقيق العذاب للظالمين يوم القيامة الأمر الذي يحمل الصالحين على الحذر منه. إن يوم القيامة سيجمع الله فيه جميع الناس، وهو يوم يحضره كل إنسان. إن ماخير ذلك اليوم هو بقدر الله الذي رتب منذ الأزل الموعد الذي ستحضر فيه الخلائق فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر لحظة.

إن الناس على قسمين يوم القيامة: قسم شقي، وقسم سعيد.

فلما الأشقياء فتأخذهم نار جهنم لا تخرج أنفسهم سن صلورهم إلا بجهنم (زهر) لا يستشفون نفسا جديدا (إلا مع عذاب (شقيق) وقد كتب الله للأشقياء الخلود في العذاب خلودا أبديا. وهذا الخلود لا يستعصي على القدرة الإلهية إنهائه إذا ما نزلت إرادته. إن إرادته لا يعوقها شيء.

وأما السعداء فهم خالدون فيعيم الجنة خلودا أبديا إلا ما شاء الله على معنى أن مشيئة الله لا يعوقها شيء. إنه عطاء لا ينقطع.

وخاطب القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، إن لا يشكوا في مال مشركي مكة فإنه سيلحقهم ما لحق المكذبين السابقين، إذ لم تتبن عبادتهم على حق وإنما هم مقلدون لضلال آبائهم، وسيلالون جزاء ما عاكسوا الإسلام وأثوا المسلمين وقتوهم للجزاء العادل.

بيان المعنى العام .

100 - 102، ذلكم من الأنباء الغيبية إلى أخذهم شديد.

يمثل هذا المقطع نظرة عامة على العبرة التي يستفيد منها القارئ المتأمل في القصص السابق من نوح إلى موسى.

لولا: اعتبر بما قصصناه عليك من أحوال الزمحل مع أممهم، وما انتهى إليه أمر تلك الأمم لما نفذ فيهم الوعيد فهلکوا، وإن كانت بعض من مساكنهم قد درس ولم يبق له أثر، وبعضها ما تزال آثارها قائمة، وما كان لك لتعلم تفاصيل ما جرى في تلك الأزمنة الغائرة مما هو غيب لولا الوحي الذي خصصتك به.

إن هذه الصورة من الفناء والخراب كانت جزاء وفاقا لما قبلوا به رسل الله، ولا يحتر سقمهم ظلما، فإن الله لا يظلم أحدا من خلقه. ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ضاكرًا بها المسالك المهلكة، وانصرفوا عن الطريق المنجي. لقد تعلقوا بالأصنام فعبدوها وتخلوا عنها، فما تصرفهم عند التبدل، فما وجدوا لها من غناء ولا دفع لما حل تنفيذ ما قدره الله لهم من العذاب جزاء كفرهم وتكذيبهم وإصرارهم على العناد. فآلهم عاجزون عن الدفع عنهم، ما استعانوا من عبادتهم إلا الخسران المبين. من سفاهة عقولهم تصورهم أن الأصنام لهم مكانة تشفع لهم عند الله عما اقترفوه. وتصوروا أنها تحميهم من كل مكروه. فكان اعتقادهم ذلك صارفا لهم عن التأمل في الآيات التي لفت أنظارهم إليها رسل الله، فما زالتهم الهتهم إلا خسرانا مبينا.

إنه على هذا النحو من الاستئصال والقضاء المبهر، يهلك ربك القرى الظالمة أهلها فلا يغفل أحد منهم من عذاب الله عند حلوله. إن نفاذ عقابه اليوم يحسن به الظالمون عميق الإحسان، وإنه لشديد مدبر.

وفي ذلك تهديد لأهل مكة الممعلن في كفرهم المنصرفين عن هدي سيدنا محمد ﷺ إنه سيجزي عليهم ما جرى على المكذبين من الأمم السابقة.

103 108. إن في ذلك لآية... غير مجازة.

إن ما ورد في القصص السابقة من تنفيذ الله عيده، يقوم دليلا على أن يوم القيامة أت الأريب فيه. لقد أذرت الرسل عليهم السلام أقوامهم ما سيحل بهم من عذاب في الدنيا، وقد تحقق، فذلك سيتحقق ما أوعدوهم به من بعث للحساب والجزاء. كما يقوم ذلك دليلا إضافيا للمؤمنين الذين يخافون عذاب الآخرة فيحفظهم لفعل الخير والاستعداد له بما يرضى الله.

إن يوم القيامة يوم سيجمع الله له للبشر جميعا قلا يتخلف أحد عن الوقوف به. وسيشهد كل فرد شهود الشيء المهور المحقق الذي لا مرية فيه.

أنكر الكافرون هذا اليوم، وعلوا أنفسهم بأنه لو كان حقا لم يتأخر. فحقت الآية أن هذا اليوم قد حدد الله وقت حلوله في أجل لا يتقدم ولا يتأخر. فالعالم كله مبني على نظام دقيق قدره رب العزة من الأزل، فقدر زمان إيجاده كما قدر وقت نهايته والوقت الذي يبعث فيه البشر. وريطه بحساب مضبوط، فلا يلقي إلا عند بلوغ الحساب تمامه.

اعتنى القرآن بتفصيل هول يوم القيامة، حين أن الناس على قسمين متباينين: ضم شفي الشقاء الذي ليس بعده سعادة، وقسم سعيد سعادة لا تتحول إلى شقاء. هو يوم

يبلغ من هولاء أنه يعقد على الأمانة فلا يستطيع أحد أن ينكلم إلا بعد الإذن له من مالك ذلك اليوم رب العالمين. ثم أخذ القرآن في تفصيل بعض ما يلقاه كل فريق:

لما الأتقياء فإن مستقرهم النار، التي يتقلبون فيها بين زفير، يتم الضغط على صدورهم ويتحسب أنفاسهم فلا تخرج إلا بفرقة دافعة بقوة؛ فهم في شدة عندما يخرجون أنفاسهم، وفي المقابل فهم لا يستطيعون أن يأخذوا الهواء لمصدرهم إلا بعسر يتمثل في شيقهم. وإن ذلك يمثل نوعاً من أكلد المعذبين في جهنم. إن جري النفس بلطف في الحياة نعمة قد يفعل عنها كثير من الناس، وعسر التنفس إدخالاً وإخراجاً بلهي للمصائب عن كل شيء ويفقد معه أساس الراحة. ويصاحبهم هذا العذاب وهم في النار، ويتواصل تواصل لا انقطاع له. فليس المقصود أنه عندما تنتهي السموات والأرض سيخفف عنهم ما بلغوه، كلابل هو تصميم لاستمرار العذاب إلى أبد الأبد. وقد استثنى القرآن من لزمة خلود الأتقياء في النار الزمان الذي يشاء الله أن ينقطع فيه العذاب عنهم. ومعنى ذلك والله أعلم: أن العذاب المسلط عليهم سيتواصل بإرادة الله وأنه لا يجب على الله شيء، فلو تعلق مشيئته بتفريق كربتهم لفعل، وإن كان سبحانه قد أخبر أنهم خالدون بإرادته لا يخرجون من النار.

وأما الذين سعدوا برحمتي ربهم فمصدرهم إلى الجنة ينعمون فيها بأنواع الكرامة التي كتبتها الله لعباده الصالحين فيها. لا يخرجون منها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء الله، بفهم التعبير كما فهم التعبير السابق، وفي القرآن احتمال تصور انقطاع الكرامة، بقوله: عطاء غير مجدود أي غير منقطع.

109: فلا تفسد في مريم مما يعبد، غير منقوص.

ثم توجه القرآن إلى كل نال للتفصيص السابقة أن يتأمل فيها ويستمتع بها، وأن يكون على يقين من أن مشركي مكة سيلفون ما لقيه المشركون في أحقاب التاريخ، وأن لا يدخله الشك في ذلك. إنهم عبثوا ما ليس حقيقاً بالعبادة، وما بنوا صلته بمعبوداتهم على أساس من النظر والتفكير، ولكنهم هم مقلدون لإبائهم الضالون.

والعدالة الإلهية تسري عليهم، فهم قد وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بناء على الاتباع التقليدي الخبي، وأذا المؤمنين، فسيؤفون جزاء ما عملوا جزاء هو كفاء ما قدموا من ظلم وغش للحق.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَأَرْسَلْنَا مِنْهُمْ مُوسَى ۖ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لُوتِقْتُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ۖ فَاسْتَفْتِهِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ تَابَتْ لَهُمْ أَسْوَاقُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَزْوَاجًا ۚ إِنَّهُمْ عَمِلُوا أَعْمَالًا
بُشْرًا ۖ وَلَا تَزْكُمُوا إِلَى اللَّهِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكُمْ فِي السَّائِرِ ۚ إِنَّكُمْ مِنْ أُولَئِكَ لَمُنْزَلُونَ ۚ
لَا تُصْرَبُونَ ۚ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَوَّلِ إِنْ خَشِيتُمْ يَدَهُنَّ
الْشَّيَاطَانَ إِنَّكَ تَكُنْ مِنَ الْمَذْمُومِينَ ۚ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

كَلِمَةٌ : ما حكم به في الأزل من ترك الاجتهاد للبشر .

لُفِضَ بَيْنَهُمْ : لأزال الخلاف .

لَا تَطْفَرُوا : لا تجلوزوا الحدود .

الْكُوفُ إِلَى الشَّيْءِ : الرضا به .

طَرَفَا النَّهَارِ : أوله وآخره .

الزُّلْفَى : جمع زلفة ، وهي الساعة القريبة من آخرها .

بيان المعنى الإجمالي :

أنزل الله (الكتاب) التوراة على موسى عليه السلام . ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يحتفظوا
بسلامة نصه ، فاختلّفوا في نصه كما اختلفوا في مضامينه . ولولا أن الله قضى في
الأزل أن يكون المرسل إليهم مكلفين بالاجتهاد مجزيين عليه ، لولا ذلك لرفع الله
الخلاف بينهم بإظهار التصور الصحيح والتصحيح على التصورات الخاطئة .
واليهود مغرّقون في الشك مما اختلف معه دينهم إلى شك وريبة .
اثبت يا محمد مواصلاً الاستقامة على المنهج الذي أمرت به . وليكن المؤمنون الذين
اتبعوك وتابوا من الكفر ملازمين للاستقامة . وإياكم والخروج عن الحدود التي
حددها الله .

ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالكفر والعصيان ، فالميل إليهم داعية للتأثر بهم
وإصابتكم بعباب النار . وإنكم لا تجدون من يقبلكم إذا التجأتم إليه غير الله ، كما لا
تجدون نصيراً ينصركم سواه .

ولذا صلاتك على أكمل الوجوه في أول النهار (صلاة الصبح) وفي آخر النهار
(صلاة العصر والمغرب) وأولاً مقاربة من الليل (صلاة العشاء) وأبشر فإن فعل

للمصالحات يتبعها ثوابها من ناحية، وتحمو الصغار من الخنوب، إن في ذلك ما يؤكد للتفكر واليقظة لمن شأنه أن يتكرر، ولا يمر مرور الغافلين، وعليك أن تتقوى بالصبر عما نهى الله عنه، والمداومة على فعل الخيرات، إن الصابرين محسنون، والله قد ثبت أجرهم فلا يضيع شيئاً من صلح سلوكهم.

بيان المعنى العام :

110- 111. ولقد آتينا موسى الكتاب سيجملون خبيث

لقد أتى القصص التي تتلخص في هذه السورة بتكليف النبي ﷺ بعرض مقابلة الشراك لهدايات الله، وعطف على ذلك في هذه الآية، أن الله بعث سيدنا موسى ﷺ مؤيداً بكتاب هو التوراة التي نوه بها القرآن، بأن فيها هدى ونورا، ومع ذلك فقد اختلف قومه فيها اختلافاً بينا بالزيادة والنقص والتحريف وسوء التأويل. فلا يحزنك يا محمد موقف المشركين من القرآن.

إن إظهار الحق إظهاراً ملجئاً ليس من سنن الله التي أجرى عليها التكليف. ولكنه سبحانه ترك الناس لاجتهادهم، ينظرون ويعسفون التأمل فيهدنون، فيجزون جزاء مضاعفاً على اجتهادهم للموفق. ويجتهدون فيخطئهم الصواب في غير المفيدة ويؤجرون لاجتهادهم. ويفضون بالتأويل المبني على التحريف والاستجابة لسدواعي الهوى فيلتمس، وقد تنصارع الأفكار. ولم يكن من مصلته سبحانه أن يحسم الأمر حسماً يرفع النزاع. هذا هو قدره. ولو شاء أن يلجئهم إلى الرأي الحق لفعل، ولكنه لم يرد ذلك فلا يتحقق.

ولو حسم الله الأمر حسماً يرفع كل اجتهاد وتأويل لفضى بينهم باستئصال من لم يكن على حق، ولكنه أراد أن يبقى سنة الاجتهاد في الاتصال بالنص، حتى يفي على جدته وقوته.

ثم عرفت الآية بوجه من الاختلاف حمى الله منه القرآن، وهو الاختلاف في نص الكتاب. فاليهود لم يسلم لهم نص التوراة فبلغ الاختلاف بينهم في ضبط النص، وأدى ذلك إلى تأصل الشك فيه شكا دخل في عقبتهم الرب والشك.

إن ذلك الاختلاف ودوافعه المتباينة بين قصد الخير وقصد الإضلال، وما ينبغي على ذلك من سلوك، كل ذلك ميثال به كل فرد جزاء عمله. والله هو المتصف بالعدل الكامل يجزي كل فرد حسب ظاهر عمله وباطنه، لأنه الخبير الدقيق علمه بكل ما يصدر من الإنسان.

112. فاستقم كما أمرت... وما تعملون بصير.

توالى عرض أحوال الأمم السابقة، وانتهى البيان إلى اختلاف اليهود في كتابهم بين الانحراف الكامل وبين الوفاء لنصه وروحه، فناسب أن يتوجه القرآن لرسول الله ﷺ ليواصل ثباته على المنهج المستقيم الذي لزمه في حياته وفي شجاعته في القيام بالدعوة إلى الإسلام، رغم ما كان يلقاه من الأذى والعداوة من أهل مكة. والآية مكية كالسورة. والاستقامة تقتضي أن يكون مطبقاً تطبيقاً كاملاً لما جاءه من ربه في العبادة والمعاملات والعلاقات البشرية، ومجموعاً يعمل الكمال للالتجاء عن الرقطة لاتصال الفرد بربه، والإرادة الحازمة لتطبيق ذلك، مهما اختلفت الظروف والأوضاع. والشيء الذي هو في المستوى الأعلى والأكمل في الالتزام، بل إنه يحد ذاته في ملاعة ربه على ذلك المستوى. وأمر المؤمنين بأن يسيروا على نهجه، وعبر عنهم بمن ناب باعتباره أنهم في الظرف الذي نزلت فيه الآية كانوا سالكين من الشوك عائدتين إلى المطر، دين الإسلام. وتأكيداً للاستقامة نهى عن الطغوان المغفل بالاستقامة، إذ هو مجاوزة الحدود التي حددها الله، وعدم مراعاة أوامره ونواهيه.

113. ولا تركنوا...كم لا تفسرون

إله إذ تبين لكم طريق الإسلام بصفة واضحة لا لبس فيها، وأمرتم بالثبات عليه وعدم الخروج عن الحدود التي حددها، فاعلموا أنه يتكون من ذلك منهج في العقيدة والتعامل والسلوك يختلف عن منهج العوم الفالسين بشركهم أو بفسادهم. فلا تميلوا إليهم، ولا تظهروا الرضا بسلوكهم، ولا بطريقتهم في الحياة. إنهم منحرفون عن الاستقامة، فالمقرب منهم يصدد اتباعهم والتأثر بهم، وبالتالي الخروج عن الاستقامة، يحذركم من الركون إليهم لئلا يصيبكم عذاب النار. وفوق ذلك لا تجدون من له مكانة يصلح بها أن يكون لكم سنداً، كما لا تجدون من ينصركم فيحول بينكم وبين عذاب النار لو يستطيع إخراجكم منها.

وهذه الآية من جوامع الكلم التي تضمني، للمالكين طريق النجاح والخلص، بهوالة تعالى. **فليست...و لا تفتنوا** يتميز طريق الهدى بمعامله لا ميل ولا تجاوز، وبهولة **ولا تركنوا** استقلال المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات بالاعتزاز بالانتماء إليه وعدم الاهتمام ولا الرضوخ للمغريات التي ربما تكون عليها ظواهر المجتمعات الأخرى المنصرفة عن الله.

114. 115. راقم الصلاة...أجر المحسنين

إن الاستقامة على الطريق الذي شرعه الله فعلاً للأمورات واجتناباً للمعصيات، وارتباط القلب بالله في كل الأوقات، يحتاج إلى ترويض النفس على الخير حتى تحبه وتقبل عليه عن داعية، وعلى الاستمزاز من الشر لتجنبه وتبفضه.

بيان معاني الألفاظ :

بنية الناس : أهل الفضل.

الفساد : المعاصي.

تراءوا : توسعوا في الإقبال على الشهوات.

لمة واحدة : متفقون على اتباع الهدى.

نفت : نرفع الاضطراب.

تلواذ : الإرتداد.

بيان المعنى الإجمالي :

صياغة فيها تحذير للحاضرين وأمر على ما انتهى إليه أمر الماضين، فهلا كان في الأمم السابقة بنية من أهل الفضل والحلم يقومون بالذهي عن العصيان والفساد في الأرض ولكن قليلا قلما بهذا الواجب فكتب الله لهم الاجابة ولم يستقد منهم المتبعون لشهواتهم الذين تعلقوا بالتزلف والتوسيع بلا حد في المتعة فكأنوا بذلك محرومين لعدم شكرهم وعدم مزاعاتهم لحنود ربهم.

أهلكهم الله وما ظلمهم. ولكن جريا على ما كتبه على نفسه: أن لا ينقم من أهل الفرى الصالحين، فانه لا يظلم أحدا، وإنما يجزي المجرمين بما فعلوه من فساد. واعلم أن الله قادر على جعل الخلق على نمط واحد متحضيا للطاعة، ولكنه خلقهم خلقا مختلفا ينساق كل فرد إلى الدواعي الخاصة به، وعلى هذا هم سالرون. لكن الذين شملتهم الرحمة لا يختلفون في الحق، ويلتزمون به في تكفيرهم وفي سلوكهم. وبذلك تحقق ما قدره الله في الأزل وكتبه في السوح المحفوظ : أنه سيملا جهنم من الجن ومن البشر المنحرفين الكافرين.

لن ما قصه الله على رسوله في هذه السورة من أخبار الرمل، شأنه كشأن ما قصه من قبل : أنه حق لا زيد فيه ولا نقص، أنه يثبت قلبه ويزيده قوة على الصبر والمواصلة والاجتهاد، وأن فيها عبرة وموعظة للمؤمنين.

وبعد أن وإلى القرآن الحجج والوقائع التي حدثت في الكون المؤيدة للدعوة، وبعد ذلك جاء الأمر، قل للذين أنصرفوا عن الإيمان وثبتوا على الكفر مهتدا: واصلوا عملكم الضال فإنا ملتزمون بالثبات على صالح عملا، ثم انتظروا العقاب الذي سيحل بكم، فإنا منتظرون فضل الله علينا، وتسلط عذابه عليكم.

والله وحده هو العالم بما غاب عن البشر مما لم يقم عليه دليلا ولا أمانة، لا من العقل ولا من المادة، وإن تحقيق جميع الأمور على الوجه الذي سبق في علمه

الشامل، هو راجع إليه لا يشاركه في ذلك أحد، فهو وحده الحقيق بأن تتوجه إليه بالعبادة وتستند إليه ليعينك على قضاء أمرك. والله عليم بحقيقة ما تعملونه وبنيتكم التي بها تكتسب الأعمال قيمتها الحق.

المعنى العام :

116 - 117، فتولا سكان من القرون... وأهلها مصلحون.

لولا حرف للتخصيص أي لحدث المخاطب على الفعل، ولما كان مضمون الآية متعلقا بالأمم السابقة وقد ذهبت، ولا معنى لحدثها، كان المفسود تحذير من يأتي بعدما، فتأخذه هذه الآية صرفت المفسود منها إلى التحذير من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم المماثلة التي لم تقم بواجب إنكار المنكر.

فهذا كان في الأمم التي خلت قبلكم جماعة من أهل العلم بالشرعية والحرص على سيادة الخير ممن يعتبرون البقية من أهل الفضل والكمل من الناس، يقومون بنهي المقتحمين للمعاصي، ويحذرونهم من الاستهتار بعمل السوء، حتى تصلح أحوال الأمة ويعمرون الأرض، فيقلب الخير على الشر.

وقوله تعالى: **إلا قليلا ممن آتينا سنهم**، هذا الاستثناء هو استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن قليلا من أهل القرون الماضية من الذين أجهلهم الله من النار كانوا يقومون بواجب النهي عن المنكر، ويؤثرون في أقوامهم، فلا يعم الفساد الأرض بما يتبعه من الاستئصال للعالم.

ولكن تأثيرهم لا يشمل للجميع فينبغي الذين تعلقوا بالتوسيع في حفظ الوصايا والشعائر، وهم المترفون، الذين اتبعوا ما تزينه لهم نفوسهم بدون حذر، فكأنوا بسبب هذا التعلق من المعرجين، لا يشكرون الله على نعمه، ولا يقفون عند حدوده، فحق عليهم الهلاك.

و بذلك يتحقق ما ساء الله وكتبه على نفسه: أنه لا يسلط عذابه على أهل القري إذا كانوا على صلاح واستقامة، فما يسلطه من عذاب لا يأتهم بالظلم، وإنما هو جزاء عن عصيانهم وارتكابهم لما نهوا عنه، وما ريك بظلم العبيد.

118، ولوشاء ربك سو الناس أجمعين.

إن وضع بني الإنسان من الاختلاف بينهم وضع قدره الله في طبيعة البشر لم يخلفهم نمطا واحدا يسيرون على نهج واحد لا يتبدل ولا يتحول، خلقهم وكل واحد منهم متميز عن غيره في مواهبه وفي عواطفه، وفي اختياراته، وفي الظروف المتحولة التي تحيط به وتؤثر فيه، منهم من يؤثر الخير والصلاح والاستقامة.

ومنهم من يؤثر الامتناع لدواعي الشهوة والاسمئثار والتسلط والفسور. منهم من يتعلق بالله ويعمل، تبعاً لذلك، ما يرضيه، ويرجو الأخرة، ومنهم من يؤثر متع الحياة الدنيا وينسى ربه ويسقط من حسابه يوم الجزاء. ورحمهم بما أرسل إليهم من الرسل وما ألهمه للصالحين من الدعوة إلى الخير وتذكير الناس بالحق، كما أنه لم يمنع الشيطان وحزبه من التأثير في عوطف البشر. ومن العمل على حجب القوة العاقلة عن قيادة الإنسان في حياته. ولذلك كان الاختلاف بينهم في التفكير وفي السلوك اختلافًا مستمرًا مع الجنس البشري.

ولذلك المفهوم من تمكين الإنسان من حرية الاختيار، ومن التكليف والحساب عليه، ثم للجزاء العادل مع ما يخالفه من الرحمة. خلق الله البشر غير مقصورين على الطاعة ولا منصرفين حتماً إلى المعصية، بل هم مختلفون بين صالحين وعصاة طالحين، طائعين وفسقة، مؤمنين وكفار.

وتحقق في الوجود الفعلي تقدير الله، وما كتبه في الأزل من كون الإنسان محاسباً عن أعماله ملائماً جزاءه. وجسم ذلك بأن الجنة مستملى بأهل الصلاح من الإنس والجن، وكذلك النار مستملى بالآثمين من النوعين.

120 وسكنا قصص عليهما من أنبياء الرسل... يؤمنون المؤمنين.

نقص عليك يا محمد كل نبي وأخبر من أخبار المرسلين قبلك، مما ثبت به قلبك وعقلك، ونزح عنك كل قلق واضطراب، فليس بتلك القصص. وتري فيها سنن الله في الخلوقة، وتتعرف على الطريقة التي واجهت بها الأمم أنبياءها الذين يعملون على هدايتهم وتبصيرهم بالحق. إن العرض الواقعي من الوحي على قلب رسول الله، وما عاينه الرسل من المكذبين يزيد الرسول إصراراً على الدعوة إلى دين الله ويقوي قدرة احتماله لما يبسلطه المشركون عليه من الأذى المعنوي بالتكذيب والاستهزاء، والأذى المادي بمختلف أنواعه. وقد صير أنسي لا على كل ذلك حتى انتصر الدين، وذلك بما طبع عليه من كمالات، وبفضل ما يوالي عليه ربه من تأييد، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم.

وأكد القرآن أن ما ذكره في قصص هذه السورة حق، كالشأن في القصص السابقة، وأن الهدف منها هو تذكير المؤمنين بما يستفهم وما يسوقظهم من الغفلات، وهي الموعظة التي ترقق القلوب وتقرب الإنسان من الخير.

121... 122 وقال للذين لا يؤمنون... إنه منتظرون.

يمد أن استوفى القرآن خطاب الرسول ووعظ المؤمنين بما جاء في القصص السابقة، أمر الرسول بتهديد الذين خلت قلوبهم من الإيمان ولزموا ما هم عليه من

الكفر، ولم يتعظوا بما جرى على الأمم السابقة، قل لهم مهتدا: واسألوا عما كنتم على النحو الذي أنتم عليه، فلنا منهجنا وطريقتنا في العمل، ولكم منهجكم وطريقتكم، لا نرضى بما أنتم عليه، ونحن ماضون على الحق، وأنتم ماضون على الباطل، وانتظروا ما سيحل بكم من مفت الله وعقابه، ونحن ننتظر عقابه لكم، وإكرامنا بعباده وفضله، وشئنا ما بين الانتظرين.

123. ولله غيب السماوات...وما يحد بغافل عما تعملون.

ختم القرآن سورة هود بهذا البيان الجامع الذي يتعطف على كل ما جاء فيها فيؤكد، ويثبت أن علم البشر لا يتجاوز الظواهر للمحدودة التي يمكنهم الله من علمها، أما ما هو ثابت، ولكنه مغيب عن حواسنا ومداركنا ولم يقد عليه ما يبلغنا إدراكه، فهو خاص بعلم الله لا يشاركه فيه غيره، وشمول علمه سبحانه يدل على أن ما اتخذوه من دونه من الهة ضلال، لأن الجاهل لا يصلح أن يكون معبودا، وبجانب العلم فإن تعلق العلم بإنجاز المعلوم مصروف عنه كل الكائنات، فإن إحاطة الإنسان بجميع الظروف التي يتم بها إنجاز الخلق لا تعود إلى الخلق ولكن الله سبحانه هو الذي يوجه الأسباب ويصرف المعوقات، فما تعلقت إرادته بإنجازه ينجز، وما تعلقت إرادته بتعويقه يعوق، ومن أرك نصره ينتصر، ومن أرك خذله يخذل، فمن الادعاء للبطل أن بدل النجاح بغونه الذهنية وفكائه في تحقيق ما تحقق، ولا بذل به وعمله، ولكن التوفيق الإلهي هو الذي هداه إلى الطريق الموصّل، وصرفه عن المعوقات الداخلية والخارجية، فالأمر لله والإنسان مسؤول.

إبه إذا كان المتصرف الحق في الكون وفي كل ما يحدث فيه من صغير أو كبير وعظيم أو تافه، هو من أثر تعلق الإرادة، فتوجه إليه بالعبادة، فإنه وحده الحق بأن يتوكل عليه المتوكلين، واعتمد عليه وحده ليسلك بالتوفيق والعون، واعلم علم اليقين أن الله لا يغيب عنه أي عمل تعملونه من شر أو خير، ويرتبط بذلك الجزاء الذي لا ظلم فيه، فليحذر الضالون من حسابهم عن سوء أعمالهم، وليفرح المؤمنون بما يترقبونه من حسن الثواب.

أتممت سورة هود بحسن الله وفضله يوم الخميس 13 شعبان 1432 2011/7/24

أسأله ضارعا أن ييسر لي إكمال ما بقي كما يسر لي ما قمت به إن وليي الله.

سورة يوسف

سورة يوسف هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، وأجمعوا على تسميتها بهذا الاسم، نزلت على رسول الله ﷺ بمكة، رتبها في النزول الثالثة والخمسون، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، اختلفت بأنها تضمنت أطول قصة في القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

الرُّبُّ يَكْتُبُ الْغُيُوبَ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ قَدْ نَفِصْ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَنْسُجُونَ لِي سِتْرِيكَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رَأْيَا عَلَى الْخَوَلَاءِ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَفْسٍ مِّنْ شَأْنٍ أَتَانِهَا عَلَىٰ أَعْيُنِنَا ﴿٦﴾ وَغُلَّ عَلَيْنَا عَنَّا إِلَهُكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المبين : الموضح التوضيح الكامل.

القصص : الإخبار بما جرى من الأمور.

الغفلة : غفلة العلم نتيجة عدم توجه للذهن.

يا أبت : يا أبي مع دلالة على تمكن القرب والود.

الكوكب : النجم.

يا بني : بني تصغير ابن، صيغة تستعمل للدلالة على ما في نفس المتكلم من حُب وشفقة.

لا تقصص رؤياك : لا تخبر برؤياك.

الكيد : إخفاء عمل مضر.

يجتنبك : يصطفيك ويختارك.

الأحاديث : جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، أو الشيء المنحدث به.
إنعام النعمة : جعلها كاملة لا يعقبها سلب.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن إلى خصائصه:

هو مجموع في كتاب مبين لما أراد الله أن يبلغه إليكم، ثم يكن لأحد من الكائنات دور في لفظه ولا في تركيبه بل أنزلته من العالم العلوي، يقرأه للبشر باللغة العربية التي طوعها لتحمل الوحي. وجاء أن ينقذ إلى عقولكم فتزداد معارفكم بما تضمنته سعة ودقة ويفض في عقولكم قوة،
 إننا بعظمتنا نعطي بك ونقص عليك أكمل القصص وأحسنها، نصديقها، وجمال عرضها، وتنوع الحكم المستفاد منها، والحل لك كنت قيل أن ينزل عليك الوحي لا تعلم شيئا من ذلك.

ثم يعرض القرآن مقدمة للقصة الطويلة التي نخص يوسف اليها، فيحدث للقرآن عن مجلس ضم يعقوب وإبنيه، يحدث الغلام أباه: أنه رأى في المنام رؤيا عجيبة، رأى أن أحد عشر نجما ومعها الشمس والقمر حيتة ساجدة له.

و أول رد فعل للوالد النبي الصالح أنه ارتسم في ضميره أن هذه الرؤيا رؤيا صالحة ملبنة عن مستقبل يسمو فيه ابنه إلى مقامات عالية يحمده عليها، وينى على ذلك أن نصحه بكم هذه الرؤيا عن إخوته ولا يحدثهم بها، وبين له أنه معرض بذلك للحد منهم وما يترك على الحسد من تدبير ما يلحق به سوء، وإن الشيطان يغري إخوته بالإضرار به على ما هو شاك من العداوة المستحكمة فيه للبشر.

ثم طمأنه على أنه يستقبل خيرا كبيرا، وسيختاره ربه لتحمل مهام رفيعة، ويتولى تعليمه ما يُقر به الحكمة في قلبه، وما يمكنه من تأويل الرؤى. ويكمل عليه إنعامه إكمالا بحميه من الخسران، ويرتفع به مع أسرة والده يعقوب من مقام إلى مقام أعلى منه، فإنه على هذا النحو جرت غايته بأصوله إبراهيم وإسحاق، إن ربك ينقذ ذلك، تبعا لعلمه المحيط بحقائق القلوب وتداخل النفوس، فهو يمكن الصالحين الطيبين من المراتب السنية، وذلك هو مقصدي الحكمة الربانية.

بيان المعنى العام :

1-2، أثر تاحك آيات الكتاب... لعلمكم لعقول

افتتحت سورة يوسف كما افتتح غيرها من السور، بالحروف المقطعة التي يبدأ ما يتعلق بها في سورة البقرة.

نوه القرآن بما فيه من كمالات تتحقق بها هداية البشر، وتمكنهم في سر من الانتفاع به. إنه كاشف عن المعاني الجليلة التي تضمنها، يتنها بلا غموض. أنزله رب العزة على قلب محمد كلاماً بفرأ مجموعاً في كتاب. يسمى بـسلك المزيلا قلا يدانيه أي كلام آخر، ولا يعرف كتاب جامع للعرب قبل القرآن. وكل ما عندهم حكم تستمد الرواية اللفظية أو شعر ينتشر في ذاكرتهم ويستمعون بسماعه وإنشاده. تخير الله أن يكون القرآن بلغة العرب التي طوعها لها فيها من خصائص لحمل كلامه بما يشتمل عليه من عفة، وتشريع، وتحريك للقلوب، وإخبار عن الغيب الذي سيحصل يوم القيامة، وعن المغيبات من الأحداث التي تمت في التاريخ وطواها التسيان أو دخلها الزيد والتحريف والتبديل. وذلك بنعمة الله وفضله، رجاء أن تصحوا به عالمين علما بقله العقل ويضم عليه جوانحه. فتجمعون بهذا القرآن بين العلم وسعة المعارف والسمو العقلي.

3- نعن نعنم عليكم أحسن القصص... لمن الغافلين.

نفس عليك يا محمد في هذا القرآن الذي أنزلناه عليك أكمل القصص، وأتمها، وأبلغها جودة، لقد كانت أحسن ما سمعته أذان البشر، لصنفاها وجمال أسلوبها وبلاغ تأثيرها، وجمعها بين العبر والحكم، ولعل الأنظار إلى سنن الله في الكون، وإيقاظ السامعين بتحريك عقولهم وعواطفهم وثوابهم الغنية وهم يتابعون قصصه الواقعية التي ليست من نسج الخيال. وذلك من سنن الله عليك، فالحال أنك كنت يا محمد قبل أنزال القرآن عليك من الغافلين عما جاء فيه، لا تعلم منه شيئا، وفي هذا رد على الذين يزعمون أن قصص القرآن يتلقاها الرسول ﷺ من معاصريه الذين كان لهم علم بالكتب السابقة.

4- إنا قال يوسف لأبيه... رأيتهم في ساجدين.

تبدأ القصة بمجلس يتفرد فيه يوسف ﷺ بأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد تمكنت العلاقة بين الوالد النبي الصالح، وبين ابنه الصغير لما استقر في قلبه من صلاح للخلع منذ بواكير صباه، فكان الامتزاج بينهما امتزاجا قويا، تألف مع عاطفة الأبوة الطبيعية ما جمعه يوسف من كمالات خلقية وخلقية. يعرض يوسف في هذا الظرف الذي اختلى فيه بابيه ما راه على النجوم من أمر عجيب، رأى أحد عشر نجما من نجوم السماء ومعها الشمس والقمر قد أدت له تحية وهي خاضعة له ساجدة.

من بداية القصة تتحدد ملامح يوسف، فصفا روحه وما هياه الله له من الكمالات النفسية ارتقت به من الصلات الأرضية التي هي ميدان النورى للمنامية في العادة،

إلى العوالم العلوية الكواكب والشمس والقمر . ولا شك أن الولد النبي قد غمرت قلبه أحاسيس الإعجاب والتنبؤ بما سيكون لولده من مكانة عالية . ولقويت خشيته أن يصلح من بلوغ الغايات التي هو مهيا لها .

5 - قال يا بني لا تقمص رؤياك...عدو ميمن.

وتقدم الوالد بنصحه لولده بعد أن استمع إليه فقال: يا بني لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك؛ الذين كانوا أكبر منه سنا وأقوى أجساما. ولهم نفس العزلة الاجتماعية بما لهم من شرف النسب إلى بيت إبراهيم وما تقلل منه . وقرن نهيه عن إخبارهم برؤياه معروفا له بالمعطيات التي بنى عليها ذلكم التمهيد . إنه يخشى عليه أن يتورق في نفوسهم الحسد ليوسف . وللحسد داء يدفع الحاسد إلى العمل على حرمان المحسود من الخير . ولذا تجد الحاسدين يدبرون في الخفاء ما يضر بمن يحسدونه وهو الكيد، ولا يتورعون عن أي فعل يطفئ النار التي تشتعل في بواطنهم . كل همهم التحلولة بين المحسود وبين الخير الذي هو فيه . والحسد مدخل من مدخل الشيطان، فما يزال يحرك نفة الحاسد على المحسود ويزين له الخطوات التي تتطوع صلتها به، وتنهيه لأنظار نزول اللآلئ به . حتى تتمكن العدو ويهشم الوحدة الإنسانية والإيمانية . وهو رشح العدو للبشر ، التي صرح بها الشيطان المصمم على المضى على ما تقتضيه . فعدوته للجنس البشري عداوة واضحة بينة . وهذا المقطع يلفت النظر إلى الطريقة الصالحة في التثريية؛ هي ليست أومسروا وواة حازمة جافة، ولكن بصدرها المربي في قالب من التقريب والود، يا بني، ويصل التوجيه بالتعليل المعقول الذي يفتح، فيثبت في النفس التوجيه .

6 - وكذا لمكة يجتبيجته ويصحه...إن ربه عليه حكمه ..

أدرك يعقوب على نصيحته، ما يثبت في نفس ابنه الثقة بمكانته وعلو قدره، إذ فهم الأب الصالح من الرؤيا، أن الله قد اختار ابنه ليقوم بأشرف الوظائف التي تقربه منه . فعلى ذلكم فتنحو من الرؤيا الصالحة متمضي علاقتهم بربه، ويستبلغ العداية به منتقلا من رتبة إلى مرتبة أسمى في الحكمة والتعليل حتى يصل إلى الاقتدار على إدراك أسرار الحوادث في الكون والآنثا وما مدلل عليه، وهي الحكمة التي يبلغها الأنبياء بالوحي، وهو معنى يعلمك من تأويل الأحاديث، كما يطمح أن يسمو إلى بعض منازلها الحكماء في تفسيرهم للوجود ومظاهره، كما يمكن أن ندل الآية مع ذلك على صفاء روحه ونور عقله حتى يستطيع أن يفسر الرؤى المذمومة وما تدل عليه في عالم الليقظة مستقبلا تبعا لما يحل في القلب والروح من توفيق على كشف الحجب عن تلك المآلات.

ثم أفرغ في قلبه ما يمكن البشرى التي قدمها، بأن الله سيتم عليه نعمته فيبلغ بها إلى درجات عالية من الكمال نون أن يخشى سلبها، منسحبة عليه وعلى أسرته، والده وإخوته. ومن اتصل بهم من الصالحين، كما انتهكت في الشجرة النفسانية التي هو فرع منها: إبراهيم وإسحاق.

وتختتم الآية بما بعد ما ورد فيها إلى ما يحققه: إن الله عليم لا يخفى عليه حقيقة النفوس الكريمة الطاهرة والأرواح الصالحة للطيبة، وأنه تبعاً لعلمه يخص هذا النوع بما يشرفه من الكمالات وتولي لمهام العالمة. فيضع النعم في المواضع المناسبة، وهو الحكمة.

• لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آبَاءَهُمْ خِيَانَةً إِذْ قَالُوا يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحْمَقُ مِنَ ابْنِنَا بَنَّا وَخَرَجْنَاهُ عَنْهُ إِذْ بَنَانَا إِيَّاهُ فَجَاءُوا يُوسُفَ وَأَخُوهُ أَزْوَاجًا حَقْلُكُمْ وَخَدَّاهُ يَكُونُ مِنْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٥ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابِ الْحَبِّ بَلْقَيْتُمَا بِغَضِ الشَّيْطَانِ إِنْ كُنْتُمْ فَعُولِينَ ٦

بيان معاني الألفاظ :

الآيات : جمع آيتوهي الدليل على ما تتطلب معرفته.

نفسية : جماعة تفوق العشرة.

شيايات : جمع غيابة وهو ما غاب عن البصر.

الجد : اللير التي حفرت وبقيت على حالتها دون أن تُسد بالبناء.

بيان المعنى الإجمالي :

في قصة يوسف وأخيه دلالة تروشد إلى حكم عديدة، وتوجيه رشيد لمن يسأل من الناس عن أخبارها. فتفتح القصة بتدبير مؤامرة من إخوة يوسف، الذين حملتهم الغيرة من شدة حب أبيهم لأخيه يوسف، إذ كان يخصه بعناية، لما يصدر عنه عند اللقاء المعاني من نكاه وبعد نظر يسوع به بعيداً عنهم. ولكنهم بناء على حسدهم له أسفلوا كل تلك المزاي، وقالوا: إن يوسف وأخاه ما يزالان صبيين لا تنفع منهما الأسرة بشيء لا مكاسب مادية ولا نفاعاً عليها، ولا يشتركان في تحمل أعباء الأسرة التي يتفردون بحملها وحدهم، وحكموا على أبيهم تبعاً لذلك بالخطأ للبين، أنفضيلهما في الرعاية والحب عليهم. وساقهم هذا التحليل إلى أنه يتحتم إبعاد يوسف من الساحة. وقلوباً وجوه النظر التي تبلغهم هذه الغاية. فقال بعضهم: اقتلوا

يوسف، أو طرحوه في أرض بعيدة لا يستطيع أن يعود منها إلى أرض قومه. ولقد نظريته بأن هذا يحقق لهم ذهب يوسف ذهباً لا رجعة بعدها، فنفرد بإيئنا، وتكون حياتنا أصلح بعد ذلك.

وعرض آخر وكان أقل نعمة على يوسف: أن لا يقدموا على القتل والتصفية الجنسية، ولكن يلقونه في قبر ينز على الطريق التي تمر عليها القوافل، الذين من شأنهم أنهم يردتوا من الأبلار التي في طريقهم، وبهذا تتولى القافلة أخذه والابتعاد به إلى بلدنا، وهذا خير إن كنتم مصممين على إعادته عن الأمرة.

بيان المعنى العام :

7- إذ قالوا ليوسف: وأخوه أحبب...نظر..شلال ميري.

الآيات السابقة كانت مقدمة لفصه يوسف وإطرا محددا لعسارها.

ومن هذه الآية كانت ليدية في لبراز تفاصيل القصة، فافتحت بالإشارة إلى ما فيها من حكم ودلائل على غير تعرف المتبعين لأحداثها بعضهم صنع الله وحكيم تقديره، وأن العاقبة للصابرين. ففي قصة يوسف هذه دلائل على قيم رفيعة تكشف خفاياها لكل من يسأل عنها، وتؤثر في الناظرين تأثيراً يمكن الخبر في نفوسهم، وينفهم من اللابل ومن الملوثات العاطفية.

8- تؤكد الآية على حقيقة ما سورد فيها من تفاصيل، وأنها قصة واقعية ليس للخيال مدخل فيها، والمتأمل يجد في كل حدث من أحداثها ارتباطاً بالمقدمة إذا ما استحضرها في نفسه، وأجاد فيها النظر وتعمق.

لول حدث: اجتماع لإخوة يوسف عرضوا فيه قضية أهمتهم جميعاً على درجات مختلفة بينهم في طريقة علاجها.

نشأت أحداثها من إحسانهم أن أباهم يعسوب الله بحب يوسف وأخاه بنيامين حباً يفوق ما يجعله من حب لهم. وأنه لا مبرر لهذا التفضيل في نظرهم، والحق أن يكون تعلق الولد بهم وتربيتهم لشدة من أخويهم. إذ أنهما ما يزالان يترجان في من الصبا ولا يفنيان عن الولد ولا عن الأسرة شيئاً. وأنهم هم الذين يفردون لكثرة عديم وقونهم (عصبة) بالدفاع عن الأمرة عند الشدائد، ويمهون إسمها كيرا في تيسير أمور حياتها. وبهذا وصلوا إلى لقتاع بأن أباهم أخطأ الصواب وتحيز إلى يوسف وأخيه استجابة لداعي عطفته لا لتحكيم عقله. ورأوا أن هذا أمر بين لا غبار عليه. ولم يفتروا ما ليوسف من كمالات، وما يبدو منه من مخايل التفوق وحسن الاهتمام على صغر منه. وهذا شأن البشر إذا حسدوا التلقوا في تقدير

شهيقاً للأكل وتقوى أجسامنا، ونلعب القلب الذي به تتفرح النفس ويذهب عنها الكلال. فأرسل معنا يوسف يستفيد مما تتيحه هذه السباحة في البرية. وثق أننا نحفظه من كل ما يمكن أن يتعرض إليه من سوء فلا نخش عليه.

وهكذا يفعل الحائسون المتآمرون فيظهرون اللين والنصح ويتخفون تحت ستار الحب والنصح وتحمل مسؤولية الحفظ .

13- 14. قال إني نوحزنني أن تذهبوا به...إنا إذا خاسرون.

(2) تشير القصة إلى أنهم استطاعوا أن يخفوا من حزن يعقوب، وليلسوا له ما جعله بصارحهم بنفي الشك فيهم. ولكنه يحزن لبعده عنه فيفقد ما ألفه من الأئس به، ويخشى على يوسف وهو السلام الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه أن يهدو عليه نيب فيفترسه في غفلة منهم عنه. وبهذا انحلت العقبة الأولى بهذا القطاء الكاذب والتملق، وبقيت عقدة الخوف عليه من الذنب لا منهم. فأبعدوها من نفسه بأن عدهم وقوتهم التي يعرفها منهم. تطمئنه على أنهم قادرون على حمايته؛ إنه لو تمكن الذنب منه وعجزوا عن حفظه، فهم يشهدون على أنفسهم أنهم خاسرون في حياتهم، فاقنوا للقوة والشجاعة محكوم عليهم بالخسران. فكان ما قدموه مؤناً بتحملهم لمسؤوليتهم كاملة، وأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يسفلوا عن مستواهم للقوي الذي يعززون به.

وهكذا يصنع المتآمرون كلما برزت عقدة حلوها بمكر يهذب كل سياج للمناعة. فتمكنوا من اصطحاب يوسف بلفردون به، ولا مغيب له من مكرهم.

15 فلما ذهبوا به واجمعوا رؤسهم لا بشعرون.

(3) تمكنوا من الخروج به بعد ترويض والدهم فالتفتهم عليه، وأخذوه معهم وخرجوا به إلى البرية. وعندها خلا لهم الجو للتنفيذ ما دبروه من مكر. عزموا على التنفيذ بكل قوة وبدون رحمة ولا شفقة. وشرجح عندهم الرأي الأخير: إقاربه في الجب. فرموه في قعره. والصرفوا يظنون أنهم قد نجحوا في إبعاد يوسف عن الأسرة وعن أبيهم بعدا لا يرجع بعده.

وفي هذا الظرف الصعب بعد العلف الذي صاحب رميه في البئر وذهابهم عن المكان وفقد الأئس، يسمعه ربه بالوحي، الذي لم يفصل القران طريقته ولكن قذف في قلبه الطمأنينة وأزال عنه الخوف، بما حاصله؛ أنه سيخرج سالماً، وأنه سيعلو عليهم وينبئهم بما صنعوا به. وما شعر أحد منهم بهذا الوحي لما جاءه، أو المعنى أنه سينبئهم بما صنعوا وهم غافلون عن كونه يوسف الذي رموا به في الجب.

وعلى الاحتمالين فللقصد ظاهر أن الله يؤيد الصالحين في النهاية وتكون لهم العاقبة الطيبة.

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُخِّرْنَا لِشَيْءٍ نَّزَرَكُنَا بِرُؤُوسِنَا عِندَ مَتَجَةٍ فَاكَلَهُ الْذَّبَابُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا، نَوْكُنَا صَبْرًا ﴿١٩﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَنٍّ يُغَيِّبُ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ ،

نستنبق : نتغالب في الجري

بمؤمن لنا : بمصدق لنا.

دَنٍّ : مَكْنُوب .

السَّوَّلُ : سهول النفس وتزوينها ما تحرض على حصوله.

صبر جميل : الصبر الذي لا يصحبه شكوى.

المستعان : المطلوب منه العون على تحمل الصبر .

بيان المعنى الإجمالي ،

عادوا إلى أبيهم بعد أن أطلق الظلام باكين ليوهموه أنه تملكهم الحزن لما جرى، وأعلنوا ناسجين من خيالهم قصة موته، ولها تمت على النحو الآتي: ذهبوا يشترقون في الجري ولعبوا، وتركوا يوسف بجانب ما حملوه معهم إلى البرية من الزاد والمتاع. وعدا عليه الذنب لما كان وحيدا فأكله، وليبالقوا في التمويه أضماؤوا إنا نقدر أنك لا تصدقنا لفرط حبك ليوسف، مع أننا نؤكد أنها صادقون. نقلنا ما حدث بكل أمانة. وعرضوا قميصه المعزق الملوث بالدم زاعمين أنه تمه بعد ما أكله للذنب. وفاق جلد يعقوب وصبره قوة الصنعة، فغير عن شكه في روليتهم، وأن ما عرصوه هو مما رينته لهم لغوهم، وأنه يتخرج بالصبر الذي لا تصحبه شكوى. ولن يطلب من الله العون على تجاوز ما وصفوه.

بيان المعنى العام ،

16- 18٠، وجاءوا أباهم عشاء يبكون سؤاليه المستعان على ما تصفون.

(4) بعد أن أقره في الحب تمهلوا في الرجوع إلى أبيهم فلم يصلوا إلا عند ما أظلم الليل، عند العشاء. وأحكموا تليق قصة وهمية أعطوها ببيكانهم صورة تقنع في

ظنهم أباهم: أن يوسف قد افترسه الذئب، وقالوا: إنما كنا نتمايق جريسا على الأعداء حسبما يتم بين اللقيان ليروضوا أنفسهم، يبتعدون بذلك عن المنطلق. وإن يوسف لما كان لصغره، لا يستطيع أن يتمايق معنا في الحيلة تركناه بحرس متاعنا. وأن الذئب وجده منفردا فافترسه. ومبالغة في التمثويه قرنا تصويرهم للواقعة مع بكانهم بأمرين:

أولهما: أنهم قالوا لأبيهم: إنك لفرط حبك ليوسف لا تصدق مقالنا، مع أننا نجزم ونؤكد أننا صادقون فيما رويناه، فلا تتهمنا.

ثانيهما: أنهم أحضروا قميص يوسف مغرقا ممزقا ملطخا بالدم الكاذب، الذي ليس بينه وبين دم يوسف أي صلة، عضدا لروايتهم التي أحكموا نسجها الباطل.

صدم يعقوب بما لقوه، وأدرك من المقارنات التي حفت بالخبر، وبحديث قلبه الصافي، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأن ما أكدوه هو تلفيقاته لا أساس لها لم تقع في الوجود. فواجههم بأن نفوسهم المريضة قد سهلت لهم تزييف الحفيلة. وحسنت لهم اختلاق صورة باطلة بعد أن استدرجنهم إلى فعل منكّر مضموم أخفوه، وأنه لا ينهار لهول المصائب، ويتزعزع بالصبر. وأنه يلتجئ إلى الله يطلب منه العون على التحمل وعلى فتح أبواب الفرج. ويومئ قوله (المستعان على ما تمشيئون) إلى أنه غير مصدق لهم. إذ لم يقل على ما وقع، أو على موت يوسف، مما يشير إلى أن الحقيقة مشنورة، ويطلب من الله العون ليوسف في وضعه الخفي، ونفسه على التحمل.

وَجَاءَتْهُ مَنَارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَلْتَمَلِئَ إِيَّاهُ زَلْزَلًا
وَأَلْقَى إِلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَأَخَذْنَاهُ بِهِ زُرْقَةً مِنْ بَيْنِ الْأَصْبَاحِ

الترجمة

بين معاني الألفاظ:

قوله: الذي برد الماء.

ألقى دلوه: أرسل دلوه إلى قاع البئر ليستخرج الماء.

ألتملئ: يا فرحتي.

أخفوا خبره.

أعرض تجارة.

باعوه.

يُخَصِّرُ : ثَمَنُ نَزَلَ عَنْ قِيَمَتِهِ.

الزَّاهِدِيُّ : الَّذِينَ لَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي الشَّيْءِ.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يمكث يوسف زمناً طويلاً في قاع البئر حتى مَرَّتْ، حسب المتوقع من إخوته، قافلة تسير قاطعة مسافات الصحراء. وقفت بجانب البئر وأرسلت أحد أفرادها بفتح لها الماء من الجيب. وما لبث جذب دلوه حتى وجد فيه يوسف فصاح فرحاً يا للبشرى! هذا غلام. أخفوه عن الأنظار حتى بلغوا سوق النخاسة في مصر وباعوه بثمن قليل بعيد جداً عن قيمته وما كانوا يدركون قيمته.

بيان المعنى العام :

19 - 20، وجاءت سيرة فارسلوا .. من الزاهديين.

من هذه الآية يفرد القرآن الحديث عن المسار الذي سار فيه يوسف بعد أن رماه إخوته في البئر وانصرفوا إلى منازلهم، وينفطع الحديث عن الإخوة وعن يعقوب. كما توقع إخوته لم يمض عليه زمن طويل في البئر حتى مَرَّتْ قافلة قريباً من البئر، وأرسلوا أحدهم بجلب لهم الماء. وقف التوارد على البئر وأنزل دلوه فتعلق به يوسف، وما أتمد فرحته إذ وجد بين يديه غلاماً وصاح يا للبشرى! هذا غلام. يطوي القرآن ما دار بين يوسف وبين القافلة، ويكتفى بالنتيجة؛ وهي أن القافلة اعتبرته سلعة، رقيقاً يبيعونه، ويأخذون ثمنه. وما كانت معاملتهم له معاملة حسنة كما يشير إليه قوله تعالى: **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**. كان من الواجب أن يسأله عن سبب سقوطه في البئر وعن أهله وعن مكانهم، ويعملوا على مساعدته على العودة إليهم. ولكن شدة حرصهم على استرقاقه والفوز بثمنه، سوغ لهم أن يقوموا بأعمال غير صالحة نحوه ليصلوا به في خفية إلى سوق العبيد قبل أن يفتضح أمرهم. وفي سوق النخاسة باعوه مسرعين بثمن قليل بالنسبة لنفسه، مقدر حسب قيمة ولدت النازلة بدراهم غير كثيرة تعدُّ، شأن ما هو قليل. وسبب ذلك أنهم ما كانوا حريصين على التمسك به، ولعل ذلك خوفاً من أن يلحق بهم من يعرفه فينتزعهم.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَةَ أَكْثَرُ مِثْلِهِ عَمِلَ أَدِيمَتَيْنِ وَلَئِنْ لَمْ أَجِدْ لَكَ مِثْلَ مَا تُبَدِّلُ بِهِ نَفْسِي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أَمْرِهِ، وَلَيَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ أَنبَأْتُهُ خُتْمًا وَعِلْمًا
وَكَذَلِكَ تَجْرَى السُّجُورُ ﴿١٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

ملوأة : مكان إقامته . في مكان نومه وطعامه ومجلمه .

اشده : استكمال قوته .

حكما : حكمة بسداد النظر .

عما : تأويل الأحاديث .

بيان المعنى الإجمالي :

كان الذي اشتراه ذا فراسة عالية، فتبين له أن ليوسف شأنًا، فأوصى امرأته أن تعامله معاملة كريمة تليق بما يتوقع له، فهو يامل أن ينتفع وزوجته بأحكاماته العالية، أو أن يتخذة ولداً ابن تواصل عزم إنجابهما للزوجة. وروي أن اسمه فوطيفار وأنه كان رئيس الشرطة وبتعييننا وزير الداخلية، وساقطصر على التعبير عنه باسم عزيز مصر كما جاء في القرآن، ويبدو لي أن لقب العزيز يخاطب به كل من كان ذا منصب عال في الدولة، ولذا سياتي أن إحد يوسف للاخوة خاطبوه بيا إليها العزيز قبل أن يعرفوه. وامرأة العزيز نكر أن اسمها زليخا، وهي في كتب اليهود راعيل . وسالتزم في التعبير عنها بامرأة العزيز كما ذكرها القرآن بهذه الإضافات . ولم يسمها، ولا ثقة لي بما وراء ذلك،

وعلى هذا النحو من الرعاية ابتدأ تمكين الله ليوسف في أرض مصر، فيسر له أن يربى في وسط بزيده قدرة على إدراك الغايات اليميدة المتخيلة عن الناس، وليلحظ فينتفع بالإنجازات وطرق الحكم التي كان يتحدث بها في قصر العزيز . وإذا أراد الله شيئا فإنه يتقو ولا يستطيع أية قوة أن تعوقه. ولكن كثيرا من الناس لقصر نظرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ثم إنه لما بلغت قسوة البشريّة مستوى التضجّع، أنزل الله في قلبه الحكمة، وفتح له أبواب العلم؛ وهذه هي سنة الله مع المحسنين من عباده يكرمهم بألوان من الفضل.

بيان المعنى العام :

21- وقال الذي اشتراه من مصر: ولئن كن أشكر الناس: لا يعلمون.

تسير القصة على السان التي قدر الله أن تجري عليها تقلبات الحياة، يسر وعقبة عسر والعكس. فبعد تلك المحن من قذفه وحيدا في بئر، يشتريه رجل من رجال

فَصَدَقْتُ وَلَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ. وَلَهُ مِنَ
الطَّيِّبِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا زَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
﴿٢٤﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

راودته : لاطفته لتسوقه إلى غرضها.

عن نفسه : عن عقله بتمكنها منه لما تريد.

غلث الأيووب : أحكمت غلقها.

حيث لك : بلادر أنت وأقبل.

معاذ الله : أعوذ بالله. اعتصم به مما تحاولين بلوغه.

أحسن ملأوا : أحسن العناية بي وأكرم كفايتي .

أنهم : العزم على الفعل.

البرهان : للحجة البينة التي صرفته عنها.

لسوء : خيانة من اتهمه.

للغشاة : للعلة القبيحة للزنا.

ذنت : خرقت قميصه ملولاً، من خلف.

أنفيا : وجداً.

سيدها : زوجها.

... : من الجهة الأسامية.

كوه : مركب من الخداع والاحتيال والمكر .

الخطي : فاعل الخطيئة.

أعرض عن هذا : اكتمه.

بيان المعنى الإجمالي :

كان يوسف **عليه** بارع الجمال، قوي البنية، بلغ أشده في بيت عزيز مصر، فتلفتت به امرأته وحاولته ليتصل بها جنسياً، ولما بلغ تعلقها به حسده الأقصى، انعدت به واحكمت إغلاق الأبواب، ودعته بقولها: حيث لك، تعالى أقبل، أخطبك أنت لا غيرك. وترفع أن يقع في الخطيئة فقال لها: إني أتحصن بالله من أنزل إلى مستوى أخون فيه زوجك الذي رباني ولتتمني . إني لو خنته في زوجته لكون ظالماً له. والظالمون ماله الخسران.

لقد كان تعلقها بيوسف شديداً، فهامت به وظنت أنها إذ تتأزلت عن كبرياتها وقامت هي بالخطوة الأولى، أنه سيتحقق لها الوصل الذي طالما حشنت نفسها به وحلمت به، كانت على حظ من الوسامة، فيوسف فليح لم يرغب عنها ويستعصم بالله لضيف في أوثقها ونقص في وسامتها، ولكن صورتها في نفسه هي صورة المرأة الفاضحة المؤثرة، ولكنه رأى دليلاً لمغفه به الله في ساعة المحنة فصد عنها وتمسك بعقله، وبذلك أبعد الله عن الخيانة زوجها وعسر الزنا، كان ذلك جزاء إخلاصه، والإخلاص يسمى بأصحابه إلى مراتب الكمال الذي تقربهم إلى الله، ويوسف من زمريهم.

جرى يوسف نحو الباب فحل قفله، ولحقت به امرأة العزيز وجذبته من قميصه لتمنعه من الخروج فمزقته، وفوجأ بالزوج عند الباب ومعه أحد أقاربها، وكانت مأكرة حاضره للبديهة، فتوجهت إلى زوجها ملقية التهمة على يوسف قائلة: ما هو الجزاء المناسب لمن حاول الاعتداء على أهلك؟ ما أراه إلا أن يمجس لو يمتدب العذاب المولم، ونفى يوسف عن نفسه التهمة جازماً أنها هي التي راوتته عن نفسها، وتدخل فريبها فقال: إن كان القميص خرق من الأمام فذلك دليل على أن يوسف مجرم عليها، وإذ عته من أن يبال منها فخرقت ثوبه، وإن كان قميصه خرق من خلف فذلك دليل على أنه فر منها وأنها لحقته وجذبته بقسوة من رغبة قميصه فخرق، وقام الدليل على كذبها وصدقها، فالتفت إليها زوجها قائلاً: هذه مكيدة من المكائد التي تتقنها النساء، إن كنتين عظيم، والتفت إلى يوسف وطلب منه أن يكتم الأمر ولا يشيعه، ثم توجه إليها من جديد مرشداً لها أن تسرع بطلب العفو وأن لا تعود، وأثبت أنها كانت مخملة كشال الخطائين من البشر.

بيان المعنى العام:

23- 24: روايته التي هو في بيتها - إنه من عبداً لمخملين.

خرج يوسف من المحن السابقة تحوطه العناية الإلهية حتى استقر في قصر عزيز مصر موسى بتكريمه، وكرم فعلاً، ونما في حجر التعميم حتى اكتمل فيبلغ أشده، جمع بين الجمال والوقار والقوة الجسدية مما يجعل العين الذي تنظر إليه تعجب بمظاهر الرجولة والقوة فيه.

وفي قصر العزيز ما كان يعيش مع الخدم، بل كان يعيش مع أموته حسب الوصاية به من أول يوم حل فيه، وكانت امرأة العزيز تلحظ كماله وجماله، وتحببها نفسها وتشغلها به إلى أن غلبتها نوازع الشهوة فدفعته إلى مرلوتته، فإلفته وللنساء قوة طبيعية في الإغراء.

وقالوا لها هذا حبيبك معرض *** فقلت ألا بعرضه أهون القلْب

فما هي إلا نظرة وابستامة *** فتصطك رجلاله ويسقط للجنب

لا يعصل القرآن المقدمات التي مرت بها إلى أن وصلت إلى التصريح بهيأتهما به وإرادتهما القوية لتستولي على عقله فيضامق معها إلى الاتصال الجنسي بها، وتعرض شحنة تضخم مع الزمن فبرزت كبرياءها ومكانتها الاجتماعية، ثم قامت في الوقت الذي استولت عليها الشهوة واستبدت بها الغلظة، فأحكمت إغلاق الأبواب حتى تمنع على أنه لا يفاجئهما أي كان وقالت: هبت لك. تمسك قبيل. واختار القرآن أن يعبر عن دعوتها له بهذه الكلمة التي ليست من أصل عربي ليكون جرسها معبرا عن ألفاسها اللاهثة في هذه اللحظة، ووصلت هبت بكلمة لك لإقادة شدة الاتصال كما تقول العرب شكرا لك على أن الشكر متصل بك وهو أقوى من قولك أشكرك، كأنها تقول كل كيللي لك يا يوسف. اجتمعت كل الظروف ليست لها ما أرادت، وما أشدها محنة يمر بها، كان جوابه جازما قاطعا لكل محاولاتها : إني أعصم بالله من موافقتك. إن زوجك هو سيدي الذي رباني وأكرملي في مماسي عله وقريني منه فلا أخونه في زوجته. إن خلقي وخشييتي من الله أن ينزل بي غضبه تمنعني من ظلم العلاقة التي تربطني بزوجك. إن اثنين يتجاوزون للحدود ويظلمون مآلهم خاسر .

وتأتي في العرض لمسة تبعث ما يمكن أن يتصور به أن الصارف له عنها، أنها ما كانت على حظ من الإغراء والجاذبية والأنوثة الصارخة، فيصرح القرآن بخفايا نفسيهما لقد همت به في ملاطفتها له، جادة في تحقيق غرضها من الاتصال به، معجبة به أتم الإعجاب ولكله . وكان هو معجبا بجمالها ورفقتها وما تمتلكه من مزايا مغرية بها. ولكن الذي حال بينه وبين المضى إلى النهاية، أنه رأى برهانا استقرار في يقينه وملك عليه أرجاعه وأحاسيسه وعرائزه، يبعده عن الزنا وقام في باطنه ذلكم الدليل الذي جاءه من هدية ربه الذي يرعاه ويحوطه بالطفاه، فتأمل له الزنا قذارة تفرز منها، وطورا ما كان يقتضيه إعجابه بمفاتنتها من المضى إلى النهاية الفاجرة .

على هذا النحو حفظنا هو أبعدنا عنه السوء الذي هو خيانة من أئمنه. وعن الفحشاء للفعلة القبيحة: الزنا . وذلك لأنه من عباد الله الذين قربهم ونسيبهم لنفسه وأخلصهم لذاته العلية وأخلصوا له في عبادتهم، فكانت علاقتهم به علاقة قُرب تلقى أنوار الهدية مباشرة قوية التأثير .

25-29، واستبقا الباب وهدت سائرَكَ صَكَتَ مِنَ الْخَاطِلِينَ .

حاول يوسف أن يبتعد عنها ففر نحو الباب، وحاولت أن تسبقه إليه لتحاول بينه وبين الخروج. وطوى القرآن حلقة لا بد منها لتصور المشهد، لعلها أن يوسف تمكن من فتح القفل الذي أحكمت غلقه، فأنشبت يديها في طوق قميصه فتخرقق من خلف. وتظهر المفاجأة التي ما كان أي منهما يتوقعها، حضر سيدها صاحب البيت زوجها في تلك اللحظة والباب قد ذهب قفله، فارتسم المشهد أمام ناظريه: هيئة زوجته مستترية في لباسها وفي ليلت أنفاسها، ويوسف واقف معها في خلوة وقميصه ممزق.

لقد كانت على حظ كبير من مرعة البهية، وقوة المكر، فحاولت أن تنقذ نفسها وتلقي بالتهمة على يوسف فتوجهت لزوجها بدون تلميح قاتلة: ما هو الجزاء الذي يكون حقيقاً به من عزم على الليل من زوجتك؟ ثم أردفت: إما أن تكون عيابه للسجون ماواه، وإما أن نسط عليه من أنواع التعذيب القاسية ما يكافي خيانتك. كان يوسف وفقاً بسمع إلى بهتانها متعجباً، وقبل أن يطلب منه سيد البيت جواباً نطق عليه السلام مفنداً كلامها في براءة: هي راوتني عن نفسي.

ويظهر في المشهد رجل هو من أهلها قدم مع زوجها، فسبق لبسلي بشهادته التي تظهر الحقيقة، ما كان معهما حتى تكون شهادته مبنية على حكاية ما أبعده، وإنما اعتمد القرآن التي تغطي نوعاً من العقولوية لتسلسل الأحداث، رأى أن يوسف يضم أطراف ثوبه المعزق، فهذه فطنته أن طروقة تمزيق الثوب تشهد لها أو عليها. وتقدم قائلنا: إن كان القميص قد من قبل فإن ذلك يدل على أنه قد هجم عليها وأنها دافعت عن نفسها فتخرقق ثوبه. ولا يكون إلا من الجهة الأمامية، وأنه إذا تخرقق ثوبه من اللوراء فذلك يدل على أنه فر منها ولحقته فجذبته من قميصه فتخرقق من الخلف، وكان حكمه بالقرآن مقنعاً، فلما شاهد الزوج تخرقق القميص من خلف، توجه إلى امرأته وخاطبها بقوله: إنه تدبير منك مركب من الخداع والمكر والاحتيال، وإنك أنتي كسائر النساء مقترتكن على الكبر عزيمة. وفسح في نفسه صدق يوسف وكذبها، والثقت إلى يوسف ودعاه إلى أن يكتم ما حصل ولا يشيعه. وعلى هذا النحو في القديم والحديث تعالج الفضائح الجنسية في الأوامر التي أنشأتها الحضارة، وأهدأ الارتواء الخلقي.

ثم التفت إلى زوجته وأرشدها أن تطلب الصنيع عما وقع، وأن تسقطه من ذاكرتها بعدم العود إليه.

هـ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا
 لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا
 وَآتَتْ كُلَّ جَنْدٍ مَنَّهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
 وَقُلْنَ نَفْسُ اللَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ قَالَتِ قَدْ لَبِئْسَ الْأَوْدَى لَمَتْنِي
 فِيهِ وَلَقَدْ وَدَدْتُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَمْتَصَعْتُمْ الْيُوسُفَ بِمَا عَمِلَ مَا أَفْرَدَ لِنَجْوَى وَلِيَكُونَ
 مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ انْجِنْ أَخِيَّ إِلَى يَمَنِي مَدْعُونِي إِلَهَ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي
 كَيْدَهُمْ إِنَّهُ نَجْدُهُمُ إِنَّهُ الْغَوْرِيُّ ﴿١٣﴾ وَأَكْرَمَ مِنَ الْخَبْرَانِ ﴿١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ إِلَهُهُ بِصَرْفِ عَقْدٍ يَدُهُنَّ
 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ ثُمَّ بَدَأَ فَدَنَّى بَيْنَ يَدَيْهِمَا زَاوِيَ الْيَتَامَى لِيُخَبِّرَهُنَّ خِطْبًا ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

شَغَفَهَا : فعل مأخوذ من الشغاف وهو غلاف القلب، أي تمكن حبه من قلبها أفضل تمكن.

ضَلَالٍ مُبِينٍ : خرجت عن الصواب بصفة واضحة.

مُتَكِنًا : محل الاتكاء، والاتكاء جلسة بين القعود والاضطجاع.

أَكْبَرْتَهُ : أعظمته جماله.

قَطَّعْنَ : ذهبن بجماله فخرجن أيديهن.

عَمِلَ : جعله تقدم للدلالة على الاستبعاد والنفي.

أَمْتَصَعْتُمْ : امتنع امتناع من بعد مضاجعتها يناقض عصمته.

الصَّابِرِينَ : الثَّابِلِينَ.

أَصْبَرَ الصَّابِرِينَ : أَمِلَ إِلَيْهِنَّ.

مِنَ الْجَاهِلِينَ : مِنَ الَّذِينَ لَا يَرَاعُونَ حُدُودَ اللَّهِ.

بَدَأَ : ظَهَرَ لَهُمْ وَتَرَجَّعَ.

بيان المعنى الإجمالي:

تحدثت النساء المتصلة بقصر العزيز بالحادثة، وحسب أن امرأته التهمة، ولها قد
 أحببت غلامها حباً استولى على قلبها ومشاعرها. وصرحن بلومها على موقفها
 ولها لخطات خطأ بينا.

لما بلغها ما تحدث به وهو ما يعرضها إلى تحميلها المسؤولية وما يمكن أن يتبعها
 من عقاب وانحطاط منزلة، دبرت أمرها لتسكت تلك الأقواء : فدعتهم ضيفات
 عليها، ورتبت لقاءها بهن على مستوى عالٍ من التكريم، فكل ضيفة مكاتبة

المريح للشيخ، وأعدت لهم صنوفاً من الأطعمة وأمرت أن يصحب الطعام مكيئة لكل واحدة منهم.

استراحت الضيفات لحسن القبول والاستعداد، وأخذن في تناول الطعام، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن من المكان الذي هو فيه، وفوجئن بالفتى طالع عليهن: أنه لهن جمال، وأعظم بهاء، وملك مشاعرهن وإحساسهن حتى جرحت السكاكين أيديهن، وهن من عليا القوم أيديهن لطيفة، ومن شأن سيدات القصور أن لا يعملن بأيديهن، ويتولينها بالمراهم التي تروق الجلد وتلين لللمس. ولذا بمجرد ما غفلن عن السكاكين وشغلن يوسف وجرحت أيديهن سال الدم فعبث القران مجسماً لذلك بقوله: **إِذْ غَطَّيْنَاهُ** أي يديهن { وقُلْنِ: لا يتصور أن يكون هذا الذي إيماناً بشراء، إن هو إلا من جنس الملائكة، ملك من المستوى الرفيع. وتحققت الغاية التي من أجلها جمعتهن، فصرخت: هو الفتى الذي سبقن بلوى في حبه، نعم لقد رلوثته عن نفسه فأبى متمسكاً بعصمته. وإن لم يفعل ما أمره به وبطفئ حرارة حبي له بالوصال، ليدخلن السجن، الذي يذهب بكرميته وليكونن من الأذلاء.

ولما سمع كلامها وتبين له تصميمها، إذ لم تستع من التصريح به لضيفاتها، لوي إترائه للخطر فتوجه لربه يطلب منه العون، قال رب المسجون الذي تهددني به هو خير لي من حياة القصور مع الفجور. إنك ربي إن لم تسعفني فتبعد عني كيدهن قد تنهلوي مقاومتي لإعترائهن، ولعل إليهن والنهي إلى ارتكاب الخطيئة التي بعيش عليها الجاهلون الفاسقون.

استجاب ربه للراحم لدعائه، وهو السامع لتضرعه وابتهالاته، فأبعد عنه كيدهن. إن الله هو السميع الداعي للذاعين ولبتهالات الضارعين. العليم بما يجري في نفوسهم فلا يردهم عن بابه خائبيين.

ثم قرأواهم رغم ما شاهدوه من الأدلة الدامغة ببراعته، أن يتخلوه السجن إلى أمد لم يحدد.

بيان المعنى العام :

30- وقال لسوة في المدينة... في سلال مبيع.

رغم حرص زوجها على كتمان الحادثة، فقد خرج الخبر من السر، وتحدثت به بعض النساء المتصلة بالقصر، إذ لفظ **نسوة** يدل على فئة عدهن. وبلغ امرأة العزيز ما يتهاوس به من الإنكار عليها وما يتحدثن به في مجالسهن: إنها على رغم مستواها الرفيع ومنزلتها الاجتماعية العالية، نزلت إلى مراودة غلام من التابعين في القصر، رغبة في مضاجعته؛ قد بلغ حبها له وهيامها به أن استولى على قلبها؛ لقد انحرقت وصارت في طريق الخطأ البين.

31-32، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن. من المناظرين.

سمعت امرأة العزيز ما يجري من تهامس وتعليق على الحادثة. واعتبرت ذلك بما خالطه من لوم وإنكار، أنهن يحتلنها الخطيئة، وأن شيوعه على هذا النحو قد يتركب عليه من المرأة ما يتركب. فقد يحدثن به أزواجهن، وقد يشار بينهم وبين زوجها ما يتفقه لمعايبتها أو الانفصال عنها. والمرأة شديدة الحساسة في كل ما من شأنه أن يهدم حياتها الزوجية، خاصة إذا كان الزوج يحتل مستوى رفيعا في الدولة، فعبير القرآن عن ذلك بقوله: **فلما سمعت بمكرهن** |

وكما أشرنا إليه سابقا، لقد كانت على قدر كبير من الفطنة والذكاء، فعملت على إقحامهن إقحاما بسكت إنكارهن. فدعتهن لبيتها ضيفات عليها، ورقيبت في إكرامهن ما يليق بمقامها ومقامهن على العادة للمثبعة في قصور عظماء رجال الدولة. مجلس وثير رحب، لكل واحدة من ضيفاتها متكا تترفق به، وأمرت الخدم بإحضار ما اختارته من المأكولات، وأن يقدموا مع الأطباق الساكنين التي يطمئن بها الطعام حسب المستوى الحضاري الذي بلغته مصر في ذلك العصر، أن الطعام يقطع بالسكين ولا يدهس اللحم ولا ينهش للفوكه وغيرها.

وراق المجلس، وأخذت كل واحدة منهن تتناول مما قدم لها تحاولنه بالسكين، وفي هذه اللحظة، كان مما رقبته أن يكون يومئذ في غرفة ملاصقة تفتح على قاعة الجلوس، وأمرته أن يخرج على الحاضرات مفاجأة، إذا سمع أمرها له بالخروج.

وحرك سمعه، وهو ينتظر. الأمر بالخروج، فأطاع. وإذا بيوسف وسط النسوة من عليه القوم، فثقلن بالنظر إليه والتمتع بالتبقت في محاسنه، وبهرهن ما جمع من جمال وروامة وفتوة، حتى نسبن أنهن يمسكن بالسكاكين في أيديهن فأفادت الحذر وجرحن أيديهن دون أن يحسرن بألم الجراح، وهن من عليه القوم، وشأن أمثالهن أن لا يعملن بأيديهن، وأن يعتنين بتليينها بالمراهم فتزداد نعومة ورقة. وإذا فإنه بمجرد ما جرحته، سال منها الدم كلفها تقطعت، فتجسما لهذا المعنى قال تعالى:

(واظمر أيديهن)، وقلن بصوت واحد معبرين عن شدة إعجابهن ومنفصلين عما استقر في بواطنهن من المشهد الذي ما كان الخيال يسمعهن بتصويره: لا يكون هذا الفتى الذي جمع كل هذه المحاسن، من جنس البشر، هو من جنس آخر، هو من الملائكة الذين سموا عن البشر، في تصوره، فتقزحوا عن النقص والعيوب.

نجحت امرأة العزيز قبلت ما أرادت. وقد أصبحت النسوة يشاركنها الإحساس بقوة الجمالية والرجولية الغارية لقلوب النساء. وهنا أعطت لهن هذا الفتى بجسده

الأخاذ هو الذي سيقنّ للمسي في حبه قبل أن تربيه، وقبل أن يهزّ قلوبكم كما هزّ قلبي. نعم قد راودتكم عن نفسه بعد أن هممت به، فالتحيز إلى العصمة من الزنا والمتنع من إطفاء الحرارة التي تلتهب في كيالي. وقد عقدت العزم على أنه بين خيارين: إما أن يرضخ لإغرائني ويكون طسوع أولمصري. وإما أن يرمي به في غياهب السجون فتذهب كبريائه وينقلب ذليلاً من الصاغرين.

33-35، قال رب السجن أحب إلي... فيصحبته حتى خيق .

ريحت الجولة. وقد أصبحت مساء الطبقة المالية يشاركها الإعجاب بيوسف، ويعذرها في حبها له وتعلقها به. وكلن يوسف يسمع كلامها ويحسن بمشاركة بقية النسوة لها. وقد أحكم عليه الطوق إذ تعدى الإعجاب به والرغبة في القرب منه امرأة العزيز إلى غيرها، ولكل واحدة منهن قدرتها على الضغط عليه لسو أتيحت لها الفرصة. فتوجه طالبا للمون من ربه لمساعدته على ما ألزم به نفسه من التقوى والابتعاد عن المحرمات. وإن حياة الممجن عنده أحب و الأفضل مما يدعونه إليه: إنها المنفذ المادي له. إنني أخشى أن أتهلر أمام مواصلة الضغط على أن لم تتفضل ربي بصرف كيدهن عني. (يبدو أنه واثق من مواصلة كيدهن، وأنه كلما خرج من أحيولة مستصعب له أحيولة أخرى) ولعلني بضغني البشري سالتني إلى المبلل إليهن فأكون من حملة لأجاهلين السفهاء الذين لا يرعون حدود الله. فكأن تعبيراً من عبق الشعور بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

نلت هذه الانبهاالات الخاشعة أن أجاب الله دعاءه، فصرف عنه أثار كيدهن. وتبته على مواصلة المسيرة للطاهرة في ملوكة، وقواه فعضى على طريق العصمة. بكل تأكيد: إن الله يسمع نداء الداعين والمبتهلين، وهو التعليم بما تكنه صدورهم وتطوي عليه ضمائرهم ولا يخفي عليه صدق الصابرين.

ثم تمر فترة من الزمن، لم يتعرض القرآن إلى تفاصيلها، كانت تتأرجح بين قوة تأثير امرأة العزيز على دفع للتهمة عن نفسها والإقناع ببرائتها، ومواصلة إغرائها ليوسف، حتى بسست من هزم صلابته في التمسك بمصمته، وبين الظواهر الناطقة ببراءة يوسف. ولكل في تربته سقوط امرأة العزيز وتحميلها التهمة. وتغلبت كفة الكيد على كفة الحق، فتم لأخذ القرار بسجنه سجننا بطول، إلى أمد مجهول.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُورِثُ
 أَخِي فَقَالَ رَأَيْتُ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّعْمَ مِنِّي تَتَّبِعُنِي بِأُيُوبَإِيْمَ إِنَّا تَرَكْنَاكَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٠٠﴾
 قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِهِمَا قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذِكْرُكُمَا بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ تَرْكَبُ بِلَاةُ قَوْمٍ لَا يَتَّبِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ الْغَافِرُ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاتَّبَعَتْ
 بِلَاةُ الْآخَرِ بِرَأْسِهِ وَإِسْحَاقُ وَمُحَمَّدٌ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ
 مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَنْصَحْنِي
 السِّجْنُ وَأَنْ تَابُ تُشْفِرُ قَوْمَكَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠٤﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا
 أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرَافًا وَآبَاءُ ثُمَّ مَا أَرْزَاكُمُ اللَّهُ بِمِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
 الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ إِلَّا إِلَهُهُ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
 يَنْصَحْنِي السِّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّي فَتَدْعُ اللَّهَ
 الْعَزِيزَ الرَّحِيمَ فَصَبَّيْ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ
 مِثْلَهُمَا اسْكُنْ عِندَ رَبِّكَ فَاتَّبَعْنَاهُ السَّمِيعُ الْغَنِيُّ ﴿١٠٧﴾ وَالسِّجْنُ بِضْعَ

مِائَةٍ

بيان معاني الألفاظ:

البلية : الدين .

تركة : لم أخذ مع إمكان الأخذ .

السلطان : الحجة .

القيم : المستقيم .

قضى : تم القضاء ولا مبدل له .

بضع : يقال للعدد بين ثلاث وسبع .

تستفتيان : تطلبان ما يزيل الإشكال بالفتوى .

بيان المعنى الإجمالي :

نظمت امرأة العزيز ما لراحت، وأدخلت يوسف في السجن، ودخل معه السجن
 فتيان من فتيان الملك، كانت صلاتهما في السجن بيوسف قوية، فعرضنا عليه رؤيا

في مناسبتها ليبرها ثقة منها بما شاهدها من استقامته وكمالاته، إذ لاحظا أنه يسير في جميع شؤون حياته على الوجه الحسن. قال لهما يوسف: سأعبر رؤياكما قبل موعد تناول المساجين للطعام، وإن تعبيرى هو من فضل ربى الذي خصنى بهذا العلم، لئى لم ألتفت للذين كان عليه القوم الذين لا يؤمنون بالله وينكبون يوم القيامة. والتزمت في حياتى للدين الذي سار عليه أبائى من قبلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، نوح الله ولا تشرك به أى شيء. إن هذه الهداية حصلت لنا والمؤمنين أمثالنا بفضل من الله. وللعجب أن كثيرا من الناس يقابلون نعم الله وفضله بالكفر ولا يشكروه.

ثم قدم لهما حجة تقنعهما بالتوحيد، أرجعا إلى ما تحكم به فطرتكما، أيهما أفضل أن تعبدوا الله متفرقين لا صلة بينهم، هذا للصور وذلك للظلمة، وهذا للخصب وذلك للفقح، وهذا للغم، وذلك للمطر وهكذا، وكل إله لا يتصرف إلا فى ميدانه وهو عاجز عن الدخول فى ميدان غيره من الآلهة؛ أو أن تعبدوا إلهًا واحدًا يتصرف فى الكون كله ويجزبه على نظام متكافئ، إن الذين يعبدونهم من دون الله لا حقيقة لهم، لأنهم الذين أطلقتم عليهم أسماء الأوثان، وجعلتموهم إلهة ولا حجة لكم. إلههم عجزه والحكم لله وحده الذي أمركم، وأمره يجب أن يطاع، أمركم أن تفرطوا بالعبادة، إن ذلك هو الدين المستقيم الذي يبلغكم سلامة العاقبة. والصرف الناس عن هذا الدين هو بسبب جهلهم.

ثم أعظمها بتأويل رؤياهما فقال: الذي رأى أنه يعتمر الخمر مخرج من السجن ويفرجه الملك ليتولى مناصبه وحضور مجالس أسرته، ولما الآخر فسينفذ فيه العقاب بقتله وصلبه وانفضاض الطيور الكاسرة عليه تأكل من رأسه، انتهى الأمر وقضى الله بما قضاه وهذا تأويل رؤياكما.

وقال يوسف للمباي الذي بظن ظنا مؤكدا أنه سيتحقق له فى المستقبل ما أخبره به، قال له: أذكرنى بما علمته منى وبظلامتى عند الملك، ونسى الساقى بعد خروجه من السجن وصية يوسف، فبقى يوسف فى ظلام السجن حوالى سبع سنوات.

بيان المعنى العام :

36- ودخل معه السجن فتيان...إلى نراهم من المحسنين

تم لامرأة العزيز سا أرادت، وأدخل يوسف فى السجن ليفضى فيه أعوانا. وصادف أن دخل معه السجن فتيان كانا يعملان فى قصر الملك، وما إن وقع نظرهما على يوسف حتى أنسا به، وتقربا منه، وتقربا فى سلامته فوثقا بمزايما هو

بكمالاته. ولتقصّر القرآن على ذكر هذه العلاقة لأنه كان لهما دور في مستقبل حياته الفلاحيين كنا نجزم أن إقامته في السجن أدخلت على السجن جواً جديداً، بلطفه وحسن معشره، وهو أخلاقه، وتخفيفه كرب المكروبين، فكان الفاعل مستودع أسراره، وملجأ لهم يخفف عنهم وحشة السجن وقساوته.

وكل سجين يفكر في اليوم الذي يخرج فيه من السجن، ويتعلق بكل بارقة أمل، ويرغب في تطلع القريب ومن ذلك تأويل لحلمه. وكان من هذين الفلاحيين: أن أحدهما رأى في منامه كأنه يعصر العنب ليحوّله إلى خمر، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً والطير تتغذى منه، تتفرع مما يحمله.

وقص كل واحد منهما رواية على يوسف ليؤول لهما ما رآه، وتعلقا في مخاطبته قبل أن يعرضاً عليه قال له: إنا نعتقد أنك من المحسنين، الذين صفت لأرواحهم وسمت نفوسهم الذين يُمكن لهما النفاذ إلى ما وراء النواصر. فهذه رؤيانا فعبّرنا لنا لعنا نرى فيها خطباً من أمل.

37-40، قال لا يأتىحكمما معام ترؤفانه... أكثر الناس لا يعلمون.

و جد يوسف من الفلاحيين شدة تعلق به، وأنه يمكنه أن يهديهما إلى الدين الحق. فلما لهما لولا: بأنه سيفسر لهما ما رآه. ويؤوله قبل الوقت الذي من السعدان أن يوزع الطعام فيه على المساجين. ولما سمع أن قدرته على التأويل أتته من أن ربي علمني تأويل الرؤيا ورزقني هذا العلم الذي استقر في عقلي. وبهذا تمكن يوسف بحكمته أن يزيد إقبال الفلاحيين وابولهما لما بعرضه عليهما، فما هو تفصيل هذه الحكمة في الدعوة ٢

أولاً: أخيراً بل إن الشرك منتشر في الدنيا، وأنه لم يأخذ ولم يتبع ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله الذين قصروا أفكارهم على الحياة الدنيا، وكفّروا باليوم الآخر المدي يجازي فيه كل إسمان على ما قدمه في حياته.

ثانياً: إنني التزمت في عقيدتي نفس الطريق والصورة التي كان عليهما أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم وضع ذلك بأنّها عقيدة تنفي أي شريك لله في الوهيتة. الوحدانية الكاملة التي لا شائبة فيها. إن اعتدائنا للتوحيد فضّل من الله علينا وعلى من كان على نهجنا من الناس. والعجب أن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم فيكفرون به وينسبون ما حصلوا عليه من الخير إلى غيره.

ثالثاً: أقام لهما دليلاً يناسب مسئولتهما الفكري وفطرتهما وورق في مخاطبتهما، فتأداهما: يا صاحبي المسجن، كأنه يقول لهما إن ما لتما فيه من السجن والعذاب

حصل من المشركين بالله، ونحن هنا نعمل وحدة نرفض ما هم عليه. ارجعنا إلى القبطرة، هل الأفضل أن نكون تابعين لألوهة متفرقة، كل واحد منها عاجز عن التدخل في ميدان الآخر، ويتصرف في ميدانه الخاص، أو الأفضل أن نكون عابدين لإله واحد يقهر الظلم والاستبداد ولا يرضى بالقرصى.

رابعاً: إن الألهة التي تعبدونها لا حقيقة لها ولا وجود فيها خصائص الألوهية. هي أسماء أطلقتوها أنتم على ما لا صلة له بالربوبية، لم يقم خالق الكون عليها حجة توجب عبادتها أو التقرب إليها. انتبهوا فهي لا تتصرف ولا تحكم في الكائنات، والذي تفرد بالتحكم في كل شيء هو الله. والمتحكم في الكائنات هو الحقيق بأن يعبد وبذلك أمر سبحانه. إن الدين الذي هو على هذه الصورة هو الدين للمستقيم السائر مع العقل والبدية، الذي لا عوج فيه، والذي ينتهي بكسب إلى سلامة العاقبة. ولكن غلبة الجهل على الناس صرفتهم عن عبادة الله وحده وتعلقوا بالشركاء.

40- يا صاحبي السجن أما أحدكما ساهية تستفتيان.

ثم وفي لهما بما وعده من تفسير رؤياهما، وأولها لهما على النحو الآتي:

أما الذي رأى نفسه يعصر، فيكون ساقى الملك يحضر مجالس ندمانه. وأما الذي رأى الطير تأكل من الخبز الذي يحمله فوق رأسه، فسيفقه الملك ويصليه، وتأتي كواسر الطير فتأكل من رأسه. ثم القضاء بما أخبركما فلا يقع في المستقبل إلا ذلك.

41- وقال للذي قتل أنه نازح منهما... بضع سنين.

ثم أوقف يوسف الله طلباً توجه به إلى الساقى، الذي يظن ظناً قوياً أنه سيبدو، وأنه يكون قريباً من الملك وخاصة في أوقات فراغه وإشراحه. طلب منه أن يفتح فرصة يذكر فيها للملك ما عرفه في السجن عن يوسف، ويرفع عنده مظلمته، يخرج الساقى فعلاً من السجن، وكان قريباً من الملك يحضر مجالس ندمانه. ولكنه لم يسمع يوسف الله. وما كان تفقد المساجين وتجديد النظر في أمورهم مزعياً في ذلك العصر. بل ينسى المسجين في كثير من الأحيان حتى يموت. ونسى الساقى عرض قضية يوسف على الملك، فاستمر مسجده نحو الي سبع سنوات. وإذا كان كل أمر يحدث في الكون هو بقدر الله وحكمته، فإن بقاء يوسف وتسلط الشيطان على الساقى حتى جعله ينسى يوسف الذي كان معجباً به ومرجماً له، علله كثير من المفسرين بأن يوسف علق آماله بنظر الملك في شأنه، وكان كماله يقتضي أن يدعو الله ويعلق آماله على استجابة دعائه. ولهذا الكلام وجه من النظر. ولكن الذي

لها: سنمرارا على العادة.

شدّة: جمع شديدة بسبب الجذب.

ياكثر: يُفَنِّين

الإحصان: الانخار بالوضع في الحصن، مكان الانخار.

يلت الناس: تنزل فيه الأمطار وينتشر الخصب.

يعصرون: تتمر أشجار العنب ما يعصرون منه الخمر.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى الملك رؤيا في منامه عرضها على حاشيته ورجل الدولة ليعبروها له. قال: إنه رأى سبع بقرات سمان يتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة فيأكلنها. وسبع منبلات خضر، وسبع منبلات يابسة. فأشكّل فهمها عليهم وقالوا: أحلام لا نسق بينها تراكمت واختلطت، ونحن جاهلون بتأويل الأحلام المعقدة المختلطة. وتنبه المساقى الذي نجا من العقاب فتذكر يوسف بعد سنوات، لما سمع ما دار بين الملك وعلية لقوم، فتقدم للملك وقال: لنا استطيع أن أخبركم بتأويل رؤياكم، فلنأنا بإرسالي.

لأن الملك بإرساله فتوجه إلى السجن، وبأمر يوسف الله بالتأويل بخلقه وكما إلهه (أيها الصديق) وعرض عليه الرؤيا كما تحدث بها الملك، ولأن الناس تحبوا في تأويلها، وينظرون ببال ما فيها من غموض.

قال له يوسف: تقومون بزراعتكم سبع سنين على ما هو معتادكم. وستكون سنوات خصب. لكن عليكم أن تقتصدوا في التمتع بما تنتجونه فيها، وأن تدخروا الزروع الفائضة عن القليل الذي تأكلونه في المنابل بدون درن، ثم يبيع السنوات السبع هذه سنوات سبع شديدة قاحلة لا تنبت الأرض فيها شيئا، تأكلون فيها ما انخرتم ولا يبقى إلا شيء قليل، ثم في السنة الثالثة للسبع يأتي عام خير وخصب فتتزل الأمطار ويجري لري في الأشجار فتعصرون من ثمارها ما تعصرونه في مني الخصب.

بيان المعنى العام :

43 45، وقال الملوك اني ارى سبع... فأوسلوه

بقي يوسف في السجن إلى أن أخذت بوابر الفرج تظهر إثر رؤيا رايها ملك مصر الذي هو أحد ملوك العاقبة في مصر السفلى، وليس من ملوك القبط الفراعنة. رأى في المنام رؤيا حيرته لتناقض مفوماتها. رأى أن سبع بقرات سمان قوية البنية، تتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة ضعيفة البنية فيأكلنها، وسبع منابل خصراء

وبجانها سبع منابل ياتمة، وتوجه إلى حاشيته والمقربين منه وخاصة الكهنة الذين كان لهم اختصاص في تعبیر الرؤى، عارضاً عليهم ما حيره من رؤياه، طالباً منهم أن يقدموا له تفسيراً لما رآه لأن كل لهم علم بتعبير الرؤيا.

و تعبیر كبار القوم والكهنة من الحاشية الملكية في فهم ما ترمز إليه هذه المجموعة المتنافسة، وكان جوابهم: هذه تراكمات من الأحلام مختلطة ومتداخلة غير واضحة ولم نجد ما يزيل الإشكال.

وهنا يتبه الساقى، ويأثر في نفسه ما نسيه بعد سنين طويلة وتذكر يوسف ذلك وكيف أفتاها في رؤياهما، وقد صبق تفسيره وتم في الواقع ما أخبر به. وتوجه إلى الملك مخاطباً له خطاب التعظيم: استأذنكم في الذهاب إلى الشخص الذي ينبئكم بتفسير رؤياكم.

لأن له الملك، فجرى نحو السجن، ودخله دون أن يعترضه أحد فهو رسول الملك، وتمكن سريعا من الاتصال بيوسف ذلك وخاطبه بكل أدب معبرا عما عصوت به نفسه من تعبیر قائلا: يا يوسف، يا أيها الصديق (الرجل الكامل في صفاته، النفس في سلوكه، الوفي للقيم العليا التي يحملها) أزل عنا الإشكال في رؤيا، وعرض عليه ما رآه الملك بدون زبد ولا نقص. وأنهى كلامه بأنه: بفضل فتواه سيعود إلى الملك وحاشيته فيزيل حيرتهم ويعلمون تأويل الرؤيا.

47- 49، قال تَزْرَعُونَ سبع سنين ذابا..وفيه يعصرون.

بما علم الله يوسف من تأويل الرؤيا، وإزالة الغموض المتسحب عليها، عرف الساقى المسائل، بما يزول إليه كل عنصر من عناصرها، فقال:

لولا: تَزْرَعُونَ سبع سنين على العادة التي يسيرون عليها في قلاحة الأرض، وسيكون نتاج لرضكم وحررا، وتتنبأوا فإن عليكم أن تبقىوا ما زاد على قوتكم في كل سنة مما تحصنونه في سنابله، وأن تقتصدوا ولا تبذروا، وعليكم أن تقتصدوا على الحد الأدنى لقوتكم في تلك السنوات، وأن تدخروا الساقى.

ثانياً: سنوات الخصب ستنتع بسبع سنوات يعم فيها الجندب، تنمو فيها الأرض على أهلها فلا نبات ولا زرع، يقات النمل مما ادخروه في سعي الخصب، ولا يبقى بأيديكم إلا قليل مما تدخرونه .

ثالثاً: بعد السنين الشداد القاحلة يأتي عام تتابع فيه الأمطار ويعم الخصب ويجري الماء في النبات والشجر. فتعصرون من أعقاب الكروم خمورا، ومن قصب السكر ما يجري بين أياقه، ومن بقية الفواكه ما كنتم تعصرونه قبل الجفاف.

فتبين أن البقرات للعجاف اللاتي يأكلن البقرات السمان: البقرات السمان السبع للأكولة هي سبع سنوات من الخصب متواليات. والبقرات العجاف الهزيلة الأكلية: هي سنوات سبع ومع فيها القحط ويأكل الناس ما يخسروه من سني الخصب. والسنايل الخضراء السبع: هي ما يحصلون عليه من الزروع في سنوات الخصب، والسنايل اليابسة هي السنايل المذخرة.

وقد جمعت فتواه بين بيان الغموض، وبين التدبير الحكيم للتعامل مع المحاصيل الوفرة في سنوات الخصب السبع، من الاقتصاد وعدم التذير، ومن ادخار الحصاد في السنايل حتى لا يمرض إليه السوس. وبين بيان أن سدة الله جرت على أن يغيب العسر اليسر.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَرِينِ إِنَّ نَارِي بِكَ يَدِينُ عَلِيمٌ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِي بِنُفْسِي قُلْتُ خَشِيَ إِلَهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَأَتَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ فَتَنَ حَصْحَصُ الْحَقِّ أَنَا وَرَوَدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنْبَغِذِينَ ۚ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ أَخْنُفْ بِالْقَيْدِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ • وَمَا أَزِيدُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالْأَعْمَارِ إِلَّا مَا وَجَعْتَنِي إِنَّ نَفِي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝

بيان معاني الألفاظ :

الخطيب : الشأن الهام من حالة أو حادثة.

حاشم الله : صيغة يراد منها المبالغة في النفي والتكزيه.

حصحص : ثبت واستقر .

بيان المعنى الإجمالي :

لما بلغ الساقى تفسير يوسف قبيلاً للملك وحاشيته، أكبر علمه ورجاحة عقله وحسن تدبيره . فأمر بإخراجه من السجن ولن يحضر لديه. وتوجه رسول من القصر الملكي ليوسف حتى يقبله الملك. وامتنع يوسف من الخروج من السجن وقال للرسول: اذهب إلى الملك واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز وجرحن أيديهن ماذا علمن وما شاهدن ؟ لأن ربي لا يخفي عليه شيء من كيدهن لي.

جمعهن الملك وسألهن عن الأمر الذي حصل عند مراوئتهن يوسف عن نفسه، فأجمعن على التخلص من اتهام يوسف بريئة ونفسه بريء. وكانت امرأة العزيز

حاضرة، فصرحت: الآن بآن الحق وظهري أنا تعلقت بيوسف وراودته ليتصل بي، وإنه لصادق فيما ذكره من براءته من مزلومتي.

كان يوسف قد يهدف من إحضار النسوة إلى تحقيق أمرين: أن يثبت براءة عرضه مما اتهم به، وأن يثبت يقيناً للعزیز أنه لم يخنه في زوجته عند مفينه، لأن الله لا يساعد الخائنين بما يحجب الحقيقة إلى الأبد.

ثم توجه مطمئناً أن تثبته على الطهارة هو تبع لما صحبه من الطواف، وأنه لا يدعي أن نفسه نفس تسمى عن الضعف القهري، بل كل نفس تنزلق إلى الإثم إلا إذا رحمها الله وثبتها على الطهر والسمو، إن ربي غفور للذنبين التائبين. رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

٥٠- وقال الملك المتولي يوسف: إن ربي بكيدهم علي.

رجع الساقى إلى الملك وحاشيته، ونقل إليهم نقلاً أميناً ما سمعه من يوسف. فكان لذلك تفسيره. ولما أجمعه من التوجيهات في مقابلة الخصم والجندب، وفي طريق خزن الزروع، وما اضطره من تعقب السنين الصعبة سنة خصب ووفر خيراته، كان لكل ذلك موقع التقدير لمواهب يوسف التي عند الملك، وقال ما محصله: هذا الرجل ينبغي أن يكون إلى جانبي بمساعدتي على تصريف أمور الدولة، لتتولي به.

وتوجه من القصر الملكي رسول الملك يسرف القهري ليوسف: إن الملك عفا عنك. فما كان موقف يوسف وقد تولى الملك بنفسه الأمر بإخراجه من سجنه ويهت برسوله إليه؟ كان يوسف لما دخل السجن بريناً عند الله، متهماً بالخيانة عند السجين بلخهم خيره مع امرأة العزیز. فما كان منه لحكمته وبالف صبره إلا أن قال للرسول

الذي كان يظن أن يوسف سيسرع بالخروج معه: أرجع إلى سيدك الملك (ربك) فاسأله موالاً بزيل الشبهة ويبرئني مما اتهمت به. قل له: يقول لك يوسف: ما حقيقة أمر النسوة اللاتي جرحن أيتيهم في مجلس امرأة العزیز؟ إن ربي الذي أنا مستمسك برعايته عليم بكيدهم. ولما قل أن يقول ما هو كيدهم؟ فإن التي كادت له هي امرأة العزیز. واستشعر المفرون هذا السؤال وأجابوا عنه بأجوبة غير مفيدة. والذي ترجع عدي: أن النسوة عثرن امرأة العزیز في حبه وعملها على وصاله، وأن ما وقع فيه من إعجاب بشمال يوسف يخفي مشاركته الرغبة في سقوط يوسف في حبال المضيق، وما يمكن أن يتبعه من صالين، فأخفا الحقيقة وأيدوها فيما اقترحته من سجنه، ومن شال الظالم أن يظلم أن يظلم من يبرر له ظلمه، فيمضي فيه.

51 - فقال ما خطبك من إذ راودتني يوسف... وإنه لمن الصادقين.

حمل الرسول رسالة يوسف إلى الملك، فأمر بدعوة الحاضرات في ضيافة لمرأة العزيز، ولتين إلى مجلس الملك، وألقى عليهن التمثال التالي: ما هي حقيقة الأمر الذي تم عندما راودتن يوسف عن نفسه، هل استجاب للإغراء؟ وكان جوابهن واضحا ناديا للغالة التي تحدث بها في المجالس، حيث نهرنا إلى الله من اتهام يوسف، ما علمنا على يوسف خروجا عن العفة أو سقوطا في الرذيلة.

كانت امرأة العزيز حاضرة في مجلس الملك فوقفت معانة: في هذه اللحظة ثبت الحق واستقر، وسقط كل ما كذبت فيه على يوسف: أنسا في ضيعتي تلقيت به فراودته عن نفسه طمعا في وصاله، وبصفة مؤكدة: هو علي الحق من الصادقين.

52-53. ذللت لي علم أني لم أخذه بالغيب ... إن ربي غفور رحيم

الذي أفهمه من الإيتين: أن يوسف الذي طلب إحضار النسوة اللاتي حضرن مجلس
المرأة العزيز لغرضين:

لولا: غرض رفع كل تهمة علفت به من قبل حتى يكون عرضه نقياً عند الناس كما هو في الواقع، وبهذا لا يجد حساده مغزاً في سيرته ينفذون منه إلى الإيقاع به.

ثانياً: ليعلم عزيز مصر علماً يقينياً أنني لم أخفه في غيبته، ولم أعشد على شرفه، وإن الله سبحانه لا يؤيد ما يكذب به الخائلون لبلوغ مقاصدهم الخبيثة إلى ما لا نهاية، بل يكشف أمرهم ولو طال الزمان.

و ختم كلامه متواضعا لله، مطهرا مسعفا حتى لا يفهم منه أنه نجا وعف لقوة
بركته. فقال: إني لا ادعي براعتي من المعصية وإنهاة نفسي وبعدي عما رميت
به لمزايا الذاتية، فإن كل نفس قد تنزل وتنحط وتأمر ملحة صاحبها بالإقبال على
الشهوة والخطيئة والإثم، وأن الذي يعصم الإنسان هو رحمة الله التي تحوط به
فتفتح بصيرته، فتصفو سريرته، وينقذ من الخطيئة والإثم. وفوق ذلك فلهن ربي
غفور نزلت الثابتين رحيم بعباده الذين يتعلقون برحمته.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِمَا أُشْرِكُ بِهِ لِقَائِي قُلْتُ بَلَىٰ كَلِمَةً قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
 آمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ أَتَجْعَلُنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَوِيفْتُ غُلَامًا مِنْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
 يُونُسَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا رَبَّنَا حَتَّىٰ نَمُوتَ نَحْنُ وَمَنْ بَعَثْنَا مِنْ نَحْنُ وَلَا نُضِلُّ أَجْرَ
 الْمُخْسِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِالْإِيمَانِ وَآمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ ،

استخلصه لنفسه: أجعله خلاصا لي لا يشاركني فيه أحد.

مؤمن: ذو مكانة ومرونة عظيمة.

أمين: موثوق به لا يخون.

بنوا: ينزل ويتصرف.

نصيب: نعطى عطاء الفضل.

بيان المعنى الإجمالي ،

لما ظهرت براءة يوسف أمام الملك مستبأه الرفيع في العلم والأدب والحكمة، أصدر أمره بأن يخرجوه من السجن ويحضره بمجلسه.

تحدث الملك إليه فكان ما سمعه منه ملا نفسه إعجابا بكماله وجمع ما استقر في نفسه بقوله: إن لك المنزلة القوية في الدولة وإنك أمين مطمأن إليك، فتول ما شئت من أمور الدولة فإنا آثق فيك.

عرض يوسف على الملك أن يسند إليه الحفاظ على أموال الدولة وما تملكه من الأرض، موحها طلبه بأنه يحفظ الأموال بحسن التصرف فيها وتتميزها، وأنه يباشر عمله حسب القوانين العلمية التي لا مكان فيها للعواطف والارتجال، وأعطى ما طلب، فمكنه الله من أرض مصر ينقل في أقلابها بسدد المسيرة ويباشر الأمور من قرب، وتجري الأمور حسب إرشاده وتوجيهه.

إن الله يعطي موجبات رحمته لمن يشاء، ويوفي للمحسنين في مساوئهم أجرهم دون أن يضع منه شيء. وفوق ذلك الأجر الذي أعده في الآخرة للمؤمنين المتقين

بيان المعنى العام ،

54- 55، وقال الملك لتوني به استخلصه... حيثما عليهم.

لما أبلغ الرسول جواب يوسف وظهرت براءته تبعها لما طلبه من إظهار الحقيقة؛ عندها قال الملك: لتوني بيوسف أجعله خلاصا لنفسه، يكون مقربا مني، يساعدي على تسيير أمور الدولة، ولا يهتم بشيء آخر.

تحدث الملك مع يوسف، فزاد إعجابا برجاحة عقله، وحسن منطقته، وكمال أدبه، وعلو أخلاقه، ووجد فيه الرجل الذي يحق أن يستعين به في تسيير أمور الدولة. فخير له عما تقتضيه هذه الثقة وذلكم الإعجاب بقوله: إنك اليوم في مرتبة رفيعة، نشتا فيك تلمة لأمانتك وسمو أخلاقك.

فهم يوسف من تصريح الملك: أنه يريد أن يستقفي به في بعض المهام، فقال للملك: ولني التصرف في خزان الدولة. والذي أفهمه من ذلك حسب تعبيرنا اليوم أن يوليه وزارة المال بما يشمل الأموال والمنتجات الزراعية، يتصرف فيها تنمية وتوزيعا. ويرر طلبه هذا بأنه مؤهل لذلك لجمعه بين صفتين:

الأولى: قدرته المتميزة على حفظ الأموال بتمورها وحسن التصرف فيها، وأمانته في إعطاء الناس حقوقهم وعدم ظلمهم.

ثانيا: مستواه المعرفي الذي يتصرف به في الأموال تصرفا مستجيبا لما يقتضيه العلم الكاشف عن الوجوه الصالحة للتصرف فيه، الذي لا دخل فيه للعولطف والمحسوبية والارتجال.

56 57، وهكذا مكنا ليوسف في الأرض، وسكانوا يتقون.

وعلى هذا النحو من التأييد بسرنا ليوسف ما بلغ به المكانة العليا في أرض مصر. دخلت الأراضي والعاملون فيها تحت قيادته وتوجيهاته؛ وما نزل في أي مكان إلا كانت دوليب الاقتصاد تحت إمرته، بعد أن أحكم تنظيمها وربط بينها، فقله تعالى (يتبوا منها حيث يشاء) نكل على أصل عظيم من أصول النجاح في التسيير الاقتصادي، الذي هو إحكام التواصل بين الأقاليم.

وعطفت الآية بإيراد قاعدة أساسية، أن الله يمكن من يشاء من موجبات رحمته. ويتفضل بتوفير أجورهم على ما أجرى على أيديهم من صلاح وخير. وفوق ذلك، التكريم والثواب في الآخرة، ذلكم التكريم الذي يخص به عباده الذين صفت أرواحهم بالإيمان وصلحت أعمالهم بسلوك ممالك التقوى.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٦ وَلَمَّا خَبَّزَهُمْ
بِحَبْلِهِمْ قَالَتْ ثَلَاثُ نِجَاتٍ بِكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ لَا تَرْجُوا أَنَّ أَهْلَ الْمَكَاتِ وَأَنَا خَيْرُ
الْمُنْجِينَ ٥٧ فَإِنَّ لَّهٗ تَأْوِيلَ مَا تَعْمَلُونَ ٥٨ فَمِنْ تَحْتِهَا أَسْرُودُ
عَنْ آهَاءِ زُرَّادٍ سَاجِدُونَ ٥٩ وَقَالَ الْمَلِكُ أَجْعَلُوا بِحَبْلِهِمْ لَعْنَةً فَرَفَوْهَا
إِذَا أُنْفِلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعْنَتُهُمْ يُرْجَعُونَ ٦٠

بيان معاني الألفاظ .

منكرون : جاهلون أتم الجهل أنه يوسف.

الجهل : ما يحتاج إليه المسافر .

بضاعتهم : ما قدموه ثمنًا للطعام.

رحلتهم : جمع رحل وهو ما يوضع على البعير من متاع الركاب.

الانقلاب : الرجوع.

سراوذه : سحلول.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ يوسف **ثقة** في تمييز المهام بحكمته، وأعطيت سنوات الجندب سنوات الخصب. ووقعت أسرته في ضيق، فجاء إخوته يرغبون في شراء الطعام. وأدرك يوسف لما رآهم أنهم إخوته بينما هم لم يتفطنوا أنه يوسف. وبعد أن سلم لهم ما اشتروه قال لهم: اصطحبوا في المرة القادمة أخاكم للأب، واعطوا أنه إذا لم بات معكم فلا أبيع لكم شيئاً من الحبوب، ولا أقبلكم. أجابوه بأنهم سيحاولون أباهم ليسألهم، وأنهم يبتذلون فصارى جهدهم. ومن حكمته أن لن عماله بأن يجعلوا ما قبضوه منهم في رحلتهم. رجاء أن يعرفوها عندما يصلون إلى منازلهم، فيكون ما وجدوه من الأثمان الراجعة إليهم محرضاً لهم على العودة لشراء الأقوات. ولا يحول الفكر بينهم وبين العودة إلى مصر.

بيان المعنى العام :

58 -- 62، وجاء إخوة يوسف فدخلوا... إلى أهلهم تعلمهم برجعون.

استقر يوسف **ثقة** مبائراً لمهامه. وتتابعت السنوات فجاء الخصب متبع مسين تصرف فيها بالحكمة حسب الخطة التي فتمها في تعبیر الرؤيا. ثم تولفت سنوات للجندب، وصمت أرض مصر وما جاورها من أرض فلسطين حيث منازل أبيه وإخوته. وأصاب يعقوب وبنيه وأهله ما أصاب المنطقة من الشدة. وطوى القران تفاصيل الأحداث التي تلت قيام يوسف **ثقة** بمهامه، لأنها أحداث طبيعية لا عبرة خاصة فيها. ويتصورها القائل لكتاب الله كما يشاء دون أن يدخل خلل في التعبير التي أحكمتها محطات القصة.

تناولت هذه الآية سدا ارتباط اخر القصة بأولها. فقد تتبّع القران ما حدث ليوسف **ثقة** بعد إلقائه في البئر إلى أن أصبح للرجل الأول في دولة الكنعانيين بمصر. ولم يتحدث عن أبيه وإخوته. ولكن من هذا الموقع عاد الارتباط بين يوسف وأسرته. تلك أن الجندب الذي عم المنطقة كلها، وقد علم الناس أن الدولة قد استعنت لإسعاف الجياع بالأقوات. فوجه يعقوب وبنيه بما عندهم من بضاعة يقدمونها ثمنًا لما هم في حاجة إليه من الأقوات.

جاء إخوة يوسف إلى مركز بيع الأقوات، وقد كان يوسف يتولى مراقبة مركز البيع مراقبة حازمة ومتابعة، فلما دخل إخوته لشرء ما هم في حاجة إليه، رمقهم يوسف وعرفهم، بينما استمر إخوته في ذهلهم عن تصور أن الذي يتحكم في أقوات المنطقة هو أخوهم. وطوى القرآن ما دار من حديث بين يوسف وإخوته، ويفهم من قوله **أَتُورَىٰ بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُم**، أنه **أظن** استرجعهم للحديث، ووصل بفضل لقائته من تحقيق ما أراده من محاسنتهم دون أن يتطعنوا المراده. ولما كانوا يريدون شراء طعام يكفي لأسرتهم فقد يكون أنه سألهم عن عدد أفرادها، وأعلموه أنهم إخوة أشقاء، ولهم أخ من أبيهم لم يصحبهم في سفرهم. ولعل يوسف نظم توزيع الأقوات على عدد الرؤوس التي تتكون منها العائلة، فلما مكنهم من حصص أخيهم الذي لم يحضر معهم طلب منهم أن يحضروه في المرة القادمة، وأنهم إن لم يأتوا به معهم فلا يتوقعوا أن يحصلوا على شيء، بل إنه لا يسمح لهم بقربه ولا بتقديم أي عذر. ثم حركهم لقبول طلبه بأنه ملتزم في تسيير الأسور بالعدل والشفافية، ولفت لظنهم إلى ما شاهدوه في ناحيتين: أولاً: أنه يوفي الكيل ولا يفتقر من حقوق المشتريين شيئاً، على أن الظرف تبعاً لشدة الحاجة قد يجعلهم يقبلون بما يعملهم ولو كان أحط من حقوقهم. وثانياً: أنه يستضيف المشتريين ويكرمهم إكراماً على خير الوجوه، فإذا قدموا مع أخيهم فإنه يستضيفهم جميعاً.

تبقوا من جذية يوسف، وقالوا له: **سلحوا له**، بكل تأكيد، لئلا يتركه يخرج منها في المرة القادمة.

ثم إنه تبعاً لشدة ذكائه، أمر القنصلين المشتغلين بعمليات البيع وقبض الأثمان تحت إمرته، أن يضعوا ما قبضوه من إخوته في رحالهم، وذلك، لمعلمهم إذا رجعوا إلى أبيهم وجدوا الأثمان التي دفعوها قد عادت إليهم، فلا يتخلفون عن العودة إلى قنصراه من جديد، إذ كانت هباتهم تكل على ما هم عليهم من الفجر والخصاصة.

فَلَمَّا جَاءُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا سُبِّحَ مِنَّا الْكَوْكَبُ فَأَرْسَلْنَا بِمَعَا أَخَانَا نَعْتَلُ وَإِنَّا لَهُ سَافِلُونَ ٦٠ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَيْفَ آمِنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالُوا خَرَجْنَا حِفْظًا وَهُوَ أَخْلَصُ الْإِيمَانِ ٦١ وَلَمَّا دَلُّنَا مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْهِي خَبِيرُوا بِضْعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْدَ جِيرَاءَ بَلْ كَيْدُ سِيمٍ ٦٢ قَالَ لَن أُوَسِّلَ مَعَكُمْ ٦٣ حَتَّىٰ تَوَدُّوا مَوَدَّتِي

مِنَ اللَّهِ لَعْنَتِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِكُمْ . إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ وَكِيلٌ . وَقَالَ إِنِّي لَا تَخَلُّوا بَيْنَ نَاسِهِ جُيُودٌ وَأَذْخُلُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . مُتَقَرِّفِينَ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ . إِنْ أَحْسَنْتُمْ إِلَّا زِيدَ عَلَيْهِ نِعْمَتِي . وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُتَوَكِّلُونَ

بيان معاني الألفاظ .

الميرة : الطعام المجلوب .

موتق من الله : يمين ، الله شاهد على ما التزموا به .

لن يخلط بكم : تكونون في مازق لا حيلة لكم في الخروج منه .

وكيل : رقيب على تنفيذ ما التزمنا به .

لا أغني عنكم : لا أجزئ ولا أبلغ ، فلا تكفيكم .

بيان المعنى الإجمالي .

هذه الآية تفصل المشهد الذي حصل إثر رجوعهم من عند يوسف . بالذوا قيل أن ينزلوا رجالهم يعرضهم على أبيهم ما تم بينهم وبين العزيز الذي انتهى إلى حرمانهم من الطعام إن لم يصبحوا أخاهم وأنهم يرغبون في الإذن له بالسفر معهم ووعده بحفظه . وأجابهم بإشارة لأذنة ، مذكرا لهم بما انتهى إليه حفظهم ليوسف ، وإن حفظ الله له خير من حفظهم . ثم قاموا إلى رجالهم لإنزال الطعام الذي جلبوه . وكانت معاجلتهم كبيرة ، إذ وجدوا المتاع الذي قدموه ثمنا عاد إليهم . فكرروا طلبهم أن يصبحهم أخوه نظرا لهذا المعطى الجديد . إذ ثمن الطعام حاضر . فلما ذهب لئلا ياتي بالميرة لأهلنا ، ونرعى أخفا رعاية تضمن سلامته ، وينال أخونا ما يعطيه العزيز لكل فرد ، فمضيف ما يكال ليعبره ، وتحصيلنا عليه أمر يسير لكريم العزيز . قال لهم ليوبهم لا أذن له بالسفر معكم إلا إذا قسمتم لي بالله موتقين بذلك . عدكم من رجوعكم ببنيامين إلا إذا حال بينكم وبين البير بقسمكم موانع تقوق طاعتكم . وزادهم تأكيدا محذرا بأن الله هو الوكيل على ما عهدناه .

وأردف ناصحا لهم أن يتوزعوا عند دخولهم لمدينة العزيز ، وأن يتفرقوا لينفخوا من عدة أبواب ، حتى لا يلتقوا إليهم أنظار الحرس والقائمين على الأمن ، مبينا لهم أنه لا يستطيع أن يدفع عنهم الأذى ، فإن التصرف والتنفيذ هو بيد الله . على الله توكله وعليه وحده سبحانه فليتوكل الصالحون المتوكلون .

فيما بين المعشر العاشر

63-64، فلما رجعوا إلى أبيهم فأتوا يوسف أرجح الراحمين.

لما رجع إخوة يوسف إلى منازلهم دخلوا على أبيهم وقصوا عليه ما وقع لهم مع عزيز مصر المتحكم في الأقوات، والعقدة الكبرى أن العزيز أخذ قراره: أنه لا يمكنهم من الطعام في المستقبل ولا يتحدث إليهم ولا يقبل أي عذر منهم، إلا إذا استطعوا أخاهم، وطلبوا من أبيه أن يأذن لهم في أخذ أخيه معهم حتى يستطيعوا لشراء الطعام ونسلم الكليل الذي يقابل الثمن الذي يبدلون، وأكدوا أنه أنهم يقومون بحفظه ويرعونه في سفرهم حق الرعاية.

كان جواب يعقوب دقيقا، فقال لهم: قد علمت أنكم ترغبون مني أن أؤمنكم عليه، وأي الثمن هذا؟ هل هو كما أؤمنتكم من قبل على أخيه يوسف؟ يشير إلى التجربة الأولى التي أصفها ضياع فلذة كبده يوسف. وقالوا له: إنهم سيحفظونه، ثم وإلى ابن حفظ الله خير من حفظكم. إن ربي أرجح الراحمين. قد يشير إلى قسوة قلوبهم لما فرطوا في يوسف. وفي صيغة جوابه أنه يتوكل على الله في حفظ ابنه الذي يتولاه بالفضل مما يبدلون من الرعاية، مما يفهم منه أنه غير مصمم على عدم إرماله معهم. يبدو أن ذلك كان تبعا لحرج الموقف في الاختيار بين منع بنيامين من السفر معهم، وبين توقف استمرار حياة العائلة على ما يجلبونه من الطعام.

65-67، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم سلاطينة مملوكة.

بعد أن تداروا بالحديث مع أبيهم عن سفرتهم وما حصل فيها من قرار جرماتهم في المستقبل من الطعام إن لم يصبحوا أخاهم، رجعوا إلى رجالهم فأنزلوها وفتحوها، ولشدة ما كانت دهشتهم إذ وجدوا البضاعة التي قدموها ثمنًا لما اشتروه قد رجعت إليهم. فالتحلت بذلك مشكلة ما يقدمونه من ثمن لما يشترونه من أقوات. فأتوا لأبيهم: يا أبانا التحلت المشكلة، هذه البضاعة التي كنا دفعناها لعزيز مصر قد عادت إلينا، فلنسافر إلى مصر بها، ونصحب أختنا في سفرنا، ونسولي العائنة به وحفظه من كل مكروه، ونضيف إلى ما أتينا به من الطعام حسل يعير أخرا لعلهم يفسدون أن عزيز مصر يمكن أخاهم من حمل يعقوب من الطعام، وذلك حسب ما عرفوه من كرم العزيز، أمر بمير مظنون حصوله.

يبدو أنه قد اجتمع من الظروف المساعدة ما أثر على يعقوب ليؤثر تأثيرا جملته يسمح بخروج بنيامين أخي يوسف معهم في رحلتهم إلى مصر. ولكن لئلا يشرط عليهم أن يحلفوا له بمبدأ مؤكدة يشهدون الله فيها على أنفسهم، تؤثت التزامهم بأن يحافظوا

على أخيه من تاريخ خروجه معهم حتى يعودوا به إلى أبيه سالما. ولما كان المستقبل مجهولا، وما يحصل فيه من المعوقات لا يعلمها إلا الله، حللهم من هذا الانكسار إذا وجدوا في أنفسهم في مأزق يحول بينهم وبين الوفاء بالتزامهم لا يجدون حيلة ولا قدرة لهم على الخروج منه. وأقسموا لأبيهم هذا القسم المفظف، ثم زاده تأكيدا بقوله: إن الله رفيق عليكم في تنفيذكم ما التزمتم به، كأنه يشير إلى ما يغني في نفسه من الشك فيما ادعوه من عدوان الذنب على يوسف.

ولوصاهم وصية استندت إلى تجربته الطويلة، فقال لهم: إذا دخلتم مدينة العزيز فتوزعوا على أبوابها ولا تدخلوا من باب واحد؛ ووجه بعضهم ذلك على أنه حماية لهم من أن تصيبهم عين حامدة، إذ قافلة من أحد عشر رجلا أخوة، تتشابه قسمااتهم، وهم على حظ من الجمال والملكة، قد يثير بعض الناظرين الذين ينفذ من عيونهم ما يضرب المتطور إليهم. فحماية لهم من ضرر العين أوصاهم بالدخول مفرقين من أبواب عديدة، ووجهه آخرون من أن دخولهم مجتمعين قد يثير الريبة في الحرس القائمين على الأمن، فربما ضيقوا عليهم أو لوقفهم للتحقيق منهم إذا دخلوا مجتمعين، ولا يثيرون الشبهة إذا توزعوا على أبواب المدينة.

ثم عرفهم أن العمل بوصيته لا نرد فضاء سبرما قدره الله وتعلقته إرادته بتنفيذه. ذلك أن الحكم الذي ينفذ في النهاية ويقع في الوجود هو ما حكم به الله فتعلقته إرادته بإنجازه. فمجموع كلامه يهدف إلى تقرير تصووره لما يحدث في الكون ومسؤولية الإنسان فيه. فالإنسان مطالب بأخذ الأسباب وهو محاسب على ذلك، وأما تحقيق ما قصده مما تكون العادة تحققه فليس ذلك بواجب، بل المنحكم في الحوادث هو المنظم لهذا العالم الله رب العالمين، فكم من مجتهد بذل عنايته وأخذ بالأسباب، ولم يصل إلى مبتغاه. يوضحه أن الأسباب المنتجة للمقصود ليست كلها خاضعة لإرادة الإنسان وسعيه، بل قد تكون أسباب أخرى للنجاح خفيت عن العامل، وفدائه الفكرية لا تبلغ الإحاطة بجميع المؤثرات ولا التحكم فيها. وهو معنى التوكل على الله الذي أخبر بنيه بأنه ملتزم به، وأنه المنهج الصائب الذي عليه الصالحون من البشر؛ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُفَنِّي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
 سَعْيُهُمْ فَنَكَّبُوا ۖ إِنَّهُ لَهُمْ عَلِيمٌ ۖ لَمَّا نَلَمْتَهُ بِالْجُرْأَتِ كَثُرَ ۙ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ۖ أَلَمَ يَأْخُذْهُ إِذْ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا

تَتَّبِعِينَ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ لَلَّامًا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ فِي الْيَمِينَةِ فِي رَحْلٍ
 أُخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرِقُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ مَاذَا
 تُفْعِدُونَا ﴿١٢﴾ قَالُوا أَنْتُمْ حَرَامٌ أَلَمْ يَكُنْ جَاءَ بِكُمْ جَمَلٌ بَعِثَ وَأَنَا بِكُمْ رَئِيمٌ
 ﴿١٣﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ فَقَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ ﴿١٤﴾ قَالُوا فَمَا
 جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٥﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْهِ فِي رَحْلٍ فَبُهِتَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
 تَجْرَى السُّلَيْمِيَّتُ ﴿١٦﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَتْلَ وَعَاءٍ أُخِيهِ ثُمَّ أَشْرَحَ رَجُلًا مِنْ وَعَاءٍ
 أُخِيهِ كَذَلِكَ كَذَّبَ الْيُوسُفُ مَا كَانُ لِبَاءَهُ أَحَادٌ وَرَبُّ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ
 دَرَجَاتٍ مَنْ كَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ بَرٍّ عِلْمٌ عَلَيْهِ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ

ما كان يأتي عنهم من الله من شيء : ما كان يستطيع أن يرد عنهم القضاء.

قضاها : قام بها.

أَوْعِيَّتُهُ : قرب إليه أخاه.

فَلَا يُبْتَنَسُ : لا تهتم. وابتهج.

اليسفانية : إبناء كبير يسمى به الماء والخمر.

للسواع : الصاع وعاء مضبوط للكيل.

الثانين : النداء المكرر.

العرير : المجموع من المركوبات وأعمالها وأصحابها.

أَوْعِيَّتُهُمْ : جمع وعاء وهو الطرف الحاوي للشيء.

الكره : فعل يتوصل بظاهره إلى أمر آخر خفي.

بيان المعنى الإجمالي .

مسافر أبناء يعقوب ومعهم أخوهم الصغير إلى مصر للمرة، ولقد أوصية أبيهم
 فتفرقوا على أبواب المدينة عند دخولها. وما كان يعقوب بوصيته تلك يرد عنهم ما
 سبق به القضاء، ولكنه أراد أن يعلمهم أن يأخذوا بالأسباب التي هي في مقدورهم،
 وهو الحزم، ومع ذلك أن يحسوا التوكل على الله. وهذا التأديب هو عمل بما استقر
 في نفسه من علم علمه الله إياه، وقام به، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الجمع بين
 التوكل والأخذ بالأسباب .

ولما دخلوا على يوسف تطفط ففرب أخاه منه، وسار به بأنه أخوه يوسف الذي أشاع إخوته عنه أنه لعله الذئب. وأوصاه أن يغسل ما في صدره من حزن على ما كان إخوته يقرّفونه من تجاوزات .

مكتهم من الطعام الذي جاءوا لشرائه، وبمجرد ما حزموا لمتعتهم وهموا بالمسفر، صاح بهم أحد قُبايع العزيز : ليتها القافلة تفرا إنكم سارقون.

ولشد ما كانت دهشتهم برميهم بهذه الفهمة؛ فسألوا المنادي ما ذا فعلتم ؟ أجابهم هفتنا المعيار الذي كنا نكيل به الطعام، وهو صواع الملك (السفافية) الذي يشرب منه الماء والخمر، واعلموا أنني ضامن لمن يأتي به ما يمكن أن يحمله بعير من الطعام. فلقم أبناء يعقوب: تائه، كما علمتم من حالتنا وملوكنا، ما حثنا لتركب ما يوجب قلاقل في أرض مصر . وإننا لأبعد للناس عن السرقة.

أجابهم الصانع ما زما لهم: ما هم حكمكم على المسارق عندما نكتشفه ؟ ولتقتهم في براعتهم قالوا يسترقه العزيز جزاء ما اقترف. لأنه ظالم والظالم يستحق هذا الجزاء. أوحى يوسف للمفتش أن يبدأ بأوعية الإخوة قبل وعاء بنيامين، ثم الأمر وفي النهاية وجدوا المغنية في متاع بنيامين. وبفء الحكم فيه الذي رضوا به مقدما، فأصبح رقيقا عند يوسف. ولم ذلك، يعون من الله، فحقق يوسف ما رتب له من الحيلة لضم أخيه لنفسه، ولتتابع الخطوات التالية لجمع التمثل. إذ لولا ذلك للتدبير وإسراع إخوته بالحكم ما كان يوسف يستطيع أن يسترق أخاه حسب القانون الملكي في مصر . على معنى أن السارق لا يسترق في القانون المصري في ذلك الوقت.

والله يرفع في مقامات السمو من يشاء من عباده لرفع يوسف إلى مقامات العز ونخفق ما يريد.

وكان ما بلغ به يوسف غايته هو اتباع منهجية علمية وصلت به إلى النجاح. ومن سنن الله التي بنى عليها الكون أن العلم لا ينف عند حد تفوق كل مرتبة مرتبة أعلى تدعو الإنسان لمواصلة البحث والاجتهاد حسب منهجية منتجة. وبالطبع فكل عالم يوجد من هو أعلم منه في الحاضر أو في المستقبل.

فيان المعسر العام

88 ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم لا يعلمون.

تجهز إخوة يوسف للمسفر إلى مصر وصحبوا أخاهم في سفرهم. ولما بلغوا المدينة المصرية طبقوا ما أوصاهم به أبوهم يعقوب، فتوزعوا في الدخول بين أبوابها. وما كانت وصية يعقوب لهم لتبعد عنهم جميع الأخطار، ولكن عطفه على أولاده

حمله على النصيح لهم، فقام تحت داعية حنان الأبوة، وبموجب ما اختزلته الله في قلبه من حكمة، فأبلغهم ما هو خير لهم. ونوه للقرآن بـيعقوب عليه السلام: **إِيسَى عَلَى حِظِّ كَبِيرٍ مِنَ النَّفْلِ إِلَى شَايَاتِ الْعِلْمِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَبُورَ قَدْ عَلَّمَ أَوْلَادَهُ أَنْ لَا يَهْمِلُوا الْأَسْبَابَ الْوَالِقِيَّةَ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَعَلِمَهُمْ لَيْضًا أَنْ ذَلِكَ لَا يَضْمَنُ لَهُمْ السَّلَامَةَ مِائَةً بِالسَّائَةِ، فَلْيَحْشُوا التَّوَكُّلَ عَلَى رَبِّهِمْ. وَلَكِنْ كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ الْعَزِيزَةَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ .**

69 - لما دخلوا على يوسف أوى به بما كانوا يعملون.

بعد أن وصلوا إلى المدينة توجهوا إلى مجلس العزيز فدخلوا عليه. لاحظ يوسف أن ما كبره قد حقق غايته، فما هو أخوه بنيامين معهم أمامه. فتلطف حتى قربه منه وأمر له: **إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يُوسُفُ، فَارْزُلْ مَا كُنْتَ تَجِدُهُ مِنْ كِبَرٍ عَلَى مَوْتِي، وَمَنْ حَرَى عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ تَبْعًا لِلغِيَرَةِ مِنِّي وَمِنْكَ، وَابْتَهِجْ بِتِلْكَ**

70 - 76. فلما جهزهم بجهازهم -سوفيق بكل ذي علم عليهم.

أذن يوسف له: **الْعَمَالُ السَّكَّافِينَ بِسَلِيمٍ الْأَقْوَاتِ لِلْمَشْرَبِينَ، وَأَمْرٌ مِنْ يَشُقُّ بِكَمَلَانِهِ لِمَنْ أَنْ يَجْعَلَ السَّقِيَّةَ، الَّتِي كَانَتْ وَسِيلَةَ الْكَيْلِ، فِي مَتَاعِ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ. وَتَسْلَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ نَصِيْبِهِ، وَاسْتَعَدُّوا الْمَغَاوِرَةَ الْمَكَانَ لِلْسَفَرِ، وَبَيْنَمَا هُمْ يَفْعَمُونَ رَوَّاحَتَهُمْ لِيُطْلِفُوا إِلَى آبِيهِمْ، اخَذَ أَحَدُ عَمَالِ الْعَزِيزِ بِنَادِي مَكْرًا: أَقْبُوا يَا أَبْنَاءَ الْقَفْلَةِ إِنَّكُمْ سَارِقُونَ.**

وقفوا مشدوهين مسائلين ما ذا فعلتم وعشاذًا تبحثون؟ كان الجواب واضحًا ففجنا صواح الملك، ونضمن لكم أن من أثنائه نجزيه بما يحمل به يعبر سن للطعام، وصواح الملك هو السقاية التي كان يشرب منها الخمر والماء، واتخذت على أن تكون معيارا معلوما لكل يوفي به كل مشتر حقه، ولا شك أن الملك لا يشرب إلا من سفينة ثمينة، ولذا عرضوا جزاء من يأتي بها حمل يعبر .

كانوا متحفظين من براهم ففألوا: **ثَالِثًا، وَلِئَاءِ الدَّاخِلَةِ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ هِيَ كَالْوَلَوِ فِيهِ وَزَانِ وَاللَّهُ تَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا حَنَّا لِنَفْسٍ فِي الْأَرْضِ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ. أَقْبَمُوا عَلَى بَرَامَتِهِمْ أَنَّهُمْ جَاؤُوا لِلْمِيرَةِ لَا لِيَنْشُرُوا الْفَسَادَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَيْ إِنَّنَا لِمَنَا عَصَايَةُ سَوْءٍ نَقُومُ بِمَا يَنْتَرِبُ عَنْهُ فِسَادٌ فِي الْمَجْتَمَعِ، فَإِنَّ ضَرِيحَ صَوَاحِ الْمَلِكِ يَنْبَغِيهِ قَطْعًا تَقْيِيشَ عَامٍ وَلِهَامِ الْأُرْيَاءِ، وَاضْطِرَابِ بَزْعِزَعِ الْأَسْتَقْرَارِ، وَلَيْضًا قِبَالَتَحْدِيدِ نَحْنُ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ السَّرِقَةِ وَمَقَالَتِهَا. وَاسْتَدُوا بِرَاعَتِهِمْ إِلَى عِلْمِ اتِّبَاعِ الْعَزِيزِ بِذَلِكَ. وَفَرَضَ الْمَفْسُورُونَ فَرُوضًا تَكْتَفِ عَنْ مَصِيرِ عِلْمِهِمْ بِبَرَاعَتِهِمْ وَاسْتَقْلَامَتِهِمْ، فَقَالُوا:**

إنهم لما قدموا للميرة في المرة الثانية أخبروا؛ أنهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم فكان ذلك شاهد صدق على تورعهم عن مال الغير، كما فرضوا أنهم اتهموا في المرة الأولى بالجوسسة وظهرت براءتهم. وهي فروض لا يقوم عليها دليل من قريب أو من بعيد من النص القرآني. ولذلك فإن الذي نرجح عندي؛ أنه نوع من الإلزام الخطابي لنفي التهمة، مستند إلى ما شاهدوه منهم في التعامل وفي السلوك العام من خلق رفيع ولئب ربوا عليه في بيت النبوة.

وأمام هذا الجواب للحاسم الزمهم المكلفون بالبحث عن الصواع بأن يصدقوا حكمهم على من وجد عنده الصواع حتى لا يتصلوا من العفوية لو وجدوه عند أحد.

ونحقيق ليوسف المرحلة الثانية من تكديره بحكمهم: أن من وجد الصواع في رحله يصبح عبدا رقيقا للعزير جراه ما قام به، وعللوا حكمهم ورضاهم به بأن من أخفى الصواع عنده مُتَعَدُّ ذالِم، وعلى هذا النحو ينبغي أن يجزى الظالمون.

ثم بدأ التفتيش. فكان من حبه ما قصده يوسف أن أوحى لعماله بأن يبدؤوا بتفتيش أمتعة الأخوة ويتركوا أمتعة بنيامين إلى الآخر، وكلما أشفوا الكشف عر ضاع أحدهم برأوا صاحبه، وفي النهاية استخرجوا للصواع من وعاء بنيامين.

و نفذ الحكم فيه فأخذ على أنه عبد من عبيد العزير.

و يعلق القارئ على ما انتهى إليه الأمر: إن الله يسر ليوسف الأسباب كلها التي بلغت بتكديره غاية التي كان يرمي إليها، فقد جمع الله بينه وبين أخيه جمعا كمال يحكم إخوته الذين قصصوا أن يبالغوا في الدلالة على براءتهم من تهمة السرقة. وتولا ما حكموه ما كان يوسف ليتصنعه من أخذ أخيه، لأن شريعة ملك مصر: أن العفوية التي تنزل بالمارق لا تصل إلى حد استرقاقه.

و الخاتمة: أن الله هو الرفع للخافض، فمن أرك أن يسمو به ويحقق له ما يريد، يسر له الأبواب التي تبلغه المقام الرفيع. وإن العلم الذي هو أساس النجاح والرفعة هو بالنسبة للعلم البشري تطور متتابع، كلما حقق البشر مستوى فتحت لهم مداخلهم أبوابا للسمو إلى ما هو أرفع، فعلى البشرية أن تواصل البحث والاجتهاد ليكون كل كشف وراءه كشف أسمي منه. ومن ناحية أخرى فلا يظن أحد أنه بلغ لفة من العلم. ففوق كل مستوى لعالم مستوى أرفع مكن الله منه أحد معاصريه أو سيمكن غيره من ناكم المستوى الأرفع في المستقبل.

• قَالُوا إِنَّ بَدْرًا فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلِ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ . وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . قَالَ أَنْتُمْ مُرْتَكِبُونَ إِثْمًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَلْفُ الْعَرَبِ إِنْ لَمْ أَتَا شَيْخًا كَبِيرًا نَحْذَرُ أَخَذًا نَكَاةً . إِنْ أَتَيْتَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْهَةٍ مُقَدَّمَةٍ بَيْنَهُ . إِنْ أَتَا لَنَطْلُبَنَّهُ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا اسْتَمْتَحَسُوا مَتَهُ خَلَّصُوا يَحْيَى قَالَ كَيْفَ هُمْ آلُ تَعْلَمُوا أَنْتَ أَبَاكُمْ فَذْ أَخَذَ عَلَيْكَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا كُنَّا لَنَعْلَمَ أَنَّكَ فِي يَوْسُفَ فَلَنْ نَكُنَ مِنَ الَّذِينَ يَأْذَنُونَ لَكَ أَنْ تَخْرُجَ وَلَا تَدْخُلَ إِلَيْنَا . اللَّهُ يَدْعُو الْأَكْثَرِينَ ﴿١٣﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا نُنَايِنَا أَنْتَ أَبَتُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا الْمَغْنَمَ حَافِظِينَ ﴿١٤﴾ وَتَشْتَغِلُ الْقَرْيَةُ الْيَمْنَى فِيهَا وَالْمَرْءُ إِلَى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَنَصُدِّقُونَ ﴿١٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

أسرها : أخفى الكلام في نفسه.

شر مكنا : حالكم شرم بنيامين وأخيه.

مكانه : عوضه.

معاذ الله : دلجا إلى الله أن يحميننا من الأخذ بعرضكم.

استبأسوا : ينسوا بأما قويا.

خلصوا : انقذوا.

نجيا : يتحدثون سرا فيما بينهم.

يحكم الله لي : يقدر لي ما ينفعني.

للقريب : للأمور المغيبة عنا عالمين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن ظهرت الفضيحة، وإن أدهم كان سارقا ونفذ فيه الحكم بالإسترقاق، قالوا، رغبة منهم في تخفيف شيء من العار الذي لصق بهم؛ إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه من قبل، كأنهم يلصقون المعرة بأخويهما من الأب يوسف وبنيامين، أما هم فهم أشرف من أن يسرقوا. قالوا هذا بدافع الكراهية المتولدة عن الغيرة من يوسف وأخيه، فوجدوا مذكلا لينفصوا عما تضطرب به عاطفة المفت لأخويهم، ولا يقتضي ذلك أن يكون ما رما به يوسف من السرقة أمرا واقعا حتى يبحث له عن مخرج.

كان كلامهم هذا بمحضر يوسف ويستمع منه. تجعل يوسف هذه الإذابة له ولأخيه ولم يظهر غضبه من مقالتهم، وقال في نفسه: أنتم أسوأ حالاً وأحط من مستوانا. والله أعلم بما وصفتم من كذب واقتراء أو من صدق. يشير إلى كذبهم عنه وعدم إدراكهم لحقيقة الأمر بالنسبة لبنيامين. هذا لعلم الحق هو عند الله الذي لا يغير عنه شيء ولا تلتبس عليه الأمور.

بيان المعنى العام

70-80. قالوا يا أيها العزيز إن له أبا غيباً يكتبوا... وهو خير الحاكمين.

بعد أن تم استرقاق بنيامين عند يوسف، استشعر إخوته قوة الصدمة التي مستزل على أبيهم عند علمه بالخبر. فحاولوا إنقاذ بنيامين وتوصلوا ليوسف أن يمكنهم منه وإن يموضوه بأحد منهم يكون رقيقاً بدله. وتوصلوا لذلك بأن أباه ما يزال حياً وهذا أصغر أو لاد فرقته عليه وحذانه يتبعهما قوة أسفه الذي ربما بضرب به، وهو مع ذلك هو شيخ، وتقدمه في السن يضاعف من رقة عولطفه، وثالثاً هو كبير إمام معنى أن شيخوخته في مراحلها المتأخرة فضعه لشد. أو على معنى أنه كبير قومه، ومن شأن العلاقات الدولية أن تنع فيها مراعاة الكبراء مراعاة خاصة.

كما توصلوا له، بأنه حسبما شاهدوه من معاملته للناس وسن كمال خلقه، أنه من لقوم المحسنين الذين هم أهد ما يكون عن الشدة والصرامة الحديدية.

كان جولي يوسف حاسماً؛ ابتداء بأنه يتحسس بالله ويلتجئ إليه من أن يأخذ البريء بذلك المجرم، وأن يطلق السارق الذي وجد الصواع في حوزته، ويسترق من ثبوت براءته بعد التفتيش. إن ما يلتسونه ظلم، وأنه ما كان من الظالمين.

81-82. أوجعوا إلى أبيكم فتوتوا... ولا تصدقون.

بنسوا من التأثير على يوسف، وأيقنوا أنه لا فكاك لأخيهم من يده، وأنهم سيواجهون والدهم بالكارثة التي حصلت؛ فافتردوا في مكان يديرهم الأمر ويقلبون الوجوه في المرحلة التالية. سجل القرآن ما قاله كبيرهم: ذكرهم بالميثاق الفليط المؤكد برعاية الله عليه الذي أخذهم أبوه عليهم، كما ذكرهم بأنهم أدوه أشد الإذابة في يوسف. وأصناف، لذا قاضي قررت أن أبقى في مصر ولا أعود معكم، فبني لستحي من مقابلة والذي في هذا الوضع الذي حرم فيه من أبنيه الصغيرين على شدة حبه لهما وعطفه عليهما، أو أن يتحقق في قضاء الله وحكمه مما هو مضوء في قدره سبحانه، وإني راض بما يحكم به الله علي، فإنه سبحانه عاقل لا يظلم، ولا يستطيع أحد أن ينقض حكمه.

لرجعوا وحكمهم، واعرضوا عليه ما وقع عرضا لميناء، قولوا له: يا أبانا إن ابنك سرق، وهذه الشهادة بمرقته مستندة إلى علمنا الذي شاهدناه مشاهدة لا ريب فيها. وما كنا مطلعين على الغيب، حافظين لما سيقع عند ذهابنا بأخيها للميرة. ثم لقنهم أخوهم هذا أن يقولوا لأبسيهم: لتتحقق مما قلناه لك، فاسأل أهل القرية المصرية التي شاع فيها خبر ضياع السفينة ووجودها عند بنيامين، فإن الخير تتقلبه العموم حتى أصبح معروفا عند الجميع. ولقرب من ذلك اسأل رفاقنا الذين جاؤوا معنا من مصر وسمعوا وشهدوا ما أخبرناك به.

إِنَّ قَالَ بَلْ مَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ قَضَيْتُمْ حِمْلَ عِصَى اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ حَبِيرًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَنفَضْتُ فَيْئَاءَ مِرَّةٍ الْحَزْنَ فَهُوَ كَلِيمٌ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُونَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تُكُونَ مِرَّةً أَتَاهِلِكُم مِّنْ شَيْءٍ قَالُوا إِنَّكُمْ لَشَاكُونَ ۝ وَحَزَنَ إِيَّاهُ اللَّهُ ۖ أَعْلَمَ بِرَأْيِ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكَ أَغْوَىٰ مِنْ يَدَيْكَ ۖ يُوسُفُ وَأَخِيهِ ۖ وَلَا تَقْسُوا مِن رُّوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئَنَّ مِنَ رُّوحِ إِلَّا الْغُومُ الْكَاثِرُونَ ۝

بيان معاني الآيات:

سورة: زينة ومهلت.

صبر جميل: صبر لا شكوى معه إلى بشر، ولا ضجر من قضاء الله.

كظيم: يكتم حزنه في نفسه ولا ينفسه بالشكوى للناس.

نقلنا: نقل.

حرضا: شدة المرض المقرب من الهلاك.

بلى: همي الشديد.

التحسس: شدة للتطلب للتمكن من المعرفة.

روح: الرحمة وكشف الكرب.

بيان المعنى الإجمالي:

كان رد يعقوب على الرواية التي قدموها له جسيما أشار عليهم كبيرهم، أن قل: زينت لكم أنفسكم حرساني من ابني الذي أمنتكم عليه، فأمرني هو الصبر الذي لا أشكو معه حزني لأحد ولا أيلس من رحمة الله. فإني أرجو أن يأتيني الله بأبنائي، إنه العليم بحالي وأحوالهم، المصروف للأمر بحكمته فيردهم علي في الوقت الذي قدره وقضاه.

ثم انصرف عنهم قائلًا: يا أسفى على يوسف، وأقام على الحزن يعتمر قلبه حتى أثر في قواه فلبست عيناه من ذلك، إنه يختزن في قلبه من الحزن لسماء، استمر على ذلك الوضع حتى خشي عليه أبنائه، رجوه أن يرأف بنفسه، وقالوا له إنك تواصل تذكرك ليوسف حتى وصلت إلى هذه الحال، وسيصل بك الأمر إلى أن تبلغ من الهزال ما به تهدد قواك، فتقلب مريضاً لا تقوى على شيء وربما يصل بك الأمر إلى الموت.

أجابهم: إني أشكو همي للمقيم وحزني على ما ذهب مني إلى ربي، وإني لغني عن نصحكم فإنني أعلم من الله علماً مستواكم بعيد عن إدراكه.

ثم إنه بعد مدة أشار إليهم إشارة مما استقر في بؤبؤه من الإلهامات الإلهية، فطلب منهم بكل حنان أن يسافروا إلى مصر وأن يبذلوا جهودهم لتتبع كل المسالك التي تمكنكم من التعرف على وضع يوسف وأخيه وأن لا يكونوا يائسين من رحمة الله في كشف الكرب كما هو مقتضى الإيمان، فإن اليأس لا يلف بحجابيه إلى على قلوب القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83- 84، قال بل سولت لىك انفسك... فهو مكثير.

رجعوا إلى أبيهم بعد أن استقر رأيهم في معالجة المشكلة عند أبيهم على الرأي الذي قدسه كبارهم. وأعلموه بما تسم في سفرتهم وأن ابنه بنيامين بقي عبداً عند عزيز مصر، وأن ابنه الأكبر عزم على البقاء في مصر غريباً لا يبرحها إلا لثقت له، أو حدث ظهور قضاء من الله يخصه

لقد ذهبت ثقة يعقوب فيما يقدمه له أولاده من روايات بعد الصورة التي قدموها له عن أكل الخبز ليوسف، وقد بقي يجد في بامته، بنوع من إحساس الملهمين، أن يوسف حي، ولهذا هو لم يصنقهم في هذه كما لم يصدقهم في المرة الماضية. فواجههم بعدم اطمئنائه لما يقولونه، وقال لهم: لقد زينت لكم أنفسكم تخفيين بنيامين عني، فانا أكرع بالصبر الذي لا أشكو فيه مصيبتى لأحد، ولا أعترض على قضاء الله، ورجائي في الألطاف الإلهية أن تشملني فتزد على ابنتي الثلاثة: يوسف وبنيامين والابن الأكبر. وأكد رجاءه بأنه متعلق بالله الذي لا يخفى عليه حاله كما قال أحد الصالحين في ابتهالاته: علمه بحالي يغنيني عن سواي، وهو الحكيم الذي يرتب الأمور ترتباً دقيقاً.

ثم انصرف عنهم بعد هذه الكلمات التي تمثل يقين الأنبياء وأبيهم في مواجهة المشاكل التي تخصهم، وسعة رحمتهم فيما عند الله، وقام الحزن في نفسه يعتمر

قلبه واحاسيمه، ويحدد له ذكرى ولديه اللذين فهدهما، وخاصة يوسف الذي كان فقدده أشد عليه لسببين: أحدهما أنه فُتِمَ فَقْدُهُ على أنه مات واكله الذئب، وإن كان يشك في هذه الرواية، وثانيهما أن يوسف ملأ عليه حياته لما جمع الله فيه من كمالات خلقية وخَلْقِيَّة. ولذا سجل القرآن نكره لاسمه وأبغى على فقد يوسف (يا **اسفي على يوسف**)، تلك الاعتبارات لا على أنه غير حزين على فقدته للأخوين. كان مدهم يتجدد في كل لحظة، وكان يختزن أساءه في نفسه حتى أثر ذلك في أعصابه البصرية فابيضت عيناه. ويمكن حمل بياض عينيه على العمى: أي عمى، ويمكن أن يفهم على أنه ضعف بصره حتى تغير لونهما إلى ما يقارب البياض. ونسود الله بصبره وعدم شكواه فقال إن يعقوب كظيم لحزنه يتعاضل في باطنه وتأثر به قواه الفكرية والعاطفية، ولا يظهره للناظر.

85 -- 87، **فَاتُوا نَالَهُ تَتَمَتَّا لِيُخْبِرَ يَوْسُفَ. إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.**

لزم يعقوب عزله ومتابعة تذكيره في ألبائنه المفقوتين، ووهلت قواه وخشي عليه أولاده فقالوا له إشتاقا عليه: فسمنا ناله لك لا تنقطع عر جديد حادثة فقدك ليووسف حتى يقضي بك حزنك المقيم هذا، إما إلى المرض الشديد أو إلى الموت. أجابهم: بأني متعلق بالله، لشكو إليه وحده لا إلى غيره، لشكو إليه بشي أي همي الشديد، وثو اصل تفكري في أبنائي وحزني المقيم على ما فاتت عني منهم. وأشار إليهم إشارة لطيفة بأن قربي من الله يفتح على مسبحاته أحاسيس تقصر عقولكم عن إدراكها. ويبلغ ذلك أن يستقر في بغيى علم لا تعلمونه ولا يمكنكم الوصول إليه. مر زمان غير قليل على يعقوب وهو على هذه الحال من الانصراف عو الناس، وما ابيضت عيناه من الحزن في أيام قليلة، وما بلغ ما بلغ بألبائنه من الإشتاق عليه إلا وقد حال لهزاله وطغيان الهم والحزن عليه.

ثم كاشفهم ببعض ما هو حاصل في نفسه: من أن يوسف لم يمت وأنه سيعود إليه، فقال لهم: يا بني، نداء فيه شفقة وحنان يحرضهم على تنفيذه. اذهبوا إلى مصر ولينلوا جهنكم في تتبع كل ما يمكن أن يوصلكم لمعرفة وضع يوسف وأخيه، تحسبوا، كأن المتتبع يعمل على أن يحس بكل خصائص ما يلمسه، فيتهدي مثلا إذا انغمست شوكة صغيرة إلى مكانها. وربط هذا التوجيه بأن يكونوا ولقنين من النجاح، وهذا دواء نفسي، ذلك أن الأمل يوصل طريقه ويتابع بحثه، بخلاف اليأس من المطلق أن يفتر عن المتابعة. فارشدهم إلى أن يكونوا متسائلين غير يائسين، فإن من حرم الإيمان هو الذي تسد الأبواب أمام ناظره، ولا يتوقع كشف كربه

فيحرم الأمل ويستولي عليه اليأس. إن المؤمن ينتظر الفرج من الله في أشد الظروف ولها قسوة. وإبه وإن طال أمد غياب يوسف، فإن الله إذا شاء تفريج كربته هيا لذلك الأسباب فتفريج.

فَلَمَّا دَخَلُوا هَآؤُلَآءِ قَالُوا يَأْتِيَانَا تِغْرِيبٌ مِّمَّنَّا وَأَهْلَتَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّنَةٍ قَالُوا لَكَ الْكِبَرُ بِتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَشَكِّينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَتَتْهُمُ بَنَاتُهُنَّ بِبِضْعَةٍ مِّمَّنَّا قَالُوا أَتُكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيُصْهِرِ الْفَأْسَ اللَّهُ لَا يَضِلُّ أَمْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالَةٍ مُّبِينَةٍ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ النَّوْمُ بِتَغْيِرِ اللَّهِ لَكُمْ وَمَنْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَالْقَوَّةُ عَلَىٰ أَخِيهِ أَنْ يُبْكِيَهُ وَاتُّبِلَ بِالْأَخْيَرِ أَجْمَعِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

مِنَّا الضُّرُّ : أصابنا الضر.

مُزَجَّنَةٌ : قليلة غير مرغوب فيها.

الْبِشْرُ : التفضيل بالعطاء .

الْخَاطِرُ : فاعل الخطيئة عدا، والمخطئ من قصد الصواب فاططا.

التَّغْرِيبُ : التوبيخ والتفريع.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه الإخوة إلى مصر ليبحثوا عن أخبار يوسف وأخيه، وليجلبوا الطعام وقد قسا للوضع بالجند المتواصل فلما دخلوا عليه باحروا بمخاطبته خطبا يليق بمركزه: يا أيها العزيز، وبسطوا شكائهم من الخصاصة ومن وضع أبيهم، وأنهم قد قدموا بسلعة، يعلمون أنها غير مرغوب فيها ينفعها جالدها نفعا، ثمنا للميرة التي يريدون الحصول عليها، كان ذلك تقية لطلبهم أن يوفي لهم الكيل كما لو كانت السلعة المقدمة منهم للشراء جيدة. ورجوه أن يتفضل عليهم ويتصدق فإن الله يجزي المتصدقين.

رق يوسف لحالهم فتوجه إليهم مذكرا وموبخا: أنتم تذكرون ما صنعتكم بيوسف في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين.

ليُقَظَهم كلامه فمألوه أنت حقاً يوسف ؟

فأجابهم أنا يوسف وهذا أخي، إنه من يتق الله ويصبر على الشدائد فإنه محسن. والله يمكن المحسنين من أجورهم

قالوا: نعم بالله إن الله ميزك علينا، وإننا كنا خاطئين. رحمهم يوسف وقال لهم ينون لوم ولا توبخ: يغفر الله لكم اليوم لما تبتم فإنه أرحم الراحمين.

ثم ناولهم قميصه وقال لهم خذوا قميصي هذا، وضوءه على وجه أبي يعود صفاء بصره، ويأثني معافي، واحملوا أهلكم جميعاً إلى مصر

بيان المعنى العام :

88- فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز... يجزي المتصفين.

قرر الإخوة أن يسافروا إلى مصر لغرضين:

أن ينفذوا ما طلبه منهم أبوه من البحث الدقيق عن كل مملك يمكن أن يوصل إلى معرفة وضع يوسف عليه السلام.

ولأن بائراً بالميرة لأهلهم وقد تولت سلطات الجذب وتقاوم الأمر. ويبدو أن الفترة بين بقاء بنيامين وكبير الإخوة بمصر، وبين مغرتهم هذه، قد طالت بعض الشيء كما يستدل من وصف الحالة التي كان عليها يعقوب عليه السلام.

بمجرد ما وصلوا إلى مصر استأنفوا للدخول على يوسف فأذن لهم، وبادروه برفع شكواهم من الوضع الذي هم عليه فسادوه بقولهم: يا أيها العزيز، وثقت به بالعزير خرج كثير من المفسرين على أن عزير مصر الذي اشتري يوسف قد مات وتولى يوسف مهامه، ونكروا روايات كثيرة متصلة بذلك، والذي يرجح أنني أن كلمة العزيز عرف في مخاطبة أصحاب المسؤوليات الكبرى في الدولة في ذلك العهد. كما يقال اليوم : معالي، وصاحب المعالي، ودولة الرئيس، ونحو ذلك.

عرضوا عليه الحالة التي وصلوا إليها بتوالي سني الجذب، وقالوا: قد أصابنا الضرر للمسقة وأمر أخينهم، وبلغت منا الخصاصة مبلغها، وجئنا طالبيين الميرة، وبضاعتنا التي نقتنها مزجاة ثقيلة وغوس مرغوبة فيها، يحنون أن قيمتها ضعيفة، فأعطنا الطعام وأقيا غير ناقص، وزننا من فضلك ما تتصدق به علينا، ولوكلوا جزاءه عما يفعله معهم من جميل إلى الله الكريم الذي يجزي المتصفين.

ملحق هام :

النظم التعبير عن الزمن المقدم: بالبضاعة ولم يذكر أنه نفود، وقال لفتيلته اجعلوا **بضاعتهم** في رحالهم أية 62~ ولما فتحوا متاعهم وجدوا **بضاعتهم** ردت إليهم أية

65- قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا آية 65- وجئنا ببضاعة مزجاة آية 88- فإينما ذكر الثمن عبر عنه ببضاعة، وفي هذه الدقة التعبيرية إعجاز قرأني، ذلك أن التعامل بالنقود حصل في القرن الثامن قبل الميلاد، وكان الناس يتعاملون قبل ذلك بتبادل السلع حينما حققه الذين كتبوا في تاريخ النقود، ويوسف عاش في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد والقرن السابع عشر. وهذا والله اعظم، سر الالتزام في التعبير عن الثمن المقدم بالبضاعة التي هي السلعة ولم يكن ما يقدم ثمنًا نقدًا وإنما كل سلعة (بضاعة)

نعم قد جاء في أول السورة أن الذين التقطوا يوسف من البئر أخفوه على أنه بضاعة، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، فوقع التعبير بالدراهم، لكن المتأمل يجد أن المقصود هو لفت النظر إلى قلة الثمن الذي قبضوه، وهذه أفضل طريقة للإيلاج للمعنى المقصود للقائلين لكاتب الله في وقت التزليل، فعبّر عن قيمة المقبوض بالدراهم لا بالدينار لأن هذه الدراهم قليلة لا كثيرة، فهو تصوير لتفاهة ما باعوه به ومعرفة قيامهم بذلك حتى قبضوا ثمنه قبل أن يتضح أمرهم بقدم من يعرفه فيأخذ من أيديهم. فللكلام على أنه باعوه بشيء قيمته ضئيلة، ولو عين ذلك الشيء لكان غير واضح الدلالة على تفاهة القيمة كما يدل عليه: بدراهم قليلة معدودة غير موزونة في وقت التزليل. نظير ذلك أن تقول لشخص من غير المملكة العربية السعودية: اليزين رخيص في المملكة ثمن القائلون يساوي بعض السليمات، فالت لا تقصد أن العملة السعودية تنجزا إلى السليمات، ولكن قصدك أن الثمن رخيص.

89 93، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه سليمانكم أجمعين.

كان رد يوسف على عرضهم وبيان وضعهم المؤثر للتسبقة، أن تحول إلى العطف عليهم وتلويح كرمهم،

ابتدأ إجابته بقوله: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، وهل تفيد معنى، قد، مضاعفا إليها الاستهزاء الإنكاري، فيكون المعنى قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه مما أنكره عليكم فقد حسنت يوسف، وألغيتهم في الحب وحرمتهم من والده ومن أهله، ولم ترفقا بيني وبينهم ولم ترحموا صغره، في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين، أي كنتم عاصين أو كنتم شبابا لم تبلغوا سن النصح وعمق التجربة.

أرطظهم كلام يوسف، ففتح أعينهم وناملوا في ملامحه، فصاحوا: انك لأنت يوسف؟ كانت المفاجأة سريعة وقوية، بين وضع يوسف في نظرهم أول الأمر، وهو الذي

يرجون منه أن يحلف عليهم، وإن يرحمهم ويتصدق عليهم، وبين ما يفوده تذكيرهم بفعالهم مع الإنكار عليهم مما لا يعرفه إلا يوسف. كانت النقطة كبيرة جدا فقالوا كأنهم يعرفون النتيجة، هل أنت يوسف؟ وأسرع بالإجابة فقال: أنا يوسف، وهذا أخي. وتبند الغموض. فوصل يوسف كلامه بقوله قد مر الله علينا، أي توالت علينا الأنظار من فضله، ثم أبرز العبرة في محتته التي تشمل إخوته وتشمل البشرية كلها فقال: إن الذي ينقي ربه فيطلب على دواعي الشهوة، ويخلص له في مناجاته ودعائه وعبادته، ويفرن إلى ذلك فقصير عند الابتلاء، إن الله لا يهمله، إنه بإحسانه في اختبار للمواقف المعبرة عن عميق الإيمان وصالح التوكل ينضم إلى موكب المحسنين الذين تكفل الله بإصصالهم للثواب الذي كتبه لهم.

قال إخوة يوسف بعد أن ارتسمت صورتان شتان ما بينهما، صورتهم في خصائصهم وشعورهم بالذنب والخطيئة، وصورة يوسف وهو المتحكم في لقوات مصر وما حولها مع السواد والعزة، قالوا: قسما بالله، لقد ميزك الله علينا فهذا إلى ممالي الأمور وأنعم عليك فجازلك، فهل لنا لك ما أغدق عليك من تفضيله، نعترف بأننا كنا خاطئين في كل ما فعلناه معك ومع أخيك، وما سببناه لوالدنا من الأذى والحزن.

تحققت توبتهم وظهر ندمهم على ما صنعوا، ولا شك أن سطر الانكسار أضاف على وضعهم الذي عجزوا عنه في بداية اللقاء تركبات ثلثي من وراء قسما وجوههم بالأذى الذي بلغ منهم مبلغه. وأخلاق التوبة نسحو عن الإيمان في الإذلال، فخطبهم يوسف فقال: رفعنا معوياتهم بقوله: لا لوم عليكم ولا تسويح ولا تبريح. لليوم وقد تطهرت قلوبكم داخلها بالتوبة والإنابة يغفر الله لكم، فإله متمصف بالمغفرة وهو الثواب مما يشر الثالين بقبول توبتهم. والله أرحم الراحمين فبرحمته يتعلق البشر كلهم وتعاليم رحمته ولا يياس مؤمن من أن تشملهم.

نكر ابن عطية والرازي وابن حجر في الإصابة: أن ليثا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ عرضا عنهما لفتح فعلهما معه قبل فشق ذلك عليهما وأبيا أبا بكر ﷺ فكلناه الشفاعة، فأبى، وأبيا عمر رضي الله عنه فذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أخيه أم سلمة، فقال علي ﷺ: الرأي أن نلقيا رسول الله ﷺ في الحقل فتصيحان به: **[إنا لك أئمة أنه علينا وإن لنا لخاطئين]** فإنه لا يرضى أن يكون دور أحد من الأبياء فلا بد لذلك أن يقول: **[لا تسويح عليكم]** ففعل ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: **[لا تسويح عليكم]** الآية.

بعد أن طمان إخوته بصفحة عنهم، وكشف لهم أن تعلقهم بفصل الله ومغفرته يذهب عنهم أوزارهم، حضر وقت العناية بلكم الشيخ الحزين، فناول قميصه لإخوته وقال لهم: خذوا قميصي والقوه على وجه لي، وكشف لهم عن السر: أنه بمجرد ما تغم رائحة يوسف وجه أبيه تنشرح ملكاته ويذهب ما غشى بصره من ضعف. ولمع في ذلك أنه يأتيه إلى مصر سليم البصر. وبراً بأهله ووصلوا لرابطة القربى أمرهم أن يصحبوا أهلهم جميعاً ليقاسموه النعم التي أنعم الله بها عليه.

وَلَمَّا نَصَبَ الْقَوْمَ الْأَيُّهَا قَالَتْ أَبُوهُمْ إِنَّ لَأَجْدَ بَيْنَ يَوْسُفَ قَوْلًا أَرِغْبَدُونَ ۖ قَالُوا قَالِ كَذَلِكَ نَبْهِي سَبِيلَكَ الْقَدِيمِ ۚ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ التَّجَرُّمَ الْفَنَاءَ عَلَى وَجْهِهِ قَارَنَتْهُ نَجِيمًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ۖ إِنَّي أَخْبَأُ مِنْ إِلَهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ قَالُوا بَنَاتَانَا اسْتَغْفِرَ لِنَاذِرَتِنَا إِنَّا كُنَّا مُسْتَظِرِّينَ ۖ قَالَ تَوَفَّتْ شَجَنَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ مِنَ الْغُفُورِ الرَّحِيمِ ۝

سائر معاني الألفاظ:

الأيها: الرائحة.

تسبونى: تنسبوننى إلى ضعف العقل.

الخطأ: الذي طالت مدته معك.

الذي طالت مدته معك.

المبشر: بإبلاغ الخبر السر.

رجع.

بيان المعنى الإجمالي،

أخذت القافلة طريقها إلى منازلهم بفلسطين، وكان يعقوب جالساً صابراً مع بعض قرابته، وإذا به يخبرهم أنه يحس برائحة يوسف قريبة منه، وهذا أمر واقع إلا أن تسبونى للخرف. فأقسموا أنه باق على تصورات الخائفة التي لازمتها منذ زمن طويل.

و وصلت القافلة وتقدم البشير حاملاً قميص يوسف وغطى به وجه يعقوب فرجع له بصره وقال لهم منكراً: ألم أقل لكم إنه يحصل في يقيني من إلهامات ربي ما لا تعلمون.

ندم إخوة يوسف على ما صنعوه، وطلبوا من أبيهم النبي المقرب أن يتوجه إلى الله ليغفر لهم ذنوبهم، فأجابهم أنه سيواصل لهم الاستغفار، وأملهم في عفو الله الذي هو وحده الغفور للذنوب الرحيم بمباهة.

بيان المعنى العام

94-98، وثما فضلت العير قال أيوهه سألته هو القمور الرحيم.

لقد إخوة يوسف القميص وارتحلوا به إلى منازلهم. ولما ابتعدت القافلة عن منطلقها، وجد يعقوب أن راحة يوسف تهب عليه وتملاً شمه، فأخبر الحاضرين للذين كانوا حوله قائلاً: إني أجد راحة يوسف لولا أن تسميوني إلى القند وهو الخرف، فاقسموا له أنه ما يزال على الخطأ الذي لازمه منذ زمن طويل في اعتقاده أن يوسف لم يموت وأنه سيجتمع به.

وصلت القافلة، وتقدم الميثر بالخبر الذي كان ثوب يوسف معه، فغطى به وجه يعقوب. وإذا بالخلل الذي أصاب بصره يزول، فأصبحت عيناه تستقلان له ما حوله، كرامة من الله لنبيه الصابر المحسب، وعندما ذكر الحضور بما كان أخبرهم به من قبل، مما استقر في روحه وعقله بإلهام إلهي، بلغ به مبلغ اليقين: إني أعلم من اللوردات على مباشرة من الله ما لا تعلمون.

كرامات توالى، وعجائب من صنع الله تتباعدت. وجد إخوة يوسف أنهم أخطأوا خطأ كبيراً، واستبانت لهم الحقيقة، وتدموا على ما فرط منهم، فطلبوا من أبيهم التماس الصالح أن يطلب لهم من الله أن يفر لهم التجاوزات التي وقعوا فيها، وأن يحسو ذنوبهم، فأجابهم: أنه سيفعل ذلك. ولا حظ المتبوعون للتعبير القرآني أنه لم يستجب لهم بطلب مغفرة ذنوبهم في الحال، ولكنه سيفعل ذلك في المستقبل على ما تقوده السين الداخلية على استغلال. وخرجوا المعنى على أن يلزم الاستظار لهم حاضراً ومستقبلاً، لمظم الفساد الذي ترسب على صديعهم. وبسط لهم الأمل بأن الله هو الغفور الرحيم، ويترجح عندي: أنه لا يقدم على الاستغفار إلا بعد أن يحصل له الإذن من ربه في ذلك.

فَلَمَّا حَلُّوا عَلَى يُوسُفَ قَالُوا: ائْتِنَا بِآيَةٍ أَنْتَ اللَّهُ تَابِعِينَ ﴿٩٤﴾ وَزَفَعَ أَيُّوْبُ عَلَى الْقُرَىٰ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبَاسُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا فِي قَلْبِي حَقًّا وَفَدَا خَسْرًا إِذَا أَصْبَحَ بِرِشْخَرٍ مُّشْجَبًا وَهُمْ مِنَ الْيَاسْرِ مِنَ عُذْرٍ أَنْ تَرَى السَّعَاسَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٩٥﴾ هَ زَمَ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَالتَّائِبِينَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أور : ضم مطهرا الحفاوة.

أفئقن : جمع أمن وهي الحالة التي يكون فيها الإيمان مطمئنا لا يخشى مالا يلائمه.

العرش : السرير المرتفع الذي يجلس عليه

السجود : وضع الجبهة على الأرض قصد التمجيد.

حر : تصوب نحو الأرض.

أحسن إلي : أحسن إلي.

البدو : ضد الحضرة.

التزغ : إدخال الفساد في النفس.

دالم : حائق.

الولي : القائم بأمرى الكليل بنصرتي ورحمتي.

الحقني : لجمعني مدركا من سبقني.

الصالحون : المتصفون بالصالح ويعني الأنبياء.

بيان المعنى الإجمالي :

لنرحل بعقوب من الشام إلى مصر، ولما دخلوا على يوسف قرب إليه أبويه ورفعهما على العرش الذي يجلس عليه. وحياء الجمع بالتحية التي كانت مائدة في ذلك العصر بالسجود له. وقال لأبيه منكرا: تحقق تأويل الرؤيا التي كنت عرضتها عليك في صباي. وأردف أحسن الله إلي وأكرمني برعايته، فقد أخرجني من ظلمات السجن، وأكرمني بجمع شملتي بكم فأتى بكم من البدو، ويسر لكم الحياة الحضرية، وذهب ما أهداه للشيطان في تفكير إخواني. إن ربي يبسر لطفه لمن يشاء من عبده، إنه هو العليم الذي لا يعوته ما يحدث في الكون، وهو الحكيم الذي ينصرف في الحوادث نصرفا منصفا بالحكمة البالغة.

ثم توجه مبتهلا إلى ربه فقال: رب أكرمتني فمرت لي من الملك ما أقدم به أمر الناس على العدل الذي يرضيك، وعلمتني ما أستطيع به تأويل الأحلام، وأنفذ من الظواهر إلى ما وراءها من الحقائق التي تخفى على الناس، يا خالق السموات والأرض ثقتني على الإسلام إلى أن تتوفاني عليه، وأحلفي بالصالحين.

بيان المعنى العام :

99 100، فلما دخلوا على يوسف... إنه هو العليم الحكيم.

تجهز يعقوب للرحيل وسار إلى مصر حتى بلغها. ولم يكن القرآن يفصّل السفرة، لأنه لا يتعلق بها عرض في القصة.

لما دخل يعقوب وأهله على يوسف قرّب إليه أبويه مكرماً لهما ورفعهما على المرير الذي كان يجلس عليه. واختلف الرواة في زوجة يعقوب هل كانت أم يوسف، أو كانت خالته التي تزوجها يعقوب بعد وفاة أمه؟ فعلى الرواية الأولى يكون قوله تعالى: أبويه تغليبا لجانب الأبوة على الأمومة في التثنية، وعلى الثانية يكون تغليبا لعلاقة الأبوة على علاقة الخالة.

وعندما ارتقيا إلى العرش حيوة مع بقية الأهل التحية التي كان يحيى بها الملوك وكبار رجال الدولة، فسجدوا له بوضع جباههم على الأرض. والتحية بالسجود حرماً للإسلام لما ارتفع بالكرامة الإنسانية إلى المستوى الذي وحّد فيه بين البشر في القيمة الإنسانية، فاختص الله سبحانه بالموجود دون غيره.

وقال لهم: ادخلوا أرض مصر آمنين لي شاء الله. هو ترحيب بهم في موطنهم الجديد الذي سيفيمون فيه، موفور أمنهم من جميع النواحي، بما تطيب لهم به الإقامة، ولما كان دوام ذلك في المستقبل مرتبطاً بقضل الله وعنايته، وتكديسها مع الله وتبركا لحق بقوله ذلك (لي شاء الله).

ثم ذكر أباء مستحضرا الظرف الذي قص فيه عليه رؤياه في صباه، رابطاً بين مسائل مناما وما تحقق واقعا. نعم جعل ربي الرؤيا رؤيا حقا. كاشف بها سبحانه الروح بالحوادث المغيبة، فكانت أقرب ما يكون إلى الصورة الواقعية بعد الزمان، وتبست أضغاث أحلام. ثم ذكر أهم منن الله عليه التي أحسن بها إليه، وعدد منها:

- (1) إخراجهم من السجن بما بصحنه من عذاب نفسي يجرم المسجين من علاقاته الاجتماعية ويظهر إرادته مع إظهار براعته ونصاعة عرضه.
- (2) اجتماع شمل الأهل، مع الانتقال من حياة البداوة القاسية إلى خفض حياة الحضارة الناعمة.

(3) رجوع النعمة بينه وبين إخوته بعد إساءتهم إليه. وخفف مسؤوليتهم بنسبة الإفساد إلى الشيطان. وتكرم فلم يفصل ما كانوا به إليه، وذلك من سمو أخلاق النبوة، ونظيره ما جاء في قوله تعالى: (فلما تبأت به وظهّر الله عليه عرف بعضه وأعرضت عنه).¹ ليكون ذلك تبرأ مما يسير عليه المهتدون بأخلاق النبوة للمعاملة.

وختم كلامه بأن الله يقدر ما يلائم لمن يشاء ويبيد عنه ما يسبب له الحرج، وقد فعل بي كل ذلك فضلا منه ونعمة. إنه العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فكلمنا وبعثت في ضيق وكرب أسعفني، وأزال كربتي، وحول ضيقى إلى فرج. وهو ربي الحكيم الذي يجري الأمور حسب حكمته العلية.

101 رب قد آتيتني من المملوك .. توفني عبداً والحقني بالصلحين.

الحق نعدك نعم الله عليه وعلى أهله بالانتهال إلى عزته بهذه المناجاة الرفيعة الصادرة من توفد الشعور المتصل بالله فقال: يا رب قد تفضلت وأنعمت فبشرت لى ما يسهل لي من الملك، ومن أمر التصرف في شؤون الناس وإقامتهم على العدل. وأنعمت علي بالعلم الذي استعملت به تجاوز القريب إلى ما وراءه في الأحلام وفي النظر للأحداث. سبحانه ربي أنت الخالق للسموات والأرض وأنت القائم بأمرى الكفيل بصرفى ورحمتى، أسألك ربي أن تكمل علي نعمك بأن تثبتني على الإسلام وتوفاني عليه، وأن تلحقني بالصلحين من أنبيائك المكرمين، أي في جنات النعيم.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ، إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِ إِذْ اتَّخَفُوا امْرَأَتَهُمْ بِكُفْرَانٍ
وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَا فَتَنَّاكَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ

بيان معاني الألفاظ :

أنباء الغيب : أخبار ما غاب عن الناس.

الحرص : شدة الطلب.

بيان المعنى الإجمالي :

تمت القصة العجيبة عن يوسف بتفاصيلها وعبرها، وهي من الأخبار العجيبة التي لم يعلمها رسول الله إلا بفضل الوحي الذي جاءه من ربه. ولفت للنظر إلى الجزئيات التي وردت في القصة وهي من حديث النفس أو من التأمل الخفي والمكر التي لا يمكن أن يطلع عليها إلا الله، ورغم ما في هذه القصة من الدلائل على صدقك فإن أكثر الناس وإن حرصت على إيمانهم وبذلت غاية جهدهم لا يؤمنون. مع أن ما تبذله من جهود، وتواصله من سعي لهديتهم لا تطلب منهم أجرا على ذلك. إذ قد انحصرت اتفاقية من القرآن أن يكون ذكرا يوقظ العالمين جميعا إلى طريق الرشد والخير.

بيان المعنى العام :

102 104، لذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ... إلا لكسر للعالمين،

بعد أن أتم القرآن القصة بما تضمنته من أحوال عجيبة وما ورد في تفاصيلها من حقائق غطاها الزمن البعيد، وبما نفضت فيه إلى أغوار النفوس وإعلانها ما دبرته، وتصارع الضر والخير، والعاقبة للخير الذي ينتصر في النهاية فينهزم الشر، كمل ذلك بجمعه القرآن ويشير إليه باعتبار أنه حاضر في قلب كل من يتبع مراحل القصة، كل ذلك هو من أخبار الغيب الذي ما كنت تعلمه أنت ولا قومك، علمته عن طريق الوحي الذي نفتح لك به الأفاق الفسيحة، وتجمعا لهذا المعنى يخاطب الله نبيه فيقول له: إنك ما كنت حاصرا قريبا منهم إذ عزموا في خفاء، ودبروا وأمرروا ما رجوا، ونفذوا ما أرادوا، سواء في ذلك إخوة يوسف في جميع مراحل مسراودة ليهم إلى إقائه في الحب، والسيرة الذين أخفوه حتى باعوه، وشأن امرأة العزيز والنسوة، ومبدأ إخوة يوسف بإعلانهم عن حكم المارق إلى آخر تلك الجولات في أصناف النفس البشرية. إن في الأخبار عن هذه الممنيات التي طواها الزمان البعيد بكامل الذقة ما يقوم دلالة على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله.

إن ذلك من شأنه أن يؤثر في العقول تأثيراً يجعلها مقذرة لصدق هذا الوحي، وأنه من عند الله، إذ أنه ما يمكن لمحمد أن يخبر بهذه الأخبار بتلك الثقة، مع أنه ما كان العرب يعلمون شيئاً منها. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون رغم حرصك على إيمانهم بتقديم الأمانة المتتالية والمحاولات المتتالية وصبورك عليهم، كما يمكن أن تدخل الآية على أن أكثر الناس، رغم حرصك على تبايخ ما جاءك من وحي ربك، يرفضون التأمل في الحقائق التي عرضتها عليهم، فهم لذلك غير مؤمنين .

إنهم لا عذر لهم في تصميمهم على الكفر، فأنت تقدم لهم القرآن حيا في إفضاءهم، وليس إيمانهم به أجرا على صديك. إن القرآن هو ذكر للعالمين فقط وما كان ليكون أجره إيمانهم.

وَصَلِّ مِنْ بَيْنِ الْمَسْجُودِ وَالْأَرْضِ تَعْرِوْتُ غَلِيظًا وَنَعْمَ عَلَيْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يُؤْمِنْ أَكْثَرُفَ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَفْجَأَ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ قُلْ عَزَّيْزٌ يُبِيدُ أَقْوَاعًا إِلَى اللَّهِ عَلَى نَجِيمٍ ﴿١١٣﴾ أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَفَاءَ مِنَ الْمُنْشَرِكِينَ ﴿١١٤﴾

بیان معانی الفاظ:

الآية : العلامة الدالة على توحيد الله.

يمرون عليها : بروتها.

غاشية : من الغشي بمعنى الإحاطة من كل جانب.

بغثة : فجأة.

لنصرة : الحجة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الأدلة المثبتة لوحدة الله منبئة في الأكوان بدون حساب، تجدها في السموات وفي الأرض، ولكن كثيراً من الناس رغم أنهم يشاهدونها لا يتأثرون بدلائلها كأنهم معرضون عنها. ثم إن أكثر الناس يدعون أنهم موحدون وهم في الحقيقة مشركون، فالعرب يقولون إن الله خالق الأكوان، ويؤمنون باللهة تكون وسيطة بينهم وبينه، والنصارى تقوم عقوبتهم على التثليث، وكثير من فرق اليهود هم على شرك. إن لمرهم لعجيب، كأنهم آمنون من أن يسلط الله عليهم عذاباً يحبط بهم لا يجنون منه مفراً، أو تقوم عليهم الساعة بغثة فجأة دون أن يشعروا بقدمها فلا يكون لهم وقت يتوبون فيه.

وجماع القول، قل لهم: إن مهمتي هي الدعوة إلى الله معتمداً على الحجج البينة، وعفوا له عن كل نقص، وليس بيئي وبين المشركين أي صلة، والدعوة إلى الدين هي مهمتي التي أسمى لتزسيخها في قلوب المؤمنين بي.

بيان المعنى العام :

105 ، 107، سكان من آيةوهم لا يشعرون.

الكون كله شواهد لطيفة بأن خالقها واحد فسواء نظرت في السماء وما عمرت به من كواكب منتظمة في سيرها وفي سكناتها، وفي الترتيب العجيب في علاقاتها، أم نظرت في الأرض وما عليها من أجناس وأنواع مختلفة، من البشر والحيوان والنبات والجماد، وفيما اختص به كل فرد من خصائص تميزه عن غيره وتجمعه إلى نوعه وجنسه في أن واحداً، إنها آيات وعلامات تتداني بأن الذي سير كل هذه المخلوقات بقوانين ثابتة على ميزان واحد في الأجرام السماوية العظمى، وفي كثرة الضليلة، إن ذلك يفادي الإنسان العاقل ليشهد بأن خالقها ومسيرها هو الله الكامل للكمال المطلق. ولكن كثيراً من الناس يشاهدون هذا التكظيم المحكم دون أن يتأملوا فيه، هم معرضون عنه لا يلتفتون إليه. وحتى الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله قايمهم غير سليم من لومة الشريك، سواء في ذلك العرب الذين يقولون إن الله هو الخالق، ثم يضيفون إليه الهتهم مدعين أن لها حظاً من الألوهية، أو النصارى قايماتهم بالتثليث .

إن من عجيب الأمر أن هذه الأئمة التي من شأنها أن تحرك العقول فتذكر الإنسان بضغفه الشديد أمام قوة الخالق، ليحذر بطش الله، يشاهدها كثير من الناس، دون أن تحرك فيهم الهبة والخوف من الله، كأنهم آمنون من أن يسלט عليهم عذابا قويا يحيط بهم من كل جانب لا يجدون منه ملجأ ولا مفرأ، أو تقوم عليهم ساعة القياسه وهم غافلون فلا يجدون وقتا للتوبة والإنابة.

108- قل هتد سبيلي... وما أنا من المشركين.

قل لهم يا محمد: هذا الذي بلغنكم وشرحته لكم وأقمت عليه الحجج، هو سبيلي الذي ينتهي بي إلى رضوان ربي ووفائي بما حُملتُه. ثم وضح سبيله: أنه يدعو إلى الله متمكنا من الحجج التي تنفي عن هذا الدين كسل مسائفة شك أو دخيلة شرك، مع التنزيه الكامل لله معنا أنه لا صلة بينه وبين المشركين، فهتدُّه الأولى ﷺ هي الدعوة إلى الله، وكذلك هي مهمة المؤمنين به، وقد فرض على الصحابة فرض عين دعوة الناس للإسلام، ثم أصبح بعد ذلك خاصا بالفرقة التي تفقهت في الدين قال تعالى: **فَقُلُوا نَحْنُ مِنْ أُولَئِكَ** طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَحَلًا بَوَّاهٍ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَوَّلَ الْآيَاتِ وَأَوَّلَ الْآيَاتِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَوَّاهُ السَّبِيلِ يُبَيِّنُ السَّبِيلَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَحَلًا بَوَّاهٍ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَوَّلَ الْآيَاتِ وَأَوَّلَ الْآيَاتِ** وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَوَّاهُ السَّبِيلِ يُبَيِّنُ السَّبِيلَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

بيان معاني الآيات

استبصار الرسل : ينسوا بأما قويا.

بالسنة : عذابا.

القوم المجرمون : المكذبون للرسل.

أولو الأئمة : أصحاب العقول المستقيمة.

الذي بين يديه : للكتب الإلهية السابعة .

التفصيل : التبيين .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنة الله في الهداية . كل الذين أرسلهم الله على مر التاريخ، هم رجال من أهل للمجامع السكانية عاشوا مع قوامهم قبل أن يوحى إليهم ثم أوحى إليهم . وأن المرسل إليهم صمموا على الكفر فبقيت آثارهم دالة على ما انتهوا إليه . ثم يسافروا في أنحاء الأرض ليشاهدوا تلك الآثار ناطقة بمآلهم . وهو ما يؤكد أن ثواب الآخرة

خير من الدنيا ، ماكم لا تنظرون نظر من له عقل فيحسم نفسه من المآل الخاسر ؟

لقد واصل قوامهم تكذيبهم رغم حرصهم على هدايتهم . حتى بلغ الأمر بالمرسل أن يسوا من اهتداهم . وحتى ضنوا أن الكافرين كذبهم تكذيباً لا رجعة فيه ، عندما يبلغ الأمر هذا لحد يأتي نصر الله أرسله ، فينجي الله المصلحين المؤمنين ، ولا يرد نعمة الله على القوم الكافرين أي ذلك .

إن في قصص القرآن في سورة يوسف وغيرها ما يثير الذهن لكي ليتخذ من وقائع القصص عبراً يتجاوز بها الواقع إلى تبين الحلول لما يأتي به المستقبل . إنها قصص مستخلصة من الواقع لا من اختراع الخيال . ويمثل القرآن خطاً واصلًا بالكتب السابقة فيصدقها . وتفصل القصص من أمور المفيدة والملوك وصنع الله في الحوادث ما يهتدي به التالي ، فكان بذلك رحمة للمؤمنين يهديهم إلى الصراط المستقيم

بيان المعنى العام :

109 وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً مسلمين

تضمنت الآيات السابقة أصراً للمشركين على تكذيب الرسل ٢٨ رغم توفر الآيات المصدقة والحرص الشديد على إظهار مقومات الإسلام . والتعلية التي يبررون بها رفضهم أنك رجل مثلم . فند القرآن هذا التفسير بالرجوع إلى سنة الله في بعث الرسل . الذين حملوا وحيه للبشرية . فما أرسلنا من أول أمر الإرسال إلا رجالاً مثلك اخترناهم فأوحينا إليهم ، فكذبهم لقوامهم ورفضوا الاعتداء بما جاءوا به ، فسلط عليهم غضبه ، وما تزال آثار تكبيرهم باقية على أولئك الرسل معروفين في المجتمعات التي بعثوا فيها . ثم توجه السؤال للمكذبين ، مآلهم بقبائلك ، بالتكذيب ويتعللون بما قدمناه ؟ ألم يسروا في الأرض فتقوم لهم شواهد من آثار الخلق مضوا في الحياة قبلهم . مما يشير إلى أن عقوبة المكذبين برمائلك سيكون نظير ما آل إليه أمر المكذبين للرسل من قبلك .

ثم بشرت الآية الرسول ﷺ ومن آمن به، بأن ما أعد من الكرامة يوم القيامة لمن أزم للتقوى مستحضرا في مختلف ظروف حياته صلته بربه مقبلا على الطاعة ومبتعدا عن المعاصي، وذلك خير من الدنيا وما فيها. إن هذه الحقيفة ينساق إليها العقل بطبيعته. فمالكم منحرفون عن التقوى، ليس لكم عقل تتظرون به فيهديكم!.

110 حتى إذا استيا من الرسل وقتلوا...بأسنا عن القوم المعجزين.

وصفت هذه الآية المال الذي انتهى إليه أمر الإصرار على العناد، بلغ الأمر أن الرسل رغم حرصهم وطول أنفسهم في الدعوة، أن يقتلوا من يمان قومهم، إذ ما من باب من أبواب فتاير إلا سلوكه بصير كبير ونكاء في التناهي، وهذا الإصرار جعل أتباع الرسل يظنون أن رسلهم قد كذبهم المعاندون تكذيبا لا رجعة فيه. فسي هذا الظرف للخرج يسعف الله رسله بنصره، وينجي من يشاء لإجاءه من الذين ثبتوا على الإيمان وبسلط عقابه على المعاندين على القوم الكافرين.

111 لقد صكان في قصصهم عبرة...ورحمته تقوم بؤمؤن.

أكملت هذه الآية السورة، فكل هذه الخاتمة تنظر إلى الوحدة التي عرضتها منوها بما جاء فيها من عميق الدلالات، ومن حسن السبك، ومن الصدق في التعبير عن الواقع، وبما أيقظته في عقول الدالين ومشاعرهم من الألفاظ الإلهية، ومن تغلب الخير على الشر، مع بناء كل ذلك على الواقع لا على الخيال المجنح. فقد كانت قصة يوسف مع نظائرها في القرآن مشحونة بالمر، الذي إذا تأملها المتأمل صاحب العقل المستقيم، فحدث له أبواباء يتجاوز بها الوقائع السابقة إلى نظائرها التي يمكن أن تحدث في الوجود؛ فيجد صنع الله في تفسير الكون محروضا له ومطمنا على أن ملوك مملك الاستقامة والارشاد حسبا جاء في تلك القصص هو الذي ينتهي به إلى النجاح والصلاح.

إنه ما كان كلاما غير ملتزم بالصدق أو من نسج الخيال، ولكنه متصل بمنابع الحق فيما تقدمه من كتب الله، مؤكدا لمضامينها، ويبين أمورا كثيرة من أحوال النفس، وعالية المتقين والفاسقين، ويثبت أن المنصرف في الأكون هو الله تعالى، وأن التقوى هي الحصن الحافظ للإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وبذلك تنفتح من هذه القصص المسالك التي تشمل بها الرحمة الإلهية المتدبرين لها الأخذين بدلالاتها، وهم الذين صفت عقيدتهم وطردوا كل شائبة شك أو شرك، وانار الإيمان بصائرهم وهداهم إلى الصراط المستقيم.

سورة الرعد

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف. بهذا الاسم **(سورة الرعد)** أثبت في المصاحف وفي الروايات. واختلف في تاريخ نزولها ف قيل نزلت كلها بمكة، واستثنى بعضهم آيات منها، وقيل نزلت بالمدينة. والقائلون بأنها مكيةذكروا أنها نزلت بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين ذكروا أنها مدنية جعلوا رتبها في الترتيل السابعة والتسعين بعد سورة الفأل وقيل سورة الرحمن.

فمن الله الزخرف والفرقان

المرء تلك ما انت الكتب والذى اقول انك من ذلك الحق ولكن احكم الناس لا
يؤمنون الله الذى رفع السموات بقدره عز وجل ثم استوى على العرش وسخر
الشمس والقمر كل خيري لاجل منسى يدبر الامر بفضل الايات لعلكم يلقوا
رجكم تؤمنون وما الذى من الارض جعل فيها زواجى وانهر ومن كل الثمرات
جعل فيها زوجتي فغيبى اليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يحكرون وفي
الارض قطع المتجودات وجنت من اعنص وزرع ونخل منوان وغير منوان كسنى
وما وجيو ونفضل بعضها على بعضها فى الاكل ان في ذلك لآيات لقوم
يعقلون

١٠ بيان معاني الألفاظ

عمد : اسم جمع عمود، وهو ما يقام عليه سقف الفضة أو البيت.

المجرى : المسير المبرمج.

المسمى : المحدث

يدير الأمر : يبرم وينفذ ،

مد الأرض : وسم فيها.

الرواسي : جمع راس، الثابت المستقر .

فقطع : جمع قطعة وهي الجزء.

صلوان : جمع صنو وهي النخلة التي تثبت مع أختها من أصل واحد.

الأكثر : للمأكول.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة بحروف يتلى كل واحد منها منفردا - ألف - لام - ميم - ر - ويتعلق بها ما أُنبتاه في سورة البقرة. أعقبت بالإشارة إلى آيات القرآن الموصولة بأنها منزلة من عند الله، وأنها المفترت بالعق الذي لم يخلط بباطل، واسم يلحقه شك ولا تحريف. ولكن أكثر الناس رغم هذه لشواهد على صنفه حرموا من الإيمان.

تفرد الله بأنه هو الذي رفع السماوات دون أن تكون معتمدة على أعمدة، وفوق ذلك لم يتوكل على العرش بغير معارضة ولا تحديد، وطموح الشمس والقمر فلا تخرجان عما قدر لهما، وتسرعان إلى ما أتتا للحنى الذي هو نهايتهما وزوالهما. وكل ما يجري عليهما من التركيب والتحول والمسير خاضع للتقدير المحكم. يبرز الله لكم تلك الأدلة رجاء أن يحصل في قلوبكم اليقين بقدرة الله وتصرفه الحكيم في الأكلان، وأنكم ستعودون إليه يوم القيامة.

بسط الله الأرض وجعل فيها جبلا ثلاثة، أجرى فيها الأنهار. وجعل فيها من جميع أنواع الفسرات، وقدر لتلقحها في مراحل بروزها الأولى ما يتم به خلقها، وجعل من أنواع الحيوان ذكورا وإناثا، بذلك يتم للتكاثر. وكل هذه الكائنات التي جعلها يلفها الليل والنهار فتصل إلى غاية مداها، وينعم بها البشر في جملة المرافق التي يمر بها الله لهم. إن التأمل في هذا الخلق وفي التنظيم المحكم لمساره في الحياة، يعطي دليلا للقوم الذين لا يصرون على مشاهد الحياة غافلين بل يتفكرون في أسرارها تفكيرا يلقى في قلوبهم اليقين: أن الله هو المنصرف في هذا الكون.

تأملوا في الأرض فهي في ظاهرها قطع متشابهة ومتجاورة، ومع ذلك فإن العناصر التي تتركب منها كل قطعة تتميز بخصائص، لها أثرها في النماء وفي الإنتاج. على هذه القطع المتجاورة تنتشر جئات من أعقاب مختلفة الأشكال والألوان، وتثبت في أرضها زروع متنوعة، وتطول النخيل فيها. ومن عجيب خلق الله أن بعضها تكون النخلة وحيدة وبعضها تثبت في جذعها نخلة أو نخلات (صلوان) تصفى تلكم الأشجار بماء واحد من السماء أو من الأنهار لو من الأنهار. ومع ذلك تجد اختلافا بينها في الطعم والمذاق. يكون بعضها الفضل من بعض. إن الذين يعملون عقولهم ولا يعمرون على مشاهد الكون مرور الغافلين، يجدون فيها قلة وبراهين على تفرد الله بالتقدير والخلق والتسيير.

بيان المعنى العام :

1- أنزل تلك آيات الكتاب .. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

فتفتحت هذه السورة بحروف تقرأ منفصلة - الف - لام - ميم - ر - على النحو الذي افتتحت به سورة البقرة وغيرها من السور التي استهلت بحروف لا توصل عند القراءة. وقد بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

ثم تشير الآية إلى ما سبق نزوله من آيات القرآن الكريم إشارة تدل على سمو آياته، باعتبار أنها تقوم معجزة للنبي : دالة على صدقه، وبأنها تتضمن من المعاني العالية ما ينادي بما لها من فضل لا يداني في الهداية، فالكتاب هو القرآن. وثى بإبراز مزيين لذلك الكتاب:

أولاً: أنه منزل من عند الله جرى على لسلك بعد تلقك له عن طريق الوحي. ثانياً: أنه الكتاب الوحيد الذي طبع على الحق، فغيره من الكتب إما أن يكون من إنشاء البشر، وإما من الكتب المنزلة إلا أن المنزل عليهم وأخلاقهم لم يستطيعوا حفظها من الباطل الذي لجموه في ثايلها استجابة لشهواتهم، أو لتقصيرهم . إنه بالرغم من مزاياه فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون به، ومن هنا ترتبط السورة بأواخر سورة يوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) مما يرجح أيضاً أن تكون مرتبتها في الترتيل: الأربعة والخمسين.

2- الله الذي رفع السموات بغير عمد..لقوم يتفكرون.

تصرح الآية بأعظم ما كئل عليه آيات الكتاب من الحق، وهو تفرد الله بالإنشاء في الكون كله، وبلفت الأبرار والبصائر إلى ما يشاهده الإنسان في أي موقع له من الكون، يشاهد أن الله وحده هو الذي رفع السماء بما تحويه من كواكب ومجرات ومخلوقات بترتيب قدره فأحكم تقديره، لها مدار لها في تلك القبة العظيمة المترامية الأطراف إلى أبعاد لا يعلمها إلا الله . فلوها بعض العلماء قوما وصلوا إلى معرفته بالسموات المصنوعة، ومع ذلك فلا ترى أعمدة تحميها من السقوط. وألوا بعض الغموض بواسطة دراسة الجاذبية المضبوطة ضبطاً، لو قوي أو ضعف عما هو عليه ما كان لهذا الكون أن يبقى ولو لحظة.

وفرق ذلك فإنه سبحانه قد استوى على العرش وقد أشرنا إلى ما يتعلق بذلك المفهوم في الآية (54) من سورة الأعراف.

وفصل القرآن مما اشتملت عليه السموات، فصل الشمس والقمر، نظرا لقوة ارتباط الإنسان بهذين الكوكبين في حياته. فخص على أنهما مسخران لتقديره يسير كل واحد منهما سيرا سريعا جدا، ومبطلغان مع بقية الكواكب غاية المدى المحدد لها في الوقت الذي قدره وأحكمه في سبق علمه. وعند ذلك تقوم القيامة وينتهي عمر الكون.

إن هذا الكون بجميع ما يحويه مع تحولاته المتلاحقة في تسلسل الوجود، ما يعود منها إلى الوضع المادي، أو إلى العقل والفلسف، هو بتدبير الله في كل لحظة من اللحظات. فمع كل نفس وخلجة وتطور في كل كائن يتنزل التدبير الإلهي يتخذ ما جرى به القدر، ثم يقيم ذلك شاهدا ودليلا يهدي الإنسان إذا ما تأمل واستبصر إلى أن هذا التغير المتلاحق وعدم الاستقرار، حتى فيما بطن حسب الظواهر الخادعة لله مستقر، يدلي بأن الفناء لازم من لوازم الحياة الدنيا، وبأن الخلق على هذا النحو من الحكمة، من الواجب الحتمي أن ينتهي إلى الخالق للجزاء. إذ بدون ذلك يكون الخلق عبثا، والبقين بالنظام المحكم والربط بين أجزاء الكون في كل لحظة يناقض العبث، فذلك كان التأمل دليلا على البعث الذي يلقي فيه كل إنسان جزاءه من ربه عما فعمه من خير أو شر.

بعد أن لفت القرآن إلى الكون كله في انتظامه وفي خلقه، شى بدعوة الإنسان للتأمل في حكمه الله في خلقه للأرض. فقد بسط الأرض ووسع فيها فيمر عسارتها واستثمار ما تحويه من خيرات. وثبت في الأرض جبالا راسيات مستقرة ترتفع أعلى قمة فيها إلى 8848 مترا. وأجرى خلال الأرض الأنهار التي تحمل الماء والطمي. وجعل فيها من كل الثمرات، ما هو موجود وقت نزول الوحي وما يحدث في المستقبل، وما ينقطع بعد وجوده. وقوله تعالى: **جعل فيها زوجين اثنين** يحتمل عوده إلى الثمرات، على أن الثمرات نتيجة لقاح يحدث بين نوع الأنثى فيها ونوع الذكر، ويتم هذا التلقيح تارة بتوسط الإنسان أو بالريح أو ببعض الحشرات كالنحل. وفي كل ذلك حكمة ومنة. ويحتمل أنه تكثير بمئة خلق الحيوانات التي لا يتم التكاثر فيها إلا بوجود النوعين الذكر والأنثى. ثم إن جميع هذه الكائنات الأرضية بلغها في دورات متعاقبة وبانتظام لا يخلل الليل والنهار، وفي تعاقبهما مع ما لفتت إليه الآية من مظاهر كونية عجيبة، ما يقوم من كل مظهر من تلك المظاهر آيات وبراهين يؤلف منها أصحاب الفكر النير المستقيم أدلة على القدرة البالغة والحكمة العالية لخالق الكائنات. وأن الله هو المقترد سبحانه بتصريف ذلك تصريفا بعيدا عن القوضى.

4 وفي الأرض قطع متجاورات وجنات ... لقوم يعقلون.

وظاهرة أخرى في الأرض تقسيم الدليل على أن كل أحوال الأرض مستقاة إلى الاختيار والإرادة الحكيمة، فالأرض أجزاء متجاورة، والتركيب الذي عليه كل جزء يختلف عنه الجزء المجاور له، وتؤثر تلك العناصر في سرعة نمو النبات وفي جودة ومذاق ما تنتجه. وعلى وجه الأرض تقوم جنات من نخيل وأعناب وتتخللها زروع تسقى بماء واحد نازل من المطر أو من الأبار أو الأنهار، ومع ذلك فكل شجرة مذاقها ونكهتها، وتتفاضل فيما بينها باعتبارها ما كولا للإنسان، وتنبث النخيل من أصل واحد وبعضها يستمر على ذلك، وبعضها قد يلتصق بالنخلة الأولى نخلة ثانية فهما صنوان بدون تكوين، وبعضها يلتصق بهما أكثر من واحدة فهي صنوان منوعة. إن الإنسان العاقل يفهم به هذا الاختلاف المدرك مع وحدة الأرض والماء والطقس إلى الجزم بأن هذا الاختلاف لا يقبل أن يكون وليد الصدفة، ويعتقد أن إرادة الخالق هي التي ميزت بينهما وأوجدت ما أوجدت بجميع الخصائص. وأن علمه وإرادته وقدرته لا تقتصر على الكليات بل هي تتناول كل الكائنات الجزئية أيضاً.

• وَإِنْ تَحِبَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْهُمْ إِذَا كُنَّا فِي سَفَرٍ مَقَامُ عَذِيبٍ أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ
كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا مُلَدُّونَ
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْحُكْمِ قَبْلَ الْحُكْمِ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْوَعْدَ إِنَّ يَوْمَكَ الْفُتُورِ
مُنْفِقِينَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ غُلَبِهِمْ إِنَّ يَوْمَكَ يُشْهِدُ الْعُقَابُ ۖ وَنَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَلَمْ
أَكُنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ بَشِيرٌ ۖ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلَكُلْ تَقُولُوا ۖ

بيان معاني الألفاظ :

المثالثات : العقوبات المنكلمات.

الأعقاب : جمع عُل، طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير.

السينة : الحالة السيئة، المعصية.

المثالثات : جمع مثلة وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا في الشدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من أعجب العجيب، أحوال المشركين المنكرين للبعث، الذين يقولون نبرأ لامتثالهم لبعث الأجساد بعد موتها: كيف تعود إلى الحياة من جديد بعد أن تحللت عناصرها واندمجت في التراب ؟ منشأ ضلالهم هو كفرهم بربهم الذي أوجدتهم من

عدم، ووالى عليهم للطاقة حتى بلغوا كمالهم. ولكن الكفر كان قيذاً في أعناقهم بلويها عن التأمل، ويسوقهم في قتهية إلى الخلود في عذاب النار.

ومن فساد تفكيرهم أنهم يطلبون منك أن تجعل الله يتمسك العذاب الذي لو عذبهم به قبل أن يطلبوا التعجيل بالخيرات التي عند الله، وذلك لأنهم يستبعدون أن يسلط الله عليهم عذابه، مع أن الأقوام الذين استقم الله منهم لكفرهم حاضرة أخبارهم في ذماتهم وشهادة آثارهم. ولكن الله لا يجعل العقوبة بل يجعل الناس مع كونهم ظالمين عليهم يعودون إلى التمسك بالحق، إن هذا الإمهال لطف منه فإذا استمروا على الضلال فإن الله يعاقبهم أشد العقاب.

وسجل القرآن على الكافرين تشغيهم بالآثارهم على الرسول أن يأتيهم بمعجزات من وحي خيالهم. فأوقفهم القرآن ببيان حقيقتهم. أنهم قوم ضالون جاءهم الرسول لينذرهم ما هم صافرون إليه، وأن دور الرسول كثران السابقين له يساعد البشر على الإهداء إلى الصراط المستقيم.

بيان المعنى العام :

5- إن تعجب العجب، قولهم... أصحاب النار هم فيها خالدون

عليت الآيات الأولى من هذه السورة بقضية التوحيد وقضية القدرة النافذة في الكون. ونكس القرآن بالتوجيه إلى قضية كبرى في إصلاح البشرية هي قضية البعث يوم القيامة. توجه القرآن مؤكداً على قضية البعث والجزاء في مناسبات عديدة باعتبار أنها ركن من أركان العقيدة. وتمثل هذه المعيدة بالنسبة للمشركون والكفرة وأهل الضلال والفساد القضية التي يعملون على إنكارها، لأن التفكير فيها يفسد عليهم متعهم وإبراهيم وظلمهم، ولأنها إحدى القوى التي تبعث في المستضعفين الأمل وتحرضهم على الصمود.

شان الإنسان أن يعجب من كل خارج عن المعتاد خروجاً لافتاً للنظر، ومن الحق ما يكون مدعاة للعجب ما يصرح به الكفرة: إنا نذكر مستبينين لنا منعود خلقاً جديداً كما كنا، بعد الموت وما يعقبه من تتخلل عوامل لقاء نفقت أجزائنا ونخلطها بالتراب. وعقب ذلك ثلاث نواح :

لولا: أولئك الكفرة القائلون للبعث لو فهمهم في ضلالهم، كفرهم بربهم الذي تولاهم بعثته ولطفه في تحولاتهم الكبرى من نطفة من ماء مهين في أرحام الأمهات إلى اشتداد عضلاتهم وفكراتهم الذهنية وما يسر لهم من الأثرلق، وما يمتورهم بين الحين والآخر من اهتزازات وضعف تنبئ من استبصر أن مظاهر السلامة بعد العطب مؤذنة بأن القادر على ذلك قادر على البعث.

ثانياً: أن كفرهم ضيق عليهم مساحات تأملهم فهم لا ينظرون إلى ما وراء الحاضر أمامهم. كما تشير الآية إلى أنهم مبحشرون يوم القيامة، التي أنكروا تحققها، لذلك شأن الأسرى الذين طوقت أعناقهم بالأغلال فهم يسيرون إلى حيث قدر لهم من العذاب والمهانة.

ثالثاً: التصريح بأن ما قدر لهم: أن صلتهم بالنار تكون ملازمة لهم كأنهم والنار في علاقة صلبة لا تنقطع وأي صلبة أعاننا الله، فأكّد هذا المعنى بقوله تعالى هم فيها خالدون.

6 ويستعجلون عند البسيسة قبل الحسنة... تشديد العقاب.

بلغ بهم العناد إلى نوع من التحدي السخيف، فلما أخبرهم النبي ﷺ بالوعيد الذي سيصحبهم إن هم واصلوا كفرهم، طلبوا منه أن يجعل هذا الوعد استخفافاً به، وإنكاراً لإكمال حصوله. فس فساد تكبرهم أنهم طلبوا أن يجعل الله تسليط العذاب عليهم وما يسوؤهم قبل أن يطلبوا أن ينعم عليهم بالخيرات، والحال أن الانتقام الله من المعاندين قد سبقت شواهد، وأثار ذلك معروفة عندهم، وهذه سنة في العطفة من الكافرين ومن المستبدّين المستلطين على شعوبهم، فهم يواصلون الظلم والكفر لأن بنعمة الله، وهم مطمئنون إلى أنه لما لم يسلب عنهم العذاب عاجلاً، فمعنى ذلك أنهم آمنون.

إن تأخير إنجاز الوعد مبناه أن الله سبحانه هو أعلى من أن يكون منتظراً ما يخرج به الجاهلون عن طاعته ليوقع عليهم عذابه في الحال. ولكنه غفور يمهّل العصاة إسهالاً يفسح لهم المجال ليتحولوا من الشر إلى الخير، ومن الكفر إلى الإيمان. فهم مع ظلمهم الذي لا يخفى عن الرقابة الإلهية يؤجلهم إما إلى الأجل الذي حدده في سابق علمه في الدنيا، وإما إلى يوم القيامة، وليعلموا أن عدل الله سيوقع بهم جزاء فسادهم في العقيدة والعمل جزاء لا تصحبه رحمته، فيكون أشد ما يتمسرون.

7- يقولون الذين كفروا لولا أنزل عليه... سوف نكسر قوم هاد.

تسجيل آخر لمقالات الكافرين، وهم يتوكلون كل مرة بطلب أشياء لا يصدقون منها حصول اليقين وطرد موجبات التردد، ولكن ليظهروا أن ما يطلبونه يتوقف عليه إيمانهم، فإذا لم يستجب لطلباتهم، استنجدوا به أن ما جاء به ليس من الحق في شيء، فهم يغمضون أعينهم عن قنودات الحاصلة، وعن الإعجاز القرآني، ويقترحون الاقتراح تلو الاقتراح يبخون من ذلك التعجيز، والتحكم في التقدير الإلهي حتى يكون طوع مقترحاتهم، طلبوا أن ينزل الله على رسوله معجزة حجة

يفترحونه، لأن يرقى في السماء وهم يشاهدون رقيه ثم يأتي معه بكتاب مجسم يعرضه عليهم لقراءة نصه، وقالوا: لولا أنزل عليك ملك، إلى آخر أنواع التعتات التي فضحهم القرآن بفتراحها. فردّ عليهم القرآن ردا قاطعا بين مكانتهم ودور الرسول ﷺ. أما مكانتهم فهم ضالون عن الحق، غرر واعين بالمال، إذ لا تصل بهم عقيدتهم ولا سلوكهم إلا إلى الخسران المبين. وأما دور الرسول ﷺ فهو أن يندبرهم سوء العقيدة التي تترصد لهم، وأن يعمل على إقناذهم مما هم صانرون إليه. وهذه سنة الله في إرسال رسله، أنه يبعث لكل قوم هاديا يهديهم، أي إن يندبرهم سوء العقيدة بصحبه تبيان طريق الهدى والرشد.

اللَّهُ يَتْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغْضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْجَاؤُكُمْ كُلُّ مَثْوٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ ﴿١٢﴾ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَصَىٰ الْمُنْعَالِ ﴿١٣﴾ سَوَاءٌ لَّكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَمَنْ يَنْهَرُ بِهِ وَمَنْ هُوَ اشْتَاخَ بِالْأَدْلَىٰ وَمَارِجًا الْبَارِ ﴿١٤﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ يَنْزِلْنَ فِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مُمْسِكُونَ ﴿١٥﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ يُغَوِّى الْبَضْعَ مَا يَغْوِيهِمْ يَفْهَمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ لِقَوْمٍ لَّزْمًا لَمْ يَكُن لَّهُ الْبَأْسُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفور : يستعمل في الدلالة على النفس.

الكبير : العظيم.

المُعالي : للمترفع، العزيز العزة الكاملة.

سواء : مستو، لا يفضل واحد عن غيره.

المستخلص : المبالغ في الاختفاء.

الصارب : المتقل السائر. فهو يتصرف كيف شاء دون حذر.

مجمع : جمع مُعَقِّبَة. ملائكة يتبعونه ويلازمونه.

بإذن الله : بإذنه.

لزم : التبدل بمغاير.

وال : الوالي هو الذي يشتغل بامر غيره اشتغال تكبير.

بيان المعنى الإجمالي :

تنص الآية الثامنة والتاسعة على ما يحقق عقيدة الوحدانية وعقيدة النبوة، فالله هو المقترود بعلم ما تحويه الأرحام علما شاملا، للخصائص المادية لكل فرد، ولما هو به

العقلية والنفسية، ويعلم لوضع الرحم الحامل، مقدرا لكل فترة من فترات الحمل ما يمكن النسل الجديد من بلوغ المستوى الذي يستقل به بعد ذلك في الحياة. وكل ذلك يقوم دليلا على عظمة البراري سبحانه، وعلى خضوع الكائنات لتقديره فهو العزيز المتعالي.

علم الله علم واحد وشامل ولا يتغير، ولا تؤثر فيه الظروف التي يتخفى فيها الإنسان، أو يظهر، فما جرى في ضميره دون أن تنبئ به شفة وما جهر به، ما عمله تحت جناح الظلام بعيدا عن الناس، وما صنعه في وضوح النهار وملا من الناس، كل ذلك سواء في علم الله. وليس علمه بإحدى الصورتين أوضح أو أتم من الأخرى.

لأن الله على كل إنسان حفظة من ملائكته يسجلون كل ما يصدر عنه من قول أو فعل. وطريقة ذلك التسجيل والعتابة هي من ترتيبات الله التي تفوق مدارك البشر..

وإن نعمة الله على عبده تقديها للطاعة والشكر، ويترتب عن كفرها والانتماس في المعاصي زوالها. وإذا أراد الله أن يوقع على عبده عقابه فأمرته لذلك ولا يجد ناصرا يحميه لو يدبر له طريق نجاة.

بيان المعنى العام :

8-8. الله يعلم ما تحمّل كل أنثى... العكبر المتعالي.

نعمّ الايمان ما عرضته السورة من بدايتها، فبسط ما يدخل على الوجدانية والتفرد بالخلق والتدبير، وتؤكد أحقية البعث وتقربه للأذهان الغافلة عن تقوى صنع الله. فتم التعرض أو لا لقانون التكاثر في الحيوان والإنسان الذي يجريه الخالق على ترتيب ونظام لا يحيط بعلمه إلا هو. فالآية تشير أو لا إلى أن ما يحدث في كل لحظة من حمل كل أنثى في عالم الحيوان أو الإنسان هو مما اختص به علم الله، ثم تنزل من هذه النظرة الكلية إلى مرتبة أنثى، هي أن الله وحده يعلم بمجرد ما تعلق للفتحة بالرحم الخصائص التي أودعها في الخارطة (الجينوم)، إن البرنامج المكتوب في رأس كل لفتحة، الضابط لكل جزئية من الجزئيات التي ستظهر، مصدرة ما يكون عليه الكائن الإنساني أو الحيواني في المستقبل، والتغيرات التي تحدث والأسباب المؤثرة في ذلك وجودا أو عدما، هو ما تفرد الله بعلمه. وإن حصر النص الواسع الاتفاق (يعلم ما تحمّل كل أنثى) في كون ما حوته الأرحام من جنس الذكور أو جنس الإناث، تضيق مستند إلى تصور قاصر نبعث لتعلق الأبوين، وقد تكون الأسرة مهمة بالبحث عن كون الجنين ذكرا أو أنثى. وهذه جزئية من مئات ملايين من الجزئيات التي يحيط بها علم الله في الفتح التي تتحول إلى أجنة. وهذا ما لا

يصل إليه علم أحد لا بوصف الفردية ولا الشمولية ، ويختص به العلم الإلهي .
وإن تصور الفكر البشري لهذا العلم الرباني في أبعاده اللامتناهية لما يحدث في كل لحظة في عالم الإنجاب، ليقوم قليلا على إمكانية بعث هذه الكائنات التي أحاط علمه بها في بداية التكوين وأحكم مسارها. ولا يعقل إنكاره أو الشك فيه أو طلب الدليل عليه فكانت هذه الجملة الأولى محققة لصديق كل ما سبق في هذه السورة من وحدانية الله ومن البعث.

عطف القرآن على ذلك: **(وما نغفر الأرحام وما نُزوي)** اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تأويل المراد بنقصان الأرحام وزايلتها .

والذي ترجح عندي بعد التأمل، أن صدر الآية تحدث عن خصائص الجنين الذي استقر في رحم الأم، وأن هذا المقطع لفت النظر إلى التحولات التي تحدث في الرحم ذاته، فبمجرد ما يعلق الجنين بجدار الرحم، تتغذى المعلقة من دم الأم لتأخذ في الانقسام والنمو، ويتم تحول في الهرمونات، وبهذا تفيض الأرحام مما كانت تملئ به من الدم، ويدخل دم الأم في تكوين الجنين، فينمو وتظهر شئنا فشيئًا مكوناته ويزداد وزنه إلى أن يبلغ الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض كائنًا يحمل خصائص النوع . فمعنى تفيض الأرحام: صوب الدم كما تقدم في سورة هود: وعوض الماء آية 44 - وزيادتها بزيادة وزن الجنين الذي نما من ذلك الدم.

ثم عطف على ما تقدم، مبينًا أن كل شيء يحدث في الوجود لا يتم بلوغه إلى مستوى الحثوث إلا بعد مروره بمراحل مضبوطة ومحددة بدقة بالغة، ويدخل في هذه القاعدة الكلية التكاثر الحيواني والإنساني. فكل مرحلة من مراحل التطور، وفي كل لحظة زمنية منها، تتولى العناية الإلهية إمداده بما هو في حاجة إليه من الغذاء نوعًا وكما، فلو رك ما يصير إليه عن حاجته أو نقص كان الخلق مشوهاً غير قادر على الحياة. وبهذا تلفت يوفى دليل فسلط على أبعث فإذا كان التقدير الإلهي قد يمر للجنين بلوغ المستوى الذي يصل به إلى الحياة المستقلة، فلا يقوم هذا دليلًا واضحًا على إمكان إعادة خلقه ليبعث من جديد ؟

ويدخل كل ذلك تحت قبة العلم الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، سواء أكان ذلك من عالم الغيب الذي لا تصله معارف الناس، أو من المشاهدات التي تختلف أحجامها فتتق حتى لا يستطيع الإنسان إدراكها بحواسه المجردة، أو تعظم على مستويات مختلفة.

هو سبحانه العظيم الذي لا يدانيه في عظمته شيء. وهو العزيز الذي يخص كل شيء لإرادته.

10- سواء متحكم من أمر القول ومن جهر..سواء بالإنهار.

تفاوت إدراك البشر لما حولهم تبعاً لعلو المستوى الصادر منه أو ضغطه، فبعضها يهز الإنسان هذا وبعضها ينزل إلى المستوى الذي تهر آثاره دون أن يشعر بها. ولذا كان من يرغب في كتمان أقواله وأفعاله يقوم بها في سر، ويتخذ جح الظلام له سقراً حتى لا يطلع عليه أحد. ولكن الله سبحانه يعلم كل ما يصدر عن الإنسان علماً يستوي فيه ما أظنه صاحبه وما كنمه في قلبه فلم تتحرك به شفة، لا تفاضل بينهما، وعلمه بالخاليتين سواء. كما أن من يقوم بعمل من الأعمال ويتخير له جح الظلام ويبالغ في تحري البعد عن عيون الناس، ومن يقوم به وهو يسعى لي وضج النهار فيلفت الأنظار إليه بحركته وينكشف بالضوء، هما سواء بالتمعية لعلم الله إذ لا يتوقف علمه على سبب مساعد يضيء عند فقد، وهذا هو الفارق بين العلم الكامل الذي لا ينوقف على شيء، والعلم المحدود المرتبط بقوانين المعرفة.

11- له معقبات من بين يدي..وما لهم من دون من وال.

له ملائكة يتابعون الإنسان في جميع أحواله، ويقنون كل ما يصدر عنه من خير أو شر في سر أو إعلان. يحيطون به من أمامه ومن خلفه ومن جميع جهاته فلا يغيب عنهم أي فعل أو قول منه. ولا تسال عن الطريقة التي يتم بها توثيق كل ذلك ولا عن المراقبة كيف تتم، فكل ذلك من أمر الله: من التركيبات التي أحكمها الله وهي فوق المدرك البشري، كقوله تعالى: **فَسُئِلَ الرَّسُولُ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ**، «وروى مالك البخاري ومسلم بسندهم إلى أبي هريرة واللفظ لـمالك: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي يقولون: تركناهم يصلون وأقربناهم وهم يصنون. - ح 472 ج 1 ص 241-

و يمكن أن تفهم الآية على أن لكل إنسان في جميع أحواله التي تضمنت في الآية السابقة حفظة يحفظونه تتم بهم صلاته من العبادي الحيوانية ومن أشرار البشر. فتكون الآية منبهة على الأطفال المحيطة بالإنسان. ويكون معنى من أمر الله: أي يحفظونه من كل ما جرى القدر به، فإذا حل المقدور أسكن الله إليه.

وتبه القرآن بعد أن قرر أن الله حفظة يراقبون أعمال البشر ويمجلون ما قاموا به، أو أن الله يحفظ البشر جميعاً جرى به القدر، تلي ببيان أن الله إذا أكرم نعمة على

من نظام. وكما ينطلق التسميع من إيمان الكون بأفعاله التي علمها عند خالقه، فكذلك يصدر هذا التنزيه من ملائكة الله وهم بخشونه أشد للخشية.

ويرسل الصواعق متى أراد لتصيب من أراد إهلاكه. والمعجب من الكفرة أنهم يجادلون في نفرد الله بالتصرف والاختيار، مع أن مكره سبحانه بالمصرفين عنه، قوي شديد مشاهد لديهم.

خضع العباد لله فهو وحده الذي يتوجه له الداعون بآبئها لأتهم بالصاندة عن شعورهم بالحاجة الحق لعون ربهم. وهو القادر على إسماعهم بمطالبهم. وأما الكافرون فيدعون دعاء صادرا عن غفيدة باطلة فيكون ضياعا غير منتج، مثلهم كعقشان بسط كفيه إلى الماء يبغى أن يصل للماء إلى فمه ولن يبلغ فمه وهو على هذا الوضع.

خضعت الكائنات كلها لله وانقادت عن رضا أو مكرهه. فسجد له المؤمنون حبا فيه وشوقا إليه، وسجد المنافقون كرها وهم أدلاء، وسجدت الظلال مع الساجدين واضحة وضوحا لفضل في قترني الصباح والعشي تبعا لامتدادها المرتبط بوضع الشمس في السماء. وكل الكائنات تجري عليها قلوبونه وتقديره من المسوات والأرض وما احتوته.

بيان المعنى العام .

12-13: هم الذي يريكم البرق خوفا وطمعا. هو شديد المعال .

عما بلغت أنظارا في كل آية من الآيات التي سوف في هذه السورة التقابل في الآية (1) بين الإيمان والكفر، وفي (2) الوجود والقضاء، وفي (3) زوجان الليل والنهار، وفي (4) الوحدة مع اختلاف النتائج، وفي (5) الآيات الدالة على البحث وإنكاره، وفي (7) الاستعجال بالسينة قبل الحسنة، والغفرا والعقاب، وفي (8) الإنذار والهداية، وفي (9) نقصان الأرحام وزيادتها، وفي (10) علم الغيب وعلم الشهادة، وفي (11) السر والجهر، وفي (12) التمكن من النعمة وسلبها.

وفي كل ذلك براهين متتابعة على الوحدانية والقدرة الكاملة. وفي الآية 12 يحرك القرآن انتباهنا للتأمل في طاهرة السحب المترامية واليسر الذي يصحبها نارة، يخترق البرق السحب بمرعة الضوء ويمتد نوره الخارق أو يفتر. نشاهده فإذا أثر المشاهدة بعونه التي تكاد تخطف الأبصار إحساس بالخوف مما يمكن أن يتبعه من الصواعق، وإحساس بالأمل بنزول الأمطار عتيبه. فالظاهرة واحدة وتأثر الإنسان بها من الضد إلى الضد، من الخوف إلى الأمل، ثم إن تفسير هذه المنفعة الكهربائية وأسباب تفرغها، لماذا نحدث في بعض السحب، وتسر سحب

أخرى دون أن يتخللها أي برق؟ كل ذلك يتبادي بأن الله هو وحده الذي يتصرف في الكون ومنه المحب فينشئها على النحو الذي يختاره، وتكتمل قولنا الفكرية ومعارفنا عن تبيين سبب ترجيح إيراد ظاهرة عن غيرها.

و يتبع لمع البرق صوت الرعد، ومع أنهما يصدران في وقت واحد تختلف سرعتهما، فوختلف الإحساس بوجودهما، كما تختلف الاهتزازات المصاحبة ضعفا أو شدة تكاد نضم الأذان. إنها تسبيحة من تسبيحات الكون المخلوق المتصرف الواحد للظاهر. هو الذي أحدثها على المستوى الذي أراد وقتها. ولكن لا نفه تسبيحها، وصلى الله فيما أخبر به، ونفتون بشيخة المحب وما بصحبها تنزيه الملائكة لله عن كل نقص، وهم مستحضرون عظمتهم على أكمل وجه، مما يجعلهم يخافون عقابه.

قد تفتت من للمحب صواعق حارقة تنفذ إلى الأرض بصيب الله بها من يشاء وبصرها عن يشاء. الطلق للاعبون في ميدان اللعب، وتراكمبت المحب ولمع البرق وزمجر الرعد ونزلت صاعقة صمق بها لاعب ولحد من بين اللاعبين، مثل هذه الحادثة تكرر في الوجود وتقوم لئلا علمى أن المتصرف في الكون هو الله وحده. ومع ذلك فالكثرة يجادلون الرسول والمؤمنين في ثبوت الله بالآثار في الكون، ويثبت بها لا مجال للشك فيه أن القوة العظمى التي لا تقايل ذات الأثر الشديد هي الله وحده.

14- له دعوة الحق والذين يدعون من دونه. الكافرين إلا في ضلال.

تبين من الآيات السابقة، أن الله هو الواحد الأحد، وهو وحده القادر المزيتر، ويكون موقع هذه الآية تأكيد ذلك المفهوم، فليث تكرد بالأكوية والقدرة يتجسه جنعا أن من يرفع يديه بالدعاء، ويتوجه قلبه طلبا للمعون والرعاية والفرث والنعمة، يكون توجهه صادرا عن حق إذا كان ملبعا عن عقيدة حق لا عن عقيدة باطلة، فالسداء في حقيقته هو نتيجة ما حصل في الضمير من حاجة إلى أن يتولى الله سبحانه بقدرة اداعي هيسر له خيرا، أو بصرف عنه ضرا، فصدور الدعاء يكون بذلك صادرا عن عقيدة حق لا عن تصور باطل.

ثم زادت الآية هذا المفهوم بيانا بالتصيص على فساد مقابله، وهم المشركون الذين يدعون الهتهم من دون الله، وجسمت ذلك الفساد بتمثيلة بالظمان للمحتاج لشرب الماء فيسقط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء قمه، وطريقته تلك لا يبلغ بها الماء إلى فمه أبدا، وبهذا فال دعاء الكافرين لأهتهم دعوة ضائعة لا يترتب عليها جلب منفعة ولا دفع ضرر.

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَيَاةَ وَالْأَيَّامَ فَمَاذَا أَلْفَنُ يَذْعَرُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَسُكَتْ فِي الْآيَاتِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُضْرِبُ اللَّهُ لَأَمْثَالُ ۚ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَجْرًا خَيْرًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ تَوْأَمًا لَهُمَا فِي الْأَرْضِ فِيمَا وَمِثْلَهُ ۚ لَهُمْ لَأَقْدَرُوا رَبُّهُ أُولَئِكَ هُمْ سَوَاءٌ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ يَبْقَوْنَ فِيهَا يَبْهَتُونَ

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يقدرون .

القهقري : القلبي .

أودية : جمع واد ، الحفير الممتد الذي يسيل فيه ماء المطر .

نذر : تقدير .

للزبد : ما يطو الماء المتدفق من رغوة ، يحمله السيل ويرمي به على ضفتيه .

راهباً : منتفخاً ، الذي قد ربا .

الحلوة : المصوغ الذي يقرين به .

بضرب : يبين بالمثل .

الجفا : ما يطرح ويرمي به لكونه لا قيمة له .

الخصمى : العقاب الحسنة .

الماوى : المنزل الذي يذهب إليه الإنسان للسكنى فيه .

المهاد : ما يفرش ويمهد للجلوس والرقاد .

استجابوا : اجابوا مع رغبة ، محافظة على التطبيق .

بيان المعنى الإجمالى :

اسألهم من رب السموات والأرض الذي أبدعها ونظم شؤونها وألمها على ميزان لا يختل؟ باختهم بالإجابة، فهم لنرددهم بتلعثم المستهم ولا يسرعون بالإفصاح عن الحقيقة، قل لهم: هو الله. ووبخهم وقل: لماذا اعتمدوا وعبدوا من دون الله الهة عجزة، لا يقرون على جلب نفع لأنفسهم أو نفع ضر عنها، فضلاً عن تأثيرهم فى غيرهم. وعرفهم بالمنزلة الهائلة التي هم عليها، فهم مع عماهم ومع إطباق الظلام على عقولهم، لا يستوون مع المؤمنين الذين هداهم الله فعرفوا الطريق المستقيم وجاءتهم أنوار الوحي فأتركوا ما وراء الظواهر من حقائق.

أعطوا الله شركاء تساءوا معه فى الخلق، وخلقوا كخلفه، فكان ذلك معرضاً لهم للاستهزاء والحيرة قل لهم وأخرجهم من ضلالهم، قل لهم: الله هو المتفرد بالخلق،

وما عدا مخلوق له سبحانه، والله هو الواحد الذي لا شريك له في تصرفه بالخلق، وهو العالب الذي تخضع له كل الكائنات.

ثم ضرب القراي مثلين يقربان ما تضمنته الآيات قبله:

المثل الأول: إن الله أنزل الماء من السماء فسالت منه المياه لتجتمع في الأودية ويأخذ كل واحد منها حسب سعته، ويعلو سطحها زبد مستفح يلقى السيل على جانبيه، يذهب أثره وتختزن الأرض الماء الصالح للحياة، وذلك مثل ما ينزله الله من الهدى فينفع به أقوام على قدر سعة مداركهم، وسقاء أرواحهم ويستمر عطاؤه في العالمين، ويهيج من الحق للساؤل الكفرة المعاندون. فيكون شغيبهم وتضليلاتهم كالأزبد الذي يتبدد في النهاية ولا يبقى له أثر.

المثل الثاني: للمعادن التي يحمي عليها فينزل المعادن الصالح للزينة من الذهب والفضة، أو من الحديد والحاس ونحوهما التي يعمل منها الصناعات ومرافق للناس، ويعلو الزبد الذي لا نفع فيه فيلقى به. وكذلك ما ينزله الله من الهدى على منو ما ذكر في المثل الأول.

ويصروح القرآن ختاماً بالنتيجة: هي أن الذين قبلوا ما جاءهم من الوحي برغبة وتعلق كبيرين، يجزيهم ربهم بالحسنى المتصلة في ضروب أطرافه التي لا تحصر، ونصرهم على أعدائهم وإحلال الأمن في نفوسهم والرضا. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الهدى يكون مالهم له يبلغ بهم اليأس: أن يؤذ أحدهم لو يفكر من سوء وضعه بما حوته والأرض بل بضعف ذلك، فتضاعف حسراتهم للنفسية ويحاسبون حساباً لا رحمة فيه، يبالغون في كل كبيرة وصغيرة، وتكون الدار التي ينتهون إليها هي جهنم يفتشون ناراها، وما أسوأ من دار.

بيان المعنى العام :

16 قل من رب السماوات والأرض ... هو الواحد القهار

تكرر الأمر بالقول في الآية الأولى خمس مرات (قل)

تتابع من مفتتح السورة البراهين والمُشاهد المثبتة للوحدانية، وتوجت بتسجيل حقيقة يذلل ضلها الكافرون: إن الله يسجد له ويخضع لقدرته وإرادته الكون كله.

وتهللوا تبعاً لذلك لمخاطبتهم خطاب التوبيخ والتقريع، وإظهار هوانهم وضعف تكبرهم، ولا شك أن ذلك يكون وقعه أقوى إذا صمتر عن الله، فتكرر الأمر بل ليتوجه إليهم مضمون القول توجيهاً بكنهم.

بادرهم بالسؤال من تولى العناية بالسموات والأرض فنظم أمورهما أكمل تنظيم وأقنع؟ وهذا ما تليده كلمة رب، وهذا السؤال لا يقصد منه أن ينتظر إجاباتهم لأنسه

ليس له إلا جواب واحد هو الحق وما عداه زيف وباطل. فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يعرفهم بالجواب فيقول لهم: الله رب السماوات والأرض. ورثب على ذلك توبيخهم على عنادهم ومواصله الكفر به فأورد عليهم سؤالاً إنكرياً توبيخياً، أنكروا به فاختتم الله من دونه تلك الأصنام الممثلة للعجز والهوان التي بلغ من ضعفها أنها لا تقدر على جلب أي نفع لنفسها أو أن تنفع عنها ضراً يؤذيها.

ثم تنى مشوها لحالهم، والمدى البعيد الذي يفصلهم عن المؤمنين، من الضد إلى الضد ومن الرفعة والإيجابية، إلى الانحطاط والسلبية. قل لهم: إن حالهم كحال من فقد بصره فقائه إدراك ما هو حاضره أمامه فأنكر وجوده. أو كمن أطبق عليه الظلام فهو لا ينتفع بحاسة النظر فهو لا يرى شيئاً. وثبتن ما بين وضعهم مع العمى أو الظلمة المطبقة، وما بين وضع المؤمنين وقد جاءهم نور من ربهم فاهتدوا إلى حقائق الوجود ومآلات الكون، وتمكسوا من الهداية للزيانية في الكائنات كلها داخله تحت أبصارهم مؤنفة بما وراءها من يد الإبداع وكمال التدبير، زاهية بالتعاقب للمؤلف بينها.

كلمة [لم] التي تعيد من البداية قصد الانتقال من الكلام السابق إلى كلام جديد يعبر عنه (بالإضراب) عن الكلام السابق وتوجيه العناية للكلام اللاحق. فتورد الآية عليهم سؤالاً محرجاً: أجعلوا لله أرباباً مساوين له في ألوهيته وقدرته. تمكنت تلكم الآلهة أن تخلق وتحدث مخلوقات على النحو الذي نصرف به الله في الإيجاد. فأوقعهم ذلك التشابه في حيرة ما هو خلق الله وما هو خلق الآلهة؟ ثم ما هو الفرق بين الله وبين الهتهم؟ إن هذه الصورة تثير السخرية من لوازم عقائدهم. ولذا أعقبها بأمره لمحمد ﷺ (قل) إن الله هو المتفرد بالخلق والهيته لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقات. والله هو الواحد الذي لا يشاركه أحد في ذاته ولا في خلقه فجميع الموجودات مخلوقة له. وأيضاً هو الغالب الذي يخضع له كل شيء. فلا يصعب عليه إيجاد المادة ولا الصورة التي يتم عليها الإيجاد. والهتهم لا تقدر على خلق أي كائن مهما ضلّ. فهي الهة زائفة.

17. أنزل من السماء ماء فسأله ألوية شجرية. يهشم. الله الأمثال

تضمنت الآية تمثيلين، كل منهما يؤدي ما يؤديه الآخر. ليعم التوضيح للناس جميعاً من يدرك التمثيل الأول ومن يدرك التمثيل الثاني. ومن يدركهما جميعاً. فلتتابع ذلك:

التمثيل الأول: إن الله أنزل من السماء مطراً متداركاً. فسأل في الشجاب وتجمع في الأودية على قدر معيتها، وإنك لتشاهده مسيره في المسيل تملوه رغبة منتقصة.

فتذهب تلك الرغوة غير منتفع بها ويبقى الماء الذي ينفع المباد، وينثر الخصب وينبت للزرع وتعمري به الحياة في الأرض.

سألت أوتية بقرها، جرى في كل ولد من مياه الأمطار المتجمعة ما يملأ جوائيه، وكل ولد يحمل من الماء على قدر سعته. وسرعة حركة المياه تبعاً لاجدارها من الجبال والروابي، مع ما تأتي عليه من الهشيم تتكون منه رغوة تغطو سطحها (الزبد) ومن شأن الزبد هذا أن يكون منقحاً لما يتخلل تركيبه من فقاعات الهواء.

التمثيل الثاني: المعادن على الصورة التي استخرجت من مقاطعها، يتناولها الصانع فيؤقدون عليها النار، لاستخلاص المعن الصالح من المذهب، ولقضية لصنع الحلي وللنفود، أو من المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والرسامين التي يؤقدون عليها النار ليستخلصوا منه الفلز، وليتخذوا منه صفائح لصنع المواكين والآلات المختلفة للارتفاق بها.

هذان المثالان ضربهما الله ليمتبر بهما الناس وليتخذوا منهما نظيراً يكشف لهم بصفة أقرب مضمون ما يشير إلى إلهيه هما مثالان للحق والباطل فلنتتبع مراحل التمثيل:

أولاً: تتابعتم الأمطار على ما وصفناه أخذاً من الآية، والماء النازل من السماء به دولم الحياة، وتكونت منه ميول يتداخل فيها ما ليس من الماء ولكنه لصيق له في جريانه، ولا نفع فيه، بل إنه ارتفع فوق سطح الماء وانتفخ وهو الزبد الذي لا يبقى طويلاً بل يفتقه السيل على جنبائه، وتفرقع ففأقيعه ويبقى الماء الأصيل يروي الأرض وينبت الكلاً والعشب والثمار وينفذ إلى أعماق الأرض فتختلله بين طبقاتها.

ثانياً: مثل الماء النازل من السماء كمثال القرآن أنزله الله هاتياً للظوب ينثر في العقول نور الإيمان فتطمئن، ويوجه الأعمال إلى الخير فتزقي الحضارة، ويسلم الناس، فيكون منه منهج متكامل يأخذ طريقه في إصلاح الحياة كما يأخذ الماء طريقه، ثم إن المتكلمين له على درجات في التأثير والانتفاع بهداه على معدل ما لهم من قوة إيمان ورجية في صالح الأعمال كما يأخذ كل ولد من الماء ما يتسع له جنباته، ويتواصل النفع به كما يتواصل النفع بالماء الذي سارت به الأودية. ويمر على أسماع الكافرين فيهبجهم لمعارضته ويكون لهم صوب مرتفع، ولكنه مهزوم في النهاية شأن الزبد الذي ينتفخ ويعلو على سطح الماء يلقى به دون أن يكون له أثر.

ثالثاً: مثل آخر من المعادن: يوقد الصناعات والصواعق النار على المادة الخام فيمصل للمعدن الصافي من الذهب والفضة والحديد والنحاس والقصاص متميزاً، ويفصل ما خالطه فتتدفق النار الحامية زبداً كما يذف اللوادي الزبد على جانبيه، وينتفع الناس من الذهب والفضة حلواً ومن المعدن منافعاً لقضاء حاجاتهم.

ضرب الله ذلك مثلاً للحق والباطل، فيكون الماء الذي نجمه الأودية وتتسربه الأرض فتنتفع هو كالحق النازل من عند الله الممتد إلى الوحي، والزبد الذي يربو مثلاً للباطل. وكذلك ما يخلص من المعدن من ذهب أو فضة وحديد ونحاس ونحوها هو كالحق ينتفع به الناس، وما تتدفق للنار إلى الخارج كالباطل. وعلى هذا النحو يضرب الله الأمثال لتكون مؤكدة ومبينة ومقنعة للناس.

18- الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّبِّمْ الْحَسَنَى... وَيُنِيسُ الْمَهَاد.

يدعو النبي ﷺ للناس فيقبلهم ما أحى إليه من ربه من العفيدة والتشريع والإرشاد، يكون المتفلون له على نوعين:

النوع الأول: المؤمنون الذين قبلوا ما جاءهم من ربهم بقول متفتحة ورغبة في العمل به، ثم يلتزمون بعزيمة صادقة وقوية تطبق تلك، ويعملون به فعلاً. هؤلاء وعدهم الله للحسنى: ينزل عليهم رضوانه في الدنيا، ويلطف بهم، وينصرهم على أعدائهم، ويمكن لهم ويلحق بهم ذرياتهم، ويمسر حسابهم في الآخرة، ويكرم جزاءهم في منازل الرضوان في الجنة دار الفرار.

للدواع الثماني للكافرين: الذين يرفضون ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ عفيدة وملوكاً، هم أيلون إلى وضع من اليأس، يبلغ بهم النكال أنهم يكونون في أسوأ وضع: يودون أو يجنون ما يقدمونه لإنقاذ أنفسهم من الهول والعذاب الماحق المحيط، ولو كان ذلك بتنازلهم عن الأرض وما فيها، بل ضعف ما في الأرض، وأنى لهم أن يتحقق لهم ما يتمنونه فلا هم يملكون من ذلك شيئاً. فتكون لمآلهم من الأمانى الخيالية تضاعف حمراتهم.

لأنك الكفرة الرافضون، جزاؤهم الحساب المسمى الذي لا يتجاوز فيه عنهم لا في صغيرة ولا في كبيرة، ومصيرهم جهنم يقرشون نارها وما أسوأ من فراش

• أَقِمُّ يَوْمَئِذٍ لِلْعَالَمِينَ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْنَى (١) يَتَذَكَّرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ
(٢) الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَخْشَوْنَ الْعِشْقَ (٣) وَالَّذِينَ يَجْلُونَ مَا أَمْرًا بِمَا أَنْ
نُؤْمِلُ وَتَحْشَرُونَ زَكِيمٌ يُخَالِفُونَ سُوَّةَ الْجَنَابِ (٤) وَالَّذِينَ ضَمَرُوا أُنْفُسَهُمْ وَخَبَرَهُمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ يَسْرًا وَعَلَانِيَةً يَذْكُرُونَ فِيهَا خَمْسَةَ اشْهُنَه
 أُولَئِكَ هُمُ عِشْرَةُ الْمَدَارِ ۝ جَسَتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
 وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ
 عُقْبَى الْمَدَارِ ۝ وَالَّذِينَ يَبْقِضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَتَاعِهِمْ لَئِنْ قَطَعُوكَ فَاتُّرَ اللَّهُ
 بِهِمْ أَدْبَارًا ۝ يَفْعَلُونَ فِي الْأَرْضِ ۝ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ ۝ وَهُمْ سُوءُ الْمَدَارِ ۝

بيان معاني الألفاظ :

يَذْكُرُونَ : الوصل ضم شيء إلى شيء، واشتهر في الإحسان والإكرام، ومنه صلة الرحم .

خشية : خوف ناشئ عن تعظيم من يخافه.

إبقاء وجه ربههم : طلب رضاه.

الدرء : الدفع والطرد.

العقابة : الخاتمة.

عَدْنٌ : الإقامة، والاستقرار، والثبات.

نَقَضَ الْعَهْدَ : أبطاله وعدم الوفاء به.

بيان المعنى الإجمالي :

فريقان لا يجمع بينهما جامع: من يوقن بأن الحق الواضح، هو ما أنزله ربك إليك،
 لا شبهة فيه ولا تناقض، متسجم مع الفطرة، والفريق الذي حجب عقله عن النظر
 فعمى عن الحق الذي بلغتهم إياه، إنه لا يتأمل فينتسج إلا من كان أصمير الرأي
 واضح التكرير وهم أصحاب العقول المستبيرة. ولكن ما هي ملامح أصحاب العقول
 المستبيرة ؟

أولاً: هم الذين يوفون بما عاهدوا عليه الله من توحيدده وتطبيق شرعه، ويحترمون
 أنزلاتهم، فيأمنهم المتعاملون معهم.

ثانياً: هم يصلون أرحامهم ولا يقطعون العلاقات الرباطة في جميع المستويات.

ثالثاً: هم يستحضرون دوماً أن الله مطلع عليهم، فيخافون من كل عمل يتجاوز به العامل
 حدوده. كما يخافون من الحساب الذي يفتضح فيه الحساب وتعلن أعماله الميئة.

رابعاً: هم ملتزمون بخلق الصبر الإيجابي رغبة في رضوان ربههم.

خامساً: هم يحافظون على أداء صلواتهم على الوجه الأكمل.

سادساً: هم ينفقون مما رزقهم الله في السر و العلن.

صالحا: يدفعون آثار ما عملوه من سيئات بالقيام بالصلوات.
أعلنت الآية جزاءهم: أنهم يختصون بأن العقوبة الخيرة في الآخرة هي لهم وحدهم.
يفضل الله عليهم بتكليفهم من الإقامة المرمدية في جناته، ويلحق بهم أهلهم من
الأباء والأمهات والأزواج والأقرباء، وإن كانوا دون مرتبتهم. ومن مباهج الجنة أن
الملائكة يدخلون عليهم زواجات ووجدانا يهنئونهم بما أنعم الله عليهم، يعلمون
ويذكرونهم بما كانوا عليه من كمالات، وخاصة الصبر على العبادة، وعلى مقاومة
دواعي الشهوة والشيطان. وينوون بالمال السعيد في دار إقامتهم النهائية.
وفي المقابل فإن الذين يقصرون ما عاهدوا الله عليه من التوحيد بعد ما أكدوه وأقره
في فطرتهم، وعلى خلاف الفريق الأول يقطعون ما أمر الله به أن يوصله
ويتجاوزون الحدود فيفسدون في الأرض، أولئك ملعونون مطرودون من رحمة الله.
ويختصون بأسوأ مال في أسوأ مستقر.

بيان المعنى العام :

19- الذين يعلمون أنما أنزل إليكم من ربكم الحق - يتذكروا - أولوا الألباب.

تقرر هذه الآية عدم التسوية بين فتح من عقله لقول ما أنزله الله إليكم من الهدى،
وبين من أغفل قلبه عن الظفر فيه. وتمت صياغتها على طريق الاستفهام لتحرك
السامع للظفر في مضمونها، شأن المذلل في لبقاظ الذهن.
الفريق الأول: هو من سبق أن ما أوحاه الله إليكم من العفيدة والتشريع والغيب
والقصص، هو الحق الذي لا مدخل للباطل فيه؛ وبما أن اليقين بكمع الوضوح الذي
لا شبهة فيه، والبيان التام الذي لا يلبسه غموض، فلا داعي أن يطلق على الفريق
الأخر (الأعمى) إشارة إلى أن رفضه ليس له مبرر إلا أنه عطل قواه الفكرية،
فأصبح كالأعمى الذي لا يرى الأشياء الماثلة أمامه، والعيب في بصره لا في
الكائنات المعروضة.

ثم أظهرت الآية أنه لا يستطيع أن يتفكع بالبيّنات إلا من رزق عقلا صالحا، وهم
أولو الألباب. وفي هذا إشارة إلى أن إعراض الكفار عن الوحي ناشئ عن عيائهم.

20- الذين يؤمنون بعهد الله - وأولئك هم عتبي الدار.

ولتمييز أولي الألباب أكمل تمييز وأصل القرآن عرض صفاتهم للبيّنات، التي تغيد أن
الكافرين فاقدون لتلك الكمالات.

الصفة الأولى: وإلاهم بما عاهدوا الله عليه، وهذا العهد يشمل ما ذكر في سورة
يس من إقرار الله بالعبادة ورفض ما يدعوا إليه الشيطان (**إله أعهد إليكم يا بني**

ادم ان لا تعبدوا الا الله ان كنتم مسلمين وان اعبدوني هذا امر اول مستقيم،
وتعبر عن هذا العهد في الفطرة، وقد يحجب التأثير الشيطاني والتقليد. كما يشمل ما
يقضيه عهد الإسلام من الالتزام الصادق بكل ما فصله من تشريع.
وعطف على الوفاء بالعهد عدم نقض الميثاق، وهذه صفة أعم من الوفاء بعهد الله،
بأن تجمع إلى الوفاء بعهد الله احترام المواثيق والالتزامات التي تتوهم بها المؤمن مع
غيره من الناس.

الصفة الثانية: وصل ما أمر الله أن يوصل، وهذه قاعدة اعتنيت بها لتشريعة لبناء
المجتمع المتماسك، فأولو الألباب يصلون أقاربهم، ويصلون أحوالهم المؤمنين،
وخاصة عند المناسبات الداعية للاتصال، كالأفراح والأحزان والأعياد والمرضى.
الصفة الثالثة: خشية الله، وهي الخوف من غضبه وعقابه ومن حجب الطافه، ذلك
أن أصحاب العقول الثكينة يستحضرون بصفة مستمرة، ولا يغطون، عن كونهم في
كل لحظة من لحظات حياتهم، في قبضة الله بفعل بهم ما يشاء. يجعل العقوبة أو
بمهل، أو يغفر وبرحم. وهذا الاستحضار يكسب الإنسان بفضة زائدة يسر عليه
الالتزام بالاستقامة في حياته.

الصفة الرابعة: الخوف من الحساب النفسي، الذي يفضح فيه المحاسن، ويجازي
عن كل صغيرة أو كبيرة من أعماله السيئة، وهو ما يقوي العزم على فعل الخير
والابتعاد عن الشر.

الصفة الخامسة: هم الذين تحلوا بالصبر الإيجابي، رجاء أن يفوزوا برضا ربهم. فصبرهم
ليس استسلاماً وليس رياء، ولا حبا في الظهور بمظهر القوة كما يقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين لو بهم *** أني لربيب الدهر لا لزعرع.

فلولو الألباب يصبرون ليفوزوا برضوان الله، جزاء امتثالهم لما أرشدهم إليه
وأوصاهم به، ولا يفترون صبرهم بشكاة ولا تيرم ولا يأس.

الصفة السادسة: هم ينفقون أموالهم سرا وعلائية، بما يفيد أنهم اقتلعوا جذور الشح
فحلت التسامحة في قلوبهم، وأكدوا بذلك وثيق الصلات بالمجتمع.

الصفة السابعة: هم يبرزون بالحسنة السيئة، إنهم إن غلب عليهم ضعفهم البشري
فقاروا السيئة بفضله وتحركت النفس اللوامة، فاتبعوا السيئة بالعمل الحسن
المرضي عنه، قال 3: وتبوع الحسنة السيئة تحبها، وتستحب هذه الصفة على

الاستعداد النفسي لطرد وساوس الشيطان ودواعي الشهوة، وكذلك الصلح بعدم مقابلة نشر البثر، دفع السينة بالحسنة بآب واسع لتوثيق الصلات الاجتماعية، والتمسك عن النزول إلى مراتب الساقطين، كالعفو عن المسيء والإحسان إليه، والعدول عن السينة بعد لهم بها، ويدفعون من رأوا أنه منكرا بالطريقة التي هي لحسن لينكف ولا يعاند.

هذه القبلة ضمت العناصر الذاتية، التي بها يسلك صاحب العقل للرجح عند ورود مقتضاها، العمل على ما بينته الآية، فهو انصاف بالقوة، أولئك هم جديرون بأن تتحقق لهم الخاتمة السعيدة فيختصون عن جدارة بأن لهم العاقبة في الدار الآخرة.

23 جنات عدن يدخلونها ومن صلح...عن كل باب

صورت الآية العقبة التي خص بها أولو الألباب تصويرا بضاعف للشوق إليها، ويساعد بالتالي على الالتزام بالمعجز المالك إليها: أولاً: هي جنات يقيمون فيها إقامة سرمدية لا تنقطع، فتمتّعهم بنعيمها يختلف عن النعيم الدنيوي الذي يمكر صفوه خوف لقطاعه.

ثانياً: الابتهاج بصحبة الأهل من الإباء والأزواج والذرية، بقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصفات، أنه إذا صار إلى الجنة لحق به صالح أصوله وفروعه وزوجه. وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى كما قال تعالى: **والذين آمنوا والذين هم ذرية من بايمان أنحلقتهم لربهم ومن استقام من عثم من شيء**^١ - لكن آية الرعد أشمل من سورة الطور التي انصورت على ما يقع الذرية من الأصول.

ثالثاً: مشهد للتهاني من الملائكة للواقفين يقيمون نهائهم. يسألون زرفات ووحدانا من كل باب. وسجل القرآن صيغة التهاني: سلام عليكم، هنيئاً لكم الأمن الذي حل في قلوبكم وفي محيطكم، فهو سلام شامل سابق، ويضميرون التتويه بصبرهم على الطاعة، ونجلدهم لنفع نواعي النفس وتزيين الشيطان ويظهرون إعجابهم بما أنعم الله من فضل لا يشويه نقص بكلمة جامعة (نعم غبي الدار) دار عاقبتكم .

26 والذين ينتصرون عهد الله...لهم العاقبة وهم سوء الدار

هذه الآية تفصل حالة الضداد الذين يوفسون بعهد الله، فصرحت مشنعة عليهم أنهم ينقضون ما عاهدوا الله عليه وما لتزموا به، ولو كان موثقاً ومؤكداً، وتقوى فيهم

دواعي الأنانية إلى درجة أنهم لا يراعون الصلوات الإنسانية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي في جميع نرجاته الأسرية وما فوقها، فلا يهتمهم أمرها. وبالتالي تكون لاختيارهم نظرة دائما إلى مصالحهم الخاصة، لا يمتد تفكيرهم إلى الغايات البعيدة النافعة، ولا يقدرون حقوق الآخرين ولا ضوابط الاستخلاف المسؤول عنه كل مكلف. فيفسدون في الأرض بتجاوزاتهم، وهذا مظهر من مظاهر الحضارة المادية المنحرفة، التي عم فسادها البر والبحر والجو، فبلغ حدا أضمر بالإنسان وبالحيوان والنبات، مما يهدد بتحولات بيئية تكون كارثة على الأرض ومن عليها.

ثم يأتي الحكم العادل فيهم: قضى بأنهم مبعدون عن رحمة الله وفضله، ومن كل خير يرغب الإنسان في حصوله، وأن مآلهم يوم القيامة المآل السيء الجامع بين المهانة والعذاب.

اللَّهُ سَخَطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ بِعَدُوٍّ وَأَخٍ ۖ وَفَرَّخُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۚ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَأَنزَلَ إِلَهُنا آيَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بُدْلَ مَنْ يَشَاءُ يَبْدِلْهُ (إِلَهُنا مِنْ أَكْثَرِ) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَعْلَمُونَ قُلُوبَهُمْ يُبَدِّلُ اللَّهُ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعْلَمُونَ الْقُلُوبَ (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا يَقَابِلُ) كَذَلِكَ أَوْسَلْنَاكَ فِي أَمْرٍ قَدْ حَكَمْتُمْ فِي قَبْلِهَا أَمْ أَنْتُمْ لِقَوْلِهَا عَلَيْنَا الَّذِي أُوخِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ كَفَرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ تَقْدِيرُ اللَّهِ إِنْ هُوَ عَلَيْهِ تَوَصَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ

بيان معاني الألفاظ :

اليسط : الكثرة والدوام.

يقدر : هو عكس اليسط، يضيق.

المتاع : ما يتمتع به ولا يدوم .

الإجابة : الرجوع.

الاضمئنان : السكون بحصول اليقين وانتفاء الشك.

طوبى : حسن.

ذكر الله : يشمل القرآن وذكر الله باللسان.

المتاب : التوبة

بيان المعنى الإجمالي :

تقرر الآية أن التوسعة في الرزق غير مرتبطة بالصلاح، ولم يطلعنا المولى على الحكمة التي ييسط بها الرزق لو يضيفه، وقد ييسط الرزق للكافرين ليزدادوا إنما ثم يكون عليهم حسرة. وقد ييسط الرزق للصلحين ليرقى مراتبهم بالشكر والإنفاق. وقد فرح الكفار بما جمعو من أموال ظننا منهم أن تلك هو الغاية التي ليس وراءها غاية. وذهلوا عن كون منافع الحياة الدنيا يسرع إليهم الفناء ولا يخلو عن نقص وكثر.

يقترح المشركون على رسول الله أن يأتيهم بمعجزات تقنعهم بأنه رسول من عند الله كإحياء آبائهم أو نصف جبل مكة نسفا لتتحول الأرض إلى سهل. رد عليهم القرآن: بأن الهداية أو الضلال لا ترتبط بالآيات، ولكن من فتح عقله وقلبه للآيات الواردة أم، وس أغلق عقله وقلبه يحرمه الله لطافته فيستمر على كفره.

ونوهت الآية بالمؤمنين الذين آمنوا إيماناً لا يداخله ريب ولا شك فسكنت قلوبهم لما آمنوا به. وزادهم القرآن وذكر الله بآياتهم طمأنينة ورضا. إن ذكر الله تعلمن به القلوب.

إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة، فصلحت أعمالهم، يهتدون بالعزلة الحسنة، وبالعاقبة الطيبة.

إننا لرمضناك إلى أمة الدعوة الشاملة لجميع البشر في جميع الأعصار، على الأمة التي بعثنا بها رسلاً إلى أممهم في القرون الماضية، وذلك لنثقلو على البشر آيات القرآن الذي أوحيناه إليك، ومن تضليل المشركين كفرهم بالرحمن مدعين أن الله والرحمن شيدان، قل لهم: الرحمن هو ربي الواحد الأحد لا شريك له، اعتمد عليه وحده في هديتي وتبشير أموري، وإليه سبحانه أعود بالتوبة.

بيان المعنى العام :

26 الله ييسط الرزق لمن يشاء - الدنيا في الآخرة إلا مناع

لما صرحت الآية السابقة بغضب الله على الذين لا يوفون بما عاهدوا الله عليه، مع أنه يلاحظ أن بعضاً منهم قد ومع عليهم في الحياة الدنيا بوفرة الأموال وما يصحبها من نعم. رفعت هذه الآية هذا اللبس بتصريحها بالقانون الإلهي في التوسعة في الرزاق أو التضيق فيها، فبينت أن فيض المال على الإنسان غير مرتبط بالاستقامة وليس جزاء عنها. كما أن جبهه غير مرتبط بالقبض ولا هو جزاء عنه. ولكن الله يتصرف بحكمته التي يحجب عنا أسرارها. فقد ييسط الرزق للعصاة للتضاعف آثامهم، وييسطه للصلحين فتسمو منازلهم بالشكر واداء حقوقه،

ويضيّق الرزق على بعض الصالحين لينالوا ثواب الصبر، وفرح الكفار بالأرزاق التي يسترها لهم، فطفوا بما نالهم، وحسبوا أن نعيم الدنيا هو الغاية التي ليس وراءها غاية أسمى منها، وما أقصر نظرهم فإن ما ينعم به الإنسان في الحياة الدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة يبدو تافهاً، إذ أن نعيم الدنيا محدود زمنه يسرع إليه الفناء، مشوب بنقص وكثر، أما نعيم الآخرة فقد جمع بين الدوام والكمال.

27. ويقول الذين كفروا ألا أنزل .. وحسن ما به.

يسجل القرآن اعتراضات الكافرين ليفهمهم بالحجة البينة، كرروا طلب خوارق للعادة مدعين أنهم بذلك يتفنون إلى محمداً ﷺ مرسل من ربه، طلبوا أن يحيى لهم أباءهم، لو أن تحول أرض مكة إلى سهل كسهول الشام صالحة للزراعة، ونحو ذلك من المقترحات التي هي في الحقيقة قلب للأوضاع ونقض للمنطق السليم. إن الله لما بعث رسوله أيده بالمعجزات التي تبقى مع الزمن ولا تنحصر في بيئة ولا زمن معين، والله في عزته وجلاله يؤيد رسوله بما يحصل به اليقين بصنقه، وتعالى أن ينتظر ما يقترحه المعارضون عنه لإثبات ما يطلبون، ومن ناحية أخرى فإن الإيمان لو الضلال غير مرتبططين بالمعجزات، كما قال تعالى: **«لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ الْفِئَةِ بِأَنْفُسِهِمْ يَكْفُرُونَ»**¹ ولكن حصول أحدهما تابع للتقدير، فمن شاء أن يضله منع عنه الطائفة، فيقوم على عقله وبصيرته حجاب بصدده عن اتباع الحق، ومن شاء له الهداية أسعفه بالطفاه فينفتح قلبه وعقله وروحه فيمرع إلى ربه، ويعود إلى هدايته يستلهم منها ما يزيده ضياء في يقينه ورشدا في سلوكه.

29. الذين آمنوا وعملوا الصالحات... وحسن ما به.

في معاملة المشركين الذين ضغطت عليهم الشكوك وأخذوا يقترحون الآيات المبددة لحيرتهم، ينوه القرآن بالذين آمنوا وتتابع على عقولهم الآيات فأكسبتهم طمأنينة وسكوناً، وأكدت بغيرهم صرافة وسلاوس الشياطين. كان هذا الحاصل نابعا من دراسة القرآن والتأمل في مضامينه والأش بأسلوبه العالي؛ تعم نكتسب القلوب فعلا برد اليقين بمخالطة القرآن، فتستجيب الدوايا والأفعال لهديه وتستحضر للعمل الصالح الذي يطبق ما نزل عليهم صورة وضموها، وتعلن النتيجة مصرحة بأنهم نالوا الخير للكمال الذي ارتبط بهم (طوبى لهم) وعاقبتهم العاقبة الحسنة التي ترضيهم، وليس فوق الرضا منزلة.

مستواصل على المشركين للكوارج بمسبب كفرهم وصددهم عن طريق الله، أو
تزعجهم بحلولها قريباً من مكان إقامتهم، وسيواصل هذا الانزعاج حتى يأتي وعد
الله بالقضاء على الشرك. إن الله إذا وعد فوعده أت لا ريب فيه.

بيان المعنى العام :

31 ولو أن قرآننا سيرت به الجبال - سار الله لا يخلف الميعاد.

أعلن القرآن في الآية السابقة أن على البشر أن يخضعوا لما يأتيهم من ربهم، وأنه
من قلب الأوضاع أن يتحول العبد إلى مقترحين للأكله العابد التي ربطوا بها
الإيمان، وتؤكد هذه الآية ذلك المعنى إذ تتضمن: أنه لو وجد قرآن يسير الجبال
فيحولها من أمكنتها، وبحولها إلى سهل تنسج للزراعة والرعي. لو يواثر في
المسافات فيختصرها ويقرب الأبعاد، أو يحيى الموتى فيكلمون أخلاقهم. لكن هذا
القرآن محققاً لذلك، لكن ذلك ليس من مهمات الكتب المنزلة على الرسل، فإن
التصرف في الكون قام على من صبطها رب العالمين وأجرى عليها سير الكون،
ولا يتحول أي سنة من تلك السنن إلا بتحويله سبحانه .

فليطمئن المؤمنون لإيمانهم. ثم استفهم القرآن استقيماً إنكارياً لانقضاء يقين الذين
أسوأ: أي إن يقينهم ثابت لم يتزعزع، إن الله قادر على هداية الناس جميعاً بأن
يفسرهم على الإيمان. ولكنه تعالى لم يرد أن يكون الإيمان قسرياً. لأنه مخالف لما
قدرة من التكليف الذي لا يتحقق إلا مع الاختيار. وبالاختيار يتفاضل البشر فيكون
منهم الشقي والسعيد. فكلمة يبلس مع أن مستعملة استعمالاً تشهري حتى أصبح مطابقاً
إلى الأذهان في معنى اليقين. والاستفهام الإنكاري الداخلة على النفي يحصل منه
الثبوت بطريقة مؤكدة، إنكار عدم يقين المومنين، مساوي يقينهم يقينا قوياً.

سيستمر الخوف في قلوب المشركين، فكلمة خرجوا من مصيبة حلت بهم مصيبة
أخرى، أو تحل قريباً من دلو قسارهم، فيزعجون لها ويعمق خوفهم، والمصائب
متوعدة تزلزل عن المشركين الطمأنينة، كالحفظ والأمراض والإحساس بفقدان الأمن
والمناعة. وسيستمر الأمر بهم على هذا النحو إلى أن يأتي وعد الله بنصر المؤمنين
نصراً يقطع دابر الشرك ويعلى كلمة التوحيد. إن الله إذا وعد فإن تحقق وعده مؤكداً
ولا يخلف ميعاده، إذ هو القادر المتصرف في الكون كله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلْنَا بِاللَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَكْثَرُ عِزًّا
فَوَقَعُوا فِيهَا فَزِيلُوا فِيهَا فَذَقُوا فِيهَا فَلَنْ نُصَبِّرَهُمْ إِلَّا أَنْ يُقَالُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ مُؤْمِنُونَ أَمْ

تَدْعُونَهُ إِنَّمَا لَا يَعْلَمُ بِالشَّيْءِ الْأَرْضِ أَمْ ظَنُّوا أَنَّ الْفُؤَادَ بَلَّ لَيْلَيْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ
وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ هُمْ عَذَابُهُ فِي الْخَزْزَةِ الْعَذَابِ
وَالْعَذَابُ الْأَخِيرَةُ أَشَدُّ وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ بِشَاوٍ ﴿٢٥﴾ • مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ
الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا ذَايَبٌ وَظِلُّهَا تَبْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الآيات:

الاستهزاء : مبالغة في الهزاء والسخرية.

الإملاء : الإمهال.

قُلُوبُهُمْ : رقيق بما يشمل الحفظ والعلم والتدقيق.

مَكْرَهُمْ : إخفاء وسائل الضرر.

الْوَلَايَ : الحائل دون بلوغ الضرر.

مَثَلُ : صفة . كقوله تعالى وله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى.

أُكُلُهَا : ما يؤكل فيها.

الْعُقْبَى : حال تلو أخرى قبلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يُصَلِّي اللَّهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ مَا يَطْلُبُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْآيَاتِ، هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَجِيبُهُمْ
إِلَيْهَا، وَلَكِنْ يَطْلُبُونَهَا اسْتِهْزَاءً بِهِ وَطَعْنًا فِي نُبُوَّتِهِ، يَسْلُبُهُ بِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَرَى عَلَيْهِ
الْكَافِرُونَ مَعَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَمِيلُهُمْ ثُمَّ يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُ الْمَرِيعَ
الْمُحَاقِقَ، فَاعْجَبُوا مِنْ قُوَّةِ أَخْذِهِ .

وبعد أن نجلي الأمر بقوله تعالى: وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو
عليه توكلت وإليه متاب، كشف القرآن عن تنكرهم ومخالفتهم لما هو بديهي فسألهم
منكراً عليهم: أنشركون بالله الذي يطلع على ما يجري في كل نفس من خير أو شر
ويجازي عنه، وهو الذي خلقها ويسر لها بقاءها ورزقها، تشركون به أصناماً جامدة
لا تضر ولا تنفع ؟ قل لهم يا محمد سموهم شركاءاً فالتسمية لا تخرجهم عن
حقيقتهم .

لم أنتم ترونون إِبْنَاءَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَجُوداً فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ
سَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، فَعَمِمْ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ بِهَوْلَاءِ الشُّرَكَاءِ بِنَفْسِي وَجُودِهِمْ؛ أَمْ تَرِيدُونَ إِثْبَاتَ

المشركاء بظواهر كلامكم المدققي للحقيقة، والظواهر غير مثبتة. ولكن المر الخفي أن رؤساء المشركين قد ضلوا أتباعهم ليتمكنوا من قيادتهم والتسلط عليهم.

وبذلك استحق التابعون والمتبعون أن ينزل عليهم العذاب في الحياة الدنيا ذلماً وهزيمة وقلقاً، وسيكون عذابهم في اليوم الآخر أعظم مشقة مع يأس من وجود أي وقاية تحميهم من عذاب الله.

إن الصورة التفريرية للجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، أن الأذهار الجارية للمصائبية تتخللها، وأن ثمارها لا تنقطع، كلما تناول منها المؤمن شيئاً خلفه في الحال غيره، وأن فلائها غير متقطعة، تلك الجنات هي عاقبة المتقين. وفي المقابل فإن عقلة الكافرين النار.

بيان المعنى العام:

32. ولقد استهزأ برسول من قبله... فحتيف مكان عقابه

هذا أمر محقق، حاصله أن الرسل السابقين لما قاموا بتبليغ ما أنزل إليهم قبلهم المشركون بالسخرية والاستهزاء، جرى هذا مع نوح ومن جاء بعده، قال تعالى في نوح: **كلماً من عبه ملا من قومه سخرؤا منه، ومع موسى لما قارن فرعون نفسه به فقال: لم أئأ خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين، فأراد الله أن يسلي نبيه ويثبتته حتى لا يتأثر بما يقوم به المشركون من إجراءات لا يقصدون تحقيقها، لكن يرمون إلى الاستهزاء به بإظهار عجزه عن تلبية مطالبهم.**

والله مع رسله يزيدهم، فيمهل الكافرين ولا يعجل لهم بالعقوبة، ثم يستأصلهم فيأخذهم أخذاً سريعاً لا يفلتون منه، ودعا كل سامع لاستحضار عذابه ليتعجب من شدته وإحاطته.

33. ألهن هو قائم على سكل نمر بهما كسيت... من يضل الله لما له من هاد.

كان الجواب الذي أمر رسول الله ﷺ أن يواجه به المشركين قاطعاً، في الآية السابقة: **وهم يكفرون بالرحمن. قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب، المنضمين شقين تسجيل كفرهم، وتسجيل ما استقر في قلب رسول الله من الحقيقة: أن ربي هو الذي تتابع عنايته بي، بما تفيده كلمة ربي من الرعاية والعناية والأنطاف، وأنه واحد لا شريك له، وأن تعلقه به هو تعلق يصاحبه في نشاطه، ولا ينفك عن العودة إليه، ومن آثار ذلك ما تلقاه من القرآن ومن الوحي الهادي إلى سواء السبيل.**

وأتبع القرآن هذا بإظهار فساد تفكير المشركين، وتلك بإيقاظهم بسؤال مرتب على الجواب القاطع السابق، بالمقارنة بين رب محمد المطلع على كل كبيرة وصغيرة

العالم بما يجري في نفس الإنسان، مشاعره وإراداته ومقاصده، يتولاه بالحفظ ويمده بالإمدادات المتنوعة الحافظة لكيانه النفسي والجسمي والروحي. وهو الخالق الرزاق، الشامل قيامه على الإنسان في نفيه بما يسره له من عون والطاف، وفي آخرته بجزائه عما قام به؛ ولا يخرج عن علمه شيء من ذلك، فهو الرب العادل يبشر بقوله: **[الْقَائِمُ عَلَى النَّفْسِ بِمَا كَسَبَتْ]** الصالحين بحسن الثواب، ويهتد ويوعده للضالين بما هم أهل له من سوء العقاب [بين أيمانهم ومعبوداتهم المجازة عن رعاية نفسها فضلاً عن حماية من يلوذ بها. وهذه المقارنة تظهر سفاهة عقولهم باتخاذهم شركاء لله في لوهيته، قل لهم: مفهوم الهة فإنه ليس لهم من الكمال والقدرة والخلق أي شيء، ليس لهم إلا تسميتكم لهم الهة، تسعة لا حقيقة لها. وما كانت الأسماء موجدة لما لا وجود له في الواقع. أم تصعدون إلى إثبات وجود شركاء، والله المحيط علمه بكل ما حوته الأرض. لا يعلم أن له شركاء، وهو ما يلقي وجود الشريك إذ لو كان موجوداً لعلمه. كما تقول لآخر: إنك تملك داراً في مكة، هيبيك لو كنت أملكها لعلمت، مما يفيد نفى التملك.

أم تريدون إثبات الشركاء بقول ظاهره مخالف لمضمونه؛ وإذا كنتم ظاهراً الكلام ينقض مضمونه فذاك أصرح ما يثبت كذبه وبطلانه.

وإنك إذا تعمقت ليوضح لك أسباب اتخاذهم شركاء لله، فإنه يكتفين لك أن رؤساءهم زينوا لهم عبائتها والتقرب إليها، ليذهبوا بما عندهم من عزة، فيكون السحكهم سهلاً، ولذا تجد أول هدف للمستبدين الجيولية بين أتباعهم وبين عقيدة التوحيد، فيحرضون على التعتيل وعلى انتشار الخرافة، وعلى التعلق بالمادة والهوى.

وسجل القرآن في النهاية ما بلغوه من الفساد أنهم وقفوا حاجزاً بين الناس وإتباع سبيل الهداية والأخذ بالصراط المستقيم

لقد حرمهم الله للطاعة، وتسكوا بما يمتدنون أنه يجلب لهم النفع للعاجل فمضوا،

34 **لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ بِمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاَقِعَ**

وإذ بين القرآن عمل الرؤساء على إضلال تابعيهم، وإقيااد التابعين للضلالات فأنكروا بالله، والشرك ظلم عظيم، لوماً إلى استحقاقهم سوء الجزاء في قوله تعالى: **وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ثم صرح به في هذه الآية: أن الله خصص لهم عذاباً في حياتهم الدنيا من القلق والحيرة والذلة والهزيمة، وتلك العذاب النازل بهم هو عذاب هين بالنسبة لما ينصدهم من عذاب الآخرة. ولا يجدون واقفاً فيفسد منهم فيجمع لهم البأس والنكال.

35- مثل الجنة التي وعد المتقون...وعقبي الكافرين النار.

أمور الآخرة من نعيم أو عذاب نمنع غير ما نعلمه في الدنيا، ولكن القرآن قريب إلينا حسب مدركنا ما يلقاه البشر يوم القيامة ليحرض الصالحين على مواصلة تقوى الله والعمل بما يرضيه، وليهد الكفرة حتى يقتلوا عن فسادهم.

هذه الآية أتت على تكلم للطريقة، فمثل الجنة التي وعدها الله للمؤمنين ووصفها؛ أنها تتخللها الأنهار الصافية الجارية، وإنتاجها غير منقطع على خلاف ما عليه الإثمار في الدنيا، إذ كل ثمرة تقطف لا يخلفها إلا بطن آخر عند أمده. وأشجارها كثيفة ملتفة فتكون ظلالها متصلة، وهو عزيز وجوده في الدنيا، وأنتم ما تكون عليه الجنات، إذ لا تكون على مساحات كبيرة.

وإذا تهيات الصورة وتقربت لاستحضارها، تؤكد الآية أن هذه الجنة، هي العقوبة للتي سيكونون إليها مال المتقين. وفي المقابل فإن عقوبة الكافرين نار جهنم بما تجمعهم من عذاب جسمي ونفسي، أعلننا الله منها بفضله وكرمه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتِيَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ
تَعَصُّدَكَ قُلُوبًا أَفَرَأَيْتَ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ إِنَّ أَدْعَاؤَ إِلَهِهِ نَقَابٌ
وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ حُكْمًا فَتَرَى الْوَلَدَ الْأَكْبَرُ أَتَوَاتُهُ مِنْ بَعْدِنَا حَافِلًا مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ
مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلَدٍ وَلَا وَاقِفٌ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا مِنْ قَبْلِكَ إِذْ أَخَذْنَا مِنْهُ آلُوفًا
وَذُرِّيَّةً لِيَمَّا كَانُوا مُسْتَوْسِلِينَ أَنْ تَقُولُوا لَنْ يَكُونَ اللَّهُ بِكُنْزٍ ۚ فَتَعْبَهُوا
اللَّهُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَعِندَهُ أَلْ كِتَابِ ۚ

١٠٠٠ بيان معاني الألفاظ :

الأحزاب : جمع حزب، جماعة فيها غلط وتعصب.

صافى : رجوعى.

حِكْمًا : ما تضمنه القرآن من الحكمة والمعاني.

الوالس : النصدير .

الموافق: المدافع الحافظ.

الفرضية : الفصل.

اجل : وقت محدد.

کتاب : مکتوب مضبوط موٹو.

بحر: المحو الإزالة، وتطلق على التغيير والتبديل.

التثنية: ضد المحو.

لم للكتاب: أصل الكتاب، العلم الإلهي بالنهايات.

بيان المعنى الإجمالي :

اختلف تأثير القرآن في أصحاب الكتاب اليهود والنصارى، فبعضهم فرح بما أنزله الله عليه، هذا الحق الذي نفى التغيرات التي حرفت الديانتين فابتعدت بهما عن المنهج الذي جاء به موسى وعيسى فاطمأنوا، وبعضهم تعصب وكون كتلة رفضت الحق الذي جئت به، قل لهؤلاء: لم يأمرني ربي إلا بتركيز الأصل الذي يقوم عليه الدين وهو تخصيص الله بالعبادة، فأنا لا أدعو إلا إلى الإخلاص له سبحانه، وإني أعود إليه دائماً.

وعلى هذا النحو من الإنزال أنزلنا عليك القرآن حالة كونه جامعاً لمنهج للحكمة ولأصولها، وحالة كونه بلسان عربي، لما في هذه اللغة من مزايا بها جمعت بين الثبات والتطور. واحذر أن تستجيب لمقترحاتهم الصادرة عن هوائهم فطلب مني أن أؤيدك بما يطلبونه من الآيات، إن الأمر خطير تقذف به النصير والحامي. وهو في الآن نفسه تحذير للمؤمنين؛ ليها المؤمنون احذروا أن يستزلكم الكافرون لتترلخى مقاومتكم لما يدعونكم إليه من هوائهم، فإن من يتراخى فبئسهم لا يجد نصيراً ولا حامياً من دون الله.

ومن شغب المشركين في مفارقتهم للدعوة أن اعترضوا على كون محمد مرسلًا من ربه، لأنه تزوج ولأنه شجب. فرد الله عليهم بأنه قد تتابعت رسل الله للبشرية في التاريخ، وأنهم كانوا أمراء فتزوجوا وأنجبوا، فإنت لمست يدعاً من الرسل. وإذا كان عيسى لم يتزوج ويحيى كان قائد الرغبة في الاتصال بالنساء فذلك استثناء وليس القاعدة.

عود إلى رد ما اقترحوه من الآيات، فاثبت الآية أن نزل رسول يقدم المعجزة التي تأيد بها من الله ولا يستطيع أن يأتي بغيرها، ويظهر أي معجزة إنما يتم في الأجل المقدر سابقاً بالخصوصيات الذي أودعها الله. وعلى هذا النحو تجري جميع المظاهر في الكون؛ فإنه يتصرف بحكمته هيئت ما شاء تهيئة ويمحو ويزيل ما يشاء إزالتها، فطم البشر أو الحفظة لا يبلغ النهايات التي هي بيد الله وحده وتحت تصرفه. وهذه النهاية هي محفوظة في لم الكتاب الذي هو علمه الأزلي.

بيان المعنى العام :

36. والذين آتاهم الكتاب... وإليه مآبهم

دعا للنبي ﷺ للبشر جميعا إلى الدين الذي أوحاه الله إليه، فأمن به من المشركين من أسر الله له الاهتداء، وقد وضحت أمرهم الآيات السابقة؛ وواصل بعض المشركين ما هم عليه، وقد ناقشتهم الآيات السابقة، وهدنتهم.

ودعا أهل الكتاب، فمعهم من آمن به ووجد في نفسه لشراحا، بعد ما كان يلقها الفلق من التغييرات التي أدخلها رجال الدين على صفاء العقيدة بعد نزولها، فوجدوا فيما أنزل على رسول الله ﷺ ما خلص العقيدة من التراكمات التي أبعثت لليهودية والنصرانية عن وصوح الوحداية. وبعض أهل الكتاب تخلصوا للصورة التي هم عليها كاعتقاد النصارى أن عيسى المسيح ابن الله، واعتقاد اليهود أنه كاذب وليس رسولا، وتمسكهم بما ورد في التوراة من تجسيم الله.

قل لهم يا محمد قولا واضحا يكشف عن منهجك ويبين العقيدة التي تدعو إليها: إلى لم لأمر إلا بشيء أصلي هو قوام دعوتي، أن أفرد الله بالعبادة، وأنفي أن يكون له شريك لا في ذاته ولا في ملكه ولا في تصرفه، إليه وحده أدعو للبشر جميعا للإيمان به ولتطبيق ما ورد في كتابه، وإليه أرجع في كل أمر ومهمة استغنيته لينصروني ويثبتني.

37 - وكذلك أنزلناه حكما عربيا... من ولي ولا راق.

إنه على هذا النحو من العناية في الإزالة، أنزلنا القرآن حالة كونه متضمنا لولا للحكمة، ترتقي به عقول للتأملين فيه، ويعطيهم منهجا في الفكر يمكنهم من إدراك الحقائق والفهم الصحيح العميق لما يعترضهم في حياتهم. وثانيا عربيا في لسانه، هذه اللغة التي بفضل خصائصها الذاتية ومرونتها استطاعت أن تتحمل كلام الله وأن تبليغه للناس. وأن تبقى قدراتها البيانية مع الزمن، وفيه إيماء إلى المشركين أن الله أعزهم لما اختار العربية لغة لقائه، فكان من واجبه أن يصرعوا إلى الإيمان به وتصرة نبيه. **لقد أنزلنا الحكم كتابا فيه تذكروا تلكا تعلمون**.

وتخدم الآية بتحذير المؤمنين على ليلح وجه من التماهل في الثوابت مع المشركين، لتزويهم من الإسلام، فإنهم يكتفون لهذا الدين، ويقدمون مطالبات يملفون عليها دخولهم في الدين، ويوهمون المسلمين أنهم إذا تنازلوا فقبلوها ستتوحد الكلمة ويقوى للدين بذلك، وما يعرضون إلا أهواء نابعة من الباطل وسائرة مع الضلال، بعيدة عن الحق. وللتحذير التحذير البالغ

أسند الاتباع إلى رسول الله المعصوم، ليظهر القرآن أنه إذا كان الرسول على جلالة قدره ومكانته لا يفر له اتباع أهوانهم فكيف بغيره.

وحمله بعضهم على أن الخطاب مقصود به النبي ﷺ قصداً أولياً، حتى لا ينساق إلى طلب ما اقترحوه من الآيات. اعلم يا محمد أنك، لشدة حرصك على انتشار الإيمان، لو اتبعت مطالبهم القابضة من الهوى، فتوجهت بالطلب من الله أن ينزل عليهم الآيات التي اقترحوها، فإني لا تجد نصيراً ينصرك ولا من يفيك من عاقبة دخولك في ذلك الأمر. وينسحب المفهوم على المؤمنين حتى لا تتراخي عزائمهم في مواجهة الكفر الذي لا يضمحل للإسلام إلا للشر.

38- 39، ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك...وصعد أم الكتاب

كانت المعركة مع الشرك معركة شرسة، يعملون بكل وسيلة على تشكيك الناس في صدق الرسالة، ويحاولون أن يخلقوا أشياء موهومة ليؤثروا بها على السامع. فكان مما اعترضوا به: أن النبي ﷺ كونه أسيرة فله زوجة هي أولاً: أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها، وأنجب منها، وقالوا إن مقام النبوة يتلقى مع تكوين الأسرة. فرد الله عليهم بأن ما قدموه هو كلام بالغد لكل أصل، ولكل منطق. إذ أن سنة الله في بعثة الرسل: أنه يأنس لهم في الزواج وينجبون، وإن المعترضين عرباً ويهوداً ونصارى ينتسبون إلى إبراهيم، ولو لا أن إبراهيم تزوج أكثر من امرأة وأنجب لما كان لهم وجود ولا لنبي إسرائيل، وما عيسى إلا واحد من ذريته ^{عليه السلام}.

ثم رد القرآن على اقتراحهم الإتيان بأية حسب مقاييسهم: إن سنة الله أيضاً في الرسل أنهم يقدمون معجزاتهم التي أيدهم الله بها، ولا يستطيعون أن يتأيدوا إلا بما قدره الله من خصوصية الآية التي عينها وأنجزها. هذه الأكمة التي يظهرها الرسول تبعاً للإذن الإلهي له، ويعرضها على البشر لينظروا في صدقه ويتبعوه.

ثم أظهر القرآن قاعدة من قواعد التصرف الإلهي في الكائنات سواء أكان إظهار المعجزة المعززة أو ظهور أي أثر في الوجود: حاصل ذلك أن لكل حادث أجل مضبوط لا يتقدم عنه ولا يتأخر، قد وثق وثيقاً لا يتصرف فيه بإظهاره أو إزالته إلا الله سبحانه. ثم فصل هذه القاعدة: أن الله يحو ويزيل ما شاء إزالته، ويبقى ويبقى ما شاء إبقاءه. على معنى أن ما يحدث من الحوادث تبعاً للعلم الإلهي ترتب عنه نتائج، والنتائج مثبتة في علم الله، ثم إن استمرار تلك النتائج أو قطع استمرارها هو أيضاً في علم الله وينفذ بقدرته. خذ لذلك مثلاً، ينزل الله حكماً فيبقى ثابتاً إلى الوقت الذي قدر فيه انتهاء العمل به فيمحوه من التشريع، ويعمل المرء

عملا سينا قنيت نتائج عصيانه في صحائفه، ثم يهتدي فيستغفر ويفعل الخير فيمحو الله عنه سيئاته، ويعمل الإنسان بعمل أهل النار عقيدة أو سلوكا، فيكون ما يعلمه الملائكة والحفظة أنه من أهل النار، ثم يهتدي ويتوب ويصلح مما التمسد فيكتب أنه من أهل السعادة، وكذلك للعكس. ولا تغير في علمه سبحانه، وإنما يظهر أثر علمه في الأجل الذي حدده مسبقا، وهذا ينسحب على جميع الفلوات الكونية والتشريبية. فقوله ما يشاء عام عموما واسعا لا يستطيع أحد حصره ولا الإتيان على مضامينه.

وعنده سبحانه مخزون في علمه ما سيثبت وما سيغيره في أجاله، وهي النهايات التي لكل ظاهرة، وذلك لا يقبل التبدل ولا التغيير بل ينفذ حسبما هو مثبت في أم الكتاب يختص الله به ولا يطلع عليه أحد، والذي هو على الفضل التفسير: علم الله الأزلي بما سيتغير وما يثبت في النهاية.

وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَرَأَيْنَا عَلَيْكَ الْفُلُجَ وَغُلَّتْهَا السَّحَابُ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَفْرَاقٍ ۖ وَأَلَّهِ عِزُّكُمْ لَا تَحْفَظُكُمْ إِلَّا جَهَنَّمُ ۖ وَهُوَ شَرُّ الْبَاقِي ۖ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكَاثِرُ ۚ لِمَنْ عَشَى الْآدَارُ ۖ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ الْبَلْ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ كَذِبًا ۖ فَلَنْ صَحَّفَى اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَنَنْ جِئْنَاهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا معطي : لا راد ولا منقضى

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت الآية وعدا للنبيه بأن الله ناصر له ووعيدا للمشركين: أنه سيهزمهم. وإن الله سيفر عيالك ببعض الانتصارات، وذلك تحت مظلة قوله تعالى لكل أجل كتاب، فما لم يتحقق من الانتصارات في حياتك فذلك لا يزعجك ولا يسبب لك أسفا، لأن مهمتك هي إيلاخ الوحي، أما حساب الكافرين حسابا يكون جزاء عن كفرهم فذلك مما اختص به الله ينفذه حسبما قدره.

و العجب من المشركين أنهم يرون بأعينهم أن الخلق يضيق عليهم، وأن ما حولهم من سكان الأرضي يدخلون في الإسلام ويتخلون عن الشرك. إن الله قد حكم بنصر

دينه، وخذلان الشرك، وما حكم به الله لا يوجد من يستطيع نقضه، وتنفيذه سيكون سريعاً في الأجل الذي قدره لا يرد فيه.

وتلك هي الطريقة التي جرى عليها الكفرة من الأمم التي مضت، عندما يطبق عليهم العناد، لنهم يلجؤون إلى المكر والتدبير الخبيث لصرف الناس عن الهدى. إن مكرهم سيحبطه الله ويظهر الحق. سينقلب مكرهم عليهم بقدرة الله التي لا تغلب؛ من شأن الماكرين لنهم يحكون دساتيرهم في خفية حتى لا يبتليق لها من أرادوا إضرارهم، والله مطلع على سرائرهم، عليهم بمكرهم، سيحاسبهم عليه، وسينكشف لهم في النهاية من يقوّر بالعاقبة الحسنة، سيتأكلون من خسرانهم، وسوف يعلمون وبشاهدون عاقبة المؤمنين في الدار الآخرة.

ومن مكرهم أنهم يضلّون الدهماء بكذائهم أنهم لم يؤمنوا بمحمد لأنهم تأملوا فوجوههم ليس رسولاً، ولو ثبتت رسالته لاتبعوه. وفي الحقيقة إن الذي أضلهم هو العناد وعدم التأمل في معجزاته. وورد عليهم القرآن رداً قاطعاً فيأمر الرسول أن يقول لهم: وكفىني الله الذي يشهد لي بصدقي، فإنه من كذب على الله لا بد أن يفتضح ويخيب، كما يشهد سبحانه بفجوركم وضلالكم وتوكلكم على الحق. كما أنه يشهد لي العلماء الراسخون الذين درسوا الكتب السماوية السابقة ووجدوا فيها تعلى وبقتلى صدق رسالتي.

بيان المعنى العام :

40 وإن ما لرئيسك ... وعلينا الحساب.

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: لكل أجل كتاب فثبت أن ما وعد الله به نبيه من النصر والتأييد وما أوعده به المشركين من الهزيمة والعذاب أت لا محالة. ولكن الأمد الذي سينفذ فيه الوعد أو الوعيد هو في علم الله لا يتقدم عن أجله ولا يتأخر عنه كما تقتضيه الآية **لأن أجل كتابك**. إن الله يقر عينك بتحقيق بعض ما أوعده الله به المشركين فتشاهد بعضاً من هزائمهم في الحرب، وسيجزمهم الله من لطافه مما يعرضهم إلى أنواع من التكتيات في أموالهم وفي أبدانهم، وسينفذ لبعض الآخر من الوعيد بعدك، فلا تأس. ذلك لأن سجل مهنك الشريفة التي تتحلىها هي لبلاغ ما لو حيناء إليك وقد تمت بذلك، وأما عقابهم على جميع ما قدموا وحسابهم الحساب للشديد على كفرهم وسوء فعلهم فهو لله ينفذه متى شاء كما يشاء.

42- لقد حجب العناد عن أبصارهم ما هو مشاهد حاضراً أمام أعينهم، فصالحهم سؤال إنكار ليوصلهم مما رآه عليهم من الغفلة عن إدراك الواقع والاعتبار به. ألم يروا ما أيد الله به الإسلام الذي أخذ ينتشر ويضميق الخناق كل يوم عليهم، وتخرج مساحات من الأرض من سلطانهم. وتضم إلى ساحة الإسلام : مما ينبئ من له

بصورة أن ما حل بجيرانهم سينتهي إليهم، وأن الإسلام سينتصر وتكون له وحده الكلمة. بهذا حكم الله، وحكمه ثابت لا يقبل النقض ولا تسطيع أية قوة الاعتراض عليه أو التدخل لتحويله أو الشفاعة فيه. وأن حساب رب العزة سريع، فإيهالهم إنما هو لأجل قريب جداً إذا قيس بعمر الكون. وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون.

42- ولقد مكروا الذين من قبلهم... لمن عقبي الدواب

مذبح الكفر لما انفصل عن الحق واعتمد الهوى، منهج واحد لا يختلف فيه وضع من مضى عن وضع المشركين من العرب. مضت ألسن قائلوا دعوات المرسلين بالتصدي لهم بأنواع من الحيل والكذب والماروغاة، فأومهم فدبروا الاعتداء عليهم وعلى اتباعهم جسمياً ونفسياً. إن مكروهم ضعيف محدود، هندهم القرآن بأن المكرو لمحيط بهم الذي لا يجدون منه فكاكاً، هو المال الذي قدره لهم حسب ما تكنه أنفسهم، إن ما يجري في بواطنهم من مكر يظهره نارة ويخفونه نارة أخرى لا يغيب منه شيء عن الله فهو مطلع عليه، وسيرجيزهم به جزاء وفاقياً، وعندها يعلم الكافرون علم اليقين من يفوز في الدار الآخرة، بمعنى أنهم سيحققون أن الخسران ميحل بهم، وأن السلامة والكرامة للمؤمنين يوم القيامة.

43- ويقول الذين كفروا... علم العتابة

من مكر المشركين الذي ألحقهم بمن قبلهم من الصالحين في الآية السابقة وهندهم بسببه، ما دلت عليه هذه الآية التي تتضمن أن المشركين يزعمون أنك لمست رسولا من عند الله، على معنى أنهم لو تحققوا أنك مرسل من عند الله لأمنوا بك. وهم يقصدون إلى التأثير على اللهماء حتى لا يتبعوا ما أنزل إليك، وإن كانوا في باطن الأمر هم أعرضوا عن التدبر في القرآن وعن النظر فيما جئت به من الحكمة والآيات البينات الشاهدة بصدقك. إن العناد قد حجب بصائرهم عن الهدى، وما تخفى صدورهم لكبر. ولذلك تولى القرآن إجابتهم فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: يكفيني الله الذي لا تخفى عليه خافية، الذي لا يهمل من تجرا وكذب عليه، كما لا يهمل من رفض الحق وعمل على سيادة الباطل، يكفيني سبحانه أن يكون شاهداً بيني وبينكم. ومع شهادته الله شهادة من تصق فيما أنزله الله من الكتب السابقة، وعلم محتواها، وما تشير إليه وما بشرت به من رسالتي، هؤلاء العلماء الذين كنتم تعودون إليهم لمعرفة أسرار الكتب المفزاة، وتستنبطونهم عن مضامينها؛ واليوم لما

شهدوا بما علموا كذبتموهم وكفرتم، فشهادتهم فضحت سرائركم وتشويهكم للحق
لأنزل من عند الله على لساني.

وفي ختام السورة تنويه بالعلم والعلماء الصالحين. فالزينة التي أحلهم القرآن إياها
قد سمت إلى مستوى أن الرسول تألذ بشهادتهم، وفيه إشارة ذكية للمؤمنين
المتمسكين بالحق ليعتمدوا على ما يرشدكم إليه العلماء ويخبرونهم به.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، وأجمع المفسرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. عدت ربثتها في النزول السبعين. نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ بُحْرَانٍ مِنَ الْمَاءِ فَأَنْزَلَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ إِنَّ اللَّهَ أَلِيمٌ ذُو الْبَرِّ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ كَفَرْتُمْ
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فَتَقُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإن : الأمر بفعل يتوقف على رضا الأمر.

الويل : للهلاك وما ينصل به من موجباته من شدة وبلاء.

يستحيون : يحبون حبا شديدا، يفسد منه أنهم يؤثرون.

يصفون عن سبيل الله : منع الداخلين في الإسلام.

ضلال بعيد : تعمقوا فيه تعمقا لا مطمع في خروجهم منه.

بيان المعنى الإجمالي :

لوه الله بما جمعه في القرآن من مزايا، فهو منزل من العالم العلوي لا نخل
للرسول في كلمة ولا آية ولا سورة منه، وله وكل نبيه الذي تختبه من بين البشر
لتبليغه وبيانه، وأن الغاية المقصودة من إنزاله، هي إخراج الناس من الظلمات التي
كانت مطبقة عليهم من الشرك ومن الحيرة في المبدأ والمصير، وفي نظام العلاقات
الأسرية والاجتماعية، ومع الكون، إخراجهم إلى طريق بين واضح هو منهج الله
العزیز الذي لا يغلبه شيء، المتفرد بالحكمة البالغة، فكل صراطه الذي بينه صالحا
لكل زمان ولكل مكان ولل البشرية جميعها على اختلاف مستوياتها الفكرية وبيئاتها.

والهلاك للكافرين الذين سبيل بهم من العذاب الشديد، إن هذا العذاب هو جراه ما
اختاروه لأنفسهم من إيثار الحياة الدنيا وتقديم مغرياتهما على الفوز في الحياة

الأخرة. هم يجتهدون لمنع الراغبين في الإسلام بما يقدرون عليه من تضليل وتأثير. إنهم يعادون الطريق المستقيم طريق الله، ويعملون على أن تسيء حياتهم الخاصة والحياة بصفة عامة على اتباع المشهوات والأنانية والبغى. لقد تمكن الضلال من قلوبهم وعقولهم.

بيان المعنى العام :

1-20، الرحمتاب أنزلناه إليك... للكهاترون عذاب شديد.

للتخت السورة بالحروف المقطعة التي سبق ما يتعلق بها فى أول سورة البقرة. وأتبع بالتنويه بالقرآن بذكر بعض من خصائصه:

(1) هذا كتاب: ضيعت ألقاطه وحروفه ووثقت. فكان النبى ﷺ كلما نزل عليه شيء من القرآن دعا كتبة الوحي وأمرهم بنوثيق ما أنزل عليه كتابة، فاجتمع لتتحقق سلامته من التعبير أمران: الحفظ فى الصدور، والكتابة. وهو ما لم يتوفر لأي كتاب منزل قبله، فتمريض للتغيير والتبديل، وسلم القرآن، ذلك أن الله لو لا أن يكون القرآن الخاتم نوحيه والحافظ له، المخاطب به البشرية إلى يوم الدين.

(2) أنزلناه: هو وارد من العالم العلوي، وليس للرسول ولا لغيره أي أثر فى نفسه. وأن المنزل له هو المتفرد بالعظمة (نا) نحن.

(3) إليك: للإشارة من أول الأمر على أن النبى ﷺ هو الذي يتولى بيانه وللصورة العملية لهداه. وإذا قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كان خلفه القرآن.

(4) تحذير للهدف من إنزاله: إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ذلك أن القرآن قد ساعد الإنسان على الخروج من ظلمات الجهل وما يصحبه من حيرة وتضبط، بما ركزه من عقيدة التوحيد، والكشف عن العبداء، وتوحيد التشريع المأظم للحياة فى جميع شعبيها، فحدد موقع الإنسان فى الكون، وصلته بخالقه وبالبشر وبالكون جميعا، وكشف له عن مصيره بعد موته. وهذه كلها أسئلة محيرة تاه فيها العقل البشري، وانتهى لها إلى تصورات خيالية لا مسند لها، وإما إلى الاعتراف بالحيرة والغموض. وقام للفران بإخراج الناس من تلكم الظلمات إلى الزوية الواضحة المنسجمة، وما الإنسان لما لخطط بالقرآن، فأشع فى عقله ومشاعره نورا يبدد الغموض، ويعطيه منهجا متأسقا.

3-الذين يستحيون الحياة الدنيا -هى ضلال بعيد.

إن الصراط المنوء به هو صراط الله المالك لما حوته السموات، ولما هو فى باطن الأرض ولما هو على ظهرها، وإن من يتأمل فى القوانين التي أحكمت مسارها

بيان معاني الألفاظ :

اللسان : اللغة التي يتم بها التخاطب.

القوم : الأمة والجماعة الذين يتكلمون بلغة واحدة.

أهـاء الله : هي الأيام التي يسلط فيها عذابه أو ينعم فيها بحيراته.

يسومونكم سوء العذاب : ييغونكم العذاب الميء.

بلاء: اختبار، ويكون بالخير والشـر، أكثر ما ورد في الشر.

تألفن : أعلن.

الناسي : الذي لا يحتاج إلى شيء.

الحبيب : المحمود فعلا جديده أو لم تحمده.

بيان المعنى الإجمالي :

من ميثاق الله في بعثة الرسل، أن الوحي الذي ينزل عليهم فيبلغونه لا يكون إلا بلغة قومهم، ويزفون إلى التبليغ البيان بما يحصل الاقتناع، ثم إن لقوامهم يفرقون بعد ذلك، فمنهم من يغلق عقله عن التفكير فيما جاء به المرسلون، وبالتالي رفض كل المعجزات، فيحرمهم الله عونه وينلق عليهم الضلال أبوابه فلا يجدون منه مخرجاً، ومنهم من يقبل على ما جاءه من ربه على لسان رسله بقلوب متفتحة، متأملة في الحق مدعنة له فيفتح الله عليهم من الطافه ما يكفيهم على الحق، وقدرة الله على التصرف في المخلوقين لا يوقها شيء لأنه العزيز الذي لا يظلم، وقدرة تسيير البشر و العوالم بحكمته الكاملة.

أرسل الله موسى الخـة مؤيدا بالمعجزات، كما أرسل محمدا مؤيدا بمعجزة القرآن، وأمره أن يحقق للغاية التي من أجلها بعث، وهي إخراج قومه من ظلمات الكفر والحريرة، إلى نور الإيمان. وأن يثبت الخير في نفوسهم بتذكيرهم، بالأيام التي سلط عليهم فيها بلاءه الذي لم يستطيعوا له ردا، وصبروا عليه فأعقبه الفرج، وبالأيام التي بسط عليهم فيها خيراته ونصروه، فطقت به ألسنة الشاكين معترفين بالفضل. فكان الابتلاء بالخير والشـر، في كل منهما أية ودليل على تفرد الله بالتفكير.

ولذاكر يا محمد الظرف الذي قال فيه موسى لقومه: يا قومي كونوا ذاكرين ولا تنموا نعمة الله التي تفضل بها عليكم، تلك النعمة الكبرى يوم أنجاكم من جيوش فرعون التي لحقت بكم تبغي استمساكم. وقد تكفل بكم فرعون وملؤه، لما كنتم بين أظهرهم، ييغونكم العذاب للجامع بين الإذابة المادية والإهانة. كانوا يقتلون الذكور منكم وييغون على حياة الإناث للخدمة والاستمتاع؛ وفي ذلكم العذاب والتسلط الفاهر

بلاه من ربكم ليختبر صبركم ولتزدعوا عن الكفر الذي أنساكم وصية إبراهيم ويعقوب من التمسك بالإسلام إلى الموت.

ولذكر في القرآن الطرف الذي أعلن فيه الله أنه يجزي الشاكرين نعمته بتواصلها والبركة فيها، ولشكر يكون بالإخلاص لله ونسبة الخير إليه وعبادته كما أمر. وصرف النعمة فيما خلقت له. كما أنه يجزي من كفر نعمته بالعذاب الشديد. والكفر يشمل الشرك وكفر النعمة بصرفها في نقيض ما خلقت له.

وقال موسى أيضا لا تمتثلوا بالطاعة، ولا تظنوا أن المعصية تؤثر في التصرف الإلهي لو تضيق به سبحانه. فإنه سبحانه عنى عن طاعتكم، حقيق بأن يحمده على كماله وأفضاله.

بيان المعنى العام :

٤-وما أنسلنا من رسول إلا بلسان قومه...وهو العزيز الحكيم.

هذه قاعدة من قواعد التصرف الإلهي أنبأت بها الآية، وهي أن الله لا يبعث رسولا من رسله إلا وهو يتكلم ويفصح عن مراده ويبلغ الوحي، فيحدث المبعوث إليهم باللغة التي يتكلمون بها، لأن مهمته هي بيان ما أوحى له به، ولا يثنى البيان إذا كانت لغة الوحي ولغة البيان تكم بغير ما يفهمه الناس المبعوث فيهم. وكان من لوهم الكفرة أن لغة الوحي لا تكون إلا باللغة العبرانية أو السريانية، وأن الرسول يترجم ما تلقاه من وحي إلى اللغة التي يفهمها قومه. ومع أن هذا الوهم خطأ، هو مخالف لمنطق الحياة، فالرسل مصلحون وقادة ولا يكون القائد ناجحا إلا إذا كان يحدث قومه بلغتهم. وقد اختار الله اللغة العربية لحمل الوحي، لما اجتمع فيها من خصائص الدقة، والقدرة على إداء المعاني المشاهدة والغيرية، وما يتعلق بالعبادة والسلوك والحقوق. وما كانت لغة تملو بها لو تقرب منها في ذلك.

ثم إن الرسل بعد تبليغهم الوحي والقيام بتوضيحه قولاً وعملاً، والاستدلال على مضامينه بما يقع، تكون الاستجابة مختلفة، فبعض الرسل إليهم بصحرون على العناد ورفض ما جاء به المرسلون. ويبدلون جهنهم لمقاومتهم وصعد الناس عن اتباعهم، فهؤلاء يتركهم الله لما اختاروه، ولا يسمعهم بالأنطاف، فيمسيرون سائرين في الضلال. وفي المقابل يسعد الذين فتحوا عقولهم للتأمل في الوحي، وتحركت قلوبهم لاتباعه، يسعدهم بالتأييد المعنى في طريق الهداية الذي اختاروا السير فيه. إن الله هو العزيز الذي لا يقبله شيء فيمنعه من تنفيذ ما أوداه، هذه الإرادة الناجمة من الحكمة الكاملة، وحكمة الله هي الحكمة الكاملة الشاملة لكل ما يقضيه وينفذه.

٦- ولقد أرسلنا موسى بآياتنا... لتعزل صيار شعور.

هذه حقيقة مؤكدة أن الله أرسل موسى ﷺ إلى بني إسرائيل، ولقد بالمعجزات الواضحة، فأمره لا يختلف عن أمره، كلاهما مرسل مؤيد بالأكلة البينة التي يدعى لصديقها من سلمت فطرتهم، وكلاهما خاطب قومه باللغة التي يتحدثون بها، وكلاهما مكلف بإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. لقد امتزج بنو إسرائيل بعد يوسف ﷺ بسلطان مصر، قاتلوا بهم في عقيدتهم وأخلاقهم، ونسوا حقاً من شريعة إبراهيم ويعقوب ويوسف، فانقلب تفكيرهم وتصورهم للكون، بسحاكة المصريين، إلى ضروب من الأوهام، فأمر الله موسى أن يأخذ بأفكارهم وقلوبهم فيخرجهم من ظلمات الباطل والحيرة إلى مستقر الإيمان. وكذلك كان العرب على دين أبيهم إبراهيم ثم توالى عليهم القرون، فتراكم على عقيدة إبراهيم وشريعته من التصورات الجاهلية ما قطع الصلة بينهم وبينه، وبهذا تظهر المناسبة بين الآيات السابقة وهذه الآية.

أمر الله موسى لتستقر شريعته في ذهن بني إسرائيل، لأن يذكرهم فيبرز إلى الوعي ما سبق أن لفذه الله فيهم في أزمنة مختلفة من مظاهر قدرته، سواء منها أيام بطشه ليردعوا أو أيام نصره وإعزازه ونشر خيراته.

وبذلك يكون ما يبطل به الله البشر من الخير أو الشر، يسودي دوره في إصلاح النفوس وتقويم السلوك، يستفيد من القوارع الصارون منهم، الوافقون من عدالة ربهم، الراجعون على أنفسهم بالتقويم والتسديد كما يستفيدون من الخير ما يؤكد معرفتهم بفضلهم، فيزدادون قرباً منه واعتزلاً بفضله، لتتعلق السننهم بالشكر على نعمه.

٦- وإن قال موسى لتقوموا أذكروا نعم الله... بلاء من ربيكم عظيم.

أمر الله موسى في الآية السابقة بتذكير قومه بأوامر الله، وتبييناً لما سمع من ذلك وردت هذه الآية تقول للنبي ﷺ: وذكر قول موسى لقومه، فإذا قال موسى لقومه: قال لهم يا قومي لا تقموا وليكن حاضرا في وعيكم النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليكم. يوم بلغ الخوف بكم مبلغه لما نظرتهم فوجدتم أن فرعون وجنوده قد لحقوا بكم، وأنتم لا قبل لكم بهم ولا تستطيعون الوفوف أمامهم ولا الدفاع عن أنفسكم كما سجله القرآن: **فقال أصحاب موسى إنا نمركونا قال كلا إن منكم ربساً سيهيناً** ^١ أنجاكم الله من الاستئصال في ذلكم اليوم كما أنجاكم من العذاب

السيء الذي كان فرعون وملؤه يفتشون به ليلامكم وإهانكم. نعم إن العذاب كله سيء ولكنه على مراتب. وأسوأ ما افتشون فيه العذاب المادي بالإهانة والإذلال النفسي. ولذا عطفت الآية على - سوء العذاب - بعضاً من مظاهره. كان فرعون وأكابر قومه يعمنون إلى قتل الذكور من بني إسرائيل، ويبقون على حياة الإناث ليكن خدمة لهم في البيوت أو للاستمتاع. وبهذا الذكور يطوعونهم للإشباع الجنسي. إن ما وصل إليه الظلم والاستبداد الفرعوني فيه بلاء من ربكم عظيم، لم يحكم منه، جزاء لحرافتكم عن دين إبراهيم وغفلتكم عن وصيته ووصية يعقوب، وعن منهجهم وعبادتكم لألوه المصريين) **يا بني إن الله اصطفى لك الدين لعلك تكون من المؤمنين**¹ - فجمعت الآية بين التذكير بنعمة الإنجاء وبحرماتهم من الألفاف حتى لا يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان.

7-8. وإذ تأذن ربك لئن شكرته لعلنا تزدن شكره. سبحانه الله لغنى حميد.

و التذكر يا محمد الظرف الذي أعلن فيه الله لموسى بمسمع من بني إسرائيل، الإعلان الذي يجري عليه تصرفه في الشعوب وفي بني إسرائيل، فحين يأتي بعدهم: أنه يتفضل كما ما منه بجزاء الشاكرين مزيداً من الخيرات والألفاف والعون. إن الشكر على النعم واجب على المنعم عليهم، ويتحقق الشكر باللسان وبالعمل الصالح. وأداء الواجب لا يستحق عليه صاحبه جزاء ولكن الفضل الإلهي جمع للشاكرين بين الرضا النفسي بالاستقامة وبين تواصل خيراته التي منها ما يفتح به بصائرهم ويملي مداوتهم كما جاء في قوله تعالى: **(واللهم العظيم بشارته وإنك ربه والذي حدث لا يخرج ولا تعدا كذلك الفصل الآيات لقوم يشكرون)**² -

كما أنه يجزي من كفر بالنعمة، التي أسعده بها رب العالمين، بالعذاب الشديد الذي يتجاوز طاقة الأبدان والنفوس. وفي هذا تهديد وتحذير من مقابلة النعمة بالمعصية، وصرف النعمة في غير ما أمر الله أن تصرف فيه. ولا شك أن الكفر بالله أشد أنواع الكفر.

وقال موسى لقومه أيضاً: اعلما أن شرككم للنعم لا يستفيد منه الله سبحانه شيئاً، كما أن كفركم لا يضره سبحانه، ولا تحسبوا أن سيقمكم للطاعة يعزز جانب المرسلين، ولا تخيلوا أن حرصهم على اعتدائكم مبعثه حب النجاح. إن الله على

عن عبادتكم فكماله كمال ذاتي، لا تؤثر فيه طاعتكم بزيادة، ولا عصيانكم وكفركم بنقص. وهو المستحق للحمد، المحمود فعلا سواء أقررتم بنعمه أو جحدتموها.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الْفَارِسِيِّينَ مِرْقَاسُكُمْ قَوْمٌ نَبُو - وَعَادُ وَثَمُودُ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الْفَارِسِيُّونَ وَهُمْ هَذِهِ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ إِلَهَنَا مَعَهُ وَمَا تَدْعُونَ إِلَهُ إِلَّا رَبُّنَا ۖ قَالَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَكَّ فَادَارَ السَّمُودُ وَالْأَرْضُ يَدْعُوكُمْ لِيُغَيِّرَ حُكْمَ مِرْقَاسُكُمْ ۖ خَرَّ عُنُقُكُمْ إِلَى أَجْلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَشَاءَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قَرَّبُوا أَنْ تَصُدُّوا عَنْمَا كَانَتَا ۖ إِنَّا بَادُوا فَأَلَّوْنَا سُلْطَانًا سُبُوتٍ ۖ قَالَتْ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ إِنْ قَرَّبُوا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُمِرُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَادِيَةٍ وَمَا كَانَتْ لَكُمُ الْاِيَّامُ أَنْ تَكُونَ سُلْطَانًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۖ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ خَلَقْنَا سُلْطَانًا وَلَنَضْمُرُنَّ عَنْ مَا لَا نَدْعُوهُ وَإِنَّا لَنَدْعُو اللَّهَ فَنَسْكُنُ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

الفللر : مخترع لا على مثال سبق.

يدعوكم : يناديكم بأوامره ونواهيهِ وإرشاده.

السلطان : الحجة التي لا مرد لها.

التوكل : الاعتماد وتقويض التكبير إلى الغير ثقة بعلمه بما يصلح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن مشركي مكة قد أُنْتَهَم أخبار ما نُم لقوم نوح، إذ قصة الطوفان تكررت على الأسماع فلا يشك فيها أحد، وكذلك هم يعبرون على آثار قوم عاد وثمود ويشاهدون خراب ديارهم بسبب تكذيبهم لرسولهم، وكما سلط الله نعمته على الثلاثة عاقب أما أخرى طوى ذكرهم أبعاد الزمان، فأنتم لا تعلمونهم وتقرء الله بعلم أخيرهم، ومنه الله في القوم الكافرين جرت على نسق واحد، إن تكلم الأمم جاثمهم رسولهم مؤيدين بالحجج البينة والمعجزات الظاهرة، فاستأروا لأنبيائهم إشارة تفيد: واصلوا كلامكم فإنه غير مؤثر ولا صادق، وإنما شأكون في كل ما تدعوننا إليه، كان جواب الرسل جوابا هادئا رقيقا، لتشككون في الله، في وجوده وفي قدرته وفي حكمته، والكون كله بسمائه وأرضه يشهد بأنه هو الذي خلقه على غير مثال

سبق، إنه رب كريم يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ليفرز لكم ما أنتم عليه من الفسك وما اقترعتموه من الآثام، ثم يسهل لكم في حياتكم لتحيا حياة أمنة مطمئنة إلى الأجل الذي حده لكم في هذه الدنيا.

كان جواب الكفرة جوابا رافضا رفضا قاطعا للاستجابة لهم، بنوة على أنه لا فضل للرسول عليهم، لأنهم مستترون معهم في البشرية، وزعموا أن وراء دعوة الرسول قصد غير خاف عنهم، إذ كل هم الرسول أن ينموا من اتباع ما كلى عليه أبائهم بما له من قداسة، ثم قالوا لرسولهم: إذا كنتم صادقين فأتونا بمعجزة وحجة بينة لا تقبل الاحتمال ولا الرد.

أجاب المرسلون: نعم نستوي معكم في البشرية ولكن البشر ما كفوا نمطا واحدا كما تخرجه المعامل، بل هم متفاوتون تبعا لما يتفضل الله به على بعضهم، ويحرم منه البعض الآخر. ثم إننا لا نستطيع أن نأتوكم بآية على المقامر الذي اقترعتموه لأن الله هو المتفرد وحده بإبراز البينات في الوقت الذي يريد، والمؤمنون مأمورون بالتوكل على الله وحده. فهو الذي يهديهم سبيل النجاح ويؤيدهم، ثم أعلن الرسول أنه لا يوجد ما يحول بيننا وبين التوكل على الله، خاصة وقد لطفت بنا فهدانا إلى سبيل النجاح والأمن، ثم أعربوا عن تحذيرهم للكفرة الذين علموا على إذابتهم لصدمهم عن مواصلة ما يقتضيه الإيمان. فقالوا إننا مسابرون على الإذابة، وطنا نفيدا على القيات على الحق. وتأكد في ختام الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، فعلى كل من أراد أن يستعين بالمعين الحق فليتوكل عليه.

بيان المعنى الثاني

لأنهم بالصدق نيا الذين من قبلكم سمعنا تدعونا إليه موسى

لا يقصد القرآن من التذكير بما وقع للرسول مع أمهم أن يشغل الناس بسماع أخبارهم فقط، وبناء على هذا فالتذكيرهم ببعض ما تم لموسى مع قومه أئى به الإنقاذ الدعوة المحمدية في عقولهم بالاعتبار بقوم موسى، ولذا غلب ذلك بالاستقحام الإنكاري الذي مضى أنه قد نقلت لكم أخبار قوم نوح، فلن خير الطوفان قد شاع وذاع وتناقلته الأمم قرنا بعد قرن، وكذلك أخبار قوم عاد وثمود اللذين كانت منازلهم في جزيرة العرب وأنتم تشاهدون آثار إهلاكهم. لقد علمتم مصيرهم فاحذروا إن واصلتم رد دعوة الإسلام أن ينتهى أمركم إلى ما انتهى إليه أمرهم.

ولم يكن تنفيذ الوعيد محصورا فيهم، بل إن سنة الله في الانتقام من المعانئين المكذبين، حصدت أقوالا كثيرين كتبوا رسلهم، وطوى الزمن ذكرهم، فلا يعلمهم إلا

ثم يستحضر القرآن عرض رسالهم عليهم ما كلفوا به من هدايتهم إلى الحق وإخراجهم من الشرك إلى التوحيد، وما قبلوا به رسالهم.

جاءتهم الرسل موثبين بالمعجزات البينة الواضحة التي يفكك لوضوحها ولتحديدها من لم يخلق العنك والكبر عقله. ودعوههم إلى توحيد الله والإيمان بما أنزل إليهم والعمل به. عثر القرآن عن رفضهم بقوله: ردوا أيديهم في ألوهمهم. وهذا التركيب تركيب قرآني لم يتقل مثله من كلام العرب. ولذا اختلف المفسرون في بيان المرك منه، والذي رجحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور تبعاً للزمخشري أنهم وضعوا أيديهم على ألوهمهم إغواءً لشدة الضحك من كلام الرسل. كراهية أن تظهر خواصل ألوهمهم. وذلك تمثل لحالة الاستهزاء بالرسل، انحرير ج 13 ص 196 - ويبيده أن يكون لهم بقية من أدب حتى يكرهوا أن تظهر لهواتهم عند إغراقهم في الضحك مع شدة وقاحتهم في الحاجة وتعميهم لها هم عليه.

فلعل المعنى لهم لما فرغ أسماعهم دعوة الرسل وعرض حججهم ومعجزاتهم، وضعوا أيديهم على ألوهمهم إشارة إلى أنهم لا يقطعون الكلام على الرسل مع الإيمان إلى أنهم الرضون له، حتى إذا ما أتم المرسلون كلامهم أجابوهم بما ذكرته الآية لاحقاً ويكون التركيب دالا على هذا المفهوم وإن اختلفت طرق التعبير عنه باختلاف عادات المرسل إليهم في الإفصاح عن ذلك.

ثم قالوا لهم ما مضمونه: إنا كفرنا بما أرسلتم به جملة وتفصيلاً، رفضاً قاطعاً لا رجوع عنه وإن مسا عرضتموه علينا لا يرتفع إلى درجة إقناعنا بوجود الله ولا بكونكم مرسلين من عنده. ولا إن ما ندعونا إليه صادق يقيناً، بل إنا نضك في الأمرين معاً، وشكنا قوي جداً.

10- 12، قالت رسالهم ألى الله شك... فليؤسكل المتوسكلون.

هذه الآيات تسجل المحاور التي تمت بين المرسلين وبين ألوهمهم المكذبين.

أولاً: أنكر المرسلون عليهم جراتهم بشكهم في وجود الله وتصرفه في الكون، ولبرزوا هذا الإنكار في صيغة الاستفهام (ألى الله شك) ويتضمن الإنكار التعجب من نفهم من قامت الشواهد على قدره بالتأثير، فأعجبوا الاستفهام بالآيات الدالة على وجوده وتصرفه. وهي الكون كله: السماوات والأرض، التي تشهد الفعل لها لتغيرها وتحولاتها ناطقة بأنها محدثة من عدم، ولأن المحدث لا يستغني عن المؤثر المحدث. خاصة وأنها وجبت من غير أن يكون لها مثال سابق عليها؛ مما يدل على كمال علمه. ومن رحمته بكم أنه ألوكم عنايته، فدعاكم بواسطة المرسلين الذين

أرسلهم إليكم وبما تضمنته رسالاتهم من بيان التوحيد ومن أوامر ونواه وإرشاد، هذه الدعوة التي رتب عليها غفران ذنوبكم التي اقترفتموها قبل مجيئهم ثم يمد في أعماركم لتتعموا بحياة الاستقامة إلى الأجل الذي قدره لكم في الدنيا.

ثانياً: بعد هذا البيان العاقل الزفيق، كان جوابهم جواباً قاطعاً لحجج المرسلين في ظنهم، إذ بنوا ردهم على أنه لا ميزة تميز المرسلين حتى يكونوا رسلاً هذه مبعوثين من عند الله، لأنهم بشر مثلهم لا فارق بينهم حتى يكونوا أكثر قرباً من الله، ثم عطفوا على ذلك بإظهار السبب الخفي في زعمهم الذي دعا المرسلين إلى القيام بالدور الذي يحتجون للإقناع به، وهو أنهم يرغبون في الحيلولة بينهم وبين الدين الذي كان عليه أبائهم، على معنى أنه الدين الذي جرب فصيح، واكتسب الفداسة من السلف، ثم طلبوا من الرسل أن يقدموا لهم حجة لا تقبل النفض ولا الجدل، مع أنه ما من رسول إلا هو مؤيد بمعجزة تحدهم بها فعجزوا.

ثالثاً: أجابهم المرسلون، نعم نحن نقر أننا بشر نمشي معكم في الإنسانية، ولكن للبشر وإن اتحدوا في الخصائص التي كانوا بها بشراً إلا أن قيمتهم ليست واحدة، فإن الله يفضل بمتة على بعضهم فيمكنه مما حرم منه غيره. ألا ترون أنه وإن كانت القوة العقلية قسراً مشتركاً بين البشر إلا أنهم متفاوتون في الذكاء وحضور النبوية وقوة الإفصاح والإقناع، وكذلك في حظ كل منهم من الجمال والوسامة، كذلك في القوة البدنية إلى آخر الفوارق بينهم، وكلهم عبده يتصرف في حظوظهم بحكمته وعقله وإن كان قد يخفي عنا موجبات ذلك.

طلبتم منا أن نلزمكم بحجة قاطعة، ومعجزة ظاهرة تخصمون لها حالاً. وهذا من صلفكم وعنايتكم، فإن طلبكم هذا فيه قلب للموازنين، إن المتصرف في الكون هو الله وحده، وهو يزل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، وليس في مقدورنا أن نأتيكم بأية كما ترفعون إلا إذا أذن الله لنا وأتانا ما يؤيدنا به، فاقترحكم معجزة تصدقون موصفتها وتضبطون وقتها، هو تعبير عن تجاوز لقبركم، ومقابلة لنعمة الهداية بالرهض والمكبرة.

ثم واصل الرسل بالإعلان عن صلتهم بالله بأدب صلبة من يعتمد على الله في تدبير أموره لتفرد سببانه بالعلم الصائق في الحاضر والمآل، وهذه الطريقة هي الطريقة الأمور بها المؤمنون، تشملهم هم كما تشمل المؤمنين برسالتهم.

إن التعمق في طلب الحقيقة أكد لنا أنه لا طريق إلا طريق التوكل عليه، ولذا نجدنا لا نخرج عن هذه السبيل. وقد قامت شواهد تمكن فيها هذا الاختيار، فقد هدانا الله للسبيل التي لا شك أنها سبيل الفوز والنجاح والأمن.

ثم أشاروا إلى أن ما صدر عن الكافرين من الإذلية والتحرش بهم، لمعاقبي التأثير عليهم ليتخلوا عن الدعوة التي يحملونها، لا يحقق لهم أي شيء. فقمعوا بهذا كل آمالهم وأعلنوا أنهم قد تدبروا بالصبر. وأن الضغط عليهم لا يزيدهم إلا إصراراً على الإيمان وتطبيق ما جاءهم من ربهم. وختمت الآية بالدعوة إلى التوكل على الله على أنه المملك الوحيد المفضي للقول.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي هَٰئِلِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ لَبَلَّكُمُ الْفِتْنَةُ ۖ وَلَئِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الْآرِضَ وَمَثَلِ الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُمْ يُكَذِّبُونَ ۚ لَا يَخْرُجُ عَلَيْكُمْ جُنُودٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَيَأْتِيكُمُ الْقَارِعَةُ ۖ فَتَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّسَكَّنٍ فَغُولَ خَلَّالٍ فَتَنصَرِفُونَ ۚ فَلَمَّا حُشِرَ الْكَافِرُ وَكَذَّبُوا وَعَدَ لَهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ ۖ أَنَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَجْزَلًا ۚ

بيان معاني الألفاظ ،

الماء : الدين.

الاستفاح : طلب الفتح، والفتاح الحاكم.

خائب : حصر .

للجبار : المتعظم في نفسه المتكبر، الذي لا يرى لأحد عليه حفا.

الفتنة : المعائن للحق .

خليل : قوي شديد.

ورائه جهنم : ينتظره عذاب جهنم.

صديد : المائل الذي يخرج من النمل.

بيان المعنى الإجمالي ،

انتقل الكافرون من المحاجة إلى التهديد، فعرضوا على الرسل ولتباعهم أن يختاروا بين أمرين: إما الخروج من الأرض التي يجاورونهم فيها، وإما أن يقلعوا عن دينهم ويعودوا إلى اتباع ملة الكفر. أنزل الله على رسوله ما يشتمل فلوحي إليهم: أني سأستأصل الظالمين وأهلكهم. وأن هذا التأييد هي سنته مع الذين يستشعرون دوماً بالخوف من حساب الله يوم القيامة، كما يخافون وعيده الذي يوقنون أنه لا راد له، وهم المتقون الصالحون.

طلب الرسل من الله أن يفتح عليهم بصره الذي وعدهم إياه، وبشرهم بأنه سيحقق الخيبة والخسران لكل مستكبر عتيد. وأنه بعد الانتقام منه في الدنيا سيصلى نار

جهنم، التي من بعض خصائصها أن الدخان إليها يلهب كبده من العطش. فلا يجد أمامه إلا مسائل من الصديد، وهو ما يسيل من الدم، يحاول رغم قذارته أن يشرب منه فلا يستطيع أن يتلعه، ثم يحس بسكرات الموت والامه تدخل في شعابه ولكنه لا يستريح بفقوم الموت فعلا، وبعد ذلك من عذاب شديد لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

13-14، وقال الذين كفروا لرسولهم لتخرجنكم... وخاف وصيد.

تابع القرآن عرض تحدي الكافرين للرسول وتهديدهم، وأعلمهم أنهم بين حيلتين. إما الخروج من أرضهم. فندوهم بأنهم سيخرجونهم إلى ترك ديارهم وأرضهم ومغانرهم قسرا. على معنى أن لهم من وسائل الضغط ما يجبر الرسل وأتباعهم على الفرار من الأرض التي يعتبرونها سلكا لهم وحدهم. وهذا من طبائع الاستبداد كما نشاهده اليوم في معاملة اليهود للفلسطينيين؛ وإما أن تعودوا إلى إشباع ديننا وتعرضوا عما تدعوننا إليه، وإذا كانت كلمة تعودوا تعيد حسب أصل الاستعمال أنهم كانوا على ملة الكفر فخرجوا منها ويطلب منهم العودة إليها، وما كان الرسل على ملتهم حتى يعودوا إليها؛ فيحمل الكلام على أن الرسل ما كانوا قبل مجيء النوحية يتحرسون للكفرة بالإنكار ما هم عليه، فحملوا سكوتهم عنهم قبل ذلك على أنهم كانوا موافقين لهم. أو أنه لما كان الكلام موجها في الحقيقة للرسول وللذين آمنوا معهم، فتغليب المؤمنين في الخطاب الذين كانوا فعلا على ملتهم، سوع قولهم أو لتعودن في ملتكم.

إن هذا الامتنكار والتهديد قابله التأييد الإلهي للرسول، بالوعيد والوعد: الوعد للمستعدين الظالمين أنه سيمتصهم ويهلكهم، ووعد المؤمنين أنه سيمكنهم من الأرض، التي ثم عدهم للكافرون بإخراجهم منها، بالممكن فيها بعد إهلاك الظالمين وإما بدخولها تحت سلطانهم. ثم ثبت القرآن هذه النهاية بأنهما سنة الله مع الذين يخافون ربهم، والخوف من الله حالة تتشا في النفس عندما يستحضر الإنسان موقفه من ربه المطلع على ما يخفي عن أصعب الناس وعلى ما يظهره، وخاصة عندما يقف بين يديه للحساب. كما يخاف تعاذ وعيده في الدنيا والآخرة. إنه لا يحصل هذا الخوف المذكي للنفس إلا في قلوب المتقين الصالحين.

15-17، واستفتحتوا وخاب كل جبار... عذاب شديدة.

هذه الآيات تحتمل أن تكون مرتبطة بالمرسلين، وأن تكون مرتبطة بالكافرين.

فإنها لها على أنها مرتبطة بالمرسلين وأن الضمير في قوله تعالى: **واستفتحتوا** يعود على المرسلين، يكون حاصل المعنى أن المرسلين طالبوا من الله أن يفتح

عليهم نصره، وأن ينجز لهم وعده الذي نصت عليه الآية السابقة. وتؤكد النصرة بتحقيق خيبة وخسران كل جبار مستكبر، دأبه العناد وإغلاق منافذ التفكير معادة للحق.

وإذا فهمناها على أنها مرتبطة بالكافرين، كان المعنى أنهم طلبوا النصر على الرسل، فخابوا لأنهم جبارة معاندون. ولا تقتصر خيبتهم على ما سبيلهم في الدنيا، بل تتجاوز ذلك إلى يوم القيامة فوراء عقاب الدنيا عقاب الآخرة الذي فصل بعضه: أن جهنم تنتظر كل جبار عتيد. فوراء عذاب الدنيا عذاب جهنم، الذي وصف شيئاً من فظاعته، بأن فؤاده يلهب ويطلب السقياء، فيسقي من سائل هو الصيديد القذر الذي يسيل من الدم. يحاول رغم ذلك أن يشرب منه، لعله يطفى عطشه للأهيب قلاً يمر إلى خلقه ولا يستميغه. وهنا يأخذ الموت تسكراته والامه يهد كيانه غسلاً يبقّى جزء منه إلا وهو معذب بعذاب الموت، ولا يستريح بالموت، ووراء ذلك عذاب قوي شديد يتجاوز التصور. ذلك أنه من شؤون الآخرة الفارقة على كل تصور، سواء في ذلك النكال والعذاب، أو النعيم والفضل.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ بِمَا كَفَرُوا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۚ إِنَّهُ تَرَأَتْ آلَ اللَّهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْفَىٰ لِيَشَاءُ بِكُمْ وَيَأْتِيَ عَذَابُ يَوْمٍ ۚ وَمَا إِلَٰكُ إِلَّا اللَّهُ يَخْرِجُ مَا يُخْفَىٰ ۚ فَهَرَّوْا لِلَّهِ جِئِمًا ۖ قَالَ السُّعْفَةُ ۖ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا جُنُودُ اللَّهِ نَبَاهُ لِقَالِهِمْ أَشْتَرُّ مَغْفِرٍ عَنَّا بِرِ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ يَوْمٍ ۚ فَتَجَمَّعُوا ۖ وَقَالَ السُّعْفَةُ لِمَا فَضَى الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعْدُهُمْ وَعْدُ الْحَقِّ ۖ وَعَدْتُكُمْ فَأَنفَكْتُ ۖ وَمَا كُنْ لِي عَمَلُكُمْ بِي سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ عَزَمْتُ فَأَسْتَجِيبُ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي ۖ وَلَوْ مَوَا أُنْفَكْتُكُمْ مَا أَنَا بِمُضِرٍ بِكُمْ وَمَا أَشْرَ بِمُضِرٍ لِي ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا إِذْ يُرِيدُ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَا سَلَّمَ ۚ

بيان معاني الألفاظ ،

صلفت الريح : إذ اشتكت فحطمت ما هو في طريقها وقتته.

برزوا : خرجوا من مكان كان بحجبتهم، وهي القبور.

الضلعاء: الأتباع.

المستكبرون : المبالغون في الكبر .

سج : جمع تابع.

مضون : تكفون.

تجزع : حزن بإحاطه اضطراب.

امسح : المنجى.

ساجد : مغبتكم .

بيان المعنى الإجمالي ،

قرئت الآية ضياع أعمال للكافرين التي ربما نفعت بعضا من الناس في الدنيا، بأنه كحال كس من الزماد تحركت ربح قوية شديدة في يوم رياحه عاصفة، فتطايرت به ونشرت أجزاءه بصفة لا يقيس منه شيء محسوس يمكن أن يجمع، فكذلك أعمالهم التي اكتسبوها وفقت أساس الإيمان تكون ضياعا لا ينتفعون منها بشيء، وذلك هو الضلال الذي تعمق فذهب بصاحبه إلى مسافات بعيدة أشد البعد ومتأخرة.

لم تعلم أيها الناظر أن الله تفرّد بخلق السموات والأرض، وأجرامها على الحكمة التي لا تختل، ألا بسدل ذلك على أن الله صادر على إخفاء الجبرارة والمستكبرين، وعلى أن يُمكّن خلقا آخر من أرضهم يكونون بالطبع مؤمنين صالحين، وأهون من ذلك ضياع ثواب صالح أعمالهم.

أهلكهم الله وخرج السدة والأتباع من قهورهم، وجرت بينهم المحاورة التالية: قال المستضعفون للمستكبرين القادة: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا مقلدين، نطبق ما تشيرون به علينا. فهل نستطيعون اليوم أن نكون شيئا من عذاب الله؟ أجابهم المستكبرون معتذرين عن التقرير بهم بأنهم ما قصدوا توريطهم، إذ هم مشتركون في العذاب، وأنهم يائسون فقالوا: سواء علينا أظهرنا الجزع والتيزم والحرن، لم صبرنا وتحملنا بدون شكوى، فإن حالتنا تتواصل على ما هي عليه وليس لنا مخلص.

وينضم إلى المشهد الشيطان الذي كان عمدة رؤسائهم في إضلالهم. يبرز محصلا للكفرة المسؤولية عن ضلالهم فقال لهم بعد أن نفذ الله حكمه الحساب في البشر يوم القيامة : إن الله وعكم وعدا صائفا لا يخلف، أنه يكتب السعادة لمن أطاعه،

ووعظكم بفوزكم بالسعادة إن أطعتموني فآخفت وعدي. ولكن ما كانت بين يدي سلطة تجبركم على قباي، دعوتكم لاتباع شهودكم والكفر بالله فليست بتم. فتوجهوا بالولم لأنفسكم ولا تلقوا على بالملامة. لأنني لم أجبركم على إيتاعي ولكتم اخترتم لأنفسكم ما ندعو إليه شهودكم. إنني لا أستطيع اليوم أن أغريكم ولا تستطيعون إغاثتي. إلي كافر بما دعوتكم إليه من الإشراف بالله وإتباع الهوى من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا. إن من اتبع الشيطان فكفر هو ظالم، والظالمون حقيقون بأن يسلط عليهم العذاب الأليم.

وبالمقابل أدخل الله المومنين المتزسين بالعمل الصالح جنات تتخلها الأنهار الجارية، امنين من انقطاع ما هم فيه من نعم، هو نعم دائم بلإن ربهم الإذن الذي لا مثوية فيه. نحيون من العلاقة ومن بعضهم لبعض بالسلام والأمن الدائم.

بيان المعنى العام :

18 مثل الذين مكفروا بهجه ...ذلك هو الضلال البعيد.

هذه الآية صيغت على طريقة تجسم المعنى بتطويرة بما هو ملدي، وهم المراد بالمثل. إذ مثلت أعمالهم الخيرة في ظاهرها وعدم انتفاعهم منها بالرماد الذي يفرقه الرياح العاصفة. مضمونها أن للكافرين كانوا يقومون تارة بأعمال صالحة مفيدة للمجتمع تتجاوز مصالحهم إلى نفع الآخرين. فهي أعمال في ظاهرها جديرة بأن توصف بالحسن. والخير وأن يكونوا على رجاء من ثوابها. ولكن تلكم الأعمال بفقدانها للأساس الذي يثبت آثارها ويفرقها نصحابها، أعلى العقيدة الصحيحة، كانت كالرماد المتجمع بعد أن لفت النار على المادة المشتعلة فأذلتها وصيرتها كنما من الهباء فحركات الرياح والتهبت وكانت رياحا تعصف بكل شيء فتكسره ثم تفتته، فتتشبه متفرقا كأشد ما يكون التفرق، هذا فيما كانت له صلاحية فكيف يكون حال الرساد الذي يفرقه النسيم. وبذلك هم لا ينتفعون بشيء منها، ثم أكدت الآية في خاتمها خسران الفائد للإيمان بأن زهاب حسناته هو الضلال القوي لأنه ليعتد بصاحبه إلى مسافات تقطعه عما فيها من خير وبالتالي عن ثوابها.

19 20، ألم تر أن الله خلق السماوات...سبحلى الله عز وجل.

إن ما توجهت العناية إليه في الآية السابقة من محو ما قام به الكفرة من أفعال حسنة في ظاهرها، المجسم ذلك بالمثل. قد اتبعه القرآن بالدليل. هذا الدليل الذي ابتدأه بموال موجه إلى كل من يمكن منه العلم، فقوله تعالى : ألم تر - ألم تعلم أن الله خلق السموات والأرض خلقا ملتبسا بالحق والحكمة، فصار على نظام لا يخل. وهذا أمر مشاهد لا يقبل الاختلاف

فيه، مما يدل على عظيم القدرة، وينبه إلى أن إلقاء الجبابرة والكفرة، والإتيان بالمؤمنين بخلفونهم، أمر ليس من خلق السماوات والأرض بمفاتيح البشر، وأهون من ذلك إحباط أعمالهم الصالحة وزوال أثرها. وأكد تحقق تلك المفاهيم بإنها سهلة هينة عليه سبحانه. وما ذلك على الله بعزيز.

21- 22. ويرزوا لله جميعا فقال...لهم عذاب اليم.

تضمنت الآية السليقة أن الله قادر على إهلاك الكفرة، وقد أهلكهم فعلا، فخرج السادة والأتباع من قبورهم، وسجري بينهم المحاورة الثالثة كما ستجري محاورة بينهم وبين الشيطان، عبر عن ذلك بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع.

وقف الأتباع الذين ما كان لهم حظ من الاستقلال في الدنيا، وكان السادة المتعاطلون بالكبرياء بقصورونهم في دينهم وفي تصوراتهم. وقفوا يسألونهم يوم القيامة، بما أننا كنا تابعين لكم في الدنيا نسير في الخط الذي ترسمونه لنا، فهل تستطيعون أن تظهروا مكانكم عند الله فزفوا عنا شيئا من العذاب؟ وللظاهر أنه سؤال تزييع وتوبيخ إذ يوم القيامة يستوي الجميع في إدراك حظوظهم وأنه أبعد ما يكون، أن يشفع عند الله المجرمون.

واعترف المستكبرون بأنهم ما قصوا نوربطهم بذليل أن وضعهم ليس بأحسن من وضعهم. ثم أضافوا: لئلا من تبديل حالنا استولى علينا، فسواء أظهروا الجزع والتسكي والتخبط، أو التزمنا الصبر وإظهار التحمل بدون شكاة، فإنه لا مخلص لنا ولا نفعنا شيء ولا نجاة لنا.

ثم يبرز الشيطان في المشهد لأنه كان قائد القادة ومضلل المضللين. كما هو شأنه في الدنيا كان يسترق السمع، فأعد نفسه للدفاع عن توريطه، وقد فضى الأمر، ونفذ الله ما أعدّه للبشر، وتميز السعداء بالكرامة، والأشقياء بالعذاب والمهانة. ثم قال لهم: إن الله وعكم بالسعادة إذا أنتم عملتم بما جاءكم منه، ووعدكم بالسعادة إذا تبعتم الطريق الذي أدعوكم إليه، وأخلفت وعدي. ولبي لم أكن مجبرا لكم على ترك ما دعاكم إليه الله وإتباع طريقي. ولكنكم كنتم مختارين فعملتم لما نوى أنفسكم، فلا تلوموني على إغواكم. ولكن لوموا أنفسكم إذ لم تنفعلوا بتقريزي بكم. إننا اليوم في الهول سواء. فلا أستطيع أن أغضبك، كما أنكم لا تستطيعون إغاثتي. ثم أرفد بمعنا منه في تبرئته وتحملهم المسؤولية. إنني كفرت بإثمكم لي في الدنيا من قبل يوم القيامة، على معنى إنني لما دعونكم إلى ما دعونكم إليه كنت متيقنا أنني أدعوكم إلى باطل، ولن شخصي لا يمكن أن يكون شريكا لله بأمر فبطاع، وقد جربت عصيان

ربي فكنت علي الخسران الأبدي. هو تصريح منه بأنه أضلهم في الوقت الذي كان معتقدا أن ما يدعوهم إليه هو الضلال، فاتباعهم له وانتصروهم بأمره يتحملون مسؤوليته، وهم بذلك ظالمون. وختمت الآية بقول إيليس: إن الظالمين يستحقون العذاب الشديد لأنه، ويحتمل أن يكون هذا من كلام إيليس، كما يحتمل أن يكون من كلام الله، على أنها حقيقة أطلقها لتكون خاتمة. وفي هذا العرض القرآني ما يوقف البشر إلى شر الشيطان وعمله على إغواء البشر ثم يبرؤهم منهم يوم القيامة، مما يضاعف أحزانهم على تراخي عزائمهم واتباعهم لإغوائه.

23- وأدخل الذين آمنوا واصلوا الصالحات سبلها سلام.

هذا هو شأن القرآن في هدياته يقرن بين البشارة والنذارة، وبين التهديد والوعد الجميل. فبعد أن عرض عرضا وأفيا مشخصا خاتمة الكفرة، أتبع ذلك بما حققه للمؤمنين الذين جمعوا إلى الإيمان العمل الصالح، فثبتت أعمالهم وأثمرت. على عكس الكفرة الذين ذهبت أعمالهم هباء كرماد عصفت به الرياح. فجازاهم ربهم بأن أدخلهم جنات جمع لهم فيها الخصب؛ تتخللها الأنهار، والأمن بامتداد النعيم إلى أبد الأبد. وتأكيد الكرمة، فهم يلقون من الملائكة أينما حلوا تحية بالسلام والأمن كما قال تعالى: والملائكة يصلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَوِيفَةً كَشَجَرَةٍ طَوِيفَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ، فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُولَّى أَصْلُهَا كُلَّ حِينٍ وِإِذْ رَزَقْنَاهَا وَقَضَرْتَ اللَّهُ الْآمِنَانَ لِلْغَايَةِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِّلَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ أَتُفْسِدُ اللَّهُ الْأَلْبَابَ ؕ امْنُوا بِالْقَوْلِ الْكَاسِبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأُخْرَةِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصْلِحْ لَهُ أَمْوَالَهُ كَمَا ضَاعَتْ مِنْ قَبْلُ وَهُوَ يَتَجَلَّى لَهُ وَفِي الْأُخْرَةِ

بيان معاني الألفاظ .

الطوية : النافعة.

الاصل : الجذر .

الفرع : الخصب المعتد.

في السماء : مرتفع، عال.

الاكل : ما يؤكل.

كل حين : كل وقت أريد فيه جنّوها.

اجتنت : قطعت.

القول الثابت : الكلام الصادق.

بيان المعنى الإجمالي :

قرب الله للبشر أثر كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، فنظرها بشجرة نافعة قوية، امتدت عروقها في الأرض الصالحة، فتم لها الغذاء الذي ارتفعت به فروعها إلى علو مبهرج، يتناول منها صاحبها ثمارها كلما قصد إلى جنبها يتفدير محكم من الله وكذلك كلمة الإيمان إذا استقرت في العقل والضمير فإنه يتبعها قوة صاحبها وثباته. وتتبع من كلمة الإيمان الأعمال الصالحة التي يجد ثمارها زكية في حياته وفي الحياة الآخرة. وهكذا يضرب الله الأمثال للناس رجاء أن يتاملوا فيها ويتفكروا في مدلولاتها فيثبتوا على التوحيد.

و بالمقابل فإن كلمة الكفر وما يتبعها من قول للسوء الذي لا يحبه الله، مثل ذلك كالشجرة التي لا نفع فيها لا بظل ولا بثمر. لإثبات لها في الأرض ولا قرار تعصف بها الرياح فتجثتها من أصولها. فكلمة للكفر تثبت قلق والحيرة لصاحبها وتهدد عليه أعماله ولا تحول بينه وبين الفساد في القول والسلوك، فتعصف بجميع أفعاله فلا يجد أثرا حتى لما كان منها دافعا للناس.

ويثبت الله للمؤمنين بالقول الصادق الذي لا يتخلف توجيهه إلى الخور فيجد فيه للمؤمن الطمأنينة في الحياة الدنيا، كما ينتقي عنه الخوف في الحياة الآخرة بثبوت مصيره حسب ما جاءه. وأمن به من كلام ربه. وفي المقابل يوغل الظالمون في الضلال. والله يفعل ما يشاء. فيرتب للصالحين درجاتهم من النعيم حسب حكمته وعمله. ويعق ضياع الكافرين تبعاً لما قنعوه من سوء حكمته وعمله أيضاً.

بيان المعنى العام :

24-26. ألم تر كيف ضرب الله مثلا من قرأ

هذه طريقة قرآنية تحقق إتباع الناس على مختلف مداركهم بعضامين الآيات القرآنية وهداها. إذ المثل عبارة عن تقريب المجردات بتطبيقاتها بالمحسوسات فيوضح ما خفي عن البعض. ويزداد رسوخاً بالنسبة للبعض.

للتطير من الواقع المحسوس شجرة لها الموصفات التالية: النفع والصلاح (الطيبة) متجذرة في الأرض ثابتة ثبوتهاً يمكنها في منبتها، فلا تؤثر عليها الموصاف، وتمتد عروقها في بطن الأرض مما يوفر لها الغذاء من مساحات شاسعة يكسبها القوة.

(اصحابها ثابت) انتفعت بما توفر لها من مواد الأرض فامتدت أغصانها مرتفعة تسبح للناظر إليها (وغرسها في السماء). تجمع إلى ذلك أنها شجرة مثمرة وثمارها غير مقطوعة فكلمها قصدها صاحبها وجد من ثمارها ما يجنيه بتقدير من الله الذي على بها (تؤتي لثمارها كل حين ياذن ربها).

المجرد الذي قصد تربيته وتأكيده: كلمة الإيمان والتوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فهذه الكلمة متى استقرت في النفس ورسخت لا تزعزع بما يرد على صاحبها من تشكيك، ثم هي تمتد آثارها مرتفعة بأعمال صاحبها التي تكون زكية بعامل التوحيد. نفعه له ولغيره، صالحة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل شجرة خبيثة المنظر والرائحة، فاقدة لمقومات الثبات والاستقرار، مقطوعة من الأرض. ونظيرها كلمة الكفر وما كل قريبا من ذلك من مسيء الكلام، التي ما استقرت في النفس حتى يكون وضع صاحبها الوضع الخبيث الساعي إلى الرذيلة والفساد لا يردعه عن الموء رادع، تذهب أعماله ضائعة كما جاء في الآية السابقة رماد تذرؤه الرياح.

ثم إنه وقع في كلام المفسرين اختلاف في تعيين للشجرة الطيبة، وفي تعيين الشجرة للخبثة. فقال بعضهم: هي النخلة اعتمادا على ما رواه البخاري وغيره، في تشبيه الرسول ﷺ المؤمن بالنخلة في أكثر من مناسبة. وقالوا: إن الشجرة الخبيثة هي الحنظل. وبإرجح عندي ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض، يقوي هذا أن الله ذكر مواصفاتها بدون تعيين اسمها، ولو كانت شجرة معينة لذكرها باسمها فليتبع ذكر اسمها استحضار مواصفاتها.

27. يثبته الله الذين آمنوا... ما يشاء.

هذه الجملة من أسوأ ما يعرض للإنسان في حياته الدنيا. فالطلاق والحيرة والأمنلة التي تتحرك في النفس ولا تجد جوابا ولا تفسيراً، تعتمد على الإيمان حياته وتصيبه بالقلق المهدم. إن الذي يطرأ كل ذلك هو ما يستعم الله به من التأييد للإيمان بهديته وخاصة القرآن الذي يجد تأليه المتكبر في آياته سلاسا نفسيا وراحة كما قال تعالى: (إلا يثكر الله يخلق القلوب) ¹ فإنه قد أنعم على البشر بما يثبتهم به من آيات كتابه. هو القول المتصف بالثبوت في مضمونه وفي ألفاظه. فينعمون به في حوائجهم الدنيا. يرضي لهم المسالك المنجية ويدفع عنهم موجبات الحيرة والشك القاتل.

وكذلك يجنون من آثار ملا زمنهم للعمل بما جاء في القرآن طمأنينة راضية. وقد أذهب عنهم تمسكهم بالقرآن الخوف.

ثم نرى القرآن بما يثبت مضمون هذه الآية بأن الله يتصرف في الظالمين المشركين فيجعلهم في حيرة وارتباك، شأنهم شأن النكث الذي لم يتبين الطريق السالك لخائضه، فكما سار في اتجاه عاجله لشك فيه، وذلك عاقبة الشرك الذي اختار الضلال للزامه وأعرض عما كتفه له الله من سوء العاقبة.

والله يفعل ما يشاء فعله لا راد لقضائه، فيسمو بالمؤمنين إلى درجات متفاوتة في النعيم والفضل والتزكية، ويهوي بالمشركين إلى دركات من العذاب والنقمة والإلال تبعاً لحكمته وحسن تقديره.

• **لَمَّا مَرَّ إِلَى آلِ الْيَتِيمِ يُدَلُّوهُمُ النَّعْمَ اللَّهُ لَعَنَ الْكُفْرَ وَأَحَلَّهُمْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ مَطْوًى فِيهَا زُوَيْرٌ ۚ الْقُرْآنُ ۖ وَجَنُّوا بِهِ أَحَدًا ۖ لِيُخْلَوْا عَنْ خِيَالِهِمْ ۚ قُلْ تَتَّقُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ آمِنُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا بِمُؤْمِنُوا الصَّلَاةَ ۖ يَتَّبِعُوا بِمَا رَزَقْتَهُمْ بِرَأٍ وَعَلَابَةٍ مِمَّنْ قَبْلَ ۚ إِنَّ بَآئِنَ ذُنُوبِهِمْ وَلَا خَلَلَ ۚ**

بيان معاني الألفاظ :

كفرا : كفران النعمة المقابل لشكرها. ومنه الشرك بالله.

أحلوا قومهم : كانوا سببا في نزول قومهم.

دار البوار : دار الهلاك والخسران جهنم.

الفرار : موضع استقرار الإنسان.

الأنداد : جمع ند وهو المماثل في المجد والرفعة.

سير الله : كل عمل يجري على ما يرضى الله.

الخلل : مصدر من خالط إذا وادك وصالحك.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من كل من يمكنه الرؤية إذا لم ينتبه إلى رؤوس الكفر الذي بلغ من سمو عملهم وكفرهم، أنهم قابلوا نعم الله عليهم من رسالة النبي ﷺ، ومن أمن ببلدهم، وتقدير الحرب لمنزلتهم، قابلوا كل ذلك بكفر النعمة التي أشدها شناعة الشرك بالله ومقاومة دعوة الإسلام. وفروا على قومهم فقادهم إلى دار الخسار، جهنم، وهي أسوأ قرر ينزل به الإنسان. ثم إنهم أقاموا من خيالهم أصناما قدموها حتى جعلوها مساوية لله، وما حققوا بذلك إلا هتفا واحدا هو أنهم أضلوا الناس عن الطريق

للمؤدي لمرضاة الله. قل لهم تهديدا لهم: تمنعوا بما أتيح لكم في الحياة قلبن مصيركم إلى النار.

قل يا محمد للمقربين من البشر إليّ: عبادي: واصلوا أداء صلواتكم على اللوجه الأكل، وواصلوا الإنفاق من الأموال التي رزقتكم إياها، وبادروا بذلك قبل يوم القيامة. ذلك اليوم الذي لا يملك أحد ما بنفسه لترتفع درجاته، كما لا يجد خليلا يشفع له أو تسمو به مكانته عند الله.

بيان المعنى العام :

28، 29، ألم تر أن الله يستأنس القرآن

تحريك كل من يصح منه الرذيلة لاستحضار ما دخل عليه قوله: **ألم تر**، فكان متخول الرذيلة أمر محسوس منظور إليه، والعجب كل العجب ممن لم يشاهده. ذلك أمرٌ للذين بدلوا نعمة الله كفراً: أنتهم النعم من الله من نعمة النبي ﷺ التي هي أكبر النعم وأجلها مقدراً، وحصلته بلدهم فتحقت لهم الحياة فيه آمين في الوقت الذي كلفت الحروب تشتعل في الجزيرة العربية (بلد آمن وينتخطف الناس من حولهم) وحمل للفداء الناس تهوي إليهم. فكانت الأرزاق تأتيهم من كل مكان، فعمى أن يشكروا هذه النعم بقبول الحق الذي نزل إليهم ويخلصوا العبادة لعمديها، عبدوا الحجاره، وكتبوا الرمول ﷻ، وأنوا وأذا المؤمنين به. هؤلاء هم رؤساء الكفر من قريش. استكبروا في مكة بغیر الحق، وفتوا للمؤمنين والمؤمنات، وصرفوا كثيرًا من القدامى على رسول الله ﷺ. صرفوهم عن الإيمان والاضمعام لجماعة المسلمين. وأثروا بالتالي في الضعفاء من قومهم، وحتى في بعض كبار القوم: كما فعلوا مع عم الرمول أبي طالب بإثارة نعمة الأخوة بما كان عليه أبواه والكبرياء بنسبه إليهم. فكانت الغلبة التي حققها لقومهم: أنهم أنزلوهم في النهاية دار الهلاك والخسران. وما هي هذه الدار ؟ الأقرب لنسج الآفة هو ما جاء في قوله تعالى بعد: جهنم يصلونها، فيكون الخسران متعلقاً بحالة قومهم يوم القيامة. وحمله بعضهم على الذكايه التي حلت بقريش في واقعة بدر التي قتل فيها عدد غير قليل من رؤوس الكفر. ويكون الكلام ينتهي بقوله تعالى **(إن اليوم)** ثم يستأنف القرآن أن عاقبتهم جهنم .

وجهنم هي أموا قرار يكون فيه الإنسان، أعاذنا الله منها بفضلها وكرمها.

30 وجعلوا لله أنداداً... مصيركم إلى النار.

رؤساء الكفر والمستكبرون الطغاة من مشركي أهل مكة، اخترعوا من خيالهم أصناما أسبقوا عليها من التقديس الشيء الكثير. وطوعوا الناس ليعتقدوا فيها النفع والضرر، حتى جعلوها مساوية له في المجد والعظمة، يؤمنون بها ويتقربون إليها.

وما هو الدافع لهم في ذلك؟ أجابت الآية أنهم ما فعلوا شيئا إلا أنهم لوقعوا قومهم في الضلال والضياغ، والبعد عن طريق الله، فضلوا وأضلوا.

قل لهم يا محمد: تمتعوا بمغريات الحياة الدنياء، وواجههم بعد ذلك مهذا لهم بالكشف عن مصيرهم للوحيد الذي سيؤولون إليه يوم القيامة، مصيرهم إلى النار.

31 - قل لعبادي هؤلاء خلال

أمر في خاتمة الآية التثنية أن يهتد المشركين في مواصلتهم العيب من متع الحياة بأن مصيرهم إلى النار. وبالمقابل أمر أن يخاطب للعوالمين بوصفهم هذا: الإيمان، ليواصلوا أداء الصلوات على أكمل وجه وأتمه، ولن ينفقوا مما يسر لهم ربهم من الأرزاق سرا، بكيفية لا يعلم غير المتفق أنه يسمح بأمواله تخفيفا للحاجة، وعلائية إنفاقا ظاهرا بذكره للسام. ولتبع الإنفاق بالتحريرض عليه سرا وعلائية لطرد ما يمكن أن يظن أن الإنفاق علائية لا ثواب فيه. نعم! إن تقديم السر على العلانية يشير إلى فضل الصدقة المخفية على للصدقة المعلنة، ثماعى الإخفاء من الإبقاء على كرامة المحتاج.

وفي نظم الآية أمرار يكون من الخير إيرادها:

أولاً: صرح الأمر الإلهي بالتوجه للعباد منسوبين له، وهو أعظم شرف للإنسان عندما ينسب إليه (قل لعبدي) وفي ذلك إيماء إلى أن المشركين بشركهم قد انفصلوا عن ربهم.

ثانياً: أنهم لم يطلوا بصيغة فعل الأمر التي لا تستعمل إلا لإيجاد ما لم ينحقيق بعد في الخارج. لما استعمال الفعل المضارع مع اللام المفردة يفيد مواصلة ما هم ينجزونه فعلاً، وفيه تسجيل: أن الله مطلع على ما قاموا به من خير.

ثالثاً: إظهار متعلق الإنفاق، أنه مما رزقناهم، ليكونوا عند الإنفاق مستشعرين منة الله عليهم الذي يمكنهم مما ينفقون.

ثم حضهم على المبادرة بإقامة الصلاة والإنفاق قبل انقضاء العمر، الذي لا يعلم موقاته إلا الله. قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجد فيه أحد مالا يملكه حتى ينتفع بالإنفاق منه. فبسر عن نفى التملك والتصرف فيه، بنفى البيع. وكما لا ينتفع في ذلك اليوم بمال ينصدق منه، كذلك لا ينتفع بصدقة تشفع له.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَاسَ الْبَحْرَ. إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْرِهِمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَاسَ.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَاتَّقُوا مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ إِنَّ تَعْدُوا بِعَهْدِ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرزق : القوت.

المسخير : التذليل، والتطويع.

الأمر : الإقن.

دائبين : على حالات لا تختلف.

إن تعدوا : إن تحاولوا العدد.

لا تحصوها: لا تضبطوا عددها.

بيان المعنى الإجمالي :

كتاب الكون أمامكم فانظروا فيه، تجدوا أن الله هو المنفرد بخلق السماوات والأرض. ثم لطف بكم فيسر لكم في الأرض ما يمكنكم به من عمارتها، فالنزل للماء من السماء، وقدر أن يجري في باطن الأرض يتواصل منده بعد نزوله، لتتولد منه الثمار والأقوات. ولهمكم الاستفادة من قوانين الكون لتتيسر بذلك حياتكم، فصنعت الفلك، عليها تسافرون وتحمل لمتعتكم، وسخر لكم الأنهار تخصب الأراضي وتبعث بمياهها إلى مخزون المائدة المائنة. وربط بينكم وبين الشمس والقمر تتعاقبان عليكم، تلتزم بتعاقبهما أمور الحياة وكذلك الليل والنهار، والنعيم على كثرتها وتنوعها التي يحتاجها الإنسان، أتاكم الله ليهاها، فأخذ كل إيمان حظله المكتوب له منها، وهي نعم تعجزون عن عددها، ولكن الإنسان إذا لم يسر قلبه وعقله الإيمان يكون ظلوما جاحدا شديدا للكفر، لا يتوجه بالشكر على الخيرات التي توفرت له.

بيان المعنى العام :

32 340، الله الذي خلق السماوات... لظلولهم كفتار.

بعد أن سجلت الآيات السابقة موقف الكافرين وفساد أعمالهم ومعتقداتهم ومصيرهم القريب والبعيد، وبينت مواقف المؤمنين والمذبح الذي أمروا بإتياعه، وما ينتظرهم من جزاء في الدنيا والأخرة، اعتنى القرآن بالذكر بما يعتبر قوام الدين الإسلامي، أعني تفرد الله بالتصرف في الكون وفضله على البشر. وفي التذكير بذلك ولفت الأنظار للأئمة الناطقة بصدقه، ما يرفع حجاب الغفلة عن تلك الأدلة، ويحييها في

العقل والضمير، حتى يكون الإنسان شاعرا بها، في منطقة التجلي الواضح، بهديه وتقوم مسيرته في الحياة.

استخلصت مادة هذا التفكير من كتاب الكون. فلفت الأنظار لحقيقة يقربها حتى للمشركون، وهي أن الله هو المقرد بخلق السموات والأرض، ولا يدعي عبدة الأصنام أن الالهة خلقت شيئا منهما. وفي هذا الكون يعيش الإنسان الذي يسهه الله الذي خلقه، لتتم فيه الحياة والتعمير من البشر. ثم بعد الخلق العام للكون تابعت الآيات تصرف الله فيه بما ينفع الناس، فعند النعم الكبرى التي بدونها تتعذر الحياة لو تكون عسيرة.

كولاء يزيل الماء من السحب المرتفعة حول المحيط الأرضي، التي تصل الأرض بمشروع الخيرات التي بها تستمر الحياة، فأخرج الثمر من الأشجار، وأخرج النبات الذي نرعاه الأعمام. ومن ذلك يتسوق للإنسان قوته الذي يوضعه عن الوحدات الحرارية التي تحترق بالعمل والكاء، فمياه الأمطار، وتقبل الأرض لها ثم اختراقها لتروى عروق الأشجار والنبات على قدر ما هي في حاجة إليه، ويكون ما يتحول من عناصر التراب والعام إلى ثمار وحبوب ومراعى الحيوانات التي يدخل في تركيب إنتاجها جميعا ما ينفع وطبيعة الإنسان، مما يشير إليه قوله تعالى: **وَلَقَدْ لَكُم** آيات نتادي بالقدرة والحكمة والوحدانية، وهذه نعم تحصل من الله إلى الإنسان ولا دخل له فيها.

ثانياً: إقدار الإنسان على الاستفادة من قوانين الكون بما يمكنه من تطويعها للتغلب على الصعوبات التي تفرسه. ومن ذلك ما هداه إليه من صناعة السفن التي مكنته من السفر بها واختصار المسافات الفاصلة بين قطار الأرض وتحميلها بالسلع، وغير ذلك من المنافع التي تظهر مع الزمن صور جديدة لها. وكل ذلك بإذنه سبحانه في تركيب القوانين التي باكتشافها تم للبشرية تحقق فوائد هذه النعمة.

ثالثاً: الأنهار الجارية بما تحمله من مياه وما تنشده من طعمي يخصص الأرض ويضاعف خيراتها، وتمكين الإنسان من التحكم في مجاريها والطاقت المتولدة من المندود التي تبني عليها. ونفاذ مياهها إلى باطن الأرض تروي المائدة العائيه، فتختزن في باطن الأرض. ألهم البشر طريقة استخراجها والتحكم في الري بها.

رابعاً: تعاقب الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار على الأرض وساكليها. إن المنافع والأطاف التي تيسر للإنسان بهذا التعاقب لا تكاد نحصى. بل إن الحياة لا يمكن لها أن تحدث ولا أن تستمر لولا هذا التعاقب المنتظم.

بيان المعنى الإجمالي .

انذكر يا محمد وانشر على أسماع قريش وعلى أسماع البشرية إلى يوم الدين ما دعا به وابتهل به إبراهيم الخليل. ابتهل إبراهيم لربه داعياً رب الكتب الأمن لمكة هذا البلد الذي أسكنت فيه ولدي وأمه. ولعمري ولبنى إسماعيل وإسحاق من عبادة الأصنام. قد عظم خوفي لما رأيت كثرة العابدين لها. إن من تبع منهجي في العبادة والسلوك هو مرتبط بي نكونُ معاً وحدة. ومن عصاني فأمره إليك ربى. أنت الغفور الرحيم فقد تهدي بهرحمك وتغفر له ما سلف من أسره بفعلك. ربنا إننى، تبعاً لأمرك، أسكنت بعض قريش، إسماعيل ومن تتصلب منه بهذا الولدي بين الجبال، أرض صخرية لا تصلح للزراعة ولا للفراسة، حول بيتك الذي حرمته فمعتنه عن المعتندين، وشرعت من تغذيه مما به حميته. ومقامهم في هذا المكان يصرفهم لمبادتك وإقامة شجرة الصلاة على الفضل وجوهها؛ فيسر لهم الحياة بما تغرسه من حب وشوق في عقول ومناعر فسم من الناس، فيسرعون إليهم رغبة في جوارهم وتعلقاً ببيتك. وألهمهم شكر نعمتك. ربنا إليك العليم بإخلاصنا، فما نلناه وما نخفيه سواء عندك، إنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

بيان المعنى العام .

35-38، وإذ قال إبراهيم ... من شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد أن لفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية، ومختلف أنواع الفضل الإلهي لجلب أهل مكة إلى الدخول في الإسلام، عقب ذلك بالذكور بالهالات إبراهيم، وهو أبوه الذي يجدون في الاتكئاب إليه، والقيام على البيت الذي بنى شرفهم، وذلك مما يؤكد لوفاء بالتهج الذي كان حريصاً عليه أشد الحرس. المنهج الذي أحياه رسول الله.

انذكر يا محمد ذلك القلرب الذي قام فيه إبراهيم داعياً ضارعا إلى ربه، وقد ترك إسماعيل وأمه بمكة لا ألبس لهما إلا رعية الله. فلنتبع ما حفظه القرآن وذكر به. أولاً: رب اجعل هذا البلد آمناً، دعا مستجداً مستحضراً أنه يدعو من تواليت عليه أطفاله وتكريمه، بما تقوده كلمة الشرب تبعاً لأصلها (التربية) من الرعية وقوة الارتباط بين المرئى ومن تولى تربيته. أشار إلى المكمل للفقر الذي هو فيه وسماء بلدنا، اعتماداً على ما تلقاه من الله من وحى بطمأنته يعمران ذلكم المكان. ومن حكمته دفع أن طلب أولاً الأمن الذي به يتواصل العمران، وفقدانه مؤذن بالخراب. أجاب الله دعاءه حتى إنه في العصر الجاهلي الذي فقد الأمن في الجزيرة العربية،

للتضريح وقوة الحاجة للتأييد، فإن مفومات الحياة والعمارة معنوية، فنكرها عند ابتهاله استنزالاً للرحمة التي تطمئنه عليهما، ولا مورد لها إلا من ذلكم الباب.

وقرر خصائص المكان بأنه جمع بين كونه قحلاً لا يصلح للزراعة ولا للغراسة، وبين رفعة المقدار بجوار البيت الذي حرّمه الله فنعى المستبدين من الاستيلاء عليه أو تحويله عن وضعه، لو الإضرار بملكه إضراراً يلجئهم إلى الهجرة منه فيسرع إليه الخراب، وعلى مظهر ما كشفه الله له: بأن إيمانهم في ذلك المكان يساعد على إقامة الصلوات تقرباً إلى الله، بقلة الشواغل الصارقة عنها.

ثم ابتهل إلى الله أن يعوضهم عن فخر أرضهم، بحب الناس لهم وشوقهم إلى بلدهم، فيسرعون إليهم بعوامل نفسية وروحية، وتتلاق إليهم مع الوافدين المشوقين الخيرات، وجاء أن يقدروا النعمة حق قدرها فيقوموا بواجب الشكر.

خامساً: ربنا إله تعلم ما سألني وما تمنن وما يخلصني عن الله من شره في الأرض ولا في السماء -

وصلى لدعائه بما تنزل به الرحمات وتتحقق الإجابات، وهو التعبير عن الإخلاص الذي لا يطلع عليه إلا رب العالمين، باعتباره مما يجري في باطن الداعي، وبمقدار صفاته بقوى الرجاء في الإجابة التي كان إبراهيم يثق بشديد الحرص على تحقيقها. ولتم بالتكثير بالقاعدة الإيمانية التي تفيد نفوذ الله بسعة العلم وشموله لكل ما يجري في الكون. وفيه تعليم لذريته ومنبى منهجه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ سُعْيِي، وَارْحَمْنِي إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٦٦﴾
رَبِّ أَنْعَلْنِي مِنْ مَلِئَةِ السَّيِّئَاتِ وَمِنْ ذُرِّيٍّ زَيْنًا تُغْتَلَبُ دُعَاؤِي رَبَّنَا اغْنِزْ لِي وَلَوْلَدِي
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ تَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

ملهم الصلاة : أودي الصلاة بصفة مستمرة، وعلى أكمل الوجوه.

ملئى الحساب : ينحقق الحساب، ويثبت الناس من قهورهم ليوقفوا فيحاسبوا.

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهالات زكية سجلها القرآن مسطرة عن إبراهيم عليه السلام افتتاحها بالتسبيح على الله، وشكر نعمه عليه اعترافاً بها، والتمني منها أنه وهب له، بعد أن تجاوز السن المعقد للإنتاج، النبيين الكريمين إسماعيل وإسحاق. وأعلن عن ثقته في قرب الله من عبده بسمع دعاءهم ويجيب طلبهم، وواصل ابتهالكه بأن ييسر له الدول على

إقامة الصلاة، وأن يلحق به من ذريته في ذلك، وأكد التوجه بقبول دعائهم، وختم لينهالاته بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

بيان المعنى العام :

39 - 41: الحمد لله الذي وهب لي يوم ياتوه الحساب.

هذا من الأدب الذي هدي إليه إبراهيم عليه السلام، ليكون بذلك قدوة للمؤمنين بعده، وهو أن يعقب الدعاء بالشاء على الله، ويذكر النعم التي تفضل بها عليه.

قال إبراهيم: الشاء الأتم الأكمل لله الذي تفضل علي فلم يجعلني مقطوع النسل، ولم يقطع أمني فوهب لي، رغم تقدم سني إلى الأمد الذي يتوقف فيه البشر عن الإنجاب، ولدين صالحين إسماعيل وإسحاق. وتشير الآية إلى أن إبراهيم كان يدعو ربه: أن يمتد نسله في الإيمان، وأن يخلقه من ولده من يواصل الدعوة إلى التوحيد. إن ربي سمع لدعائي، أجابني بتحقيق طلبني.

ثم عبر عما ألفه وأحبه ويرغب رغبة أكيدة في مواصلة القيام به، وهو أن يواصل في حياته إقامة الصلاة بآدائها على أتم الوجوه المقربة للمرء من ربه، وأن يمتد على بعض ذريته بذلك فيستمر فيهم عبادة الله بإقامة الصلاة، وأكد الدعاء لتحقيق ما ابتغى به: إن ربي سمع للدعاء، أي مجيب لمن أخلص في دعائه. وألحق بدعائه المذكور في الآية أن يتولاه بالمغفرة، لما قصّر فيه، وأن يسحب هذه المغفرة على والديه وعلى المؤمنين يوم يقوم الناس، ويهضون من قبورهم ليحاسبوا على ما قدموا. لما للمؤمنون فقد تقدم قوله، فمن تبني فإنه مني، وأما أبوه فقد تقدم في سورة التوبة آية 115 أن إبراهيم تبرأ من أبيه لما تبين عدوانه للتوحيد.

في ختام هذه الابتهالات ما ينادي بقيمة الصلاة في حياة الإنسان، التي قال فيها للهي ﷺ: وجعلت قرعة عيني في الصلاة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَمِيلاً غَيْرَ الْمُتَحَمِّلِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤١﴾ مُنْطَوِّعَاتٍ لِّمَنْ يُؤْمِنُ ۚ هُمْ فِيهَا لَا يُرَدُّونَ إِلَيْهِ طَرْفَةً وَأَعْدَادُهُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴿٤٢﴾ وَأَذِذْ لِّلنَّاسِ يَوْمَ تَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ مَا فَعَلْنَا فَرِّسَ لِّحْمٍ دَعَوْنَاكَ فَنَكَّبِيَ الْوُحُوشَ أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رُّؤُوسِ النَّاسِ ۚ سَتَجِدُنَا فِي تَشْتَاتٍ ۚ الَّذِينَ ظَلَمُوا السَّيْئَةَ وَنَجَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ نَحْنُ

بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٢٤﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ رَانَ
كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِئَرْثُوهُ مِنَّا الْجِبَالُ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الظلمة : الذمول.

تشخص الأبصار : ترتفع الأبصار .

الإهطاع : إسراع المشي مع مد العنق

إشباع الراس : طأطأته من الذل.

الدلفرف : تحرك جفن العين.

الهواء : الخلاء.

إتيان العذاب : وقوع العذاب.

قريب : قليل.

المكر : إضمار فعل السوء بالغير .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما يرفل فيه المشركون المتمردون الظلمة من نعيم، هو نعيم زلال وقليل، ولا نظنوا أن الله غافلا عن قبائح أفعالهم وسوء عقيدتهم. كل ما في الأمر أن الله أمهلهم ليجزيهم عما قدموا، تراه في يوم الجزاء وقد أحاط بهم هول العذاب من جميع الجوانب فشخصت أبصارهم، فلا تتقلب من شدة لهول. يسرعون ورؤوسهم ممتدة بغمضاها الذل، توقفت جفونهم فلا يستطيعون إغماضها، وقلوبهم وعقولهم فارعة خاوية ذهب كل ما كان يعمرها من قيل. ألزهم منها بأنهم عندما يحين يوم العذاب يتوجه الذين ظلموا، بالشرك والتعدي على حقوق البشر، إلى الله بالسؤال أن يمهلهم بإرجاعهم إلى الدنيا وقتا قليلا يظهرون فيه إيمانهم وإجابتهم للدعوة التي بلغها إياهم رسول الله ﷺ . ويكون الجواب: ألم تكونوا أقمتم من قبل في الدنيا وأكثمت أنكم لا تخرجون من قبوركم. وبلغ من عنادكم أنكم حللتم في مساكن الذين نمرناهم من الأمم السابقة وأقمتم فيها، وتبين لكم بجلاء كيف انتقمنا منهم، وضررنا لكم على ناسن رسول في القرآن الأمثال الموقظة للعقول والقلوب، فأعرضتم عن كل ذلك.

ثم ثبت الله نبيه والمؤمنين، بأن المشركين قد دبروا لهم ما يؤذيهم في خفاء، والله عليهم بما يكرهون، وما كان مكرهم ليؤثر في الجبال فيهددها، إن مكرهم ضعيف يتحطم على صلابة الرسول والمؤمنين الذين هم كالجبال.

بيان المعنى العام :

42 43، ولا تحسبن الله ضالها...هوا.

- تمرد مشركو مكة، وقد بسط الله لهم في الرزق والقوة، وكانت حظوظ زعمائهم موفورة من المال والجاه، فحول إليهم لن الخير الذي هم فيه لا يقطع وبصاحبهم في حياتهم وبعد موتهم. فهدمهم القرآن بأن الله يمهّلهم ولا يمهّلهم، إنه غير ذاهل عن أفعالهم، مطلع على ظلمهم الفظيع بالشرك بالله، فيكون القمعي لا تظن أن عدم تعجيل العقوبة للمشركين الظالمين غفلة عن جزقهم ببيع فعالهم، ولكن الله قدر لكل شيء أحله، فهو تبعاً لحكمته قدر تأخيرهم ليوم مهول: من صفة هذا اليوم:

أولاً: أن أبصارهم تكون ولقعة لا تحرك من شدة الهول، يلهيهم ما هم فيه عن تطليب النظر وتحويل البصر. وضع أبصارهم كوضع العيون في حالة الاحتضار. إن دلالة العيون على الوضع النفسي دلالة مؤكدة لا تكاد تتخلف، فالحزن والتأؤل والفرح والذهول والحيرة ونحوها، تدب عنها لوضاع البصر، فمن الدقة القرآنية في استحضار صورة المشركين يوم القيامة لفت الأنظار لوضع أبصارهم .

ثانياً: بصر عيون في المشي مع مد العنق إلى الأسام بذلة واستكثة، كإسراع الأسير الخائف. ثالثاً: مفتحي للردوس: رؤوسهم مطاطاة من الذل.

رابعاً: لا يرتد إليهم طرفهم: لا يقتضون على تحريك جفونهم، فتبقى ثابتة في وضعها لما داهمهم وما شاهده من الهول، خامساً: أفئدتهم هواء: عقولهم خاوية ذهب منها كل ما تحويه، من شدة الموقف للذي أحاط بهم هول من كل جانب.

إن ما مكلمهم الله منه من نعم زائلة في الدنيا، لا تساوي لحظة من لحظات هذا للموقف المفزع الذي حدثت بعض ملامحه الأيثن.

43. 45. وانذر الناس يوم يأتيهم... ونضربنا لكك الأمثال.

الأيثن السابق كشتنا عن الوضع النفسي وعن حالة حواس المشركين يوم القيامة. وأرتفت هذه الآيات صورة قمعهم ورفض نوسلائهم وتبريعهم ليكونوا على بينة من مآلهم فيقلعوا عن مواصلة الكفر ورفض الدعوة الإسلامية. فالغاية من هذه الآيات الثلاث إنذارهم لتغيير موقفهم.

مضمون الإنذار: أن المشركين الذين ظلموا بشركهم، وظلموا المؤمنين، وما كان يردعهم عن الظلم رادع، أنذرهم مئينا لهم بموقفهم يوم القيامة، يوم يشاهدون أهواله للتي فصل شيء منها في الآيثن. فيتوسلون إلى الله أن لا يعاجلهم بالعقوبة، وأن يؤخرهم قليلاً قبل حسابهم وجزائهم، ليعبروا عن استجابتهم للدعوة بالإيمان، ويتنبؤوا ما يأمهم به المرسلون فيما يقبلون عليه وما يدعونه من الأعمال.

وهيئات يكون قصعهم وحرمانهم من قبول توسلاتهم بذكرهم بما كانوا أقسموا عليه في حياتهم الدنيا وأكثوه تأكيداً يالغاً؛ أنهم لا ينقلون من قبورهم إلى الحشر(ماتكم من زواله) على معنى إنكارهم الشديد للبعث.

ويتواصل تقريعهم وتوبيخهم، بأنهم لما كانوا في الدنيا كانوا يمرون في رحلاتهم إلى الشام على ديار نمود، ويمرون على ديار عباد في رحلاتهم إلى اليمن، ويحطون رحالهم في منازلهم الخرية، ويشاهدون ويسرون ما حاق بهم من العذاب الذي استاصلهم. فقد تبينوا بذلك نبيئاً يقيناً ما حل بهم من العذاب. ومع ذلك فقد أرسل الله لهم رسوله يعظهم ويذكرهم بمختلف أنواع التذكير. (و نسرينا لهم الأمثال) نعم تكررت الأمثال الموقظة للعقول الكاشفة عن سنة الله التي يجريها في القوم الظالمين، ولكنهم واصلوا التكذيب والصد عن سبيل الله.

46. وقد مكروا...منه الجبال.

لقد هب المشركون ما ينفعون به الدعوة ببحث كبير. ودبروا في الخفاء ضروباً ظنوا أنها ستوقف المد الإسلامي، وظنوا أن الله غير مطلع عليهم، فواجههم القرآن بالتأكيد على أن الله عليم بما يمكرون. ثم هون على رسوله وعلى المؤمنين ما يبيتونه لهم، فقال تعالى: (وإن كثر مكرهم لتزول منه الجبال) - إن أداة نفى. على معنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي إن مكرهم ضعيف لا يستطيع أن يزيل الجبال الراسيات، فالرسول والمؤمنون صامدون واقفون، وما دبره المشركون لا يؤثر فيهم، وفيه إيحاء للاستخفاف بهم وللتنويه في المقابل بصلابة المؤمنين في دينهم، ولأنه لا يزعزعهم مكر المشركين.

فَلَا تَحْزَنْ أَلَّهِ تَعَالَى، قَدِيرٌ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَمَرًا بُرْتُقًى وَالسَّمَوَاتُ مَطْوًى زَوْجًا يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَرْضُ فَعَرْضًا يُنْزَلُ فِيهَا الْقَوْمُ الَّتِي هُمْ يَمُورُ بِكُفْرِنَ وَالْأَصْفَادُ ﴿١٣﴾ سَوَاءٌ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَجْدٍ وَتَغْشَى الْجُودَى الْكَافِرُ يَمْجُرُ اللَّهَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾ هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ مُذْذِرُهُمْ وَلِيُعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبديل : التغيير .

برزوا : ظهوروا بين يدي الله لا يوارىهم بناء ولا حصن.

التقريّن : الجمع بين اثنين بحبل كما يجمع بين الثورين.

الاصفاد : جمع صفاد وهو القيد والغل.

سراويل : جمع سرايل وهو التقيص.

القطران : دهن أسود معروف، للنفار فيه لئلا تلتصق شديداً.

بلاغ : تبليغ وإيصال.

بيان المعنى الإجمالي :

يقين أن الله سيتم وعده الذي وعده، سيحقق لك نصرته، وظهور الإسلام على الدين كله. إن إهمال الكافرين وعدم تعجيل العقوبة، هو تابع للتقدير الإلهي. ويؤكد ذلك: أن الله عزيز لا يمكن أن يرد حكمه راداً، بل ينفذ ما أراد كما أراد، وهو القادر القدرة الكاملة على الانتقام من الكافرين والعلفان.

وذكرهم باليوم الذي تتغير فيه الأرض والسموات، فلا تكون خصائصها على ما تشاهدونه في الدنيا. وفي هذا اليوم يظهر المجرمون مكبلين ومجموعين بالقيد والأغلال. يغطي القطران أجسامهم. تلك المادة التي تحتزن الحرارة فتترقع درجاتها وتلتصق بالجلود فتمزقها، وتغطي النار وجوههم فتستوعبها، وهو يوم يظهر فيه العدل الإلهي فتجزى كل نفس بما اختارت ويفتد ما اختارت. وجزاء البشر بما قدموا يتم في سرعة تفوق التصور. إن الله سريع الحساب.

استعرض القرآن في خاتمة سورة إبراهيم مجموع ما جاء فيها، فأنشأ إليه باله أمر أراد الله إبلاغه للناس ليستيقظوا، ولينذروهم به ممن عاقبة التهاون به، وليعلموا علم اليقين أن الله واحد لا شريك له، وليتدبر فيه أصحاب العقول الناضجة فيرشحوا فكرياً وعملًا.

بيان المعنى العام :

47- فلا تحسبن الله مغلظاً...ذو التقام.

قوم المشركون الدعوة الإسلامية، وأنوا المؤمنين، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة. وكل أمر مرتب عند الله في أجله لحكمة يعلمها. سأل النبي ﷺ فخطبته مؤكداً: إن الله لا يخلفك يا محمد ما وعده من النصر، وأنت في هذا على سنن المرسلين. ولذلك جمع لفظ الرسل والمقصود محمد ﷺ. إن الله الذي وعده بالنصر والتأييد وإظهار دينه عزيز قادر لا يحول بينه وبين مراده أي شيء، جرت سنته في التاريخ ليشرى أنه لا يهمل المعصدين الظلمة، وينتقم منهم في النهاية انتقاماً لا مفر لهم منه.

ظن المشركون أن أوضاع الحياة الآخرة كأوضاع الحياة الدنيا. وأن القوانين هي عينها. ولذا سجل عليهم أنهم ينتصرون بشفعاتهم (**ما نجدهم إلا يقربونا إلى الله زلجي**)^١ - وأن أموالهم ستحميهم من العذاب الموعود به، وأنهم يعتمدون على ألقابهم وعلى كثرة أولادهم، (**وما لعلكم ولا أولادكم بأنثى تقرّبكم علينا زلجي**)^٢ إن أوهامهم تلك منقوضة إذ استندت إلى أن أوضاع الآخرة كأوضاع الحياة الدنيا. هذمت الآيات الثلاث تصوراتهم، وصرحت بأن الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء؛ يؤثر الله فيها تغييرها ويبدلها، ويحقق القرآن لهم يخرجون من الكواكب التي كانت تحويهم، يبرزون منها ظاهرين سواء أكنّيت قبورا أم خراف من هباء أجسامهم. وإلى من يبرزون؟ يبرزون إلى الواحد الأحد، لا رب غيره ولا مالك في ذلك اليوم سواء، هو قاهر الجبابرة والطغاة والمعتكبرين، يبرزون أدلاء تحت سلطان قهره.

و يكشف الله المجرمين، ويرفع عنهم ستره، فيراهم كل من يتصور منه الرؤية أخرى مقروئين بحبال تتدغم إلى بعضهم، وقد صلب لذل عليهم صليبا، يرونهم وعليهم ثياب من قفلان، تلكم المادة التي تحتزن الحرارة فتقوى فيها، وتتسرع جلود من صلبت عليه، ويلتصق بها للفطران المتضاعف عذبه، وقد غطيت النار وجوههم واحتوتها.

إن الله يجمع الناس يوم القيامة ليجزي كل نفس بما فعلته، بعد أن اختارته ثم أرادته ووجهت له قصدها. وهذا يكون الجزاء وفق ما كان عليه العمل من خير أو شر وحسن أو سوء. ولا تظنوا أن أمر الآخرة كإمر الدنيا، يقتضي لزاما لا نعد لإيقاف كل صالح على أعماله ثم تحقيق ما يستحقه من جزاء، وإيقاف كل شمرير على أعماله واعتراقه بها ثم تسليط العقوبة العادلة عليه. إن الأمر مختلف عن ذلك تماما، إنه يتم الحساب يوم القيامة بأمر الله في سرعة تفوق التصور.

52 هذا جلاخ للناس... الألياب.

هذا المذكور في سورة إبراهيم حقائق منزلة عليك لتبلغها للناس قاطبة، وفي هذا التفتيح ما يرشد العزم إلى التأمل العميق فيما حوته. فقد أظهره الله للعالمين قصد أن تحل مضمونات هذه السورة مراكز تفكيرهم ليستيقظوا من غفلاتهم، وينفذ إلى قلوبهم ومداركهم، فتكشف لهم العواقب فيستقيموا في حياتهم (**ولينسروا به**) ولتقوم

الأدلة التي لا تقبل النقص ولا التشكيك، فيحتل العلم اليقيني عقولهم بأن الله واحد لا شريك له. وليكون في بينها، وما ضرب فيها من الأمثلة ما بلغت أنظار أصحاب العقول السليمة والنابهة، ليذكروا ويتأملوا فتكون لهم ممالك للإيمان برسالة الإسلام. وبهذا تومئ الخاتمة إلى منزلة المؤمنين من الصحابة ومن يأتي بعدهم، بأنهم الأحقاء بوصف العقل الناضج (ذو الكتاب).

منهلكم كما أهلكنا القري التي كفرت من قبلهم، ولكن لكل قرية أجل مكنوب معلوم لا يتغير عن مواعده فلا يتقدم ولا يتأخر .

بيان المعنى العام :

1-2، **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ... لَوْ كَانُوا سَمِيعِينَ.**

فتبحت هذه السورة بما فتحت به سورة يونس من قبل، والكلام على الحروف للمقطعة تقدم بيانه في أول سورة البقرة.

استحضر القران ما تم إنزاله على رسول الله ﷺ وبلغه للناس من القران، ولما كان ذلك حاصرا أشار إليه بقوله تلك آيات الكتاب، فبين الآيات المفردة لسجلها في المقول والمشاعر وفي إرشادها للنشاط الفكري والعملية والعقدي، حاضرة يشار إليها في كل وقت كاشيء المشاهد، وأضاف لفظ الآيات للقران ذاكرة له، بكونه قرانا، ويكونه كتابا. وإن كان المراد بالقران والكتاب واحدا، إلا أن هذا الجمع هو في نظري، والله أعلم، لإبراز العيزة التي اختص بها القران من بين الكتب السماوية. إن بقية الكتب التي أنزلها الله على رسله، قدروا أنها تعتمد إلى الأجل الذي يتلوه كل رسول لمن سبقه، فيعتمد قبشر للكتاب الأخير، واعتمد المرسل إليهم على ما وثق كتابة فقط أو بالحفظ. ومع تطاول الزمن وانتشار الأمية، أدمج القائلون على فتوجيه النبي بعد الرسل ريادات ونصصوا ما كان مخالفا لأهولهم لو ما لم ترق عقولهم لفهمه، وقرلهم ذلك حتى كان كل كتاب ينعدم من الوجود لو يتغير تغيرا يفقد الثقة به مع الزمن. ولما أراد الله أن يكون الإسلام خاتم رسالاته إلى البشر، ير حفظ القران عاملا، بهما يتم للتقابل والثقة:

العامل الأول: هو كتابة كل نص ينزل على رسول الله ﷺ بمجرد نزوله، فقد كان للنبي ﷺ كتبة للوحي معروغون بأسمائهم، ثم إنه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه جمع ما كان مكتوبا مرتبا حسب ما كان يأمر به النبي ﷺ بقوله اكتبوا هذه الآية في مكان كذا، أي قبل آية كذا وبعد آية كذا. وبقي المصحف مجموعا تحفظ به أم المؤمنين حفصة إلى عهد عثمان رضي الله عنه، فأمر بسخ نسخ منه وزعت على مراكز العالم الإسلامي. فما ينكره بعض الجهلة من أن الجامع للقران هو عثمان غير صحيح. وإنما مزية عثمان رضي الله عنه وهي مزية لا تنكر، أنه نشر القران في نسخ مجموعة على جمع أبي بكر، أي أن أبا بكر رضي الله عنه للخليفة الراشد ألهمه الله مع الصحابة إلى الإسراع بجمع القران مرتبا على الترتيب الذي هو عليه الآن في السنة الأولى التالية لانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

العامل الثاني: هو حرص الصحابة رضوان الله عليهم على حفظ القرآن في ذاكرتهم حفظاً جيداً. وكان الحفظ للقرآن كله معروحين في ذلك العهد، وإليه المرجع في إقامة القراءة له على النص القرآني كما أنزل. وبقيت هذه السنة أعنى العناية بحفظ القرآن كله في الذاكرة وتعمده حتى لا يتغلب منه شيء، ظاهرة تتميز بها الأمة الإسلامية. ومن مظاهر ذلك تلاوته في محارب المساجد من حفظ الأسماء في صلاة التراويح في شهر رمضان. وقد شاهدت عبر شاشة التلفاز بشا كاتوليك الذي يعد العالم الأول في الدين المسيحي، أنه كلما أراد أن يستشهد بنص من الكتاب المقدس يقدم له تابع بين يديه النسخة ليتلو منها ما يريد تلاوته.

فبالجمع في حفظ القرآن بين التوثيق بالكتابة، والحفظ في الصدور. يكون قد اجتمع بذلك القرآن عاملان للحفظ يدفعان عنه كل تغيير بالزبد أو النقصان. **إنا نحن نزلنا وننحن نرجعه**. فحفظه رب العزة بقوليين في الحفظ التي لا يستطيع أن يجادل فيها أي عالم، زيادة عن اليقين بتحقيق مضمون الآية عند المؤمنين.

و أتيت الآية بوصف الكتاب بأنه مبين، لذلك على أن شاهد إعجازه من نفسه، فهو في ذاته كاشف عن صدق الرسول مبين لذلك ومعروف لكل من يتأمل فيه أنه من عند الله، ليس لرسول الله قد دخل في نظمه، بلغة كما لوحي إليه به من عند الله عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام.

وإذا كان القرآن واضح البيان، إعجازه من ذاته، فعباد المشركين وإعراضهم عنه يكون جالياً لديهم يوم لا ينفع ندم، قد يكونون أن لو كانوا مسلمين في الجماعة الإسلامية. ثم إن هذا التعليل الذي دلت عليه كلمة - لو - هل هو تمس في الدنيا عند حلول الهزائم بهم، عندما يحاربون المسلمين بالسلاح ويحقق الله نصر المسلمين عليهم. لو هو عند حلول العذاب بهم يوم القيامة في جهنم، والتمس على المسلمين بالنجاة من النار وإدخالهم الجنة؟ الآية تحتمل الوجهين، وقد ذهب إلى كل منهما بعض المفسرين، وإن كنت أرجح الوجه الثاني لأنه هو الحالة التي تعم جميع الكفرة.

3- ذرهم بأستكروا ويتعتبوا...هشوف يعلمون.

هذه الآية قصد بها نهدي المشركين، ولذا يجب أن نفهم صياغتها على ما يؤدي إلى ذلك المقصد. افتتحت بوجه تعالى: **نؤمن** - هو صيغة أمر لم يسمع مضيه فهو متروك الاستعمال في اللسان العربي ومعناه: اتركهم، ولا نهتم بشاغلهم اهتماماً يحزنك. وقد نزلت الآية بمستواهم إذ للحقهم بالأنعام الذين ليس لهم هم في الحياة

إلا الأكل والشرب، والمتمتع بالشهوات. وتشتتلى عليهم الأمال التي يتابعونها في لهفة على تحقيقها. وما كان لها أن تتحقق لأنها سلسلة يولد كل أمل أملاً آخر فيجري وراءها الكفرة لاثمين. والخيبة تترصد لهم بمقدار ما تنسج أمالهم. وينسون بقوة تصاع أمالهم. ما كان يجب عليهم أن ينظروا فيه ويكونون على ذكر منه.

وقوله تعالى: **فسوف يحْمِلُون**، هي صيغة كثر استعمالها في التهديد بسوء العاقبة وأنه سيحل بهم ما لا يتصورون قطاعته.

4-5: وما أهلكنا من قرية... وما يستأخرون.

لما هدد القرآن الكافرين في الآية السابقة بفواله فسوف يعلمون، على أن نحقق الوعد مباني في المستقبل، بينت الآيةان سنة الله في تمليط العذاب على الكافرين، وإياداة مدتهم التي يتجمعون فيها. بينت ذلك على أن الوعيد لا يكون صفة، وإنما هو محدد الأجل مثبت مكتوب عند الله ميعاده. فلا يحل العذاب بأمة من المهلكين قبل الأجل الذي كتبه الله وضبطه في سابق علمه، كما لا يتأخر العذاب عن أي فرد ممن قدر لهم الهلاك.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ يُرْسِلُ إِلَيْنَا آيَاتُ اللَّهِ أَكُذِّبُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥٥﴾ أَلَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٦﴾ مَا عَزَلْنَا الْمُلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كُنَّا إِذَا تَعَالَيْنَا أَن نَكُنْ نَزِّلًا أَلَّا نَكُنْ رِزْقًا لَهُمْ نَحْفَظُهُمْ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغفر : الكلام الموحى به لينلى ويكرر.

المجنون : الذي اختل عقله حسب تصورهم من لثر من الجن.

أوما : حرف تحضيض.

النزول : الانتقال من علو إلى سفلى.

الحق : المقضى.

الإنظار التأخير.

بيان المعنى الإجمالي:

زعم الكفار أنه من المستحيل أن ينزل الله وحيه على رسول الله ﷺ، وأن ادعاءه أنه موحى إليه يقوم شاهداً على أن به حساً بعقله من الجن. ثم حرضوه لبائتي بالملائكة تشهد بصدقه إن كان من الصادقين حقيقة. ورد عليهم القرآن بأن الملائكة لا تنزل

على غير رسل الله إلا منفذة للعذاب المأحق المقدر للمكذبين الفاسقين. فلو نزلت عليهم الملائكة لما أجتأوا، ولحل عليهم العذاب للمأحق حالاً، وسند عليهم اليأس الذي يرجى لهم من الهداية.

ثم ذكر سبحانه خاصية من خصائص القرآن تؤكد أنه نزل من عند الله. هي أنه سبحانه قد تكفل بحفظ القرآن من التغيير. وبهذا يخالف جميع ما يصدر عن البشر لأنه معرض ولا يد للتغيير.

بيان المعنى العام :

6-7، وقالوا يا أيها الذي نزل عليه... إن كنت من الصادقين.

بعد أن هدت الآيات السابقة للمشركين بصفة عامة، أخذت هذه الآيات تتلقنهم وترد ما اعترضوا به، وما توهموه من سند لهم في كفرهم بالرسالة.

واجهوا الرسول ﷺ بكل وقاحة فقالوا له: من المؤكد أنك مجنون، على معنى: إنك في ادعائك أنك مرسل من عند الله ما يفهم الدليل أن بعثك مما من الجنون، تبعاً لاعتقادهم القاسد أن ادعاءه بتلقيه للوحي من الله لا يقول به عاقل سليمةً مذاكره.

ودعوة بأنه الذي نزل عليه الذكر استهزاء به. أخذوا بهذا المعروف من كلامه ﷺ وليس عقيدة لهم. والذكر الذي وصف به القرآن والوحي يفيد أمرين:

أولهما: أنه نزل لئنل، ويكرره على ما تفيد الكلاوة من الذكر والإعادة للحقائق التي تضمنها من العقيدة والتشريع والإرشاد.

وثانيهما: أنه بما أنزل عليه من الوحي ينتشر ذكرهم في العالمين، ويسمو مقامهم، قال تعالى: **إِن لَّعِزُّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ بَيِّنَاتٍ لَّيْهَ نَعْرِمَ لَكُلَّ مَعْشَرٍ** ^١.

وعرضوا عليه ملجئين له، يحثونه أن يأتي بالملائكة، يشهدون له بأنه من رزمة الصادقين، الذين التزموا بالصدق في أقوالهم. وليس عرضهم مماع شهادة الملائكة. ولكن ليقيموا عليه الدليل حسب زعمهم: أنه ليس رسولاً. ومن سوء أديهم أن شككوا في كونه من الصادقين بفرض ذلك مع حرف لن (إن كنت) التي خصصت في الكلام العربي بدخولها على الفرض لظليل المستبعد وقوعه.

8، ما ننزل الملائكة إلا بالحق... وإننا له نجاهلون.

سال المشركون في الآية السابقة أن تنزل عليهم الملائكة شاهدة للرسول بأنه من الصادقين، فعرفهم القرآن بأن إنزال الملائكة على الأكوام لا يكون إلا لتنفيذ العذاب

المقدر لهم. ذلك إن الملائكة ينزلون على الرسل حاملين للوحي هداية الله للبشر، وينزلون على المكثبين للرسل المتجاوزين لحدود الله لينفذوا العذاب الذي أمروا بتسليمه عليهم؛ فما ينزلون على غير الرسل والأنبياء إلا بالعذاب للمالحق الذي يستاصل المنزل عليهم. إنه لو نزلت الملائكة، فلن معنى ذلك أنهم يسحقون حالا ولا يؤخرون رجاء إقلاعهن عن الكفر. فما سألوه لو أجيبوا إليه لكان فيه إيمانهم.

هذا وقد سبق في محاوراتهم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: يا أيها الذي نزل عليه الذكر، يفسدون الاستهزاء به؛ فتولى الله إفحامهم بأن هذا الكتاب الذي يشككون فيه هو منزل من عنده، وأنه بالمكانة التي تولى حفظه بنفسه حفظاً ميزه بذلك عن جميع الكتب السماوية. فكان حفظ القرآن من تاريخ نزوله إلى اليوم وإلى أيد الأئدين لم يلا على كونه من عند الله. إذ لو كان نصاً للبشر يد فيه، لجرى عليه ما يجري على جميع الآثار البشرية. نكر القاضي عياض في المدارك أنه سئل القاضي إسماعيل عن السر في تطرف التغيير للكتب المسالفة وسلامة القرآن من التغير، فأجاب بأن الله أوكل للأخبار حفظ كتبهم فقال تعالى: **(بما مستحفظوا من كتاب الله)** وتولى حفظ القرآن بذاته: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** المدارك ج4 ص283-

باب جمل أخباره.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ ۚ وَنُتِلَىٰ فِيهِمْ نُبُوحٌ رُسُلُ إِلَّا تَكُونُوا بِهِ مُتَجِدِّدِينَ ۚ كَذَّبْتُمْ عَنْكَ ۚ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَلَوْ تَتَخَدَّ عَلَيْنِهِمْ فِئًا مِمَّنْ آتَيْنَا بِهِ تَدًا ۚ جُنُودٌ ۚ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَعْيُنُنَا ۚ وَفَرَّغَ قُلُوبُنَا ۚ فَمَنْ قَوْمٌ مُّسْتَحْزُونُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

الشيوع : جمع شيعه وهي الجماعة التي أمرها واحد.

الأولين : القرون الماضية.

تسلطه : السلك الإدخال.

المجرمون : كفار قريش.

السنة : العادة المكررة حتى صارت مألوفاً.

لقللوا : فعل ظل يدل على الدخول في النهار أي مع شدة وضوحه.

يخرجون : يصطون.

مكثرت : غيّرت إيصارنا عما كانت عليه.

بيان المعنى الإجمالي .

من المؤكد أن الله أرسل رسلا تتابعوا عبر القرون إلى الأمم الخالية. وأنهم قابلوا رسل الله إليهم بالكذب ثم الاستهزاء. ثم إنه على هذا النحو من النفاق وتحريك العقول يدخل الله القرآن في عقولهم فيذكروا خصائصه العالوية التي لا تكون إلا من قدرة فوق قدرة البشر. فيكفر المجرمون به وتقوم عليهم الحجة. ومضى الأمر على هذه السنة والطريقة من نفاق الوحي إلى عقول المرسل إليهم، ورفضهم قبوله عنادا، ثم بإزالة العذاب بهم. إن عذابهم لشديد، وأمره عجيب، فسأئثم لو فتح الله لهم بابا في السماء وفي وضع النهار، وأخذوا يرجون فيه زرافات ووحدانا ليكون ذلك دليلا على أني أرسلتك وأوحيت إليك، لقالوا: خدعت أبصارنا فلم تعد تقوم بوظيفتها كما كانت تفعل من قبل من أثر السحر.

بيان المعنى العام .**10- 11. ولقد أرسلنا من قبلك في شيع...إلا ستأثروا به يستهزئون.**

يُحزن الرسول ﷺ، غداً المشركين وإصرارهم على رفض الدخول في دين الله، والله معه يؤيده ويسليه. والأتان تسيران في هذا الميقات بعد استهزاء المشركين وطلبهم نزول الملائكة ليشهدوا له. فتضمنتا أن الله قد أرسل قبله رسلا إلى البشرية تتابعوا عبر القرون يحملون هدفة الله إليهم. وقد كان أمر المكذبين واحداً، يستهزئون بالرسول ومحضوا خبثهم ليحزنوهم بمختلف أنواع السخرية، وقومك لا يختلفون عن سبقتهم. كما قال تعالى: **فَلَا حِزْبَ لَكُمْ فِيهِمْ**.

12- 13. كذلك نصد لعلكم في قلوب المجرمين...سوءت خلت سنة الأولىين.

وعلى هذا النحو المشاهد من موقف الكفار من القرآن المنزل عليك، لدخل القرآن في عقول المجرمين، يسمعون ويفهمونه ويدركون مزياه، يهزهم ويحركهم، ولكن ما عزموا عليه من العناد والرفض ينتهي بهم إلى عدم الإيمان بالقرآن. وبهذا يكونون قد عرضوا أنفسهم للعذاب والهوان تنفيذاً للمقدر العادل فيهم. وهذه سنة الله مع المجرمين المكذبين من الأزل، أنه بعد دعوتهم للحق، وإقامة الحجج الواضحة عليهم، فإن من تمادى منهم على رفضه لما أنزله الله يلقى الخزي والعذاب. وفي ذلك تهديد محقق للمشركين من كفار قريش.

14- 15. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء...سبل لحق قوم مسحورون.

جسمت الأيتان مبلغ عناد المشركين، وأن ما طلبوا تحقيقه من المقترحات لا يفسدون من ذلك الانتهاء إلى الإيمان، ولا نصديق الرسول إذا تم ما حصول ما

طلبوه، ولكنهم يخفون أن ينفلقوا من الإنعسان للحق بمختلف المعانير . يقول القرآن : إنه لو فتح الله عليهم باباً من السماء فظلموا في وقت سطوع ضوء الشمس في النهار ، الوقت الذي تتميز فيه الأشياء للنظر تمام التميز ، تبعاً لوصوحها بشدة الإشراق ، وصعدوا إلى السماء فقاموا بالتجربة المحسوسة ، لو وقع هذا كله لكن تأويلهم أن يقولوا : إن إيماننا قد خدعت فلم تعطينا حقائق الأشياء كما كانت تعمل . وقد سحرنا فاختلط علينا الأمر حتى أصبحنا نشاهد أشياء لا حقيقة لها شأن بالمسحور .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَاقِبَتِهَا لِلنَّظِيرَةِ ﴿١٠﴾ وَخَدِيعَتِهَا مِنْ كُلِّ مُبِينٍ
وَجَعَلْنَا فِيهَا آثَافًا فَتَقَعُ آثَافُ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
لِهَا زُلْزِلًا وَأَلْجَأْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ مَوَازِينَ ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ مِيقَاتٍ عَمَلًا ﴿١٣﴾ وَلَهُ
سُزُوجِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا يَفْقَهُ ﴿١٥﴾ فَمَنْ
أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعْ بِرُوحِنَا فَأَرْسَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَقِقْ غُحُومَهُ وَمَا أَهْنَى لَهُ حَقْرُومُهُ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : جمع برج . وسياقي معناها في الشرح .

الرجوم : المبعذ لئله .

المشاهب : الشعلة الساطعة من النار .

مبين : من أبان بمعنى فصل ولبعد .

رواسي : جبال ثابتة .

خزائنه : المواضع الخفية .

نزله : نزل منه .

يقرر معلوم : بتقدير معلوم مقدما .

الأنفوح : تصرفات هذه الكلمة . تدل على الإخصاب وما ينفعه كاللبن^١

بيان المعنى الإجمالي :

من الثابت الذي لا مرأه فيه ، أن الله تبارك بخلق السموات ، وبناها على نظام محكم ثبين للناس منه مجموعات من النجوم الثوابت التي تعرف كل مجموعة منها عند

وصدها في الليل، مع نسبة موقع الشمس منها في النهار مما عرف في علم الأرصاد **بالمعروج** التي يعرف بها عند الشهور وتحول الفصول. كما حفظ السماء من رجس الشياطين، لكن من يحاول من الشياطين استئراق السمع يلحقه سريعا شهاب ناري يبعده ويفضي عليه، فاحتفظ العالم العلوي بأسراره. وقد بسط الله الأرض بسطا يتر به للإنسان الحياة بدون كبير مشقة، ولتبتها بالجبال التي حصل بها للتوازن، وأثبت فيها من أنواع النبات التي تبشر تركيبه على نمب، أمكن للنبات أن يكون ما هو عليه. وقد جعل الله في الأرض ما يعيش به البشر، وكذلك ما يعيش منه. أنواع كثيرة تصل بنفسها ولا تدخل للبشر في إعدامها، وبصفة عامة فإن كل شيء نافع هو من تقدير الله وخلقه، وهو المالك لجميعه، ويمكنكم مما شاء نعمًا لما قدره في علمه سبحانه.

الله هو الذي يحرك الهواء المحيط بالأرض بكيفية يكون ريحا يحمل اللافح من الزهور للذكران إلى الزهور الإناث، ويحمل الرطوبة فينقل للمحب بالماء الذي ينزل من السماء فيسقي الناس والأرض والحيوان. وعلى شدة حاجتكم للماء فإنكم لا تستطيعون خزنه فتزولونه عند ما ترعون في إنزاله.

بيان المعترض العام .

16- 18، ولقد جعلنا في السماء مرجعا. فلننبه شهاب ههنا.

أظهرت الآية السابقة أن المكثبين لو فتح لهم باب في السماء وتمكوا من المعروج ولولوج المناطق العلوية لاختلوا من المعاذير ما يواصلون به رفضهم للحق. وهذا للفرض الذي قصد منهم كشف عداهم، لا إمكان التحقق، كان مناسبة للتنبيه على ما في خلق السماء والكون ونظامه، من أدلة تغنيهم عما افترسوه من الأدلة على صدق الأصول.

بكل تأكيد، إن الذي نظم خلق السماء على قولين محكمة وثابتة بها تم سيرها في الكون هو الله سبحانه، ولا يدعي أحد أن له شريكا في ذلك، إلا الملاحدة الذين يزعمون أن خلفها ثم عيب الانفجار الكوني، وهي فرضية كسوها ثوب الحقائق العلمية؛ بنقضها شاهد العقل. ذلك أن الانفجار لا يكون إلا فوضويا، والنظام الكوني بلغ من البقاء كما تشهد به المكتشفات العلمية والمراسد العملاقة لبلغ المستويات من الحكمة. ولو لم يكن بناؤه على تقدير محكم ما استطاع العلم أن ينفذ إلى بناء الكون والعلاقات بين مكوناته، ولا أن يقدم خطوة.

لثبوت الآية 16 أن الله نظم السماء فجعلها مقسمة إلى بروج، والبروج هي ما وصلت إليه ملاحظة البشر في نجوم السماء في الليل ملاحظة بصرية تتابع، انتهوا بها إلى وجود مجموعات من النجوم ثابتة ومتراصة، ومتسلسلة بحيث لم يربط ما بينها بخطوط لتجمع منها ما يشبه صورة حيوانية كالأسد والعقرب، أو آلة كالميزان والقوس، ثم قارنوا بين سماتها في الليل وسمات الشمس في النهار فوجدوا أن الموقع يتغير كل شهر تبعاً لدوران الأرض. وبنوا على ذلك تقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً أو فصول السنة إلى أربعة فصول. وسموها بروجاً. ابتداء من الربيع - الحمل، والثور، والجوزاء، والمزحلج، والأسد، والسنبلة - الميزان، والعقرب، والقوس - الحدي، والدلو، والحوت .

إن هذا البناء الذي لم يخل على طول الملاحظة، والذي شارك المشركون في تنبئه والاعتراف بدقته نظامه، هو شاهد على أن هذا الكون تم إيجاده وتسييره بقدره الله وحده. وإذا ثبت أنه من خلق الله فنقتل ألوهية الأصنام، وإذا انتفت ألوهية الأصنام ونفرد الله بالخلق فإن مما يقتضيه نفرد الله بالخلق أن نفرد بالعبادة، والعبادة لا تكون إلا حبساً يرتضيه المعبود، ومبيل معرفة ذلك إرسال الرسل مؤيدين بالمعجزات، وكفى بالقرآن معجزة لسمحمد .

ثم أردفت الآية أن للخلق المحكم لم يقتصر على الدقة والنظام، بل أضاف إليه أنه سبحانه أراد أن يسبح على ذلك الخلق العظيم جمالاً يسبح السبحر ويمتدع الناظر . لقد حُجبت السماء عنا بالثبوت، فلم تعد نستمتع بجمالها الأخاذ، كنت مسافراً بين جدة والمدينة، وطلبت من سائق السيارة أن يتوقف فيما بينهما، وفراحت وركزت بصري في السماء وكان الجو صحواً لا تحجب السماء غمامه ولا تلوث ولا غبار. وبدأت لي قبة السماء مرسعة بالنجوم في منظر ما زلت أتملاه إلى اليوم ولرجع بذكريتي لاستحضاره فأجد من المتعة ومن اليقظة الروحية ما لا تستعفي اللمة ولا تساعني قدراتي للتعبيرية على تصويره تصويراً يأتي على تفاصيله فيجسمه للشارئ. إلا أنني أدعو كل مؤمن أن يتأمل في قبة السماء في الليلة الصحو بعيداً عن المدن ليذكر بقلبه ولسانه: **تبارك الله أحسن الخالقين .**

17- تفيد هذه الآية سراً من أسرار السماء، في هذه المسافات التي لا يعلم مقدارها إلا خالقها، ولا يعلم مكوناتها إلا هو، من المجرات السابحة في فلاكها وراء مجرة الشمس التي نحن نعيش في الأرض إحدى وحدتها، ولا تقاس الأبعاد بينها إلا بالسنوات الضوئية، هذا السر هو أن الله ظهر تلك المجرات من رحى كل شيطان

حقير لقول الله تعالى: (**إِنَّ الشَّيَاطِينَ كُفَرٌ أَسْرَحُونَ عَصِيَاءٌ**)¹ فهي محفوظة من العناصر الخبيثة التي تأتمر بأمر الشيطان.

والشيطان من جنس الجن لقوله تعالى: (**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**)² والشيطان وزيته كفره يعملون على إغواء البشر (**إِنَّ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءُ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**)³، ولما الجن فإن منهم من هو كافر ومنهم من هو مؤمن قال تعالى: (**قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى قُرْعَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنَّ شَرَّكَ بُونًا لِّهَذَا**)⁴ -

والذي يجب أن يعتقد المسلم أن الله كما خلق البشر خلق الجن، وطبيعة هذه المخلوقات تختلف عن طبيعة الإنسان، وهي مكلفة مسؤولة، وخصائصها الخلفية يعلمها خالفها. وإذا كان عالمنا الأرضي يحتوي على عناصر وقوى ما تم اكتشاف بعضها إلا في أواخر القرن الماضي، ولو عرض على البشر في القرن التاسع عشر أن أحدهم يكون في بيئته وراء الأبواب فيستطيع أن يرى وأن يتبادل الحديث مع محاوره البعيد منه عشرات الآلاف الأميال، لا يعتبر ذلك خرقاً وخيالاً ولا يمكن أن يتحقق في الواقع. وقام الدليل أن العلم النظري يفتح أبواب الإدراك كما تفتحها للحوس. فانه وهو الذي خلق الكون وهو المعلم وحده بمكوناته، وقد أخبرنا بالوحي بوجود الجن، ولذا فإنه يجب الإيمان بوجود هذه المخلوقات ولا يدخل في الإيمان تحديد موصفاتهما، فمن نفاه فقد كفر بما ثبت يقيناً بالوحي، ومن ادعى استحالة وجوده فقد ادعى استحالة ما هو ممكن وخالف مقتضيات العقل.

فأثبتت الآية أن الله حفظ السماوات من رجس الشياطين، لكن من حاول الصعود إلى مستويات من العالم العلوي، من الشياطين تبعاً لعدم كثافة مكوناتهم، قال تعالى: (**وَأَخْلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارٍجٍ مِنْ نَّارٍ**)⁵ . والشياطين من الجن، فإنه يصعد عن بسوغم مستوى يستطيع فيه أن يسمع محجوبات الغيب، فتكون محاولته فاشلة، ويقذف بشعلة من نار كيده ونسحقه، فتم حفظ للعالم العلوي ولا يطلع على أسرارته بقدراته إنس ولا جان.

19 - 22. والأرض مددناها وأثبتنا بسوما أقمم له بخازنين.

سورة مريم آية 44

الكهف آية 50

سورة الاعراف آية 27

سورة الجن آية 2/1

سورة الرحمن آية 15

ثم انتقل القرآن من العالم العلوي إلى الأرض التي على ظهرها يعيش البشر، فلفت الأنظار إلى بعض أسرار الخلق المحكم فيها.

(1) أنه بسر للإنسان ببساطتها، الانتقال بين أجزائها، وجعل فيها جيالا راسخات تثبتها وتحفظ التوازن بين أجزائها، وبسر إخراج التبات منها، وعرف أن تركيب التبات كان تركيبا موزونا على نسب دقيقة، بحيث لا يمكن للتبات أن يكون ماضيا إلا بفضل تحقق تلك النسب، فلو زاد أي مكون أو نقص ما وجد للتبات.

(2) كما جعل الله بكمال تقديره للناس كافة، ما يحفظ لهم حياتهم مما تخرجه الأرض - معاش - جمع معيشة ما يعيش منه. وكذلك تخرج الأرض ما يقيم حياة كثير من الكائنات ثقات من الأرض بنفسها دون أن يكون للناس دخل في ذلك.

(3) ولا يوجد أي شيء نافع في الدنيا إلا وهو من فضل الله على العالم به، وما يصلحكم إلا ما قدر الله أن يصل إليكم منه، لأن المالك له هو الله. بوجده بقدرته وإرادته بأمره الفلكوني، أو يتحول بقدرته وإرادته من صورة لا نفع فيها إلى ما ينفع الناس، فكان كل ذلك مخزون عنده يخرج من خزائنه ثم يمكنكم ما شاء منه حسب تقديره وحكمته. لا مدخل للصدفه فيما يصل إليكم منها لأنه معلوم عنده مقدما .

(4) ثم لفت الأنظار إلى الكلفة الهوائية المحبطة بالأرض، كيف يحركها سبعاته لتكون مخصصة، فيقول عن حركتها القصب والخيزر، إذا قدر الله ذلك، فتقل الفلاح بين الزهور بما يتولد عنه تكون الثمار، وتخصب السحب بما تنقله من رطوبة فتقل السحب وتنزل الأمطار، وكل ذلك بتقدير عجيب فتزل الأمطار التي من مائها يحق البشر وتمشي الأمجار والنباتات. وذلك من فضل الله. وهو وحده المتصرف فيه فينزل في الوقت المقرر لإنزاله. ولا تملكون التصرف في خزاله التي هي الله وحده.

وَإِذَا أَخَذْنَا فِي بُيُوتِهِمْ نَذِيرًا ۖ وَكَانُوا مُسْتَمِرِّينَ ۖ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِرِينَ ۖ وَإِنْ تِلْكَ حُجَّتُكُمْ إِلَى اللَّهِ فَذِكْرًا ۖ وَلَقَدْ عَلِمْنَا خَلْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

لَوْلَوْلُونَ : الإثرب بمعنى البقاء .

المستقدمون : الذين سبقوا من الأجيال.

المستأخرين: الذي سيأتون من الأجيال .

الصليصال : الطين الذي ترك حتى يابس.

الحماة: الطين إذا اسود فكانت رائحته كريهة.

المسخور : الذي طالبت مدة مكثه.

السموم : للريح الحارة .

بيان المعنى الإجمالي .

تكشف هذه الآية عن المتصرف في الحياة والموت، فتؤكد أن الله هو المتفرد بذلك ينشئ الحياة في الكائن متى أراد، ويسلبها منه متى أراد. ويتفرد الله أيضا بالبقاء يوم ينفي الأحياء. وقد أحاط علم الله بالأجيال التي سبقت ومضت في التاريخ، وعلى نحو علمه ذاك يعلم الأجيال التي ستوجد في المستقبل. وقد تأسست حياة البشر على قاعدة للمسؤولية التي تقتضي أن ينال المحسن جزاءه من التكريم، والمسيء جزاءه من العقاب. وهذا قد يحصل في الدنيا وقد لا يحصل. فاقترضت الحكمة الإلهية أن يبعثهم يوم القيامة ليقتضى فيهم القضاء العادل لأن الله حكيم، ولا يفلت أي إنسان ولا يغيب أي فعل من أفعال البشر عن الله لأن الله العليم العلم الكامل.

ثم كشف القرآن عن المادة الأصلية لخلق الإنسان التي لا يعلمها إلا الله. لأنه هو الخالق، فقال: إلى خلقت الإنسان من صلصال طين بيس حتى إنك إذا نقرته طن، هذا الصلصال أصله طين طال مكثه حتى اسود ونسئ، وقبل الإنسان خلقت الجن من ريح حار .

بيان المعنى العام .

23. وإذا نحن نحیی ونمیت ونحی الوارثون.

عطف القرآن على ما اختص به الله في الآيات السابقة مما يدل على تفرده بالأكووية، عطف على ذلك اختصاصه بالأحياء والإماتة. فأنه سبحانه هو المتفرد بإشياء الأحياء، وهو القادر على إحيائها بعد موتها، إذ القادر على إنشاء الحياة ابتداء، فزنته على إعلاتها أولى وأحرى. ثم إن هذه للكائنات التي يبيت فيها للحياة ثم يسلبها منها، يقتضي ذلك أن يكون المتصرف فيها هذا المتصرف هو الباقي بعد فنائها.

24 - 25، ولقد علمنا المستقدمين منكم . إنه حكيم عليي.

الآتيان . مع سدة اتصالهما بالآية السابقة لتناول مضمون الثلاثة ما يتصل بالحياة والموت، يضيفان لما تقدم: أن التصرفات الإلهية متباعدة عن العلم الكامل. إنه

سبحانه يعلم كل ما فعله الذين تخمومكم في الحياة من الأجيال التي أحيانا ثم أماتها، وكذلك يعلم ما سيأتي بعدكم من الأجيال التي يُحييها ثم يميتها. وإن تصرفه هذا وصوره عن العلم الدقيق لكل حدث منهم، ينتهي إلى حشرهم جميعا يوم القيامة ليحاسبهم عما فتموه. ويقوم دليلا على ذلك أنه حكيم لا يفعل ما هو عبث، فإذا كان إيجادهم في الدنيا واختلاف سعيهم فيها ثم امتلتهم، إذا كان ينتهي إلى فترة يقضيها البشر في الحياة ثم تنتهي حياتهم على ما يستهم من الاختلاف في السلوك والعمل من الخير إلى الشر ومن النفع إلى الضر ومن الطاعة إلى العصيان، بل قد يكون بعض المجرمين قد نال من نعم الحياة الدنيا حظا موفورا، وربما حرم بعض الصالحين فلم ينل من الرفاه إلا حظا قليلا، لو كانت الحياة الدنيا هي نهاية مرحلة الوجود، لاستوى الخبيث والطيب، والله يقول: **قل لا يستوي الخبيث والطيب**، ولما كان للمسؤولية، التي هي شرف الكائن البشري، الأثر الحتمي، فحكمه الله نوجب للبعث، وعلمه يقتضي أن لا يغيب عنه أي عمل قام به الإنسان في الحياة الدنيا، كما لا يقلل أي إنسان من حضوره يوم البعث.

26-27. ولقد خلقنا الإنسان من صلصال - من نار السموم

خلق الإنسان سر لا يعلمه على حقيقته إلا الله، وهو سر مثير، لما في خلق الإنسان من خصائص عجيبة، فهو على محدودية قواه الجسمية استطاع أن يتصرف في الكون، وأن يخضع القوى العديدة لمصلحته ويحكم فيها، ويسع عقله الحاضر، ويتبع ما مضى فيتصوره تصورا يكاد يكون مطابقا لما وقع، وما يزال يبني على ما وصل إليه من اكتشافات وما وصل إليه غيره فيتقدم بالمعرفة أشواطا، وهو حادث ولكل حادث بداية، فكيف تمت بداية الإنسان؟ قامت افتراضات رضمها كثير من العلماء في القرنين الأخيرين، وهدمها ما وصل إليه العلم بعد دراسة الجينوم البشري، الذي أثبت حسب قول العلماء تفرد السلسلة البشرية واختلافها عن جميع المخلوقات الأخرى. وبقي السؤال بدون إجابة عند من لم يؤمن برسالة الإسلام.

ولما كان الله هو الخالق للبشر، وأنه المتحكم في وجودهم وفي مصائرهم كما جاء في الآية السابقة، أراد سبحانه أن يكشف للبشر شيئا عن سر الوجود البشري ليكون دليلا على القدرة الكاملة والحكمة، فأعلم في هذه الآية أن الإنسان خلقه الله من مادة: هي صلصال، طين ترك حتى ييس وصار طين إذا تقرر، هذا الطين هو طين قد اسود من طول المكث، وتغيرت رائحته إلى رائحة كريهة، إن ما كشفه القرآن يضاعف العجب. ويقوم في أن ولحد مذايا بكمال القدرة الإلهية، كيف كان هذا هو

أصل خلقه الإنسان المتميز المستخلف في الأرض، ويبرز من جانب آخر أن أمره سبحانه في التصرف: أنه إذا أراد شيئاً أن يكون، بأمره فيكون، ولا يتوقف تنفيذ إرادته على أن يكون الإنسان من معادن نفيسة لها خواص تفوق بقية العناصر. ولما تسلط على الإنسان الأول، الذي خلق من صلصال من حمأ مسنون، تسلط عليه الشيطان فأغواه وأفسد عليه حياته وما يزال يواصل إضلاله، والشيطان من الجن. فناسب أن يظهر للبشر القدرة الإلهية في أصل خلق الجن، فقال: والجان خلقناه قبل خلق الإنسان من حرارة مختلطة بهواء، من نار السموم. وبقيت، رغم الكشف عن الأصل، التحولات التي وصل بها الإنسان إلى ما هو عليه اليوم، والتحولات التي طرأت على نار السموم حتى تكون منها الجان من أسرار العلم الإلهي. فبارك الله أحسن الخالقين، الذي أحسن كل شيء خلقه.

وَأَذَانُ قَالَ: إِنَّكَ لِلْمَلِكِ إِلَى خَلْقِ بَشَرٍ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُوبٍ ۖ وَإِذَا سَوَّيْتَهُ، فَنَسَخْنَا مِنْهُ مِمَّا يَشَاءُ الْمَلِكُ ۖ كُلُّهُمْ لَعْنُونَ ﴿١٥﴾
إِلَّا إِبْلِيسَ أَنْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَلَكِ ۖ يَبْتَغِ الْإِنْسَانَ بِمَا كَانَتْ يَدَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ السَّاجِدِينَ ۖ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَكَ أَتَا ۖ قَالَ بَلْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُوبٍ ۖ قَالَ لَأَخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنْ عَلَيْنَا الْآفَاقَةُ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

سويته: التصوية تعديل ذات الشيء.

لعنت: أحدثت قوة خفية لعيلة السريان قوية التأثير.

رجيم: مطرود.

عليك اللعنة: اللعنة الطرد والإبعاد على طريق المسخط، وهو دعاء بالسب وتحقير لوقوعه عليه.

يوم الدين: يوم الجزاء.

الإنظار: الإمهال والتأخير.

بيان المعنى الإجمالي:

أعلم الله ملائكته بما سينفذ من خلق بشر إنسان، مادة خلقه طين يابس وجف بعد أن مر عليه زمن طويل اسود فيه وتنن ريحه، وأن عليهم بمجرد ما يتم خلقه ويبلغ كماله ينفخ الروح المملوكة لله فيه، عليهم أن يسجدوا له تحية إكبار وتقدير، لا

عيداًه وتاليه. وقام الملائكة بما أمروا به فسجدوا له إلا إبليس الذي كان مخاطباً معهم فإنه امتنع أن ينضم إلى الساجدين المطيعين لأمر الله. ومآله الله عن السبب الذي من أجله لم ينضم للساجدين وتفرّد بالخلاف. كان جوابه فيه اعتراض على الأمر ومنقشة لمعقوليته.

بيان المعنى العام :

وصفت هذه الآيات ما تقتضيه بخلق آدم عليه السلام. وقد مضى قريب منه في سورة البقرة، ونظراً لما في قصة خلق آدم وما تقتضيه بها من المعبر أعيد ذكرها أكثر من مرة في القرآن، وتجد في كل مرة فوائد جديدة، وصياغة بخصائص تمييزية لها وقها. فلتتابع الطريفة التي عرض بها القرآن قصة الخلق في هذه السورة:

28- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ لِمَنْ حِمَا مَسْنُونٍ.

أولاً: أعلم الله ملائكته أنه قد خلق بشر (إنسان) والمادة التي سيتم منها إيجادها: صلصال. كان قبل ذلك طينا مضى عليه من الزمن ما نغير به لونه إلى سواد، وأثر ذلك في راحته فهي تبعاً لذلك نكتة.

29- فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنُفِثَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ.

لزم الله ملائكته أن يسجدوا لأنهم عند إتمام خلقه المكون من أمرين:
أ- عندما تجتمع العناصر التي بها يتم تميزه، من الصورة والمولد الأساسية في بنائه الخاص، فيكتمل.

ب- عندما يتم نفخ الروح فيه، أي عندما يتحول من صورة مادية وشكل خلص لا حياة فيه إلى كائن يتحرك وتعمل حواسه وفكره ومشاعره. فليس نفخ الروح عبارة عن هواء ولكنه عبارة عن مزيان مقومات للجنس البشري التي بها يتميز عن بقية الكائنات. أما كيف يتم ذلك فهو من سر الخلق والحياة الذي لم تكشف عنه الآية. وذلك لأن المستوى الفكري للإنسان لا يستطيع أن يفهم سر الروح. ونسبة الروح إلى الله هي إضافة خلق وملاك.

والسجود هو سجود الملائكة الذي يختلف عن هيئة السجود التي يقوم به الناس، وذلك لأن سجود البشر يوضع الجبهة على الأرض على هيئة مخصوصة يكون عليها الساجد. وخلق الملائكة شيء آخر بعيد كل البعد عن خلق الإنسان، فليس لهم جباه ولا أعضاء. وبهذا يرتفع الإشكال: كيف يسجد الملائكة والسجود محرم لغير الله؟ فنقول إن السجود تحية من الملائكة تحية تقدير لآدم عبر عنها بالسجود. والسجود المتنوع هو ما يمكن أن يدل على الخضوع الكامل والانتهاز بأوامر المسجود له على وجه التعظيم.

30-31. فسجد الملائكة كلها أجمعون...أبى أن يكون مع الساجدين.

ثانياً: أطاع الملائكة الأمر. فبمجرد ما ظهر آدم بشراً سوياً، قابله كل الملائكة بالسجود له كما أمرهم ربهم، ولكن خرج عن الجماعة فرد واحد لم يسجد، هو إيليس فقد امتنع عن قصد وإصرار، وأبى أن يسجد مع الساجدين.

32-قال يا إيليس مالك...ألا تكون مع الساجدين.

ثالثاً: أوقف الله إيليس ليسأله، لما إذا لم تسجد وقد شملك وبلغك الأمر العظام بالمجود. ولم يدخل في زمرة الطائعين للأمر الإلهي. ويتبين أن الله يعلم الأسباب الخفية التي حاكت في نفس إيليس، فلماذا يوقف ويسأل ؟ أرى أن في ذلك تعليماً للدارس حتى لا يستند القاضي لعلمه ويرتب عليه الحكم. فإنه إذا كان الله يعلم مقدماً ما يجب به إيليس، فإنه مع ذلك أوقفه وسجل عليه جوابه.

33-قال ثم أكن لأسجد لبشر...من حما مستون.

رابعاً: كان جواب إيليس أنه لا يتصور منه بحال من الأحوال (لم أكن لأسجد) أن يسجد بتحية التقدير لآدم لظفر. وصرح بأنه أعلى من أن يسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مستون حسبما أعلمهم الله لما أمرهم بالسجود، جمع إيليس بين عصيان الله، والاستكبار، ورميه رب العزة بالنقص وعدم الحكمة، إذ رفع الوضع حسب ظنه (أنه) وحط من قيمة الرفيع (إيليس) وبمجموع ذلك تحط إيليس إلى درك الكفر. وخلق رتبة العبودية له، وجعل ظنونه مقدمة على الطاعة.

34-35. قال فأخرج منه فألقه رجيم...إلى يوم الدين.

خامساً: عاجله العقاب ولم يمهله، فأمره أن يخرج من المقامات التي كان فيها. قد تكون الجنة، وقد تكون ظروف مقدسة كان يعيش فيها مع الملائكة. وأنه أبعد إبعاد إهانة شأنه شأن الطريد الذي يلحقه الاحتقار والذل. وأنه ملعون طريد يتوالى عليه الدعاء بالطرد. ويتحقق عليه الهوان والخزي فلا يفصلان عنه، وأن ذلك سيصحب ويتوالى عليه إلى يوم البعث. اليوم الذي سيلقى فيه جراه كفره واعتراضه على للحكم الإلهي، وللعذاب الآخرة أشد.

قال رب فانتظرنى إلى يوم يبعثون ﴿٣٤﴾ قال أولئك من المنظرين ﴿٣٥﴾ إلى يوم الوقت المعلوم ﴿٣٦﴾ قال رب ما أغرتنى لأرغبن لهم فى الأرض ولا أغرتهم أخمين ﴿٣٧﴾ ألا عبادك منهم المخلصين ﴿٣٨﴾ قال منذ جرت على مستقيماً ﴿٣٩﴾ إن عبادى

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا سَيِّعُ الْأَنْبَاءِ لِكُلِّ نَبَأٍ مِنْهُمْ خُزٌّ مَذْمُومٌ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغزيين : للتخسيس بما يثير الميل.

مؤذنه : محسبهم إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب إبليس من الله أن لا يجعل عليه العقوبة التي يتسحقها، وأن يؤخره إلى اليوم الذي يبعث فيه البشر يوم القيامة. أعلمه الله أنه قرّر إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم عنده في الأزل. ثم قال إبليس: ربّي بسبب إثوانك لي، فإني سوف أمحض كل خبيثي ومكرّي لأزوين للناس لجمعين الباطل والردبالة إلا عبداًك المخلصين فأنا لا أضلهم . فعه الباري بأن انقسام البشر لصالحين وعاوين أمر قد قدره، وصراط مستقيم قرره في الأزل، فتفسير فيه البشرية مقسمة إلى ضالين ومخلصين. وإن إبليس أحقر وأخزى من أن يكون له سلطان على البشرية يسيرها في الملهج الذي اختاره، ويقول الله وزيادة على ذلك فإن موعد الغاوين، وإبليس وجنوده منهم، هو إلى جهنم التي لا تفلت أي واحد من الغاوين، يتوزعون على مدخلها من الباب الذي قدر الله لكل دخل دخوله منه.

بيان المعنى العام :

36- 38، قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون...إلى يوم الوقت المعلوم.

طلب إبليس من ربه، وقد علم الحكم المسلط عليه وأيس من العودة إلى المقامات التي كان يعيش فيها، طلب منه أن يؤخره، ولا يجعل بالقضاء عليه وأن يبقيه إلى يوم البعث.

أعلن الله أنه سيبقيه إلى يوم محدد لجله، هو وقت ثابت في علمه لا يتأخر ولا يتقدم، والذي يستروح من الآية أن الله أعلن ما قدره في الأزل من أنه سينظره إلى الأجل المحدد، وأيس ذلك استجابة لدعائه، فهو أهون من أن يستجاب له دعاء، شأنه شأن المغصوب عليهم الفسقة الضالين.

39- 40، قال رب فيما أضويته...إلا عبادك منهم المخلصين.

ما كان هذا الإنظار لإبليس استجابة لدعائه، ولكنه تنفيذ للفسد الذي رتبته الله: أن البشر الذين سيبتخفون في الأرض مكلفون وغير معصومين، وسيأتزون بجملة

من المؤثرات، وأنه قدر أن يسلط إبليس لإغواء من الآن قلبه وعواطفه لإغوائه. فبقاء إبليس يساور حياة النوع الإنساني على وجه الأرض من القدر السابق في علم الله .

وإن تبين للإبليس أنه سيعمر في الدنيا ليكشف حقه للناس عن حسده لأدم ولزويته من بعده، خاطب عندها ربه رب العالمين كاشفا عن الشر الذي استلأ به قائلا: رب بسبب ما خلقتني عليه من الغواية والإضلال، فإني سأبذل كل طاقتي ومحض نشاطي بإلهاء البشر عن الحق، وللميل إلى النواحي المؤثرة فيهم التي أغرس في قلوبهم حبها لما فيها من اللذة التي تأخذ بعواطفهم، فأحسنها لهم، بما يحلها راحة في اختياراتهم، فقلوبهم عن الواجبات وعن الحق، وتقرب للذيلة منهم. وأنجح حسرتهم بسبب أن كيدهم مفول، وتزيينهم يعرض عنه عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وتعلقوا به، فحين استقر في قلوبهم أن متاع الحياة الدنيا وشهوات النفس تنهلوي، أمام ما اهتوا إليه من حب للفضيلة وتعلق بربهم، فاستنداهم على أنهم خارج نطاق تأثيره.

41- 44. قال هذا صراط علي مستقيم .. منههم جزء مقصود.

وضع البازي سبحانه الأمور في تصايفها، وصفع إبليس لما حقق سبحانه أن عباده المخلصين لا سلطان له عليهم، وأن إغواءه لغير المخلصين هو ما قدره أن يكون عليه الأمر في الأزل، فهذا هو الصراط المستقيم الذي جرى عليه أمر التفكير، وعلى الله تحقيقه بإراده وقوته.

و الشيطان وإن كان خبيثا شديدا يعمل على إضلال الناس وصرغهم عن الهدى وطريق النجاة، هو أضعف وأحر من أن يكون له سلطان على البشر بقوة وعكره وخبثه، وإن عباده مباحته لا يتسلط عليهم سلطان الشيطان لأنهم بشر . على معنى أن البشر ليسوا مفلوذين على الشر، ولكن الذين يعملون عن هداية الله ويتبعون ما يملئ عليهم الهوى وحظوظ النفس الأمارة، هم الذين يجد طريقا لمضاعفة انحرفهم ويتسلط عليهم، فهم غاؤون فطموا صلتهم بالله وبالفضيلة، ووجد الشيطان في هذه النفوس المتعينة تبعا لوهم عزائسها البيئة الرخوة التي تنسجم مع ما يزينه لها من الفساد. وبالمقابل فإن الذين أخلصوا دينهم لله، وكانت صلتهم به حاضرة ومشرقة في قلوبهم، فإنهم يمتنعون عند وسوسته الأولى نعم الله عليهم وجمال الطاعة وتبجح المعصية، ويثور في نهمهم تبعا لما روضوها به من حب الفضيلة والحير والاشمئزاز من الرذيلة والشر، يثور في بواطنهم ما يهدم وسوسته ويطرده نسلته. فلا يكون له عليهم سلطان.

و كشف القرآن عن مصير الغافلين الذين اتبعوا شهواتهم وانغمسوا في الرذيلة، وفسدت عقائدهم فأشركوا بالله، وتآثروا بوسوسة الشيطان وبمسا زين لهم فافخدوا. إن مصيرهم إلى جهنم يوم القيامة يدخلونها أجمعين لا ينقذ أحد من العقوبة. وصف القرآن جهنم بأن لها سبعة أبواب، وهذا من أمر الأخرى الذي لا يقاس بما هو معروف في الدنيا. فلو سبقت الأبواب ذات مصاريع، وليست لها القفال كالقفال الأبواب في المنازل، ولا هي مما يدرك سعته بغافلين الدنيا، ولكننا نفهم من النص القرآني أنها سبعة مداخل أو مداخل متعددة، وأن كل داخل ممن غضب الله عنهم يصرف إلى الباب المقرر له الدخول منه. فليس مداخل المشركين المعتاة الذين فسوموا الرسل وأنهم رجالوا بين أتباعهم وبين الدخول في ديسن الله، كمدخل من قصر في للنظر فكفر، الظاهر أن هناك تناسيا بين كل باب ونوعية الفساد الذي سبق من أجله الغاوي إلى الدخول منه إلى جهنم. أعلننا الله منها بمن دكرمه.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٠﴾ أَذْخَلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٠١﴾ وَزَعَمْنَا مَا فِي
صُحُفِهِمْ مِنْ ظُلْمٍ ﴿١٠٢﴾ إِذْ نَادَىٰ عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقُوهٓ إِنَّ فِيهَا نَسَبًا وَمَا هُمْ بِأَعْيُنِهَا
يُتَخَفُونَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

العين : المكان الذي يخرج منه الماء من باطن الأرض.

أعنيق : لا بشعرون بالخوف أبداً،

القرن : المضمّن والحقد.

میرزا جمیع سربز محفل مرتفع ممکن الاضطجاع علیہ.

متقابلين، كل واحد قبالة الآخر يانمين به.

المس : الإصابة.

النقص : القُصْب.

بيان المعنى الإجمالي :

وصفت الآية ما أعده الله للمتقين من ضروب التكريم يوم القيامة. منازلهم جنات، ظاهرة الخصب فيها بيئة. يتدفق ماء العيون الجارية خلالها، ويتجاوزو التعيم الجانب المادي إلى الجانب الروحي والنفسي. فيتلقون التحية بالسلام من ملائكة الرحمن عند دخولهم، وتصفى قلوبهم من آثار الحقد. لكل واحد يشعر بالأخوة والمحبة الجامعة بينه وبين إخوانه من المؤمنين، تتابع اجتماعاتهم وهم في انس وراحة على

سرهم. يجد كل واحد منهم وهو يستمع إلى أخيه لكلام الرفيع الذي يبهج العقل والسمع، فيقبل على أخيه في شغف، لا يلحفهم الإغواء ولا يحل الخوف من انقطاع ما هم فيه، أمثوا لبقاء فيها وعدم الخروج منها.

بيان المعنى العام :

46- 48، إن المتقين في جنات وعيون... وما هم منها بمخرجين .

هي طريقة القرآن في التأثير على القارئ ليستقيم ويؤمن به، فهو يزواج بين التهديد ووصف جزاء الكافرين، وبين التشير ووصف نعيم الآخرة. وهو في الصالحين يحرك للعقول والمشاعر ليقبلوا على هدي الله الذي تعبه سعادتهم في الدنيا والآخرة. فبعد أن ذكر شيئاً من هول جهنم التي تتفتح أبوابها فلا يفلت أحد كتب عليه العذاب من دخول الباب الذي قدر له الدخول منه ؛ بعد ذلك أخذ القرآن يصف شيئاً مما لآخره الله للمتقين من عياده للمخلصين، فذكر من النعيم المادي أن منازلهم جنات عديدة، بنعم كل فرد من العتقين بما خصه الله به من تلكم الجنات التي تلبس كل ما يمكن أن يحب أن يجده. وهي تتفق فيما بينها في الناحية المادية فالخصب طاهرة شائعة فيها تتدفق خلالها العيون الجارية، كما تتفق في الحالة التي عليها المكرمون بدخولها، فهم:

لولا؛ يكرمون عند دخولها بالسلام عليهم: التحية التي هي شعار أهلها، كما قال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم**. ويحل في قلوبهم الأمن ويذهب الخوف وهو ما يحقق السعادة، إذ لا سعادة مع حلول الخوف في النفوس.

ثانياً؛ أن الله ينزع من قلوبهم ما كان عالقاً بها في الدنيا من الحقد والبغض، فتتسرح مشاعرهم بالمحبة، وتعمر عواطفهم بألس الأخوة الجامعة ؛ وتظهر آثار ذلك في اجتماعاتهم، فهم في راحة تامة هينت لهم المرور التي يجدون فيها كامل الراحة، ويجري بينهم من الأحاديث التي لا لغو فيها ولا سقط، مما يجعل كل واحد منهم يجد لذة الإقبال على أخيه يسمع منه، فيحصل في عقله اللذة التي يجدها العلماء الصالحون في محاوراتهم السامية.

ثالثاً؛ أن نشاطهم لا يلحفه الإغواء، فهم في حيوية متدفقة ومتواصلة.

رابعاً؛ أن للحز من لحوق ألم يقضى فيه ما خصموا به من نعيم لا يتخلل في حسابهم، أمثوا من الشعور بالحرم، ومن الخروج من منازلهم في الجنة .

• **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي أَنَا الْمَغْفُورُ الرَّحِيمُ ۖ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۖ وَتَتَّبِعُهُمْ**
غَرَضٌ مِنْهُمْ ۖ إِذْ خَلُّوا عَلَيْهِ ۖ سَأَلُوا سَلَمَةً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ رِجَالُونَ ۖ قَالُوا لَا
تُؤَخِّرْ إِنَّا نَبْغِزُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ۖ قَالَ أَتَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ نَسْمِيَ الصَّبِيَّ لِمَنْ لَا يُبْغِزُونَ
ۖ قَالُوا شَرْتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُ مِنَ الْفَاسِقِينَ ۖ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

نبي: أمر من نبي إذا أخبر بخبر فيه فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

الوجل : الخوف.

الغلام : هو إسحاق الطال.

علوي : أفتح عليه ما يحصل له به العلم الواسع، فهي صيغة مبالغة.

قنط : ينس.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه آية كاشفة عن مسؤولية الإنسان، ذلك أن من صفات الذي استخلفه الله غيور
رحيم لمن أناب واستغفر. ولله شديد العقاب لمن أصر واستكبر، وأعظمهم بهذا
الحبر الهام الذي تم بين إبراهيم وللملائكة الذين قدموا فباذروه بالسلام ليذهبوا
وحشته منهم. وعرفهم بأنه كان خائفا منهم. قالوا له: لا تخف إنا نبشرك بك أنك
ستكون أباً لغلام يعلمه الله فيبلغ به مستوى راقياً (عليه). كانت الإشارة بعد أن
تقدمت سنة ومثله في ذلك العمر لا يولد له فسأل سؤال تثبت، هل تقصدون من
بشارتكم ليأي أنه سيولد لي غلام فعلا، لو هي بشاراة تؤول على معنى خير
ميتفضل به علي رب العالمين ؟ أجابوه: فعلا سيولد لك غلام ونحن نريد الحقيقة،
فلا نجعل معطى تقدمك في السن سببا لدخول اليأس في نفسك، مما يدعو للتأويل
تبعاً لما جرت عليه العادة، نفى إبراهيم الله أن يكون مبعث سؤاله القسوط واليأس،
وأخرج جوابه في صورة سؤال إنكاري، لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، أي
إله على هدى من ربه، إذا كان الله من أوضح الناس إيماناً.

بيان المعنى العام :

49-50، النبي عيسى ابني أنا المغفور الرحيم...هو العذاب الأليم.

أعلم يا محمد عبدي بهذا الخبر الصادق الهام. لني لنا الله المتصرف في لكون العليم بكل ما يجري فيه. إلي أغفر الذنوب وأمحو آثارها وبني عظيم المغفرة، فلا يئس عبدي من مغفرتي متى ما أدبوا إلي، وتعلقوا بولسع رحمتي. ولذا قرن سبحانه وصف الغفور بالرحمة، للدلالة على شدة الاتصال بينهما على أن المغفرة وسر الذنوب مرتبط بالرحمة الواسعة. قال تعالى: **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ لِسُوءُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّهُ يَنْفَخُ فِي الْخُذُوبِ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** . فكانت هذه الآية ونظائرها فاتحة لباب الأمل في القلوب، طاردة لليأس، داعية المذنبين إلى الإجابة. إن الغفور الرحيم إذا ستر ذنوب عباده في الدنيا، فإنه بذلك ينقذهم من فضله سيتواصل عليهم يوم القيامة. فلا يئس من رحمة الله المذنبون الثابتون. إذ اليأس دافع للتمادي في المعاصي. والله يحب أن يتوب عباده قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** .

وقد أراد الله عنما خلق آدم أن يكون هو وفريته مسؤولين عن أعمالهم، مسؤولية لا تخرجهم من الأمل إلى القسوط، فصدر بعضهم مغفرتهم وولسع رحمتهم، ونشأ بليغاتهم إلى ما يترتب عن العصول من مواخضة وعذاب اليم. فكانت التربية القرآنية تجمع بين طرفي الرجاء والخوف، فلا يغلب عليهم الرجاء حتى تحل عزائمهم ويبعوا شهواتهم فيفسدوا في الأرض ويخيروا في مهمة الاستخلاف، ولا يئسوا ويطلب عليهم الخوف فيبعدوا عن فعل الخير.

51-56، وينبئهم عن ضيف إبراهيم ... (إلا الضالون).

إن تلكم الحقة التي قررها القرآن من للمغفرة والرحمة، والعذاب الليم لمن رفض العمل على ما يدخله في المغفرة والرحمة، أتبعها بقصتين من واقع الحياة، لتؤكد للناظرين ما نضمنه للتعريف الإلهي. هما قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام. فنضمنت قصة إبراهيم:

أولاً: أنه دخل على سيدنا إبراهيم الخليل ضيوف لا يعرفهم، ابتدأوا بالسلام ليطمئن لهم ولا يأخذ حذرهم منهم، وكشف لهم عما حاك في صدره من مباحثتهم له، والله خاف منهم لولا مبادرتهم بالسلام.

ثانياً: مضاعفة في تأنيبه ليلقوه ما أمروا به من تبشير بأنه سيولد له غلام، وأنه ينشأ في رعاية الله فينولاه ربه حتى يصيح عالماً كبيراً بالحقائق والتشريع. وقد تقدم في سورة هود ما تبع ذلك من استغراب زوجته وما رفع به للملائكة عجبها.

ثالثاً: أضلّت هذه الآية أن سيدنا إبراهيم شارك امرأته متعجباً من البشارة، ذلك أنه يحس بأن تقدمه في العمر أثر فيه ضعفاً، فراجعهم ليتبين مقصدهم من البشارة، هل يقصدون أنه سيولد له فعلاً غلام، أو هو من الكلام الذي يؤول على أنه خير قائم؟ ولذلك غلب سماعه للبشارة بقوله: فبأي شيء تبشرونني، لأصحوا عن مرانكم ؟ كان جوابهم راجعاً لكل احتمال: بشركناك بشارة ملائسة للحق لا تكوّل فيها، فلا تكن قاتلاً من فضل الله عليك جرباً على ما آلفه الناس في مثل عمرك.

ونفى إبراهيم أن يكون موجب سؤاله هو اليأس من رحمة الله، وأعلن ذاكرةً للحقيقة التي صاغها في صيغة قاعدة كلية على طريق الاستفهام الإنكاري: لا ييأس من رحمة الله إلا اللوم الضالون عن الهدى وعن واضح الإيمان، ولنا مؤمن.

قال فلما خطبكم أيها المرسلون ﴿١٠﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴿١١﴾ إلا نال لوط إنا لم نجعلهم أجمعين ﴿١٢﴾ إلا امرأة قدّرنا إنا لمن الغيبيات ﴿١٣﴾ فلما جاء نال لوط المرسلون ﴿١٤﴾ قال إنكم قوم منكرون ﴿١٥﴾ قالوا بل جفتك بما تكاثروا فيه بمنزوت ﴿١٦﴾ وأقمتك بالحق إنا اضدوقوت ﴿١٧﴾ فاستمر بأهلك يقمّع من الليل وأتبع أذنبرهم ولا تخفهم بمكنا أخذ وأمضوا حيث تؤمرون ﴿١٨﴾ وقضينا إليه ذلك الأرزاء ذابره هؤلاء مغلول مصبحين ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الأمر والشان، وغلب استعماله في الأمر الشديد.

الغايبين : الذاهبين الهالكين.

منكرون : لا نعرفكم.

يمنون : يشكون، وهو العذاب .

بالحق : الخير الصادق .

أمر : سراً بهم ليلاً.

القطع : الجزء الأخير من الليل.

اتبع أديارهم : جعلهم أمامك.

إلى حيث تؤمرون : إلى المدينة التي سوف نعين لكم.

وقضينا : حتمنا.

داير : أصله آخر، والمعنى من أولهم إلى آخرهم.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل إبراهيم الخليل الملائكة عن المهمة التي أوكلت إليهم، فأخبروه: إنا أرسلنا إلى قوم استقر الإجرام في نفوسهم، لنرسل عليهم العذاب المقدر لهم، وهم القوم الذين دعاهم لوط إلى الإكلاع عن الفاحشة، فأعرضوا عن دعوته، وواصلوا قبوح فعلهم. ولكن نمكن آل لوط من النجاة، إلا امرأته فقد قدرنا أن تكون مع المهلكين. ثم دخل الملائكة على لوط الخليل، ففكرهم وعبر لهم عن ذلك مستفسرا عن نسبهم، فعرفوه أنهم ملائكة الله جاؤوا ليحققوا ما كان قومه يشككون فيه من نزول العذاب بهم، مؤكدين بقولهم: أتيناك ملا بسين الحق وإنا صادقون فيما أخبرناك به، فأخرج وأخرج معك أسرتك في آخر الليل وكن وراءهم، ولا ينظروا أحد منكم إلى المنازل لتنتي خراجهم منها، وواصلوا سيركم إلى المكان الذي سوف تؤمرون بالنزول فيه. ولوحى الله إلى لوط أن العذاب سيتأصلهم جميعا من أولهم إلى آخرهم مع وقت الصبح وشروق الشمس.

بيان المعنى العام :

57 60: قال لما خلبتكم أيها المرسلون فقد عرفنا إنها لمن الظالمين.

لمس إبراهيم الخليل بحديثه مع الملائكة وزال ما وجده من نكارة أول الأمر، فتوجه إليهم بالسؤال: ما هو شأنكم أيها المرسلون، وما هي المهمة التي أوكلت إليكم ؟ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون على الأمم إلا وهم موكلون بأمر عظيم تنفيذا لأمر الله .

لجأ الملائكة: بأنهم أرسلوا إلى سنوم القرية التي كان لوط يدعو فيها قومه ليصرفهم عن الفاحشة التي ألفوا إتيانها، ونمكن الإجرام منهم وشاع فيهم المنكر، وواصلوا معرضين عن دعوة سيدنا لوط متلبيين عليه: أرسلنا للنزل بهم العذاب المقدر لهم، لكن سننجي آل لوط أي أسرتك من العذاب النازل، ولا ينسحب هذا الاستدراك على امرأته إذ قدرنا أنها من الهالكين، أي اللبائين في العذاب.

61 66: فلما جاء آل لوط المرسلون... فمقتلوهم صبحين.

بعد استقبال إبراهيم الخليل للملائكة وما أكرم به من الإشارة، وإخبارهم بإيه بأنهم ماضون إلى سيدنا لوط الخليل لتنفيذ ما قدر لقومه المجرمين من العذاب، واصل الملائكة سيرهم نحو لوط ولما دخلوا عليه تقرب فيهم فانكروهم لاختلاف سماتهم عن سمات قومه، وأظهر لهم ذلك. عرفوه بقولهم: إنا ملائكة الله أرسلنا بتحقيق العقاب الذي كان قومك يشككون فيه، مؤكدين ذلك: إنا أتيناك ملا بسين الحق الذي لا

يلحقه من فضيحة ومهانة إذا هم اغتصبوا ضيوفه، فكان جوابهم: لقد كنا نهينك عن حماية أي وارد عليك من العالمين، أو شدّهم إلى أن طريق الاتصال الجنسي للمشروع والجاري على الفطرة إن كانوا يريدون ذلك، إن يتزوجوا من بناته، باعتبار أنه نبي قومه والذكور بمثابة بنيه والإناث بمثابة بناته.

وحياتك يا محمد لماثار داعي الغريزة الشاذة فيهم كأنهم سكارى حجت عقولهم، متحيرون لا يفكرون عاقبة ما يفعلونه حق قدرها، إنهم وهم على تلك الحالة من الاضطراب الفتنة صيحة من السماء زلزلت كل ما يحيط بهم، فاذلقت البنات، هوت سقوفها تحت قواعدها، وتلعبت عليهم كالأمطر المتدارك حجارة مخلوطة بطين محمية لا تصيب شيئا إلا خللته ومزقته شر نمرق .

ما سبق أن قصه الله علينا، فيه ايكت اللفظيين المتاملين، وإن آثار قوم لوط يمر عليها أهل مكة في طريقهم إلى الشام. نحكي أخذ الله الشديد للمكشدين المجرمين. وهو آية للمؤمنين الذين يربطون بين الأحداث ومحدثها رب العالمين.

بيان المعنى العام :

66 770، وجاء أهل المدينة يستبشرون... إن في ذلك آية للمؤمنين-

شاع الخبر في القرية أن لوطا قدم عليه ضيوف، فتجمع ذكورهم وأتوا إلى بيته مستبشرين فرحين، طمعا منهم في الاعتداء بالفاحشة عليهم، ومساء لكان قدومهم قبل أن يخبر الملائكة لوطا بما جأوا من أجله لو بعد ذلك، فبسه قد وجد نفسه في موقف حرج جدا. هؤلاء الفسقة المجرمون عقدوا العزم على الاعتداء على ضيوفه، والضيوف لهم حرمة عند فضلاء الناس، فرجأهم أن يعرضوا عما عزموا عليه، وقال لهم: إن هؤلاء ضيوفى فلا تضجوني وتوقعوني في وضع شنيع! لى لم أستطع أن أحصى من استجار بي وقدم على أملا في رقتي والنيل من إكرامى . إنها إهانة وبذلال لى إذا اغتصبتم ضيوفى.

- كان جوابهم بالغا غاية الوقاحة فقالوا له: لم نقدم لك من قبل أن لا نحصى أحدا من العالمين. ذكروه بأنهم نهوه عن الحيولة بينهم وبين اغتصاب أي فرد من البشر، ومن أي قبيلة كان، قدم على قريتهم.

- عرض لوط عليهم إذا كانت الكلمة قد استبقت بهم، والرغبة في إشباع شهواتهم الجنسية عارمة، إن كنتم ولا بد فاعلين ما يقضيها، أن يتكحوا بناته فيفرغون شهواتهم فيما هو الفطرة والأصل في الاتصال الجنسي. وفى التعبير ببناته بقة لما يفيد ظاهر القول من عرض بناته على الفسقة المجرمين. وتؤكده بكون على أن

لرسول في الأمة التي كلف بهديتها هو بمثابة الأب يحنو عليهم وبهمه لهم فيكون للذكور معتبرين أبناء له والإناث بنات. ويكون المراد حوكموا قضاه شهيونكم من الذكور إلى الإناث من فريقتكم. وخرجه بعضهم على أن الاعتداء على ضيقه شنيع جدا أعظم من شناعة الاعتداء على بناته. كما تقول لمن أوك أن يقتل شخصا: تقتلني ولا تقتله. فليس المراد الإذن بقتل القاتل ولكن صرف لقتل عن القتل.

- أما بلغت بهم الوقاحة هذا الحد، وجرهم خيبتهم إلى العزم على فعل الفاحشة بضيق نبيهم، وتعلوا بأنهم قد قنعوا له، ونهوا عليه، أن لا يجير ولا يحمي أحدا من الناس، على معنى أنهم لا يحترمون جواره، ولا يعضدهم عن فسادهم نكراته. فهياؤا بذلك لسلط العذاب الموعود به من قبل لوط عليهم.

- قطع القرآن نواصل الأحداث، ونوجه إلى الرسول ﷺ، ليكون في القصة تهديد للمتركون الذين تعالوا على رفض الدعوة وواصلوا تحكيم شيوخهم. نوجه للقرآن لرسول الله مكرما له أنبل تكريم وأعلاه، فليسم بحياته، لعمرك صيغة قسم: لقسم بحياتك، وهذا أسمى ما يبلغه الخطاب المرعي فيه التكريم والتقريب من رب العزة إلى بشر. أقسم بحياتك أن فطرهم قد انحرفت، وأخذت الشهوة على عقولهم كحال السمكاري الذين ثبتت فيهم نشوة للخمر دفعا للغرائز بمقدار ما تضعف فيهم لقوة للعقل. وهكذا أصبحت حياتهم مضطربة حائرة لا فرار لها. وثأل الغرائز عندما تنور وتعطف، وتقضي العقل من القيادة، أن يكون صاحبها حائرا مضطربا بعيدا عن الهداية والرشد.

- يعود الكلام بعد ذلك إلى قوله تعالى: **فَلَاخَذْنَاهُمُ الْعَذَابَ** مشرقين. لوكشف القرآن كيف تم تسليط العذاب عليهم عند طلوع الشمس. ثم ذلك بصيغة لا يقوم لشئها فقم. انكث الأرض وما فوقها. والقلب أعلاها إلى أسفلها وأعلا أسفلها وتتطاير شظايا كل بناء. وتلعبت الحجارة من السماء نرجم كل شيء فتسحقه سحقا، إنها حجارة خاصة من سجل، خلطت بطين وأحصى عليها، تمسحق كل من أقت عليه وتفتكه فينقلب كأنه عظم منحور بال.

- في كل ما عرضه القرآن مما سبق، لأذلة موقظة للمتأملين الذين يعتبرون بالحوادث، ويربطون المسببات بأسبابها، ولا يملكون عليها وهم غافلون، وهم المتوسمون. واثار التدمير العاقب ما تزال شاهدة على عاقبة المجرمين الرافضين لهديته الله، إلى أهل مكة يملكون عليها في طريقهم إلى الشام، فمدينة قوم لوط المدمرة بغيت آثارها ناطقة بعاقبة القوم المجرمين.

- والتصرف الإلهي العادل الذي كانت فيه أدلة على الحكمة الإلهية التي يدركها المؤمنون، مما وقع لإبراهيم عليه السلام، وما تم في قصة قوم لوط من مجيء الملائكة وجراءة قومه عليه وعليهم، ثم الانتقام منهم وتدميرهم، وبغناء آثارهم موقظة للناظرين. إنها آيات متتابعة ينتفع بها المتقنطون. والمتقنطون هم الذين يبعث الإيمان في مداركهم إحساساً بأن كل تصرف في الكون يثبت إيمانهم ويقوم دليلاً على صنع الله في العالم فتكون مساكن قوم لوط آية بينة من آيات الله.

وَإِذْ كَانَ أَحْمَدُ الْأَكْبَرُ لَطِيفِينَ ﴿١٠﴾ فَأَتَيْنَاهُ لَيْلًا لِمِائِمٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَدِينَةِ ﴿١٢﴾ أَنزِيلَهُ ﴿١٣﴾ وَأَتَيْنَاهُ ﴿١٤﴾ فَنَبِّئْنَاهُ عَنْهَا مَفْرُوضِينَ ﴿١٥﴾ وَكَانُوا يُنَجِّدُونَ مِنَ الْجَبَالِ يَبُوءُوا أَنِ هِيَ ﴿١٦﴾ وَحَدِيثُ الْمُصْبِحِ مَصْرُوحِينَ ﴿١٧﴾ لَمَّا أُغْنِيَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

﴿١٠﴾ : المكان الملف السحر .

﴿١١﴾ : المشركون .

﴿١٢﴾ : العقوبة الشديدة لأجل الذنب .

﴿١٣﴾ : الطريق الواضح البين غير المنعثر .

﴿١٤﴾ : وادي الغرى بين المدينة والشام، على الطريق من خيبر إلى تبوك .

﴿١٥﴾ : للعمل بالإزميل في الصخر ليخرج من ذلك ما ينتفع به .

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، دعاهم لتوحيد الله والاستقامة في تعاملهم، فتحذره وأقاموا على الشرك، فانقم الله منهم. وإن خراب منازلهم وخراب منازل قوم لوط على الطريق التي تسلكها القوافل التجارية من مكة إلى الشام، لم تسدثر آثارهما. وعطف على قصة قوم شعيب قصة ثمود قوم صالح. وكالتا القصصتين لم يُغنِ الفران في هذا الموقع بتصيل أخبارهما، فذكر أن ثمود كذبوا الرسل وأعرضوا عن المعجزات التي تزيدهم. ووجهوا كل همهم للحياة الدنيا، برعوا في نحت الحجارة واتخذوا من صخور الجبال بيوتاً ظنوا أنها تؤمنهم أمناً لا خوف معه، فأهلكوا بالصيحة القوية مع الصباح، لما حماهم ما خططوه وعملوه.

بيان المعنى العام :

78- وإن كان أصحاب الأيكة لخائفين.

عطف القرآن قصة أصحاب الأيكة على قصة لوط باعتبار أن منزلهما على طريق القرشيين في تجاراتهم، يشاهدون آثار الدمار الذي حل بهما، وأكد النص للقرائي من البداية أنهم كانوا ظالمين، أي مشركين، وجاء التأكيد بـ "إن" للمخفة من الثقيلة إن.

كان أصحاب الأيكة قوما مشركين يلزلون يارض تغطيها أشجار كثيفة ملتفة، بعث الله إليهم ميثاقا شعبيا فدعاهم إلى التوحيد والعزل في التعامل، فكذبوا رسلهم وتحذوه، فانقم الله منهم، وأخذهم عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم الظلة، ويفصل القرآن خبرهم في سورة الشعراء الآيات 176/190-

79- فالتقممنا منهن وإلهما ليأمر مبين.

لكدت الآية أن منازل قوم شعيب ومنازل قوم لوط على طريق واضح بين، تسلكه قوافل التجار، ويشاهدون الدمار الذي لحق بهما.

80- ولقد كذب أصحاب الحجر... ما كانوا يحكيون.

عطف القرآن على قصة أصحاب الأيكة قصة أصحاب الحجر، ثمود الذين بعث الله لهم سيدنا صالحا، دعاهم إلى توحيد الله، وأيده بمعجزة هي الناقة وسيأتي تفصيل أخبارهم في سورة الشعراء الآيات (141/150).

سحل عليهم في هذا النص: أنهم كذبوا رسلهم، وأعرضوا عن التأمل في الدليل الآية التي كانت معجزة له، ألهمهم الإقبال على متاع الحياة الدنيا عن قبول ما جاءهم به صالح، برعوا في الحث فكافوا ينحتون في صخر الجبال بيوتهم، ويتخللون لها نحقق لهم الأمن، فأهلكهم الله بالصيحة القوية مع دخولهم في الصباح، وما دفعهم ما كانوا يقومون به من الاحتياطات، وما يدبرونه لحماية أنفسهم.

وما خلقنا السفن والأرض: ما بينهما إلا بالحق وإن الشاغة ذرية فاصنع
الصفحة الجميل ﴿﴾ ذلك هو الخلق العظيم ﴿﴾ ولقد أنبتك نباتا من الغناب
والفر: إن العظيم ﴿﴾ لا تمدد عمتك إل ما نمتك به. أرو كما نمتك ولا تحزن عليهم
وأخبرنا خدائنا من مبين ﴿﴾ ولعل إن أن التذير التمهيد ﴿﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصفحة الجميل : المعفو عنهم مع عدم العتب.

لا تمنن : لا تحبب نظرك إعجابا بما أوتوه من النعيم الدنيوي.

التذير : المعظم يحدث فيه ضرر.

العين : المصرح و الموضح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الله أجرى خلق السموات والأرض وما بينهما وما اشتمل عليه، حسب قوانين مضبوطة تتسم على كل كبيرة وصغيرة . فلا مجال للمصادفة ولا لعدم المعقولة فيما يحدث فيهما. وإن من ملازمة الخلق بالحق ما يقتضي أن يكون البشر المستخلفون في الأرض مسؤولين عن استخلافهم فيها، وأن يعيشوا يوم القيامة لجزأ وما عملوا. فقابل يا محمد صدمهم عن الحق بالصفح عنهم الصفح الذي لا لوم معه ولا غلظة. واعلم أي لنا ربك الخلاق العليم بما أخلقه وتطوراته وما يحدث منه. وإنك في رأيي، فقد أتيتك سورة الفاتحة والقرآن العظيم، وذلك أكبر منه.

وما جمعته من الخير يقلل في نظرك ما يتمتع به المشركون رجالا ونساء، فلا تغفل إلى ما يبرر أيديهم من النعيم، فإنه نعم زلل وما عنذك باق مسنم في عملاته صلاح البشرية إلى يوم القيامة.

ولا تحزن لكفر من كفر، ولا لما يصيبهم. وإن قلبك الكبير يحب الخير للبشر جميعهم. وواصل ما جبلت عليه من نبيل الأخلاق مع المؤمنين، وحشوك عليهم. وقل للمشركين إلى نذير لكم أنذركم عذابا سينزل عليكم، بينته لكم. وفيما تلاه القرآن عليكم من آيات المكنين ما يكون رادعا واضحا لكم عن رفض الإيمان.

بيان المعنى العام :

85- 86 وما خلقنا السماوات والأرض... إن ربك هم الخلاق العليم.

تتعطف الأيتان على ما سبق في السورة من نمرود المشركين، وما لحقهم في النهاية من العذاب الذي استأصلهم فتصرح بقاعدة عامة بلى الخلاق العليم عليها الكون: السماوات والأرض وما بينهما، ما يحدث فيهما ظاهرا وباطنا، بما يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل العناصر الكونية، تثبت أن الله خلق هذه العوالم ملتبسة بالحق، تجري على الحق ولا مدخل للباطل فيها. والحق يعني النظام والدقة والحكمة، والربط بين الأسباب واللمسبات. هي قوانين ثابتة معقولة لا يخرج عن صارم ضبطها صغيرة ولا كبيرة، ولا يختلف في ذلك كسب الإيمان وجزأؤه عن قوانين العقل وعن قوانين المادة.

نعم إن الطاقة العقلية للإنسان تنصرف عن إدراك جميع تلكم القوانين، وعن تفاصيل تطبيقها في الوجود، ولكن الخلاق العليم هو الذي قدرها في مواهبها بحكمته. وبهذا يكون الربط بين الفعل والجزاء، وبين الكسب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب هو أمر ثابت لا شك فيه. ولكن إظهاره في الخارج مرتب في علم الله، فإما أن يظهر بعض أثره في الدنيا، وإما أن يتحقق ذلك عند البعث عند قيام الساعة. فهذا يكون البعث للحساب والجزاء يوم القيامة ضرورة عقلية مستندة إلى الارتباط بين الأسباب والمسببات. إذ الإصلاح وفعل الخير سبب للثواب والتكريم، والفساد والتشر سبب للعقاب والإهانة. فإن لم تظهر بعض الآثار في الدنيا تكون الحياة الآخرة أمراً حتماً لتحقيق المسببات. وهذا ما ورد في أثناء القصص السابقة في السورة من تكريم أو استئصال، مرتبط كل ذلك بكسب الإنسان.

وترشد الآية النبوي ﷺ ليتبع مصدره ولا يحزر ولا يضيق بما يكرر به أعداء الإسلام، فإن ذلك هو شأنك على ما خلقتك عليه من كمال نفسي وخلق رفيع سداه الصبر ولحمته لترفع عن الجاهلين.

وللتأمل في تلكم القوانين تؤكد للناظر فيها أن ربك هو الخلاق لا خالق غيره، لفصر قدرات غيره عن الإحاطة، وضاعفها عن بلوغ الحكمة الشاملة، وأنه هو العليم، لما يكشف عنه النظر في الخلق. إن ربنا لم يهمل صغيرة ولا كبيرة، ولا يتيسر النظام الإلماع العلم الدقيق الشامل. وقد قدر سبحانه أن لا يجعل باستئصال مشركي مكة، وقد ظهرت الحكمة في ذلك من بعد، فقد قام بعضهم وما تناسل منهم ينشر دين الله في الأفاق.

ولفت النظر إلى تعبير القرآن: **إِنْ رِئْ** - ففي إمداد الرب سبحانه، وهو رب كل شيء، إلى النبي ﷺ ما يشير إلى عنايته به وتسايله عما يلقاه من المشركين، وأنه لا يغيب عن علمه شيء وسيجزئهم، فإنه كما خلفهم هو أطم بفعالهم. وهو سبحانه الذي يقدر لكل شيء أجله. وقد يكون في عدم معاجلتهم بالعذاب ما يشرح مصدره ويحقق له ما يرغب فيه.

87- ولقد آتيناكم سبعا من المثالي والقرآن العظيم.

هات الآيات السابقة، في قوله تعالى: **لِيُصِرَّكَ** الآية، وفي قوله تعالى قريباً: **بَيْنَ يَدَيْكَ** هو الخلاق العليم، لتأكيد المنن التي خص بها النبي ﷺ، فوقع التصريح بذلك في هذه الآية. **لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَلِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ**. المنة أوصلها الله لنبيه مع كامل الرفق والتكريم، لما توحى به كلمة الإيتاء بجرمها الشاعم الذي هو اللطف

من أعطيتك، وقد آتاه الله - سبحانه - من المثاني - والقرآن - لما كلمة السبع فهي نص في دلالتها على المحدود لا تحتمل ما هو أكثر ولا حسا هو لقل. والمعدود للمثاني جمع مثناة، اسم مشتق من لثني أصله ثنى الشيء فجعله لثني، وعلى أي شيء. تكل كلمة مثاني؟ ذهب معظم المفسرين إلى أن المقصود بها سورة الفاتحة اعتمادا على الحديث الذي أخرجه البخاري، وعلى ما أخرجه مسلم، وقد بينا ذلك في سورة الفاتحة. وإطلاق المثاني على سورة الفاتحة بالنظر إلى أنها تقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة، فأطلقت عليها بذلك الاعتبار، كما أطلق لفظ المثاني على القرآن كله، كما جاء في قوله تعالى (الله - عز وجل - أنزل القرآن أنزلناه متشابها

مثنى ١ - نوه الله بالقرآن كله بأنه كبرر مضامينه بأساليب مختلفة بما يضمن تثبيتها واستغناء جميع جوانبها بطريقته الخاصة البالغة حد الإعجاز. إذ سم التكرير بطرق متنوعة، يكشف التعامل كل مرة أعيد فيها للمؤمنين جوانب لم تذكر من قبل، وطريقة تيسيرية متميزة، ووحدة لا اختلاف فيها، وبما أن سورة الفاتحة تضمن التخطيط العام لكل ما على به القرآن أطلق عليها السبع المثاني.

وبناء على ما ذكرناه نكون من في قوله تعالى من المثاني ندل على أن السبع المثاني التي استل بها الله على رسوله هي بعض القرآن لبرزت بصفة خاصة لتكون مزاجها متحدة مع مزاج القرآن وتريد عليه.

ويسوغ عطف القرآن العظيم عليها، بالنظر إلى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه بالكلية والجزئية.

88 89، لا تملن عينيك إلى ما تمننا.. إلى لنا النديم المبين.

إن ما أتاك الله من القرآن والسبع المثاني، وما خصك به من الوحي والهداية والرعاية، وما اصطفاك به لتكون أمينا على وحيه خائسا لرمته، هي مان لا تقاس بما أوتيته المشركون من المال والجاه والأولاد وقوة الأيدان، فما ذلك الا منافع الحياة الدنيا، زائل غير ثابت، فلا تكن معجبا به، ولا تنظر إليهم نظر الإكبار لما خصوا به من نعم الدنيا، وقوله تعالى: (لرواها مدهم! الرجال والنساء، أو أصنافا منهم ممن اتسعت لهم أنياب النعيم دون من كانوا في خصاصة. إذ إن المشركين لم يكونوا جميعا مبسوط لهم في الرزق، بل كان بعضهم في ضيق فجمعوا بين الخمارات، والخطاب وإن كان للثني إذ فإنه يشمل أمته حتى لا يشتغلوا بزهرة الحياة الدنيا إيثارا لها على ما أتاهم الله من الهداية ورزقهم من التوفيق لاتباع دينه.

ثم أرشد رسوله ليخفف عن نفسه من حرصه على إيمانهم. هذا الحرص الذي جعله يحس بالحرز والامسئ لئلا يهدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر. فهداه إلى أن يخفف عن نفسه التي تشق على البشر جميعهم حتى للكافر منهم. ولا يفهم من هذا أن يحول عواطفه النبيلة إلى قسوة وشدة ويكون غير أبه بما يمس غيره من سوء، فقال تعالى ما معناه: وأرفق بالمؤمنين مجسما هذا أرفق والعناية بحالة الطيور عندما يحتضن صغاره فيرخي جناحيه عليها: **وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** وقل للكافرين المتعاندين قولا فصلا: اعلموا أن مهمتي هي إذكركم بإعلامكم ما يترصدكم من سوء المصير إن أنتم أعرضتم عما جئكم به. وإن أبين لكم ذلك بآياتنا واضحا لا يبقى لكم حيلة لتتولون بها تبريرا لعدم الاستجابة.

كَمَا بَوَّلْنَا عَلَىٰ مَنَاقِبِهِ ۖ وَالَّذِينَ جَاءُوا لِقَاءَ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَوَعَدْنَا لَنُكَفِّرَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ ثُمَّ أَثَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُغْزًا ۖ فَكَفَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا بِهِمُ الْكُتُبَ ۚ فَكَفَرْنَا بِهِ ۖ لَمْ نُضَيِّقْ لَهُمْ أَسْرَافَهُمْ ۚ فَكَفَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا بِهِمُ الْكُتُبَ ۚ فَكَفَرْنَا بِهِ ۖ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ زُرْقَتَكَ بِمَا يَقُولُونَ ۖ فَتَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَتُكْرِمُنِ الْمُسْلِمِينَ ۖ وَأَعْبَدْتَ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝

بيان معاني الألفاظ :

المتكسرين : يحتمل أن يكون المراد به الذين قسّموا القرآن أجزاء لا رابط بينها. أو الذين حلفوا.

عصيين : جمع عصاة بمعنى مجزأ إلى حق وباطل، ومقبول ومرفوض.

الضيق : الجهر والإعلان.

ما نؤمر : الدعوة إلى الإسلام.

أعرض : كن أقوى من أن تتأثر بمكرهم.

كلمينك : تولينا أمر المستهزين بك فننتقم منهم، ونمحي آثار استهزائهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أُفادت الآية السابقة أن الله أمر نبيه بأن يعلن أنه النذير المبين، يذو الصادين عن دين الله بالعذاب، هذا العذاب هو كالعذاب المسلط على الذين يلغ بهم العناد أن قسّموا القرآن أقساما قبلوا بعضه وما وجدوه لا يخالف وجهة نظرهم، ورفضوا ما يناقض تصورهم ومعتقداتهم. كما جعلوا القرآن مقسما إلى شعر وكهانة و أساطير

الماضين وكلام مجنون. وهؤلاء هدمهم القرآن في أكثر من مناسبة بما يترصد لهم من العذاب.

ثم أقسم بمحمد أنه مبعثهم يوم القيامة مؤال فضيحة عما كانوا يعملون في الدنيا فجازيهم.

ثم أمر رسوله بأن يعلن بالدعوة، وينشرها دون تخف، وأن لا يأبى بما يقاومه به المشركون من إذنية لفظية أو فعلية. وطمانته بأنه سبحانه تولى إجهاض استهزاء المستهزئين، هؤلاء الذين فسد تفكيرهم كفساد سلوكهم. فهم قد جعلوا مسع الله الهمة أخرى لا حول لها ولا قوة، فجرأهم على الله وعليك تعرضهم إلى أشد عقوبة، ويعلمون النكال الذي سوف يحل بهم، وهو تهديد شديد بسوء مصيرهم.

و يواسيه بأن الله ليس غافلاً عما يرفقك به المشركون، ومن تخرجك من كلاسهم. وسوف تظهر لك الحكمة من إهمالهم. ويرشده كما يرشد المؤمنين في الأوقات للخرجة أن يستعينوا بتسبيح الله مع الحمد، والصلاة.

و ختاماً عليه أن يواصل ما يقوم به من عبادات يتقرب بها إلى الله ولا ينقطع عنها إلى أن تنتهي حياته، وهذا ما على كل مومن صادق أن يلزمه في حياته.

بيان المعنى العام :

90- 91- استعما أنزلنا على المقتسمين الذين... جعلوا القرآن عضين.

كانت صياغة هذه الآية على طريقة التشبيه: لاء التشبيه الكاف في قوله تعالى: (كما) والمشبه به (ما أنزلنا على المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين) والمشبه يحتمل أن يكون المفعول المقدر في قوله تعالى: (وقل إلى النا للذير المبين) أي أنذركم عذاباً كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين. فيخلص المعنى هكذا: وقُلْ إني أنذركم عذاباً كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين الذين جعلوا القرآن الكريم سقسما إلى حق وباطل، ومقبول وغير مقبول.

و بعد أن قدمت بهذه المقدمة أريد أن أقدر نفى بعض الاحتمالات التي قال بها بعض المفسرين، ثم أتعق قليلاً في نظم الآية بتتبع ألفاظها.

الرأي الأول: قال بعض الناطرين في كتاب الله: إن المقتسمين هم الذين ذكرهم الله في قصة صالح: (قالوا لئاسوا بالله نبيته وأهله ندد لئقولن لوئيه مما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) سورة النمل آية 51 - فحملوا كلمة المقتسمين على معنى الحالفين استناداً إلى قوله تعالى: (لئاسوا بالله) - وهذا التفسير لا يصح حمل هذه الآية عليه ذلك أن القرآن أنبع كلمة المقتسمين بما يوضحها (الذين جعلوا

القرآن عظيمون وقوم صالح مكروا ودبروا طريقة للفضاء على صالح الله. ولا صلة لهم بالقرآن.

الرأي الثاني: إن للمفسمين هم أهل للكتاب الذين قسموا ما تلقوه من الكتب عن رسولهم إلى ما يوفق القرآن قلوبهم، وإلى ما يخالفه فرفضوه. ويكون معنى القرآن عظيمين، أي كتابهم المقروء (التوراة أو الإنجيل) مقسما، وإطلاق القرآن على كتابهم اعتمادا على الاشتقاق اللغوي، لا أراه مقبولا. لأنه قد تكرر إطلاق لفظ القرآن سبعة وستين مرة في غير هذا الموضوع وكلها بمعنى الكتاب المعجز، الذي أنزله الله معجزة لمحمد ﷺ، وهو ما حول المعنى اللغوي إلى المعنى العلمي فيكون تبعاً لذلك هو السابق للأفهام، ولا يحمل على المعنى اللغوي بمعنى القراءة إلا بقرينة صارفة، ولا وجود لقرينة.

الرأي الثالث: نزل للشركيين ولأهل الكتاب إني نذير لكم، أنذرهم عذاباً لا تجدون منه ملجأ ولا مفراً، هو يشبه العذاب الذي أنزلناه على المكذبين منكم، الذين قسموا القرآن إلى حق يأخذون به ويأطّل ينكرونه ويرفضونه. فكلمة عظيمين جمع عظمة بمعنى جزء، وقسم، أصله عضو فقلت للو الأخره هاء. وهذا التقسيم صدر من المشركين في طعنهم على القرآن، قالوا: إنه سحر، وأساطير الأولين، وشعر، وكلام مجنون، وكهانة، كما صدر من أهل الكتاب، إذ قبلوا ما صدق كتبهم وما يبيحهم على ديانتهم، وكذبوا بما نسخه من أحكام وما صححه من التبدل الذي حرفوا به وحى الله إليهم.

ولما كان شأن التشبيه أن يكون محققاً ومقرباً للمشبه بوصفه بالمشبه به المعروف لدى المخاطب معرفة لوضوح، فإن هذا العذاب المشبه به غير مذكور على التعيين، كما لم أجد ما ينتج الصدر في تعيينه. ذلك أن ما قبله المفسرون أنه نكال يوم بدر، ويوم بدر في السنة الثانية من الهجرة، والآية مكية قبل الهجرة فكيف يتم التشبيه بشيء لم يحدث بعد ولم يدخل في تصور المخاطبين. غاية ما أطمأن إليه أن المخاطبين استحضروا ما يدل عليه التشبيه، ولم ينقل إلينا.

92- 93. فور يست لثمانته أجمعين عما سألوا بعملون

هذا وعيد للكافرين أكد بالقسم (فوربك) وفي إقسام الله برب محمد، من التقريب والتوبيخ بعلي مقامه ﷺ عند ربه ما لا يخفى، إذن أقسم الله بذاته العلية، فعلى ما إذا أقسم؟ أقسم مؤكداً عظمون القسم بالحلف وبعلامة التأكيد لنسألهم بالمقسم عليه وهو: سأل المتنون جميعاً لا يقلت منهم أحد، سألهم سأل فضح وتقرير عما

كانوا يعملونه في الدنيا . هذا السؤال لا يتطلب جواباً ، ولكنه إيماء للجزء المترتب على سوء أعمالهم ، في قوة لأعقابهم على أفعالهم ، فتكون هذه الآية تقنياً في التعبير عن مضمون الآية السابقة .

94 96، فاصدح بما تؤمر .. كفيئاً لك المستهزئين .

هذه محطة من المحطات الكبرى في مسيرة الدعوة الإسلامية . هي التالية لتلقي الوحي الأول (إشرا باسم ربك الذي خلق) لما تلقاه وأمر بتبليغه لعشيرته الأكربيين . ونجح ﷺ في هداية عدد من أهل مكة الذين كانوا يجتمعون ويعبدون الله في دافئ الأرقم بن الأرقم ، وينحفي من كان بعداً عنها فيقيم صلاته في بعض الشعاب . ومع ذلك فإنهم كانوا لا مسلمون من لدى المشركين . وتحول الوضع من يوم نزول هذه الآية التي تازم النبي ﷺ باليجهر بالدعوة ، وعلو صوته بالحق الذي أنزل إليه ليخرق الأسماع ، ويبلغ العقول والقلوب . تكليف جديد ثقيل من التكليف الأول ، إذ عليه أن يدبر المسالك التي تكون لنجح لينفذ منها إلى البشر جميعاً ، ويتأكد عليه أن يخطط ما يكفل له اللقاء بهذه المهمة ، وهو عالم صلف قريش ، وكبرها ، وشدة تمسكها بالهتاء ، إنه الأمر من رب العزة لمحمد الذي لا يسخر جهداً في القيام بالمهمة التي أوكلت إليه . وكل سعائه أن يفوز برضوان ربه ، كلفه ذلك ما كلفه . ويزيد هذا التحول قللاً بأن عليه أن لا يُراعى ما ألفه المشركون في عباداتهم وتعاملاتهم ، بل يصدح بكل ما نزل عليه . فاصدح بما تؤمر تذكر متعلق بتؤمر ليعم العقيدة والشريعة والسلوك . لتكون شجاعتك على مستوى ما أمنت مقدم عليه ، فلا يهلك موافق المشركين وما يمدونه في طريقك من موعات . فمعلّى أعرض عن المشركين ، لتكون أصلب وأقوى في مواجهة المشركين فلا تبتئس بما يقومون به لتكبيطك وإذابة المؤمنين .

و تبغى الحرب النفسية التي يتغل فيها السفلة من المشركين . التي منها الاستهزاء بالدين والقرآن ومظاهر الإسلام . وإن كان الاستهزاء لا يصد عن الدخول في الإسلام ، إلا أنه يجرح كبرياء المؤمنين المعترزين به ويؤذيهم ، إذ يعمد السفهاء إلى المقدس فيعبثون به .

كانت هذه الناحية مما أهتم الرسول ﷺ ، فأعلمه الله أنه كفاه أمر المستهزئين ، أي توليت مكافئ الانتقام منهم ، وجعلت استهزاءهم مملوكة للتأثير . وعن عمرو بن الزبير وسعيد بن جبير هم خمسة نفر : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن الوليد ،

والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يوث، والحارث بن الطلائع. وكلهم هلكوا بمصائب حقت فيهم كناية الله لنبيه.

ثم أكدت الآية في خاتمها استحقاق المستهزئين للانتقام الذي يترصدهم، ولا مناص لهم منه، لأنهم تجاوزوا الحدود، وجعلوا مع الله الهة أخرى لا تملك من خصائص الألوهية شيئاً. فشنت الآية بتكبرهم، وأن ما وصل به هساد التكبر إلى اتخاذ الهة مع الله يجعل كل ما يفعل بعد ذلك أقل شناعة. وإذا قد جمعوا بين الشرك بالله والاستهزاء بالرسول ﷺ فهم بسلك حقيقسون أن ينالوا جزاءهم الذي أنهم لتذهب النفس في تصويره كل مذهب يتناسب مع عظم جرمهم.

97 98. ولقد نعلم أنك بضيق صدر منك سيئ من الساجدين.

قوت الأيمان السلبتان عزيمة رسول الله ﷺ (فاصدع، وأعرض) (إنما كعبتك المستهزئون) ولا شك أن النبي ﷺ كان على مستوى رفيع من شدة الإحساس ورفض التعدي، فهو قد أزره ربه فصمده، ولم يبال ولكنه مع ذلك كان يتألم لكفر قومه بما أنزله الله إليهم وإقامتهم على الشرك وعبادة الأصنام، ويتألم لمقابلتهم ما هو عليه من الجد بالاستهزاء والسخرية. فأنسه ربه بهذه الآية، كن وثاقاً يا محمد أن الحالة التي أنت عليها هي تحت رعايتي، لا يخفى على ما تقاميه وما يحز في نفسك الكريسة، ويشير سبحانه بهذا إلى أن في ذلك حكمة عند الله في عدم استصالحهم.

ويرشد نبيه إلى المنهج الذي يخفف عنه هذا الكثر النفسي:

أولاً : يذكره بأنه يجد في الإعلان بتوبيخ الله مسألة لهمه وروحاً يفرج عنه. فهو إذا سمع منهم عبارات الشرك، وتمجيد الآلهة، والسخرية من القرآن والإسلام مما يقصدون به الإلابة، عليه أن يجري على قلبه، التوبيخ المنزه له عن أقوالهم، وعلى لسانه نكر ما استقر في قلبه قارناً لحمده على ما أفاضه عليه من نعمة الهداية للصراف المستقيم وتقريبه التقريب الذي رفعه إلى مقام الائتمان على وحيه.

ثانياً: أن يفرغ إلى الصلاة، فغير عن الصلاة بالوجود، الذي هو كما شرع في الإسلام، المعظم الأكمل للخصوع لله. روى الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة بن اليمان: أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه (أنزل به هم لو عم) صلى، كما أخرج الإمام أحمد تطبيقاً لهذه الآية بسنده إلى عبد الله بن جعفر كان إذا حزبه أمر قال: لا إله إلا الله العظيم أكريم، سبحانه الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. علق عليه المناوي (فائدة) أخرج التسالي عن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه أن سبب هذا أنه لما روج عبد الله بن جعفر بنته قال لها: إذا نزل بك أمر فاستغليه بأن تقول: لا إله إلا الله الحديث... فإن المصطفى ﷺ

كان بقوله. قال الحسن فأرسل إلي الحجاج ففلقته، فقال: والله لقد أرسلت إليك وأنا أريد قتلك، فقلت اليوم أحب إلي من كذا وكذا فقل حاجتك. وهو في مسلم بنحوه من حديث ابن عباس¹.

99- وعيد ربه حتى يأتيه اليقين.

ثبت الله وصيته لنبيه بأن يواصل القيام بعبادة ربه مستحضراً عذوقه به إلى آخر نفس من حياته. إلى أن يأتيه ملك الموت، فإطلاق اليقين على الأمر الثابت المتيقن الذي لا شك فيه، وهو أن كل نفس ستبلغ أجلها الذي أجل لها وتخرج من الدنيا. وذلك نظير قوله تعالى: (وَمَا نَكْتُمُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ)²

و قد كان عرض علي بعض أصحاب السلطة أن قوله تعالى: (وَأَعِظْ بِرَبِّهِ) **يأتوك اليقين** أنه إذا حصل اليقين عند الإنسان فذلك مضمّن له عن العبادة، وحسب ما ذكر لي أنه عرض رايه هذا على أساتذة من خريجي السربون فاستحسنوه وأيدوه. فعرفته أولاً: أن الخطاب موجه أولاً إلى النبي ﷺ ثم إلى أمته، فهل كان النبي ﷺ لم يبلغ اليقين فأمره بالعبادة حتى يصل إلى اليقين ليترك بعد ذلك العبادة؟ هذا تصور لا يمكن أن يتصوره رجل مسلم.

ثانياً: أن هذه الآية لها نظير في سورة المائدة وثلث الآية فهل معناها: وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين بالكذب؟ فسكت بعد ذلك.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه المسورة يوم الجمعة غرة شهر ذي الحجة 1432- بعد أن توقفت أياماً تبعاً لعملية جراحية لأخوتي علي والحمد لله المان بالطف والشفاء. وأسأله سبحانه أن يرزقني على بلوغ التمام، ولن يجعل علي خالصاً لوجهه ينتفع به المؤمنون.

سورة النحل

هذه هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف. عرفت بهذا الاسم في المصاحف. وفي كتب التفسير. وروي عن التابلي للجيل قتلادة النوسي أنها تسمى أيضا سورة النعم جمع نعمة، إشارة إلى النعم العديدة المذكورة فيها. وأخطأ بلاشير في قراءتها ظانا أن النون مفتوحة فترجمها على أنها النعم.

و عند معظم المفسرين هي مكية، واختلف في بعض الآيات منها، فذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وأن للنبي ﷺ أمر كتابة الوحي أن يضعوها في مكانها من السورة. ومنعترض لها عند تفسيرها إن شاء الله. نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة المائدة فهي بذلك الثالثة والمبعون حسب ترتيب تاريخ النزول.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَنزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْتِبْهُ وَتَعْلَمُ عَمَّا فِيهِ كُتِبَ. ﴿١﴾ أُنزِلَ الْفَلَكُ وَالرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعْلَمُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستعجال : طلب تعجيل حصول شيء.

الملكوت : هو جبريل عليه السلام.

الروح : الوحي.

من أمره : من مفعولاته التي يستأثر بها.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق بما لا يبقى معه مجال للشك أن ما قدره الله من حلول النعمة بالكافرين ونصر المؤمنين، سيقع في المستقبل في الوقت الذي حدده، فاستوى في التحقق ما سيأتي بما قد نفذ فعلا، ولذا فلا تعلبوا موعة حلول الوعيد بالنسبة للكفار أو الوعد بالنسبة للمؤمنين، لأن تقدير الله مؤسس على الحكمة التي لا تتبع ما يرقه للناس لو يسألونه، تنزه سبحانه عما يشرك به الكفرة الجاحدون.

ومن مظاهر الأنووية التي لا يشاركه فيها أحد عنايته بخلقه، فقد أنزل ملائكته محملين بالوحي لمرسله الذين اختارهم، وهو العليم، لينذروا البشر أن لا إله يستحق العبادة والتقرب إليه إلا الله. فعليهم أن يكونوا وقاية لأنفسهم من التعرض لنقمته. كما أنه تفرد بخلق السموات والأرض التي تقوم بما هي عليه من نظام، دليلاً على أنها من خلق الله وحده، ولا يتصور لها خالق سواه. إذ قامت في خلقها على الحكمة والدقة لا على العبث والفوضى.

بيان المعنى العام :

١- أتى أمر الله فلا تستعجلوه.

استبطا المشركون ما أوعدهم الله ورسوله من الكوارث والويلات في الدنيا، وحملهم ذلك على التكذيب والاستهزاء. وكذلك استبطا المسلمون النصر، وهم يشاهدون المشركين يتطاولون مكذبيين، تتضاعف مقاومتهم ويضيقون عليهم في حياتهم. فكان للمشركين يستعجلون النبي ﷺ أن يأتيهم بما أوعدهم، وكلما توسع أمد الإهمال كانت مقاومتهم أشد وأغلظ، وكان للتكذيب أشد وأقوى، ويجد استهزائهم متدداً من عدم مشاهدتهم لبطش الله. وكذلك حال المؤمنين، ولعلمهم فاتحوا النبي ﷺ سائلين أن يجعل الله لهم بالنصر. ويكبت أعداءهم ويعطي راية الإسلام، دون أن يدخلهم شك في صدق الرسالة. ولكنها الطبيعة الإنسانية العجلى التي ينتابها الضجر من التأخير الذي لم تكشف عن حكمته وبقي مرأى من أسرار الفن المحجوب.

ولذا ورد الرد على صياغة فاصلة جازمة، أتى أمر الله. تحقق إتيان أمر الله، كأنه صدر في الوجود وتم ظهوره، فلفى الأرياب فيه بالتعبير عنه بالفعل الماضي. إن ما قدره الله من نصر المؤمنين وتسلط الجزاء للعادل على الكافرين أمر ثابت، ولشدة ثبوته عبر بـ [أتى] عوضاً سيائتي، وإذا كان محققاً لا شك فيه، فاعلموا أن خروجه من التفسير القديم إلى الوقوع المنجز، يتم وفق الحكمة التي أجل بها سبحانه حولت للكون منذ الأزل. ولذا نهوا جميعاً أن يستعجلوا عذاب الله للكافرين ونصروا للمؤمنين، لأن استعجالهم لا يقيم ولا يبرخر، ولا تتبع الإرادة الإلهية رغبات الناس. تعالى الله وهو العظيم، وتذره وتكتم عن أن يُشرك به أحد، لو أن يعبد غيره، أو أن يتقرب لأحد سواه.

2- ينزل الملائكة بالروح... لا إله إلا أنا فاتقون.

أثبتت الآية السابقة تعالىه وتزوجه عما يدعوه الممركون. ومن مظاهر الوحدانية وزيف الشركاء، أنه سبحانه هو الذي تتسارع عنايته بخلقه فيحصل ملائكته وحجسه،

وأطلق على ما يوحى به بالروح، لأنه بالوحي تستقيم العقول فتدرك الحق وتسمو إلى خالقها منقربة منه بالعبادة، فحياة العقول تتحقق بالوحي، كما تتحقق حياة الأجسام بطول الروح فيها. ولو حرمت الوحي لكانت عاجزة عن قيادة الإنسان إلى ما فيه نفعه وخيره، ويخسر تبعاً لذلك حاضره ومسيره.

وهذا الوحي متضمن لأسرار اختص الله بعلمها، يوحىها لأتبيانه لئيلغوها للناس فتستقيم بذلك حياتهم الدنيوية والأخروية. إنه يختار للتبليغ من له الكفاءة للقيام بهذه المهمة النبيلة العظيمة، بما أودع في كل منهم من الخصال الوفيمة، التي بها سموا على بقية البشر، وتهياؤا لوعى ما يتلقونه من الملك. قال تعالى: **(الله اعلم حيث يجعل رسالته)** ١.

إنه سبحانه بخير من عباده من هو أهل لمهمة إنذار الناس وتبسيبهم إلى الحقيقة الكبرى التي هي أصل الصلاح في الكون: أنه لا إله إلا الله، هو الحقيق بأن يخضع له كل إنسان، فيقوم عن رضا بجميع ما يأمر به ويجتنب ما ينهى عنه. وأن تلك صلته بربه حلولا مستمرا يهديه إلى مواصلة الخير والبعد عن الشر.

3-خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون.

تتابع الآيات لافتة الأنظار للمشاهد التي تقوم ناطقة بأن الله هو المتكبر بالأكوهمية، إذ هو وحده الخالق، ولا يدعى أحد غيره، أنه يخلق سينا، والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها. فمرضت:

أولا: إثبات قضية لا يستطيع أي عاقل أن يجادل فيها، هي أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأن خلقه لها كان ملتصبا بالحق لا بالباطل، وبالحكمة لا بالعبث. إنه وإن اختلف إدراك البشر للأسرار في تلكم الخلق المحكم العجيب، إلا أنهم يشتركون في الإقرار بالنظام المحكم لسيرها وانضباط أحوالها، ولا يستطيع أي كان أن يدعى أنه خلقها لو أوجدها، إذ كل ما سوى الله مما هو مشترك للبشر لا تبلغ قوته مستوى السماوات والأرض.

نعم إن السلاخدة يدعون أنها خلقت بالانفجار الكوني الذي حدث في لحظة من الزمن البعيد، وهذه فرضية لم يبق عليها دليل علمي من ناحية أخرى فإن هذا الانفجار المدعى فوضى لا نظام، والمشاهد أن كل مكون من مكونات الكون يسير على نظام بالغ الدقة، غاية ما يطمح إليه العلم أن يدرك القوانين التي

تحكم كل كوكب في تركيبه وفي علاقاته، ورغم التقدم العلمي الذي بلغته البشرية اليوم فإنها لم ترم بنظرها إلى ما وراء المجموعة الشمسية، من مجرات تقدر أبعادها بالسنوات الضوئية.

إن ما عتش في عقول الكفرة من فساد قلوبهم لاتخاذ الهة من دون الله، لا يضر الله شيئاً فإنه تعالى وتقدس عما يشركون، وهو ما ينادي به إلهكم خلقه.

خَالِقُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَاقَةٍ إِذَا مَوْخَصِيماً مُهِينٌ ۝ وَالْأَلَمَنَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِينٌ وَنَفْسٌ فَتَنَّا بَيْنَهُمَا مِصْرَ ۚ فَكُلُون ۚ وَلَكُمْ فِيهَا خَمَلٌ فَجِئْتُمْ نُزُجُونَ ۚ فَتَرْجُونَ ۚ فَتُخْبِلُ أَعْيُنُكُمْ ۚ آلَ بَلَاءٍ لَمْ تَكُونُوا عَلِيمِينَ ۚ إِلَّا يَتَّبِعُ الْأَنْفُسَ ۚ فَبُذِلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ۚ فَجِئْتُمْ بِهِ خَبْلًا مَدِينًا ۚ فَتَرَكُّوهُمَا وَزِينَةً وَخُلُقًا مَا لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ نُصْرَتُ السَّبِيلِ وَبَيْنَهُمَا حَبِيرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَكْثَرِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

خصمه : كثير الخصام.

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز.

الذاب : ما يتدفأ به فوقي الإنسان من البرد.

نزعون : حين تعودون بها إلى المكان الذي خرجت منه للرعي صباحاً.

نسرجون : تخرجون بها إلى المراعى.

الأنفال : جمع نفل، وهو ما يتقل على الناس حملة بالفسهم.

نيل : المشقة.

المصيرل : الأعمال المبلغة إلى الجزاء يوم القيامة.

فصد السبيل : السبيل المستقيمة.

جائر : مضلل حائد عن الاستقامة الموصلة إلى المقصود.

الثر : الخلق والتكثير.

الروامي : التوليت من الجبال.

الميد : الاضطراب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقة ثانية لفت إليها القران الأنظار : هى التحسول المفاجئ في الإنسان المشرك، خلقه الله من نطفة من ماء مهيى على أشد ما يكون من الضعف، فأحاطه بالطاقه

حتى اكتسبت مواهبه العقلية، فإذا هو يصصرف النعمة الكبرى (العقل واللسان) في إنكار الخالق وإثبات شركاء له.

وصل القرآن تلك الظاهرة الغريبة بالفن الأنظار إلى ظواهر أخرى تلهم الإنسان إلى الاعتراف بالخالق المنبر للكون. من ذلك أن الله خلق الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. يتخذ الإنسان من أصوافها وأوبارها ولشعرها ما ينسج منه لباساً أو سقفا للخيمة يمكنه من الدفء ويقيه من البرد. ويأكل من لحومها ما يعوض ما لأذهبه العمل من قواه. ومع ذلك فهي تدخل على نفسه التهجئة والإحسان بجمالها حين تعود من المراعي معتلثة التطور حائلة الضروع. أو تخرج للمرح في الصباح نشيطة متداخلة. كما سخرها لتساعد الإنسان على الضرب في الأرض والتحول بمناحه وتجارته، فتحمل الأقال وتسير بها إلى المكان الذي يقصده، الذي ما كان له أن يبلغه بدون الإبل إلا بجهد عظيم ومشقة كبرى. فلا يقوم ذلك ليلاً على أن يركب الذي تولاكم بعنقه رؤوف بكم رحيم بضعفكم.

وعرض القرآن أيضاً ما خلقه الله من الخيل والبغال والحمير، لافتاً النظر إلى منافعها التي من أبرزها اتخاذها مطايا ليطوي بها الركاب المسافات القريبة والبعيدة، ويستعين بالخيول على الصيد والقنص. ومرة أخرى فيها، أنه خلقها على صورة فيها جمال يمتع البصر. فهي زينة في الأرض وزينة لمن يركبها. وبه القرآن على أن تلك المذكورات وراها خلق لا يوجد في التينة العربية ولا يعرفه المخاضيون. وبعد هذا وذلك ما سئلهم الله إليه الإنسان ليكوّن منه مراكب واليقات تنقله وتنقل أمتعه وتخرق به أجواء السماء. والله هو الملهم الذي خلق للقوانين وخلق الطلقة التي تدير تلك الأنواع المختلفة من الطائرات والمسابرات والرافعات والتصواريخ.

وفوق كل ذلك، فإن الله هو وحده الذي مكن الإنسان بفعله وإرادته، من العقل فرائد إلى طريق الهدى وحصنه برمالاته، فتم تبين الطريق السالك للغايات المحصنة له من الضلال. وبجانب طريق الهدى طريق الضلالة المصحرف عن التصراط المستقيم. والإنسان مختار يملك ما يشاء. ولو شاء الله أن يقصركم على الهدى لفعل، ولكن هذا يرفع التكليف. والله أراد أن يكون الإنسان مكلفاً مختاراً.

ثم واصل القرآن لفت الأنظار إلى ظواهر تثبت تفردة بالآلوهية والقدرة والحكمة. لفت الأنظار إلى الماء النازل من السماء، في إنزاله حكمة وفي ربط حياة الإنسان به في شرايه وفي فلاحته، وفي تحويل الأرض الجرداء به إلى مراعي، وفي

نمشيه في باطن الأرض حتى تحول مع عناصر الأرض إلى زروع وزيوتون ونخل وأغاب، إلى ثمرات مما هو معروف عند المخاطبيين ومما هو منبث في أقطار الأرض، كل ذلك يقوم دليلاً وأصحاحاً لمن يتفكر فيما تنقله إليه حوله ليستلهم الصور فيذكرك الحكمة التي وراءها.

كما لفت الأنظار إلى الليل والنهار والشمس والقمر كيف سخرها فكانت مساعدة لاستخلاف الإنسان في الكون. والنجوم على كثرتها التي ملأت أرجاء السماء فذكر لها مسارها أو مركزها ثابتة في مكانها مستجيبة لقوانين خلقها، وكل ذلك فيه أدلة على أربابها بخالفها للقوم الذين يعملون عقولهم.

وما خلقه ونشأه في الأرض من الحيوان والنبات، يتحد أصله ويختلف اللون ما تفرع منه، يتضمن أيضاً أدلة منادية لقوم يتأملون في الظواهر ويعملون فيها عقولهم.

وسخر كذلك البحر للإنسان، فكان مخزناً للأسمك يأكل الإنسان لحومها بخصائصها من طرولة وجدة، ومع هذا يستخرج الإنسان من البحر اللؤلؤ والمرجان يترين بهما. كما سخر البحر لتجري فيه الفلك للأسفار وللتجارة، إنه إذا تأملتم في نعمة الله تلك يرجى أن تقومكم إلى لشكر.

ثم حول الأنظار للنظام في الأرض خفي، وهو أنه سبحانه الكفى لى الأرض جبالاً راسية ثابتة تحفظ استقرارها وعدم اضطرابها، وأجرى فيها الأنهار الناقلة للخصب إلى الأماكن التي لم تروها الأمطار. ويسر في الأرض إخفاء الطرق التي ينتقل فيها الإنسان من مكان إلى آخر، وقدر أن يكون سطحها مختلف المظاهر لتكوين تلك الاختلافات علامات يهتدي بها لبلوغ المكان المقصود بثون استنباه. كما جعل النجوم علامات في الليل يهتدي بها المسافر في الوقت الذي لا تتبين فيه المعالم الهادية وكذلك في البحر.

وختمت تلك التنبيهات بسؤال ينكر على المشركين ضلالهم، هل يسوي الذي يخلق بالمعجز الذي لا يستطيع أن يخلق شيئاً ؟

ثم لفظ العقل والحص إلى ما يأتي من نعم الله وفضله. فأكد أن الإنسان عاجز عن حصر نعمه، وما يتقنه له هو قليل بالنسبة للنعم التي هو داهل عنها، والتي لا يحصرها العداد. ومن أفضل النعم أن الله يقرر للمؤمنين تجاوزاتهم وبرحمتهم فلا يعاجلهم بالعقوبة.

بيان المعنى العام :

4. خلق الإنسان من نعمة فإذا هو خاسر مبهين.

ثانياً: يتبع القرآن خلق السموات والأرض، وما في خلقهما من دلالة على الوحدانية لله، إذ لا يستطيع أن يتصور لعظمهما أن يكون لهما خالق غيره. يتبع ذلك بلغت الأنظار لخلق الإنسان، ففي ومضة سريعة ينتقل القرآن بالناظرين من نقطة البداية في تكوينه إلى اكتمال قواه البيولوجية، وقراته على البيان والتأثير، اللذين يتفرد بهما عن غيره من بقية الكائنات الأرضية. ويبدو في هذه النقطة العجيبة لبون الشاسع بين المبدأ والوضع الذي آل إليه.

فمبدأ الإنسان قضية لا خلاف فيها، هي النطفة: البهيضة الملقحة المعلقة بجدار الرحم. والتي هي الخلية الأولى التي لا ترى إلا بالمجهر. وسواء نظرت إلى حجمها أو وزنها أو صلابتها، فإنك تجد شيئاً حياً صغيراً جداً. لودع الله في هذا الكائن القاص برنامجاً كاملاً ونقيفاً لتطوره، وأحاطه بالطاقات لينمو ويكتمل حتى يظهر ما كان كامناً فيه. وإذا هو إنسان تنوعت مداركه، ونما عقله. ويستطيع أن يُبلغ ما يريد أن يبلغه بلسانه وأن يؤثر في مخاطبيه، كما يتلقى منهم رسائلهم. ولم يصره خلقه على قول الحق وال التزام الصدق، بل ترك له الحرية في تصريف قواه ومداركه وقوته البيولوجية في الخير أو في الشر. والعجب من الإنسان كيف يتخرف ويستعمل أدلته تلك في تقرير الباطل وبخاصم فيه، ويكد عقله وفصاحته وبيانه لقلب الحقائق ويدافع عن الشرك، ويطمس الفضيلة. كأن هذا الانقلاب أمر مفاجئ إذا جمعت بين مبدئه وبين وضعه الحالي الزانح.

٦-والأنعام خلقها...ومنها تاكلون.

ثالثاً: خلق الأنعام: الإبل والبقرة والغنم والمعز. وهي تجتمع مع الإنسان في كونهما من جنس واحد، هو جنس الحيوان، وتبرز الألفة في القصد من خلقها، الذي هو عون الإنسان على الحياة (لكم) فمنذ من ذلك.

أ- الدفء، الذي يحمي الطاقة الحرارية في الجسم من النزول بلذع البرد، وذلك بما يتخذه من أصوافها وأوبارها وأشعارها من تميج للكساء ومقبق للخيام.

ب - مصالح متنوعة عبر عنها بالمنافع كالألبان، والسماد لتخصيب الأرض.

ج - الأكل من لحومها فتعوض الإنسان عما احترق من الوحدات الحرارية.

6-ولعنه فيها جمال...و حين تسرحون.

رابعا: يغذي الإنسان ذوقه ومشاعره بالجوانب الجمالية في الكون، كما يغذي جسمه بالوحدات الحرارية التي يجدها في أنواع الأطعمة. والأنعام يجد فيها صاحبها عندما تعود من مراعيها تتجاذى وقد امتلأت بطونها بما راعته من النباتات، وحظت

صنوعها بالثلثين، ما يبر نظره وبملا نفسه بالبهجة. وكذلك في تزاجم القطعان من الأنعام، وهي منصرفة إلى للراعي في خفة، منظر لا يخلو من جمال. وإن كان عودتها لم في ذلك. ولذلك قدم القرآن الرواح على السرح.

وفي الامتنان بالفاخرة الجمالية ما يهدي إلى أن الدين الإسلامي ليس لا يفسح دواعي لظفرة السليمة، بل يعزها. فعناية المسلم بالخواهي الجمالية التي تهذب ذوقه وتبني الأجاسيس الرقيقة فيه منسجم مع عمق التثنية، سواء أكل ذلك في مأكله أو ملبسه أو مسكنه. أو في تعبيره وبيانه.

7- وتحمل أمتانكم إلى... ثوروف رحيم.

خامسا: إذن للإنسان أن يمشى في منابك الأرض ويؤدي إلى التحرك في أرجائها. ولما كان ما يملكه وما ينصرف فيه يتجاوز نقله طاقاته البدنية، سخر له الإبل تحمل متاعه وتجارته، وتلقه البلد الذي يريده، وإن كانت المسافة بعيدة لا يبلغ الإنسان قصده إليها إلا بمشقة وتعب شديدين.

وإنك لتلاحظ فضل تسيير الله تلكم الحيوانات للإنسان، فترى الطفل يأخذ بخطام بعيره ويركبه ويسوقه إلى حيث شاء. أفلا تقوم هذه النعم منادية بما تصصف به ربنا من رافة بعباده، بمعدهم بما يهون عليهم المشاق، وبما يعينهم على تحقيق أغراضهم الصالحة في الحياة. وذلك من رحمة التي وسعت كل شيء.

8. والخيول والبغال والحمير سو يخلق ما لا تعلمون.

سادسا: خلق سبحانه الخيل والبغال والحمير وسخرها للإنسان. وامتن على البشر بأن مكنتهم من ركوبها لقطع المسافات، والطرد والقنص. والدفاع والغزو. كما أنها زينة نمر عين مالكها وركابها وللناظر إليها. وما يزال الناس إلى اليوم يعنون بها وخاصة بالخيول. ويبذلون في الجيد منها أثمنا عالية ربما تفوق أفضل السيارات تقانة. وتختص البغال مع جمالها وصلابتها بالقدرة على تسلق الجبال، وهي أفضل ما يستعين به سكان المناطق الوعرة. والحمير المذكور في الأخير منزلتها في الواقع دونهما، ولكنها أوسع فتقاعا إذ يمكن للفير أن يملكها. كما أن سيرها لا يتعب الركاب فيتروح عليها في الأسفار البعيدة. ولما قصرت الآية الامتنان على للركوب والزينة فإنه قد أخذ منه بعض الفقهاء أنه لو كانت للخيول والبغال والحمير يجوز أكل لحومها لبينته الآية. وحاصل الفقه في أكل لحومها:

أما الخيل فقد حرم مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وكثير من الفقهاء أكل لحومها اعتمادا على ما ذكره قريبا. وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين إلى حوافر أكل

لحومها، وهو الأرجح في النظر، لأن الإقتصار على بعض المنافع في مقام الامتنان لا يفيد قصر حلية الانتفاع على ما ذكر، فإن القصر يستلزم بها في الحوت وكذلك الإبل، وتركب أيضا ولم يذكر ذلك في الآية، ولا فائده بحرمته ذلك لعدم ذكره في معرض الامتنان.

بينوا ما البغال فلما كانت نوعا مركبا من نطفة ذكر الحمير والفرس، فمن حرم أكل لحومها حرم أكل لحوم البغال، وأما من أحل أكل لحوم الخيل فقد غلب في البغال صلتها بالحمار فحرم أكلها أيضا، إلا ما روي عن عطاء أنه يجيز لكل لحوم البغال، وهو قول نورد به.

ج - أما الحمر فالقول بتحريم أكل لحومها يقرب من الإجماع.

و تختم الآية بتثبيت قاعدة، هي أن علم الإنسان فاضر حتى فيما سبيله المشاهدة، إذ تثبت الآية أن الله يخلق في الحمال والمستقبل ما لا يعلمه المضطربون بالآية عند نزولها. فهو سبحانه قد خلق من الحيوانات التي يستعين بها الإنسان وتيسر له حياته في بيئته ما لا يعلمه العرب، كالحيوانات التي تجر مراكب البشر في القطب المتجمد، والقفلة التي تعتمد في كثير من حاجات الإنسان في بعض المناطق، والحيوانات التي ظهرت في القارة الأميركية.

كما تكيد الآية أن الله سبيلهم للنشر اكتشاف قولين الطاقة التي يسيرون بها الطائرات ورافعات الأثقال، والمسبارات بمختلف أحجامها وأشكالها، والسفن العملاقة، والصواريخ العابرة للقضاء، وغير ذلك، مما عوض الطاقة الحيوانية وتقدمت به الحضارة أشواطاً. كما يشمل ما هو في علم الخشب مما هو مفتوح للبشر معرفته.

9 - وعلى الله قصد السبيل... لهذا صممت أجمعيت.

الإنسان ممكن في الدنيا من اتباع طريق الخير أو طريق الشر. ونعهد الله سبحانه تفضيلاً منه ورحمةً ببيان طريق الهدى بأمرين:

لأولهما: ما رزقه الإنسان من عقل يميز بين الصالح والطالح والحسن والقبح، والخير والشر، ويتصور العواقب التي ينتهي إليها إذا هو سلك سبيل الهدى، والعاقبة السيئة إذا هو انحرف، وغلب النفع الضئيل القريب على الخير الكثير المضمون في النهاية.

ثانيهما: ما تفضل به سبحانه من إرسال رسله لتفويج مسار الإنسان وللكشف عما يمكن أن تكون للشهوات والعواطف، والعادات السيئة، قد حجبته عن العقل المجرد.

إن قوله تعالى: **ومنها جانار**، أي سبيل غير موصل للمقصود، إلى الخير، الضامن لسلامة الإنسان في الدنيا والآخرة، وضلال ذلكم الطريق هو مسبب عن اختيار الإنسان وترجيحه طريق الضلالة على طريق الهدى.

وتختتم الآية بالتأكيد على أن الله خلق الإنسان خلقا جعله به حرا مختارا، وهذه إرادة الله، ولو شاء سبحانه أن يخلق الإنسان مطبوعا على الخير عاجزا عن الشر لخلقه كذلك، ولكنه لا يكون إنسانا ولا مكلفا ولا مستخلفا في الأرض.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تُبْسَوْنَهَا وَفَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَيدَ وَتَتَنَفَّسُوا مِنْ فَضْلِهِ وَتُلَاقِيكُمْ تَبَاحُورُونَ ﴿٥﴾ وَالْقَلْبَ وَالْأَرْضَ رَوْسًا أَنْ نَمِيزَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أُمَّمٍ لِمَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦﴾ وَعَلَّمَتِمْ وَالنَّجْمَ هُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿٨﴾ وَإِنْ تَعْدُوا بِعَمَةِ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَفَوْزٌ حِمِيمٌ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

تسيمون : تطلقونها للرعى.

آية : دليل على أن الله هو الخلاق وحده.

فرا : أوجد وخلق بواسطة التقابل.

البحر : الجزء الأوسع من الأرض المملوء ماء حلوا أو مالحا.

الدرى : اللبن الغض.

الحلية : ما يتزين به

المخر : الشق.

الروص : الثبات بالمكان.

السبل : جمع سبيل وهو الطريق الذي يملكه المسافرين.

ملاحظات : أمارت يتخذها الإنسان فتحميه من الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

الله هو وحده الذي أنزل الماء من السماء وفي ذلك دليل على تفرد بالآلوهية وخلق سبحانه. ثم في تتبع ما يترب على هذا الماء دلائل أخرى لمن يتأمل . يدخل الماء في تركيب الإنسان وحاجته لزيتوي منه. حاجته إليه لكبد، يستلجع أن يستغنى عن الطعام أياما ولكنه لا يصبر على الماء، ويسري الماء في الأرض فتنبث به الأشجار والكلأ فتزعاها الأعنام، وتدخل لحومها وألبانها في تركيب الإنسان. وخلق في الإنسان القدرة على معرفة قوانين الفلاحة، ولقاء عنصر أساس في الزراعة وفي نمو الأشجار المثمرة من الزيتون والنخيل والأعناب، وما لا يحصى من الأنواع المثمرة مما يتناسب مع كل إقليم. كل ذلك بشرح صدور الذين يفكرون بتفكيرهم إلى معرفة تلك القوانين في قسوى إيمانهم بأن الله وحده هو الخالق العظيم. كما سخر سبحانه للأيل والبهائم ليلتصنغ البشري، وسخر والشمس والنجم تسخيراً للإنسان لا يحوقه عن القيام بسنوره في الكون. وكذلك النجوم التي ملأت قبة السماء، أودع فيها ما جعلها تسبح في الكون وتسير في مساراتها، وفيها دلائل على الحكمة الإلهية وعلى تفرد سبحانه بالتفكير.

بيان المعنى العام :

10- هو الذي أنزل من السماء ... فيه تسيمون.

سابعاً: المنة الكبرى ذات الآثار السدائلة العجيبة.

بين أولاً: أن الإنسان مرتبط بالماء النازل من السماء بتقدير إلهي وفصل منه، فنبين ذلك من قوله مقماً (لكم) إنلهاراً لشدة الارتباط بين البشر وهذا الماء النازل من السماء. وثانياً: أن من هذا الماء سربه، يدخل الماء في كيانته ليعزل مكونات الجسم، ويصفيه من كثير من الفضائل.

وثالثاً: أنه يعمش في باطن الأرض فيخرج من اختلاطه بعناصر الأرض الأشجار بما تحمله من أوراق، والمراعي التي يطلقون فيها لعلهم فتقات من الكلأ، كما تتناول ما تصل إليه من أوراق الشجر. وإذا بالماء النازل من السماء يتضاعف خيره فتتم به الأعنام حتى يصبح قوتاً للناس في اللحوم والألبان.

11- يثبت لكم تقوم بتمسكرون.

ثم بين رابعاً من عجائب القدرة، كيف أن الماء النازل من السماء يرتبط بما لأهم إليه الإنسان من فن فلاحه الأرض، فثبت منه الزروع والزيتون والنخيل

والأعقاب . إن الفارق بين هذه الآية والتي مسبقها أن الآية السابقة تولد فيها عن الماء مراعي وأشجارا لا مدخل لمجهود الإيمان فيها، وهذه الآية تدل على ما يبذل فيه الإنسان مجهودا، فيحراث الأرض، ويلقي بالزريعة في الأرض على طريقة مخصوصة، وكذلك نبتة الزيتون وفيل النخل، وغصن العنب، فهذه الثلاثة عمرت بها المزارع في الجزيرة العربية وما حولها من أرض الشام والعراق. والإنسان يحراث ويزرع ويغرس ويتابعها بالرعاية لتنمو وتثمر، وكلها مرتبطة بالماء النازل من السماء. ووراء ذلك أنواع عديدة تبع لما في كل قطر من أقطار الأرض من خصائص في التربة والمناخ، تمنح الإنسان صنوفا من الثمرات.

عرض القرآن ما عرضه ولفت الأنظار إليه ليجد فيه من كان له عقل يتأمل ولا يتنع بالظواهر، يجد فيما ترتب على نزول الماء من السماء دليلا على أن الله هو المصور بالخلق. ذلك أنه لو لم للإنسان أي دخل لا في إزال الماء من السماء، ولا في الأكار المترتبة عنه، حتى ما يقوم به من مجهود في الزراعة أو الغراسة لا نجح ينجم إلا بفضل من الله.

12- وسبحر لنعلم الليل والنهار...لنقوم بمقاول.

ثامنا : بين من عجائب القدرة كيف طوع سبحانه الليل والنهار والشمس والقمر للإنسان. والذي يظهر أن تسخير الليل للإنسان يبرز تحققه في الملائمة بين الوضع البشري وبين تعاقب الليل والنهار، فلو استمر الليل على الكرة الأرضية أو النهار. لكانت الحياة صعبة جدا لمن لم نقل مستحيلة. فتواصل الليل يصبح نزول الحرارة، المؤثر سلما على حياة الإنسان والحيوان والنبات وفقد الإنسان السكون الليلي الذي يريحه من عناء العمل بالنهار. وكذلك العكس، لو استمر النهار لارتفعت الحرارة إلى درجة تقصد الحياة. وكذلك الشمس في جانبيتها للأرض وما تبعته في الكون من الضوء والحرارة بمقدار تيسر معه حياة الإنسان بصفة ملائمة. ومثلها القمر وبأثيره في المد والجزر، وجاذبيته للأرض بما يمكنها من الاستقرار في مدارها كل ذلك تجده مراعى فيه وضع الإنسان والخواص التي تيسر عليها الحياة.

و من الإعجاز القرآني أنه لما تعرض للنجوم فصلها عن بقية الظواهر. ذلك أنها كثيرة كثرة لا يعلم على وجه الدقة خصائصها إلا خالقها. وتحكمها قوانين صاحبها عند التكوين المعبر عنه بالأمم. ثم إنه حرض العقل الإنساني لينفذ إلى تلك العوالم. وأشار إلى أنه واجد في اهتمامه ذاك أملة متنوعة على تفرد الله بالأكوذية والتأثير. فهي ليست محجوبة لا تتكشف للقدرة العقلية للبشر إذا هم ماروا حسب مناهج البحث المولدة.

و بلا حظ أن الآية السابقة (11) ختمت بأن في ذلك آية، وختمت هذه الآية (12) بأن في ذلك لإيات. وذلك لأن ما تم تعديده في الآية الأولى متبثق من شيء واحد هو الماء ظهر بمظاهر متعددة فغير عنه بآية، لما الآية الأخيرة فهي ظواهر تقوم كل واحدة منها بنفسها وتمثل بذلاتها.

13- وما ذرا لكم ...لقوم يذكرون.

تاسعا: لغت هذه الآية الأنظار إلى ظاهرة الأنوان المختلفة في الكون. نجد اختلافها في النوع الواحد وما في كل لون من جمالي. اعتبر ذلك في الخيل والعصافير والطيور، فقد اختلفت الأنوان مع ألوانها وجدت. ونمت في بيئة واحدة وغذيت بماء واحد واتحد الأنوان. وبكسر ذلك بأن الجينوم ظهر في الحصان الأول فكان لشفر وطير جينوم آخر في أخيه من قبله لو من بعده فكان إدم أو لبعض من السدي جعل الجينوم الخاص المحمول في الخريطة يكون فاعلا أو معطلا؟ إنها فصليا تدعو إلى التأمل مع استحضار مختلف الظواهر لتبين القدرة المؤثرة بالفعل.

14- وهو الذي سخر البحر ...ولعلمك تشكرون.

لبحر قوة عظيمة، عندما يهيج يهلك كل ما يأتي عليه. نظمت لنا وسائل الإعلام للمرئية صورة من زحف البحر على مناطق من شرق آسيا وشاهدنا الكوارث التي تبعت تدفق مياهه. والبلع قاعه من ركسب كثيرة عبر التاريخ. والغواصون المهرة يتولون في ثرات اخراج بقايا السفن العارقة، وفي ذلك ما يحسن بنعمة تسخير لبحر للبشر.

عاشرا : إن هذه القوة العظيمة بلوغها الله للإنسان. هدها إلى صناعة السفن التي ما تزال تتطور حتى أصبحت لأفضل وسيلة لنقل السلع ورواج التجارات، وما يتركب على ذلك من نوخر فروع العمل، وثقال القيررات بين العائلة البشرية ونمو الثروات، ويعم الإنسان بالسباحة في مياه البحر الذي يحتضنه، ويلطف شواطئ البحر. ومن مياهه اهتدى إلى الخطوات الأولى لتحويله إلى ماء صالح للشرب وري الحيوانات والأشجار والنبات. كما تقوم مياهه على تمكين أجهزة من المصانع للعمل. فمناخ البحر بعد تسخيره لا تحد. ولو جعله هادرا مضطربا لتعطيل معظم الكرة الأرضية وحر ج عن خلاقة الأسفل.

و من تسخيره سبحانه البحر أن جعله بيئة صالحة لحياة الأسماك التي تعتبر مقوما غذائيا جيدا للإنسان، بما يحتوي عليه تركيبتها من بروتين وكليسيوم وأصلاح عديدة. وعند القران من المدة أنه قدر أن تكون لحوم الأسماك غضة على خلاف لحوم

الأعنام، والتعبير في العنة بالطري فيه إجماع مرشد إلى أكلها جديدة، مما يليق أن خزنها يقتضي أخذ احتياطات خاصة.

ومنة أخرى أن الله كوّن في البحر أنواعا من الأصناف يستخرج منها اللؤلؤ الذي تقفن الإنسان في نظمه فكان حليا بضيف إلى وسامة الإنسان جاذبية، كما يستخرج من البحر المرجان الذي كان مجالا للبحث ثم تكوين حلي منه أيضا، ولقهم من بسند اللؤلؤ في الحلية إلى ضمير جمع المذكر (تلمسونها) مع أن الغالب في لباس الحلي هو للنساء، إشارة إلى أنه غير محرم على الرجال التزين بالحلي من غير الذهب أو الفضة، وأن لبس خاتم للرجال من فضة لا من ذهب به قص من لؤلؤ، أو من مرجان، حلال.

ومن نعم تسخير البحر، أن هدى الإنسان لقوانين الطفو على سطح الماء فاتخذ للفلك التي تحمل الأقال وتشق البحار رابطة بين البلدان، ميسرة لنقل خيرات الأرض، وكل صروب السلع من مكان إلى آخر، والتعبير بابتغاء الفضل كثر إطلاقه في القرآن على التجارة، كما أشرنا إليه آنفا.

وإذ افتتح نعمة إجراء الفلك في البحر، بأنها نعمة ظاهرة يدركها كل راء (ونرى للفلك فيه مواخر) ناسب أن نختم بأن هذه المشاهدة تقتضي أن يتوجه الإنسان بالشكر لربه على ما أسر وأعان، وفي ذلك تعريض بالمشاركين الذين لفظ حسهم وظلام قلوبهم لم تدهم حتى الأدلة الواضحة للظاهرة.

15- 16، والقي في الأرض...هم يهتدون.

طواهر أربعة جمعها القرآن على أن القدرة الحكيمة هي التي ألقتها على سطح الأرض، فكانها طواهر حدثت بعد التكوين الأول لها، كما تشير إليه كلمة (القي) - الجبال - الأنهار - السبل - العلامات - فلتنظر كل ظاهرة من هذه الطواهر: عبثت الآية عن الجبال بالرواسي، وكشفت الآية عن الحكمة في ذلك: أن دور الجبال فوق سطح الأرض، وتوزيعها على النحو الذي هي عليه حقق توازنا في الكرة الأرضية يحميها من الاضطراب، وهو ما مكن الإنسان من الاستقرار، الشرط الأساسي للعمران، ويمكن أيضا من إقامة المشروعات السكنية والاقتصادية.

١) الأنهار: تتجمع فيها المياه وتتساب على الجنبات فتسقي أراضي شاسعة ما نزل عليها المطر كوضع النيل في مصر، وتمخرها السفن كالبحر، ونقو الد فيها الأسماك، وغير ذلك من المنن.

(2) السبل: لا يستغني الإنسان عن الثقل في أرض الله، كما لا تتم الحضارة إلا بالضرب في الأرض. ويسر الله الأرض فيسبها بشكل يمكن للإنسان أن ينتقل بين أرجائها في يسر. وأتبعته الأنهار والسبل بقوله تعالى: **فعلكم تهتدون**، أي رجاء أن تحصل لكم الهداية المادية التي تخلصكم الغايات التي تصدونها. كما أنها وسائل نصلون بالتأمل فيها إلى الاهتداء إلى إبداع الصنع الإلهي في الكون فتتمكن الهداية الإيمانية منكم.

(3) العلامات، لو كانت الأرض صفحة واحدة لا اختلاف فيها ولا خصائص لأجزائها، لثاء الإنسان في فضائها الواسع البعيد الأرجاء، ولكن حكمة الله جعل لمناطقها خصائص بها تتميز تعرف الإنسان بالمنطقة التي هو فيها. كما ألهمه أن يقيم معالم يعرف بها الطريق للمالك، ولا يختلط عليه سبيل العودة، وهذه نعم مثبته أن كل دقيقة في الكون آية دالة على الحكمة اللامتناهية، وإن كان كثير من الناس قد يظفون عنها.

(4) وخص بعض النجوم بخصائص يهتدي بها البشر في مساهمهم، في الوقت الذي يطبق فيه ظلام الليل على المعالم، كما يهتدي بها المسافرون في البحار ولا معالم، كما ينتفع من ظهور بعضها تغير الفصول، فيعتدون على ذلك في الزراعة، وبالجملة فإن ما عرث به السماء من نجوم يكون هداية لفريق من الناس، هم جزء من الجماعة الإنسانية وفضل نشاطهم تنفع به المجموعة البشرية.

17- 18: افهمي يخلق... تهتدون بحية.

تتابع في هذا المقطع لفت الأنظار إلى النعم التي هي من فضل الله ولطفه بالإيمان. وحرك العقول والمذرك لاستحصارها وللانتقال منها إلى مبدعها، والتركيز على أنه لا يستطيع أن يدعي أحد أن له شركاء في إيصاليها للبشرية، ولا في تنظيمها التظيم التي هي عليه.

فاستفهم القرآن استفهاماً يذكر فيه على المشركين ضلالهم، إذ ادعوا أن له شركاء، مما يبلى عن غيبتهم في تسوية من هو عاجز عن خلق أي شيء مما ذكرته الآيات ولقائمه تسليلاً على تصرف الله بالتأثير، تسويته بمن تفرد بالخلق والتقدير والحكمة في خلقه. ثم يقرعهم على اختلال تفكيرهم ويسجل عليهم بأداة التحريض أنهم لا يتفكرون فيما هو مشاهد أمامهم.

تفرد الله سبحانه بالخلق بمعناه الحقيقي الكامل الخلق الذي قسرو خصائصه وأثوره. هو الخلق الذي لا يتوقف على وجود مادة سابقة، إذ هو مبدئ عمن العلم الحقيقي الشامل لجميع الجزئيات الظاهرة والكاملة، وعن القدرة النافذة، وعن الإرادة الحرة. يستجيب فيه المخلوق لإرادة الخالق وحكمته. فيبرز للوجود حسب التدبير السابق ولا أثر للمصادفة.

وليس لأحد سواه أي أثر في الخلق بهذا المفهوم الحقيقي لا في حال إيجاده، ولا لأكاره بعد إنجازه ولا لعلاقته بعد إنجازه في الحاضر والمستقبل الغريب والبعيد.

فدعوى بعض الواعمين أن لهم قدرات على الخلق دعوى كاذبة، وزيف بعيد كل البعد عن الحقيقة.

ررد بعض خريجي "الصربون" الفرنسي منوهين بـ"الفكر الخلاق" وليس للفكر مهما تود وصفا أن يخلق شيئا، وغاية ما يصل إليه الانكشاف المطابق للحقيقة، فليأمل البشر حامدين ما منحهم الله من قوى التفكير ليذكروا صدق هذه الحقيقة: الخلق لله وحده. **أَمَّنْ يَخْلُقُ مِمَّنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.**

ويُختم العرض بقاعدة جامعة عامة، تحرك العقل ليتأمل، والمشاعر لتتطلق في الاتصال بالكون، بما يصحبه من تنبوع للنعم الله على الإنسان، ويفتحا النصوص القرآني بتلك الصورة البديعة: أن للكون الكثرة من النعم التي لم تترك جانبا من جوانب الوجود، ولا حطا من حظوظ البشر، ولا تنظيما والطافا مقترنة في سير الحياة، هي كثرة كثرة يتجاوز حصرها وتعددها قدرات الطاقات البشرية، وفوق ذلك كله، إن الإنسان لضعفه قد وقع في المعصية ويستعين بفضل الله عليه على ارتكاب الإثم، ويذهل عما توجب النعم من الشكر، ويظهر القرآن نعمة هي أجل النعم ويذكر بها: إن الله لغفور رحيم، يمحو ذنوبهم ويسعفهم برحمته التي وسعت كل شيء، اللهم لا تحرمنا مغفرتك وأدخلنا ربنا في رحمك.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْسِرُونَ ۚ وَأَلَيْسَ قَدْ عُلِّمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۚ أَمْ لَهُمْ أَشْيَاءُ غَيْرُ أَخْيَارٍ ۚ وَبِشْعَرَتٍ أَتَانِ يَنْعَمُونَ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَإِنَّهٗ وَجِدٌ قَالِيسٍ ۚ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُّسْكِرَةٌ ۚ هُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ۚ لَا خَيْرَ لِمَنْ أَتَى بَغْيُهُ مَا يُبْسِرُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

أولاً : اسم استقحام، مركب من (أي) و (ان) بمعنى أي وقت.

البعث : الإرسال، والمقصود به في اصطلاح القرآن إحضار الناس للحساب.

مفسر : ناجدة.

لا جرم : لا بد، حقا.

بيان المعنى الإجمالي :

لخصت الآيات المحددة للنعم إلى إثبات تفرد الله بالخلق، وأنه غفور رحيم. وواصل القرآن مفصلا بعض ما يوضح العقيدة الحق، التي منها إثبات أن الله هو المتفرد بعلم الظواهر والحقايق، وعلمه الكامل يتبعه حتما أن يكون هو وحده الخالق، وأن ألهتهم عاجزة عن خلق أي شيء ولو كان ثقلها، بل هي مخلوقة فالحجارة التي نجت منها الأسمان مخلوقة لله، وليس لها روح ولا حركة فهي ميتة لا تعلم ما هو

محيط بها، وكذلك عبثتها لا يشعرون بالوقت الذي سيقومون فيه من قبورهم إلى البيث.

ثم صرح القرآن بالحقيقة التي تميز للمسلمين، هي اعتقادهم أن إلههم واحد لا شريك له. وأن الكفرة الذين من أخص صفاتهم إنكار البيث، الذي يحملهم على مرتبة ملوكهم. قد استحوذوا الإنكار والعناد على قلوبهم فلم يبق فيها منفذ لنور الهداية. وجرهم ذلك للاستكبار. وحفا لا نك فيه أن الله يعلم مكرهم كعلمه بما يظهرونه، مما يشير إلى أنه سبحانه وبجلازيمهم عن كفرهم وعن مؤامراتهم، وعن خبيث فعالهم، جزاء سيلحقهم وهم محرومون من رحمة الله لأنه سبحانه بمقت المستكبرين ولا يحبهم.

بيان المعنى العام :

19 والله يعلم ما تسرون وما تعلنون.

امتزج في هذه الآية بيان حقيقة مفادها: أن علم الله علم ذاتي حاصل بدون أسباب، على معنى أن علمه بالباطن الخفية معاً يسره الإنسان في نفسه ويجري في باطنه ولا يعبر عنه بلسانه ولا يفعله، هو كعلمه بما تصدر آثاره عن صاحبه بالكلام أو الفعل فتشاهد في الخارج . كما هو تهديد للمشركين أن ما يكتفونه هو كما يعلنونه سيذللون جزاءه. وبذلك يكون كل ما أعده من مكر بالمسلمين سباقبون عليه وإن لم يتيسر لهم تنفيذه.

20 والذين تدعون...وهم يخلعون.

صرحت الآية بعجز الأصنام التي يعبدونها، ويكذبون إليها عن الخلق، بمستوي في ذلك التلف والمظيم من الكائنات، ثم أكد عجز تلك الأصنام بإيراد السلول على ذلك، إنهم مخلوقون من الحجارة التي نحتوا منها، وما كسل مخلوقاً لا يقبل عقلاً أن يكون خالقاً، لما في ذلك من قلب الحقائق، ولإذلالهم لم يذكر الفاعل الذي خلقهم، وبقي معلوماً من المقام.

21 أموات غير أحياء، وهم مستكبرون.

إن الأصنام جامدة لا تتحرك، فهي ميتة لا روح لها ولا شعور ولا إرادة، وكنت الآية هذه الحقيقة لشدة غفلة المشركين عنها، فأضافت إلى وصف الموت أنهم غير أحياء.

ثم إن عبثتها لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم ليلقوا جزاءهم، وفي هذا إشارة إلى أن البيث انت لا ريب فيه. وعدم شعورهم بتاريخ قيام الساعة، وأنها تبخضهم تهديد لهم بما سيلقونه بعد البيث . فاستوى جهل المشركين بين الحاضر الذي أثبتوا فيه لله شركاء، وبين المستقبل الموعود به فنفسوه. ولا يقال إن المؤمنين أيضاً لا يعلمون متى تقوم الساعة، وذلك للنقطة في التعبير الذي تم عليه صياغة الآية، قال تعالى : **وما يشعرون** فأمر الساعة لم يدخل في شعورهم أصلاً لا في حقيقة ولا في زمنه،

لما المؤمنون فكما وصفهم القرآن: **وَالَّذِينَ آمَنُوا مَشَلَقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ** فهي حاضرة في مشاعرهم يتفكرون فيها فتقوى خشيتهم وتصلح أعمالهم.

22- **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ.**

صرحت الآية بما مهدت له الآيات السابقة التي هدمت مما يقوم عليه الشرك. والحقيقة التي تستخلص مما تقدم: أن إلهكم واحد لا شريك له، فأنتم أصحاب العقيدة الحق. وتصوركم يقوم على أساس الوحدة المعنى النفس للمصداق الذي ضل فيه كثير من الأمم. قال تعالى: **وَمَا يَزْمِنُ اللَّهُ كُفْرَهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ عَشْرُونَ¹** وفي مقابلة المؤمنين، الذين شرفهم الله بالخطاب (إلحكم)، الكفرة الذين تكبرتهم الآية بأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، تعمق في قلوبهم الكفر حتى أصبحت تنكر هذا الدين، وتمكن الجحد لحقائقه فيها فتحول إلى عناد ورفض وعدم نظر في محتوياته، وأصيبوا بالداء الخبيث النفسي، داء الاعتداد بما عندهم والترفع عن الحق.

23- **لَا جُرمَ أَنْ تَعْلَمَ... لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .**

وإذا عرفت الآية 22 التركيب النفسي الفاسد للكفرة، أفادت هذه الآية أنه لا جرم، وهذه الصيغة تفيد التحقق لما يرد بعدها تحقفا لا يدخله الشك. أن الله يعلم ما يتبع كفرهم من الضلالات التي يسرونها ولا يعلنونها، ومن المنابر والأفعال القبيحة التي يبدونها ويظهرونها. وفي ذلك وعيد شديد مقرون بالعقل، إنه إذا كان الله يعلم ما يبطونه وما يهينونه في السر لتوقيف مد الدعوة الإسلامية، ولا يخفى عليه شيء من المؤامرات التي يعقدونها في الخفاء للمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، كلمه تعالى بما يسلطونه من تعذيب على المؤمنين لفتنتهم عن دينهم، فإن في معنى علمه تعالى بذلك أنه سيجازيهم على هسادهم وظلمهم واحتقارهم للإسلام وأهله. وإنه سبحانه مع أنه الرحيم الرحمن لا يرحمهم، لأنهم استكبروا والله يمقت المستكبرين ولا يحبهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا آخِزُكُمْ قَالَُوا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ يَنْحِيلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلِلُونَهُمْ بَغْيًا عَنَّا أَلَا مَاءً مَائِدًا ﴿٢٥﴾ فَذَلِكَ نَعْتَرُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَائِلِينَ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُهُمْ يُبْغِضُ اللَّهُ فُتُورَهُمْ وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزَوْنَ وَيَقُولُ الْكَافِرُ أَكُنْتُ تُشْرِكًا وَكَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَقِرُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ

¹ سورة الشعراء آية 17

² سورة يوسف آية 106

وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمُشْرِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَازِمَ
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَّاهُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خِزَابًا فِيهَا تَلْقَوْنَ أَشْوَى الْمُنْتَكَرِينَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأساطير : جمع أسطورة وهي القصة.

الأوزار : جمع وزر بمعنى الثقل، وقصد به الذنب.

مكر : الحق الضر بغيره مع خداعه بأنه له ناصح.

القواعد : الأسس والأساطين.

خز : سقط.

المشافة : الاشتداد في الخصومة.

الكلبي : الإهانة .

ألقوا السهم : خضعوا بمذلة مظهرين الانصياع.

المنوى : موضع الإقامة .

بيان المعنى الإجمالي :

عمل مشرك مكة على صد الناس عن الدخول في دين الله، فكانوا إذا مثلوا عن
طبيعة دين الإسلام، أجابوا بأنها أساطير وقصص، ليس فيها شيء من الحكمة ولا
السمو .

وما ذا كانت فتحة إضلالهم للذين طلبوا منهم أن يساعدوهم على إدراك الحقيقة ؟
النتيجة: أنهم يأتون يوم القيامة محملين بأثقال الذنوب التي ارتكبوها، وبأثقال ذنوب
الذين أوقعوهم في الضلال، وما أسوأ وضعهم وهم برزجون تحت أثقال الذنوب
المضاعفة !

يثبت الله نبيه بأن مكر مشركي مكة بمغالطة من يرغب في الدخول في الإسلام
سينتهي بهم إلى ما انتهى إليه الصادقون عن الإيمان في الأمم السابقة . سيمحقون
محققا لا يجدون منه نجاة. مثلهم كمثل من اتخذ بيتا فوق أركانه ولقام سقفه على
أعمدة صلبة، وفي لحظة ترتج الأرض وتتناثر الأركان وتتكسر الأعمدة ويهوى
السقف فوق الرؤوس، ويسحق من كان يظن أنه محمي بذلك البناء، دون أن يشعر
للجهة التي جاء منها التدمير .

ثم يعرض القرآن ما تلقاه المشركون، فثبت أن الله بنالهم، ويؤخهم على رؤوس
الاشهاد فيسألهم أين الشركاء الذين تعلقت بهم تعلقا كبيرا، فجعلتموهم في شق وانما
في شق ؟ وينطق الذين منحهم الله العلم قاضاء فكرهم وروحهم فيقولون إن الذلّة
والعاقبة السيئة حقوق بأن تصبا على الكافرين .

إن الذلّة المسلط على الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، بصحبهم من اللحظة التي تأتيهم
فيها الملائكة ليقض أرواحهم . إنهم يستسلمون وتنزع عنهم نفوسهم فيقولون
كما يقول كل مجرم عند القبض عليه : لم أفعل سوءا . ويبطل الملائكة كلامهم
بآيات جريمة شركهم بالله، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا يضيع ما سجل
عليكم من سوء أعمالكم، ويقال له يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم ذلك ما لكم فأنتم
مخلدون فيها، فيتضاعف عذابهم باليأس من توقع رفع العذاب عنهم، وما أسوا
عاقبة المتكبرين الذين قادهم كبرهم إلى سوء المصير .

بيان المعنى العام :

24 وإذا قيل لهم قالوا أساطير الأولين .

لا شك أن الوحي المنزل على رسول الله ﷺ قد حرك العرف، وكان حديث
مجالسهم، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر معبت
النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم
لّه نبي يأتيه الخبر من السماء، ولسع من قوله ثم انتكس . فاستطلق الأخ لقلبيه وسمع
من قوله، ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال: والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن
الشر . فقلت له: لم تنفني من الخبر، قال : فأخذت جرابا وعصا ثم قبلت إلى مكة
فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد
قال فمر بي عليّ فقال : كان الرجل غريب، قال قلت : نعم، قال فاستطلق إليّ
المنزل، قال فاستقلت معه لا يسألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت
إلى المسجد لأسأل عنه، ولهم أحد يخبرني عنه شيء فمر بي عليّ فقال : أما إن
الرجل إن يعام منزهة بعدا قال: قلت : لا قال انطلق معي، فقال ما أمرك وما
أفدك هذه اليلة ؟ قال: قلت له: إن كنت عليّ أخبرك، قال فسأني أفعّل، فقال: قلت
له: بلغنا أنه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه فوجع ولم يشفني
من الخير فأردت أن ألقاه، فقال له : أما إنك قد رشت، هذا وجهي إليه فاتبعني،
ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحدا أخافه عليك فمت إلى الحائط كاني أصليح نعلي.
وامض أنت، فمضيت معه حتى دخل عليه ودخلت معه على النبي صلى

الله عليه وسلم، فقلت له اعرض علي الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلي بذلك، فإذا بلغك ظهورنا فاقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فخرج حتى أتى المسجد وقريش قومه، فقال: يا معشر قريش: بأطلى صوتي إلي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابي، فضربت لأصوت، فأدركني العباس وأكسب علي ثم أقبل عليهم فقال ولكم: تقتلون رجلا من غفار. ومتجرركم ومسرركم علي غفار! فاقبلوا علي، فلما أصبحت لقد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فعاثوا قوموا إلى هذا الصابي، فمئع مثل ما صنّع بالأمس، وأدركني العباس فأكسب علي وقال مثل مقالته بالأمس.¹

بمقدار ما كان النبي صلى الله عليه وآله ثابتا علي دعوة للناس لدين الله، بمقدار ما كانت قريش تصد الناس عنه، فكانوا يتعرضون للواردين إلي مكة ليقذفوا في الكفارهم الأباطيل، من ذلك أنهم يضللون من يسألهم عن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ فيزعمون: أن ما جاء به إن هو إلا مجموعة من القصص وأخبار الأمم الماضية، على أن المزل من عند الله لا يكون أخبارا وقصصا.

25- ليحملوا أوزارهم...ألا ساء ما يوزون.

لما كان مال ما يوزونه من الفرائض وتضليل ؟ مآلهم أنهم أضلوا إلى ما هو مسجل عليهم من جميع الأثام بسبب كفرهم، وما استحقوه عليها من العذاب، أضلوا إلى ذلك أن أثام الذين أغروهم وضللهم فاحرفوا عن الصراط المستقيم، سيحملون مثل أثامهم دون أن ينقص من أثامهم شيء، وعلى هذا النحو من الخسران يقدمون يوم القيامة تحت ثقل الأثام. نعم كسان أضلّهم للذين استرشدوهم وطلبوا منهم الهداية ناشئا عن جهلهم وبعدهم عن المعرفة الصحيحة.

وإن قد جئت الآية وضعية المشركين المضللين، بأنهم يوزون يوم القيامة تحت ثقل أثامهم، وأثام الذين ضللّوهم، كان موقع التطبيق، على وضعهم ذلك، بأنه وضع سيء، كان موقعا رديفا.

26- قد مكبر الذين من قبلهم...من حيث لا يشعرون.

تذكير بسنة الله التي يتصالح بها الذين يصدون الناس عن الإيمان لايسين ثوب النصيحة ليخبروا من يسألهم، مصى فريق من المدعويين إلى الإيمان على لسان

لرسل السابقين، على طريقة الخداع لمن يسألهم عن مضمون ما جاء به الرسل، فيطهرون لهم أن ما جاء به ليس له حقيقة، وأنهم يخشون عليهم من أن يفعلوا في الضلال. لقد كانت سنة الله معهم أنه استاصلهم استئصالاً لم يستطعوا للتحصن منه. جسم القرآن العذاب الساحق الذي يفنيهم، فصوره في صورة من اتخذ بيتاً قوياً بنيته بقواعد ضاربة في عمق الأرض، وأقام أعمدة ثابتة رفع عليها السقف، وفي لحظة ينقض القضاء فتهدر القواعد وتتهاوى الأعمدة ويسقط السقف فوق رؤوسهم فيسحقهم، ويسلط عليهم العذاب الممتور من جهة، ما كانوا يتوقعون أنهم يمدون من قبلها، فهو عذاب ياجت يزلزل المعذب ويكون أشدّ إبلاماً له. ذلك أن العذاب إذا كان تدريجياً فإن النفس تعود عليه وتتهبأ لما ينتهي إليه بخلاف العذاب الباعث.

وتحقق الآية أمرين:

أولهما: تثبيت للنبي ﷺ ونوحيين مكر مشركي مكة، على أن مآلهم الهلاك والخسران.

وثانيهما: تهديد للمشركين أنه سيحيق بهم العذاب، وسيلقون ما آلفاه أسلافهم في الأمم السابقة.

27- ثم يوم القيامة يحزنهم... والسوء على الكافرين.

إنه مع للعذاب الناجز المفرد لهم، سيمقتهم الله يوم القيامة ويهبطهم، ولم تفصل الآية نوع الخزي الذي سيحل بهم، إذ هو شأن من شؤون الآخرة أشدّ نكالاً وأعظم إهانة من كل ما هو معروف في الدنيا.

ويضاف إلى خزيهم فضحهم على رؤوس الأشهاد، أنهم يسألون سؤال نوبيخ ابن الشركاء الذين كنتم تعبدونهم، وتجعلونهم مسؤولين لي تصورونهم على أنهم في شق أهل أن يعبد، وأنا في شق آخر مهمل.

إنه سؤال يفزع منه كل متبصر وكل مؤمن، ويرتفع من حناجر أهل العلم صوت صادق فيعلنون: أن المسؤولين قد أهلكوا أنفسهم، وأنهم مؤهلون لينزل بهم العذاب ويكونوا في أسوأ الأحوال. الكلام في قوة أنهم يتبرأون مما سمعوا ويشبون أنهم لا صلة بينهم وبين هؤلاء الكفرة المسؤولين، وأنهم حقيقون بما سبقت فيهم من الخذل والإهانة، وأنه هو الملأ.

28-29، الذين تتوالاهم... ملأى المتكبرين.

واصل القرآن بيان خزي الكافرين، ببيان أن عذابهم يبدأ يوم تنزع الملائكة أرواحهم. الذي فهمته من الآية أن رحلة العذاب تنطلق من اللحظة التي تنبض الملائكة أرواحهم في الدنيا، ثم تتواصل إلى أن يدخلوا في مستقرهم الذي تقرر لهم

(جهنم). وقد أكد القرآن في أكثر من مناسبة أن للكفرة الأشقياء، يكون وقت النزع هو أول مراحل العذاب قال تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الْمَظْهُورَ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْسَاءَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ¹ - (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْسَاءَهُمْ) ² - ويكون شأنهم كشأن المجرم وقت إلقاء القهقري عليه، يُسْرَعُ بِالْتَبْرِؤِ مِنْ فُسَادِهِ وَيُظْهِرُ نَفْسَهُ بِمُظْهِرِ الْمُسْتَسْلِمِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْكَرًا .

نتج الآية : أن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، والشرك أعظم أنواع الظلم، تبيض الملائكة أرواحهم قبضاً مقترناً بالشدة والعذاب، فيستسلمون في ذل، ثم يعمرون في استكاثرة بأنهم عباد صالحون ما عملوا سوءاً في حياتهم . ويلقون الرد السريع الذي يبطئ دعواهم، يقول الملائكة: بلى، الدالة على إبطال كلامهم ونزع الصدق عن مضمونه، أي إنكم عملتم السوء، واليوم لا يفيدكم الإنكار، لأن الله عليم بكل ما صدر منكم . سجله عليكم ولا يعزب عن علم الله صغيرة ولا كبيرة من أفعالكم . أي إننا موكلون جميعاً أعلمنا الله بما كنتم تعملون، نعاملكم على نفس النسق الذي عاملنا به الذين تقدموكم من المشركين . ويقال لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم، فينشق كل واحد إلى الباب الذي قدر له للدخول منه، ويلقى العذاب الذي كتب له، ويحل في قلبه اليأس من تحوله عن وضعه، إذ يصحب دخوله لمستقره (علامه أنه خالد في منزلته المشؤومة خلوداً أبدياً سرمدياً .

وإذا لا لكل داخل لجهنم بسمعهم رب العزة: ما أسوأ مقام المتكبرين. وقد ربط جزاء الكافرين بما كانوا عليه في الدنيا من استيلاء الكبر عليهم، وفي ذلك إشارة إلى مساواتهم لإبليس الذي عصى ربه ولم يسجد بسبب تكبره، فلحقته اللعنة إلى يوم الدين.

وفي تتبع أحوال المشركين هذا التتبع وربطه بالتكبر، ما يحرك كل مؤمن ومؤمنة ليكون يقظاً حذراً من داء الكبر الذي يعنى للصغيرة، ويُسْجَعُ عَلَى الشَّرِّ، ويقطع أواصر المجتمع فيتخلخل البناء الاجتماعي.

• وَلَقَدْ أَتَوْا آتَفَوْا مَاذَا أَوَّلَ زَيْكُمُ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ۚ إِنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا ۚ لَّيْسَ دَا الْمُنْعِي ۚ خَلَّتْ عَيْنٌ يَدُ خُلُونَا نَجْرِي مِنْ

¹ سورة الأفعال آية 51

² سورة محمد آية 27

تَحِبُّ الْأَنتَهَرُ مَنْ فِيهَا مَا يَنْفَعُ وَتُكْذِّبُكَ حِزْبِي اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ تَتَوَقَّعُهُمُ
الْمَلَكَةُ عَلَيْهِمْ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا
ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيْفَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا
وَخَافَ بَعِيضٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

طوبيين: جمع طيب وأصله حسن الرائحة، ويسمعمل للدلالة على الحسن والكمال.

ينظرون: ينتظرون.

حاق: نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي:

قطع القرآن بسط ما يتعلق بالمؤمنين وعجل ببشارة المؤمنين المتقين، هؤلاء الذين
استقر القرآن في نفوسهم ورضوا به رضا جعلهم يجيبون من يسألهم عما بلغه
رسول الله ﷺ منزلاً من ربه، يجيبون بأنه الخير الكامل في كل ناحية من نواحي
الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ويقر القرآن أن جزاء المحسنين من جنس ما قدموا
حسنة في الدنيا، وحسنة في الدار الآخرة هي الفضل مما يلقونه من جزاء في الدنيا
،ويقال فيها: نعم البدار دار المتقين، هي جنات، ظاهرة الخصيب واضحة فيها،
تخللها الأنهار الجارية، من كرامتهم على ربهم أنهم كلما هموا بكسب شيء وجدوه
حاضراً. وعلى هذا النسق يجزي الله المتقين.

تبدأ كرامتهم عند التزعم بتطهيرهم من جميع الأدناس والآثام. تتقدم الملائكة إليهم
بالسلام المنيب للطمأنينة، ثم يؤذن لهم يوم القيامة بدخول الجنة ومباغلة في
إكرامهم يعلن أن ما نالوه هو جزاء صلح أعمالهم في الدنيا.

عود إلى تهديد الكفرة. إنهم لا يترقبون إلا أحد أمرين: إما قبض أرواحهم من
ملائكة العذاب، لو أن يأتوهم عذاب يستاصلهم. وهي سدة الله مع المكذبين من الأمم
السابقة الذين فعلوا مثل فعل مشركي مكة. حقت عليهم كلمة العذاب. وكان ذلك
جزاء عادلاً. لم يظلمهم الله، لأنه بعث لهم الرسل وأقام لهم الدلائل على طريق
الهدى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالعناد والإشراك بالله، فجازاهم الله في الدنيا بسينات
أعمالهم، وأطبق عليهم عقابه استهزئتهم بآيات الله وبرحمته.

بيان المعنى العام :

30/31- وقيل للذين اتقوا...يجزي الله المتقين.

لما بسط القرآن القول في بيان وضع المشركين ومآلهم، عجل بالحديث عن القسم المقابل للذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به، ثم طبقوا وعاشوا هذا الدين فعبر عنهم بالمتقين . فوضعهم أولاً في إطار عام، هو إطار الرضا والافتناع بأن وضعهم بهذا الدين هو أحسن وضع، وفعل القرآن في حياتهم وفي مشاعرهم أفضل فعل وأتمه وأحسنه، وإذا كان للكافرون عندما يسألون عن القرآن يجيبون بأنه أساطير، فإن المؤمنين عندما يسألون عن القرآن وعاشوا به النبي ﷺ يجيبون الجواب العام الذي يجعل المسائل كلها فكر في جانب من الجوانب بجد صياغة الجواب نوضحه، فقولهم: (خيرا) كلمة جامعة لكل مرتبة من مراتب الكمالات والفضل والحسن، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

ويعقب القرآن على رضاهم وعلى إيجابتهم بعرض قاعدة عامة فيما يلقونه، تتكلم مع ما انطوت عليه ضمائرهم وما جرى عليه عملهم: إن للذين أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملًا، يلقون جزاء من جلس عملهم، هو الحسنة في الدنيا والآخرة. يوضح هذا ما أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له : عن انس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الزرق في الدنيا، ويجزي به في الآخرة، وأما الكافر فيعطي بحسناته في الدنيا، فإذا لقي الله عز وجل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطي بها خيرا¹) وينطق القرآن بالتنبيه على أن جزاءهم في الآخرة هو الفضل والمكمل وأحسن. ويعبر بدار الآخرة خلافاً لتعبيره عن مآل المشركين بأنه مثوى . وذلك لما بين العازلين من اختلاف، فمقام المنعمين في الجنة مقام راحة واستقرار وأمر كما هو ظلال كلمة الدار في الاستعمال، بينما الكفار يلقون في جهنم باعتبارها قراراً لهم لا يجدون فيها راحة ولا سعة فعبر عنها بكلمة مثوى. تختم الآية بإنشاء التفضيل السنيير للمتعجب من الخبر الذي هم فيه، ولنعم دار المتقين .

هذه الدار هي جنات عدن وإقامة مهيباً لهم بدخلونها دخول الكرامة ولا يبرحونها. جمعت أنواع التكريم، بعم الخصب جناتها، وتخللها الأنهار الجارية . ولا ينقص من نعمهم الحرمان من أي شيء، فكلمنا ناقث نفوسهم لنشبع ورغبوا فيه وجدوه حاصراً، إنه على هذا النحو من الجزاء يكون جزاء المتقين.

32- الذين لتوفاهم -سجما مكتتم تعملون-

وتختتم هذه الآية بالتقابل بين الراضين، وضع الكافرين: الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، ووضع المؤمنين للمتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. وصفتهم الآية بالطيبين، وإذا كان أصل كلمة الطيب تستعمل في الرائحة الحسنة التي تميز إليها النفس فإنه قد توسع فيها فأصبحت تدل على الوضع الأكمل المرغوب فيه، مما يعني أن الله يكرمهم فينقيهم من جميع النقصان ويكونون على أكمل حالة إنسانية، ثم يرفعون عنهم الأثر عجاج من الموت فيحيونهم بالسلام، فيفارقون الدنيا وهم في أمن، ثم يوم القيامة يكرمون بتوجه الخطاب بالإن في دخول الجنة. ومن بالغ الفضل وعظيم التكريم أن يخاطبوا بأن الجنة التي تدخلونها هي جزاء أعمالكم، واعتبرنا هذا تكريما مضاعفا، لأن الجنة هي بفضل الله وتفاضل الأعمال عن الفوز بها، والمنة الكبرى من ربهم خطابهم بتقدير أعمالهم تقديرًا جمل الجنة جزاء لهم بها، والله ذو الفضل العظيم.

33/34- هل ينظرون -سجما مكاتوا به يستهزون-

بعد أن طمان القراء المتقين وعرض ما سيلقونه من حسن الجزاء في الدنيا والأخرة، توجه إلى المشركين ليشتع بهم، فيضح بخلافهم. فقال تعالى: إنهم لا ينظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين: ما سبق أن قرره القرآن من نزع الملائكة أرواحهم أول مراحل العذاب والنكال، أو أن ينزل بهم ما قدره الله لهم من الاستئصال على ما تقدم قريبا من التهديد في قوله تعالى: **فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السلف من ذولهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**¹. وحقق القرآن ذلك بأن هذه سنة الله مع الكفرة الذين مضوا من الأمم السابقة. وذكر القرآن بأن ما نالهم هو جزاء عمل لكفرهم وثباتهم على الضلال، فتسلط العذاب عليهم كتسلطه على الذين من قبلهم لا ظلم فيه، ولكن السابقين والحاضرين هم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم طريق الضلالة والكفر بإيات الله، وصدودهم عن التذير في الآيات التي حاءتهم من عذبه. وبعد تنبيههم من قبل رسل الله على ما ينتظروهم من سوء العسير، إليهم صمموا على رفض الهدى، ومضوا في الحياة متحذرين للأوامر والنواهي الإلهية، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحاط بهم العقاب إحاطة لا يجدون منه هفوا، بسبب إقامتهم على مغالبة جذ الرماللة بالاستهزاء.

وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْكَ الْمُتَوَسِّلِينَ إِنَّ اللَّهَ مَا عْبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
 خَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَهْلَ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا
 الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الطُّغْيَانَ فَمِيتَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ تَبَسَّوْا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧﴾ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى مُدْنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ .

البلاغ المبين : الإبلاغ الواضح الموضح .

الطغوت : ما عدا من دونه من إله من إلهان راض بذلك لو حيوان لو جماد .

الحرص : الإرادة القوية في الشيء .

بيان المعنى الإجمالي .

يسجل القرآن فساد تفكير المتركين ومحدودية فهمهم، فقد تخيلوا أنهم أنشأوا بحجة
 قاطعة يبرر ما هم عليه، قالوا: إن الله يعلم ما نعتقد وما نعلمه وما نعلمه وما نعلمه
 نحن وأبائنا، فلو كان غير راض به لنعننا منه، وهو القدير على كل شيء كما يقوله
 محمد. رد عليهم القرآن بأن هذه مقالة ليست جديدة، بل قالها من كان قبلهم، وسلط
 الله عليهم العذاب الذي استأصلهم فلو كان ما اعترضوا به صالحا لسا لال المشركين
 من الأمم قبلهم العذاب، ثم إن طبيعة الرسالة : أن المرسلين يبلغون ما أنزل عليهم
 من ربهم ويوضحونه للناس ولا يجبرون أحدا على اتباعهم .

ثم فصل القرآن: وما على الرسل إلا البلاغ المبين: أنه تعالى بعث في كل أمة
 رسولا يبلغهم ويبين لهم، وأول همه عبادة الله وحده والبعاد كل البعد عن عبادة
 البشر والحيوانات والأشياء، وإن من البشر من اهتدى فكأنت هدايته من الله بفضل
 بيان الرسل وأعمال العقل حسب القوانين المنتجة. وإن منهم من اتبع هواه وأقام
 على ما كان يعتقد ويسير عليه، فأعرض عن هداية المرسلين وثبت على غويته .
 ثم فتح بصائر المخاطبين بسامره لهم أن يسيروا في الأرض ليشتاهدوا عاقبة الذين
 أعرضوا عن هداية الله كيف حل عليهم من العذاب ما استأصلهم. ثم يخاطب الله
 نبيه أنه وإن كان حريصا أشد الحرص على هداية قومه فإن الله قدر أن لا يكون
 الناس مؤمنين جميعا، ومن قدر له الضلالة لا يؤمن. ومعنى ذلك أن من علم الله

منه أنه لا يعمل عقله ويرفض مفتحا النظر في الوحي وصمم على التقليد، لا بمطالع النبي صلى الله عليه وسلم أن يهديه، وأن هذه اللغة لا تجد نصيرا ينصرها.

بيان المعنى العام .

35- وقال الذين كفروا لو شاء الله ..إلا البلاغ المبين .

سحل القرآن مجادلة الكفرة لرسول الله ﷺ، لما قدموا هذا الاحتجاج الذي ظنوا أنهم سيعجزونه به. عرض القرآن حجة للمشركين أنهم قالوا: إذا كلف الله، حسب ما يشتهه القرآن وشريعة الإسلام، قانرا على تنفيذ إرادته، ومطلعا على كل ما يجري في الكون، فإنه لو كنا نحن وأبائنا على ضلال في عبادتنا الأصنام، وهو لا يشاء عبادتنا لها، لحال بيتنا وبين ذلك. كما أنه لو شاء أن لا تصرف ما حرمناه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي على ما بيده القرآن - **لنمض بقدرته حين نحررم ما حرمناه**¹.

وهذه الشبهة من أقوى تشبه المضلة التي يدخلها الشيطان في عقول الكفرة وكذلك للمخالفين عن تطبيق شرع الله، وإن كانوا يدعون أنهم مسلمون. يجيبك أحدهم إذا دعوته ليقوم بما أوجب الله عليه من صلاة وزكاة، أنه لو شاء الله أن يجعل ما أمرني به لهداني . وقد رد عليهم القرآن بوجهين :

الوجه الأول : أن الله سلط عقابه على الذين كانوا من قبلهم بما امنأصلهم وأبائهم، وبقيت ديوارهم خرابا. فلو كان الله يرضى بكفرهم أو يهوانهم لما سلط عقوبته على أمثالهم، وأن المخالفين من المؤمنين بأمور العبادة المفروضة يقرأون القرآن وهو يهدد المرتكبين للآثام، فهم بين رفض ما أكده القرآن فيكفرون، وبين الإقرار به فنسقط حجبتهم وتهاوى تعللهم .

الوجه الثاني : أنهم استغفوا الأساس الذي بنى الله عليه أمر هذا الكون لما استخلف الإنسان فيه، ومكنه من فعل الخير أو الشر ليكون مسؤولا عن أعماله . نعم لو أراد الله أن يخلق الإنسان معطورا على فعل الخير فقط لتحقق ذلك، ولكن لا يكون إنسانا بل يكون شيئا آخر . إن الحرية من أعز ما فصل به الإنسان . والحرية والمسؤولية صنوان يسيران معا، وشرف الإنسان يكمن في حريته. ولذا كان سلب الحرية والتسلط بالقهر لإخضاع البشر بالتعسف مما فطر البشر على مقاومته، ويقبلون التضحية بأرواحهم في سبيلها، فالحياة بدون حرية ذل ينزل بالإنسان إلى ترك الحيوان غير العاقل أو الشيء الفاقد للروح.

وتأكيداً لهذا المفهوم ختمت الآية بقوله تعالى: **فهل على الرسل إلا البلاغ المبين.** تقول الآية: إن مهمة رسل الله محصورة في نطاق لا تتعداه، هو إبلاغ البشرية هداية الله التي يوحى بها لرسله رب العالمين، الذين يفهمون مع إبلاغها بتوضيحها توضيحاً يقطع الباحثين عن الحقيقة غير المعقدين. ولا تتجاوز مهمتهم إلى إخبار الناس على قبول ما كلفوا ببيانه، والمرسلون من عهد نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ ملتزمون بهذه المنهج.

36- ولقد بعثنا في كل أمة رسولا، فما تنكروا كيف كان عاقبة المكذابين.

تفصل هذه الآية قوله تعالى في الآية السابقة: **فهل على الرسل إلا البلاغ المبين.** فتحقق ببلغ تأكيد أنه قد تعاقب لعطف الله بخلفه في تاريخ البشرية، بعثت سبحانه في كل أمة رسولا، همُّه الأول: إفراد الله بالعبادة وطرح الشرك وعبادة الأصنام وكل ما يقدمه الخيال الفاسد على أنه ذو سلطة يستحق بها أن يعبد ويطاع. ثم إن الناس انقسموا بعد أن وصلتهم الهداية.

قسم هداية الله، فاقبلوا على ما جاءهم من ربهم بقبول التامل، وأعملوا عقولهم ومداركهم في مضمون الرسالة فقبِل لهم أن اللعنة والخير في تنفيذ ما أمروا به، وأنه يجلب لهم للصالح وتستقيم به أمورهم. وفي المقابل يتحقق الفساد واضطراب الأحوال فيما نهوا عنه، فاستجابوا لرسالة المرسلين. فانه هو الذي أعطاهم عقولهم التي نظروا بها، وهو الذي بعث الرسل ليبينوا طريق الرشاد وليكشفوا لهم ما يغطي الهوى من الفساد. فكانت الهداية الحاصلة بفضل ما اتاهم الله: فنسبت الهداية إليه.

وقسم صمموا على رفض ما جاءهم من الهدى، وحكموا في عقولهم هواهم فعملوا ما مكنتهم الله من الآلات تبين لهم للسبيل الموفق للنجاة، وساروا معرضين عن معالم الطريق، ورجحوا ما ورثوه من ضلالات. ولا تكون النتيجة بهذا الاختيار إلا الثبات على الضلالة، وهو معنى: ومنهم من حفت عليه الضلالة. فهي من كبهم ومن نتائجهم الخاص.

ولما كان القرآن يرمي إلى إصلاح البشر وهدايتهم ختمت الآية بما سوف تظهر من عقاباتهم، فطلب منهم أن يسيروا في أرض الله ليُشاهدوا بأعينهم عاقبة المكذابين الذي استأنصهم العذاب بسبب كفرهم.

37- إن تحرص على هدايتهم...وما أمة من أمة سرق.

هذه الآية تنادي بما جمع الله في رسوله من سامي الأخلاق. إن قومه وغم شدة مقاومتهم له، ومجاهرتهم له بالعداء، هو حريص لشد الحرص على هدايتهم بنظم

من استمرارهم على عبادة الأصنام، لا يأتي من معاودة تذكيرهم وتقديم النصيح لهم، لا يصده عن مواصلة مهمته أي علق، هو نافذ العزيمة صابر على المضي. فيقول الله له مسلماً : إن شدة حرصك على إيمانهم لا يبلغك أن تسر بإيمانهم، ذلك أن من سبق في علم الله أنه ثابت على ضللك، لأنه أصم أُنْصِيه وصرف ملكاته عن النظر، ورضي بالتقليد الأعمى، لا يستطيع أن تهديه. وهذه الطائفة من المصممين على الكفر وعبادة الأوثان لا يجدون نصيراً يوم القيامة. وقراءة الجمهورة : لا يهدي من يضل بضم ياء المضارعة، فحذف الفاعل وبني الفعل لئلا ينافي الفاعل، وذلك لتقدير الفاعل عاماً يتناول كل من يحاول هداية هؤلاء الذين اختاروا الضلالة على الهدى، أي لا يجد أي هاد طريقة يهديه بها.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَبْثُوتًا وَلَا وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ، لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمُ الْآلَاءُ يَحْكُمُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَعْدِ بَيْنِ رَبٍّ إِذَا تَوَلَّوْنَا لَكُمْ، إِذَا أَرَادْتُمْ أَنْ نَقُولَ لَهُ لَمْ يَكُنْ كَمَا كُنْتُمْ

بيان معاني الألفاظ :

جهد أيمانهم : اغظ الأيمان وأوتقها.

يعلمون : يحضرون لمحاسبتهم عما قدموا.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم المشركون قسماً مغلطاً، أنه يستحيل أن يبعث الموتى بعد أن تحلل أجسامهم، وتتناثر أجزأهم في الكون، وكذبهم القرآن فثبت أن البعث حقيقة لا شك فيها. وأنه وعد صادق التزم الله به، ووعد لا يخلف. وكل ما في الأمر أن المشركين وهم أكثر الناس وقت نزول الآية جهلة لا يعلمون الحقائق.

وسبكون يوم القيامة مبيناً للناس وجه الحق ووجه الباطل فيما كان يحدث من خلاف حولهما في الدنيا، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين هي نفيهم لإحياء الموتى ويوم الجزاء .

استبعد الكافرون البعث لتصورهم أن الأجسام إذا تحللت وانتشرت أجزأها في الكون يستحيل أن تعود إليها الحياة. فأعلن القرآن عن حقيقة تشمل البعث وغيره. هي أن إرادة الله تتفد محدثة ما سبق أن تقرر في علم الله . ويتم الإحداث بصفة لا يكون للشئ أي معانة مجرد ما يتعلق الإرادة بالإحداث يتم في الحال، كالقول للشئ كن، فيكون موجوداً حالاً .

بيان المعنى العام .

38- وأقسموا بالله جهد أيمانهم... لا يعلمون.

لا يترك المصممون على الكفر أي وسيلة لرفض الدعوى إلا استعملوها، فزيادة على التكتيب الصريح، والاستهزاء، والاختلاق، هم في هذه الآية يحاولون الإقناع بالحلف بالأيمان المظلمة، ويقسمون باسم الله، الذي جعلوا له شركاء، ولكن تخيروا للحلف به، لما يعلمون من تصديق مخاطبيهم بما يقسم عليه باسمه العظيم. كان مضمون قسمهم أن الله لا يحيي من يموت ويخرج منه الروح ليحاسب، استبعاداً منهم لعودة الحياة بعد الموت. وقد تخللت الأجساد، كما سجل عليهم القرآن: (يقولون الشاعرون في الحفرة أإذا نبأ عننا نخرة)¹. وكان الرد عليهم بكلمة (بلى) التي تؤكد نقض ما جرحوا به، أي يبعث الله من يموت. ثم أكد أمر البعث بأن الله وعد بذلك وعداً حقاً صادقاً، وأنه أمر التزم به، ووعد سبحانه يستحيل أن يتخلف.

ومع التحقق الكامل ونفي كل شك، أن بعث الله المموتى سبحانه لا محالة في الوقت الذي قدره سبحانه في سابق علمه، ولكن أكثر الناس، وهم المشركون في وقت نزول الآية لا يعلمون هذه الحقيقة وينكرونها، والإنكار لا ينفي الواقع.

39- فيبين لهم الذي يختلفون فيه... كما ذيق.

من حكمة الله في خلق الإنسان أن جعله قبلًا للمعرفة، ومكنه من الطرق التي يبلغ بها الوصول إلى معرفة الحق، بحواسه، وبألوهي المنزل، إنه إذا اعتمد هذه الطرق وجرى على قوانين المعرفة التي نظم بها الله أمورها، فإنه سيصل إلى الحق، ولكن بعض الناس يسلكون المسبيل الموصول، وبعضهم يسلك السبيل الذي يبعد به عن إدراك الحق، بإهماله بعض الطرق، أو بإجرائها على غير القوانين الصحيحة. وبناء على ذلك كان الاختلاف بين من أدرك الحقيقة وعمل بها، وبين من أدركها ولم يعمل بمقتضاها، وبين من صل غلبت عنه. والغلبة التي من أجلها أوجد خالق الكون النظام الموصول لم يتحقق في الدنيا؛ فكان يوم القيامة يوم الانكشاف والتمييز بين الحق والباطل في المدارك، وفي الدعاوى في الحقوق المادية، وارتفاع الحجب التي كانت تغطي الحق في الدنيا.

ومن ذلك أن الذين كفروا بأنهم مكذبوا باليوم الآخر والحساب، سيواجهون بالبعث واقعاً يكتب دعاويهم في الدنيا : أنه ليس بعد الحياة الدنيا حياة أخرى .

40- إنما قولنا لشيء يمكن فيكون.

هذه الآية توضح أن تصور المكذبين بالبعث تصور ساذج، وأنهم على حظ كبير من الجهل. فقد استبعدوا أن تعود الحياة إلى الأجساد بعد تحللها وتفرق أجزائها. توهموا أن الإيجاد لا يتم إلا بالتغلب على امتناع موضوع الخلق، فإن التأثير حسب قانون الكون يتم بعد تغلب المؤثر على عصي مقاومة الموضوع القابل للتأثير . فالحديد مثلاً إذا أراد أن يكون شكلاً، لا يحقق إرادته إلا بالتغلب على الحديد بإحدى طرقه، لو إبعاله تحت ضغط الآلات التي تعطيه الصورة التي يريد لها الصانع. ثم لا بد قبل هذا أن تكون مادة الحديد موجودة وقابلة حسب خصائصها للصورة التي يريد أن تكون عليها. ومرجع ذلك هو عجز الإنسان أن يحقق إرادته إلا بتباعد القوانين التي يلي عليها الكون. فكانت هذه الآية كاشفة عن اختلاف الحادث عن الخلاق القديم القادر الذي لا تحد قدرته ولا يعترضها شيء بالسموات والأرض وما فيها خاضعة تستجيب للإرادة الإلهية بطبيعتها. إنه إذا كانت بطبيعتها عصية عن المؤثر الحادث، فهي بطبيعتها مذنعة للمؤثر القديم .

عبر عن هذا المعنى القرآن الكريم بتحميل اللغة في ومنع قدراتها من ناحية، والعقل البشري من ناحية أخرى . إنما قولنا المعبر عن إرادتنا لإحداث أي شيء : أن نتوجه لإرادتنا لإبراز ما أردناه من العدم إلى الوجود أولاً، وعلى الصورة التي سيكون عليها ثانياً، وفي الظروف لزماني والمكاني اللذين خصصناهما ثالثاً، فيحدث ما أردناه بفعلة واحدة أو على مراحل كل مرحلة هي استجابة لإرادتنا . إن إرادة الله قديمة وليس بينها وبين العلم خلاف بل هو التوافق الكامل. فما علمه الله منذ الأزل يكون داخل تحت سلطان الإرادة حسب العلم القديم، يتم إيجازه عندما تتعلق الإرادة بإيجازه وتحقق القدرة ما تعلقت به الإرادة دون فصل بينهما، وصير عن طواعية جميع ما يرد خلقه في الدنيا أو في الآخرة بصور الأمر (كن) لتحدث لتخرج إلى الوجود، فيتم ذلك بدون تصور للتخلف أو أي فاصل زمني . وهكذا أمر البعث . فإنه في الزمن والمكان الذي أراده الله تتجدد الحياة في كل من عاش على ظهر الأرض ثم مات عند حضور أجله.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ التَّيْمُونُ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ التَّيْمُونُ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ التَّيْمُونُ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝

بيان معاني الألفاظ :

المهاجرة: مشاركة الديار .

لنؤدبهم : لنسكنهم ما يجزيهم الجزاء الحسن عن مهاجرتهم .

حصنة: عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم .

بيان المهني الإجمالي

فتنزه الآية بالهـاجرين الأولين إلى الحبشة، وكذلك الذين سبقوا إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن ظلمهم المشركون أفند الظلم فثبتوا على دينهم، كما تتناول كل من يهاجر ابتغاء مرضاة الله فيما يستقبل من الأرضين، وتعدهم بحسن الجزاء في الدنيا وأخير منه في الآخرة. إنهم صبروا وصمدوا ولم تهز عرائسهم في الماضي، وهم معتمدون على الله في مستقبل حياتهم.

بيان المعنى العام :

42/41- الذين سيروا... وعلني ربههم يمشكون.

تحدث الآية عن خطوة المهاجرين، والمبصرة مكية، فلذلك حملها المفسرون على الذين هاجروا إلى الحبشة، وحملها بعضهم على المهاجرين الذين سبقوا إلى المدينة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليها. وهي تتضمن وعدا صالحا لكل مهاجر تحققت فيه الموصفات التي بينتها الآية.

وقول القرآن : إِنْ الَّذِينَ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَتَحُولُوا عَنْ سُلْطَانِهِمْ، حِجْرًا سَامِيَةً عَنِ الْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَرَغْبَةً فِي التَّحْصِيلِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَإِشَارًا لِمَا عَدَدَ اللَّهُ عَلَى مَا هُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَالِ ، وَمِنَ الْمَتَاعِ ، وَمِنَ الْإِلْفِ لِمُرَاحِ الْمَسِيَاءِ، وَقَامُوا يَهْجُرُهُمْ تِلْكَ بَعْدَ أَنْ مَلَأَتْ عَلَيْهِمُ الظُّلُمُ فَلَمْ يَهْتِنِ عَزَائِمُهُمْ ، هَؤُلَاءِ الْمُحْصَرُونَ فِي هَذَا الْإِطَارِ ، أَوْكَدُ وَأَنَا اللَّهُ لِلْمُرِيزِ الْحَكِيمِ، أَنِّي سَاعُوهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ حُظُوظٍ فِي الدُّنْيَا الْآخِرَةِ .

أما في الدنيا فليحذر لهم مساكن يرضونها، ونجاها شاملا في بيئتهم الجديدة،
مناوئهم عما فاتهم من مالٍ ومن أهلٍ، ومن تعلق فطري بموطنهم، فزيادة على
الغنائم التي كانت لثر نصرة الله، سبأورك في ذريتهم، وأجعلهم يأنسون بمكنى
المنينة المنورة .

وأما في الآخرة فهو فوق ذلك بكثير، هو الجزء الذي لا تحده حدود، ولا يعلم مقداره إلا مسدبه رب العالمين.

يمكن أن يحمل المعنى ولكن لا يعلمون على معنى، أن المهاجرين لو كانوا يعلمون ما قدره الله لهم من حسن الجزاء، لما حزنوا أول الأمر على مفارقة مكة. كما يحتمل أن الكفرة لم يلحقوا بهم لأنهم لا يعلمون ما أعد الله للمهاجرين.

ثم نوهت الآية بالمهاجرين وأبرزت خصلتين عظيمتين: إحداهما ما تحلوا به من قوة العزيمة والصبر على الأذى، والثبات على نصرة الدين، والثانية هي الاعتماد على الله الاعتماد الذي جعلهم يأخذون بالأسباب. ويشعرون أنهم في جميع المراحل يجدون الثقة في قلوبهم بعون الله وتأييده .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا بِوَحْيِ آلِهِمْ فَذَكِّرُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ بِتُورٍ لِلنَّاسِ مَا يُكَلِّمُ آلِهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السُّيُوفَ أَنْ يَخَسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ خِيفَةٍ أَوْ بِشُعْرُونٍ ﴿١٢﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِ فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣﴾ أَوْ
يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّنَا لَهُمْ رُجُوعٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

بيان معاني الكلمات

أهل الذكر : أصحاب كتب الشريعة.

الزبور : الكتب التي سجلت الوحي.

أرسلنا إليك الذكر : أرسلنا إليك الكلام الذي من شأنه أن يتلى.

لنبين : لتوضح.

مكروا : أعدوا في خفية ما يضر .

يخسف : يحدث زلزالا شديدا يبتلع به الأرض ما فوقها.

من حيث لا يشعرون : يأتيهم بغتة لا يستطيعون له دفاعا.

بالخذم : يهلكهم .

التقلب : المعنى في شؤون الحياة.

التخوف : التقصص، أو الخوف .

معجزين : منفلتين من العقاب

بيان المعنى الإجمالي ،

يؤكد القرآن على حقيقة: هي أن سنة الله في إصلاح البشر ، أن يرسل إليهم رملا رحالا يبلغونهم وحيه . واسألوا علماء يهود وقساوسة النصارى هل بلغ رسالة الله غير الرجال؟ أرسل رسله محبوبين بالأللة البينة مما تقتضيه العقول الصالحة، وبالكاتب المدونة للشرائع . وتوجه إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم مخاطبا له بأنه نزل عليه الكتاب الذي يتلى ليثبت مفاهيمه في العقول والمشاعر، فتم الاستجابة له بالعمل والتطبيق .

والعجب من الغفلة التي عليها الذين يذرون في خفاء ما يسىء ويضر للمؤمنين، مع أنهم يعلمون منصفهم ولهم لا يقدرون على حماية أنفسهم من أن يزول الله الأرض تحت أقدامهم فبئس تعلمهم وما يملكون، أو أن يأتهم عذابه فينأصلهم . نون أن ينقلبوا الجهة التي اتاهم منها، أو أن يأخذهم وهم ناشطون مقلون على تجارتهم وفلاحتهم ولهوهم، أو يهلكهم شيئا فشيئا كلما نقص منهم جانب تبعه جانب آخر . وهم مستسلمون لا يعرفون كيف ينفذون أنفسهم، إلى أن يهلكوا جميعا . ثم يدعهم إلى أن يقلعوا عن العناد والكفر ، فبئس أن فعلوا ذلك فإن الله يراف بهم فوسعهم بعونه، ويرحمهم فيكفر عنهم ما سبق من إثمهم .

بيان المعنى العام ،

44/43-وما أرسلنا قبلك إلا رجالا .سولعلمهم يتشكرون.

لا يقلع للمشركون عن تكرار اعتراضاتهم على رسالة النبي ﷺ . ويعملون حاهدين على إدخال الشك في قلوب السابقين إلى الإسلام . ومن اعتراضاتهم قولهم: أين الرسول الذي يتلقى الوحي من الله ويكلفه بإيلاخ شرعه للعالمين لا يصح أن يكون إنسانا لتحقيق فيه خصائص البشرية . ولذلك نزلت هذه الآية مؤيدة للرسول صلى الله عليه وسلم أولا موجهة إليه الخطاب، ليكون دعما لحجته في رد ما يقولون، فليسه الله بقوله: أين سنة الله في بعثة الرسل إلى البشرية أنه لا يكلف مهمة تتجلب السوحي ثم إيلاخه إلا رجالا من البشر .

ثم توجه القرآن إلى الكفرة المشاغبين فقال لهم: أسألوا أهل الكتب السابقة من علماء اليهود والنصارى، إن كنتم جاهلين بجنس الذين أرسلهم الله، أكانوا رجالا لم ملائكة؟ وهؤلاء لا يستطيعون أن يخبروا إلا بأنهم كانوا بشرا؛ فمقاله الأخبار حجة على الكفرة لأنهم يصنفونهم، ولا يهتمونهم بالأخبار للمسلمين لأن عدوتهم للإسلام

متأصلة، فلا دلائل فيه على أننا اقتصرنا لتسهيلتهم. وقد ثبت أن قريشا أرسلت إلى أحبار اليهود يسألونهم.

وقوله تعالى: **بآيَاتِهِ وَآيَاتِهِ** كأنه جواب سؤال مفهوم من الكلام تقديره والله أعلم: **بم أرسلوا؟** أرسلناهم مصحوبين بالآيات والزبور. أما الآيات فهي ما يدل على صحتهم من شواهد العقل، وكذلك المعجزات الواضحة أن مخالفتها للعادة لا تكون إلا من خالق العادة، أقامها مؤيدة للرسل شاهدة بصتقه.

وأما الزبور، فهي الكتب التي رقت ما أوحاه الله لرمسليه، كقوله تعالى: **(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)**^١، وكذلك ما سجله الحواريون من كلام عيسى عليه السلام بعد رفعه. فبعض الرسل تم تأييده بالآيات، وبعضهم جمع إلى الآيات الكتاب.

ومحمد ﷺ أيد الله بمعجزات كثيرة اعتكى بها وجمعها القاضى عياض فى الشفاء ومعجزته الكبرى القرآن. فلوحت الآية به، على أنه أنزل عليه القرآن الموصوف بأنه ذكر، ينلى وتعد ثلوثه لتكون معانيه ودلالاته حاضرة في عقول الناس. وإن من أهداف المنزل أنه يتم به بيان ما نزل به الله إلى الناس من التمرائع التي أرسل بها النبي ﷺ، ولما كان المبلغ للنبيين والموضح للمشاكل والرافع لغير المركب والهادي إلى النجاة والمفصل للأحكام هو الرسول ﷺ أسند إليه النبيين.

ويؤكد القرآن على لفظ العقول لتأمل ثم تفكر فيما أنزل، ليلفوا بتأملهم وضوح العقيدة، ولتعمق الهداية في قلوبهم فلبتزموا في سلوكهم الصراط المستقيم المحقق لرضوان الله، والمساعد على النجاح في الاستخلاف في الأرض. واليعد عن الفساد والشر، وليتأملوا في بياض فتشرب عقولهم ومشاعرهم، فيكون بيان الرسول بالإبلاغ لينالوه بأنفسهم، وبالكشف عنه وتوضيحه، وهما جناحان الفوز في الدنيا والآخرة.

45-47، المؤمن الذين مسكروا... لزوروف رحيم.

هذه الآيات تهمز الكفرة هزا متديدا، وتوقفهم معتبرة أن الغفلات قد أحكمت حجب المالات عن تصورهم، إنهم يبروا وحيوا. إنها تنبيههم على أنهم مستعدون لأن ينزل بهم وجه من وجوه الانتقام، فما أمد غفلة هؤلاء الذين هياوا مخادعين ما يلحق الضرر بالمسلمين، ففعلوا الأفعال السيئة وظنوا أنهم في مأمن لا يلحقهم ضرر، مع أنه قد تنزل بهم نعمة من النعم الآتية :

(1) أن تزلزل بهم الأرض وتتشقق فراع عظيم يبتلعهم، ثم تطبق عليهم فلا يبقى لهم أثر على ظهرها، إنهم لا يملكون ثبات الأرض التي تحت أقدامهم، فكيف لا يحصنون أنفسهم بالتوبة إلى الله من هذا الاحتمال الذي وقع في الكون ودمر الله به المفسدين، كما وقع لقارون قال تعالى: **(فخسفنا به وبدء الأرض)** ^١

(2) أن يصابوا بعذاب في أبدانهم فيقيم فيهم الأكم للذي لا يبرح أجسادهم، ويأتهم من ناحية لا يشعرون أنه يأتيهم منها، على معنى أنهم لا يستطيعون له نفعاً، ولا يكون في طوقهم التوقي منه.

(3) أن يهلكهم الله في الوقت الذي يكونون على حظ كبير من النشاط والحركة، فيس تجاراتهم، أوفي مزارعهم، أوفي تجمعات لهموم ومرحهم، ولشد ما تكون دهشتهم إذ يباغتون بالعذاب فلا يجدون منه حماية.

(4) أن يسلط عليهم متتابع الذم فيهلكون شيئاً فشيئاً حتى يتم تدميرهم، فمعلى على تخوف: على نقص، تتوالى عليهم المحن ولا يجدون منها مخلصاً، وهذا من أشد العذاب، إذ لا يفضى عليهم قضاء واحد، ولا يجدون ما ينفعون به المصائب المتتالية التي تصيبهم في أنفسهم وفي أموالهم وفي حياتهم بصغة علمية، أو يأخذهم وقد تحققوا نزول العذاب بهم، وأخذوا ينتظرون حلوله وهم خائفون، ويكون معنى على تخوف: على خوف.

وختمت الآية بتحريضهم على ترك العباد والإقبال على الإسلام، ذلك أن الله قد تصف بالرافة والرحمة، فمن رجع إليه وأقبل على شرعه الذي أنزله، فإنه يلقي من رب العالمين ما تقتضيه صفة الرافة بالمستضعفين فيمكنهم بفضل ما يرقون به إلى منازل المهتدين، وصفة للرحمة التي تشمل كل شيء، تبدو مظاهرها في الدنيا والآخرة.

أُولَئِكَ رِزْقُكَ يَا خَالِقُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ يَتَّقُونَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالشَّمْسُ بِالْبُحْرِ وَهِيَ
تَسْجُدُ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ ذَابِقٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهِيَ لَا
تَشْخَرُونَ إِنَّ تَحْمِلُونَ رُبَّمَا مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الكلمات

وللها : عود الظل بعد أن أزاله ضوء الشمس،

والخرون : خاضعون، منقادون، متواضعون .

بيان المعنى الإجمالي :

ما لهذه الكثرة لا يتأملون فيما يرونه بأبصارهم من مظاهر الكون تدالة على خضوع كل ما خلق الله من الأجسام على وجه الأرض. رغم أنه يتكرر كل يوم لكل الأجسام التي على وجه الأرض تلقي ظلالها في الجهة المعاكسة لأشعة الشمس يبدو ممتدة عند مشرقها . ثم تأخذ في الانحصار فتمضي عند الزوال، لتعود منطلقة في الجهات المقابلة بعد ذلك إلى مغيب الشمس. كلها ساجدة لله مطيعة لقوانينه خاضعة لذلك.

إنه لله وحده تسجد جميع الكائنات العلوية السماوات بما فيها من أجسام عظيمة وكائنات صغيرة جداً، وسجودها يسيرها في القوس الذي حده لها من بدايتها إلى خاتمتها. خاضعة لكل ما قدره لها في الأزل. وكذلك ما على الأرض من الدواب فكل نوع من أنواع الدواب تسبيحاً هي سجودها لخالقها، قصرت إمكاناتها عن الإحسان بها، أخبرنا رب الخلق بأنه يتلقاها منها .

وكذلك ملائكة الرحمن يسجدون لله سجودهم للائق بالمأمورين بالقيام به، مستسلمين الطاعة والبعد عن الكبر الذي أهلك إبليس. عندما دعوا إلى السجود لأدم. فمن طبيعة الملائكة أنهم ينفذون ما يؤمرون به في خوف من أن يزلزلهم عن المكانة التي رفعهم إليها.

بيان المعنى العام :

48- أوامير يروا إلى ما خلق الله من شيء مسووه داخرون.

هذه الآية تنبيه الغافلين ليتأملوا في أحد مظاهر الكون التي تدل على تفرد الله بالتصرف فيها، فتقوم مذابيح بعظيم حكمته. وهو مشهد يتكرر كل يوم، هي المخلوقات العجيبة من الجماد والشجر والحيوان والإنسان، تطلع عليها الشمس فتبدو صورتها في ظلالها متجهة إلى الجهة المقابلة لأشعة الشمس، وتكسح تلك الظلال شيئاً فشيئاً إلى أن يسحي الظل عند زوالها، ليعود إلى الجهة الأخرى. لما كان من هذا الأثر قبل الزوال فهو ظل، وما كان بعد الزوال هو شيء. بتقياً ظلالها أي تعود ظلالها إلى جهة اليمين أو جهات الشمال إلى أن تغيب الشمس. وعبر عن الجهات باليمين مفرداً وللشمال جمعاً تفصيلاً في التعبير. وقد يكون مرد ذلك أن مستقبل الشمس بعد الزوال يكون للجهة المنجى إلى يمينه ثابتاً في أصله ويتسع فالمكان المظلل لا يحس الظل منه، وأما ما كان عن شماله فهو يتناقص. فهي مواقع مختلفة له فعبّر عنها بالشمال. والله أعلم .

إن الأجسام التي تظهر ظلالها على وجه الأرض كلها خاضعة منقاداً للتصرف الإلهي. أعطاهم قوانين وجودها وتحولاتها وقبولها لأشعة الشمس وظهور ظلالها على وجه الأرض، وتسبب لتلك القوانين خاضعة ذليلة طاعة أو مكرهة .

49-50. وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... وَيُضِلُّونَ مَا يَمُرُّونَ .

والله لا يغيره يسجد كل شيء سجوداً بخلاف من جنس إلى جنس ومن نوع إلى نوع، فيعبر عنه بما يتلاءم مع خواصه . يسجد له سبحانه ما في السموات من المجرات العظيمة، والمجموعات، وما في كل مجموعة ومجرة من وحدات، إنها تجري خاضعة معترفة بخالقها مسخرة للصار الذي حدها لها، إلى أن ينتهي الأمد الذي قدر لوجودها . وكذلك ما تحويه الأجرام السماوية من كائنات دقيقة أو عظيمة قصر العلم البشري عن إدراكها . وكذلك ما في الأرض من الدواب، فكل نوع من أنواع الدواب يعبر لخالقه بسجوده الذي يلائم قدرته مع إحساس بلذته في ذلكم السجود، قد تعبر عنه بأصواتها أو بحركاتها أو برقصاتها أو بوقوفات لا نذكرها فيها تسمية بجلال الخالق وخضوع له .

وكنلك ملائكة الله هم يسجدون لله سجودا وناسبا خصائص خلفهم، شاعرين بفضل الله عليهم أن نزاع منهم الكبير للذي ظهرت لهم آثاره في إيليس لما استكبر وكفر بالحق.

إن الملائكة على ما فطروا عليه من التجرد عن الهوى، وانفاسهم في الطاعة
وتنفيذهم لما يؤمرون به على الوجه المرضي، هم خالقون ربهم المتصرف فيهم
تصرف الاستعلاء، من أن يسقطوا عن المكانة التي بسواهم إياها، وهم يفتلون ما
يؤمرون به بصفة دائمة، دون أن يشعروا أي يكون منهم أي تباطؤ أو تأجيل
الالتزام.

وفي هذا إيماء لمنزلة المؤمنين الذين يطلبونهم لما نزل إليهم يرقون إلى منزلة الملائكة، وأن الكفرة الذين لا يسجدون لله، ويخضعون للأصنام، أنهم في درجة أقل قيمة من الحيوانات.

وهذه الآية، عند تلاوة القارئ، يفعلون ما يؤمرون موضع سجود مجمع عليه.

• وقال الله لا تتخذوا آللهين أولياء فإنما موالاة وحيد فإلهي فأذعنون ﴿١١﴾ وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفذعر الله تعقون ﴿١٢﴾ وما يكمن من نعمه فيمن الله ثم إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٣﴾ ثم إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٤﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٥﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٦﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٧﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٨﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿١٩﴾ إذا منكم الطير فإليه تحقرون ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ازهقوني : خذلوني .

الدين : الطاعة .

والصبا : ثابتاً دائماً .

تجلزون : تصرخون متضرعين .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية عن عبادة الإهين اثنين كما ضللت القبائل العربية المجاورة لبلاد فارس فانبعسهم في عبادة إله النور وإله الظلمة . والله واحد لا شريك له . من التناقض أن يوصف بالألوهية ثم يعتقد أنهما اثنان . فخذلوني ولا تخلفوا عيري . فأنسا المتفرد بالرفع والضر . والنور والظلمة حالتان للأرض . والله مالك السماوات والأرض فلا يعتل أن يكون المملوك إلها . ومن مقتضيات الألوهية أن يتفرد بوجوب طاعته . وأن يتفرد بالتشريع وأن يكون مالك يوم الجزاء .

وهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالنعم التي لا تحصىون لها عدا . ولا تصل إليكم أي نعمة إلا منه . وفوق هذا فإنه إذا سبكم للضر ترفعون أسماؤكم بالدعاء ملتجئين إليه ليكشف ما حل بكم . ثم إذا كشف ضركم . أعلن فريق منكم كفره بنعمة الله وعاد إلى ما كان عليه من الشرك .

كانت عاقبة ما أنعمنا به عليهم ولطفنا بهم فسلمناهم بعد الضر . أن يثبوا شكر النعمة بكفرانها . يهدم القرآن قوله : تمتعوا بالنعم التي رزقكم والعاقبة للذي سلمتم بها بعد الضر مع كفركم . فسوف تطعمون العاقبة . علم اليقين .

بيان المعنى العام :

51- وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . . . فإني هارهبون .

الفتحة الآية مصرحة بأن هذا القول صادر ممن يقول الحق ويبطل الباطل . وتهز السامع بذلك لتأنيده لمضمون القول . فماذا قال الله ؟

لولا : لا تتخذوا إلهين اثنين . وحص النهي بعبادة إلهين ليطالاً لما شرب لبعض القبائل العربية المجاورة لفارس من محاسنهم لهم في عبادة الإهين اثنين إله الخير وإله الشر (دين السردكية) . واخردهم بالنهي بناء على أنهم لا يدخلون في النهي العام لعباد الطاغوت . لأنهم لا يمتثلون الإله في صورة مجسمة . إذ يعتقدون أن إله الخير هو النور . وأن إله الشر هو الظلمة . إن عبادة إلهين هو تناقض . لأن الإله لا يكون إلا تام القدرة بغير ما أراد . وإذا كان لا يستحكم في كل شيء فهو عاجز .

لإقرار بالأكرومية، ثم اعتقاد التعمد هو تنالض عقلي مرفوض. ولذلك صرح بعد ذلك تأكيداً لما فهم من قوله: لا تتخذوا إلهين اثنين من النهي عن اعتقاد التعدد: اثنين بمنطوق الكلام وما فوق ذلك بمعنىهما فهو الواحد الأحد، تعالى أن يكون له شريك له في الأكرومية. وابتنى على ذلك حقيقة أخرى أتبع بها الحقيقة الأولى: هي دعوته للبشر جميعاً: أي أي فارهيوني: لا تخافوا أحداً إلا أنا.

52. والله ما هي السماوات والأرض... لتفجير الله تتقون.

تحقيقاً لما تضمنته الآية السابقة بأنه هو الله الواحد الأحد، أثبتت هذه الآية ما يلزم عن ذلك: أنه المتكرد بملك السماوات والأرض، فمن الضلال اعتقاد الدور والظلمة إلهين، مع لهما حالتان من حالات الكون المملوك لله وهو خالقه. وإذا تكرر سبحانه بملك جميع المخلوقات وجب أن ينتهي وجود إله غيره. إذ لا معنى للأكرومية بدون ملك. ولما كان هو الخالق المتكرد بملك وجب أن يتكرد بوجود الطاعة على جميع الأحوال. ولا مانع من أن يفهم تكرده بالسيدين، تكرده بالتشريع، أو تكرده بالتمكين من الجزاء. فيكون معنى الآية الله وحده الطاعة ثابتة، أو أنه هو المشرع الذي يجب أن يطبق ما شرع، أو أنه مالك الجزاء يوم للقيامة ملكاً ثابتاً محققاً. واختتمت الآية بالإكثار عليهم إكثاراً توبيخياً خشيتهم من إله الشر وتكريمهم إلهه، فإن الفاعل المنجى من الشر هو الله، فعليهم أن لا يتقوا أحداً غيره.

53-54. وما يحكم من نعمته... إذا فريق منكم يرهيه يشركون.

وأصل القرآن عدم العقيدة المزدكية بالثبات أن جميع النعم والخيرات التي يتمتع بها الإنسان هي واملة من عطاء الله وفضله. وفوق هذا فإنه إذا أسألكم أي ضر من مرض أو سوء أو ضيق أو مشكل عصبية، فإنكم لا تلجئون إلا إليه، ولا ترتفع أصواتكم إلا بدعائه ليرفع عنكم ما نزل من بلاء. نعم قد استقر في نفوسكم أن الإلهة التي تدعونها من دون الله عاجزة عن تخليصكم من الوضع الحرج الذي دخلتم فيه.

أبطلت الآية عقيدة إله الخير وإله الشر. وأثبتت أنه لا فاعل في الكون إلا الله. وبعد هذه الأنطاف التي شملت البشرية كلها من الخير والاستجابة لرفع الضر يرتقي القرآن مسجلاً أنه إذا أزال ما أحقهم من ضرر، وهذا يتكرر لأن الإنسان معرض لمختلف أنواع الأضرار من ميلاده إلى حين وفاته، إنه ما بقي أي فرد فاعلاً في الحياة إلا بفضل ما أسعفه به ربه من اللطف الذي أزال ضرره. فكما أن السليم يتابع من الإيجاد الحياة إلى من يعطى به حتى يكبره بل في كل لحظة من لحظات حياته،

إنه لو تأمل، ما استطاع إحصاء ما أحاطه به الله من نعم في كل لحظة، وكذلك الأضرار، بالحماية منها أو بخروجه منها سالماً، يتكرر تلك ولطف الله هو الذي يبعي عليه .

ولكن فريقاً من البشر إذا عادت إليهم العاقبة، التي هي من عناية الله وتقديره، يفجأون بنكران الفضل . ويعودون إلى التعلق بآلهتهم يشركونها في الألوهية . إنه مع أن الله يعلم علماً أزلياً ما يؤول إليه هذا الفريق من الشرك، إنه مع ذلك لا يمنهم لطافة التي قدر أن تمس للبشر جميعاً.

55- لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَعْتَمِدُوا عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ تَعْلَمُونَ

تحتمل وجهين من المعنى:

الوجه الأول: أن عاقبة ما رزقهم من العاقبة بعد الضر كان الكفر بنعمة الله وعدم شكرها . فهذا كقوله تعالى: (فَالْقَاطِفَةُ: مَوْمِئًا أَلْفَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا)^١ فيثبت أن عاقبة التقاطه انقلابه عدواً لهم، وسبباً لكثير من الحزن والأسى . وهم لم يفصداً ذلك بالتقاطه . وعلى هذا النحو تنهم الآية.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى على التهديد، أي اكفروا بما آتيناكم فسوف تعلمون العاقبة .

ومعنى الآية: أن القرآن يسجل على ذلك الفريق الذي لم يشكر نعمة الله وتفضل به بإزالة الضرر، وعاد إلى عبادة الأصنام ، يسجل عليه كفره بما آتاه الله من فضل . ونقول لهذا الفريق انتفعوا مما أنعمنا به عليكم من متاع الحياة الدنيا، ناسين السنتم الحقيقي . فسوف تعلمون علم اليقين عاقبة أمركم . ولم تبين الآية ما ذا سيعلمون، ليذهب التصور في فطاعته كل مذهب، وبذلك يكون التهديد أقوى .

وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا تَعْلَمُونَ نَجِيًّا مِمَّا رَزَقْنَاهُ ۖ تَأْتِيهِمْ أَشْجُلٌ عَمَّا يُتَمَتَّلُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ الْكَسْبَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ۚ وَلَهُمْ مَا يَشْكُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا يُقْرَأُ احْدَثْهُمُ بِالْأَنْزِلِ ۚ
وَجْهَهُ مُتَوَدِّدًا وَهُوَ كَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ تَوَدُّ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ شَاءَ مَا يَشْكُرُهُمْ ۚ أَلَيْسَ بِكَ عَلَىٰ
هَؤُلَاءِ أَمْرٌ دَسَّ فِي الْأُفُوفِ ۚ أَلَا نَسَا مَا تَكْفُرُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ
السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :**يجفئون :** يصيرون ويعطون.**ما لا يعظمون :** الأصنام.**تصوبا :** قسما.**ظل وجهه :** صار وجهه صيرورة دامت معه.**مموءا :** عابسا كئيبا.**كفليم :** غاضب أشد الغضب.**ينوارى :** يختفي.**هوين :** ذل.**يدمه في الدراب :** يدفنه في الأرض.**الملل :** الحالة العجيبة .**بيان المعنى الإجمالي :**

عذبت الآيات صورا من ضلال المشركين، منها أنهم يخصصون لألهتهم، التي يجهلون حقائقها ويجهلون مآلها، ولا يعلمون من أمرها شيئا علما واضحا، يخصصون لها شيئا مما رزقهم الله يتقربون به إليها. فبما بالله ثبت: أن الله سيوفقهم بين دينه ويسألهم عما قدموه ويجازيهم الجزاء العادل، ومنها أنهم ينسبون لله بذاتا هي في نظرهم أحسن من الذكران . وبالنسبة لهم تجدهم يعتزون بما لهم من بنين. وتوضيحا لذلك تذكر الآية التالية: إن أحدهم إذا بشر بأن زوجته ولدت أثني عد ذلك الخير مصيبة، تظهر على وجهه علامات الحزن والكآبة ويفضرب أشد الغضب، يتباعد عن أنظار الناس، في حيرة من أمره البقي على المولودة بما يتبع ذلك من هوان، أو يلغنها حية في الأرض ويستريح. هذا حكمهم العام، فما أسوأ ما حكموا به . إن الفائقين للإيمان لا يتصورون إلا تصورا سيئا، ويجب أن يكون ما يرسم في عقولكم عن الله الصورة الأعلى المنزهة عن كل نقص. كيف لا وهو العزيز الذي لا يغلب الحكيم في كل ما يصدر عنه.

بيان المعنى العام :**56- ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا...عما كنتم تفترون.**

يوصل القرآن تسجيل لوهام المشركين ليفضحهم بقصد تفكيرهم، وضحالة عقولهم فذكر :
 لو لا: أنهم عمدوا إلى ما رزقهم الله من خيرات، وهم لم يحصلوا عليها لا بقوام ولا بتدخل الهتهم، أخذوا تلك الأرزاق قسموا قسما منها خصصوه لمن لا يعلمون

لن له حقا ولا منة ولا فضلا ؛ فهذا المجهول كثير، المجهول حقيقته. ولا أساس لوجوده إلا الخيال والوهم والتقليد، خصصوا له من الرزق الذي أعطاهم الله قسما وتقربوا به إليه .

أنكر عليهم القرآن وهندهم تهديدا حقيقته بالقسم عليه (تالله) سيصالحكم الله يوم القيامة عن هذا الكذب الذي أشعتموه، وعصدمتموه بتلكم القرابين. معنى ذلك أنه ينزل بكم من العذاب ما يتناسب مع فظيخ كذبكم. وفيه إشارة إلى أن الله لا ينزل عذابه إلا بعد أن يوقف المجرم ويفرره بالسؤال الذي لا يستطيع أن يرلوع في الجواب لو أن ينكر الحقائق .

57- ويعلمون أنه اثبات سبحانه ولهم ما يشتهون.

ثالثا : مقالة أخرى منكرة وعقيدة سخيفة، شاعت في بعض الفئات العربية، فرعت قبيلتنا كذابة وخزاعة، أن الملائكة بنات الله من خوار وشريفات إناث الجن، فهم قد جمعوا في مقالاتهم هذه بين مذكرين : نسبهم إلى الله التأسل، وجعل نسله ملائكة هم بنات من نساء الجن. ولذلك عجل القرآن بقوله سبحانه، أي تنزه الله تعالى عنها مطلقا عن لقراءاتهم . ثم شاع بفتح فظيختهم هذه، أن جعلوا الله ما يلقون منه، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، وجعلوا لله بناتا .

58- 59- وإذا بشر أحدكم بأأنثى... ألا ساء ما يحكمون .

ثالثا : ومن اختلال الفهم عندهم، أن بعض العرب يعتبر البنات، أنثى بسببونها إلى الله، مصيبة. فإذا جاء المخير لأحدهم فأخبره بأن زوجته ولدت أنثى، تغلب وجهه، وجلله الحزن كأنما عطي سوادا . وتطوى على غضب شديد، ثم إن مسعوره في صلته بالناس يتحول إلى حياء وحذر من لقاء قومه، يفتني عن لقاءهم بسبب هذه للبشارة، وإنها لبشارة في الحقيفة، وإن كانوا يعيرونها مصيبة، إذ بالإناث يتواصل الإيجاب وتستمر الحياة، وتتسع الأسر بالمصاهرة، ولا فرق في الخصائص البشرية بين الذكر والأنثى. ولا بفضل عمل الذكر على الأنثى ولا العكس. إذ القيمة في ذات المنتج لا عن صدر .

ثم إنه بعد ذلك تتفاعل الأوهام في نفسه، وتغظم له مصيبته، ويرى أنه قد أصبح مهينا بما ولدت زوجته، فيسول لهم ضيق التفكير وومولس الشيطان أنه قد أطبق عليه الهم، فهل يمسك الثبت على ما يصحب إمساكها من ثل، أو يستخلص بدلتها حية في الأرض. هذه ململة مما لفتت به الجاهليون وحكموه في أنفسهم من سلم للقيم. تنبهوا فإن حكمهم هذا حكم سيء فاسد .

60- لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...وهو العزيز الحكيم .

تختم الآيات بالتعليق عليها ممن يعلم حقائق الأمور . فبعد أن نوالى تسجيل فساد ما يعتقدون وانحطاط تفكيرهم ، غلبه بأن الذين من صفتهم أنهم خلت عقولهم من نور الإيمان ، هم أحرياء بأن لا يكون تصوركهم لهم إلا تصورا جامعا للقيح والفساد والبناءة ، وسما بكم سبحانه ، فتصوركم لجلاله هو تصور أعلى واكمل من كل ما يمكن أن يجري في العقول . كيف لا ، وهو العزيز المتصرف في الكون تصورا لا يغلبه عن مراده شيء ولا يعترض عليه معترض ، نافذ ما يريد : الحكيم الذي ثبتت حكمته القائمة في كل شيء خلقه وفرد .

وَلَوْ رُؤِوا جِذَاءَ اللَّهِ النَّاسُ يَطْلُبُكُمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ ذَابِقَةٍ وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ۚ وَتَجْمَلُونَ إِلَهُ مَا يُكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرِمُونَ ۚ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ فَوُتِنَ لَهُمْ الرُّسُلُ فَاغْتَابُوا فَأَعْتَلُّهُمُ فِيهِمْ وَلَهُمْ آلَافُ سَاعَاتٍ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معنى الانفاذ :

يؤخذ : بجازي جزء فيه شدة .

الظلم : الاعتداء على الحق وأعظمه الإشرار بالله .

الأجل : الزمن المحدود الذي يؤخر إليه الشيء .

المسمى : المعين .

ساعة : للحظظة التي تأجل إليها المذاب .

لا جرم : حقا ، لا شك فيه .

ملفوظ : بالظن غاية الجراءة وارتكاب المعاصي .

رين لهم الشيطان : حسن لهم القبح والمسيء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما بني عليه استخلاف الإنسان في الكون أنه مختار وأنه سبحانه على ما قدم يوم القيامة ، وأن الله لا يجعل له العذاب بمجرد ما يعصى . وإن أعظم معصية هي

الشركه. فتقدير الله أنه لا يسلح المشركين وممتلكاتهم من دواب وغيرها في العاجل، ولكن يسلحهم إلى الأجل الذي قتره. إنه عند حلول الأجل المقدر والمحدد في علم الله، ينفذ فيهم العذاب دون تقديم ولا تأخير.

ومن سوء عقبتهم وفساد تفكيرهم، أنهم يخلصون ما بكرهونه ولا يرضونه بالله، ثم يزبنون بالسنتهم فكذب اللروج على الدهماء، أن الأمور الحسنة هي لهم، إنسه حقاً لا شك فيه، أن لهم النار لا الحسن، وأنهم يسرعون إلى جهنم. كان عقبتهم وأعمالهم مغفلين ينجذبون به إلى النار.

تأكيد بالقسم المغلف: أن الله بعث قبلك لأهم رسلاً فكذبهم، وقبض لهم الشيطان هداية الله وزيين لهم الشرك والمعاصي فاتبعوه وأعرضوا عن هداية الله. وكذلك فعل المشركون من أهل مكة فاتبعوا شيطان فهو اليوم سندهم فاتبعوه، وعاقبتهم أن الله ميعذبهم العذاب الشديد الأكم.

وتعقبا على ما فصله من ضلال المشركين، أعلن القرآن الغاية من إنزال القرآن وتأييد الرسول ﷺ به، هذه الغاية هي أن يكثف لهم الحق ويفصل فيما شجر بينهم من خلاف من شرك ظاهر وخفي، ومن عبادة للشهوة والمال، ومن طاعة لدواعي الأهواء، ليجدوا في هذا القرآن الهداية لطريق السلامة في الدنيا والأخرة، وليرحمهم فيعلموا بعد الحيرة ويثقفوا بعد الاختلاف.

بيان المعنى العام :

أنا :ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم... لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

لحتم في هذه الآية أمران :

الأول: تهديد للذين سجلت الآيات الصافية فساد ما يعتقدون، وقبض ما يفعلون، فإن الله قادر على أن يسحقهم سحقاً يقضي عليهم وعلى مكاسبهم.

الثاني: أن الإمهال لا يقتضي عدم المواخظة، فإن الله قد أحسن التقدير فلكل شيء أجله الذي تنفذ فيه الفترة الإلهية.

معنى الآية : مضت سنة الله في جزاء المشركين: أنه لا يعجل لهم العقوبة، ولا يسلحها بمجرد ما يبدو منهم مظاهر الإشراك بالله، فالظلم هنا معناه الشرك، لأنه لو عاجل المشركين بالعقوبة لما ترك على ظهر الأرض دابة تتحرك، ولقضى على الحياة في الأرض. وقد مضى الشرك في الأرض، والحياة باقية. ثبت بذلك ما تدل عليه الآية. وهذا قضاء عادل، لأن من جحد من أعطاه الوجود أو اشرك به فقد بلغ به للفساد الفكري ما يستحق به أن يسلح منه الوجود.

وإذ انتفى تسجيل العقوبة، فإن الملائكة على جريمة الشرك ثابتة يتم تنقيتها في الأجل الذي قدره الله. وهو موعد مضبوط في علمه ضابطا يتم في الوجود بكامل الدقة، فلا يتأخر لحظة عن أجله، ولا يتقدم.

62- ويجعلون لله ما يكرهون... لا جبر إن لهم النار وإنهم مفطرئون.

يتابع في هذه الآية تسجيل القرآن على المشركين ضلالاتهم، وفساد عقيدتهم، فقد قسموا ما مكنتهم الله منه، فجعلوا القسم الأحط والأدون لله، وقسموا لالهتهم الأجود والأفضل، خصوا الله بأسمائها لأنهم يخشون الهتهم خشية أشد من خشية الله. وأيضا هم يكرهون البنات فجعلوا لله نساء من البنات. وقد علق أحد الظرفاء على توجيه كثير من الأمر أولادهم للموهوبين للدراسة في المعاهد العصرية، ولولادهم للمحدودي الإمكانيات إلى المعاهد الدينية، بقوله: ويجعلون لله ما يكرهون، ومع ذلك هم أهل فصاحة وبيان، فاطلقوا مواهبهم اللسانية، لتزييف الحقيقة، والاستهزاء بالرسالة المحمدية وبالعقيدة الصادقة، وتمويه الكذب على الله مصورين لكذبهم بصورة تعطي ما فيه من باطل والفتراء، كفولهم: (**وإن رجعت إلى ربّي، إن نسي عنده لحسنّي**)⁴ -ومثله ما يتجسّر به ملا حدة العصر مما لا يسمح به أنبي وتوفيري أن أسجله⁴ وفي المقابل يبرزون أن التوضع الأفضل والحالة الحسنى هي لهم.

ويورد عليهم القرآن بما يشاكل دعواهم: إنه لا شك ومن المؤكد أن سالهم النار وإنهم يسرعون إليها، يدفعهم دفعا شديدا إليها ما قاموه في حياتهم من منكر القول وتضليل الناس والجرأة على الله. هذا إذا قرأنا الآية على أنهم مفطرئون بفتح الراء ولما على كراهة ولتهم مفطرئون بكسر الراء أي متجاوزون للحد في المعاصي.

63- قاله لقد أرسلنا إلى أممهم عذاب آليم.

تأكيدا بالقسم المعظم المبرز لصديق مصمونه⁴ هذا المصمونه المقسم عليه: هو أن الله بعث الأنبياء التي سبقت قبلك في التاريخ، بما محمد، رسلا قصد إرشادهم إلى العقيدة الصحيحة، والتشريع الصالح لعمارة الأرض. فدعاهم إلى الطريق المستقيم ووضحوا لهم ما نزل إليهم، وبذلوا غاية جهدهم لهدايتهم، فرغضوا عنادا واستكبروا بمقالة رسلهم وكذبوا. ذلك أن الشيطان خلط عليهم الميزان ففحج لهم الحسن،

فأطاعوه واتبعوا غوايته. وكذلك المشركون بمكة زين لهم الشيطان الشرك وما جرت عليه حياتهم مما يرفضه العقل السليم والحكمة، فكان الشيطان ولربهم يعتمدون عليه ويركضون إليه في هذا الزمان. وستكون عاقبتهم لعصيانهم لك واتباعهم للشيطان أن ينزل بهم العذاب الأليم .

64- وما أنزلنا عليك الكتاب...ورحمته تقوم يؤمنون.

هذه الآية تعتبر النتيجة لما تقدم توضيحه في الآيات السابقة من ضلال المشركين، وما رغب عليه. فهي تأتي معلنة المهمة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وما تأكد به. إن الغاية الكبرى من تأييدك بالقرآن الذي أنزلناه على قلبك هي أن تبين للناس الطريق الذي يرضاه الله لعباده، الذي به يصلون إلى مرضاته، هذا الطريق الذي شره كثير من الشبهات فاختلطت معالمه، وجرحهم عدم الوضوح إلى الاختلاف، شأنه شأن الباطل الذي تكثر مسالكه : أما الحق فهو واحد ولا يكون أكثر من واحد . إن هذا الهدى الذي جملة القرآن للناس هو الهدى الكامل للبشرية المنقذ لها من طرق الضلال. وأنه رحمة للقوم الذي يؤمنون به، يخرجهم من الحيرة إلى الوثوق، ومن الشك إلى اليقين، ومن الفسق إلى الطريق السالك الذي يجدون معه الأمن والرضا الباطني .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَكْرُمُ الْآفَاقَةَ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ خَالِصًا سَائِبًا لِلْبَشَرِ ﴿٦٦﴾ وَمِمَّنْ فُتِنَتْ الْأَرْجُلُ وَأَلْغَتْ الْأَعْيُنُ فَنَحْنُ فِيهِ سَاهُونَ ﴿٦٧﴾ وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الآفَاقُ : اسم بجمع كل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز .

الْعَبْرَةُ : للموعظة

الْبَهْلُونَ : جمع بطن بما يحويه من أجهزة الهضم.

الْفُتْنَةُ : الفضلات التي يدفعها الجهاز الهضمي لتتحد إلى المصير .

الْخَالِصُ : الذي لا شوب فيه بكثر صفاءه.

الْمَسَالِكُ : السبل مزورة في الحلق .

الْمُسْكِرُ : الشراب المسكر .

الرِّزْقُ : الطعام.

بيان المعنى الإجمالي ،

بلغت القرآن نظر الإنسان ليتأمل في كتاب الكون فيبهدي، وبذهب الخلاف الذي مرق البشرية. الله وحده هو الذي أنزل من السماء الماء فبطل الشرك، وقدر أن يحيي بذلك الماء الأرض بعد أن كانت جرداء ميتة، فتخرج نباتها وينتشر على سطحها. فثبت وجه من البعث بعد الموت. إن في هذه الظاهرة تليلاً على تفرد الله بالخلق وإن الحياة يمكن أن تعود بعد الموت.

ولفت نظر البشر إلى مئة أخرى أصلها السماء المنزل من السماء. الذي نثبت به الأعشاب، وترعاها الإبل والبقر والغنم والمعز، فتتحول في بطونها تحولات سيطرة بضبط حكيم إلى لبن كان مختلطاً بالفوت الذي تلقاه الأعمام من الفضلات وبالدم الذي يتحول إلى الخلايا فيغذيها بما تستطيع به أن تنبشر وظائفها في الجسم وكلاهما مستغفر. ويتميز اللبن بكونه خالصاً لا كذارة فيه، سهل شربه .

والسنة الثالثة من نزول الماء من السماء ، تحوله باختلافه عناصر من الأرض نمر عبر عروق الشجر فتولد الثمار من النخيل والأعشاب، تطفونها فتأكلون منها وتذخرونها ثمراً وزبياً وذلك الرزق الحسن ، وتتخون من عصيرها مكرراً .

وفي تحول ماء المطر إلى لبن وتحوله إلى ثمرات للنخيل والأعشاب ما يقوم تليلاً على تفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة .

بيان المعنى العام ،

65 والله أنزل من السماء ماء ... لآية لقوم يسمعون.

هذه الآية وما تبعها قد سبق في صدر السورة من آية 10 إلى آية 13 ما يتفق في الظاهر معها . ولكن لهذه الآيات موقع خاص في الارتباط بما سبقها قريباً، فالآيات 64/63 أهم ما ورد فيهما: أن الشيطان لثر في البشر فاضلهم بترزين الشرك ورفض عقيدة البعث باختلافوا، وأن القرآن يهدف إلى إخراجهم من الاختلاف، وفي ذلك اعظم رحمة.

وتهدف هذه الآية إلى تأكيد الدور الذي قام به القرآن بلفت النظر إلى كتاب الكون الذي يحق أن الله واحد وإن البعث حق، في كتاب الكون لا يجادل أحد في أنه لا ينزل الماء من السماء إلا الله. فكل ما عيّد من دون الله باطل فهزم الشرك، وهذا الماء النازل من السماء يمر في باطن الأرض فإذا الأرض الجرداء الهامدة تتحرك فتربو. ويتخلل الماء باطنها، فإذا الزريرة تغلق وتحييا بعد أن كانت ميتة، فيمت النبات جذوره في الأرض ويشق رأسه فشرقتها لظاهرة ليشارك الكائنات الحياة

في الوجود. وهذا يثبت أن البعث حق. وختمت الآية بقوله تعالى: إن في ذلك لآية لقوم يسمعون -لارتباطها بالآية السابقة فإن القرآن يؤثر تأثيراً عميقاً فيمن يسمعه، وكذلك يؤثر فيمن يسمع هذه الآية ليستيقظ للتكبر في تلكم الظاهرة الكونية فيهدى .

66- **وان لكم في الأنعام لعبرة...خالصا مانفا للشاربين.**

عطف القرآن على الظاهرة السابقة التي تدل على تفرد الله بالألوهية وإمكان البعث، عطف هذه الظاهرة العجيبة الدالة على إحكام الصنعة الإلهية في الكون. وترتبط بالآية السابقة، إذ إن محل الاعتبار هو ما ينشأ عن إحياء الأرض بالنبات ورعى الأنعام له، ثم صيرورته لبناء، وما بين مرحلة الرعي والتحول إلى لبن يشربه الإنسان .

تقرر الآية: أن ظاهرة امتلاء الضروع باللبن بعد رعي الأنعام للنبات، تحدث فيها صبرة تتجاوزون بها الظاهرة إلى ما وراءها من بسيع صنع الله ودقة الخلق، الذي يقوم دليلاً على الوحدانية.

وأول ما تواجه به الآية العقل لتهزه هزا، هو الربط بين ماء السماء والأرض والأنعام والإنسان ربطاً عاجل بأن الله هو الذي يسفيكم هذه الأغبان التي تدها الضروع.

وتوضح الآية مناطق التأمل في الصنيع الدقيق العجيب : أن تلكم الأغبان تخرج من بطون الأنعام، بما تحويه من أجهزة دقيقة ، مع ضوابط محكمة في عملية التحول من أعشاب هضمتها المعدة وبعثت بها إلى أجهزة أخرى في البطن، فحولت قسماً منها إلى دم به يتم النشاط، وحولت قسماً آخر إلى لبن، وحولت قسماً ثالثاً إلى فرث تغف به إلى المعى للتليظ . فضلات تلقوها للحيوانات لتتقلب أعمدة تضاعف خصوبة الأرض . ويبدو التقدير المحكم في خصائص اللبن الذي كان مختلطاً بالفرث والدم . فالفرث لو بقي في الحيوان لأسرع إليه الموت، وهو مستنقز، ولدم به يتم النشاط ويتحول إلى عنصر تغذية لكل خلية من خلايا الجسم، ولكنه مستنقز . ومن بين هذين يمر اللبن إلى الضرع فيدخل في بنية الإنسان خالصاً من اللبادة مهل التناول، يمر من الحلق إلى داخل الجسم.

67- **ومن ثمرات النخيل والأعناب ساجن في ذلك آية لقوم يتقون.**

آية ثالثة من كتاب الكون تتبع نزول الماء من السماء، يمتن الله بها على البشر . أخرج الله لكم بمفدى السماء للأرض من ثمرات النخيل والأعناب ما تتفكهون به، وتتخفون من تلكم الثمرات سكر أي مسكراً . والآية مكبة والخمر حرم بالمدينة. وعطف على السكر الرزق الحسن، وفي ذلك إيماء إلى أن الرزق الحسن في هاتين

لثمرتين هو الانتفاع باكلها وقت القطاف أو بادخارها تمراً وزبيبا، مما يشير إلى أن اتخاذ الخمر منهما ليس بالرزق الحسن مما يفتح الباب للنهي .
ثم الإشارة بأن تلك آية للقوم الذين يعقلون، فيها إعداد آخر لتحريم الخمر وقصر المنة على الأكل، باعتبار أن الخمر يحجب العقل.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۖ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذَٰلِكَ ۖ خَرُجْ مِنْ بُطُونِهَا وَمِمَّا تُخَلِّفُ ۚ الْوُكُودَ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ ،

أوحى : لهم .

يعرشون : ما يرفعونه في مكان مرتفع على أعمدة وبسقف أعلاه بجريد النخل ونحوه ، فيستمتع صاحبه بظله وبالمشهد .

السلوك : المرور وسط الطبيعة .

ذلاً : جمع نلول بمعنى مسخرة .

شراب : العسل .

بيان المعنى الإجمالي ،

أهم ربك النحل يا محمد إلهما عجبيا فاعملوا فيه فكركم . تأملوا في هذه الحشرة الصغيرة كيف غرس الباري في طبيعتها، أن تتخير الأماكن العالية من الجبال ومن الشجر ومن المعروشات لتتخذ منها مساكن على خلاف طبيعة الحشرات الأخرى، وذلك لارتباطها بالإنسان فيما تصنعه . ثم ألهما أن تسلك الطرق التي يمرها للسلك فيها دون أن تضيق عن الخلية التي خرجت منها . تنتشر في الطبيعة فتتناول مما تخرجه الأشجار من ثمار عند نورها وبعد نضجها ما تتملئه ، فتحمله في المعمل الدقيق في بطنها إلى شراب حلو المذاق مختلف الألوان تبعاً للمراعي والفصول ، يشفى من كثير من الأمراض .

بيان المعنى العام ،

68-69 ، **وأوحى ربك إلى النحل... إن في ذلك لآية لقوم يشعرون .**

وأوحى ربك إلى النحل . بهذا الافتتاح العثير يلفت القرآن الأنظار إلى مشهد في كتاب الكون . ثلاث كلمات متباعدة - الوحي - ربك - النحل . فلنأخذها واحدة واحدة ، ثم نعطف بالجمع بينها :

(1) (الوحي: أصله الكلام الخفي، والإشارة الدالة كقمر العيون، ونقطيب الوجه، وحركة خاصة في اليد. والمراد به هنا ما أودعه الله في النحل من الإهام عرسه في جينومه، فصار به للنحل في حياته . هذا الإهام المعيب الذي عكف عليه علماء متبعين للضبط الدقيق من التخصصيين، إلى تنوع الانتاج إلى ذكور وإناث وخنثاى، إلى مراحل النمو، إلى توزيع الأعمال والمهام . إلى ما تفرزه من عمل، إلى الدفاع الإنسان منه. كل ذلك يسير بحكمة الخلاق العظيم ويمتد مع الزمن، كل لحظة تدرج خصائص جنسها وتتخذ مهامها، وتتابع الحياة في هذا النوع من الحيوان الصغير .

وأول الخصائص التي لغت الآلة نظرنا إليها بيوت النحل المعبر عنها بالأجسام، التي ألهمت طريقة في بنائها على أشكال مستحبات هندسية لا تدخل مقاييسها وتتحم فيما بينها، فلا بتخللها فراغ بخلاف بقية الأشكال فإنه إذا التأمست قد لا يكون السحامها محكما، وبذلك يتم تحصنها من الحشرات ومن شرب المياه وتحولات الطقس، وبعد استلاء المسكن من العمل تغطي عليه لحفظه بمادة تفرزها هي الشمع نفس المادة التي غطت بها المسكن . وللتفتحات التي تخرج منها وتدخل مكان مخصوص يحفظ الخلية.

(2) اختار القرآن لفظة ريك فجمع بذلك بين أمرين : أن الذي ألهم النحل هو الذي تتابع عنايته بمحولاته فلا يهمل صغيرة ولا كبيرة، من قليل ما علمه الناس ومن كثير ما جهلوه، فإن للدقائق التي أودعها في النحل تقوم شاهدا على بالغ العناية وحكيم التقدير .

(2) (أسند لفظ الرب لمحمد، ربك) ليؤيده وثوقا بكمال عنايته به صلى الله عليه وسلم. فإنه إذا كان الرب قد اعتنى بالنحلة الحشرة الصغيرة غلبة ما تزال أسرارها تتكشف مع البحث عبر الزمن، فإن عنايته بك أعظم وأعظم.

(3) النحل، أنقل عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بعض ما ذكره رحمه الله في التحرير والتنوير . للنحلة ذباب، جسمه ضعفي جرم الذباب المتعارف، له أربعة أجنحة، ونحت خرطومها شوكية يلمس بها للدفاع عن نفسه، سمها ضعيف، تموت إذا انفصلت شوكتها منها، وهي ثلاثة أصناف ذكر- وأنثى، وخنثى، وظيفه الذكر حماية لتجميع تحوم حوله وتفتح الإناث لتلد به الإناث إناثا.

اليعسوب : وهي أجنحة جرما من بقية النحل وهي التي تلد الإناث إذا لفحت، وتلد الذكور بتون تلقيح، وهي ملكة لخلية فهي واحدة فيها .

للخنثى : هي التي ترعى الزهور والثمار وتقرز العسل، وهي أصغر جرما من الذكور، وهي معظم سكان الخلية .

ومن الإلهام تخييرها للأماكن الرفيعة لبناء بيوتها. من الجبال، ومن الشجر، ومن المعروفات التي يرفع عليها الفلاحون الأغصان لينعموا فيها بالفلفل مع حفظ الثمرة.

- وفوق ما تقدم من تخيير الأمكنة الرفيعة لبناء بيوتها، يبرز ما أهتمت إبقائها والقيام بدورها في الكون. إذ سجلت الحكمة الإلهية في جينومها تتبع الثمار من بداية نورها إلى تمام نضجها لتتمثل من رحيق الأزهار ومن سائل الثمار المادة التي تصنع منها للعسل .

كما أعلمها تبعاً لطبيعتها أجنبيتها أن تنتقل من زهرة إلى أخرى ومن شجرة إلى شجرة ومن مكان إلى مكان أبعد دون أن تضيع خط سيرها، لتعود بعد أن تمثلن من المادة التي تحولت في بطنها إلى عسل فتعمر به مسداً من الجبج .

وقد سخر الله طرق سيرها. ورأيت لبعض العلماء أن النحلة إذا كشفت مرتعاً جيداً أو أحسنت بما تريد أن تبخله إلى أخواتها، تطير حسب حركات وخطوط مقننة. يفهم منها بقية النحل الرسالة التي أرادت إيلاؤها. وهو من التقدير العجيب الذي لم يبلغ البشر إلى اليوم حل شفرته .

فأشارت الآية إلى الترتيب المحكم في ترابط الكون بتقدير من خالفه: فإذا ما هاهنا السماء يمرى من الأرض إلى الأشجار، فتخرج منه الأزهار والثمار التي نراها للنحل، وإذا النحل يقرز من بطنه ما جمعه برعيه عند سيره في الطبيعة، يقرز عسلاً يتناوله البشر، فيجئون فيه شفاء من أسقامهم .

ومن الثقة في التعبير القرآني تكرير كلمة شفاء، فعمد تعريفها يؤذن بوجود شفاء غير عام لجميع أنواع الأسقام. وهنا تدخل عوامل كثيرة قدرها رب العالمين ليحصل التأثير، كمرعى النحل، ومزاج المتناول، والمقدار الصالح للتأثير، والظرف الزماني الذي يتم فيه تناول وغير ذلك.

وتختتم الآية، بلغت الأنظار للتبين ما نظمه الباري في حياة النحل وصلتها بالإنسان، حتى يتعمق في ذلك بواسطة تفكيره، فيجد فيه دليلاً إضافياً على القدرة والإحكام، وما في بناء الكون من ترابط أوسع من أن يستطيع الإنسان جمع خطوطه.

وكان بعض المعتقلين في مجلس المهدي قال : إنما للنحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل تجعل الله طعامك ومزايك مما يخرج من بطونهم.

فضحك المهدي وحدث به المنصور، فأتخذه أضحوكة من أصحابكهم، وحقق للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: أن الذي رد عليه لبرد المناسب لتجربته على كتاب الله، وتحميله ما لا يتحمل تقريبا من السلطان، هو بشار بن برد.

وَاللَّهُ يَلْعَنُ مَنْ يَتَوَكَّفُكُمْ وَبَيْنَكُمْ شَيْءٌ إِنَّ أَرْذَلَ الْعَمَلِ لَكُنْ لَا تَعْلَمُ حَقَّ عِلْمِ شَيْءٍ
إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ قَبِيرٌ وَاللَّهُ يَقُولُ فَضْكَ عَلَى نَعْصِي الْإِزْقِ لِمَا لَيْتَ لَضُلُوا
بِرَأْيِي رَوْفِهِ عَلَى مَا مَلَكْتُمْ أَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِخَدُوتٍ
وَأَنَّ جَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفِئَةٍ أَزْوَجًا وَجَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَحٍ بَيْرٍ وَخَفَلَهُ زَوْزَكُمْ
مِنَ الْعَلَقِ أَتَى الْبَيْتِ لِيُؤْمِنُوا وَيَهْتُمُوا اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ

بيان معاني الألفاظ :

لذلك قسر : حال هزم البدن وضعف العقل، والردالة أخس من الرداءة.

الردالة السعطي.

لنفسهم : من نوعكم.

الحنطة : جمع حافة يراد به ابن الآلين.

العليه : الحسن الخالص من اللكد.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله وحده الذي خلق كل إنسان على وجه الأرض دون أن يكون للمخلوق أي اختيار لا في إيجادهِ ولا في صفاته الخاصة المميزة له عن بقية أفراد النوع، وهو الذي يسلبه للحياة في مرحلة من مراحل قوته، لو يمهله إلى أن يغلب عليه الضعف والوهن في بطنه وفي قواه العقلية حتى يكاد لا يذكر شيئا مما كان يعلمه، إن ذلك أوضح دليل على اتصاف الله بالعلم الشامل والقدرة على إنجاز ما علم أنه سيوجد.

مما نفرد الله به من التصرف في قضايا البشر، أنه هو الرازق لكل نفس ما تحصل عليه، وتفضيله بعضهم على بعض، فمنهم غني وفقير، والفقر والغنى وإن كانا أثرا لأسباب بها تحققت التوسعة أو التضيق، إلا أن الإحاطة بها فوق طاقة البشر. وتخلصت الآية للاحتجاج على انحراف تفكير الكفرة، فهم يدعون لله شركاء، مع أنهم لا يعطون عبيدهم من أموالهم ما يشركونهم به، فكيف يشركون بالله أصنامهم؟ والله وحده هو الذي جعل للرجل امرأة وللمرأة رجلا يتم بينهما التكامل حتى يصبحا كأنهما نفس واحدة علاقتهما تتجاوز الإشباع الجنسي إلى بناء

أسرة تقوم على العواطف النبيلة والسود والرحمة . يستمر هذا الامتزاج بالإيجاب للموصول فيجد الزوجان في أحفادهما عوناً عند الكبر والحاجة، ولهم منتبه بما يسره من مال وما وفره من سلوى وطعام ولباس ومن رفاهة تتسع أو تضيق تبعاً لتقديره سبحانه .

والعجب من أمر الإنسان الذي يعتقد في القابل الذي لا أساس له ولا حقيقة، ويعتقد في الأصنام ويتقرب إليها ويكفر بالله.

بيان المعنى العام :

70- والله خلقكم ثم يتوكل علىه . يسر الله عليه قدير .

تتابع هذه الآيات كاشفة عن أفرادها سبحانه بالتصرف في ذات الإنسان وفي رزقه تصرفاً ليس للإنسان فيه اختيار ولا تأثير . فلذلك في مضمون الآية التي كثروا ما يغفل الإنسان عن التأمل والاعتبار به .

لو لا : خلق الإنسان : خروجه للحياة بنفخ الروح فيه، صفاته الخاصة من طول أو قصر، وسن لون، ومن جمال أو نعامة، ومن ذكاء أو غباء، وجنسه ذكراً أو أنثى إلى آخر ما يميز كل فرد عن غيره . فهل كان لأي فرد اختيار في الوضع الذي هو عليه . إن الله وحده هو الذي خلق . وكما دخل الإنسان الحياة فكذلك يخرج منها بدون إرادته . وكيف يفضي الإنسان حياته ؟ يقضى ردها من الزمن وهو مقبل عليها مروراً بها ومنعماً رغباً أن تطول أيامه . ثم يحسّر فتتهذّ قواه شيئاً فشيئاً، وتضعف شهيقه لذلك، وتبوس مفاسله، ويضعف بصره وسمعه ، ويتتابع سقوط أسنانه، ويضميه الوهن، وما يزال التمسك والضعف الذكرة يزولن بريق فكره حتى يكاد لا يرسم في ذهنه شيء إلا يسقط سريعاً . ومن حكمة القرآن تخصيصه لوضع الفكر من بين أعراض الهرم . لأن تميز الجنس البشري بعقله لا ببشره .

لن من ينظر في تاريخ البشرية التي توصل أفرادها من آدم إلى اليوم، لا يظهر بفرد هو نسخة مماوية لغيره من أعضاء للعائلة البشرية . فمن قسم لكل حظه وخصائصه وحياته بالطاقة إلى أن اشتد عوده وأمهيم في خلافة الأرض، ثم هنم تلك القوى شيئاً فشيئاً إلى قبض روحه ؟ أفلا يقوم هذا التدبر في خلق الإنسان شاهداً على تفرد الله بالعلم الكامل، والقدرة التامة على إنجاز ما ثبت في العلم لإجاده . وصديق الله : إن الله عليم قدير .

71- والله فضل بعثكم على بعش ... أفبعدم الله يجعلدور .

تلخيصاً في نفس ميثاق الآية 70- تلقت النظر إلى تفرد الله بالتصرف، وتجمع في إنشاء الاستدلال توبيخاً للمركبين .

تثبت الآية أولاً: إن الله أعطى لكل كائن رزقه، ولولا رزقه لما سار لحظة في الوجود.

وثانياً: إن الأرزاق تضيق وتوسع تبعاً للتقدير الإلهي تعجز مداركنا عن كشفه، الأسباب الحقيقية التي ترثب عنها الثراء أو الفقر. فهو قد فضل بعضنا فوسع عليه فيما أتاه من مال، وضيق على آخرين فهم يعانون من الخصاصة نجد السذكي العالم يحارب الفقر سعاده، وتجذ القبي للجاهل بكثر ماله وتتمو ثرواته، ويحالفه الحظ في معاملاته. وفي كثير من الأحوال تجدهما من أسرة واحدة لتحدث تربيتهما، واتحدت البيئة التي يعملان فيها. أفلا يقوم ذلك دلالة على أن الموسع والمضيق هو الله، وأن التصرف بيده تبعاً لحكمته وإن كانت إمكانياتنا تقصر عن إدراك الأسباب الخفية التي تحقق بها الأثر من الغنى أو الفقر. وينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

ومن الدليل على القضاء وكونه *** بؤس اللبيب وطيب عبث الأحمق

ثم أجمعت الآية مفردة على التفاوت في الرزق وحصر الإنسان على مكتملته، إن الإنسان الموسع عليه في المال يمسك ماله لنفسه ولا يرضى أن يشاركه فيه عبيده الذين يتصرف فيهم. فقله تعالى: **(إِذَا مَلَكَتُ الْجِبَالَ)** تعبير بساوي كلمة عبيده، لما كانت العبودية للعفة لملك السيد تحقق بأحد أمرين: إما أسر العدو فيطلب رقيقاً، والأسر هو قهر أحد المتحاربين من بقاتله همسك به بقوة ومينة، وإما أن بشرته يدفع ثمنه الذي يكون عادة باليسين.

إن هؤلاء الأثرياء لا يرضون بأن يعطوا رزقهم إلى عبيدهم حتى يكونوا شركاء فيه متساوين. فكيف يثبتون لله شركاء يساونه في ملكه؟ أفلا بذل هذا على مذاقصة الشوك للعقل والقطرة.

وحق أن توجه لهم التوبيخ والتوبيخ على مقابلتهم النعم بكفرانها، فسألهم سؤال إنكار وتوبيخ أيجدون نعمة الله عليهم؟

72 والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وينعمت الله هم بمكفرون.

ثالثاً: في نفس سياق الآيتين السابقتين يظهر النص القرآني منه ثلثة وتأثيرا مباشرا لله وحده في حياة الإنسان تتمثل في:

أن الله جعل لكل من الجنسين ما يربطه بالجنس الآخر ربطاً أخص من التوافق في الخصائص الإنسانية، إذ هو ارتباط يقوى حتى يكون به الزوجان كأنهما نفس واحدة. إن هذا التكامل مع التمازج بلغ به التعبير القرآني (من نفس واحدة) صفاء وشفافية تقتضي لبيان أبعادهما كلاماً مطولاً وتفصيلاً، ولكن الظلال التي يوحى بها تفتح آفاقاً واسعة، كلما أعاد التالي تمثيلها غنقه بلطف المعاني ويديع الأحاسيس.

وهي نعمة من جعل الله، ليس للإنسان فيها يد، فلولا تلكم الرعاية الربانية لكان البحث عن الجنس الآخر يؤثر عند الشبق الجنسي، حتى إذا خففت داعية الشهوة تفصل كل واحد منهما عن الآخر، كما هو شأن الحياة الحيوانية.

ثم تحققت المنة، بجعل آخر مقرون بالأصل :هي الصلة المستمرة مع المستقبل في أولاد الأولاد (الحفدة)، منة الأسرة المحضن الذي يمتد من الأبوين إلى الأولاد وإلى ما ينبوونه، إنه إذا ربيت الأسر على الأصول الإسلامية فإن الجدود والجدات وجدون في الجيل الثاني أعواناً ومساعدين، وكمنة الحفدة أصلها بدل على الإصرار في الخدمة، فتشوير الكلمة حسب بنائها إلى ما غرس في الفطرة مع حسن التربية من إسراع إلى الأخذ بأيدي الكبار من الصغار، وتيسير حياتهم.

وهذه النعمة يتم بها صلابة الارتباط النسيجي، فيحمل الأولاد اسم العائلة، ثم يسير به الأحفاد مع المستقبل، وكون الإنسان بعرف لسميه نعمة كبرى يغفل عن التلبس إليها معظم الناس.

-إنه لا تتم السعادة والأمن في العائلة إلا بفضل ما يسره الله من مال وما مكنها من لوزاق، من المأوى إلى الطعام، واللباس، إلى ما ينوفر من أسباب الرفاهية على ما تم تقديره كما جاء في الآية -71-

وتختم الآية كما ختمت الآية السابقة بسؤال إنكاري يوجب المشركين كيف يقابلون هذه المنن باعتقادهم في الأصنام الباطلة، ويكفرون بحق المستفضل عليهم، حقه في اعتقاد وحدانيته، وفي عبادته، وفي التقرب إليه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧١﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ رَأْسَهُ لَا تَعْمُونَ ﴿٧٢﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّنْجُورًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَرَبًّا رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُعْطِيهِ يَتَزَلَّلُ بِمَا أَصْحَرْتُم مِّنَ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زُجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يعلمون : يتفكرون.

مثلاً : ممتلاً.

العبد : المملوك اتفاد حرية التصرف في نفسه وفي ماله .
النحل : العاجز عن القيام بشؤونه ويقوم بها عنه غيره .
مولاه : كلفته .

ياهر بالعدل : يأمر بالحق والصواب .
الصراط المستقيم : الطريق الواضح الذي لا تتواء فيه .

بيان المعنى الإجمالي :

يذكر القرآن على المشركين عداوتهم لمن لم يستطع أن يعطيهم أي شيء لا من السموات ولا من الأرض، ويصاحبهم العجز في المستقبل، مما يدل على فساد عقولهم . فإياكم أن تقرّبوا ما اختص الله به، بمحاولة تشبيهه بما يوتسم في أذهانكم . لا من الموجودات المادية ولا الخيالية، فإن علمكم محدود، وعلم الله لا محدود ولا يستطيع المحدود أن يترك اللامحدود .

قرب الله الحقيقة بضرب مثل حاصله التظير بين رجلين : الأول : عبيد فاقد الحرية عاجز لا يتصرف في نفسه ولا يملك شيئاً، والثاني : حر ذكي رشيد رزقه الله رزقاً واسعاً من خير ما يتفلس فيه أصحاب الثراء، لا أحد يحدد له التصرف فيما يملك، ثم هو يستمتع برزقه ينفق منه بحكمة وذوق، فهو محبوب من عائلته مشكور ممن لحقه سخاؤه . هل الرجلان متوَّان؟ ولما كمل التظير المفسر في القسم الأول هو للأصنام العاجزين، وفي الثاني مثل للتصرف الإلهي، فإن اللسان يروح بحد الله وشكره، وما صرفهم عن شكره وإخلاص العبادة له إلا جهل كثير منهم وهم الدعاء، والأقل يعلم الحقيقة وبخفيها يثارا لمتاع الحياة الدنيا .

وضرب الله مثلاً ثانياً يظهر عجز معبوداتهم التي مثلها للقرآن منظرها لها برجل أخير لا ينطق ولا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وهو عاجز عن تدبير أمره، فيقوم مالكه بجميع شؤونه ثم إن مالكه إذا أراد أن يستعين به في قضاء حاجة من حاجاته لا يأتيه بما طلبه منه لعبائه . هذا الرجل التي مواصفاته ما بينته الآية هل يدعي من له عقل، أنه هو ومن يكون عقلاً حكيماً لا يغيب عنه أي جانب من جوانب الحقيقة ويأمر بها . وهو سائر في طريق واضح لا خفاء فيه ولا تتواء لهما سواء ؟ وكذلك من يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تفهم عن عبيدها شيئاً، ومن يعبد الله المفضل على الإنسان بتبيين الحق والهداية إلى الصراط المستقيم المنجي .

يُيَازِزُ الْعَمَلَى الْعَامَ .

73- وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّ شَيْئًا .

سيقال الآيات واحد، الدعوة لتوحيد الله ونفى الشرك، وتبئثه بالنعم التي اختص بإبدائها رب العالمين. فهذه الآية تتكرر على المشركين عبادتهم للأصنام، والإعراض عن عبادة الله، مع أن تلكم الأصنام لم تقدر على إعطائهم أي مقدار من الرزق الذي ينعمون به من بده لإجادهم إلى بلو عنهم مستوى للنضج والقوة. هي عاجزة عن تمكينهم شيئا من الرزق أيا كان مورده، لا من السموات ولا من الأرض، وهي لا تستطيع أن تكيلهم شيئا في المستقبل، والآية تتضمن توبيخا مبطنًا لما قادهم إليه سخافة تكفيرهم.

74- فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ...وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

تتابعت الآيات السابقة معرفة بما اختص الله به من القدرة والحكمة والإنعام، وتأكد فيها أنه هو المتصرف في شؤون الخلق لا رب غيره ولا معبود سواه، ومن لوازم التفرد بالخلق أن يأمر عبيده ويوجههم إلى ما فيه خيرهم، وأن ينهاهم عن سلوك الطرق المضللة. فجاءت هذه الآية متضمنة نهى للناس جميعًا أن يقيموا أي مقارنة بين الله وبين كل تصور يأتي من الواقع أو من الخيال. ويقرب هذا المضمون للأذهان ببيان علة النهي: إن الله يتقود بالعلم الشامل لما وجد ولما سيوجد وللواجب وللجائز والمستحيل. وعلم البشر قاصر، لا يستطيع أن يبلغ في أي جزئية من عالم الملاحظة، فضلًا عن غيره، للكشف الكامل الذي يتجلى به الموضوع تجليًا لا يفي أي غموض. فإذا كان علم الإنسان يحجبه عن إدراك حقائق الموجودات الحادثة حجب هو عاجز عن النفاذ لما وراءها، فمحاولته تمثيل الله منلال مبین. لأنه من الحقائق العقلية أن القاصر والمحدود لا يصل إلى أن يسمع الكامل واللامحدود.

75- شَرِبَ اللَّهُ مِثْلًا عَيْنًا يَمْلِكُ لَا يَقْدَرُ...بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

يوصل الغران بطرق شتى إقناع البشر بحقيقة تفرد الله بالخلق والتصرف والرزق. فصبرت هذه الآية صياغة تمثل ذلكم المفهوم بما حاصله: يفرّب الله لأذهانكم بالتظير بين رجلين مختلفين اختلافًا كبيرًا.

الأول: عبد مملوك قائد لحربة يتصرف في ذاته، ولا يملك شيئا فضلًا عن أن يتصرف فيه. أحاط به العجز فأفذه كل قدرة؛ تصور ما شئت فيه من النقائص كالعمى والصمم والزمانة وفقدان العقل. وهذا ما يمثل أصنامهم، إذ هي حجارة منحوتة في الغالب.

الثاني : خزنُ مالك أمر نفسه، وسع الله عليه في رزقه، فأثابه المال الكثير الجيد من أفضل ما يتنافس فيه الناس ؛ ثم إنه تبعاً لحصافة رأيه وحسن بوقه، ونبل عاطفته، لا يخزن ذلك المال كحارس عليه، ولكنه يستمتع به فيتصرف فيه تصرف العاقل السمج، يتفق منه حسبما يهديه إليه حسن تعبيره يتفق مرأً وجهراً دون رقيب عليه .

يختم التفسير بين العنلين بموال، هل يستويان ؟ لا يستدعي السؤال جواباً لأنه لشدة وضوحه ليس له إلا جواب واحد، لا مساواة بينهما.

ولكن الفران بإعجازه يحول الجواب إلى إعلان ما نرمخ في ضمير الناظر والثالي، الحمد لله . نرد الله بالحمد والثناء والشكر فهو الكامل المتفضل، وسبحانه أن يكون له شريك .

ثم ختمت الآية بإعلان: أن أكثر المشركين ما سوع لهم اعتقاد شركاء الله إلا نرمخ الجهل فيهم؛ والتعبير بالأكثر جار على الدقة القرآنية، فإن بعض المشركين يعلم الحقيقة ولكن لا يظهرها ولا يعلن عنها نظلياً لحظوظهم الننيوية.

76. وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما...وهو على صراط مستقيم .

اضاف الفران للمثل الأول مثلاً آخر تأكيداً للبيان والتوضيح، فضرب الله مثلاً برجلين :

1) رجل أبكم، فاقد لما تميز به الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، هذا الكائن الذي لا يمكنه أن يندمج في المجتمع إلا بفضل ما رزق من اللطق، ولذا عرف المتعلقة الإنسان بأنه حيوان ناطق، والناطق قد يكون بالفعل؛ وهو الذي يستطيع أن يتحدث بالكلمات ويبلغ ما في نفسه بالكلمات والجمل، ويسمعها غيره . وقد يكون بالقوة وهو الذي في لسانه جزمة أعجزته عن التكلم بالصوت ولكنه يستطيع أن يبلغ ما في نفسه بالإشارة والكناية والحركات. والقسم الثالث هو العاجز عن التكامل مع غيره لا بالصوت ولا بالإشارة، وهذا هو المراد بالأبكم الأخرس في الآية، لأن الأصنام المعبودة للمشركين هي كائنات الأخير، وهو مع ذلك عاجز لا يستطيع أن يفهم بأي شأن من شؤونه، بل هو يعتمد على مالكه (**مُرٌّ عَلَى مَوْلَاهُ**) لا يهتدي للخبر أبداً، فكما طلب منه سيده قضاء أمر لا يرجع إليه بما طلبه، وما أسند مسأله بهذا العبد، وهو مثل الأصنام التي يجهد تغلبها في نقلها وتنظيفها وحراستها ولا يستفيدون منها شيئاً ولا تفعل عنهم شيئاً.

2) أما المعادل فلم ييسط الفران صفاته كما تم في الآية السابقة نقلها في تبليغ المقصود، ولكن الفران بالمسؤال عن التسوية بين هذا المثل للشيء وبين من بلغ

من الحكمة أنه لا يأمر إلا بالعدل، على أن الميزان عنده لا اختلال فيه، فمعرفة بالصواب في كل أمر معرفة كاملة، ولا يتوقع أنه يغفل عن أي جانب مما يمكن أن يلائس ما أمر به . وبالعجلة فهو متمكن من السير على الطريق الهادي الواضح، الطريق الذي تبدو غايته منذ البداية لا تتواء فيه ولا عوج.

والمثل الأول المضروب يمثل وضع لمشركين مع أصنامهم التي لا تدرك شيئاً وحاجتها إلى عبادة محقة وحاجة عبادة إليها معدومة، وبذلك تمكن في ضلالهم، وتنزل بهم عن المستوى الإنساني . والمثل الثاني لكمال الله تعالى في ذاته وفي هدايته للبشرية وتمكينهم من النعم الجليلة.

**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَّا نَكْثَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ
إِلَى اللَّهِ قَالَ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْبُحُورِ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ
بِشَيْءٍ وَخَفِيَ لَكُمْ الْسَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ**

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات : ما هو موجود فيها ولا تستطيع مدارك الإنسان أن تصل إليه.

أمر الساعية : الشأن العظيم في لحظة فناء الكون كله .

لمح البصر : إدراك البصر للمرئي.

الغواص : الغفل

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر الله يعلم كل دقيقة من دقائق ما حوته السماوات والأرض . والإنسان لا يدرك إلا بعض الظواهر ، وهو محجوب عن الإحاطة بكل ما حواه الكون . إنه مما اختص الله بعلمه، وهو الغيب . هذا الكون الواسع الأبعاد المتغير في كل حين، وجد من عدم وسيبته في الوقت المحدد له مسبقاً الذي لا يعلمه إلا الله . سيتم إعدامه في لحظة وحيزة بمقدار ما ينقل البصر صورة ما يراه ، بل أقل من ذلك وهذا ليس بعيداً لأن قدرة الله لا يعجزها شيء .

إله بقدره الله وإرادته خرج كل واحد منكم من بطن أمه صفحة بيضاء لا يعلم شيئاً من هذا الكون، والله هو الذي أودع فيكم الحواس الخمس التي بها استطعتم إدراك ما يجري حولكم، وجعل لكم عقولاً تختزنون بها المصنوعات وتركبون بها مع السموات ما يمكنكم من الاستغلاف في الأرض وتوسيع المعارف البشرية . رجاء أن تدركوا هذه النعمة فتطلق لسانكم بشكر الخلاق العظيم .

بيان المعنى العام .

77- ولله غيب السماوات والأرض...على كل شيء قدير.

علم الإنسان بما حوته الأرض وما حوته السماوات محدود جداً، وما يجهله عنها أكثر مما يعلمه. والله لا يغيب عن علمه شيء، ما كان صغيراً تلقاها وما كان عظيماً جداً كالمجرات. ومما هو مغيب عن علم البشر الوقت الذي حدده الله لنفاس الكون. إن فناء الكون أمر ثابت لا شك فيه أخير بذلك خالقه، الله رب العالمين. ويشهد العقل بذلك لأن التغيرات التي تجري على العوالم تثبت بما لا مجال للشك حدوثها، وأنها خرجت من علم، والفترة التي أوجدها لا تعجز عن إنهاء وجودها. وقدّر الله أن يتم ذلك بغتة فلا يعلم أحد متى حدوث الساعة، وفي سرعة كبيرة جداً، قرب ذلك بالزمن الذي يحصل فيه ارتسام صورة أي شيء في البصر، وللتحقيق فإن إلقاء العالم يتم في لحظة أقل من ذلك. ومما يحقق ذلك وينفي عنه كل بمد أن الذي ينفي العالم هو الله الذي لا يوجد ما يعاكس قدرته بل يفقد كل شيء لما يريده.

78- والله أخرجكم من بطون أمهاتكم...لعلكم تشكرون.

تحقق هذه الأسماء اللطاف التي لا تعدد الله بإسناداتها لخلقها، يساعد الإنسان على المعرفة، هذه المعرفة التي تنمو شيئاً فشيئاً، وتتكون منها شبكة متلاحمة، هي حظ الإنسان المقدر له منها. يذكر القرآن كل فرد أنه ولد فزل من بطن أمه إلى الأرض، وجوانه تكون غير مبرنة على الإدراك وقت خروجه، ثم تحصل له المعلومات الحسية ثم المعنوية شيئاً فشيئاً. وأول قنوات المعرفة هو ما يأتي عن طريق الحواس الخمسة، التي من قواها في المخزون المعرفي ما وصل عن طريق السمع والبصر ولذلك خصت بالذكر. ثم إن هذه المدركات الحسية تختزن في العقل الذي يولد منها ومن المبررات معارفه التي تضيق أو تتسع تبعاً لتجاربه، ونيابة فكره، وقدرته على التركيب من الأوليات الناتج التي فيها يمتاز البشر بمقدار ما يبلغون من صواب الاستنتاج.

وهذه النعمة التي سمت من الحواس إلى العقل ناسب أن يتبعها رجاء أن يقدرها البشر حق قدرها فيشكرون الله على ما نعم ويقولون على الإسلام.

الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْبِ مُخْشِعِينَ بِحُجَّتِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ خُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوَّارَهَا

وَأَشْعَارَهَا أَتَشَاءُ وَمِمَّا إِلَيْ جِئْنَا (۱) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْجِبَالِ الْكُسُفَاتِ ۖ يَجْعَلُ لَكُمْ سُرُبِيلَ رَبِّكُمْ الْخَرُّ وَسُرُبِيلَ رَبِّكُمْ بِأَنَّهُمْ
كَذَلِكَ يُبْذِرُ رِيعَهُمْ عَلَيْهِمْ لَعَنَهُمْ أُولَئِكَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا إِنَّمَا عَلَيْهِ الْبَلَاءُ
الْمُؤْتَى (۲) يَغْرُقُونَ بِغَمَّتِ اللَّهُ لَهُمْ أَمْكَرَتِ لَهُمْ الْكَفُورَاتِ (۳)

بيان معاني الألفاظ :

الجو : ما يلي الأرض من السماء .

بمسكين : يحميهم من سقوط .

سكننا : مكانا للسكنى والاستقرار .

تمسختوتها : تجذولها خفيفة .

الظلال : السفر .

الآيات : ما يفرش في البيوت كالزراعي ، والوسائد .

المقاص : ما يساعد الإنسان في حياته كالأعدال ، وخطام البعير ، والليد .

أَكْمَرُ : جمع كن ، ما بقي من البرد والحر في الميزان والكهوف .

المربايل : جمع سربال ، القميص الوالي للجسد .

البأس : الشدة في الحرب .

التولي : الإعراض .

بيان المعنى الإجمالي :

ما بال البشر لا يتأملون في التقدير الإلهي العجيب، في تنظيمه لأمر الكون ؟ فذلك
الطير يسبح بين السماء والأرض، لا يمكنها في الجو إلا القانون الدقيق الذي
ركبه الله عليها، إن في طيرانها وما يربط به من صنعة ثم تدبير كل جزء منها
لوقوم معرفا بالدلائل على تصرف الله وحده بالخلق وحكمته فيه، ويجد فيه
للمؤمنين الطمأنينة الراضية.

والله هو الذي هداكم للعمل فيما بين أيديكم، فاتخذتم منه بيوتا تسكنون فيها، كما هداكم لا
تأخذ بيوت هي فباب من جلود الأنعام، أو من الخيام التي تسمجونها من الوبر والشعر
والصوف، خفيفة الحمل سهلة لطي والنشر، في السفر والإقامة. كما هداكم لاعتماد أصواف
الأنعام ووبر الجمال وشعر المعز لتتخذوا منها الأثاث كالزراعي والبسط والوسائد، وتتنعون
بها ما تكونون منه ما تمتعون به متاعا هو إلى أمد محدود.

والله قدر أن تبسط المخلوقات القائمة ظلالها فتأوون إلى ظلها لتلطف عليكم وهج الحر وأشعة الشمس الحارقة ؛ كما قدر أن تفتح في الجبال كهوف تجدون فيها ما يحميكم من الأعاصير وتقلبات الطقس . كما ألهمكم اتخاذ اللباس الذي يقيكم الحر ويقيكم البرد ، ونسج الحديد ليحصنكم من ضرب أعدائكم في القتال ، هي نعم تجدون فيما تجمع فيها من الطاف ما ينفذ إلى عقولكم فتكونون أقرب إلى اعتناق الدين الإسلامي .

لا تنأسف يا محمد ولا تحزن بسبب ذلك من لم يسلم فهمته لا تتعدى إيلاخ الوحي وتبيينه ، وقد فمت بهمته على أكل وجه .

يسئ الله نبيه بإعلامه أن الذين لم يسلموا ، بعضهم تبين له أنك على حق وعرف نعم الله ، ولكنه أعرض معرضاً ومنكراً لها في الظاهر خوفاً على ذهاب حظوظه الدنيوية ، والأكثرية من الدهماء لم يتأملوا فيما ألفت الوحي إليه أنظارهم فثبثوا على الكفر .

بيان المعنى العام :

79- ألم يروا إلى الطير مستخرات- تقوم يؤمنون -

في كل صفحة من كتاب الكون مشاهد تتلادى بان وراء نظامها مدير حكيم ، ولكن تعود الإنسان بالمشهد قد بحجب عنه ما فيه من تقدير عجيب وتدبير بالغ أعلى درجة من الإيمان . بلغت القرآن الأنتظار ليكون ما تنقله إليهم حواسهم ينفذ إلى الفعل فتسمو مداركهم عن إبرك الحيوانات . إن هذا التأمل مفتاح للتقدم العلمي ، ومفتاح ليكون الإيمان أوضح وأشمل .

هذه الآية تفتح باستفهام لتحرك التالي للتأمل في الطيور التي يراها صباح مساء تخرق الأجواء صاعدة نازلة في يسر وحفظ . إنها قد استطاعت أن تنقل من حاذبية الأرض ، التي ما ارتفع جسم في السماء بقوة دافعة ، إلا وتضعف الجاذبية القوة التي رفعت شيئاً فشيئاً حتى يسقط على الأرض . وترى الطيور تملو في السماء حتى يبلغ بعضها أعلى قمم الجبال ، ولا يمسكها إلا القناص الذي خلفها عليه يارلها . وتصرح الآية في خاتمها بان في طيران الطيور دلائل تزيد المؤمنين إيماناً ، كخفة عظامها ، والأجنحة والريش والذنب ، والإرادة التي تحرك أجهزة معقدة فتحركها الحركة التي تدفع بها وتعلو في الجو وتسير يمنة ويسرة وارتفاعاً وانخفاضاً ، وعودة إلى الأرض ثم الطيران من جديد . في كل جزئية من التركيب المتقن للطائر الذي تمكن به من الطيران مع تحقق سلامته ، دليل على أن الوضع الذي عليه يستحيل أن يكون من باب الصدفة ؛ وإن الذي رتب تركيبه هو الله مبدعه الذي أحسن كل شيء خلقه .

80- والله جعل لَكُمْ من بيوتكم سكنًا .سومنا إلى حين .

تواصل الآية لفت الأنظار لنعم الله على الإنسان؛ فمنها أنه ألهمه المعى لتشييد بيوت يجد فيه راحتته، ويحفظه من تقلبات الطقس، وتجتمع فيه الأسرة، ويتحقق به رعاية الأصول لفروعها. وتتجاوز البيوت فتتأهل المدن وما يتبعها من التعاون سبيل التقدم الحضاري .

ونظرا للتركيب الإنساني الخاص الذي هو بين الإقامة والارتحال، ألهمه في الحالة الأخيرة اتخاذ القباب من جلود الأنعام الحافظة للسكن داخلها حفظا يقارب للبيوت العينية، أو اتخاذ الخيام مما ينسج من الوبر والشعر والصوف، وعلى هذين النوعين من المرافق التي عليها اعتماد سكان البوادي الذين يتبعون مواطن الكلا لأنعامهم، وكذلك الجيوش، وكذلك للفرق التي تبعد عن المدن لإجواز بعض المشاريع العمرانية. إن هذه الأنواع من البيوت تحقق الحماية للنازلين فيها، ويسهل نصبها عند النزول، كما يسهل طليها وحملها عند الارتحال.

كما ألهم الإنسان أن يتخذ من الوبر والشعر والصوف أثاثا ييسطه في البيوت كالزربي، والبسط والوسائد. كما يغل من الوبر والشعر والصوف ما يستعين به في شلونه حبلته، ويتمتع به متاعا نل إلى الزوال . إشارة إلى أن متاع الحياة الدنيا هو إلى الأجل الذي فطره الله لبقاء الإنسان الخاص، ولبقاء الكون بصفة عامة .

81- والله جعل لَكُمْ مما خلق قللا...لعلكم تعلمون .

مواصلة لتعداد الاكطاف الإلهية وعونه سبحانه للإنسان، من الأمور التي خلق الله عليها الكون، مع أن معظم البشر لا ينتبهون لها . فانه سبحانه هو الذي مد الخلل الحاجب لقوة حرارة أشعة الشمس في الجهة المعاكسة لمكانها، والساثر في الصحاري وفي الأوقات التي يشتد فيها حر الشمس يدرك جيدا قيمة هذه النعمة . كما أن الجبال لم يخلقها مصممة بل جعل فيها مغاور وكهوبا يأوي إليها الإنسان فتحميه من الأمطار ومن الرياح العاتية ومن وهج الشمس، فتكون له سورا وحاميا يأوي إليها كما يأوي إلى بيته الذي بناه .

كما ألهمكم ستر أجسامكم بما تسمجونه من ثياب تقيكم حر الشمس وزميرير البرد. وتحميكم من ضرب السيف وحد النبل بالدروع التي كان يلبسها الساقل فيرتد عنها سلاح العدو . وكذلك الخوذات التي نحمي رؤوس الجيود اليوم من الشظايا والرصاص .

إنه على هذا النحو الذي إذا ما تأملتم فيه . يتبين لكم ما أكمله الله عليكم من النعم . إن إدراك هذه النعم من شأنه أن يجعل قبول الدين الإسلامي واعتقاده ما جاء فيه فريا جدا.

82- وبناء على أن النظر في كتاب الكون يفتح للنظر قبول الدين الإسلامي، وأن العناد هو الحائل بين الإنسان وبينه، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هداية الخلق وإنقاذهم من شر الكفر وسوء عقابته، وأنه كان يتألم من إصرار قريش على الشرك، تولى القرآن تسليته عن إعراضهم، بتذكيره أن مهمته التي ما قصر فيها، والتي أداها على أكمل وجه، هي فقط عرض ما أنزل عليه على أكل ما يكون من البيان والوضوح نقيضاً من المشبهات. مما يشير إلى أن الله راض عنه، وأنه لا يتحمل تبعات المعاندين.

83- يعرفون نعمت الله ... وأكثرهم الكافرون .

تصور الآية دوائر نفوس الكفرة . فعدو مدبر كانوا أصحاب فطنة وتيقنوا بأن واهب تلك النعم والهداي إليها هو الله ؛ ولكنهم فوق ذلك عوض أن يقبلوا على الإيمان بقلوب طائعة، وبالشكر لمسديها، اختاروا إظهار الشكر تغليفا للحفظ والندوبية، من مال ورئاسة، التي يخشون ضياعها منهم إن هم تخلوا عن الإسلام، وأكثر المعتنقين من الإسلام من الدهماء كفرة لتصرفوا عن التأمل في براهن الحق فطمعوا على الكفر .

وَيَوْمَ نَعْلَمُ كَلِمَاتُ الَّذِينَ لَا يُؤْذِنُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَعِينُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَذُكِّرُوا الْبَشَرُ نَلْمُهُمْ فَلَا يَخْصَفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَذُكِّرُوا الْبَشَرُ نَلْمُهُمْ فَلَا يَخْصَفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٥﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْزَحُونَ ﴿٨٦﴾ الْبَشَرُ كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زُجِرَتْ عَنْهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

نَحْصِرُ :

تسبيح : الشاهد .

يستعينون : الرضا بعد اللوم .

السلم : الاستسلام .

ضل عنهم : غاب عنهم .

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر محذرا لهم، اليوم الذي يُحضرُ الله في المحشر من كل أمة شاهدا يشهد بالحق، يفتتح المشهود عليهم بصدقه، فيكشف مواقفهم في الدنيا، وهوق هذا تخيير لقوام الكافرين فلا يؤمن لهم في الكلام ولا يتوقعون أن يحصلوا على الرضا بعد تعذيبهم. وبعد ذلك يرون مكانهم في جهنم وقد فُتحت أبوابها، فيسألون ربهم أن يخفف عنهم من عذابها أو يؤخرهم؛ ولكن يستقر في نفوسهم اليأس من قبول توسلاتهم، فيكون ذلك العذاب النفسي .

ويُحضر الله مسا عید من دونه فيعجا المشركين حضورها، ويخيل لهم أنهم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بتحصيل الشركاء جزءا من المسؤولية فيقولون: ربنا! هؤلاء الشركاء أغرونا بعبادتهم، وينطق الله للمعبودات من دونه فيملنون: إنكم كاذبون ما دعوناكم لعبادتنا. وعندها يستسلم الكافرون ويغيب عنهم كل ما افتروه على الله. وخص الكافرون الذين كانوا يمنعون من يرشد في المبالغة على الإسلام بمضاعفة العذاب، لأنهم كانوا يفسدون على الراغبين في الإسلام ما فتحت له قلوبهم .

بيان المعنى العام :

84-يوم تبعث من كل أمة شهيدا...ولا هم يستعجبون .

بعد أن لفت الآيات السابقة الأنظار لما في مشاهد الكون من أدلة على تفرد الله بالخلق والتدبير والحكمة البالغة وختمت بأن الرسول قد قام بمهمته أتم قيام، وهو غير مسؤول عن كفر المعاندين، وعمن يعلم نعمة الله ولكنه ينكرها تقديما لحظوظ الدنيا^{١٠}، اصل القرآن تنبيه المشركين إلى بعض مشاهد يوم القيامة كأنها حاضرة أمام أعينهم . واذكر يا محمد يوم تحضر الأمم إلى المحشر، وتدعو مع كل أمة شهيدا يشهد عليهم بكشف عن مواقفهم من رسالات الله، انه لمشهد عظيم: للبشر موقوفون، والشاهد الصادق الذي قد اتفق بصدقه المشهود عليهم يعلن ما شاهده في الحياة الدنيا . وفي ذلك مشهد لا يستطيع أحد أن ينكلم إلا لمن يأنن له رب العزة بالكلام . ولكنه في هذا يوم لا يأنن للكثرة بالدفاع عن أنفسهم، ولا يطمع أي منهم أن يحصل على الرضا بعد ما يسمعون الشهادة، فليسبت شهادة يعقبا الرضا بعد اللوم، ولكنها شهادة تطالني الرواس وتلك المتكبرين .

و في يوم القيامة مواقف :

موقف ثاني كل نفس تجادل عن نفسها وتقدم ما تظن أنه ينعفها قال تعالى: **(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَحْتَ نَفْسِهَا)**^١ - وموقف بعد ذلك هو ما فصلته الآية، يدعو الله شهيدا يشهد على موقف كل أمة من الأمم من رسالة الله إليهم، المؤمنين والكافرين. وفي هذا الموقف نخرس السنة للكفرة فلا يؤمن لهم في الكلام ولا يطمعون في قبول المعانير قبولاً يصحبه الرضا . وهو معنى ولا هم (يستعنيون) .

85- وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ..وَلَا هُمْ يَخْشَوْنَ .

بعد الموقف الذي خرس فيه السنة للكفار يوم القيامة يظهر الحقيقة الفاضحة لهم وانكشاف ظلمهم ، يحضر أمام أعينهم ما أعد الله لهم من منازل للعذاب، فينزعجون كأنهم ما يكون الآن عاج، وتنتطق أسننتهم بالسؤال أن يخفف عنهم، لو أن يؤخروا ولا يبرع بهم إلى جهنم. وحقق القرآن أنه لا يستجاب لتوسلاتهم، فيكون عذاب الناس هو أول عذاب يسقط عليهم بعد الموقف السابق المذل.

86/87- وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا ..وَسُئِلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

يتابع القرآن عرض مشاهد يوم القيامة بالنسبة للكافرين. إنه في ذلك اليوم يحضر الله الآلهة التي عبدها المشركون من دوز الله، وبغياً المشركون حضورها معهم، وتسول لهم أنفسهم أنهم لم ينجون في حضورها معهم ما يخفف عنهم المسؤولية، بنحوهم الآلهة تنب دعوتهم إلى عبثتها . فيقولون: ربنا هذه الآلهة هي شركاؤنا في الذنب أغرتنا بعبادتها، فكنا ندعوها من دونك، وهذا يلقي الله على الأصنام المعبودة فو لا قاطعاً يعلنونه: إنكم أيها المشركون كاذبون، فما كنا ندعوكم إلى الإشرار بالله، ولكنكم اتبعتم حيالاتكم فأسبغتم علينا صفة الألوهية. وبعد أن كذبتهم أنفسهم، ورأوا العجب من نطقها بالحقيقة. يُظهرُ الذين كفروا لسلامتهم ؛ بمعنى أنه لم يبق عندهم أي أمل في النجاة، كحالة الجندي المغلوب المعهور وقد لقي سلاحه، ومد يديه للعد . وغاب عنهم فلم يجدوا شيئاً له حقيقته من افتراءاتهم وكذبهم .

88 الذين كفروا وصعدوا عن سبيل الله ..بما كَانُوا يَفْسُدُونَ.

إذا كانت الآية السابقة كشفت عن الخوف الشديد الذي أحبط على المشركين وقد صاحبه اليأس من تخفيفه أو إنظارهم . فإن القرآن في هذه الآية قد أضاف إلى الوصف السابق أن العذاب الذي وجبوا منه ضلوا منه فاضلوا تخفيفه أو إنظاره ؛ مبيضاعف

على الذين جمعوا بين الكفر وبين منع من حصل منه ميل للدخول في الإسلام، وقد روت كتب السيرة ما كان يقوم به مشركو مكة من الحيلولة بين الوافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين الميابة على الإسلام، بالكذب وتصوير الإسلام بصورة مشوهة، وبالإذابة لمن رأوا فيه عزمًا مؤكدًا، وحق عليهم مضاعفة العذاب، لأنهم ما اقتتوا بما هم عليهم من الفساد حتى تحولوا إلى نشر الضلالة والفساد.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ
وَنُزِّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ

بيان معنى الانفاذ ،

النبيان : البيان الكامل.

بيان المعنى الإجمالي ،

يطلب الله من نبيه أن يذكر الناس بما يحصل يوم القيامة من دعوة شهيد من أنفسهم لا يستطيعون الطعن فيه بشهد معلنا موقفهم من رسالة الله جل وعلا إليهم. وأنه لا يكون للشاهد على المزمعين بما يسمون، والشاهد على هذه الزمرة التي أشركت بالله وأعرضت عن هدايته، ومع ذلك يذكر الله لنبيه ويخاطبه: إني أنزلت عليك الكتاب القرآن فيه بيان كل شيء يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا والآخرة. وهو الكتاب الذي يهدي المسلمين إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، ويرحمهم بإعدادهم لفعل الحسن وبصدهم عن الفبيح، ويبرزهم بحسن العقابة .

بيان المعنى العام ،

89 ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم -ورحمته وبشرى للمسلمين .

هذه الآية متصلة بالآية 84 أعيدت ففتحها لينى القرآن عليها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة التي بعث لهدايتها، وهي تتضمن تهديدا لمشركي مكة بشهادة الرسول عليهم، وقد استحضرتهم الآية بالإشارة إليهم . وهذا التهديد لا يعصر شهادته على من كان حاضرا يوم نزول الآية، بل شهادة الرسل على من بعثوا إليهم بتسحب على الحاضر والمستقبل. والشهادة هنا ليست على وزن الشهادة في الدنيا، إذ أن الشهادة في الآخرة تبني على علم يقيني عند الشاهد، حصل له إما بالمشاهدة في الدنيا، وإما بما يلقى الله في نفسه إلقاء يتم به استحضار ما وقع في

للدنيا كأنه يراه رأي العين. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن المشهود عليه لا يجد مطعنا يطعن به في الشهادة كما نصت عليه الآيات السابقتان 84/87.
ومع تشريعه صلى الله عليه وسلم بأن شهادته هي المظهرة للحقيقة فتُخرم المكذبين وتُجلى صدق المؤمنين، نوهت الآية بكتاب الإسلام القرآن الذي جمع من المراسم ما لم يجتمع في أي كتاب آخر :

هو مبين أتم بيان وأكمل لكل شيء. يرغب الإنسان في الوصول إليه مما اهتمت به الشرائع السماوية. وهذا مما يتطلب بيننا ولو مختصرا برد اعتراض المعترضين. فاقول: إن القرآن هو الذي يرفع حجرة الفكر فيجيبه عن تساؤلاته عن المبدأ والمصير، ويبين للإنسان منزلته في الكون وصلته ببقية الكائنات، ويفتح للروح قبسا من النور يكسبها الطمأنينة والوضاء. إنه يعسق الإحساس بوحدة الإنسان مع الكون، وبوحدة المؤمنين، وبالوحدة الإنسانية بخرسه للفضيلة وقلعه للرذيلة، ونشره للقيم الخلقية الرفيعة وتغويم ما انحوج من العبادات والسلوك، والقرآن يقيم العدالة ويقطع الظلم والامتداد، ويبين الحقوق بياناً يحميها به من الاختلاط، ويربي البشر على الفضيلة ويجعلهم يعقرون للرذيلة ويقاومونها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بما يحقق بناء المجتمع الفاضل. ويقيم العدل على المنهج العلمي للحقيق (ولا **نقل ما ليس لك به علم**)¹ بما يفتح هذا المنهج من اقتدار على السمو بما هو تحت تصرف الإنسان في الكون. إن تحليل مضمون هذه الآية أوسع من هذا المقام ولكن في ذلك إشارة مجلة لبركات القرآن التي لا بعد عطاؤها. وخصصت الآية من تلك الأفاق على ثلاثة أشياء :

(1) الهدى : فإنه وإن كان داخلا تحت مظلة بيان لكل شيء ، إلا أن المقصود الأهم من تشريع الشرائع هو هداية الإنسانية للتأمة الضالة، والقرآن هو المنهج الكامل في هذا الباب، كما بينا شيئا من ذلك في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وبقيّة الرسالات بين رسالات بادت ولم يبق منها شيء، وبين رسالات حرفت بمعنيتها في الضلال. فالنتيجة على القرآن يكون هدى يبرز هذه الصفة التي اختص بها القرآن، والتي هي أنفس ما تفضل الله به على الناس، وأحوج ما يكون للإنسان إليها.

(2) الرحمة : من أحسن ما فُهِرت به الرحمة وصفاء به تعالى، ما جاء في كلام الفاشاني الرحمة على فحين : امتنانية ووجوبية . فلما الامتنانية فهي الرحمة

للمفضلة للنعم السابقة على العمل، وهي التي وسعت كل شيء، ولما الوجوبية فهي الموعودة للمتقين والمؤمنين في قوله تعالى: (سَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)¹ - وفي قوله تعالى: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنْ الْمُحْسِنِينَ)² - ولما كانت في الآية حديثاً عن القرآن وهو كلام الله، فيكون المعنى: إن القرآن يعد الإنسان للعمل الصالح الذي يسعده في دنياه وأخراه، والقرآن رحمة بما يحقق وعد الله على تلاته والعمل به من الثواب ورفع المنزلة.

(3) البشري: ما يحصل للتدبر وهو ينتقل بين الآيات الدالة على حسن ثواب الدنيا والآخرة للمؤمنين، وما يفتح من الأمل الرحب في فضل الله، وما يشرح به لصبر كلما ألم به الحزن أو الضيق بما يجد فيه من وعد الله بآله مع المؤمنين (وإن من العسر يسراً) مع العسر يسراً³.

وهذه الهبات القرآنية الثلاثة لا تحصل إلا للمسلمين.

• **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضَحُوا السِّرَّ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حَتَّىٰ يَكُونَ لَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنَ اللَّهِ يَخْلُفُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضُوا غَرْزَهُمْ بِغَدَاةٍ مُّؤْتَةٍ فَاتَّخَذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ نَّحْنُ بِنَاؤُكُمْ اللَّهُ بِمَا وَلَيْتُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَنَبِّهُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ لَجَاعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلَكُمْ نَجْسًا يَتَّبِعُونَ مِنْ شَاءَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَالسَّطَوَاتِ غَمًّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَحِبُّوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ يَوْمَ**

بيان معاني الألفاظ،

العدل: إعطاء الحق لصاحبه.

¹ سورة الأعراف آية 156

² سورة الأعراف آية 58

³ سورة الشرح آية 5/5

الإحسان : مرتبة فوق العدل يكون بها العدل لثم .
نور القريبى : من يجمعك به صلة نسب أو مصاهرة .
للمحشام : ما عظم قبحه من العقائد والأفعال والأقوال .
المشكر : ما ترفضه الشريعة والفطرة السليمة وتستقبله .
البغى : الاعتداء .
الوعظ : كلام يقصد منه التأثير في المخاطب لئيبعد عن الشر ويقتل الخير .
التذكور : مراجعة ما استقر في النفس وحصلت غلة عنه .
أوفوا : أنجزوا ما عاهدتم عليه .
العهد : الألتزام ، وقد يؤكد باليمين .
نقض اليمين : إبطال المحالوف عليه .
بعد توكيدها : مع ما صحبها من توثيق .
التكليل : الضامن والرقيب .
نقضت : حلت ما عولته وأعادته على الحالة التي كان عليها قبل عزله .
الغزل : المغزول من الصوف أو الشعر أو القطن .
من بعد قوة : من بعد إحكام الغزل .
أندى : جمع نكت بمعنى نفس .
مخلا : فسادا ، ذريعة إلى القدر .
أمة : طائفة مترابطة من الناس ، أو قبيلة ، أو ما هو أوسع منهما .
أريد : أريد .
بمنوكم : بختبركم .
الزلل : انزلاق الرجل لعدم ثباتها وقد يعقها المفوظ .
توثقوا السوء : تحسوا إحسانا قويا بالأثم .
صنعتهم : أعرضتم .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تمثل ميثاقا غليظا ، على كل ملامن أن يواصل تذكره له ، ويراجع نفسه دائما ليطمئن أنه عامل به . أول بند هو التزام العدل في علاقته بالله ، وفي علاقته بأعضاء أسرته ، وفي علاقته بمن يتعامل معه ، وفي علاقته بالمحكومين إن كان حاكما من السلطة التنفيذية أو القضائية . وفي علاقته بالكون ، وحتى في علاقته بنفسه . وثاني بند هو الإحسان أن يسمو إلى مرتبة في التعامل تترقى منه إلى ما هو فوق الواجب عليه . وللبند الثالث أن تكون علاقته بأعضاء أسرته الأقرباء

والبعدين، ممن تربطه بهم أصرة النسب أو الصهر، أن يكون ذاكرا لهم ذكرا ينيلهم من لبن كلامه ومن ماله إنفاقا أو إهداء في حدود ما نعم الله به عليه. حتى يكون بناء الأسرة قاعدة البناء الاجتماعي قويا متماسكا .

كما نهت الآية عن ثلاثة أشياء معاكسة للثلاثة للأمور بها، مهدمة للمجتمع. فنهت عن الفحشاء ما كان فيه فظيحا، إذ الإتيان بما هو مستنطق يفسد الخلق العام ويتمثل للمجتمع به . وكذلك المنكرات التي يرفضها للعقل والشرع وتؤثر فسادا في الأفراد وفي المجتمعات ، والطامة الكبرى هي التبغي والاعتداء على حقوق الآخرين. كان الدافع لذلك التسلط على الناس بالمركز السياسي أو بالقوة المالية أو القبلية، أو كان للدافع رد الاعتداء بما هو أشد عنفا وتسلطا.

ثم دعا القرآن إلى الالتزام بالوفاء بالعهود، ما كان منها بين الإنسان وربه وما كان بين البشر في تعاملاتهم. خاصة إذا نأكد العهد بالقسم بالله الذي جعله الحالف شاهدا عليه وضامنا لوفائه . وليعلم ناقض العهد المفسم عليه أن الله يعلم حقيقة ما تتطوي عليه نفسه، والخرووف التي تبعها نكث العهد. ولا يروج على الله الممارير الكاذبة، فإنه سيجزى النكاث، ولو استطاع أن يغفلت من العقاب العاجل.

ثم شبه الناكثين بأمراء بلهاء كانت تجمع جواربها كل صباح فيغزلن ما بين أيديهن من الصوف أو الشعر أو الوبر إلى الظهر . ثم تأمرهن بنقض ما غزلنه ليعود إلى الحالة التي كان عليه قبل الغزل . وهذا هو شأن الذي ينقض عهده ويجعل أيمانه للموثة سببا لحصول الفضيحة والخصام، وقد جعله على هذا أنه تراءى له أن الجماعة التي يريد أن ينسب إليها وينقض عهده ليركبها بها أرفع له، لقوتها أو كثرة مالها أو عدها، من الجماعة التي نقض معها عهده . إن في ذلك اختبارا من الله ليبين الصادق العهد من الخائن، وسيجزى كلا بما فعل فيجد الناكث خسارته والموفي حسن جزائه.

إنه لو شاء الله أن يخلق البشر على نعمط واحدة مفلولين على الخير عاجزين عن الشر لخلقهم كذلك، ولكنه بحكمته أراد أن يخلق البشر مكنين من الخير والشر مختارين لا ملجئين. ولكن الله المتحكم في الكون كله وفيما يجري فيه يحيط بأطرافه من شاء له الخير فيميل إليه ويسعى لتحقيقه ويعقب ذلك إن شاء مسبحاته بانجاز ما جمع له المكلف الأسباب التي في مقدوره . وبالعكس فإنه قد يمنع انطلاقه عن إنشاء فيسبق إلى المعصية فيقع ما يقع منه من الشر بخلق الله، ويجامس الفريقان، كل على ما هبأ وأعد وهو العدل والله لا يظلم أحدا.

والذين نفاذها وقوتها فلا تقوموا بها لإدخال الفساد في قلوبكم أو لا وفي مجتمعكم ثانياً، فإن نقض الأيمان يترتب عنه فساد في التسيج الجامع لكم، ويكون حال المستهين بما حلف عليه كحال المسائر في الطريق تتزلق به قدمه فيسقط. والمفوق نتيجة مساوئ خاصة إذا كانت اليمين على الالتزام بشرع الله، إذ يعتبر للمستهين بيمينه معرضاً عن طريق الله، وخاتمته للعذاب العظيم يوم القيامة .

بيان المعنى العام :

00- ين الله يأمر بالعدل والإحسان...يعظكم لمصلحة كذا مكرراً .

هذه الآية تمثل ميثاقاً جامعاً للفضائل، مقررراً للمنهج الذي يرضاه الله ويأمر به المؤمنين ليلتزموه، شاملاً لأصول الشريعة . فقد أمرت المؤمنين بثلاثة أشياء - العدل - الإحسان - إيتاء المعروف لذوي القربى - ونهتهن عن ثلاثة أشياء - الفحشاء - المنكر - البغي - ولما جمعت من أصول الهدى والخير، ومن تحديد واضح للمنهج الإسلامي الذي يتحتم على المؤمنين أن يكونوا ذاكرين له، كتب للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الخطباء أن يختموا خطبهم يوم الجمعة بهذه الآية .

- بكل تأكيد يأمر الله، وأمره سبحانه واجب لا خيرة فيه، بل إن يكتم الناس في حياتهم الوفاء لما تضمنته الآية، فتم العدل.

والعدل هو العدل الشامل لجميع علاقات الإنسان. فالعدل في علاقة الإنسان بربه أن يقر بأنه هو الله الواحد الأحد ولا يشرك به شيئاً، ويقابله الشرك وهو أعظم الظلم. وأن يخلص له في عيالته ألا الله الدين الخالص، والتقرب لغير الله أو تعليق الآمال به انحراف عن الصراط السوي الذي هو العدل. والعدل في علاقة الإنسان بأسرته للوالدين والزوجة والأولاد. وذلك بمراعاة مقتضيات الكرامة الإنسانية، وتمكينهم من حقوقهم التي ضيبتها الإسلام، وعدم التمييز بينهم تمييزاً يفرس في قلوبهم الحقد والفرقة. والعدل في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان باحترامه، وأن لا يظلمه بالتمادي على ماله أو عرضه ظلماً مستنداً إلى القوة، أو إلى الخبث والاحتيال. والعدل في علاقة الإنسان بالكون بأن لا يسمح لنفسه بإفساد ما في هذا الكون من جمال ومن توازن، ومن خيرات ينفع بها ولا يبددها، كما لا يكتنزها لنفسه ويحرم البشرية مما أفاض الله عليه. والعدل في علاقة الحاكم بالمواطنين فلا هو يظلم أي فرد منهم أو ينتقص من حقوقه، أو يميزه تمييزاً يفضي به حق غيره. كما لا يظلم المواطنون من ولي الحكم فيهم بالظلم فيه أو العمل على الانتعاض عليه ما دام يقيم

للعمل فيهم. وعلى هذا النسق يفهم العدل . وإن ما تكفنى به البشرية لليوم من الديمقراطية لا يكون بها العالم سعيدا إذا لم يُحترم العدل احتراماً صارماً لا تهلون فيه.

وتنفي بالإحسان: وهو مرتبة أرقى من العدل، ذلك أن العدل هو الحد الفاصل بين ما يحل للإنسان عمله، وكسر ذلك الحد حرام منهى عنه، صاحبه غير مطبق لشروع الله. فالإحسان أن نسمو بالعدل إلى مرتبة من السماحة والرفعة، فيتنازل المحسن عن بعض حقوقه، أو يحمل نفسه مرتبة لرفع هي غير واجبة عليه رغبة في نيل درجة الإحسان، فالإحسان في علاقة الإنسان بخالقه مثلاً: أن يكون مستحسناً في وعيه أن الله معه في كل لحظة وفي كل عمل يقوم به، وفي عبادته بصفة أخص، قال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. ومن الإحسان في الأسرة أن يربها على الحب وينفق عليها بمساحة في غير صرف. وعلى هذا فنحنو يذهب للعقل في تصور سيورة الإحسان في كل شيء، حتى في ذكاة الحيوان بأن تشحذ السكين ليكون ذبح الحيوان أقل إيلاً، وقد قال صلى الله عليه وسلم: إن الله كسب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتله وإذا نحتهم فأحسنوا الذبحة. ولوحدهم شفرته وليرح نبيته. رواء مسلم وأحمد عن شداد بن أوس¹.

وثبت بإيتاء ذي القربى، أي إعطائهم المال عن سماحة. وخص القرابة نظراً من القرآن إلى تمتين بناء الأسرة، فأمر سبحانه أن ينكر كل ولجسد أعضائه أسرته الذين لا يجب أن ينفق عليهم، وهم في حاجة بل حتى الذين يملكون الكفاف يهذي لهم، وبذلك تقوى لجمه القرابة والنسب . ويكون البناء الاجتماعي بناء متماسكاً.

ثم عطف القرآن على المفومات الإيجابية الثلاثة ما يحصنها باللهي عن مفاصد ثلاث هي: الفحشاء - المنكر - البغي -

أما الفحشاء فهي كلمة يدخل تحت مدلولها كل عمل أو قول يستفعله الفلوسة، فيسقط صاحبها إلى المنازل الساقطة في نظر الجماعة. كالزنا والقتذ والتناول على الصالحين وأهل العلم، وترويج الشائعات المحيرة، وفتح الطريق

وأما المنكر فهو ما ترفضه الفطرة المسائمة وتكرهه الشريعة من الأفعال والأقوال. ومن المنكرات ما هو محرم كشرب الخمر والقمار والكذب، وكاللباس الوقح الكاشف ونحو ذلك مما نهت عنه الشريعة ورفضته الفطرة والعقل.

ولما البغي الذي هو الاعتداء على الآخر. فإنه قد يكون ابتداء دون إثارة من الطرف المقابل، كشأن الشطار والبلطجية الذين يقصدون بث الإرهاب في النفوس ليطوعوا أكثر ما يمكن لإرانتهم الشريفة . وكشأن الحكام الظلمة الذين يقرنون الظلم بالتخويف من السبطش والإهانة، وكفضاع الطريق، ومنه ما يكون رد فعل فيبالغ المعتدى عليه في الانتقام فينقلب معتديا، قال تعالى: **(فمَنْ اعتدى عليكم فاعنِدُوا عليه بما اعتدى عليكم وتَّقُوا اللَّهَ وَاعْتَمُوا أَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**¹

إن ما جمعته الآية من الأوامر، وما صافته من النواهي، كله يستجيب للفطرة وللعمل للمستدير وللميزان الذي يقوم عليه نظام المجموعة البشرية، وباختلاله يخل البناء الاجتماعي، وتشتت الفوضى . فلذلك ختمت الآية بأن المفصود مما ذكرته أن تنفذ إلى القلوب فتحركها لتكتسب حماية من السقوط في السفالة، وتبقى في منزلتها من الكمال النظماني للمفترض بالتزام دين الله، إنه يتزِيل هذه الآية، وبما أن المؤمنين يلتزمون تلاوة القرآن، فإنه يتركب على ذلك أن يكونوا ذاكرين لما أمرهم به القرآن وبما نهاهم عنه ذكرنا فاعلا في عقولهم ثابتا في نفوسهم.

91- وأوفوا بعهده الله إذا عاهدته...إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ .

بواصل القرآن تفصيل العيثاني الخلفي، فيأمر من التزم التزاما وثقه على نفسه باختياره مما هو غير منهي عنه، بأمره بأن يوفي بما اتَّزَمَهُ . وهذه الالتزامات على مراتب: الالتزام بما عاهد عليه المؤمن ربه. وقد أخذت هذه العهود على المؤمنين الأولين بالطاعة للتشريع والأداب ونصر الدين، مما ببلغهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما يسارع عليه المسلمون تحت الشجرة. ومن ذلك أيضا ما ذكر في سورة الممتحنة من مبايعة المهاجرات....، ويمرر هذا على كل مسلم إلى يوم القيامة، فحين الإسلام معناه الالتزام بشروع الله المبني على عقيدة التوحيد. وكذلك ما يلتزم به المؤمن من العهود والمواثيق بينه وبين من يتعامل معه. إن الطمأنينة في حاجة المعاملات هي قاعدة النجاح الاقتصادي، بما يصحبه من وفرة فرص العمل، وهي من ناحية أخرى داعية للدخول في دين الإسلام. فإن غير المسلمين إذا استقر في نفوسهم وفاء المسلمين لعهودهم، فإنه ينتهي بهم الأمر إلى لمزج : أحدهما مؤيد مواصلة التعامل وتقدير أخلاق الإسلام، وثانيهما الدخول في دين الله تقديرا لما وجدوه من المسلمين من الثقة بهم.

وقد تكون للعهود موثقة بالقسم على الوفاء، فيكون عدم الوفاء بها جامعا لمتكبرين : منكر بخلاف العهد، ومنكر الاستهانة برقابة الله التي جعلها الحالف موثقة لوفائه وبضمانه سبحانه الضمان الذي رضي المتعامل به وثيقة في تحقق ما تم عليه الاتفاق . ولينيقن كل معاهد حالف بالله أن الله يعلم حقيقة ما يفعله المعاهدون، وفي هذا إشارة إلى أن بعض نقضى العهد قد يقدمون من المعاذير الكاذبة، والتي يحسنون تزويقها فتروج عند لطرف المقابل، ولكن الله يعلم بواطن الأمور . وإن استطاعوا خداح البشر فإن الله لا يخدع وسبحان المعاهد الذكث على فعله.

92- ولا تكونوا كالكثير منكم الذين نقضوا عزمهم ما كنتم فيه تختلفون.

تشبه الآية صورة الفاكثين بما يشتمز منه كل كريم طبع مستقيم الفكر . تعرض الآية حال امرأة قرشية معروفة بالبله وقت نزول الآية، قيل اسمها ربيعة التيمية، ولم يذكر القرآن اسمها بل عرفها باسم الموصول [التي نقضت عزمها] لامتصاص خرقها واختلال مداركها . كانت تجمع جولريها عند الصباح لغزل الصوف أو الشعر غزلا محكما، حتى إذا جاء وقت للظهيرة أمرت أن تنفض ما غزلن وإعادته إلى ما كان عليه، وهكذا كل شأنها كل يوم .

إن الناس يتعاملون فيما بينهم فيحصل من ذلك تسبيح اجتماعي يقوي الروابط بينهم. وكذلك يدخل الناس في دين الله فتتسفن روابطهم بالمقيدة ويصبحون إخوة . فيكون الذي ينقض العهد الإيماني، أو الموائيق التي أخذها منه المتعامل معه، مسبها بهذه المرأة الخرقاء التي كلما تحولت للمادة التي عملت فيها مع جولريها إلى ما يصلح لحمة أو مدى تبيده منفضا على الحالة التي كان عليها قبل أن يتنزل فيه الجهد مليئة الفترة الصباحية.

ثم رفعت الآية إلى السطح لمر ذلك وعلته. فأما الأسر فهو أن نقض العهد بضحي إلى انقلاب الصلات الاجتماعية إلى وضع من الفساد ترتفع به الثقة والطمأنينة وهو غدر بمن أخذ العهد وطمأن بضحي إلى الخصام . فارتقاع الثقة بين الناس فيه فساد كبير [بخلاف بينكم] وأما العلة، فهي أن الناقض للعهد قد يكون يبغى من ذلك أن يحقق ارتباطه بأمة لها مكانة أرفع، أو ثراء أوسع، أو قوة أظهر، ويبطل عهده لأجل ذلك مع من سبق أن عاهده ووثق ارتباطه به . وقد كان فاشيا في المرف الجاهلي أن يفسخ المعاهد عهده إذا دعت قبيلة يرى أن انقلابه على عهده مع الأولى خير له. ثم حذرهم من الاتصاف مع الموطلف، التي من أخصها ولسونها، الاقتان بما كان عليه بعض المشركين من ثراء وقوة، وأعلمهم أن تلكم المظاهر هي

اختبار يتميز به الصالحون من الكافرين . ثم إن الله مظهر يوم القيامة ما اختلفتم فيه في الدنيا، يظهر سبحانه صلاح عقبة الثابتين على عهودهم وسوء حال الناكثين .

33- وتوشه الله بجهنمكم أما واحد منكم أن يحسن عمله .

لقد مضى شأن البشر مع الموائيق والمهود على منهجين : منهج التمسك بعهده الثابت عليه، له ميزان واحد هو الوفاء ؛ ومنهج الدين لا إيمان لهم ولا عهود يبحثون عن مصالحهم العاجلة فلا يعيرون لأيمانهم وعهودهم أي قيمة، بل يطرحونها كل لم تكن، ثم يندمجون مع من يظنون أنه يحقق مصالحهم العاجلة .

إنه لو شاء الله أن يكون البشر نملًا واحدًا من الخير والوفاء بالعهود والأيمان، لركب خلقهم تركيبًا لا يستطيع معه أن يخرج من الفضيلة إلى الرذيلة ولا من الوفاء إلى الفدر . ولكن خلقهم موطنين للمنهجين يختارون ما يشاؤون دون ضغط عليهم أو إيجاب، ولئن الله بحكمته، التي يعجز البشر عن إدراكها إدراكًا حاصسًا وكاملاً، بحيث سبحانه البعض بالألطاف التي بها يسبق إلى الإيمان وإلى الأعمال الصالحة، فتتعلق أروادة للفرد بالثبات على الطريق المستقيم، ويجاهد مساوس الشيطان، وتعلم أشواقه إلى الطاعة و يشوق في قلبه حب الخير . كما يحرم البعض الآخر من تلكم الألطاف فإذا هو ينجح إلى الإلحاد وما يتبعه من فساد .

إنه إذا ما اختار الإنسان طريق الهدى وكل عمل جزئي يدخل في نطاقه وتوجه إليه، فإن الله يقره عليه ولا يحول بينه وبين مراده ويأذن الله بتحقيق ما أراده الموفق . كما أنه في الجهة المقابلة إذا اختار مسلك الضلالة وكل عمل جزئي يدخل في نطاقها فإن الله لا يحول بينه وبين مراده ويأذن بتحقيق ما أراده المخذول . وحسبما أفهم ختمت الآية بالتأكيد على أبلغ وجه أن الإنسان مسؤول عن أعماله في الدنيا . ويتحقق من ناحية أخرى العدل الإلهي، لقد نفى الله عن نفسه حمس مرات في القرآن أن يكون ظالماً للعبيد .

34- ولا تتطاولوا إيمانكم دخلا بينكم . . . وإلحكم صذاب عقابه .

أولى القرآن عناية شديدة بالوفاء بالعهود والحفاظ على الأيمان وعدم نفنفسها! فأمر بذلك في الآية 91 أمراً أحاطه بتأكيدات متنوعة، ثم صوره في الآية 92 إشاعة الناكثين المتحليلين . وفي هذه الآية صرح بالنهي عن نقص الأيمان قارناً للإيماني بما يؤثر في التالي تأثيراً يبلغ بهم حد الاستمزاز من عدم الوفاء بالأيمان .

يياكم أيها المؤمنون أن تتوسلوا بالأيمان إلى إدخال الفساد في بينكم الأجتماعي، لما يعقب نفص الأيمان من البغض والكراهية والنزاع، وبالتالي ارتفاع الثقة فيما بينكم .

إن اتخاذ الأيمان سبيلا للخداع والغش يزعزع قبل كل شيء ضمير المخادع فيجعل به غير واثق من نفسه متقلقا غير ثابت، ومن إعجاز القرآن أنه مثل المخادع بمن يسير ثابتا في الطريق فتزل قدمه، ويفقد توازنه. وهذه الصورة للحية المتحركة تثير في الخيال ما ينفر منها، إذ زال القدم يعد ثوبها كثيرا ما يعقبه تهشم العظام وتسلخ الجلد وتلوث المظهر العام، إن نقض الأيمان نهائيه إحساس شديد بالألم لما يصحبه من تفكك الروابط ونقلص المعاملات، ويتبعه خراب القصادي ووفرة البطالة في الدنيا، وخاتمته اعتبار الساكنين من المعرضين عن طريق الله، خاصة إذا كانت اليهود والأيمان على الالتزام بالإسلام وتطبيق شرع الله، وإندثار بالخسران العظيم يوم القيامة، بأن المال هو عذاب عظيم لا يقدر قدره إلا الله.

وَلَا تَقْرَأُوا بَعْهَا آلِهَةً مَعًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ ذُو الْعَرْشِ لَكُنْ أَنْ تَقْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
مَا سَدَّكُمْ عَنْهُ وَمَا بَدَا إِلَهُ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

ثمنا عوضا .

ما عند الله : ما أخره الله للمسلمين في الدنيا والآخرة .

بئس : يقرض ويفنى .

باق : مستمر لا يفنى .

بيان المعنى الإجمالي :

تواصلت غاية القرآن ليكون المسلمون أولياء لليهودهم وخاصة ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ من الالتزام بفريدة الإسلام وبشرعه. وكان المشركون يعملون على فتنة بعض المسلمين، ويُمِرُّونهم بشيء من أعراض الحياة الدنيا، فنهاهم الله أن يدخلوا في هذه الصفة الخاسرة وأن يبيعوا ما رزقهم الله من نفيس الهداية للإيمان بئس قليل مؤكداً أن ما أخره الله للمؤمنين هو خير من كل مقابل يدخل في سبيل التقرُّب إليه. يتضح لكم ذلك أن ما يملكه البشر يزول ويفنى قريباً. أما ما أخره الله وما يملكه سبحانه فهو باق لا يفنى . وإليه سبحانه نكرم سيحري الصامدين الذين لقاموا على ما عاهدوا الله عليه، سيجزئهم جزاء على جميع أعمالهم الصالحة ويكون الجزاء لكل عمل على مستوى أحسن الأعمال .

ويؤكد القرآن أن من يتوجه إلى صالح الأعمال يميزان الثمر، يكتب الله له جزاءين، جزاء في الدنيا هو الشعور بالسعادة والرضا . وجزاء في الآخرة بتسجيل جميع أعماله يميزان لحسن الأعمال، فضلا من الله يستوي في ذلك الذكر والأنثى.

بيان المعنى العام :

96/95- ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . فأنجزوه بالحسن ما كنتموعدهم .

يوصل القرآن حث المؤمنين على الوفاء بالعهد التي يقطعونها على أنفسهم، وأنها العهد على الإسلام.

بذل المشركون بمكة كل طاقاتهم لتحويل من أسلم عن الإيمان، وكانوا يعتمدون الإغراء تارة، والتهديد تارة، والتعذيب تارة أخرى، حسب ما يظنون أنه يؤثر في الشخص الذي يرومون فتنه . فكأنوا يتبررون بضعفة المسلمين بالمال أو المساعدة في نشاطه إن هو ألح عن الإسلام وعاد إلى الشرك، فاهتمت الآية بهذا المعترضين للفتنة وأيقظهم باللهي أو لا عن نقض العهد، وثابوا بتبذيرهم أن ما يبذل لهم من المشركين هو عوض قليل ثلثه لا قيمة له سهما عالا في مقابل ما يبذلونه منهم من كفر، لأن العبدول يخرجهم من رحمة الله وما ينعم به المؤمنون من خيرات وفضل من ربهم . ولخرج الله في صورة صفة خاسرة لمن بذل دينه في مقابل إغراءات المشركين .

إنه إذا حركتم عقولكم ونظرتكم نظرة معمقة فإنه يحصل لكم العلم اليقيني بأن ما أخبره الله للمؤمنين خبر لا يقارن بما يبذل المشركون، إنه الوعد المبطن بنصر دينه ونهزام الشرك، والفوز يوم القيامة . وجلت الآية 96 ذلكم المفهوم بأن ما عند المشركين هو محدود يبرع إليه الذوبان والفساد، أما ما أخبره الله لكم فهو يساق مستمر لا ينفد، إنه عطاء الدنيا بما وعد الله به من نصر دينه وهزم الشرك والقضاء عليه، وبه الفضل الإلهي الذي ينعم به المؤمنون في الحياة الدنيا بما يسكنه في بواطنهم من السكينة والطمأنينة والرضا، وفي الآخرة بالنعيم المقيم في جنة الخلد . وكل ذلك نعم باق مستمر، وتؤكد الآية في نهايتها تأكيداً بالغاً الوعد الإلهي وتفصله: إن الله سيجزى الذين صبروا على الوفاء بعهودهم وصعدوا لفتنة المشركين بأحسن ما أنعموا من أعمال . إنه لا شك أن الأعمال الخيرة تنفلاوت في قيمتها من حيث الإخلاص ونعما للأثار الطيبة المترتبة عليها، وفضل الله عظيم، إنه يجزي المؤمنين عن جميع أعمالهم بمقياس الأعمال الياغة درجة الكمال في الحسن.

97- من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى.. ما حكانوا يعملون .

هذه قاعدة من القواعد التي يمضي عليها الله جزاء من صلح عمله من المؤمنين صرحت بها الآية. قضية عامة تتناول كل ذكر وأنثى، تفيد التسوية التامة بينهم في ما بذلهم عن صالح أعمالهم. إن جزاءهم يتحقق في تيسير الله لهم الحياة الرضية الأمنة في الدنيا. هي الحياة التي يشعر فيها صاحب العمل الصالح بالرضا وذهاب الهمّة على المفقود. نعم إن ما يزرقه الله للمؤمنين يتكاثرت في مباح الحياة الدنيا. والهناء والسعادة الحقيقية، محصوران في القناعة بما يحصل الإنسان عليه. إن المؤمنين الذين صلحت أعمالهم بمراقبة الله وتطبيق شرعه، وتعلقت أشواقهم بما ادخر لهم في الآخرة من كرامة في جناته، لا تجد الغنى منهم أسعد من الفقر، ولا من سكن القصر أبغ من سكن الكوخ، نجد الاستقرار يمرري في بواطنهم فلا هم يشعرون بالنقص المؤلم، ولا بدولع بالحاجة الحارقة ولا بالذم الذي لا يشبع صاحبه. فهذه هي الحياة التي يجد صاحبها من نفسه أنه منعم. وفوق ذلك لن ما أعد لهم من الأجر هو أجر مضاعف بتقديره على ميزان أحسن الأعمال وأتمها. والله ذو الفضل العظيم. وهذه الآية تعيد لولا أن العدل في الجزاء عن الأعمال، فالعمل لا تتأثر قيمة جزائه بالجنس، فأجر الذكر وأجر الأنثى واحد ما دام العمل للمقدم واحدا. كما تثبت ثابا أن السعادة في القناعة، وأن التكالب على جمع الثروات الكبيرة بسبب لصاحبها للتعاسة ما دام محروما من القناعة .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى زِينَةِ هُؤُلَاءِ ﴿١٠٢﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ
وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

استعد : اطلب التحصين .

سلطان : التسلط والتصرف للمكين .

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيرا بطيعونه .

بيان المعنى الإجمالي :

خلق الإنسان ضعيفا ؛ إنك إذا وزنت قوته البنية، وجدت أن جرثومة لا ترى (لا بالمجهر) تهد قواه بل قد تقضي بإذن الله على حياته . وكذلك الأمر في قواه العقلية

وتحكمه في مداركه. يتسلط عليه الشيطان فيذهله عما هو قيمه، بفرق بينه وبين كتاب الله، فأمرت الآية المؤمنين ليتحصنوا من وموسسه، ويهزموا سلطانه وقوته على النفوس بأن يفتحوا تلاوة القرآن بقولهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

إن الشيطان مهزوم بقوة الإيمان، يريد خاسئا حقيرا نضلا إذا ما كان المؤمن صائقا للتوكل على الله، وإعلائه بالاستعانة مظهر حسن توكله. إن الشيطان ليس له سلطان يتحكم به في النفوس، إلا النفوس التي وجد منها ميلا لإغوائه وإبلاس القيادة لما يزينه من الشهوات، وكذلك النفوس الذين بلغت بهم طاعته إلى الشرك .

بيان المعنى العام :

98-هَذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: **وَلِذَلِكَ عَلَيْكَ التَّوَكُّلُ تَبَيُّنًا لِمَا لَمْ يَكُنْ لِيُشْرِكْ بِهِ عَمَلُهُ وَرَجْعُهُ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِ الْعَدْلِ** كما أكد مضمونها بالتشديد على الوفاء بالعهد الذي فصله القرآن وأتم به، وإنه إذا أرادت معرفة ما يمينك على أن تفتح روحك فتكثر بما تضمنه القسران من البيان والهدى والبشرى، فاستعد بتطهير نفسك. وتحريك انتباهك، واستعن لذلك بأن تقول عند إرادة قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقولته تعالى **هَذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذَ بِاللَّهِ** أي: إذا أردت قراءة القرآن. هو على وزن قوله تعالى: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا** أي إذا أردتم القيام. ونحوه كثير في القرآن. وكقولك إذا أحرمت فاعْتَزَلْ .

استعد بالله: أي تحصن بقدرة الله، واطلب منه أن يسعفك بتأييده ليحميك من وسوسة الشيطان الصارفة لمداركك عن التأمل فيما تنلوه، وعن الدخول عن إرشاده وأوامره وأواهيه . قد تجد القارئ إذا لم يصحبه عون من الله على التغلب على وساوس الشيطان يتحرك لمساته ولا يفعل عقله ومشاعره، لا بالقراءة ولا بالوعيد، ولا بالتيقن ولا بالثبارة، ولا بما في القصص من عبر زيادة على ما فصل فيها من صائق الخبر، إلى غير ذلك من محتويات القرآن التي لا يحد عطاؤها. وقد قدمنا بعض ما يتعلق بالشيطان الرجيم في الآية 17 من سورة الحجر .

والاستعانة بأمور بها عند إرادة قراءة القرآن، في غير الصلاة، وأما في الصلاة فالذي عليه الإمام مالك أنها غير مندوبة، ذلك أن الصلاة قد جمع المصلي لها فكره وقلبه بالإقامة فلا تندب الاستعانة. وبعض العلماء ندب إليها في كل ركعة وبعضهم ندب إليها مرة واحدة في الصلاة. وحمل الإمام الثوري الأمر على الوجوب في الصلاة وفي غيرها.

99/100- إله ليس له سلطان... وعلى ربه يتوكلون .

علت الآية الأمر بالاستعانة من الشيطان الرجيم، بأنها تصرف الشيطان فلا يتمكن من التسلط على الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه . وإفصاح المؤمن بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تصريح بالتوكل . وقد ضمن الله بفضله منع الشيطان من التسلط بالتشويش على المؤمن لفكره وروحه وتركيزه، إذا هو افتتح قراءته بالاستعانة . وفي المقابل فإن الشيطان لا يكون له سلطان وتأثير إلا على الذين يطيعونه و يتخذونه ولياً، من أهل الكتاب ومن الفسقة، وكذلك الذين استولى عليهم فأصبحوا مشركين بسبب إغوائه .

وَإِذَا مَدَّنا إِلَيْنَا سُكَّارًا ۖ فَإِنَّا نَأْخُذُ بِهِمْ لُكْمًا ۖ وَأَنَّا لَبِغٌ بِمَا يُعْمَلُونَ ۚ فَمَن ذَا الَّذِي يُشْرِكُ بِاللَّهِ ۚ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۚ وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ۖ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانٍ ۚ أَلَمْ يَلْمِذُوا ۚ إِنَّا أَعْجَمُ ۖ إِنَّمَا آسَانُ غَيْرُ مُبِينٍ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنزِّلُ اللَّهُ لَهُ سَعَتَا أَلْمُةٍ ۚ إِنَّمَا يَفْتَرُونَ الْكُذِبَ ۚ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ بِمَا نُنزِّلُ اللَّهُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ

فيان معاني الألفاظ،

الآية : الكلام الموقفي بالفرض من القرآن .

المفتري : المختلق للكلام .

روح القدس : جبريل .

القدس : المطهر .

يلحدون : مضارع الحَد بمعنى مال .

لسن : كلام .

الأعجمي : الذي لا يبين عن مارد .

فيان المعنى الإجمالي :

يتصيد المشركون الشبهات ليشتكوا بها في القرآن يهدفون من وراء ذلك إلى تكذيب رسول الله ﷺ ، فإذا بدل الله حكماً رعاية لمصلحة البشر ولطفا بهم، أعلنوا أن ذلك دليل على أن القرآن من تأليف محمد وليس من عند الله . والله حكيم فيما ينزله من الحكم الأول والحكم الذي حوله إليه . ولكن أكثر المشركين جهلة تغيب عنهم حكمة

الله في ما ينزله. ولذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم وأن يجاهرهم : إن الذي أنزل للقرآن على قلبك وأتى به من عند ربك مصاحبا للحق الذي لا باطل فيه هو ملك الوحي المطهر جبريل عليه السلام . وأن نظم القرآن وترتيب ما يأتي به وتوقيته كل ذلك ملتزم بالحق لا باطل فيه، ثبت للمسلمين على الإيمان، ويمكن للهداية في نفوسهم، ويشرهم تبعا لذلك بصن العاقبة. ومن الباطل الذي روجه المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن من غلام رومي مسيحي، وزيف القرآن ما روجوه بذلك أن هذا الغلام كان غير فصيح فكيف يمكن أن يصدر القرآن البالغ أعلى درجات الفصاحة عن رجل عي لا يكاد يستطيع إيلاغ مراده .

ثم بالغ القرآن في الرد على المشركين بأنهم هم وحدهم الذين يفترون الكذب ولا يفصرون عن ترويجه، لأنه لا ينشئ الكذب ويروجه إلا الذين خلا قلوبهم من الإيمان بآيات الله، وهم وحدهم الكاذبون . فالكذب مقصور عليهم .

بَيَانُ الْمَعْنَى الْعَامَّةِ :

101- وَإِنَّا بِذَلِكَ آيَةٌ مَكُونُ آيَةً، سَبِيلُ اسْتِكْرَاهِهِ لَا يَعْلَمُونَ.

في هذه الآية إيلاط لما كان بقوله المشركون في القرآن إذا حصل ما ظاهره الاختلاف فيه، ولما كان هذا الظاهر مرده إلى فسر النظر وقلة التأمل، مع أنه لا اختلاف فيه لمن كان يرغب في الوصول للحقيقة، ويتعمق .

إن القرآن يربي أمة، ويوجد تشريعا، وينسي عزيمة . أما العزيمة فهي واحدة لا تراعى ظروفها ولا تنتقل بالمرسل إليهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، إذ الحق للعقدي واحد، ولم يتبدل ما أنزل على رسول الله ﷺ في هذا الباب لا قليلا ولا كثيرا . وما كان بالتشريع فإن معظمه ثابت، وتارة يكون تحويل المرسل إليهم مما كانوا عليه إلى التشريع الجديد فيه نوع من الصعوبة، فيتم التشريع على مراحل، تصل بالمؤمنين من درجة إلى درجة لكل. وما كان من باب التربية فقد يكون بواسطة القصص القرآني. وطريقة القرآن في قصصه أنه يعيد القصة وفي كل مورد يكون للعرض غير العرض السابق يحقق موعظة ويفصل حدثا يتناسب مع الجو العام للنسق الذي ورد فيه. فاعترض المشركون على هذا واتهموا الرسول ﷺ بأنه يخلق القرآن من عبده، إذ لا يمكن أن يكون الاختلاف في كلام الله فرد القرآن عليهم: بأن الذي نزل على قلب رسول الله هو الله، والله أعلم بما ينزل لهم فيصلحهم به، فيراعى ظروفهم شيئا فشيئا حتى يبلغوا في النهاية درجة ما أراد الله أن يثبت عليه للتشريع. وعند ذلك لا يقع التبديل. كما أن القرآن ليس كتاب قصص

حتى يكون نمج قصصه واحدا، بل بحقق أمرين : أولهما أن لا يخلط للحقيقة، وثانيهما: أنه يبرز في كل مناسبة المقطع الذي يتكلم . فتجراً المشركون لقصر نظرهم على رسول الله وقالوا هذا اختلاف، والقرآن من عندك وأيس من عند الله . مع أن التغيير في التشريع هو لمصلحة الناس الذين يسمو بهم شيئاً قسبنا إذا انتقل التشريع من الأخف إلى الأشد، أو لإظهار الفضل والرحمة الإلهية بتحويل التشريع الأشد إلى الأخف بعد أن تبين للمسلمون نقل التشريع الأول الذي كانوا لقوة إيمانهم يرضون فيه .

وحقق القرآن أن أكثر المشركين جهلة لا يعلمون، فاستدلوا بجهلهم ونسبوا ذلك الافتراء، وفي التعبير، بأكثرهم، ما يفيد أن بعض المشركين يجدون في قرارة نفوسهم أنهم يشاعبون وأن ما رفعوه كاختلاف هو لا اختلاف فيه، ولكنهم فعلوا ذلك مكابرة منهم .

102- قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ... ويشري للمسلمين .

قل لهم قولا يرد شغبهم ويقمعهم ويرفع تلبسهم؛ الذي نزل بالقرآن فبأنه هو جبريل (روح القدس) وسمي جبريل بروح القدس، المضاف روح باعتبار أن الله فضله جعل مكانته من الملائكة مكانة الروح من الجسد، وأضيف المروح الموصوف إلى "القدس" الصفة أي المظهر بإطلاق . مقترنا وسائلا بالحق الذي لا ياطل، فيه . فالمنموخ حق وقت نزوله، وكذلك الناسخ، وما اقتصر عليه من مقاطع القصص حق، وما يستحق التالي قوله تعالى "مر ربك" فهذا التعبير جمع بين الإقصاح عن عقابته الله برسوله بما نزل عليه كلمة الرب حسب اشتقاقها الأصلي، وبين قوة الارتباط بين الله ورسوله بإضافة الرب إليه، وبين الإشارة إلى ما يقتضيه اسم الرب من مراعاة الصلاح في التبديل والاقتصار .

وذهبت الآية إلى أن ما اعترض به المشركون وقدره نقصا في القرآن هو على العكس من ذلك، فإنه ثبت الذين آمنوا بما في الشرح من تأليف بين المؤمن وبين ما هو مطالب به من ربه، وبفوى إيمانه بأن الله يرعى ما يصلح له . وهو أيضا تيسير لاتباع الهدى والتمكن من السير على طريقه . ولا شك أنه يحصلون اقتباضا واتباعه بيسر ورغبة بتحقيق للبشارة بحسن العاقبة .

103- ولقد علمهم أنهم يقولون ... تساءل عيسى مبین .

نوع آخر من التزييف والشغب الذي يقوم به المشركون : ذلك أنهم اشاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ القرآن عن غلام رومي مسيحي يحفظ شيئا من

الأدعية التوراتية . وكان هذا الغلام قد مال إلى الإسلام فكان النبي ﷺ يعلمه عقيدة الإسلام وأحكامه . فرد القرآن عليهم ما روجوه بأنه سخيف يرفضه كل عاقل متبصر . إذ الغلام المسيحي كان معروفاً ببعده عن القصاحة، ضئيف اللبائن عن مراده، والقرآن قد بلغ أسمى مستوى في البلاغة، فلا يعقل أن يصدر عن رجل عبي، والقرآن قد تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا .

105: -إِنَّمَا يَسْتُرِي الْمَكْذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِمُ الْمَكَاذِبُونَ.

ودت هذه الآية على المشركين رداً فليسبهم خزفي ما رموا به الرسول ﷺ، وذلك بذكر قاعدة حاصلها : أنه لا يفترى الكذب، ولا ينشئ كلاماً غير صادق يزوره ويشيعه إلا الذين خلت قلوبهم من نور الإيمان ولظلمت بالكفر ورفضوا النظر في آيات الله التي تستجيب لها الفطرة السليمة، إنهم هم المنفردون بالكذب، ويفهم من ذلك انتفاء الكذب عن رسول الله ﷺ،

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مُعْتَدِلِينَ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَّ بِالْكُفْرِ سَدْرًا فَاعْلَمِيهِمْ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَعُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبَ وَسَمِعِيهِمْ وَأَبْصَرِيهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَعَنَ اللَّهُ إِذَا جُزِمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٧﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا أَنْ يَهْدُوا وَهُمْ يَرْجُونَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أُولَئِكَ رَجِئُهُمْ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ نَأْتِي كُلَّ نَفْسٍ بِفِتْنٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإكراه : هو الضغط على الإنسان لكسر إرادته ضغطاً فيه ليلام كالسجن والعقيد.

الفضض : هو الانتقام إذا اسند إلى الله.

القلع : حجاب مختوم يختم بحيث لا يصل إليه أي خارج عنه.

لا جرم : لا محالة، لا بد.

هانبروا : خرجوا من موطنهم محافظة على دينهم،

فتنوا : الفتنة العذاب والأذى المتكرر الذي يتجاوز حدود الصبر عليه.

المجاهدة المقاومة بكمال الطلقة .

المسب : لتثبات على الأمر مع تحمل المكروه.

مجدد : تدفع . ونطلق بمعنى تنافس .

نوفس : تعطى شيئاً كاملاً غير منقوص.

بيان المعنى الإجمالي ،

قاوم المشركون الإسلام كما ثلث عليه الآيات السابقة، وتسلطوا على المسلمين الذين ليس لهم قوة عصبية تمنعهم من بطش الكفرة، فمنهم من قاوم وصمد وتحدى، ومنهم من خلع نفسه بكلمة كفر ورفع عنه العذاب، ولكن قلبه مطمئن بالإسلام هو الدين الحق، فبينت الآية أن من كفر بلسانه لا يخلص نفسه من العذاب، فإنه لا يائتم على ما نطق به وهو ناج عند الله، ولكن من ارتد وعالق الكفر وأطرح الإسلام ظاهراً وباطناً فإن مقت الله سينزل به وله عذاب عظيم . إنه جزاء عنل لأنه أحب حبا شديدا نعيم الحياة الدنيا ورفاهية العيش وقدمه على الآخرة . وسبيله الله فلا يفتح له شيئا من الطائفه التي تعيده إلى الحق . لأن الله يحرم الثابتين على الكافر من الألطاف المساعدة، إن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فانقلب لا يفلح إليهما شيء من الهدى على قوته ونصاعته، وكذلك على مسعهم فلا ينقل لهم السموعات من القرآن والسنة ما يحرك القلوب والأرواح إلى الخير، وكذلك لأصلوهم طبع عليها فلا تتغل المبصرات التي تبعث في العقل التأمل الذي يعفبه الاهتمام ، ولا محالة أنهم كانوا في الآخرة أعظم الناس خسروا، ثم إن ربك يا محمد ضمن لمن أسلم وقتته المشركون بأنواع التعذيب قتلهم وذللح ليثبتت على إيمانه وصبر على تحمل المشاق والأذى، وترك دياره وأهله وساله وخرج بعد فتنته فخرج مهاجرا إلى أرض الحبشة ليسلم له دينه، إن ربك بعد تحقق الهجرة منهم ضامن مغفرة ذنوبهم ورحمتهم . يجدون فضله يوم القيامة وهو اليوم الذي يمسك الله كل إنسان من الدقاع عن نفسه، الذي ينتهي بإدراك الكافرين والمنبين بكفرهم وذنوبهم عدالة ما يحكم به عليهم، ويدرك المؤمنون فضل الله عليهم وحسن جزائه .

بيان المعنى العام ،

108 - من كفر بالله من بعد إيمانه ... وله عذاب عظيم .

يضاف إلى ما تقدم من محاولة المشركين فتنة المسلمين بالكذب وترويج الباطل وتزييف الحقائق، يضاف إلى ذلك التجاؤهم إلى إكراه من هو تحت سلطانهم كالمستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم قبيلة حميتهم أو الأرقاء الذين كانوا في

ملكهم. كان لما روجه المشركون من تشكيك قد أثر في البعض فاستجاب لهم ولزك عن الإسلام، وهؤلاء قد بين القرآن ما لهم، كما سنشرحه في ختام الآية .

وطائفة أخرى من المؤمنين تسلط عليهم المشركون فأكروههم على العودة إلى الكفر، فمنهم من تحدى التعذيب وصبر، وكانت إرادته أصلب من أن يهزمها الأكم، ومنهم من نطق بما أكروهه عليه المشركون. فبينت هذه الآية أن من أكرهه على قول كلمة الكفر، لكن قلبه مطمئن بالإسلام غير راض لئذيه، فإن الله، بفضل ورحمته بعباده المؤمنين، أعلم أنه لا يؤاخذ من لم ينفذ الكفر إلى قلبه وبقي قلبه مطمئناً بالإيمان وبصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن الذين ارتدوا ونطقوا بكلمة الكفر والفضين للإسلام، وعقدوا قلوبهم على الكفر، سواء أكان ذلك تحت التعذيب أم بمجرد الخوف منه أو بإغراء الكافرين أو بتلبيصهم، فإن الله يؤاخذهم بما استكانت إليه قلوبهم ورضوا به، وذلك بانتقامه منهم. والغضب إذا أسند إلى الله فالمراد منه الانتقام لا غير، كما حققه الراغب. وأكدت الآية الغضب بأن الله سيعذبهم العذاب العظيم.

وهذه الآية أثبتت رفع الإثم عن أكرهه بالتعذيب للجسمي أو السجى أو التقييد، أو كشف عورته ونحو ذلك، ومن أكرهه على فعل ما يعد كفراً كالموجود للصنم فالجهور على أن الفعل والقول سواء إذا كان قلبه راضاً لما فعله، ورأى بعضهم أن الإكراه يسلم به للفاعل بينه وبين الله، ولكن تجري عليه أحكام الكفر في الدنيا فلا يرث أباه المسلم مثلاً ولا يصلى عليه إن مات ولا يدفن في مقابر المسلمين . ومن أكرهه على قتل غيره فإن الإكراه لا يرفع عنه الإثم ولا العدة. وأحكام الإكراه مفصلة في كتب الفقه.

107 ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا لا يهدي القوم الظالمين .

تعليل وتوجيه لما تضمنته الآية السابقة : إنهم استحبوا الانتقام والعذاب العظيم، لأنهم بالشراخ قلوبهم للكفر قد أحبوا حباً كبيراً متاع الحياة الدنيا، فحولوا عن التعلق بالحق، وعما يوجب النجاة يوم القيامة، إلى ما يجلبه إليهم الكفر من رفاهية العيش في الدنيا ثم هتدوهم الآية بأنهم لا يترقبون أن يسعهم الله بالظلمة ليعودوا إلى الإيمان، بل يتركهم لأنفسهم التي انحرفت فضلت .

108/109 أولئك الذين حبلت الله على قلوبهم ... هم الخاسرون.

هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد أن آمنوا، والذين هم بذلك أمواً حالاً من المستمزين على الكفر، لأنهم قد عاشوا مع الإيمان وجربوا ما فيه من صلاح،

ثم أعرضوا عنه ترجيحاً لمصالح دنيوية على النعيم الأخروي، هم في الحقيقة قد كوفوا على قلوبهم حجاباً لا يفتح ولا ينفذ إليه شيء من نور الهدى؛ قلوبهم كالرسالة التي يكتبها صاحبها ثم يطويها ويضع عليها شمعاً بطبعه بطابع حتى لا ينجراً أحد على فتحها، فالقلب المطبوع هو قلب لا ينفذ إليه شيء من الإيمان وألفته، فقلوبهم لا تعمل شيئاً من الحق الذي جاء على لسان رسول الله، ذلك أن العقل إذا أغلق صاحبه عن التأمل، وصرفه لمعاداة الدين، فإنه ينتهي بأن لا ينفذ إليه شيء من الوحي ولا يلتفت إلى النور. وكذلك السمع، فإن السمع حاسية لا تعمل السمع إلا إذا وجه العقل العامة للإحساس، ولذلك تجد اللاهوي يحدث حوله من الأصوات والكلام ما يحدث، ثم إذا سألته عما كان يسمع حوله يجيبك بأنه لم يسمع شيئاً، فهم باعراضهم عن استماع القرآن وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم يكونون قد لفقوا سمعهم، وكذلك الأبصار لا تنقل لهم ما وراء المصنعات من نظم ودلائل يقولهم، ومن إعجاز القرآن فصر الغفلة عليهم، إذ الغافل لا يدرك ما حوله؛ أولئك هم الغافلون، ولا بد أن يكون حظهم في الآخرة الحظ الأعظم من الخمران.

110 ثم إن يسجد للذين هاجروا . جعدها لغفور رحيم

كان للبشر من الرسالة للمحمدية في مكة مواقف مختلفة :

- (1) للكافرون الرافضون . وقد فصلت آيات من هذه السورة تركيبهم الفكري وعلاهم.
- (2) من أسلم ثم فتنه المشركون فارتد ورضى المشرك ديناً.
- (3) من أسلم وكان له من مكانة فرمه ما دفع عنه أذى المشركين.
- (4) من أسلم وعنه المشركون وصير على الأذى وهو صامد لم يتزعزع.
- (5) من أسلم وعليه المشركون، فقال كلمة الكفر لينفذ بها نفسه من المذاب والمذب إلى مطمئن بالإيمان.

وهذه الأنواع الخمسة قد فصلت الآيات أحوالهم . وبقي صنف سائس اعتكفت به هذه الآية. وهم الذين أسلموا وحسن إسلامهم واهتفهم قومهم بأنواع من المذاب والأذى والمقاطعة، ولم يلبثوا لإرضاء المشركين بلمسانهم وبقيت عقيدتهم ثابتة على دين الله، ولكنهم لخره الفتنة المتواصلة من فريش، تركوا موطنهم وخرجوا إلى الحبشة ليعيشوا الغربة عن الأهل ومرايع الصبا، ويقومون دينهم في أمن . فعملت الآية هذه الفتنة بما يدل على علو مرتبتها. والمعنى إن ربك يا محمد محقق رعايته بواسع المغفرة وعظيم الرحمة للذين هاجروا فتركوا ديارهم وأموالهم ليسلم لهم

دينهم من بعد ما فتنهم المشركون، وقاوموا للكفر بما أوتوا من قوة وجهد (وجاهدوا) وأحبطوا كل المؤامرات التي أعدها المشركون ليفتنوهم عن دينهم ابتغاء مرضاة الله . وليس للجهاد بالجهاد الحربي، لأن الآية سكية ولو يشرع الجهاد وقتها، وقد تحلوا بالصبر على تحمل المكاراة والمشاق، والعزيمة على المضى على إيمانهم . إن ربك من بعد الهجرة، التي كانت مظهرا واضحا على التزامهم السير على الصراط المستقيم، لغفور رحيم.

111- يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها...وهي لا يظلمون.

هذه الآية مرتبطة بما ختمت به الآية السابقة، أي إن الله لغفور رحيم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، فتكون هذه الآية مباشرة للمهاجرين إلى الحبشة أن ربهم سيكون غفورا لذنوبهم رحيمًا بهم يوم القيامة، إذا كل إنسان مهما كان صالحا لا بد له من فئات، فيقدمون على ربهم في ذلك اليوم وقد لمحت ذنوبهم ودخلوا تحت مظلة غفران الله ورحمته .

وتفيد الآية: أن كل إنسان مؤمن أو كافر يُعرض على ربه يوم القيامة، ويمكنه الله من الدفاع عن ذاته، وينتهي الدفاع بإقرار المشرك بشركه وللكاfer بكفره والمذنب بذنوبه، ولا يبقى له حجة، وعندها يعطي الله لكل نفس جزاءها للمقرر الجزاء العادل الذي لا يشوبه نفس من الإكرام أو زيادة من العذاب والمهانة، والله لا يظلم أحدا، والشعور بالعدالة الإلهية في ذلك اليوم يقتنع به من استحق العذاب، فيجد في نفسه أن الله لم يظلمه ولم يعذبه إلا العذاب الذي هو جزاء عادل لما قدمه في الدنيا، كما يقتنع به المذنبون الذين يضيغ عليهم ربهم من قروض رحمته وغفرانه ما ترتفع به درجاتهم.

وَمَنْزِلَ اللَّهِ مَثَلًا فَمَنْ كَانَتْ أَمْنَةً يَأْتِيهَا بِرُزْقِهَا وَغُلًّا بَرًّا كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرُوا بِأَنَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَأَذَقْنَا اللَّهُ بُهَامِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ
﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ سُلُوكُ مَبِيتِهِمْ كَالْمُوتِ وَالْخَوْفِ أَلَمَدَارِ وَمَنْ ظَلَمُوا ﴾ فَكَلُوا
بِمَا رَزَقْنَاهُمْ اللَّهُ خَلَاءًا وَلِبَاسًا وَتَشْكُرُوا خَشْيَةَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَنَافِعٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ
خَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَنَافَةَ وَالَّذِينَ وَالْخَيْرِ وَمَا أَمَرَ لَعَنَ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ أَضْمَرَ غَمْرًا بَاعَ
وَلَا عَاوَزَ اللَّهُ غُفُورًا وَرَحِيمًا ﴿

بيان معاني الألفاظ :

الأمم : السلامة من تسلط العدو .

مطمئنة : غير خائفة مطمئنة بالبلد .

رزقها : لقواتها .

وعدا : ولقرا هدينا .

انعم : نعم .

اذنلتهم : أصله الإحسان بالمعلم . والمقصود بها هنا الإحسان بالآدم .

لباس : أصله ما يلبس من الثياب . والمقصود به المحيط بالآدم .

الهلك : الإهلاك .

حلالا : للمأذون فيه شرعا .

فليها : تميل له النفس لسلامته للذوق .

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآية يفاظ لأهل كل بلد ليتأملوا في هذا السهل الذي قدمه للفران للناس كي يتعظوا به . قرية تفضل الله عليها بالأمن . وهناء العيش فلا خوف ولا قلق . وحقق لها الأمن الغذائي الذي يأتيها واسعا من مختلف الأماكن أقبال سكانها النعم بالكثرة وجود الفضل الإلهي . فسلط الله عليها الجوع فتمكن منهم وأحسوا به إحساسا بليغا وبذل أمنهم خوفا . فكان جزاء عادلا يوجب ما صنعوه بأنفسهم . ومع ذلك فقد بعث الله لهم رسولا منهم يعرفونه وكان قبل بعثته محل تقدير لكمالاته الخلقية . فلما دعاهم لما أمره الله أن يدعوه إليه . بافروا بتكذيبه . فأهلكهم الله بالعذاب . وهم مغفمون في ظلمهم .

أذن الله بأن يأكل الناس مما رزقهم إذا كان حلالا في ذاته وكسبه لا قذارة فيه . وإن يشكروا الله على نعمه فإن الشكر قرين للعبادة .

وبين القرآن ما هو محرم وقت نزول الآية في العهد المكي . فعند المحرمات في ذلك الوقت : الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه وغضاريفه وجلده . وكذلك ما ذكر عليه عند تنكيته غير الله تعالى . ولما كان الإسلام مبنيا على التيسير فإنه رفع الإثم عن المضطر الذي يخشى على نفسه الهلاك أن يأكل من هذه المحرمات ما دام مضطرا .

بيان المعنى العام :

112 . وصرب الله مثلا قرية كانت امنة . . . بما ضالوا يصنعون .

تعرض الآية صورة تتبع القرآن جزئياتها وتفصيلها . وأحكم نتائجها لتكون مجسمة لمضمونها . تنفذ إلى المشاعر وتحرك الحس . وتجلي ما فسد بها جلاء معجزا .

هي قرية لم يعينها القرآن فالأولى أن تبقى منكزة غير معينة، إذ تمييزها لا يزيد فهي للموعظة شيئاً. خلافاً لما اعتمدته كثير من المفسرين أنها مكة . قرية كانت السعادة تغمر سكانها، أنعم الله عليها بالأمس على مالها وعلى حياتها، لا تتأف عزرو عدوا، والأمن هو الركن الأول للتعلم بالحياة. ومع الأمن حلت الطمأنينة في قلوب سكانها، والطمأنينة بما نزل عليه من ذهاب القلق والخوف، وقد استقر النظام الاجتماعي بما يوفر راحة البال، وذلك نعمة فوق نعمة الأمن وإن كانت لا تحصل إلا نفعاً له. وقد تحقق لها الأمن الغذائي، فتزد عليها ما تحتاج إليه من الطعام وأقرا هنئها، بما يذهب اللبغة وتوقع الجوع والخصاصة. ليذهب الفكر في تصور نعمة الحياة في هذه القرية كل مذهب، ويعقب هذا النعيم المتعدد الجوانب فساد روحها وعقلها، إذ قبلت ذلك الفضل بجحدها لنعم الله عليها، فبرز في المشهد جانبان متناقضان، جانب كله إشراق وخيرات متتابعة، جانب كالح هو كفر وجحود .

ويتم المشهد بإقرار نتيجة ذلك التناقض المقيت. إن الله رفع ما كان يرمله إليها مما تقدم في الصورة الأولى، فآثر فيها الجوع وأحاط بهما ولازمها كما يحيط اللباس بصاحبه وهو على مقامه، واستولى الخوف على النفوس والمتاعر. وتؤكد الآية مظهرة أن ذلك كان نتيجة لما صنعوه، ومن شأن النتيجة أن لا تتخلف عن المقدمات فهي نتيجة ملازمة لهم .

113 ولقد جاءهم رسول منهم وهو خالهمون.

وواصل القرآن تشنيع أهل هذه القرية. ذلك أن الله بعث لهم رسولاً يعرفونه، خبروه قبل دعوتهم لدين الله، فكان محل تقدير لكمالته الخلقية واستقامته، لم يجربوا عليه كذبا ولا موقف خسة . ومع ذلك فإنه يسجد ما دعاهم لأكباح للدين الذي يرضاه الله لهم، ساروا بتكديبه ورفض ما يدعوا إليه. فأهلكهم الله بالعذاب، في الوقت الذي هم فيه مقيمون على ظلمهم.

إن هذا الفعل ينطبق تمام الانطباق على أهل مكة دون أن تكون قاصراً عليهم، فقيه لذلك أشد التحذير لهم من مواصلة الإصرار عن الاستجابة للإسلام، وأن مصيرهم إذا لم يتوبوا ويقنعوا عن عنادهم، هو مصير أهل تلك القرية.

114- فاصنعوا مما رزقكم الله حالاً-سياه تعبدون .

بعد أن تابع القرآن مرادف القرية الملعنة التي مر الله عليها فيما من به الأمن الغذائي، ولها انتهت إلى الكفر بنعم الله وحل عليها العقاب. أتبع ذلك بالتأكيد على أن النعم بما يتصل به الله من الخيرات مأذون فيه بشرط أن يكون حالاً في ذاته

وكسبه، والتمج في التوجيه أن لا يكون مستقرا بقوله (طيبا) وكان هذا الإذن مستخلا للمقصود من الآية، فأمر للمتقين بما يتفضل الله به عليهم من الحلال الطيب أن لا يغلطوا عن شكر الله على نعمه . وأول مراحل الشكر الاعتراف للنعم بفضلها على ما يصدر ويمكن منه، وحرص على الشكر بأنسه من موجبات العبادة الحق لله، وأنه مقترن بها، ومن يغفل عن شكر ربه فهو غافل عن حقوق المعبود على العابد. قال تعالى: ومنجز الميثاقين¹ -

145- إنما حرم عليكم الميتة سقاز الله غفور رحيم .

هذه الآية شديدة الاتصال بالآية التي قبلها. إذ كانت الآية سابقة تتضمن إنا من الله تعالى في أكل الحلال الطيب، ولما كان الحلال هو للقاعدة فيما رزقنا الله، حصرت هذه الآية المحرمات. ليبقى ما سواها في نطاق الحلال على سعة.

المذكور في هذه الآية من المحرمات نوعان: ما كان تحريمه لأنه خبيث مضر للإنسان بخلفته الميتة وهي ما مات من الحيوان البري الذي له نفس مائلة (ترتبط حياته بالدورة الدموية) وذهبت حياته بغير ذكابة، وكذلك الدم الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه أو يخرج منه أو من الإنسان إثر الجراحة . ولحم الخنزير وعظامه وغضاريفه وجلده. وقد قلنا تفصيلا أوفى . انظر الآية 173 سورة البقرة والآية 4/3 من سورة المائدة- والنوع الثاني ما كان تحريمه بسبب التوصل به لغير الله. وقد قلنا أيضا في سورة المائدة ما يتعلق بخبث تناول هذا النوع من اللحوم.

ولذكر بأن هذه السورة مكية، وأن الاتصال على هذه المحرمات معناه أن لا يوجد محرم غيرها عند نزول الآية، والتشريع الإسلامي يرتقي بالمسلمين من مرتبة إلى مرتبة أسمى منها. فإذا أبقى ما عدا المذكور في هذه الآية على الإباحة الأصلية، فإنه يتسم بقية المحرمات في الوقت المعتمد لتحريمها وعندها ترتفع الحلية. فاحتجاج بعض الفسقة أن الضرر ليس محرما بناء على أنه لم يذكر تحريمه في الآية ضلال وفسق ينتهي بصاحبه إلى الكفر لأنه يخل ما ورد تحريمه في تصويره أخرى: فكان مسلكه مسلك لليهود الذين قال الله فيهم : (أفكروا من بعض الكتاب وتكاثروا بهن ثم جزءا من فهم . تلك مسلكهم إلا خسروا في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بالغافل عما تعملون)² .

¹ سورة آل عمران آية 145

² سورة البقرة آية 84

وعقب الآية بتقرير التيسير في الإسلام على الإنسان الذي كان في ظروف حرجية جداً: إما أن يأكل من المحرمات ما يبقّي به على حياته، وإما أن يموت جوعاً، فخص له القرآن أن يبقّي على حياته، وأن يتأوله من المحرم لا يترتب منه عليه إثم . وقد قدّمنا في سورة البقرة والأنعام تفصيل المراد من قوله تعالى **غير بما يؤكل ولا عليه** في المرحم المذكور أعلاه مما يفنى عن إعلانه.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ - هَذَا حَلَالٌ، هَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ، مَتَى قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَظَلَّ الَّذِينَ خَفَاؤُا خُرُوسًا مَا قُصِّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَفْسَاسِهِمْ يَقُولُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ نَابُوا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٢﴾

بيان معالي الألفاظ :

لما فصل اليديكم : عن الذي تذكرونه مفصلا باليدينكم.

لا يلدون : لا يبلغون أمانهم.

بحرہائے : ملقبہا بعدم علم، او بالتحیدی و مرکوب الثرائس .

توبياز المعطر الأرجماني

نهى الله للمشركين **أولاً** ويسري الذهي لجميع الناس بعدهم، أن يحكموا بحرمة أو تحنيل مأكول أو مشروب، وأن يعيروا عن ناك باقوال لا تستند لحقيقة، وإنما هو اختلاف. إن الذين يفترون تكلم الأحكام ويروجونها ملهم للخسران. ولا يفرنكم ما تمكنوا منه من خير فإن ذلك هو نعم زائل غير ثابت، خصهم الله بعذاب أليم.

ولا يصح الاستناد في التحريم على شريعة موسى لبني إسرائيل مما ذكر القرآن أن الله حرمه عليهم، لأن ذلك للتشديد القصد منه تربيتهم لتكثيب قلوبهم بعد قسوتها، فهم الذين ظلموا أنفسهم بتمردهم على نبيهم فشد الله عليهم وما ظلمهم الله.

وَيُخَاطَبُ اللهُ نَبِيَّهٖ مُخَاطَبَةً اِنْشَائِيًّا اِظْهَارًا لِّتَفَضُّلِهِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فَيَعْلَمُهُ : اَنْ اَلنَّبِيِّينَ عَمِلُوا عَمَلًا مَبْنِيًّا مِنْ قَوْلٍ اَوْ فِعْلٍ ، وَكَانُوا عِنْدَ اَقْرَبِهِمْ لِلْاِثْمِ جَاهِلِينَ لَمْ يَعْلَمُوا اَوْ مُتَحَدِّثِينَ مُسْتَكْبِرِينَ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرُوا بِمَا لُتُّا بِهِمْ عَنْ طَرِيقِكَ ، فَاصْلَحُوا اَنْفُسَهُمْ وَاصْلَحُوا اَصْعَالَهُمْ وَتَابُوا رَاجِعِينَ اِلَى اللهِ ، فَاِنَّ اِلَهَ الْكَرِيمِ يُتَقَضَّلُ عَلَيْهِمْ اَوْ لَا بِسَبْقِ ذُنُوبِهِمْ كَمَا هُوَ اَلَمْ يَصْدُرْ عَلَيْهِمْ ، وَبِرَحْمَتِهِمْ بِفَضْلِهِ ثَالِثًا بِمَا يَفْقَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرَاتِ .

بيان المعنى العام :

116-117- ولا تقولوا له تهافتا المستنكف الكذاب يسويلهم عذاب اليم .

لما حدثت الآية السابقة ما حرمه الله، ويفهم من ذلك أنها ألفت موسى ما نصحت عليه على حكم الأصل، وهو جواز الأكل منه ؛ جاءت هذه الآية موضحة لهذا المفهوم مبينة حكم التعدّي بتغيير الحكم لذّي حكم الله به .

فهو سبحانه كل إنسان أن يغير ما حكم الله بتحريمه فيحله، أو ما حكم بحليته فيحرمه، ذلك لأن الحكم على الأشياء هو من خصائص الخالق، فهو الذي خلق وهو الذي يبيع ما يشاء ويحرم ما يشاء تبعاً للحكمة التابعة للعلم المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل، ولما كان علم الإنسان قاصراً لا يبلغ إدراك جميع الجوانب التي يعتمد عليها ليحكم صالها وصحيا وموئرا، حرم عليه تغيير ما حكم الله به. وليس النهي منصبا على الأكل، ولكنه على إعطاء حكم موهوم للأكل، فاصح عنه بتوضيح وبالغ بيان، كان المتكلم به بصفه وصفا يخيل لمن توجه إليه أنه حقيقة، ولكنه وصف كاذب.. فقوله تعالى: **الكذب مُسَاوٍ** : لتصف المستنكف، ولا تقولوا قولا مطلقا هو كذب، عن أي شيء يمكن تناوله بالأكل أو الشرب، هذا حلال أو هذا حرام، لأن الوصف بالحلية أو الحرمة هو لله وليس لأحد غيره، فمن تجاوز قدره وحلّل أو حرم بقوله فقد حصل منه الكذب على الله. ويؤكد القرآن أن مسأ هؤلاء الكذبة المفرّين: **الخوران**، لا يفلحون . ولا تعجب من نجاح بعضهم فإلما هو نفع قليل لمد الانتفاع به، سيزول عن قريب، وقد اختصوا بعذاب اليم .

118 - وعلى الذين هادوا حرمنا...سكّالوا أنفسهم يظلمون .

نفت الآية صحة اعتماد التحريم على ما هو محرم على اليهود ولتبايع الأحكام التي خصوا بها . فقد حرمنا على بني إسرائيل ما ذكر في سورة الأنعام في قوله تعالى: **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي نمل...**¹ فما حرمناه عليهم ليس من سنة إبراهيم، ولا من الأحكام التي أردنا أن يكون معسولا بها أيد الدهر. ولكن كان تأديبا لهم، فأردنا قلوبهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وتمردهم على التوراة وعلى نبيهم موسى عليه السلام . والله لا يظلم أحدا، فهو الذي يعلم انحراف البشر وما هو أفضل ليعودوا إلى الصراط المستقيم. ولذا كان من مهام المسيح عليه السلام أن يخفف على بني إسرائيل بعض الأحكام التي شددت عليهم لتثيق قلوبهم بعد صمودها.

١١٩- ثم إن ربك للذین عملوا...من بعدها لغفور رحیم .

لقد شددت الأيتان -117/118- التحذير من القول على الله بغير علم في التحليل والتحريم، وأبرزت صورة من معاملة اليهود المتبردين معاملة شديدة تكسر قلوبهم، وشأن القرآن أنه يصحب التحذير بالترغيب، والشدة بالتوسيع، بل يؤكد في التيسير ليجلب الناس إلى الخير ويحولهم عن الفساد إلى الصلاح . وهنا يلين الخطاب فيأتي بكلمة الرب، بما توحى به من العناية والأطاف، ويسندها إلى النبي ﷺ فإذا لاكرامه وأنه سبب الخير للناس، إذ كان علمهم قبل بعثته بالحلال والحرام غير مستند إلى أصل، كما أن تركيبيهم النفسي فيه كثير من التحدّي وعدم الانصياع للحق ؛ قالان الله من غلط تكلم الطباع، وقرر ما هو دين يرضى الله عنه، فأزال عنهم الجهل بمعنى عدم المعرفة، وأزال عنهم الجهل بمعنى الجهالة؛ ثم إن الذين عملوا ما هو سيء من قول أو من فعل، عن جهل أو عن جهالة، ثم أصعب ذلك بتيقظه لسوء فعله، وعدم رضاه به، وأصلح سلوكه في المستقبل، ومار في طريق الخير وتكتب طريق الشر، تؤكد الآية تأكيدا بالغا: إن ربك بما محمد بعد ذلك التحول من الضلال إلى الهدى غفور للذنوب السالفة، ينزل رحمته العظيمة عليهم فيستدبرهم بحسن المال .

إِنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَبِيرًا وَلِرَبِّكَ مِنَ الْمُسْتَكِرِّينَ ۝ فَاصْبِرْ لِلْأُتْمَانِ
 أَجْمَعِ ۚ وَهَذِهِ إِلَىٰ جَهَنَّمَ مَسْجِدٌ مِّنَ الدُّنْيَا خُشِعَ لِأَنَّ فِي الْأُخْرَىٰ لَمَنَ
 الضَّالِّينَ ۝ إِنَّهُ أَوْخَشَا الْجِنَّ أَنَّ أَلْبَعِ مَلَأَ إِيَّاهُمْ حَسَدًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ ۝

بيان معالي الألفاظ

أمة . كمالاته كثيرة كان جمع منها ما يفرق في أمة .

فاتت : مطيع

حذرف : مائل عن الباطل إلى الحق.

أشهره فعمده.

اجتماع : اختار

بيان المعنى الإجمالي .

أنشئ الله على إبراهيم نداء يبطل كل ما ألصقه المشركون به، أثبت أنه كان جامعاً لأوصاف النبيل والفضل فكله ضم ما تفرق في أمة، مقدماً لطاعة ربه خاضعاً له، مانحاً عن الطرق الضالة التي كانت عليها البشرية في عهده منفرداً عنهم، ما تلوث بالشرك، ومبعداً كل صلة له بالمشركون، كان يذكر نعم ربه عليه ويثني الثناء الذي يستحقه وإهبا، كل ذلك يشهد على أن الله تخيره من بين البشر في زمنه، حفت به أطلقه فهداه إلى الصراط المستقيم المبلغ للغايات الشريفة الحق من أقرب طريق، وجازاه ربه بأن يسر له الحياة الطيبة الآمنة في الدنيا وبإلوك له فيها، وهو في الآخرة في الزمرة الممتازة من عباد الله الصالحين.

بيان المعنى العام .

120-122 إن إبراهيم كان أمة...سوائه في الآخرة لمن الصالحين.

كان المشركون نمكة يدعون لهم على دين إبراهيم عليه السلام، ونسبوا ما صورته خيالاتهم ولو هامهم الدينية إليه، وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة صورة إبراهيم وهو يستقيم بالأزلام، كما نسبوا بعض ما حرموه إليه عليه السلام، فليتنصع الأمر تضامها كاملاً بين القرآن ما حرمه على اليهود وأن ما حرمه عليهم لا يسري على من بعدهم، وأن عيسى عليه السلام خفف كثيراً مما شدد الله به عليهم؛ ولذا انتفى الاقتداء باليهود فيما حلل وحرم، فكذلك تحتم نفي ما نسبوه إلى إبراهيم عليه السلام، فعرض القرآن ما يتميز به إبراهيم وأن سنته عليه السلام لنا أقامها محمد ﷺ.

وصفت الآيات وأثنت على إبراهيم :

لولا: إن إبراهيم كان أمة، وأصل الأمة الجماعة الكثيرة من الناس التي تجمعها رابطة، والمقصود أنه كان جامعاً لكمالات كثيرة، فيصدق من يصفه أنه جمع ما تفرق في أمة كاملة من الفضل والخير والقوة . كما تقول رجل كالف، كما أن جهاده لتفريق التوحيد وثباته رغم ما لاقاه من المشركين من إذابة وتآليه عليه كان بمثابة جهود أمة كاملة .

ثانياً : قلنا مطيعاً لربه خاضعاً له . فليس إبراهيم هو الذي صوره المشركون على صورة من يستقيم بالأزلام، ولكن حضوره مع ربه كان حضوراً ملازماً له، يربط كل فعل وحركة وكل جسم وكل ما هو ميثوث في الكون بالله.

ثالثاً: حنيفاً أي منحرفاً عن كل المذاهب التي تاهت وضلت في عبوديتها، فالإبادة تكذب المشركين في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم.

رايها: وتأكيدا لكتبهم في دعواهم لصلتهم بإبراهيم صرح القرآن بأنه عليه السلام لم يكن بينه وبين المشركين أي صلة، وذلك لإلغ من: لم يكن مثركا.

خاصا: شاكرا؛ فضلا الله مثليا عليه، لا يحجب عن بريق ذهنه تواصل النعم؛ رغم أن النعم إذا ما تتابعت خف الشعور بها، أما إبراهيم فإن صلته القوية بالله جعلته يقظا لأنعم الله عليه بواصل شكره وتثناه.

إن تجمع تلك المزايا كان شاهدا على أن الله قد اختاره فوفر فيه ما تفرق في غيره من معالي الأمور، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وفوق ذلك لحل الله الهداية في قلبه فأسرع إلى التوحيد، وسلك الطريق الذي يرضى الله عن ماله فلم يحد عنه.

ولتبع ذلكم الثناء ببيان ما أغرق الله على رسوله إبراهيم من حمس الجزاء، فقال تعالى: لقد أنبأه في لطف ويسر لحسنه في الدنيا بما يشمل طمأنينة القلب وكفاية الرزق، وصلاح الذرية، وجمال الذكر، وتعلق الناس بالقرب منه على أنه مثال للخير والتقوى والفضل. وهو في الآخرة منضم إلى زمرة الصالحين المقربين من الله، وأجاب دعاءه الولد في سورة الشعراء (رب حسب لي حنكاً ولفظي بمصالحدين) ¹.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسَلَ إِلَيْنَاهُمْ حَنِيفًا، مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٢٢

بيان معاني الألفاظ:

ثبع: أصل الاتباع في السير على خطى السابق، والمقصود بها العمل على المنهج والطريقة التي سار عليها إبراهيم.

الحنك: الطريقة العقيدة.

بيان المعنى الإجمالي:

مزية هي أعظم من المزايا السابقة لإبراهيم أن أوحى الله لمحمد ﷺ الحقائق التي أحيت صفاء العقيدة الإبراهيمية والمنهج الذي سار عليه في الاحتجاج على الوحدانية لله. فإِنَّ العقيدة التي كان يدعو إليها إبراهيم كانت سائرة على نهج مخالف لجميع المناهج المعروفة في عصره (حنيفاً) وهو أبعد ما يكون عن الشرك فلم يخالط الشرك قلبه ولا دعوته من يوم عقل إلى أن توفاه الله.

بيان المعنى العام :

١٢٣- **لَمْ يَأْتِ الْوَحْيَ الْيُحْيِ، أَنْ اتَّبَعَ مِلَّةَ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .**

كلمة ثم، أصلها أنها تعطف لاحقا على سابق من أجلها عنه، تقول جاء محمد ثم صالح، فيفيد العطف بكلمة ثم أن مجيء صالح كان بعد مدة زمنية من مجيء محمد، وقد تكون للتفاوت في الرتبة فتدل على أن ما عطف بها هو أعلى مرتبة، وبناء على ذلك ففوله تعالى **لَمْ يَأْتِ الْوَحْيَ الْيُحْيِ** إليك يقتضي أن فوق المزايا التي ذكرت في الآيات السابقة، والتي خص الله بها إبراهيم: أن لوحيته لك يا محمد التشريع الذي يقوم في أصوله على ما يوافق أصول ملة إبراهيم، فيكون إحياء ملة إبراهيم إحياء يمتضي مع الزمن دون أن تقسده شبهات أو تحريف، لم يتحقق إلا في الإسلام الذي حُملت نشره في العالمين، وهذه ميزة لإبراهيم فوق المزايا التي سبقت إذ كان الذي خلص ملته مما اختلط بها غير الأزمان، وصفها تصفية لا يلحقها بعد ذلك أي خلط، هو محمد بما لوحي الله إليه. وليس معنى ذلك أن التشريع الذي لوحي الله لإبراهيم هو عين التشريع الإسلامي، ذلك أن تشريع الإسلام هو التشريع الذي ارتضاه للبشرية من عهد محمد إلى قيام الساعة. ولكن الالتحاق هو في ناحية العقيدة التي انحرفت من بعد عهد إبراهيم، فاليهود حرفوا التوراة تحريفاً وصل بهم إلى أن جسموا الله تجسماً قريباً من البشر، والنصارى حرفوا الإنجيل وجعلوا الله أباً، فأوحى الله لنبيه محمد أن يعلن في العالم للتوحيد صافياً كما أعلنه إبراهيم من قبل وأن يؤيده بالأدلة والبراهين تأكيداً بنفي كل شرك لله . وأكد ذلك بقوله: **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**، بما يقتضيه من نفي أي صلة في تصور مفهوم الألوهية بين إبراهيم وبين اليهود والنصارى والعرب، فقد لصق بكل واحد منهم لؤة من الشرك.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ خَلَقُوا فِيهِ ذُرِّيَّتَكَ لِتَعْبُدَهُ يَوْمَ الْيَوْمِ

بِمَا صَالَحُوا بِهِ خَلِيفُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

السبت : يوم السبت .

لخَلَقُوا فِيهِ : في الطريقة التطبيعية لاحترامه.

بيان المعنى الإجمالي :

ادعى اليهود أن تقديس السبت من الثوابت العقيدة التي كان عليها إبراهيم. فرد القرآن زعمهم هذا بأن تقديس السبت فرض على اليهود الذين اختلفوا في ما يجب

لتقديسه. وبقي الأمر مشتبهاً عليهم وسيكشف الله لهم الحقيقة يوم القيامة لترتفع الأرواح وينجلي الحق .

بيان المعنى العام :

124- إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه سكتالوا فيه يفتخرون .

تحقيقاً لما تضمنته الآية السابقة: أن أعظم مزايا إبراهيم الله هو وحى الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكون متبعاً لمصافي العقيدة التي دعا إبراهيم عليه السلام للبشر إليها. وجاءت هذه الآية ترد مزاعم كان اليهود يشغبون بها على المسلمين، بيان ذلك: أن اليهود يزعمون أنهم ورثة الشريعة الإبراهيمية، وأن من القضايا الأساسية التي جاء بها تعظيم السبت، وهم ما يزالون ثابتين عليه إلى اليوم، ويقولون: لو كان محمد وارثاً لدين إبراهيم لعظم السبت كما يعظمونه . فكان الرد عليهم بهذه الآية: إن تعظيم السبت لم يكن من شريعة إبراهيم، وما كان دعامة من دعائم العقيدة، وإنما جعله الله على بني إسرائيل الذين اختلفوا في تطبيق تقديسه، إذ كان منهم من استعمل الحزب ليلتفع بحاصل ما يأتيه يوم السبت مما أعد له يوم الجمعة، ومنهم من نهى عن التحيل، ومنهم من اعترض على النهي عن هذا المنكر . واختلف أهل القرية في وعظ هؤلاء المتحيلين، حتى انتهوا إلى لسيان ما ذكروا به كما فصل ذلك في سورة الأعراف 166/163 فتقديس السبت فرض على اليهود واختلفوا في الطريقة العملية في تقديسه. وليس من شريعة إبراهيم في شيء، وليس تقديسه من ثوابت العقيدة كما يدعيه يهود. وتكون الآية متصلة بسابقتها وبآية 118- ثم إنه سيكشف الله يوم القيامة الحقيقة التي اختلفوا فيها، إذ في ذلك اليوم ترتفع شبه وينجلي الحق غير مختلط بالأرواح والظنون الكاذبة.

أَفَرَأَيْتَ إِنْ سَمِعْتَ رُفْقًا بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رُفْقًا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ حَيْلٍ عَنْ سَبِيلِهِمْ وَهُوَ أَكْبَرُ بِالْمُهَنْتِينِ ۖ وَإِنْ عَاقِبْتَهُمَا فَايُوا بِحَيْلٍ مَا عَوَّقْتَهُمْ بِهِ ۚ أَلَيْسَ ضَرْبُ نَهْوٍ حَسَنًا لِلضَّالِّينَ ۚ وَأَضْيَرُّ وَمَا ضَرْبُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا مَكْرُوهٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۚ

بيان معاني الألفاظ:

مسير الله : كل عمل من شأنه أن يوصل إلى رضا الله، وهو دين الإسلام.

الحكمة المعرفة الصواب، الذي لا يشوبه خطأ.

الموعظة قسمة القول للذين الذي يخاطب المشاعر فيساعدوا على عمل الخير،

الميلنة : عرض الحجة ليثبت الرأي وبسقط رأي المخالف.

العاثية : الجزء على فعل السوء بما يردع المميء،

اتسق : للجزع والكثر .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية المبهي في الدعوة المحقق لنجاح الداعي في نشر الإسلام وإقامة الناس على طريق الصلاح. فأمر الرسول ﷺ وأمر المسلمين أن يكون القصد الأول للداعي هو الهداية للطريق المستقيم، وأن لا يراعي حظ نفسه ولا حظ قومه، وإنما يخلص قصده لسبادة السبيل الموصل لمرضاة الله. فيعتمد الحكمة الميضية على العلم، ومراعاة حال المدعو والطريقة الأمثل للتأثير فيه، ويعتمد الموعظة التي ترقق القلوب وتحرك الروح، ولأن حصل جدال فليلتزم الحدال بالنبي هي أحسن، فليكن الغلظة تفصل بينهما وتثير إصرار الطرف المقابل على ما هو عليه. وعلى الداعي أن لا ييأس وليواصل هدايته للخير، فليكن العاقبة لا يعلمها إلا الله، فعسى أن ينهي المدعو بعد رفضه الأول إلى اتباع الطريق المستقيم .

وإن أوديتم فترجح لديكم أن الخير في ردع المعتدي بمعاقبته، فتحرروا أن لا تبلغوا بالمعقوبة أكثر مما عوقبتم به . وللصبر خير إن كان ماله فضل عاقبة

وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه أن الله ثبت قلبه وقواه بمعون منه فتدبرته على التحمل تفوق الطاقة البشرية، وسكب في قلبه الأمن وللتقابل فلا يحزن عليهم إذا هم مردوا على العناد والكفر وتذبذب المكائد له .

وكون المؤمنين الداعين للإسلام بأى الله ناصر ومزيد للذين تمكنت التقوى من قلوبهم، وثبت الإحسان في فعالهم وعزائمهم وقلوبهم.

بيان المعنى العام :

125 . ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، وهو أعلم بالمهتدين .

ترتبط هذه الآية بمطلع السورة التي افتتحت بأن ما قدره الله من نصيره دينه حاصل لا ريب فيه، يحققه سبحانه في أجله فلا تستعجلوه . ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهمة كل مسلم قادر على تبين الهدى لغيره أن يمسير في الدعوة إلى الحق على هذا المنهج الذي حثته الآية .

يتوجه الخطاب في البداية إلى رسول الله ﷺ إذ هو الداعي الأول للإسلام. وينسحب على المؤمنين الذين لهم من العلم ما يستطيعون معه نشر دين الله في أفلاك الكون. فنتتبع هذا المبعث كما فصلته الآية :

لولا : أن يكون القصد من الدعوة هدوية المدعوين إلى الطريق الذي يرضي الله، **(ادع إلى سبيل ربك)** وهو دين الإسلام. لاحظ لشخص الداعي ولا تقومه فيما يقوم به، تنوب شخصية الداعي لتسمو إلى لفق رفيع هو إيمان الحق يؤثر في البشر فيهددهم ويكوّن معهم صلة الأخوة في الدين .

ثانياً : اعتماد الحكمة لتكون ملازمة للداعي، فلا بدعوا إلا بما يتقن أنه حق لا ليس فيه ولا شك، يراعي إصلاح حال المخاطب واعتقاده إصلاحاً مستعرا.

ثالثاً : بالموعظة الحسنة في مقامات الموعظة . والموعظة هي الطريقة التي يعتمد فيها الواعظ لتلين القلوب وتحريك المشاعر ، للطف سبيلها، والتأثير الصالح هدفها، وتقريب الموعوظ من الواعظ مصلحتها. وإتباع الحكمة بالموعظة الحسنة فيه إرشاد إلى أن الوعظ ليس نمطاً واحداً، ولكن للواعظ النجاح هو الذي يمس على معرفة من يقصد إصلاحه أولاً، والنفوس مختلفة فيما تتأثر به، فليعمل الواعظ على أن تكون موعظته مناسبة للتركيب النفسي للشخص الذي يعظه. وبصفة عامة ترفيق القلوب واللين في الخطاب، والبعد عما يجرح وعن المواجهة بما يكره، هي قواعد مشتركة تهدي للموعظة الحسنة .

رابعاً : المجادلة بالطريقة التي هي أحسن، فإذا كان الغرض من إقامة الحجة يتحقق بطريق حسن وهناك طريق أحسن فالداعي مطالب بأن يسلك الطريق الأحسن ممن غيره. إن المجادلة تعني أن يبرز الداعي شبه الطرف المقابل ليبتطل حجته ويظهر نهايتها، وقد يصرح بقوله مثلاً أخطأت، وكلامك متناقض، وينفي ما تقول كذا وكذا، ونحو ذلك مما يثير الطرف المقابل ويحمله على الرد بكل وسيلة دفاعاً عن ذاته . ويتحول الأمر من الاستدلال بما يحكم به العقل إلى التمسك بالذات، ومن الموضوعية إلى الشخصية . وهو ما يضيع على الداعي الهدف الذي يجادل من أجله . وكذلك ما يصحب المجادلة من رفع للصوت، فتحكم الداعي قسي صوته تجلب للخصم إلى الإذعان للحق، ورفع الصوت يؤثره ويضيع الحق في الجلبة. وليس معنى ما قدمناه أن يجمع الداعي بين الطرق الثلاثة الأخيرة في كل مقام، بل الرشد أن يعتمد في كل موقع ما يناسبه، جاعلاً قصده أن يعطي الحق أن يظهر كبرته.

وصدر الآية يقتضي الأمر بالدعوة إلى الإسلام، وخاتمها تقتضي مواصلة الدعوة وعدم التراجع. فالداعي مطالب بأن يواصل للهداية إلى الإسلام وإلى السلوك الصالح. وإعراض للدعوة في أول الأمر لا يعتبر مبررا للتوقف عن القيام بواجب التنذير والتبليغ والدعوة، ذلك أن العقبة مجهولة لا يعلمها إلا الله، ولوقت الذي تفتح فيه الروح للهداية والسلوك الرائد غير معلوم. فالله هو وحده العليم بمن يلزم الضلال عن سبيله، ومن سيهتدي إليه. ولما كان العلم للمستند إلى القرآن ليس علما يقنيا، وصف الله بأنه أكمل علما لأن علمه علم ثابت لا يتغير، والحاصل الذهني لغيره علم قد ثبت وقد لا يثبت.

126- وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا يُعَاقَبُونَ بِهِ... تَهْوِي لَهُ خِصَابُ السَّاعِرِينَ .

موقف المعلم من المخالفين له في الدين هو ما فصلته الآية السابقة من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. ولكن بعضا من المخالفين قد تحملهم المنهجية على استعمال العنف ومحاولة إخضاع المسلم لإرادتهم الخبيثة فيعتدون، والعنف المادي بصحبه غالبا قصد إذلال وسحق للشخصية، والمؤمن عرير فإن له ربه إما، أن يرد الاعتداء بالمثل ولا يفرط في العقاب عند القدرة، ولا يتجاوز فيقلب معتديا. كما يورثه إلى الصبر على الأذى إذا كان يعلم أن صبره سيقرب عليه ما هو خير وأفضل عائدا. كما جاء في قوله تعالى (الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ لَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَهُمْ أَجْرًا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) والنظر في المآلات فإذا علم المعتدي عليه أن رد الاعتداء بمثله هو الطريق الأمثل لإيقاف الاعتداء، وتثبيت المهابة للفاعل، وإن ترجع عنده أن الصبر ينتهي إلى تلف للقلب ولا يفهم المعتدي على أنه ضعف وخوف فليصبر والصبر يكون خيرا.

127- وَإِصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ... عَلَى صَبْرٍ مِمَّا يَمْسِكُونَ .

الآية السابقة كما قدمناه تتناول النبي ﷺ وتنسحب على كل من تصدر للدعوة. سواء فيما يخص المنهج أو رد الفعل. وهذه الآية تخص النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي كانت حياته تمثل الدعوة إلى الله. وإذا فإن ما لقاه النبي ﷺ من الأذى المعنوي والمادي من قومه كان على وزان المهمة التي كلف بها، ولم يتحملها غيره. وقد ذكر القرآن، كما فصلت كتب السيرة قوة شخصيته ﷺ ومواصلته للدعوة، ومثابرتة

على إيلاخ ما أوحى إليه : بالرغم من عناد قريش ونفستهم في إذايته . إن المهمة مهمة تقبله لو لم يؤيد بتوفيق من الله، وتقوية لعزمه وما ركبه في قلبه من يقين بأن كل ما يلقاه في سبيل نشر الإسلام، وفكره في التوحيد بهون عليه كمثل ذلك، وإن مهمته أعظم وأقرب من أن يؤثر فيها المشركون بوقاحتهم وصفاتهم وكبرياتهم . إنه للصبر الذي أفرغه الله في قلبه، فكما ضاعفت قريش من إذايتها زاده ذلك تصميما وصلاية وقرة . إنه يجد في نفسه الشريفة مدد هذا التأييد فأكد له القرآن ذلك بقوله: **(وما سيروك إلا بآية)** يعون من الله، وكان هذا التأييد الذي يحس به ضاعف إحساسه وحبه لدخول المدعوين كلهم في دين الله، وكان يأسف شديد الأسف إذا تغلب العناد على ما يبشر به من حق، فسله ربه ودعاه أن لا يبلغ به التأثير على كفر من كفر مبلغ الحزن المقيم، وأن لا يجزع ولا يتكدر بسبب ما يطلع عليه من مخططاتهم التي يُعدونها لتعطيل ما حققه من نجاح في الدعوة إلى الله . الصبر عه ولا تك في ضيق مصب يعكرون . على معنى أن عليه موصلة الدعوة بقوة وأن الهداية في النهاية مرتبطة باللطاف هي من حكمة القدر الإلهي.

128- إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

تتعطف هذه الآية على ما سبقها تؤكد وتثبت، وتؤكد في قلوب الدعاة، وعلى رؤسهم رسول الله ﷺ، الثقة بالنصر والتأكد من أن العقبة لهم، ذلك أن الله ينصر ويؤيد الذين يحقق منهم تقوى الله، وكانوا ملتزمين بالإحسان في سلوكهم وصنائيرهم .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وجميل توفيقه ما فتحه علي يمينه وقضه في بيان سورة النحل هذه. أسأله في ضراعة أن يوفقني لإكمال بيان ما يشرح له قلبي من فهم لأيات كتابه . وذلك يوم الثلاثاء 20 صفر الخير 1433 - 2011/12/27.

سورة الإسراء

لهذه السورة أسماء - كتبت سورة "الإبراء" في المصاحف، واشتق لها هذا الاسم من افتتاحها بذكر إسرائ النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي لم يذكر في غيرها من سور القرآن. كما سميت بسورة "بنى إسرائيل" إذ تكسر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وسميت أيضا بسورة "سبحان" لافتتاح للسورة بذلك. هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف. وعدت حسب ترتيب النزول السورة الخمسين. ' نزلت بعد سورة القصص وقبل سورة يونس. وهي من السور المكية عند الجمهور. واستثنى بعضهم آيات تتعرض لها عند شرحها إن شاء الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي عَزَمْنَا خَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ مِنَ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ

بيان معاني الألفاظ.

سبحان: أصل سبحان أن تكون للدلالة على التنزيه من النقائص.

أسرى : ماو في الليل.

بحده : بمحمد ﷺ.

بارئنا : البركة تمام الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

خوله: نفيد سعة بركته إذ تعدى المسجد إلى ما يحيط به.

بيان المعنى الإجمالي :

نزه الله أن يعترض قدرته معوق، فهو الفاعل لما يشاء. وقد شاء أن يحيط محمدا بأطرافه فيحقق له أسرى في جزء قليل من الليل ليصل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بارض فلسطين ثم يعود إلى فراشه قبل أن يبرد. وعبر عن محمد بعيدة فاضلته لنفسه تشريفا له.

وفي جمعة في وقت قليل من الليل، بين المكان الذي انطلقت منه الدعوة إلى التوحيد على لسان إبراهيم وإسماعيل، وبين المكان الذي تجددت فيه الدعوة

للتوحيد وعملت على الناس بعدهم، ثم العودة إلى المنطلق الأول ما يشير إلى أن الله جمع لمحمد الكمالات التي تفرقت في غيره وقتي مكنه من تثبيتها تثبيتاً لا يلحقها بعده اختلاط، فقد صاحبت عنابة الله والطاقة في هذه الرحلة اليلية ليطلع به على مخبرات تجمع بين كونها أدلة وبراهين على صبقه، كإخباره عن قافلة قريش ووقت بلوغها مكة، ووصف بيت المقدس لقريش فلم يجدوا في وصفه أي خلل، وإمامته المرسلين في بيت المقدس. وما كشف له من أحوال يوم القيامة، وفرضه الصلاة عليه في السماء خمسين صلاة، ثم استجابة الله سؤاله للتخفيف فكانت خمس صلوات في اليوم، بتضاعف ثوبها عشر مرات فتصلوي الخمسين المفروضة أولاً.

بيان المعنى العام :

١- سبحانه الذي اسرى يعقوب ليلاً ... هو التميع البصير .

افتتحت السورة بقوله تعالى : **سبحان** والشأن أن يرد لفظ التسبيح لرفع التباس لو وخم يتعلق للفصد بنفيه كقول الملائكة في سورة البقرة : **(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمنا)** ١ - لنفي ما في إجابتهم السابقة أتجل فيها من يفسد فيها من التعجل في الحكم على خلق آدم ،وكقوله تعالى : **(وقلوا اتخذ الله ولداً سبحانه)** ٢ إبطال اتخاذ الولد لمخالفته للتزويه . أما افتتاح السورة بـ 'سبحان' فليبينه فيما يلي :

أولاً : قال سيبويه : سبحان، علم على التزويه : أي إنه كثر استعماله في الدلالة على التزويه حتى نفرد بالدلالة على ذلك المعنى شأله شأن الأعلام كمحمد وصالح ولا يلحقه التثوين لاجتماع الألف والنون في آخره مع العلمية . فافتتحت الآية بـ 'سبحان' دون أن يكتفم ما يقصد نفيه.

ثانياً : لما لم يقدم لفظ 'سبحان' شيء فقد خرج في التحذير والتوبيخ على أنه للتعجب من خبر الإسراء .

ثالثاً : إن الذي ترجع عندي : أن الإعلان بالإسراء وإشاعته في المجتمع القرشي يوم وقوعه، ثم إثباته قرأنا يتلى ليستقر في العقل البشري، كسان ومسيقي للناس منه موقفان :

أحدهما : لرفض له على أنه من المستحيل أن ينتقل الإنسان في لحظات من الليل من المسجد الحرام إلى فلسطين ثم يعود من حيث خرج، والاشتباه الذي جعلهم يسمعون بالرفض هو الخلط بين المستحيل عقلاً والمستحيل عادة، إن العقل لا يمنع

انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بسرعة تتجاوز سرعة الضوء. ولكن الذي يمنع من ذلك هي القوانين العادية التي يظهر في الحياة تمكن الإنسان من التغلب على بعضها بوسائل أخرى. خذ لذلك مثلاً رؤية ما وراء الحواجز الكثيفة والكثيرة والمباني البعيدة، وسماع الأصوات الصادرة عنها. كان ذلك مستحيلًا عادة وأصبح اليوم واقعا في أجهزة التلفاز، والكاميرا، وسينما العلم مستقبلا عن أمور هي الآن من فروع الخيال. ولكن العلم لا يأتي بما ينقض العقل ويقلب المستحيل عقلا جائزا، وإلا لفسد ذاته. إن أولئك الذين وقفوا من الإسراء موقف الرفض، عجل لهم القرآن في مفتاح السورة بتزييه الله سبحانه عن العجز. أو أن تكون قدرته محدودة بما نعرف عليه الناس، ليكون هذا المفهوم هو المنطلق للنظر فيما يأتي بعد مما أكرم به نبيه. - وعندي أيضا في قدرة قطلاق الفكر من حدود الزمان والمكان الضيقة ما يفتح له تصور الإسراء. تجد أحدا وهو في بيته يتابع عرضا لواقع بعيد عنه في الزمان والمكان من كتاب في التاريخ، ومع ذلك هو يستطيع أن يعيش مع تلك الأحداث كأنه يراها بمقدار ما وفق للكتاب في حسن العرض. فامتلاك العقل إلى الأبعاد الفسيحة زمانا ومكانا يربط إمكان انتقال الإنسان متى وفرت المساعدات.

ثانيهما: إن المؤمنين زادهم خسر الإسراء إيمانا بصنق رسول الله. ذلك أن النبي ﷺ لما أرك الخروج من بيت أم هانئ إلى المجتمع للقرشي ليخبرهم، مسكته أم هانئ من طرف ثوبه متوسلة أن لا يخبر قريشا فيتخذوا ما يحدث به مطعنا في نبوته. وذلك ما تم فعلا فإنه بمجرد ما دخل جلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء. فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلما فحدثهم فمن بين مصدق وواضع يده على رأسه تعجبا وإكراها وارتد نلس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان ذلك: لقد صدق. قالوا لصدقه على ذلك؟ فقال: إني لأصدق على أبعد من ذلك فسمي الصدوق رضي الله تعالى عنه. وهذا من فضائل النور الذي غمر روح أبي بكر. فلما قطع المسافة بين المسجد الحرام وفلسطين أكل قيمة بكثير من تلقي الوحي عن الله، فتلقى الإنسان السوحي عن الله أعظم درجة، وأبعد منالاء، ولم يتألم لأحد بعد رسول الله ﷺ. أما قطع تلك المسافة في جزء من الليل فقد أصبح اليوم واقعا. فيكون الافتتاح بكلمة "سبحان"

تعبير عما مكنته حادثة الإسرائء من نصاعة إيمان المؤمنين الصادقين. وتزويه الله من أن يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي معوق من المعوقات فتلى تحول بين البشر وتحقيق ما يريدونه.

وأصيف "سبحان" إلى اسم الموصول وصلته سبحانه الذي أسرى دون "الله" فلم يقل "سبحان الله" للتجويل بموجب التنزيه.

والذي أسرى مماوية أسرى وزان ذهب به ليلًا، وأسرى اعشق دلالة على العناية الربانية، فإنه لو قيل أسرى عبده فإنه يفوت ما يدل عليه التعبير القرآني بعبده، من أن مراد الله سبحانه فيها اللطاف الله ورعايته. ومن أكرم ما يدل على ذلك إضافة الرسول ﷺ إلى نفسه إضافة تشريف [بعده].

والسرى لا يطلق إلا على السفر ليلًا، فيكون التصريح بقوله "ليلًا" منكرًا يليق أنه وقع في جزء من الليل قليل.

وعين مبدأ السرى ومنتهاه. فالإسرائء مبدؤه المسجد الحرام؛ والنهاية كانت بأرض فلسطين في موقع المسجد الأقصى اليوم. ثم تمت العودة في رمز غير طويل؛ إذ ذكر في السيرة أنه عاد قبل أن يبرد فرأشه.

والمسجد الحرام هو الكعبة وما حولها. سمي مسجدًا لأنه المكان الذي مير الله الصلاة فيه بمصاعف للثواب مما جعل المسلمين يتنافسون في أداء الصلاة به. ونحصل تلك المزية إلى الحنود التي تشع إليها. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من حوط المسجد الحرام بجدار يحفظه سنة سبع عشرة من الهجرة. ووصف المسجد بالحرام بتوحيها بشأه ومنعاً من الاعتداء فيه بالقتل أو القزو أو عمل سوء. إذ تنصاعف عقوبة من ينتهك حرمة. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ولا أعرف أنه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم.

والمسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام في بيت المقدس، في المكان الذي بناه فيه إبراهيم. ثم إن نبي الله داود عليه السلام نوحي أن يضع عليه الخيمة، وأوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد. ثم إن الملكة هيلانة أم امبراطور بيزنطة قسطنطين لما تسمرت، وزلزلت مدينة أورشليم، وكانت متعصبة لدينها ومتعصبة ضد اليهود لا اعتقادها أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، نمرت بهدمه ونقل أساطينه إلى الموضع الذي ظنت أن المسيح نفس فيه، وبنت فيه معبدا سمته: كنيسة القيامة. ومبالغة في النكالية باليهود أمرت أن يحول موضع المسجد إلى مجمع لأرباب البلد. ولما عقد عمر بن الخطاب عليه السلام صلح مع أهل تلك المدينة، وكانوا نصارى قال

لبطريق لهم اسمه (صغرونيوس) : ثلثي على مسجد داود، فانبسط به حتى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على رجليه ، فتجشم عمر حتى دخل، ونظر وقال : الله أكبر . هذا والذي نفسى بيده مسجد داود الذي أخبرنا رسول الله أنه أمرني به إليه . ثم أخذ عمر والمسلمون يكتمون للزبل عن الصخرة حتى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه . ثم إن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وبناء المسجد، ووكل عليه رجاء بن حيوة الكندي سنة ست وستين وكنى الفراغ منه سنة ثلاث وسبعين¹.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم الخليل ففى الصحيحين أن أبان قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال : للمسجد الحرام؛ قلت : ثم أي؟ قال : المسجد الأقصى. قلت : كم بينهما؟ قال : أربعون سنة².

وحسب قواعد اللغة فإن الأقصى صيغة تفضيل، فالبدأ هو المسجد الحرام، والتهلية المسجد الأقصى، وذلك يقتضي أن يكون هناك مسجد بينهما هو الأقصى. ووقت نزول الآية لم يكن هناك مسجد آخر، فعد هذا التعبير من إخبار القرآن بالغيب، إذ بنى مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك بينهما فكان المسجد الأقصى، ومسجد فلسطين المسجد الأقصى. وقد يكون من الحكمة في جعل طرفي الإسراء المسجد الحرام والمسجد الأقصى الإيلاء إلى أن الإسلام جدد شرائع التوحيد من عهد إبراهيم الخليل، الذي بنى المسجد الحرام كما بناه في سورة البقرة 124/134 - ثم تتابع الأنبياء بأرض فلسطين. فقد هدى الله البشر إلى الحنيفية ببعثة إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم تأكدت بالرملة الأكرمين عليهم السلام الذين قاموا بذلك في أرض فلسطين ثم عادت إلى متبعها الأول على يد خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه .

والبركة التي أزلها الله حول المسجد الأقصى تدل على أن البركة تشعل المسجد الأقصى أولاً، وكذلك ما حوله، والبركة هي ما أنزل في تكليم الأرض من الوحي على رسله، وما خص الصلاة فيه بمزيد من الثواب. فإن جميع الأماكن تتساوى في الثواب على الصلاة فيها إلا المسجد الحرام المختلها، ثم مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ثم مسجد بيت المقدس .

¹ التحرير والتنوير ج15 ص14/19. والبدلية والتهلية ج4 ص655/657.

² التلويح والمرجح ج 298

وحكم الإسراء، وما نال النبي ﷺ من غواية وتقريب، خص ذلك بعناية العلماء الذين توسعوا فيه وكشفوا أبعاده. ونصت الآية على أن الله تفضل على نبيه فأراه في تلك الليلة من الآيات الشيء الكثير، للدالة على تقريبه وتكريمه، فقد أمّ الرسل، ومكنه من الرقي إلى السموات العلى وفرض عليه وعلى أمته الصلاة، وكشف له عن مآلات الصالحين، وعن بعض ما يلقاه المشركون والمسيئون مما هو من أحوال يوم القيامة، وأطلعته على ما هو خارج عن مقدور البشر، فكان الإسراء معجزة له، إذ أن قريشا لما طلبت منه أن يصف لها مسراه وبيست المقدمين، رفعه الله أمامه فأخذ يفصل جزئياته المميزة، وطلبت منه أيضا أن يخبرها عن قائلتها العاتدة من الشام، فأخبرهم أن عبرهم متصل إلى مكة عند شروق الشمس يتقدمها جمل أورق، وكذلك كان.

وإذ انكفأ الرسول ﷺ في تلك الليلة إلى مشاهد نفوق الطائفة البشرية، فإن وعيها وتقررها في سمعه وبصره لا، كان بإقدار الله له بجعل بصره وسمعه يسجل كل ما رأى وما سمع في تلك الليلة.

وَأَقْبْنَا مُوسَى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وَجَعَلْنَاهُ هَدًى **إِلَيْنَا** إِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ **أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي **حُجُبًا**** **لَّيْ** **دَرْجَةً** نَزَّ حَمَلْنَا فِي لُوحٍ **إِنَّهُ** **كَانَ** **عَبْدًا** **مَكْرُومًا** **وَقَضَّ** **إِلَى** **نَبِيِّ** **إِسْرَءِيلَ** **فِي** **الْكِتَابِ** **لِنُفِثْهُنَّ** **فِي** **الْأَفْسَسِ** **وَلِنَعْلَنَ** **عُلُوًّا** **كَبِيرًا** **بِإِذْنِ** **جَاءَ** **وَعَدَ** **أُولَاهُمَا** **بَعَثْنَا** **عَلَيْكُمْ** **عِبَادًا** **لَنَا** **أَوَّلَ** **بَاسٍ** **شَدِيدٍ** **فَجَاءُوا** **بِجُلُودِ** **الْإِبْرَارِ** **وَكُنَّا** **وَعْدًا** **مُتَمَثِّلًا** **ثُمَّ** **رَدَدْنَا** **لَكُمْ** **الْكَفْرَةَ** **عَلَيْكُمْ** **وَأَمَدَدْنَكُمْ** **بِأَمْوَالٍ** **وَبَنِينَ** **وَجَعَلْنَاكُمْ** **أَكْبَرًا** **كَبِيرًا** **إِنْ** **أَخْسَفْتُمْ** **أَنْفُسَكُمْ** **لَا** **تُفْسِكُمْ** **وَإِنْ** **أَسَأْتُمْ** **فَلَهَا** **فَإِذَا** **جَاءَ** **وَعْدَ** **الْآخِرَةِ** **اسْتَفْزَوْا** **وَجُودَكُمْ** **وَلَمَّا** **عَلُّوا** **الْمَسْجِدَ** **كَمَا** **ذُكِّرُوا** **أَوَّلَ** **مَرَّةٍ** **وَلَمْ** **يُتَبَرِّكُوا** **مَا** **عَلُّوا** **تَكْبِيرًا** **عَنَى** **رَبُّكُمْ** **أَنْ** **يَرْحَمَكُمْ** **وَإِنْ** **عُدْتُمْ** **عَدْنَا** **وَجَعَلْنَا** **جَهَنَّمَ** **لِلْكَافِرِينَ** **حَصِيرًا**

حَصِيرًا

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : التوراة

الوحي : من يفوض له الأمر. والمعنى لا تتخذوا شريكا

لغيرنا : حكمنا وقدرنا مع تبليغ.

لنَحْنُ : العلو بمعنى الطغيان في العصيان.

يَعْنَا عَلَيْكُمْ : سيزنا من يتسلط عليكم .

أَوْ لَوْ يَأْسُ : أصحاب قوة في الحرب .

جَاسُوا : تَتَبِعُوا المهزومين في كل مكان في الطرق والأزقة والمنعطفات، وهو ما يعبر عنه في لغة العصر بالتنصيط.

خَالَ الدِّيار : جميع المسالك المؤدية إلى الديار .

وَعَمَلْنَا لَكُمْ لُكْرًا : أعدنا لكم القلبة.

لِنُفْخِرَ : المسرع للمساعدة في الحرب.

نَهْرَ : أهلك وأفسد.

مَا عَلُوا : ما تغلبوا عليه.

الْحَصِير : المكان الذي يحصر فيه

بيان المعنى الإجمالي :

اعتنى الله بمحمد ﷺ فأمرى به ولأراه من الآيات التي ما لم يطلع عليه نبي ولا رسول في حياته، وأتى موسى عليه السلام كتاب التوراة الذي جمعه الفيس الذي يقتبس منه بنو إسرائيل الهداية، ويقيم من يعمل منهم بما جاء فيه على الصراط المستقيم، ونبيه إلى أن أهم ما تضمنته التوراة أن يخلصوا لله في العبادة ولا يتخذوا من دون الله شريكا يعبدون عليه. ثم حركهم بدائنه لهم مذكرا لهم من ذنوبهم من ذنوب نوح الذي أخذ أباهم سام معه في السفينة، في الوقت الذي أهلك الله من كان على الأرض من الذين اتخذوا شركاء من دون الله، نوح هذا النبي الذي كان شعوراً بأنه عهد لله شعورا حيا قويا جدا، فاهتدى إلى شكر الله على كل نعمة أنعم بها عليه.

أخبرهم الله في التوراة أنهم سيبحرّفون عبر التعاليم التي بلغها إيساهم موسى عليه السلام، وأنهم سيضطفون في الضلال طغولا كبيرا، فتذوب مفومات القوة والمناعة، ويصبح وضعهم قابلا للفترو والتكليل، وأنه سيمسّط عليهم بسبب مروقهم من الدين وفساد سلوكهم للمؤمنين مخلوقات لله ترمسوا بالقتال وعمرت قلوبهم بشجاعة لا تعرف سوى الإقدام، وخبرة قتالية قاسية، فيدخلون يشاركهم ويتبعون فلولكم المهزومة في كل مكان ويخربون ميالكم، ويتمكنون منكم أشد تمكن. وسيزن ذلك فعلا في الأجل للمجد . وكذلك كان بعد الحمار الشامل لمدينتهم أخذ الأثوريون الغزاة البقية الباقية منهم أسرى إلى بابل. وهناك ضاعت جميع مفوماتهم حتى اللغة العبرية التي كانت التوراة مكتوبة بها اختلطت بالبابلية، فأصبحت لغتهم لغة هجينة هي أصل

اللغة العبرية التي يتحدث بها اليهود في عصرنا، وثبعا لذلك حُرِفَت التوراة بعد أن عم الجهل باللغة العبرية القديمة التي كتبت بها.

ثم إنهم بعد هذا الفجر أصلحوا ما فسد من سلوكهم واستقاموا، فكثُر الله نسلهم وبارك في أرزاقهم، وبنى الله من أخذ بيدهم فتغلب ملك القرح على البابليين، ومكن لليهود من العودة، وعمارَة فلسطين في سنة 530 قبل المسيح.. ومما قضاه معلما به في التوراة، أن ذكرهم بسنة الله: أنهم إن أحسنوا غنموا نتائج إحصائهم فكانت لهم، وأنهم إن أساءوا فإن شر قسادهم سيكون عليهم. كما أعلمهم أنه تحقّقا لهذه السنة فإنه بعد رجوعهم وقيام حضارتهم في أرض فلسطين أنهم سيقتلون فيسلط الله عليهم كما سلط عليهم في المرة الأولى من يفرهم فيظهر أثره البين على وجوههم كآفة، وذلة، وليدمروا مسجدهم، ويخربوا كل ما تغلبوا عليه تخريبا مظهرا استئصالهم من بيت المقدس فيتشتت الساقون منهم في أرجاء الدنيا، والرجاء في ربكم أن يرحمكم، وستضمني سنته في الاجتماع أن العزة والأمن، مرتبطتان بقوانينه فإن عنتم إلى الخير عدنا لكم بالكيد، وإن فسدتم وغلب سركم حيركم لتعلمنا منكم في الدنيا. وفي الآخرة يكون مصيركم مع مصير أمثالكم في جهنم التي لا يجد من دخلها مغدا للخلاص. **[وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.]**

بيان المعنى العام :

2- **واتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى... من دوني وحكيلا.**

هذه الآية معطوفة على ما يفهم من الآية السابقة، التي هي في قوة : اسرينا بعبدنا، واتينا موسى الكتاب . وعطفت على ما تضمنته الآية الأولى بجامعين: الجامع الأول: أن الآية (1) تذكر فيها المسجد الأقصى وقد ارتبط به موسى عليه السلام، إذ قال لقومه اخللوا الأرض المقدسة، وأنهم تمرّدوا على موسى فيبقوا تائبين في صحراء سيناء. وأنهم عاشوا في جور له بعد ذلك، ثم أخرجوا من فلسطين على ما تنفصله السورة.

الجامع الثاني: أن الله قد امتن على موسى بإتائه الكتاب (التوراة) في المقام الذي ابتدأ بالامتثال على محمد بالإسراء، والمقابلة بين المثنيين تبرز ما حظى به محمد من فائق العلية، ومضاعف العز، التي أشير لها بقوله تعالى: **لنريه من آياتنا.**

تعيد الآية أن الله أوحى بالتوراة لموسى عليه السلام، وجعل ذلك الكتاب سبيلا لهدى بني إسرائيل، باتخاذ نصوصه أساسا للعقيدة، ودليلا على أحكام المعاملات ومنهجها للسلوك. وفي جعل

الاهتداء به قاصرا على بني إسرائيل ما ينتهى إلى مزية ثلاثة لسيدنا محمد ﷺ: إذ شريعة موسى قاصرة على بني إسرائيل، بينما الإسلام هدى للبشرية جميعا.

ثم وقع التخصيص على أهم ما جاءت به التوراة، وهو التوحيد الخالص: **«لَا تَتَّخِذُوا مِنْ بُونِي وَكَسْيًا: المفتححة بأن المدغمه في "لا"، أن لا، فتكون أن مفسره لما تضمنه (الكتاب) تسجيل لما بالغ موسى فيه في التأكيد عليه، ذلك أن بني إسرائيل قالوا لما أتوا على قوم يعبدون أصناما لهم: يا موسى اجعل لنا إلهة كما إلهة، سورة الأعراف آية 138 - عبدو العجل لما ذهب موسى للعبداء، مما يدل على أن تربيتهم طبيعتهم على التعلق بالمحسوسات فلا يرتفعون بسهولة، إلى عقيدة التوحيد للمبني على التجريد، ولذلك فسرت مهمة التوراة الأولى أن لا يتخذوا أحدا غير الله معبدون عليه، ويفوضون له أمرهم .**

4- ذرية من حملنا مع نوح إله سكان عبدا شكورا،

راعت الآية غلط قلوب بني إسرائيل من شدة تحلفهم بالمحسوسات كما بيناه، فانتهم بوصف علة بحرهم فيخلصوا في توحيد الله والتعلق به: **«فوقله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح»**. منادى حذف منه حرف النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح وهو مام بن نوح . ولما في النداء تذكيرهم بأنهم تناسلوا من نوح - الذي لجأه الله من الفرق وبارك في نسله لإخلاصه في عبادة الله أولا، وثانيا لأنه كان ناعرا مفعورا ملازما، بأنه عبد الله، شرفة في هذه العبودية، وأن شعوره هذا وقوة إحصائه به جعله لا يغفل عن شكر ربه عن كل نعمة باليمان وبالعقل، إذ كمال الشكر في صرف النعمة فيما خلقت له . ولذا فالآية تحرك بني إسرائيل ليسيروا على النهج الذي سار عليه أبوه نوح من التوحيد الخالص الذي ضففت التوراة بما أدخل عليها من تحريف عن الوفاء به، ومن توازم ذلك أن يدخلوا في دين الإسلام الذي حكي التوحيد وقام على بيانه قياما تفرد به، وهو دين الفطرة التي كان عليها نوح أبو البشرية الثاني، ومن شأن النفوس الزكية أن تلازم المنهج لصالح لأصولها .

4- 5: وقضينا إلى بني إسرائيل وسكان وعدا مقبولا.

مع إتياء موسى التوراة، كشف من الله في هذا الكتاب إلى بني إسرائيل (اليهود) ما سيؤول إليه حالهم من الفساد وما سينالهم من العقاب أولا وثانيا.

فقد سجلت التوراة على اليهود أنهم سيفسدون في أرض فلسطين مرتين.

أما المرة الأولى فسبيلهم بهم العصيان ما تقسو به قلوبهم، ويتمكن منهم الطغيان والإصراف في اقتحام حدود الله مبلغا كبيرا، ثم فصلت ما يلحقهم من العقاب .

فنعما بل الأجل الذي يملئهم الله إليه في هذه المرة، يسلط الله عليهم من مخلوقاته أصحاب شدة في الحرب وعران على القتال، وعجاجة عظيمة، فلا يستطيعون أن يوقفوا زحفهم . أقدرهم على القيام بمعاقبتهم فهزموهم وتتبعوهم في كل مكان، واستباحوا نيازلهم وأموالهم، وهجموا المسجد، وأخذهم بختصر القائد الأشوري أسرى. ونقلهم إلى بابل. وفي مدة أسره اختلطت لغتهم باللغة البابلية وانصاعوا للغة العبرية التي كتبت بها التوراة. وحرفت التوراة تبعاً لذلك كله، ولقطعت السند بينهم وبين موسى عليه السلام. فدمرت حصارتهم، ومعابدهم، ولقطعت صلتهم ببيت المقدس.

٦-7، ثم ردنا لحكم المكرة عليهم سوليتيروا ما علوا تكبيراً.

وأعلمهم الله في التوراة أنهم بعد تدميرهم في المرة الأولى، سينهضون من كبوتهم وأنهم ستكون لهم التوبة على الذين أخرجوهم. وغير عن هذا الطور بالماضي 'ردنا' 'نن' 'رد' مع أن الأمر لم يقع بعد باعتبار أنه إخبار بما في علم الله، ويستوي في علمه سبحانه الماضي والحاضر والمستقبل في مفاهيمنا . ولقد تم فعلاً ذلك، إذ أن ملك الفرس (داريوس) غزا بابل وانتصر على ملكها، وقد كان اليهود أعزوا لجيشه في غزوهم للبابليين، وبفهم من النص أن اليهود بعد أن لهم البابليون شيروا ما قصد من ملوكهم، واستسلموا فأبذل الله البركة في أموالهم وفي بنيهم وأكثر عددهم، وربوا بينهم تربية حربية يسرعون إلى نصرة الداعي لهم من قومهم، فتجمعت الممهدات لعودتهم إلى بيت المقدس، وفعلاً أن لهم كورنيس يالعودة إلى بيت المقدس سنة ٥٢٠ قبل المسيح.

وذكر في التوراة خطاب الله لهم عقب عودتهم إلى بيت المقدس بقوله : **إن أحسنتم** **لأنفسكم**، على معنى أن الإحسان يتوجه منكم إلى ذاتكم، ذلك أن أصل الإحسان أن يعضي من الحسن لغيره، ولكن الله حرك بلي إسرائيل ليسمر إبراكهم يعلموا أن الإحسان والعمل الصالح ينتفعون به فكان سبباً لعودتهم واستقرار أحوالهم بعد الشتات والقهر . وكذلك بالمقابل إن أسأتم وتمردتم على النظام الذي كلفتم بالتباعد والحفاظ عليه أسأتم لأنفسكم . فدل التعبير القرآني على أن النفس تصبح فاعلة ومنفصلة، وهو من بالغ التحريض على الامتنال. ولهم من هذا: تكتيبي لليهود فيما يشيعونه من أنهم شعب الله المختار ولهم أحباء الله، فالظن ما قضاه في التوراة وأنابهم به: أن سنة الله في الاجتماع واحدة، ولهم إن أحسنوا جنوا ثمرات إحسانهم، وإن أسأروا خسروا بسبب إساءتهم.

كما أعلمهم أنهم سيعودون بعد الفرج إلى ما كانوا عليه من الفساد وطمعان الشر فيهم، كما أشار إليه قوله : **(وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذْرٌ أَلَمْ يَنْتَهِوا أَنْ يُبَدِّلُوا بَعْدَ ذَلِكَ قُلُوبَهُمْ فَيُرْسِلُونَهُمْ فِي سُبُلٍ مُبْتَلًى يُفْتَكِرُونَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمِرَّةِ الْأُولَى إِذَا جَاءَهُمْ نَذْرٌ الْآخِرَةُ)** من يذللهم ويخزيهم ويفتنهم من يوتهم وبشردهم. وجسم القهر : أنه سيظهر على وجوههم كآبة وحزنًا وثلبة، وأن القاهرةين سيدخلون المسجد كما دخله من قبلهم ويخربونه، وأنهم سيهلكون ويفتقرون ما استولوا وغلّبوا عليه من ممتلكات اليهود ومآلهم الحضارية فيدمرونها تدميرًا، وتم تدمير بيت المقدس وإجلاء جميع اليهود منها سنة 155 بعد الميلاد على يد الإمبراطور الروماني أنطونيوس، وبقيت تحت سلطان الرومان إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ؓ.

١٨- عَسَىٰ وَرِعُهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا.

لم يذكر في التوراة أنه من بعد تدميرهم وتخریب عمارتهم، أن الله سيعيدهم من العودة إلى ما كانوا عليه، وغاية ما ورد في القضاء في الكتاب، التحذير من أنهم لن يفسقوا وهدنوا، في اللبذل التي تأوهم، أنه سيسلط عليهم من ينقم منهم كما تم في المرتين الأولى والثالثة . فخصم ختام الآية إعلان رجاء أن تسيطر رحمة الله فيعيشوا في الأماكن التي يقعون فيها عيشة عادية لا خوف فيها. وأنهم لن يفسدوا وطمعوا في الشر فإن القهر يتركدهم ويحل بهم ما مثل ما سلطه الله عليهم لما عمروا بيت المقدس . وقد تدمروا وحكوا المؤامرات بعد تلك فكان آخر ما أوعدهم الله أن سلط عليهم في النصف الأول من القرن العشرين الحكم النازي، الذي خضعوه بعد الحرب العالمية الثانية، واستكروا عطف العالم عليهم، ورجعوا إلى إجازتهم واستلوا أرض فلسطين من أهلها وتدمروهم، وجرمهم من العودة إلى ديارهم . ومكنوا كل يهودي من الاستقرار في ممتلكات الفلسطينيين، ومنعواهم من تكوين دولتهم، ثم تابعوا التكتيل بهم والتفتيل والاضغاث. وسلطوا على العالم بقوة إعلامية خبيثة، فصاغوا المغول صياغة منحرفة تخدم مخططاتهم. وسيفد الله ما لو عدهم لا محالة . هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فالعالم هو ما جعله الله من أن جهنم ستكون جامعة حاضرة للكافرين لا يجنون عنها مخرجًا، وهم قد كفروا برسول الله في تاريخهم، واستلجوا نداء بعضهم، تم كفروا بمحمد، فختام الآية يشملهم أولا وينسحب على من كان مثله.

إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي مِنْ أَقْوَمٍ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّنْ يَمْلِكُونَ الصَّالِحِينَ
لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ وَإِنْ أَلَّنَ الْإِنْسَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَفَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾

معاني الألفاظ :

لِلَّذِي مِنْ أَقْوَمٍ : للطريقة التي هي أقوم .

الْأَجْرُ الْكَثِيرُ : هو الجنة أولاً ويصحب ذلك الرضا في الدنيا والآخرة .

أَعَدْنَا : أحضرنا وأعدنا

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد إن القرآن الحاضر في قلوبكم الممنعم هذه في بصائركم الذي لا يشتهيه بغيره، يسير بكم إلى الطريقة التي هي أقوم من جميع الطرق . وينبئ على ذلك تقديم البشارة للمؤمنين الملتزمين بالعمل الصالح بأن الله كتب لهم أجراً لا تحد حدوده . ويبيّنهم بأن الذين يسرون في طريق ممالك فيكذبون بالبعث أن الله هباً لهم عذاباً يحسون بالمه العظيم .

بيان المعنى العام :

9-10: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي مِنْ أَقْوَمٍ... أَفَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

ذُكِرَتِ التَّوْرَةُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَسُجِّلَ الْقُرْآنُ بَعْضُ مَضَامِينِهَا، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِيهَا مَضَى أَنْ اللَّهَ لَأَخِرَ لِلْإِسْلَامِ وَلِنَبِيِّهِ مِنَ الْمَزَايَا مَا لَمْ يَجْمَعْهُ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ . وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُعَلِّنةً بِمَا اسْتَبْدَنَاهُ، فَأَحْضَرَ الْقُرْآنَ حُضُورَ الْمَشَاهِدِ الْمُرْنِيِّ الَّذِي لَا يَخْتَلِفُ بغيره (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ) وَأَجْرَى عَلَيْهِ الْأَوْصَافَ الْمُمِيزَةَ :

أولاً: هو يرشد البشر، جميعهم من حضر منهم زمن الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ويدعوهم إلى الطريقة التي هي أقوم الطرق، وأبلغها سداداً وخيراً . ومعنى تفضيلها (القوم) أي من كل الطرق الأخرى . فتتألا القرآن مفضلاً مشرقاً ومهاجاً تتألا النجوم التي تهدي المسافرين أيضاً كانوا . وتزداد المقارنة بين القرآن وبين التوراة وضوحاً باعتبار أن القرآن يحمل إلى المؤمنين به الذين يعملون الصالحات بشارة هي أجل من أن توصف أو تحدد أبعادها، هي أجر وثواب كبير . واستحضرت أيتها التائي ما قضى به في التوراة: **وَقَضَيْنَا** لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفَسِّنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ... وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً . تكشف لك المقارنة بُعد ما بين الأمة الإسلامية وبني إسرائيل .

وما ذكر في الآية (9) هو بشارة للمؤمنين، إذ أعلن القرآن عقوبة الذين يقصرون تصوراتهم للحياة على الحياة الدنياه، الذين يتسلطون في قيادة موكب الشر والفساد .

ويتجهون إلى الشهوة واللذة ولا يقيمون للبعث حساباً، يشر الله المؤمنين بأن هؤلاء الذين يسبرون في خط معاكس لهم أن الله قد أعد لهم عذاباً أليماً، هم ناجون منه.

وَيَذُرُ الْإِنْسَانُ بِالنَّمْرِ عَقَاهُ، وَالْحَمْرُ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
الْيَقِينَ فَخَوَّضَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ وَكُلُّ شَيْءٍ مَّعْلُومٌ تَفْصِيلًا ۖ وَكُلُّ إِنْسَانٍ
أَلَمْنَهُ لَأَن يُهْرَقَ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَفًّا ۖ آيَةَ الْمُنشُورِ ۖ أَفَرَأَى
كَيْفَ تَنصِفُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۚ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَنَا لَتَاقٍ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَجُودُ عَلَيْهَا وَلَا يَزَالُ لَازِمًا لِّأُولَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا لَمُبْتَلِينَ حَتَّىٰ تَقُومَ رُسُلًا

بيان معاني الألفاظ :

دعا الخمس : طلب إحصاءه.

المحور : العلمين بمعنى العداًم النور ،

مبصرة : مساعدة على إريك المبصرات .

المفصل : التبيين و التمييز

مطالعه : حفظ، وما قدر له .

کتاب : ما سجد من عملہ.

الحميد : الحاسب.

القر: نَحْمِلْ ثَقْلَ تَبَاعَةِ الْمَعْصِيَةِ أَيْ الْإِثْمِ .

بيان المعنى الإجمالي

رغم أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فإن العجلة التي خلق عليها الإنسان، تجعله لا يبريث في أخذ قرار الاختيار ولا يعمق النظر فيما يريد أن يحصل عليه بتبني المآلات البعيدة في الدنيا والآخرة. فتتفجع السرعة إلى العمل على تحقيق ما يطلبه، فيستولي عليه عامل الجهد بالعواقب وعامل السرعة، فينتهي إلى أن يكون طلبه للخير مساوياً لطلبه للشر في المال. وجعل الله الليل والنهار يتعاقبان على الكون وفي كل منهما دليل على الحكمة والدقة ورعاية مصلحة الإنسان في الوجود. إن الليل يستر الكون بظلامه وتتكفئ فيه الحركة سكناً يُمكن الإنسان من الاستجمام،

ومن التأمل العقلي والروحي في عمق وهدوء، والنيار تكون قدراته على العمل والحركة والإنجاز تتم وأكمل.

ومن أسرار هذا للتعاقب بين الليل والنهار، أن ملاحظتهما مكنت الإنسان من ضبط التوقيت والأجل في للمعاملات وفي الزراعة وفي التقديرات بمختلف أنواعها، كما لوثق بثلثكم الملاحظة إلى اكتشاف قولين الحساب التي ما تزال تتطور تطورا جعلها الركن في كل تقدم للعلوم الصحيحة، وما تبعها من خيرات .

ويثبت للقرآن أن حظ كل إنسان من العمل الصالح أو من عمل السوء ومن الطاعة أو المعصية ثابت في علم الله، وعلم الله لا يقبل التبدل فنلك الحظ كالقائدة المحيطة بالعنق، لازمة له خاضع لها خضوع من نفسك من عنقه. هذا في الدنيا، وفي الآخرة سينجد كل ما قدمه حاضرا أمام عينيهِ بيّنا واضحا، فيحكم على نفسه إنه لا يوجد حساب مقنع كحساب الإنسان نفسه. ومن الطائفة سبحانه أنه تكتب على نفسه أنه لا يعذب البشر بالمذاب الماحق على كفرهم، إلا بعد أن يبلنهم وحيه عن طريق رمله، فله الحمد والشكر على الخلق.

بيان المعنى العام :

11- ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وسكان الإنسان عجولا .

هذه الآية مثار تساؤل من المفسرين في موقعها وفي المراد منها، يقول الشيخ ابن عاشور : موقع هذه الآية غامض، والتزاع المعنى من نظمها ولفاظها أيضا، ولم يأت المفسرون بها يشرح له الصدر¹.

قد يكون ذلك تابعا لفهم الكلمة التي فتحت بها الآية "يدع" المكتوبة بدون ولو تبعنا لخط المصحف الأول. إذ حللوا على الدعاء بمعنى الطلب من الله . ولا أريد أن أحليل بحجب كلامهم، ولكني أعرض ما لاح لي في الآية.

جاء في تاج العروس؛ ودعا بالكتاب؛ استحضره؛ فيكون المعنى : إن من شأن الإنسان أنه يدعو، يطلب تحصيل ما ليس عنده، وهذا المفرد عنه قد يكون فيه الخير وقد يكون فيه الشر، فهما مستويان في علمه لجهله بالمآقية، وإن كان الأمر معلوما على الحقيقة عند الله. ولما كان من طبع الإنسان أنه حريص على الوصول سريعاً إلى ما مال إليه. قلن هذا الحرص الذي جبل عليه البشر من العجلة يجعل

¹ التحرير والتنوير ج 15 ص 41

² ج 8 ص 62

تأملهم قاصراً في موضوع ما هو مفقود عندهم ومطلوب لهم، تغلبهم الشهوة لنيله فلا يتبينون المآلات البعيدة، فيستوي الشر والخير. وقد أفسد أن داعية هذه العجلة مثرثة عن استحضار الإنسان فصر عمره في لكون، وفي كل لحظة تذهب لا تعود، وأن الغناء يلاحقه. فإذا أردنا ربط هذا المفهوم بالأية السابقة بأسوح لنا: أن الآية السابقة حكمت أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي للمسلك الذي هو أقوم من جميع المسالك الأخرى. ويتفرد بأنه يقيم التفسير البشري على الموازنة بين البدائم الباقي من رضا اللهويين البرائق الغلبي الذي تدفع إليه العاطفة والشهوة. فيدعو القرآن بذلك لتخاذ قرار الاختيار على التأمل والنظر البعيدة والتؤدة لا على العجلة ويحذر منها. فتكون هذه الآية متممة لمضمون سابقتها، تكملها من حيث أن القرآن إذا كان يهدي للتي هي أقوم، فما يقع الناس فيه من شر رغم هداية القرآن، هو سبب عن اندفاعهم لتحصيل ما يطلبونه بسرعة، دور أن يترشوا حتى يتبين لهم ما يمكن فيما يطلبونه من عوائق مشتملة على شر توجب انصرافهم عنه.

12- وجعلنا الليل والنهار آيتين... فصلناهما تفصيلاً.

التقابل في بناء الكون كالتقابل في قيم الأشياء، يهدي للقرآن لتبين كل ذلك. كان للقرآن هادياً للإنسان هداية عامة، وأنه إذا ترك لنفسه قد يختلط عليه الخير بالشر. وعلى هذا الوزن ظاهرة تقليب الليل والنهار، توالي الليل والنهار جعل الإنسان يغفل عما في ذلك من صنع الله العجيب. وعمل القرآن على إيقاف ذهن وتكرار لفت النظر إلى هذه الظاهرة ليفوده النظر إلى الإيمان بالخالق وحكمته.

الليل والنهار وهما يتعاقبان على الإنسان والكون: التأمل فيهما يقيم للإنسان على يدوع الصنعة والتقدير المحكم، فإذا تأملت أيها الإنسان في الليل تجده يلف الكون بظلامه، فتتأثر علاقتك به، وبحجبه عنك فيختفي كأنه غير موجود. فيكون الليل مؤثراً في الكون وفي علم الإنسان به في وقت واحد. وبالمقابل في النهار يجعلك تحس بما أودعه الله في هذا الكون حسب قانون الرؤية الدقيق، فتبصره ويصل بينك وبينه. ومن بالغ الهداية القرآنية إظهار الغاية من تقليب الليل والنهار في قوله:

أولاء لتبينوا فضلنا من ربكم. ففي النهار يفشط الإنسان ويولد بعمله الخيرات، وذلك فضل، وفي الليل يستريح فتتجد طاقاته من ناحية، ويجد العالم في مكانه جونا على التمتع في النظر، وكثيراً ما تفتح له مغالق كان باب الولوج إليها مستوداً، وفي قيام الليل فضل عظيم لمن يوظفه الله وييسره له، ولذا فيأتي أرجح أن يكون التعليل (لتبينوا فضلنا من ربكم) في النهار والليل.

وثانياً: لتعلموا بمتابعة التحول بين الليل والنهار على نظام دقيق لا يختل، تعلموا عدد السنين، أي والشهور والأيام، فتضبطوا أعمالكم وتربطوا علاقاتكم بمسار الكون كله. وهو باب ملهي ملحوظ تجاوزه الإنسان إلى التجريد، فبلغ علم الحساب الذي طوره الإنسان عبر الأحقاب، وما يزال البشر يكتشفون من قواعده ما ينفذون به إلى المعرفة الصحيحة لا التخريبية.

وما لفت إليه الأنظار يدخل تحت قاعدة أساسية تربط تلكم المظاهر كلها بالنظام للصارم الذي لا تدخل فيه، فصلاً متميزاً صادرًا عن علم. وتجد في القرآن منهجاً يحق لهذا التفصيل بلوغ الغايات التي ترقى بها المعرفة، ولا يعزلها عن حلقها مما يتبعه نجاح الإنسان في خلافته. فارتبطت الآية بقوله تعالى: **إن هذا القرآن يهدي** **لنبي هي الكوم.**

13- 14، وكيف إنسان الزمناه طائره في علقه... عليكم حسيباً.

وهذا من هداية القرآن، إذ كشف لكل فرد أن عمله في الدنيا وحظه من الأجر على صالح عمله والائم على ما قارفه من سيئات، موثق ملازم له لا يفارقه. هذا هو معنى الجزء الأول من الآية. وليربط هذا المعنى بصياغة الآية أقول: **إن كلمة طائر مرتبطة بما جرت عليه الحياة العربية، إذ كانوا كلما أرادوا سفراً أو رغبوا في التعرف على الغيب، نظروا في أول طائر باليهيم فإن كان من جهة اليمين يمينوا بذلك ومضوا، وإن لئاهم من جهة الشمال تشاموا وأعرضوا. وكذلك كانوا يفعلون إذا القسوا ما هم فيه شركاء رموا بفراطين مكتوب في كمل واحد منها اسم صاحبه، ثم يرمون بهاء فكل واحد يأخذ السهم الذي وقع عليه الفراطيس المرفوم بأسمه. وقد يفعلون ذلك بسهام مكتوب عليها فيطير السهم الذي ركب في قائمه الريش لمساعدته على الطيران. ومن ذلك توسعوا لأطفالوا على حظ الإنسان من خير أو شر طائره. وقوله: في عقه يقصد منه عدم مفارقة حظه له، هو كالتفاداة المحبطة بالعق فما عمله من خير أو شر ثابت مقصور لا يصط بهال. ثم إن ما تطوق به عقه، سينكشف في كتاب يفراه مساحبه، مواء أكل أميا أم قارنا، يظهر فيه جميع أسائه خيرا وشرها. وإن كان التعبير بكتاب فإن الذي لوجه أنه ليس من نوع الكتابة المعروفة في الدنيا بحروف في فراطيس. ولكنه ثبت من أمور الأخيرة يختص بالشمول والوضوح، يجده كل إنسان حاضرا بين يديه، فينظر فيه فيلبي كل عمل قام به في الدنيا، وأطلق النشر: منشورا لتأكيد ما فهمته من أنه ليس فراطيسا يطوى أو يمكن إخفاء صفحة من صفحاته. ثم يقال له: اقرأ كتابك وتتت**

وَالْأَجْرُ أَكْبَرُ ۚ رُحِمَتْ وَأُكْمِتْ تَفْضِيلًا ﴿١٦﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ
مَذْمُومًا مَتَدُولًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرية : المجتمع السكاني الذي يسكن الدور المبنية.

متمرفون : أهل النعمة ومعة العيش.

فسقوا : خرجوا عن المنهج المعطر لهم.

القول : التوعيد الذي أنذرهم به رسولهم.

التفسير : أصله هدم الثبنا وإزالة آثاره، والمراد به الاستئصال.

العاجلة : متاع الحياة الدنيا.

ما تشاء : ما تختار إعطاهه .

بصلاها : يحترق بها.

مخدورا : مطرودا.

لنعمي : أصله، مرتبة في المشي لكل من العذو. والمقصود: مواصلة العمل.

الإمداد : استرسال العطاء وتتابعه.

مختورا : ممنوعا.

النشر : الرؤية البصرية التي يعقبها التدبر فيما وراء المبصرات.

لترجأت : مراتب المؤمنين في الجنة.

لمنوم : المذكور بالموه والعيب.

مخدولا : الذي تخلى عنه لاصره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي سنة الله: أنه يبعث الرسل لأهل أي قرية من القرى ليهديهم إلى التوحيد ويفرر التشريع الذي يصلح الأفراد والمجتمع، فيقابله المتوكون الذين أسد فطرتهم للنعم بالرفض ويستجهم الهدماء. وبعد أن كانوا غير عالمين بالحلال والحرام والصلاح والفساد، ينقلبون بما يلهمهم الرسول مكلفين بما جاءهم عن ربهم، فمن أطاعه كان صالحا ومن عصاه كان فاسقا. فإذا ظهر الفسق في القرية وعم واستشرى الفساد، يحقق الله ما أنذروا به، فتتعلق الإرادة الإلهية بإجاز إهلاكهم فيدمرهم تدميرا يأتي على جميعهم. ويحقق القرآن أن هذه سنة الله مضت مع القرون التي تتابعت بعد نوح، فكما تمرد قرن على رسوله تعرض للانتقام. وربك

يا محمد فكيف شئهم فلا حاجة لك بمن ينصرك، إنه يعلم ما تكفه صدورهم وما يقومون به من أعمال شريفة بحصيتها عليهم، ليجري عليهم سنته في القرون التي أملاكها قبلهم.

إن القاتلون الذي بنى عليه الله أمر الخلق أنه جعلهم مختارين، فمن اختار متاح الحياة الدنيا، وقصر همه على المنظور القريب من ذلك، فإن الله يقدر من يشاء ذلك، ولا يجعله عاجزا عن تحصيل ما لا يريد الله منعه منه، وسيتكون عاقبته عذاب جهنم مع نومه وطرده من رحمة الله . وبالمقابل فلن من تعلقت همته بالثبوت في الحياة الآخرة فامن وعمل بما يقتضيه الإيمان فإنه ينال جزاءه شاء على عمله في الدنيا والآخرة.

إن رحمة ربك يا محمد بتتابع بها إمداد من وقف حرصه على متاح الحياة مما قدره له، ويواصل إمداد المؤمنين بخيرات الدنيا والآخرة. إن سعة رحمته لا يحرم منها كافر ولا مؤمن. كل ينال حظله منها حسبما قدره ونظمه بعلى حكمته.

انظر يا محمد متديرا فيما يجري في الكون أممك، نجد مؤمنا صالحا موسعا عليه وآخر ضيقا عليه، وإن كان نشاطهم واحدا، وكذلك مقابلة رزق الكافر بالمؤمن أو بالكافر. مما ينادي أن ما يمكن الله منه الإنسان من حظوظ الدنيا هو من صنع الله وحكيم تدبيره، يعجز البشر عن إدراك أسواره، ولكن الأمر في الآخرة تتفاوت في الدرجات التي يرقى إليها أهلها، كما يختلفون في الفضل الذي يتفضل به ربهم عليهم، وللصلاح أثر في ذلك.

ثم توجه القرآن لكل من يمكن أن يتخذ إليها عن دون الله ناهيا له أن يفعل ذلك، مبيها للعاقبة؛ أنه سيكون أسير النعم مذكورا بسوء تدبيره وخسة عقله، وإن من اتخذها إليها فعبده لا يعينه ولا ينفع عنه سوءا ولا يجده عند الأزمات .

بيان المعنى العام :

16 - وإذا أردنا أن نهلك قرية..فندمرها ندمرها.

هذه الآية تعطي صورة تطبيقية لما جاء في الآية السابقة 15 - وحاصل ما نفهده؛ أن الله إذا أراد أن يهلك أي قرية فلا يدفع لما أراد، فكيف يتحقق ذلك في الوجود وما هي سنته في ذلك؟ إن الله يبعث من يبلغ رسالته التي يعلن المترفون من أهل القرية، وهم الأغنياء الذين انضموا في ملذاتهم واتبعوا شهواتهم، يهلكون عن رفضها ويؤثرون في اتباعهم وفي الهدم ليسيروا على طريقهم، فيصنم المترفون واتباعهم أذنانهم عن قبول ما جاء على لسان الرسول، ويرفضون الإيمان بالله

وباليوم الآخر وبال حساب، وعلو المنكر ويستقل، وبعم الفساد وانحطاط الأخلاق، وعند ذلك حين أجل ما أنفروهم به الرسول فتعلق إرادة الله بإنجاز ما لو عبده ويدمر القرية تدميراً لا يبقى لها أثر.

فالإرادة معناها تعلق إرادة الله بإنجاز وعده وتحقيقه من إهلاك القرية التي عصت وأعرضت عن قبول ما جاء به الرسول.

أمرنا مترفيها : هو الأمر بالتباعد كل ما جاء به الرسول، وهو في الحقيقة أمر لجميع سكان القرية. ولكن الذين يتقنون لمحااجة الرسول وتحبسه، هم للدين أقسدهم للتعليم ووفرة المال، وبرزوا في المجتمع قيادة يتبعون، لأن شأن الاجتماع البشري أن الدهماء لا يستقون بعرض أرائهم ولا يعلو صوتههم بالقرض في البداية. إذ يقوم بهذا الدور أصحاب الثراء المنهمكون في اتباع شهواتهم، الذين يشرع الرسول ما يلجمهم عن الاستمرار، ويفقد حريتهم الفوضوية يقانون لروح المحقق للمصلحة . ثم يتبعهم الضعفاء .

ولما كانوا غير مسؤولين عن أعمالهم قبل بعثة الرسول، لقوله تعالى في الآية السابقة: **وما كنا بمعنيين حتى نبعث رسولا** - فإنهم بعد بعثته وقيامه بتبليغ شرع الله يعتبر من لا يطبق ما أمر به فاسقا : أي خارجا عن هدي الله . ويعمل الرسول في صبر على قضايعهم، وتوضيح أن صلاحهم هو في التحول عن الرذيلة إلى الفضيلة، وعن الكفر إلى الإيمان. ولكنهم في النهاية يصرون على ما هم عليه ، فيعاجلهم الله بما لو عبدهم ويحرم مساكنهم للعذاب استئصالا لا قيام بعده . فقطع دابر لقوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

17 . **وصكك أهلكنا من القرون من بعد نوح - تخيبروا بصيورا .**

لأكيدا لسنة الله في تدمير قري الفاسقين المعمرين بعد الإذلال ، بذكر القرآن أن الله قد أهلك أقواما في قرون كثيرة متلاحقة، بعد أن أهلك قوم نوح بالتدمير الذي أنشأ على الأرض كلها فأغرقها ومحق الكافرين منها. فقوله وكم أهلكنا: يفيد أن الذين سلب عليهم التدمير بعد نوح كانوا كثيرين في قرون عديدة؛ والقرون المدة الطويلة تختلف في تقديرها من أربعين سنة إلى مائة وعشرين. ولكن معناها في الآية مدة طويلة غير محددة بعدد من السنين.

وختمت الآية بما جرى عليه القرآن في مناسبات كثيرة من إظهار عذوبة الرب برسوله وتبليغه، إنه سبحانه عليم بما تكنه صدور الكافرين، وما يدبرونه في خفاء، وما يقومون به من الأعمال الخبيثة لتوقيف مد الدعوة . لا يغيب عن علمه ما

يجري في بواطنهم، ولا يخفى عنه أي شيء صدر للوجود. إن ذلك التأييد يكتفيك عن طلب اللون من غيره سبحانه، فأنت غير محتاج لمن ينتصر لك ويدافع عنك، فقد تولى أمرك ربك. وفي ذلك تلويح بالتهديد للمشركين بأنهم معرضون لتسحب عليهم سنة الله في القرون المكدبة التالية لعهد نوح.

18- من كان يريد العاجلة عجلنا لهم سيئاتهم مضكورة.

بين القرآن من الآية 13 عقوبة المكلفين تبعاً لصلاحهم أو فسادهم، وصرح في هذه الآية بحقيقة: هي أن الإنسان مختار لا مجبر. وأنت إذا تتبعته أحوال الخلق وجدتهم على نوعين :

النوع الأول: الذين اختلوا نعيم الحياة الدنيا وجعلوه كل همهم والمقصد على ما سواه، ونفوا من تقديرهم ومن سلم قيمهم ما يتعلق بما وراء الحياة العاجلة التي يعيشونها. هؤلاء لا يحققون طموحاتهم الدنيوية بقدراتهم، ولكن الله هو الذي لحكمة مستورة عنا، يعطي من منافع الدنيا لبعض أحياء الدنيا ما قدر أن يصل إليهم. فهم لا يحققون من طموحاتهم تلك إلا ما قدر الله أن لا يحول بينهم وبينها. ثم هم في النهاية يوم القيامة سيصلون نار جهنم مذمومين، تملأ مخازيرهم ويكفون عن منازل الكرامة.

النوع الثاني: الذين تعلقت همهم سامية إلى الفوز بالسعادة في الدار الآخرة. يتمتعون بعزيمة ماضية، تقاوم مغريات الحياة الدنيا، ولو زرع الشهوة، وتعمل بجد ملتزمة بتطبيق شرع الله، وتجد لفتها في جمال الطاعة. هم يسيرون سيرا موصولاً بدون انقطاع، السير الموصول لما يحقق الفوز في الحياة الآخرة. الإيمان الفاعل واضح في عقولهم وأرواحهم. وليس الإيمان بالتمنى ولكن الإيمان المحرك لفعل الخير والابتعاد عن الشر، هو معنى ومسمى للأخرة سبحانه الخاص بها الذي لا تغشاها أوشة من الغرور والفساد والزيلة. هم متميزون إذن، ولذلك أشير إليهم بقوله تعالى: أولئك نحن سبحانه مشكوروا. سبحانه مقوم بقيمة الشكر عليه والرضا عنه من مبدئه في الدنيا إلى يوم القيامة.

20- كلا لقد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا.

هذه الآية مؤكدة لمضمون الآيتين السابقتين لطرد أي تصور إنشائي مضمونيهما فبالنسبة للنوع الأول، فإنه وإن كان منحرفاً عن طريق الهدى، تغلب عليه الانانية والنظرة القصيرة، ويشيع الفساد بملوكه ؛ فإن الله رغم ذلك يواصل إمداده حسبما

قدره وثبت في سابق علمه فلا يحول بينه وبين التحصيل على متع الحياة الدنيا، ولا يعاجله بقطع الأرزاق.

وكذلك النوع الثاني هو يستمد من فضل الله أيضا سعادة في الدنيا، وسعادة في الحياة الآخرة. إن عطاء ربك يا محمد وفضله على خلقه عام شامل لا يحرم منه أحد حرمانا كاملا. ولا مفاضلة في الحياة الدنيا ونعيمها بين فعل الخير والتفضل، وبين فعل الشر والحرم. إنه لو كان الأمر كذلك لثرب عنه انتهاء التكليف والاختيار، لأنه إذا كان كل من ضل الطريق يحرم سريعا خطئه في الدنيا وكل من يفعل الخير يعطى العطاء الوفير في الدنيا، لكل البشر كلهم يسعون إلى الخير .

21- الاختلاف الكبير في الدنيا... وأكبير في الآخرة.

أمر الله رسوله أن يستعرض أحوال الناس استعراضا يفضي إلى إدراك ما جاء في الآية السابقة. راقب ما تفضل الله به على البشر فوجد أنه لا يوجد محروم، وإن حفظت الناس مختلفة، فيعض المؤمنين فد وسمع الله عليه وبسط له في الرزق، وبعضهم قد ضيق عليه. وكذلك عندما تشارن بين الكافرين فيما بينهم وفيما بينهم وبين المؤمنين، مما يخلص منه الناظر إلى أن الغنى أو الفقر على مختلف درجاتهما لا يرتبط شيء من ذلك بالصالح أو الفسق.

وينطلق التدرج في ذلك إلى فضية من فضايا الآخرة التي يظهر فيها التفاضل المرتبط بالتقوى وبالمعمل الصالح. فجاء الآخرة وما يتلوه كل فرد من نعيم الجنة تختلف فيه درجات التعميم بصفة أكبر، كما تكون مراتب الفضل التي يعطيها الله متفاوتة تفاوتًا عظيمًا. أخرج البخاري ومسلم بمسندهما إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الجنة يشترعون المعروف من فوقهم كما يشترعون الكوكب الذي لا غبار من الأفق من المشرق أو المغرب للتفاضل ما بينهم فآلوا نيا رسول الله تلك منازل الأنبياء . قال بلى والذي نفسي بيده رجال أملاوا وصنفوا المرسلين¹.

22- لا تجعل مع الله إلها آخر فتفقد مذهبنا مقدسًا.

قرر معظم المفسرين أن الخطاب لولا لرسول الله ويتناول كل البشر. والذي لطمانت إليه أنه خطاب لكل من يتلقى خطابه ويسمع هذا النص القرآني . كقولك لا تكثر الكلام فيكثر سقطك، وعلى هذا تجري صياغة النص .

قائلة نهي لمن يمكن أن يتأتى منه فعل المنهي، أي الإشراف بالله وإعطاء صفة الألوهية لغيره سبحانه. لأن ذلك مما يتبعه أن يتسلط عليك تسلطاً لا تستطيع الانفكاك عنه، اللوم والخذلان. أما اللوم فهو الذم وما يصحبه من استهزاء بمن أشرك بالله ما لا يبصر ولا يسمع وهو أضعف من أن يدفع السوء عن نفسه. وأما الخذلان فإن من أشرك بالله واتخذ إلهاً من دونه فقد اعتمد على من لا يقدر على نصره، ولا يسعده بالعون عند ضعفه.

• وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ زِيَالُوا لِلَّذِينَ خَسَنَ إِمَّا يَلْعَنُ سَبْدُكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُخٌ وَلَا تَقْرُبْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٦﴾ وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّحَتُمَا رِجَالِي ضَبْحًا ﴿١٧﴾ وَتَكَرَّرْ أَغْلَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوْبَارِ غَفُورًا ﴿١٨﴾ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَآلِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ تَبَذِيرًا ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّتْمِيزِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّعْطَلِينَ وَكَانَ الشَّعْطَلُ بَرْزَخًا كَفُورًا ﴿٢٠﴾ وَإِذْ تَقَرَّبُ عَنْهُمْ أَيْفَاءً رَحِمَهُمْ رَبُّكَ تَرْجُوهُمْ بِقُلْ هُمْ قَوْلًا مَّشُورًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولًا إِلَىٰ نَفْسِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ النَبْطِ تَتَقَعَّدَ مَلُومًا ﴿٢٢﴾ إِنْ رَأَيْتَ نَبْطَ الرِّزْقِ لَمْ يَنْشَأْ وَيَقْدِرْ إِنَّهُ كَانَ بِعَيْنَيْهِ خَبِيرًا ﴿٢٣﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَلْقَىٰ عَنْ نَزْلِهِمْ إِنَّا نَكُنُّ قَاتِلِيهِمْ كَانَ جُحُكٌ كَرِيمًا ﴿٢٤﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَجْشَةً وَمَا سِبْغًا ﴿٢٥﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ غَلُوبًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٧﴾ وَأُولُوا الْكَيْلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَلَدُوا بِالْقِسْطِ السَّتِيمِ ذَلِكَ حَقٌّ وَأَخْسَنُ فَأُولَا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ تِسْ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الشَّيْءَ الْبَصِيرَ وَالْقَوَا كُلَّ أَوْلِيَّكَ أَنْ عَنَّا مَسْئُولًا ﴿٢٩﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ

الْجَبَانِ طُولًا ۖ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ۚ ذَٰلِكَ بِمَا أَوْخَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ اٰخَرُ فَتُكَلِّفَ فِي حُجَّتِهِ مَلُومًا مِّنْ حُورٍ ۝۱۱

بيان معاني الانفاذ :

فضى : أمر إلزام.

الـ : اسم فعل يدل على الضجر أو التفر.

النهر : إظهار الغضب في الصوت، أو في صيغة الخطاب.

القول الكريم : الجامع بين اللين وجمال اللفظ والمعنى.

جراح الدل : لا تتعاطف عليهما، بل ليكن مظهر مظهر الذليل الراحم لهما.

صالحين : الصلاح في هذه الآية يدل على الامتثال لما سبق بسطه في الآية.

أولي : كثير الأوبة بمعنى الرجوع إلى الله.

التيذير : إغفاق المال في غير الوجوه النافعة الصالحة.

الإعراض : ضد الإقبال قصد به عدم الإيتاء.

الميسور : اليسر بمعنى اللين المقبول.

مقنونة : مقيدة بالغل وهو السير الذي تقيد به يد الأسير.

المحصور : المنيهوك القوى.

ببسط الرزق : يوسع فيه.

يقدر : ضد يوسع، يضيق.

الإملاق : الفقر.

الخط : الإثم، بالحق، بالعدل.

مسلطاناً : قوة .

المعرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق .

أشد : قواه في العقل والتجربة والنظر لنفسه.

ولمى : أعطاه كاملاً غير ناقص.

المستطاس : آلة الوزن .

المستقيم : السوي، المعتدل .

لا تفع : لا تتبع.

ميسور : محاسب.

مرحاً : مشية تتبى عن زهو المر بنفسه، وتكبره .

تخرى : لن تمزق أديم الأرض.

الحكمة : معرفة الحقائق معرفة عميقة كاشفة لا خطأ فيها.

تلقوا : تطرح في الأسفل مهانا.

مشجورا : مبعدا من رحمة الله.

بيِّنْنا المعنى الإجمالى :

نقد الزمكم ربكم بأمر لا منقوية فيها تشمل :

لولا : إفراده بالعبد فلا تعلق الأمل إلا به ولا يخضع أحد إلا لشريعته.

وثانيا طاعة الأبوين ومعاشرتهما بالطريقة التي هي أحسن من غيرها. وخاصة عندما يبلغ الكبر أحدهما أو كلاهما، فيضعف الكبير عن القيام بما كان يستطيع أن يستقل به قبل ذلك. فلا يباشرهما بكلمة أو إشارة تدل على التقصير أو خارجة عن حدود الاحترام. ولينلطف في توجيههما إلى التي هي خير فلا ينهرهما، ولينحترس من الصيغ ما يعتبر من الأدب في عرف المخاطب. وليكن لينا معهما غير متغطرس تبدو الرحمة من مجلسه وخطابه وطريقة تعامله. ثم إنه يدعو لهما بالرحمة، الرحمة الصادرة عن الطبع كما ربياه ورحمته عندما كان صغيرا. والله يعلم ما هو كامن في صدوركم أكثر من علمكم به. وأنه سبحانه لعظيم فضله بقبل من التوابين العائدين إلى السلوك الرشيد ويغفر لهم تقصيرهم. ويشمل هذا حالات التصبر مع الأبوين وحالات الانحراف الأخرى عن الجادة.

ثالثا: معاملة الأقرباء، الواجب منها كالانفاق على الوالدين والزوجة والأولاد والمندوب إليه ممن تتصل بهم بنسب أو قرابة.

رابعا : معاملة المساكين والمساكين المنقطعين عن أموالهم.

ويقول القرآن يرشاد المؤمن إلى المسلك الذي عليه أن يتبعه في بعض الظروف الاستثنائية، هي صورة ما إذا كانت إمكاناتك لا تقدر معها أن تقوم بما ينبغي نحو نوى الغريب والمساكين، فلنكن راجيا أن يساعد ربك من رحمته الواسعة بفضله، وخاطبهم بالقول اللين الذي يفسح في أمهاتهم ويعوضهم عن مرارة الحرمان من العطاء بالأمل في المستقبل .

خامسا: التوسط في التصرف في المال بين الشح والتبذير، إياك أن تستولي الشح على قلبك فتكون صورك صورة الأسير المقيدة يده إلى عنقه، فينصب عليك اللوم بما لا تجد له مدفعا. ولا تبذر مالك تبذيرا فتنتهي إلى وضع تعجز فيه عن القيام بحاجاتك .

ولتعلم أن الشح لا يخنك، وأن التبذير لا يقلب من تتولى عطاءهم إلى أغنياء غنى لا تلحقهم الحاجة بعده ؛ ذلك أن العنى والفقر والعطاء والمنع، بيد الله وحده

بصرف تلك بحكمته، فهو العليم لولا بما يخفى عليكم، البصير بكل حالة على الوضع الذي تتم فيه قبل حصولها.

ملاساً: النهي عن قتل الأولاد خوفاً للفقر. إن احتلوا الحياة والحفاظ عليها من الأسس التي جعلها الإسلام في مقامة ما اعتنى به. والتهنى قوي رادع لمن قسا قلبه فحتمته نفسه بقتل ولده خوفاً من الفقر، إن الله واسع الرحمة كبير الفضل فهو يرزق الولد كما يرزق والديه وليس رزقه مكفولاً من والده، فإله لرحم يعياده ممن تحجر قلبه. إن قتل الولد خطيئة عظيمة .

سابعاً : تحريم الاتصال الجنسي غير المشروع . فنهى القرآن في أكثر من مناسبة عن الزنا وأدخله في هذا الميثاق وعلى النهي يسل الزنا قديح جداً مناقض للفطرة وهو أسوأ طريقة للإشباع الجنسي.

ثامناً: المحافظة على الحياة: نهت الآية عن قتل النفس التي أعزها الله فحرم الثعدي عليها بغير حق. والحق المسوخ لذلك هو إسلطة القصاص وحدها، وهو مفصل في كتب الفقه، ثم إن ولي المقتول ظالماً قد مكّله الله من المطالبات بالقصاص، لو الرضا بالدية. ولما كان ممكناً من رفع الأمر للقاضي الذي يتولى الإثبات ويقصر له من الظالم الذي قتل ولبه، فلا يتعدى ما مكّله منه الإسلام فيعمل على قتل القاتل وغيره لوهم أن المقتول له مكانة اجتماعية أرفع من قاتله.

تاسعاً: حفظ مال اليتيم. أمر القرآن بالحفاظ على مال اليتيم، ولا تصرف فيه إلا بالوجه الذي هو الأفضل لليتيم، لينمي له حتى يصل إلى سن الرشد المفصلة في الفقه عاشراً: الوفاء بالالتزامات الموثقة . أسر بالوفاء بالعهود التي وتنها المؤمن مع غيره وأنه مسؤول عن الوفاء بها في الدنيا والآخرة . إن الحفاظ على العهد إذا أصبح ظاهرة عامة نجت الأمة خالياً واقتصاديا.

حادي عشر: إيفاء الكيل والميزان. يتلاعب بعض الناس بحقوق المتعاملين معهم، فينقصون بحيل متنوعة ما يجب عليهم دفعه لهم. فنهت الآية نهياً مؤكداً عن هذا للخلل في التعامل وعن غش الطرف في الآخر بإعطائه أقل مما يستحق، وتخويل أنه اقتضى حقه كاملاً . يدفع إلى هذا الفساد استعجال الربح، فنهت الآية الناشطين في هذا الميدان إلى أن إعطاء المكيل والموزون وإفيا غير منقوص هو خير لهم في الحقيقة يمدركون هذه الخيرية ببركة وإقبال من الحرفاء وطبيب سمعة لهم ولوطنهم، كما أن مآلهم في الآخرة مآل حسن.

ثاني عشر: ليكون المؤمن يقظاً لمسؤوليته فيما يتخذه من قرارات بناء على حاصل ذهنه أو سمعي أو بصري، فالمفهوم الأول للعلم بأن لا يعتمد المؤمن الأوهام والخرافة والخيالات في الميادين العلمية والتجريبية والفضائية، والمقوم الثاني، تقويم أعماله بعد اليقين بميزان المسؤولية ومآلات أفعاله.

ثالث عشر: التواضع والهي عن التكبر، وجلب القرآن للصورة الحقيقية أن يتصور الشخص نفسه أعظم من الناس، فيمشي متشبه فيها خيلاء وتعد واحتقار، وهذا المغرور وهو يطأ الأرض بشدة وأهم، لأنه لا يستطيع أن يخرق أديم الأرض، يمز عليها كما سير عليها من يأتي بعده، ويرقع رأسه معرضاً عن الناس، وهو قزم بالنسبة للجبال .

كل ما بيته هذا الميثاق مما نهى الله عن إثباته أو عدم القيام به، يتحتم الابتعاد عنه بترك المعنى وفعل المأمور به، ويبدو للقرآن إلى أن التهانون بأي منها يخص على صاحبه ويسجل في كتابه عملاً سيئاً ومكروها عند الله يترتب عليه التباعد عن رحمته.

إن تلك الوصايا التي وردت في الميثاق هي من الحكمة الكاشفة عن الحقيقة في أعق أعماها، ما كان للأمين أن يدركها إلا بفضل الوحي الإلهي إلى رسول الرحمة ﷺ . وإياك أيها الإنسان أن تتخذ إلهاً من دون الله فإنك ستعصى على مستقبلك قضاء مبرماً، وتلقى في جهنم يوم القيامة مذموماً مبعداً من رحمة الله .

بيان المعنى العام .

23- 24، رفضي ربحي ألا تمهلوا إلا إياه... حكماً ربهاني صغيراً.

هذا المقطع من القرآن يهدف إلى بيان الأسس التي ينبغي عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع للتخفيف القوي الذي يستطيع أن يقوم بدوره في الخلافة بساح في الأرض، ويتواصل التركيز على تلك الأصول من هذه الآية إلى الآية 39. وهو بمثابة للميثاق الاجتماعي العام الذي يتعين على كل مسلم مراعاته، ويتعين على من يتولى أمور الأمة الإسلامية أن يكون منه علمي بصورة يصدر منه وبعود إليه، ويحمل تربية الأمة على منهاجه الراشد. فلنتتبع ما تضمنه الهدي القرآني في هذا المقطع:

-أولاً: أمرك ربك أيها الإنسان أمراً مؤكداً لازماً لزوم القضاء الواجب التنفيذ، أن تفرده بالعبادة، ولت صياغة هذا الأمر على صورة في الكشف عنها ما يثبتها ويبرر بلاغها المعجزة، تخير القرآن لفظ (ربك) ليحدد من أول العروض المسار الذي تهدف إليه هذه الأوامر الملزمة، إنها صاندة من ربك الذي أحاطك بالطفاه

وعونه ونمى قدرتك ويسر لك ما بلغت به الدرجة التي تستمع بها إلى هذا الأمر، وكل ذلك مما يوجب على المخاطب الطاعة والامتثال. أمرك أن تقرده بالعبادة، وإفراد الله بالعبادة مرتبة فوق العقيدة بالوحدانية، ذلك أن العبادة هي العظمى لما يجري في الفكر من تصور لمنزلة الإنسان في الكون، وهي المسورة العملية للعقيدة الباطنية، وهي العظيمة للسلوك. **إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر¹** إلى الفكر الذي يخضع لغير الله ويعبد هو فكر مختل، أسند العبادة لمن لا يستحقها وليس له على الفرد أي مزية تدعو للخضوع له. وإفراد الرب بالعبادة يتبعه القيام بكل ما جاء من تشريع وألب وعلاقات اجتماعية وإنسانية.

ثانيا بناء الأسرة. المجتمع المتماسك للصالح للحياة، هو المجتمع الذي يكون فيه بناء الأسرة بناء قويا، تقوم العلاقة فيه على تيم خلفية. والأسرة تتكون أولا من الأبوين فأمرت الآية بالإحسان لهما، وفي اختيار التعبير عن الأبوين بالومدين حكمته لتذكير بمنتها عليك، فكما أن الحياة التي هي أعز ما يملكه الإنسان هي عطية الرب الذي يرعاك في جميع تقابلتك، فإن الوسطة حياتك والودان. فيختار في التعبير عنهما بما يربط بين الأنس وبينهما (الولادة) وهنا يكون الأمر بالإحسان الذي هو مرتبة فوق القيام بالولجب. فالت مطالب في كل مناسبة، بالتعامل الذي هو أحسن. وهنا يدخل الاجتهاد في التطبيق لونساق إلى الأفضل والأكمل. ولمزيد من البيان في هذا الركن يعرض القران أوضاعا قد تذهل الولد فلا يوفي فيها بحقيقتها، فمن ذلك حالة الصجر، سواء أكان ذلك مسببا عن ضعفهما كجالة الكبر التي تغشى من العناية بمقدار ما يتألب المعمر من الأقسام، وضعف الذكر، وهن العظام وتراخي الموالسك، أو عن أحوال غير طبيعية في الولد كالضغوط النفسية من متاعب الحياة، فينبه القران إلى أن لا يبلغ به الصجر للتصريح بما يدل على عدم احتماله لهما ككلمة: **أف** وبحرها مما يؤذيها نفسيها، ومن باب أولى وأحرى ما كالب الإنسانية لش.

كما صرحبت الآية بتحرير زوجهما، أن رأى من أي منهما ما هو غير مقبول، فإن ذلك لا يبرر للعنف في النصح بقوة، وإن ظن أنه يحقق الردع، وجسم حسن المعاملة بتصوير العلاقة بين الولد وأبويه بالطائر الذي يخفض جناحه أمام الطائر الذي هو أقوى منه. وهذا التذلل لهما ليس ناشئا عن الخوف أو المداينة، ولكنه

وليد الرحمة لهما والعطف عليهما. وهو ما يدعو الولد إلى التفرح عليهما والدعاء لهما بعد موتتهما. وبر لصنقتهما، والدعاء من الولد لأبويه بالرحمة بعد وفاتهما مرجو القبول، لأن الله لن ينفى عنه: **وقتل رب رحمتك ثم رباني مستغرا** - ولما أكد حديث رسول الله ﷺ أن دعاء الولد الصالح لو أنفه يصل إليهما بعد موتتهما. ويقيم الولد بذلك ينتفع الوالدان بالدعاء وينتفع الولد الدعاء بامتثال للأمر الإلهي.

25- **ريحكم الله بما هي نفوسكم... للأبوين غمورا.**

لا شك أن العناية الكبيرة بشأن الأبوين التي أمر بها القرآن، والسياسة التي ذكرت فيها، وقرنها بعادة الله، ثم ما يلحق الإنسان من الضعف في حسن القيام على أبويه، خاصة إذا كان في طبعهما أو في طبع أحدهما حزنونة، وسرعة انفعال، فقد مهدت هذه الآية إلى أن ما يدر من الولد نحو أبويه قد يكون ناشئا عن ضعف بشري، ولكنه يكر لهما الحب والتوفير، فتلطفت الآية ببيان أن الذي يحاسب عليه الإنسان لولا وبالذات في هذه العلاقة هو ما وقر في قلبه من تقدير واعتراف بفضلهما، فربكم لا يخفي عنه شيء مما الطوت عليه نفوسكم وهو أعلم بها سنكم، وإليه لعظيم فضله يغفر ذنوب من نأب فأناب ورجع إلى ربه وتذكر تقصيره وتقريطه، فعمل على تذرك ما فات، واشتد بهدي للقرآن. وهذه للخاتمة نعم التقصير الذي يقع فيه المكلف في علاقته مع أبويه، أو في التزامه بشرع الله.

26- **واتذ، اقربى حقه والمسكين... وستان الشيطان لربه حكورا.**

في إطار العناية بالأسرة يطلب القرآن من المكلف أن يسعى لكل قريب حقه بموجب الفراسة. وحقوق الأكارب تشمل الحقوق المادية والحقوق المعنوية، وتشمل الواجب والمرغب فيه، فمن الحقوق الواجبة ما نينا للنفقة على الوالدين والزوجة والأولاد في الحدود التي حددتها الشريعة، ودون تفاصيلها الفقهاء.

ومن المرغب فيه الإحسان لمن تربط به اصرة قرابة أو نسب بما يشمل العون للمادي المحتاج والهيبة للفني والفقر، وللصلة المادية أثر كبير في تمكين العلاقات وتعميق الولد. ومن مجموع الواجبات بالوالدين، وبر ذوي القربى، يبرز حرص الإسلام على تمكين الروابط في قاعدة البناء الاجتماعي للأسرة وهو المقوم الأساسي للميثاق الاجتماعي.

ثالثا: للسماحة بإعطاء الفقراء والمحتاجين ما يساعدهم على تجاوز الظرف الصير الذي هم فيه. والإتيان إعطاء عن طوعية ومسلحة تعم وشعور بالتضامن بين

الغني المرفه، والمحتاج الذي عضه الفقر. وفي تلك قوة المجتمع باستتصال مرضين خطيرين من الأمراض الموهنة له : مريض الحسد من الفقراء، ومريض القسوة وعدم الإحساس بالآلم المحاويج من قلوب الأغنياء .

رابعاً: يكاد التشريع الإسلامي ينفرد بالتأكيد على حق المسافر الذي تقطعت به السبل وبعد عن بلده وأهله وعشيرته، ولم يكن معه من المال ما يستطيع به تلبية مطالبه الحياتية ليواصل سفره ويعود إلى موطنه، ولأن كان غنياً في بلده، يعطف للفران هذا النوع من الناس على نوي القرابة والفقراء مؤسماً عقهوم التواصل بين أعضاء المجتمع الإسلامي، لذا دخل تحت قوله تعالى: **لِإِذَا سَأَلَكَ السَّائِلُونَ إِفْسَاداً**، فأخوة الإيمان دائرة وراء دائرة للرابطة العوطنية التي تنقل دائرة الأمانة.

خامساً: النهي عن الإسراف في الإنفاق. وهو أحد الأسس في بناء النظام الاجتماعي في الإسلام . نعم تختلف طبائع الناس في تصورهم للمال، فيعضهم يشح بالقليل فضلاً عن الكثير، ويحرم نفسه ويحرم أسرته مما آتاه الله، ويعتد المال على صلته بالقرب الناس إليه، وكثيراً ما نجدونهم ينتظرون موته . وبعضهم يرى المال وسيلة للإشباع للرغبات في توسع مفرط، فلا يعطي للمال أي قيمة، ويشعر بالراحة واللذة عندما يسرف في الإنفاق، إنه إذا كمال التقدير ينقلب به الموسع عليه إلى حارس أثيم، فحين الإسراف يزدول بصاحبه إلى أن يكون حليف الشياطين . إذ الإسراف يقرن بزاخية المزيمة، والضعف عن إلجام الشهوة وإدخالها تحت التقيد بميزان المصلحة والخير . والمسرف تطغى شهواته وتكون لها القيادة وينتهي بأن يصبح الإسراف له خلفاً والشهوة للعارمة فتندأ، إن الباب الذي ينفذ منه الشيطان فيقود يومئذ إلى الشر والثرثرة، هو العاطفة لا العقل، فيتوهم صرامة العقل والروح، يجد إليهم مسرح للتأثير بدون حارس، ولعقاوبة للشر هزيلة، فتعقد بينه وبين الغلوي المسرف المترخي صلة فيهبون عليه الخروج عن حدود الله. وإذا انزلق المرء في المهواة فكل مرحلة موف تتبها مرحلة أشد فساداً . ويبلغ التحذير أرقى مداه بالتذكير بأن للشيطان الذي أخاه المسرف وأسلس له قياده، والحق إلى مسارع فساد، هذا الشيطان هو كفور شديد الكفر . ليس منذ الأزل وحقت عليه كلمة الطرد والخسران، فأني رفيق اتخذ المسرف !

تبتلي بمرض الإسراف الخول والقائمون على توجيه الاقتصاد كما يبتلي به الأفراد. أخذت الدول الغربية بسياسة التوسع المفرط في الإنفاق مبررة سياستها تلك بأنه بذلك تدور عجلة الاقتصاد، ويتم استيعاب اليد العاملة، وكان لهذه السياسة للتأثير السلبي على الوضع المالي العالمي، ثم تأثر به الاقتصاد تبعاً. ودخل العالم في أزمة شديدة لما يظهر نفس الانسراج إلى اليوم، واهتزت أنظمة وتدخل الاستقرار، وذهبت الطمانينة، وبصفة عامة لم يستطع هذا التوجه أن يعمر طويلاً. ثم تعرض القرآن لأوضاع استثنائية وبين طريقة معالجتها لتحقيق ما اعتكفت به الآيات السابقة من تماسك المجتمع.

28- وإما تعرضن عنه ابتغاء رحمة من ربك فسوقاً ففويلاً

شأن السائل أنه يعتمد المظاهر فهو يتوجه لمن يظهره يدل على أنه واجد قادر على مساعدته. ورده بدون شيء قد يؤثر في نفسه فكساراً وبالتالي انفصالاً عن المسؤول، ووهن في العلاقة. فوجه القرآن من كان وضعه لا يسمح له بالمعون أن يتخير عند الرد القول اللين الميسور الذي يجبر فكسار الرد، ويبعث الأمل بأنه ممتد في ظروف أخرى ينتظر فيها من ربه أن يوسع عليه برحمته بالإعراض في الآية معناه عدم الاستجابة للسائل، أو عدم إنشاء ما تعولت لإنشاءهم من الهدايا، وأن هذا الإعراض ليس مسبباً عن شح مطاع، ولكن هو نتيجة عدم الوجد، مع أنك امل في رحمة الله أن تمكنك من القيام بما يمتن روابط القرابة والأخوة الإسلامية لمن تربت دأره أو بعثت.

ولا تغفل أيها التالي إلى ما تشير به الآية [الفساء] ففويلاً من ربك فوجوهما أن تكون في حالات العسر املا في رزق الله، وأن تتفقد أحوالهم إذا ما تفضل عليك ربك فأجرى لك من الرزق ما كان أحد أسبابه حسن أدبك، ورجائك في فضله.

29- ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك...بعباده خبيراً بصيراً

إن قضية السماح بالمال في حدود التوسط قضية أعاد القرآن العبارة بها ليفهمها على الفعل في الآيتين 29/30- فتوجه الخطاب مباشرة لكل من يتأني منه سماعه بالدهي عن طريقي التعريط والإقراط في التصرف في المال.

الطرف الأول المنهي عنه: التقدير ومثله؛ أن المقتر جعل يده، وسيلة الإنفاق التي تتولى البذل، كأنها شنت بقيود إلى العنق، فتعطلت ولا تستطيع مدها إلى غيرك بالعمى والمساعدة، وهي صورة بشعة يزيد في إشاعتها أنها صورة الأسير الحدي فخذ الحرية وربطت يده بسير من جلد إلى عنقه.

والطرف الثاني المنهي عنه: الإسراف الذي مثله بمن يسطر به بطا كاملا لا يستقر فيها شيء، ويفتحها فتحا لا تمسك معه لا ماء ولا مالا.

ثم جسدت الآية عقوبة كل منهما، فصورت مآل المعتر بهينة زينة: أنه يكون قاعدا ينصب عليه اللوم والعتاب وتهون مروعته . وصورت للمصرف بالقاعد المتهوك للقوى، غير القادر على القيام بشؤونه.

ولتثبيت هذه الهداية في ضمائر البشر، عرفت للفران أن الشح لا يحقق السعة في الرزق والوفر في المكتسبات ولا يجلب الغنى لصاحبه. وكذلك الإسراف في الإنفاق لا يقبل الذين يتوسع في تمكينهم من العطاء أغنياء، ولا يرفع عنهم الخصاصة رفعا أيديا. ذلك أن ربك المتولي لرعايتك أيتها الإنسان، الذي جورك من الوضع الأول والذي ولدت عليه بفضل الطلقة، لا يتحكم أحد في أرزاق الناس سواء، فهو الذي يوسع على من يشاء، ويحرم من يشاء . وكل ذلك تابع لحكمته لأنه الوحيد الذي يعلم بواطن الأمور ومآلاتها . فهو يعلم معدما الأشياء على حقيقتها علم من لمحن الشيء حتى للكشف له تمام الاكتشاف، وهو المميز فلا يخفى عنه شيء، فكل ما يتم وجوده هو ثابت في علمه بالصورة التي سيتم وجوده عليها في المستقبل.

31-ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق..مكان حملنا كبيرا .

سافما: تحريم قتل الذرية وخاصة الأنثى خوف الفقر . وحمله جميع المفسرون على أن الآية تعالج وضعاً مقيتاً كان عليه أهل الجاهلية: أنهم كانوا يقتلون البنات ويقولن الذكور . لأن البنت عندهم لا تعين على القيام بتوفير أرزاق الأسرة، وهي مظهر ضعف لا تستطيع الدفاع عن نفسها وخوف عار لو سببت . يقول أحدهم :

لحب بنتي وأود أني *** دفنت بنتي في قعر لحدي

وما هناك عن بغض ولكن *** مخافة أن تذوق الـ بعدى

فربما تزوجها لـ فويل والـ ويحب جـ دي

وربما يموت الزوج عنها *** لتزجج بنتها وتلق فـ دي

دعوت الله أن تكفى بـ ولو كـ أعز الخلق عـ دي

هكذا تصوروا الأنثى لحط فترة من التفكير، عاجزة لا تستطيع القيام بأمرها خلفيا، وما دروا أن تربية الأسرة، وكذلك للمجتمع، حوما صيرها إلى الوضعية التي هي عليها .

والذي ترجح عندي أن الآية علّمة في التذكور والإناث، وأنها غير قاصرة على أهل الحاشية، ولكنها تعالج انحرافات تتشكل في كل عصر بحسبه، ففي عصرنا هذا انحلت الأخلاق، ونضاعت قيمة العفاف عند الذكور والإناث، فبعض الزانيات إذا حملت نفقن ولدها بمجرد ما تضعه خوف لفتنهم الأميرة، وبعض النساء تبعاً للأنانية المفرطة، وعدم تغلبن مناصب الجمال والتربية، أو للفقر وضيق المسكن، نسفن الجنين. والجنين إنسان يحمل جينومه من أول يوم تلقحت فيه للبيضة، جميع الخصائص الخلقية والنفسية، والذي يتحقق بعد إتمامه ظهور ما هو كامن. فوالد لبنات سورة من صبور التمادي على حياة الأولاد. وما جعلني أكثر اطمئناناً للتعميم أن الله عبر بالأولاد الشامل للجنسين، ولم يقل بناتكم.

ولنفع الخوف من الفقر. فبه الله الأبوين: لأنه سبحانه تكفل برزق المولود كما تكفل برزق الأبوين. وهذا المفهوم وإن كان سبق في سورة الأنعام: نحن نرزقكم وإياهم. فإنه من بلاغة القرآن: أن العبارة في سورة الأنعام نحن نرزقكم وإياهم، وفي هذه السورة نحن نرزقهم وإياكم. والسر في ذلك أن سورة الأنعام كسلى الفقير حاصلاً للأبوين تقدم ليصال الرزق لهما، وعطف المولود، وفي هذه الآية لم يتحقق الفقير بعد ولكنه الخوف من حصوله، فكان التمييز أن رزق للمولود على الله، فلا موجب للخوف.

32- ولا تقربوا الزنى إنه مكان فاحشة ومناه سبيلاً.

سابعاً: تحريم الزنا تحريماً مشريعاً معللاً بما لا يقبل أن يكون فيه اختلاف. إذ ورد النهي عن الغريبان منه، على أنه فعل مستقذر يحتم البعد عن القرب منه بالنهي عن الدائرة المحيطة به حتى يتم التحسن من الوقوع فيه. ثم قوّى التأكيد ببيان وجوه رفضه:

أولاً أنه استقر استقروا ثابتاً كونه عملاً فيجها شديد الفجح (فاحشة) وهو أمر مركز في الفطرة، ولكن قوة الشهوة قد تغطي على الزناني فيج فعلته. روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أئذن لي بالزنا، فأقبل الغوم عليه فزجره، وقالوا له! منه! فقال: أدبنا منه قريباً فجلس حتى قال: أتجبه لأملك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأهلهم؟ قال: لأفحبهم لأبائهم؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونهم ببائهم؟ قال: أتجبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونهم لأخواتهم. قال لأختك؟ قال: لا والله جعلني

الله فداكم . قال : وكذلك الناس لا يحبونه لعمالتهم . قال : أحببه لخالنك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لخالائهم . قال : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وحسن فرجه . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء¹ . ثانيا : أنه طريق سيء وملوك مرفوض لفرجه .

إن الزنا من أكبر الكبائر وفتح الآثام المتأخر وأشدّها تأثيرا في اختلال المجتمع . لأنه إذا كان مع متزوجة فهو عرضة لاختلاط الأنساب ، ومعرض للذود عن الشرف بما يصل إلى القتل ، وهذا للعلاقة بين الزوجين وهدم البيت والأسرة ، ولصق عار بترينها . وإن كان مع عذبة فإنها قصاء شهوة لحظة يتبعها عار يصاحبها كامل حياتها ، وإثارة للذود عن الشرف من أهلها ، وكثيرا ما أرهقت فيه أرواح . وقد ينشأ عنه حمل تكون جنابة الزنايين عليه لا تقف آثارها السيئة عند حد ، فقد يقتل بمجرد ولادته ، وقد يرعى به ، وهو البريء ، في الفجاسة أو في أي مكان للتخلص منه ، ويلقى حياة بكدة .

33- ولا تقتلوا النفس التي حرم الله بله حكايا معصوما.

ثامنا : حفظ الحياة وتحريم القتل ونظفيته . هذا التشريع من أعظم ما أهتم به الإسلام . كانت الحياة رخيصة في الجاهلية فمناح الإقدام على القتل بما يتراءى للقاتل أنه حق له . وقد تكون صلة بين القاتل وشخص آخر مبرورة لقتله . وقد يستبيح القاتل دم المقتول بسبب كلمة . وجرى المستبدون الظلمة بعد العصر الجاهلي على بسط سلطانهم بالقتل والإرهاب مله ، نهت الأية عن ارتكاب جريمة التسلط على الغير بسلب حياته هذه الحياة التي هي من خلق الله هو الذي أعطاهما ، وهو الذي يسلبها متى شاء ، هي النفس التي حرم التعسدي عليها (النفس حرم الله) فكان نهيا مستمرا عاما ، واستثنى من ذلك القتل الملتبس بالحق . وقد بين رموز الله² الحالات التي يكون الإعدام فيها حقا . روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بأحدي ثلاث : النفس بالنفس ، والنيب الزاني ، والمارق من الدين . التارك للجماعة³ . ولا ينفذ حكم القتل بهذه الموجبات إلا القضاء ، بعد التثبت التام مائة في المائة ، وأدنى شك يحرم معه الإقدام

¹ المسند ج 5 ص 253

² التلويح والمرجح ج 1 ص 124

على القتل لقوله ﴿لَا تَدْرُوا لَافِعُوا﴾ الحدود بالشبهات، ونية القتل أو الإعداد له دون تنفيذ لأي حائل كان، لا يحل قتل المَعْدُ لذلك.

وقد جعل الله الولي القتل الحق الذي يتجتم تنفيذه تبعاً لاختياره. والولي هو من ولد القاتل أو ولده أو جمعه وإياه أب على تفصيل على به الفقهاء وضبطوا ما هو مجمع عليه وما هو مختلف فيه. فلولي القتل ظلماً أن يطلب بالقصاص من الجاني، ويقتل بعد الإثبات من طرف للقضاء. كما له الحق في العفو عن الجاني وأخذ الدية. جعل الشرع له هذا السلطان بالمطالبة بالقصاص أو الرضا بالدية. وإذا رضى بالقصاص فلا يتجاوز فيه ويقتل غير القاتل، أو يتعلل بشرف القاتل وأنه بساوي أكثر من شخص واحد فيطلب تنفيذ للحكم في القاتل وفي من له صلة به، أو أن يعجل بالقتل قبل أن يحكم به الحاكم. ولما كان التشريع قد ضمن للقصاص من القاتل، فهو قد نصر الولي، وكفاه ما يجده من اعتداء القاتل.

وقد ظن بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية لما جاء فيها من تفصيل للتشريع الملائم لفظ حسب ظنه للمجتمع الإسلامي بعد أن برزت الجامعة الإسلامية المستقلة، وهذا التوجيه لا يوجب الحكم عليها بكونها مدنية لأن السورة نزلت بعد الإسراء وبعد أن كثر المسلمون وتآقت نفوسهم لعل هذا البيان التنبيهي.

34- ولا تقرّبوا مال اليتيم إلى المهد حكان مسؤولاً.

تضمنت هذه الآية نهياً وأمرًا:

نأشأ: النهي داخل تحت مفهوم حفظ المال الضروري للاجتماع البشري. وهذا يتصل بما سبق في الأيتين 26/27- من النهي عن التبذير. وتختص هذه الآية بسوء آخر من حفظه. وهو حفظه لمن يملكه ويضعف عن منع الأيدي الظالمة من الاستحواذ عليه. هو وضع اليتيم الذي فقد الوالد الراعي والحامي، كانوا يستغيثون قبل البعثة، أن يستحوذ بعض أقارب اليتيم على ماله زمن صباه، ويشر لهم ذلك، فقدان من يوضح الخائن والسارق فلا يجدون حامياً ولا لهم وأزع باطني يعصمهم عن الظلم لاليتيم. فقام الإسلام هذا السوازع الباطني المستند إلى النهي الإلهي في جملة الميثاق. وكان النهي عن قربان مال اليتيم فضلاً عن أخذه، مبالغته في التشنيع على الذين يستغيثون الاستحواذ على أموالهم. ولما كان لابد لمن يتولى أمر اليتيم أن يتصرف في ماله تنمية وإتقانا حدد القرآن ذلك التصرف بل يكون بالطريقة التي هي أحسن من غيرها، حتى يبقى له ماله عندما يقش عوده ويرشد. وبناء على

ذلك فإن عليه أن يثمر حتى لا تأكله الزكاة، ولا يحبس منه شيئاً يفتق به . ثم يسلّمه له عند رشد.

عاشرا : الأمر بالوفاء بالعهد بكل مؤمن مسؤول عن الالتزامات التي عقدها مع الآخرين . وتوجه الطلب للجماعة لما في حفظ العهود على نطاق الجماعة من لثمن الأمة والتعامل معها بثقة . يتبعها نفاق تجارتها وصناعاتها وازدهار اقتصادها . كما أن للحمّة بين أعضاء الأمة تقوى يحفظ العهد وتتراخي حتى تبلغ حد الانفصال بعدم احترام للعهود .

35- وأوفوا بالعقود وأحسن تأويلا.

حادي عشر : احترام المفاهيم التي يتم بها التبادل ، والتي تكون المعيار لحق الطرف المقابل . وهي الموازين والمكاييل . والمكاييل تشمل المقاييس المتعارف عليه في نوع السلعة كاللتر والصاع ، في الحبوب والزيوت ونحوها ، وكالستر والقدم في الأقمشة والأرصين ونحو ذلك . فأموت الأية جميع المؤمنين أن يعطوا الطرف المقابل حقه بالمعيار الذي يتم به التبادل . ومن الضبط القرآني ما وصف به آلة الوزن بالحرص أن تكون مستقيمة لا خلل فيها . وتم التحريض على الالتزام بأن عدم التطفيف خير للوازن في الدنيا ، يمثل هذا الخير فيما كتبه الله من البركة للمحافظ على الميزان العادل . وما يترتب عليه من الثقة فيكثير زبائنه وتنفق تجاربه . وخير في الآخرة بما سيحده من كرم الله وفضله في الآخرة . وهو معنى قوله تعالى : **ولحسن تأويله** . نعم قد استعجل فاقسو الثقة ما يوفر لهم أكل أموال المتعاملين بالطرق الخبيثة والاحتيال بالتطفيف ؛ وهم خامسون في المال ، لأن التطفيف يحوق البركة ، ويطرده المتعامل معهم فلا يعود ، ويفلل الثقة في المجموعة فيؤول أمرها إلى كساد ، فتنشر البطالة .

36 ولا تقف ما يبنى عليه أولئك هم الذين آمنوا منه مسؤولا.

ثاني عشر : هذه الآية تمثل منهج فكر ومنهج حياة العقل في نشاطه الدائم والحواس في علاقتها الموصولة بالكون ، يمثل هذا وذلك مبادئ للقرارات التي يتخذها الإنسان . ويتجزئ ثوبا لها ما استقر عليه نظره فيها .

إن الحاصل الذهني قد يكون مبنيا على أوهام وخيالات ، يتكرر استحضارها إلى أن تستولي على العقل فتدفعه إلى مواقف والقيام بأعمال ، ثم يتكشف فسادها وريفيها بعد التنفيذ . وكذلك ينقل السمع للدماغ سموعات ، فتتركز فيه ، ثم يتحرك بناء على ما استقر فيه إلى اقتناع ، فيسلك مسالك يملئها عليه فكره بناء على الحاصل للسمع .

وكذلك يبصر أشياء فيجري الأمر على نفس الطريقة في السمع.

السؤال المطروح : هل ترتفع المسؤولية عن الإنسان في سلوكه إذا اتبع الحاصل للذهني، أو السمع، أو البصري ؟

أجابت الآية عن هذا السؤال، فبينت أنه لا يرفع المسؤولية عن الإنسان إلا ما قبله أولاً بناء على يقين لا على وهم، وثانياً بناء على شعور بالمسؤولية عما يترتب على فعله، ولا يعتبر الحاصل المستقر مبرراً رافعاً للمسؤولية .

إن الحاصل الذهني إذا لم يكن نتيجة علم ويقين يجب طرده من الذهن على أنه وساوس وخيالات. يبين هذا أن كثيراً من العواطف تستدفع إلى مواقف من الحب أو البغض وتنمو مترددة داخل العقل الباطن حتى تتقلب حقائق يؤمن بها صاحبها ثم تسوقه إلى نوع من السلوك يعقبه الندم . قال تعالى: **يَعْلَمُ أَنَّ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَكُونُونَ شَيْئًا** ¹ وقال تعالى: **يَعْلَمُ أَنَّ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَكُونُونَ شَيْئًا** ² **إِنَّ فَالْتَنَاتِ** وإدخال البارقة الأولى في ميدان النظر تحسن المؤمن من الخلقة والأحكام السطحية المضللة، وتفضي في ميدان العلوم والتجارب إلى الظفر بالمعلومة الصحيحة وفي ميدان القضاء إلى الحكم الصحيح العادل .

وكذلك السمع : إن من أشد ما يفسد المجتمع وينشر فيه الخوف وعدم الثقة الإشاعات التي تنقلها اللوات فنكتسب من الشبوع قبولاً واطمئناناً، ترشد الآية مؤكدة أن الواجب على من يسمع خيراً، أن لا ينقله إلا بعد أن يتقن بصحته، ولا ترتفع المسؤولية بذلك فقط، بل حتى يطعن إلى أن نقله لا يترتب عليه ضرر. قال تعالى: **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ لَعُومَ لَهُمُ الشَّيْءُ يَسْتَنْبِطُوهُ مِنْهُ** ³ ومن الأحكام السفيرة أن من سمع بأن فلاناً وفلانة بينهما علاقة مشبوهة، ثم أشاع ذلك أنه يجلد ثمانين جلدة ويمسك مقوداً لا تقبل بعده شهادته، وكذلك البصر لا يعتمد ما لم يتحقق تحضاً يفيداً وكم من شخص شهد بروية الهلال دون أن يتحقق، فافطر الناس بشهادته أو صاموا أو بنوا عليها ووقفوا بعرفة في اليوم التاسع من شهادته، فحبل وزرا عظيم.

¹ سورة البقرة آية 118

² سورة النساء آية ٥٨

³ سورة النساء آية ٥٩

37- ولا تمش في الأرض موحا....ولن تخزي الجبال طولا.

ثالث عشر :أُسِّمَت الآية السابقة للواقعبة بأعماد الإنسان على صحيح العلم، وتكوين المبصرات والسموعات بيميز الأثار العملية المقتربة عنها، ويطل الأوهام، ومن الأوهام ما يحصل في نفوس بعض الناس من كبر وزهو بما جمعه من مال أو سلطان، أو اتباع، يؤثر ذلك في تفكيره كما يؤثر في سلوكه وطريقة حياته، وصورت الآية مظهرا من تلك في المشي الذي يصحبه خيلاء ونظرة متمالية لمن يلقاه من الناس وبعضهم نصل به مخالفة تفكيره إلى التماثل . إن إظهار الكبر على البشر يعبر عن احتقار الآخرين وتحد، وهو جنون بالعظمة وتصور زائف، لا يزيد المتكبر إلا انفصالا عن المجتمع، وشماعة به عند سقوطه. والضعف يصاحب الإنسان، وإن حاول إخفاءه، فأديم الأرض ثابت لا يستطيع خرقه وهو يمر هو عليه، ويمر من يأتى بعده كذلك. وقامت تضمائلا أمام طول الجبال . وفي الإشارة إلى هاتين الناحيتين نوع من التهكم والسخرية من هذا النمط من الناس .

38- كل ذلك كان مهيته عند ربك مكروها.

تمثل هذه الآية فذلكة للتواحي للثلاث عشرة التي مضت في تلكم الآية الجامعة، فكل ما تقدم من نواه، لو من أواخر تلك على النهي عن ضدها، نهى عنه زيادة على ما فيه من العباد، لأنه سينة حسب تقويمه عند الله الذي يمسك بالميزان الحق. والله يكرهه ، وكرهه الله للأشياء كل على أنها تهون صاحبها وتبعده عن الله.

39- ذلك مما أوحى إليكم ربكم....في جهنم ملومة مدحورة.

لقد تجمعت صورة مرتبة من الأوامر والنواهي تمثل كما قلنا ميثاقا، فمن بلاغة القرآن أنه ختمها بلفت النظر إلى نفاستها، ليتأمل فيها المؤمن تأملا يوجب تفهم أبعادها وتطبيقها عمليا، فهي من الحكمة التي أنزلها السدي يعلم السر، ولا يدركها الأميون لو لا فضل الله عليهم بإرسال سيدنا محمد ﷺ برسالة الإسلام التي نسمو بمعتقداتها وترفع مداركهم . ولئن أحط ما ينزل إليه الإنسان هو الشرك بالله، فلهي القرآن في الختام نهيا عاما لجميع البشر موجهها لكل فرد بخصوصه أن لا يتخذ إلها آخر، ويحذر العقوبة المهيئة للمشركين، التي لا مفر منها، والتي لا تغفل غفرا ولا عفوا، إنه سيطر ح مهيدا في جهنم يتبعه التفتيح، والبعد عن الرحمة .

أَفَاصْفَكُمْ بِرَبِّكُمُ بِالَّذِينَ وَاتَّخَذُوا مِنَّا آيَاتِنَا أَنْكُرُ أَنْتَقُولُونَ فَوَلَّاهُمْ عَذَابًا
وَلَقَدْ سَرَفْنَا وَ هَذَا الْقُرْآنُ بِمَا أَكْرَمُوا وَمَا يَهْدُهُ إِلَّا الْفُورُ ۚ قُلْ لَوْ كَانَ نَعْمَ
الْهَيْمَةُ كَمَا تَقُولُونَ إِذَا لَا يَخْفَوُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَمِيعًا ۚ سَمِيعًا وَتَقُولُونَ
تَقُولُونَ عُلُوهَا كِبَرًا ۚ يُسَبِّحُ لَهُ السَّانُونَ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَفِيهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ حَمْدَهُ وَلَكُمْ لَا تَخْفَوْنَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۚ

بيان معاني الألفاظ .

الفاصلين: جعل البين خالصين لكم .

عظيمًا : قوي الفساد .

سرفنا : نوعا البيان .

النفور : شدة الإعراض .

بيان المعنى الإجمالي :

اعتقد بعض العرب أن الله اتخذ بذات من الملائكة، وهذا نوع من الشرك بالله يدل
على عباء قلته، وجراعته، إن هؤلاء المعتقدين لذلك يقدرون أن الذكور أفضل من
الإناث ويخصون أنفسهم بالذكور ويجعلون الصنف الأول لله . ومن ناحية أخرى
فإن ابتغاء النسل لا يكون إلا ممن يخشى من العدم أن يلحقه، فهو يريد أن يبقى في
نسله لما كان هو قائما .

نوع الله سبحانه في القرآن بيان للحقائق بمختلف ضروب البيان، فارتفع الفصوص
والنبيس، وذلك لمساعد البشر على الإدراك الصحيح لمفهوم الألوهية وما تقتضيه،
وليدذكروا ما نزل إليهم، والعجب أن المعشركين مع تلك مقيمون على شركهم كأنهم
دواب كلما حركوا أمعنوا في الغفار وتملكهم الخوف والجزع .

قل لهم يا محمد إنه لو وجد مع الله الهة، كما يقولون دون روية ولا نظر، فإن هذه
الالهة المزعومة لو وجدت لست إلى التعرّب من الله والخضوع له، إنه يترتب
على افتراض المستحيل الذي تدعون أن تكون تلك الالهة خاضعة له، سبحانه تقزم
تنزها عما نطقت به المنتهى وهو أعظم وأسمى من أقوالهم المنخفضة .

كيف لا، وكل الكائنات الحيوان، والجماد الكبير الذي لا تبلغ معرفة حدوده
الطاقة البشرية، والتفاه الذي لا تتركه الحواس، كلها تتطلق في موكب واحد بتسبيح
الله وتزييه عن كل نقص ومنها للشرك . ولكن مداركم عاجزة عن إدراك ذلكم

للتصحيح. ولم يعالج المشركين بالعقوبة لأنه يسهل تبعا لأنه حليم، ومع قولهم المنكر فإن الله يغفر الذنوب لمن تاب.

بيان المعنى العام

40. اناستأصركم بربكم يا بالبين واتخذ... قولاً عظيماً.

هذه الآية مفرقة على أفراد الله بالآلوهية. فإن بعض العرب ذهب به خياله إلى أن الله اتخذ للملائكة الإنث في زعمهم بناتاً له. وهذا الزعم يدل على سذاجة وغياة. أولاً: إنه حسب سلم القيم عند العرب، البنون الفضل من البنات، والأنثى أخط رتبة من الذكر كما بيناه في الآية (31) فمن الغباء أن يدعوا اختصاصهم بالبنين للجنس الأفضل. وإن الله يختص بالإنث فقط للجنس الأسفل.

وثانياً: إن تصور بنات الله من الملائكة تصور فيه تجسيم واستقلال، لأن ابتغاء النسل لا يكون إلا ممن كان مجسماً، مركب فيه داعية التكاثر، وإلا ممن يلاحقه للقاء، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن مقالتهم تلك التي لا ترتفع إلى مستوى أرفع من الهذيل اللفظي (قولا) هي مقالة قوية للفساد والبطال.

41. ولقد صرفنا في هذا القرآن... وما يزيدوه إلا نفورا.

إن أمر المشركين لأمر عجب، فقد بين الله في القرآن بيانا نوعه مختلف ضروب التوضيح، لينفي كل ليس وغموض وليساعدهم على التأمل وعلى تذكر ما أفهمهم إياه من اختصاص بالوحدانية، ومع ذلك فهم ما يزالون يكررون مقالاتهم الزائفة، فكأن البيان القرآني زادهم بعدا ونفورا من الحق. هم كالدواب الذين إذا حصل ما يحركهم أسرعوا إلى الفرار وقد نملكتهم الخوف والجزع. هم يخشون أن يغلبهم على عقائدهم الفاسدة.

42. لئن لوكان معه آلهة حكماء لتقولون... ذي العرش سيلا.

الله رحيم بعيد، ولا يرضى لعباده الكفر، فهو يوقظهم إلى إدراك الحقيقة والتزامها بمقتوع الأدلة التي تثير الفكر والضمير والمشاعر. وبه المشركين إلى أن ما اتخذوه من آلهة لو كانوا آلهة لسعوا ليتقربوا من الله، وعبر عنه بصاحب العرش لإقادة أنهم يتركون أنه المتصرف في الكون، فهم على فرض المحال لا يقدرين على الاستغناء عن التقرب إليه. ويمكن حمل الآية على أنه لو كان معه آلهة لقساموا بمقاومته، فيشغل بحاربهم ويشغلون بحاربته عن تدبير الكون، كما هو شأن الفاتمين حول ملك الملوك في الأطراف، مهمهم في انتفاص ملكه والاستبداد بما يمكنهم الاستبداد به. وسير العالم بانتظام كامل لا خلل فيه ينادي بأن ما عشت في لذهان المشركين من وجود آلهة مع الله فرض لا أساس له، وهذا التركيب المفتوح

بكلمة (أو) يفيد أن الجواب غير متحقق، لأنه مرتبط بما بعد - لو - الذي هو غير متحقق - فتقولك: لو طلعت الشمس نعم الصياء. يفيد الكلام أن الصياء لم يتحقق لأن الشمس لم تطلع. فهم لم يبتغوا طريقاً إلى ذي العرش (الله) على فرض القرب إليه مما يفيد عجزهم وعدم كفويتهم، أو على فرض محاربتهم مما يقوم بانتظام الكون على نفيه، فعلى الفرضين في فهم (أَلَمْ يَلْبِسُوا إِلَهُكَ بِالْعُشْرِ سُبْحًا) منتفٍ فلنقضى أن يكون معه الهة كما يقولون .

43- سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

تنزه الله عما تلوه المبتغون، من أن يكون له شركاء، فهو المتعالي الرفيع المقدر الذي هو فوق أن يتصور له شريك، إن البعد بين ما نمسوه لله وبين ما يجب لله من للوحدانية والتفرد، البعد بينهما بعد ينفي ما قالوه.

44- يسبح له السماوات السبع...إنه كان حلماً محضاً.

التنزيه الذي افتتح به الآية السابقة يجد توضيحه في هذه الآية. يثبت القرآن أن السماوات والأرض، وكل كائن على سطح الأرض أو كامن في طياتها أو في أي مجرة من مجرات السماوات، ما كان عاقلاً وما كان غير عاقل، ما كان حياً متحركاً وما كان جماداً، ما كان كبيراً جداً وما كان ضئيلاً يسدك حساباً لا يحسب الكل يسير في موكب واحد يسبح لله ويلزهه. ذهب بعضهم إلى أن كل كائن يهدي بالتأمل فيه إلى أنه مخلوق لله، فيه من الإبداع والإتقان ما يدعو المتأمل إلى التسبيح، وخص بعضهم التسبيح بالنامي كالنبات والحيوان، وذهب فريق آخر إلى أن كل الكائنات الجامدة والمتحركة تنطلق في موكب تجده وتلزهه عن كل نقص، وهو ما أميل إليه. إنني أعتبر أن هذا من الأسرار التي أطلعنا الله عليها ولهبنا إلى أن قوامنا تضعف عن إدراك هذه التسبيحة، لكن لا نترك هذا السر الخفي. وهذا التنزيه لمنبس بإعلان حمده. فكل الكائنات مسبحة حامدة، وهذا الفهم يتلاقى مع ما مر لنا في قوله تعالى: **يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيافته**¹.

وتفرد المشركون والكفار عن الموكب، ولم يعالجهم الله بالعقوبة لأن من أوصافه اللطافة الدائمة أنه حلیم فلا يعجل بالعقوبة. غفور يقبل توبة من أخلص في توبته.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعُوكَ وَتَسْمِعُ النَّاسَ لِقَوْلِكَ إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّكُمْ كَافِرُونَ ۚ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعُوكَ وَتَسْمِعُ النَّاسَ لِقَوْلِكَ إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّكُمْ كَافِرُونَ ۚ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعُوكَ وَتَسْمِعُ النَّاسَ لِقَوْلِكَ إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّكُمْ كَافِرُونَ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

الحجاب : السائر عن الأعين ، ومعناه في الآية الحيلولة بينه وبين الإضرار به .

أفنة : جمع كنان وهو ما غطى الشيء ، ومنه كنانة للنبيل .

الوقر : النقل المانع من السمع ، الصمم .

النجوى : الحديث بين القوم سرا .

ضربوا لك الأمثال : حاولوا أن يقرنوك بما بجسم حالك .

فضلوا : تحيروا ولم يهتدوا .

بيان المعنى الإجمالي :

صور القرآن شدة إعراض المشركين ، الذين لا يؤمنون بيوم القيامة ، عن القرآن ، وأن الله جازاهم بما وطنوا نفوسهم عليه ، فجعل من سبحاته كون حجاباً فاصلاً بينهم وبين النبي ﷺ ، وأن هذا الحجاب يؤثر في حواسهم وقد ستره الله عن أعينهم . وكما منع حواسهم فكنك حرم قلوبهم من التعمق في هدیه ، فكان عليها غلافاً صفيقاً لا يستطيعون معه أن يفهموا أسرارہ . وكانهم صم لا تتحرك قلوبهم بما ينشوء ﷻ . كان الظالمون الكفرة يجلسون حول البيت في الوقت الذي كان فيه الرسول يدعو إلى الإسلام ويكلم القرآن ، وكان ما يسمعون من هدیه يجرهم ليهامسون فيما بينهم ، قولوا للذين يتبعونه : إنكم تتبعون رجلاً اختلط عقله بعد أن سحر فابتعدوا عنه .

المنضح أمرهم وتجسم كأنه مشاهد لك ، إنهم حاولوا أن يقرنوا بيلك وبين ما تخيلوه من قلب حقيقتك ، فتحيروا ولم يجدوا طريقاً يبلغهم ما أرادوا ، وكلما ضربوا لك مثلاً كان زيفه مكشوقاً لا يؤثر ولا يضرك فهم لا يستطيعون أبداً أن يشككوا الناس في صدقك .

بيان المعنى العام :

45- وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين ما تخيلوه من قلب حجاباً مستورا .

بينت الآية السابقة أن تسبيحة الكون تنطلق دون أن يدركها الناس، و قريب من ذلك، لك يا محمد عندما تقرأ القرآن، أمثلك من اعتداء المشركين، وجعلنا بينك وبينهم حاجزا يحجبك عنهم، ويحجبهم عن إدراك ذلكم الحاجز. أفلا يقوم هذا مساندا لما بيناه في الآية السابقة أن الكون كله ينطلق في موكب تسبيح لله وتكزيه لا نتركه، وعدم إدراكنا له لا يدل على نفيه كما أن الله حجبهم بحجاب عندما يقرأ الرسول ﷺ القرآن، وحجبهم عن الإحساس بذلك للحجاب .

46- وجعلنا على قلوبهم...ولوا على أديارهم نفورا.

بينت هذه الآية وجه عدم تأثير المشركين بالقرآن على شدة وضوحه، وإعجازه. فبينت أن الله حرسهم لطافته التي بسببها يستمعون للقرآن سماعا يتدبرون به في مضامينه، فكان قلوبهم قد غطاها غطاء مانع من حركة التدبر والتفكير في آياته تفكرا يقضي بهم إلى إدراك ما انطوى عليه من المقاهيم. وكان أذلهم قد لصيت بالصمم، فتمز الأصوات المرسلة له دون أن تحرك فيهم دعوة التأمل والتدبر. إنهم لا يسمعون، لقد نفذ الشرك إلى قلوبهم فتأصل، وأثر في أوجاعهم فهم لا يتحملون سماع ما ينفي ذلك الباطل. تصور القرآن هذا، بأنهم إذا نفذت إلى أسماعهم الآيات السليمة لتوحيد الله المحطمة للشرك الرفاعة للشبه لم يصبروا على الاستماع وفروا نافرين كما تنفر الدواب من أي منفر لها .

47 نحن أعلم بما يستمعون به...إن يتبعون إلا رجلا مضجورا.

كان المشركون يأخذون منازلهم في المسجد الحرام حول البيت، وكان النبي ﷺ يعلم المؤمنين ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن. وكانوا يتهامون فيما بينهم في أكبر أمر أهمهم، وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد ونقض كسب الشرك، وإثبات البعث والحساب. وكان غظم مهمهم نفخ دين الإسلام، ولكنهم قد عجزوا عن ذلك، لأن الإسلام يقوم على ما يؤيده العقل والمنطق. فلو أن اهتمامهم إلى الطعن في الرسول والتشكيك في أنه سما سموا بلغ به نقل خبر الله إلى البشرية، كانوا يتحشون سرا فيما بينهم، والله مطلع على ما يتحشون به، وإن كان لم يبلغ صداه مدى أوسع من الحلقة المتناجية. تقول الآية: نحن على تمام العلم بالطريقة التي يستمعون بها إليك، على معنى أنها طريقة تهدف إلى التشكيك لا إلى المعرفة، كما تقول: فلان يستمع باستخفافه. هذا الاستماع الحاصل وهم يتناجون فيما بينهم سرا. ولما لم يجدوا مطعنا في القرآن يمكن أن يروجوه لينفروا الناس منه، حولوا مكرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الظالمون بالشرك، وبالإعتداء عليك باطلا : نعلن أن المؤمنين إن يتبعون إلا رجلا خاط السحر عقله فأتى بما لا يقبل .

48- انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستحيون سبيلا.

تبدأ الآية بقوله تعالى: انظر. إن الذي يروجونه فيك، بلغ حدا من ظهور فساد ووضوح كذبه، أن أصبح وكأنه شيء مجسم ينظر إليه الناظر فيراه بعصره. لفتضحوا في محاربتك فحاولوا تشبيهك ومقارنتك بأمثال لم يستقم لهم منها واحد؛ فضربوا لك المثل بالمسحور في الآية السابقة، وبالكاهن وبالمجنون في أخرى، وبأن القرآن أساطير الأولين، وبالشعر المتخيل. فكان شأنهم شأن الضائع في الصحراء وقد عميت عليه المسالك، فلا يدري للطريق الذي يبلغه قصده. ولا يستطيعون أبدا أن يؤثروا بأقوالهم الزائفة للسخيفة، أن يؤثروا فيمن يستمع إليهم.

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَنُؤْتُهُنَّ مَدِينًا مَّجِيدًا ﴿١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيدًا ۖ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُونَ ۖ صُدُّوا عَنْ مَدِينَتِنَا فَتَقُولُونَ مَرْجِعُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ نَرٍّ فَسَيَبْغِضُونَ إِلَيْكَ وَرُسُلَهُمْ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَلَىٰ أَن تَرْتَوِي ۖ قُلْ يَوْمَ الْبَاسِ أَتُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ فَنَسْجِبُونَ قَوْلَكَ بِاللَّهْلِ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

البحث : إحياء الموتى .

وسا : فتانا .

العلم : المخلوق .

ينير : يعظم .

الإغراض : تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه استهزاء .

يوم يدعوكم : يناديكم بواسطة ملائكته فتساقون إلى المحشر .

منجبيون : مطوعة الدعوة .

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما كان يلاقيه الرَّمُول : من ضروب التكذيب والمحااجة بالباطل، فقالوا: إنك تدعي أننا سنبعث من جديد يوم القيامة . أليكون ذلك بعد أن تحولنا إلى عظام ثم تفتت عظامنا وأصبحنا هباء؟ وتولى الله إفحامهم فأمر رسوله أن يقول لهم: سواء أتحولتم إلى تراب أو إلى حجارة صلبة، أو إلى حديد صلب، أو إلى ما تتخيلونه أكبر من ذلك، فإن الله الذي خلقكم أول مرة بأمر التكوين قادر على أن يعيدكم كما كنتم. والإعادة أيسر حسب العرف. وإن كان ذلك بالنسبة لله سواء. إن

هذا الجواب لقبحهم ولكن بقي العناد مستوليا عليهم قهزوا رؤوسهم إنكارا واستهزاء. وإمعانا في العناد بعد أن أقبحوا. يقولون متى يجبل موعد البعث ؟ وكان الجواب حاضرا يوم يدعوكم الله بواسطة ملائكته إلى المحضر فلا يستطيع أحد منكم أن يتخلف عن تلبية النداء، سائلون الدعوة ويستجيبيون لها حامدين الله، إذ تنقضى في ذلك اليوم كل الشبهات ويظهر الحق جليا لا شك فيه.

بيان المعنى العام .

49- وقالوا أئذا كنا عظاما ورقاقا إذا نعبدون خلقا جديدا.

مما ظنوا أنهم قد ظفروا به لمواجهة الدعوة المحمدية، قضية البعث يوم القيامة وإحياء الناس للحساب والجزاء. وإذا كان ادعاء كونه مسحورا مما يتهامون به، فإن إنكار البعث مما أعلنوه وصرحوا به، ولذلك فصلت هذه الآية عن الآية السابقة. فالوا منكرين معلنين: إذا تحولنا إلى عظام متفرقة ونحل الهيكل العظمي، ثم تفتت عظامنا فاختلطت بالتراب، أبعد هذا الوضع من التحلل مُخلِّق من جديد ؟ إن هذا أمر لا يقبل.

50-52. قل كونوا حجارة أو حديد.. قل عسى أن يكون قريبا.

تولى القرآن هدم ما اعترضوا به من بعث ذرات العظام، طائون أنه لقوته مفحما بمفوج الخطاب لرسول الله ﷺ أن يقول لهم: كونوا حجارة أو حديد أو أي نوع من أنواع المخلوقات التي تتصورونه عظيما عسبا عن التأثير فيه، فإن عودتكم إلى الصورة التي كنتم عليها في الدنيا ممكنة. ومعنى كونوا تصوروا أنفسكم بعد موتكم كما تتأرون ذرات من العظام أو حجارة صلبة أو حديد شديد البأس فإن أي حالة ستكون عليها يتحقق معها عودتكم إلى الحياة من جديد. وإذا يوجهون بهذا التحدي سيقولون: من الذي يستطيع أن يعيدنا إلى الحياة مع جميع خصائصنا؟ وكأنهم يستمعون وجود قدرة تفق هذا الأمر المستحيل في مجاري العادة ؟ وإثني الجواب من الله جاريا على المنطق العقلي: إن الذي أوجدكم من عدم وصوركم على الهيئة التي أنتم عليها الآن، هو الذي سيتولى إعادتكم للحياة من جديد. ولا شك أن الإعادة أقرب في مجرى العادة وفي نظام العمل. والنقطة التي انبنى عليها الجواب واضحة معقولة ما كان ينبغي أن تخفى . وهنا لا يجدون ما يحاجونك به إلا أن يحرخوا رؤوسهم حركة استهزاء واستبعاد .

ويتحولون إلى السؤال عن الموعد. مبالا يحتمل التهم، كما يحتمل أن يكون عندهم قد اهتز . ويعالجهم الله بالجواب ملقنا رسوله أن يقول لهم: أرجو أن يكون

للموعد قريباً. إنه اليوم الذي تدعونكم فيه ملائكته الذين يسوقونكم إلى المحشر وأنتم طالعون، وتكشف لكم الحقيقة التي كنتم تجادلون فيها فتطلقون حامدين لله مثمين على كماله . وتحسبون أن مدة بقاءكم في الأرض كانت مدة قليلة ؛ ذلك أن عمر الأرض وعمر ساكنيها هو عمر قليل بالنسبة لأيام الله كما قال تعالى : **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خُمسين ألف سنة** .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ أَكْثَرُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٦٠﴾ إِنَّكَ أَغْلَبُ بِكَرٍّ إِنْ شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ إِنْ شَاءَ يُغْضِبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٦١﴾ وَبِذَلِكَ أَغْلَبَ بَشَرٌ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَآيَاتِنَا آيَاتٌ وَلَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامِ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

النزغ: يدخل بينهم ليلسد علاقاتهم .

الوكيل : المبعوث عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

قل يا محمد معلما عبادي ومربيا لهم على المنهج الذي يقوي رابطة الأخوة بينهم : أن يتخبروا في كلامهم الطريقة التي هي أحسن من غيرها التي تليها وسماحتها وحسنها تجلب المخاطب وتربط بين الطرفين علاقة الود . ذلك أن الشيطان يتربص بالبشر أي منفذ يدخل منه بينهم بالفساد فبحرصهم على القطيعة والبغضاء . واللسان هو أعظم باب يدخل منه ليقطع التقارب بينهم. إن عداوته للجنس البشري عداوة ملازمة متأصلة في طبعه.

إن ربكم أيها المشركون الذي تولاكم بعنايته حتى استمعتم لما أنذركم به محمد هو وحده الذي علم خفايا صدوركم، وأنه هو الفاعل المختار حسب حكمته وعلمه . إن بشا بسبب رحمته أن يحيطكم بالطاعة فتهدوا، وإن بشا أن يحرركم من ذلك تبعاً لما وطنتم عليه أنفسكم من العصيان فتعرضوا ويحذركم. ولا تأس يا محمد على خاتمة الضالين فإنك مرسل لتبلغهم وحيي . ولست مسؤولاً عن اهتدائهم.

إن ربك يا محمد عالم العلم الكامل بجميع الكائنات في السماوات وفي الأرض، وتبعاً لعلمه وحكمته يتخير من البشر من هو أقدر على تحمل مهمة الرسالة، كذلك

يتخير من بين ملائكته من يقوم بالمهمة على أفضل الوجوه. وكما فضل الرسل على غيرهم من الناس، فكذلك فضل بعض الأنبياء على بعض، وخص محمدا بما لم يبلغ إليه غيره إذ ختمت به الرسالة، وكانت رسالته عامة للعالمين، وتولى الله حفظ الكتاب المنزل عليه. وما يدعيه اليهود من أن التوراة آخر كتاب لا حق بعده، كذب ونهويش. ذلك أن اليهود يحترقون بأن الله بعث سيدنا داود عليه السلام وأعطاه الزبور كتابا لأمجده لليهود في نص التوراة .

بيان المعنى العام :

53- **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن...عدوا مبينة.**

يعمل المشركون بكل ما أوتوا من أساليب المكر ليقاموا السد الإسلامي. ومن أنجع ما يخيهم ويرد كيدهم في نحرهم، قوة مجتمع المؤمنين. فطلب القرآن من الرسول أن يعلمهم ويحول التربية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي إلى منهج جديد يضمن وحدتهم وتكاتفهم، حتى يكونوا سدا في وجه الشرك العاتي لولاء، ويعطي من جانب آخر صورة للإصلاح. إن الإصلاح يقوم أساسا على تقويم سلوك الأمة وعميق روابط الأخوة، ومنع كل ما يمكن أن يفرق للكلمة.

لذا أمر القرآن للنبي ﷺ أن يدعو المؤمنين إلى أن يكونوا حراسا على لسانهم حراسة تحصنهم من البذاءة وقول السوء، وتمكن فيهم عادة تخير القول الأحسن . فكلما كان لطريق التخاطب وجه حسن ووجه أحسن فالمؤمن مطالب بمقتضى ليمانه أن يتخير الوجه الحسن الجالب للقلوب المؤكد للرابطة الأخوية . كان المجتمع الجاهلي في هذا يمثل قول الشاعر :

الا لا يجهل أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا-

وكانوا يرون في اللطف والعفو ضعفا وخورا. ولذا كثر القتال بينهم، وتمزق المجتمع إلى وحدات صغيرة قبلية لا تبني أمة، ولا تستطيع أن تحمي نفسها، ولا أن تقسم حصارة. والإسلام على بقرم المبادئ التي تحقق حضارة إنسانية رفيعة وتبني المجتمع على أسس العلم والتعاون بين أفراد وشعوبه ليتوفقوا فيما أوكله الله إليهم من الخلافة الصالحة في الأرض .

لينبه المؤمنون أن الشيطان يتربص الخل الذي يستطيع أن يدخل منه ليمزق نسيج المجتمع. ويفرق بين الإخوة. وفي الكلمة للتأنيب والقول السلي ما يفتح له المنافذ ليضخم ذلك ويحفر حوة السيفس والكراهية، ولا يتبعهما إلا الشر. اعلموا أن الشيطان قد محض كل خبثه، وهو الخبيث الذي ليس وراء خبثه ما يملأه فسادا،

محض خبئه بناء على عداوته المأصلة للبشر البينة والواضحة، ليضد عليهم حياتهم في الدنيا وفي الآخرة.

54- **وَبَصَّكُم بَأْسَكُمْ**...وما أرسلناك عليهم رسيلا.

ربكم الذي تولاكم فاعانكم بالطافه حتى بلغت المبلغ الذي أنتم عليه، والأرجح أن الخطاب للمشركين. يقول الله محركا ضمائرهم بإضافتهم إليه من ناحية، وليثبت نيتا لذلك أنه لا يخفى عليه من أمرهم شيء، وأنه كما حولكم من وضع إلى وضع حتى بلغت للمستوى الذي أنتم عليه الآن، فإنه عالم العلم الكامل بكم. وأنه يسجدكم بالطفاه إن شاء ذلك، نيتا لحكمته فيتيسر عليكم برحمته تلك طريق الاهتداء إلى الحق، كما يحرم من شاء منكم من تلك الرحمة ويوجب تلكم الألفاف ويترككم لما وطنت عليه أنفسكم، فتكونون مؤهلين للعذاب فيعذبكم، ولا تحزن يا محمد لمال الصائدين عن سبيل الله الممعنين في العصيان، فما أرسلناك إلا مبغيا، وأست مسؤلا عن عدم اهتدائهم.

55- **وَبَصَّكُم بَأْسَكُمْ**...وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْبُورًا.

نثبت الآيات من قوله تعالى: **وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا جَعَلْنَا بَصِيرَتَهُ** عن علمه سبحانه الذي لا يغيب عنه أي شيء، وعن أسرار لا يعلمها إلا هو سبحانه، منها جعله حجابا مستورا لا يدركه الجاحدون، وكون قلوبهم عليها غلاف حاجب، وصفة استماعهم للقرآن، وبيان معقولية البعث وكيف يتم. وطريقة للشيطان في هتك النسيج الاجتماعي بين المؤمنين، وكيفية التحصن منه بحفظ اللسان، وعلم الله بأحوال النفوس هو علم ارتبط بحكمته فهدي من شاء وحرم من الطافه من شاء.

وفي هذه الآية يتوجه الخطاب من الله إلى رسوله رفعا له إلى مرتبة التقريب، بربط رب العباد جميعا برسول الله بصفة خاصة (**وَبَصَّكُم**) ليعلمه بسر علم علمي للناس فلم يهتدوا لسره؛ ما هو السر في اختبار الذين اختارهم لتبليغ رسالاته ؟ فكان ما يذيعه عليهم يذهب بالتساؤل والعجز عن الإجابة. حاصله: أن الله يعلم أسرار مخلوقاته في السموات، وأسرار مخلوقاته في الأرض علما نقيقا، فهو نيتا لذلك يتخير من بين عباده من يوكل إليه أمر إبلاغ وحيه، وشرجه، وهداية الناس إلى المنهج الذي يرضى عنه. فتخير شخص معين من بين سائر البشر ليس اعتباطيا ولكنه صادر عن علم. فكتشف أن المختار هو أفضل الناس للقيام بالمهمة، وكذلك بصطفى من ملائكته من يوكله بإبلاغ ما يريد إبلاغه، وكل ذلك هو صادر عن علم كامل وحكمة، لا يدخلها ريب. قال تعالى: **إِنَّهُ بِصُفَاتِهِ خَلِيقٌ وَهَدَّاهُمْ وَمِنْ**

الفاس^١ - فاعتراض المشركين على اختياره تعالى لمحمد ليكون خاتماً لرسله اعتراض مبني على جهل بأسرار الاختيار التي لا يعلمها إلا هو . وهو على نفس المستوى في اختياره الرسل الذين جاؤوا قبله . ولم يَج في الآية مع ذلك أن الله لم يجعل رسله على مرتبة سواء ، بل فضّل بعضهم على بعض . فمفضل محمد ﷺ بختم الرسالة وإرساله للعالمين جميعاً ، هو تابع أيضاً لعلمه المحيط . وما اعترض به اليهود : إن آخر كتاب هو التوراة المنزل على موسى ، اعتراض لا سند له ودعوى كاذبة ، لأن اليهود يترقون بل الله أنسى داود الزبور . وهو بعد موسى ويعتبرون كتابه جزءاً من التوراة .

فَلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِي . فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكَ وَلَا غَمًّا ۝
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ . يَبْتَغُونَ . إِلَى رَبِّهِمْ أَلْسِنَةً قَبْلُ . وَرَبُّكَ رَحِيمٌ ۝
وَيَتَخَفُونَ عَذَابَهُ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ تَحْذِيراً ۝ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا خِشْيٌ مُهَيَّئٌ ۝** **فَبَلِّغْهُمُ الْيَقِينَةَ أَوْ مَعَذِبُوهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا . كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝** **وَمَا مَنَعَنَا أَوْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ . إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ . وَتَاتَانَا نُمُودٌ أَلْسِنَةً مُبْتِغِرَةً فَنَلْمُوهُمْ بِالْآيَاتِ . وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝**

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يستطيعون .

كشف : إزالة .

تحويل : نقله عن موقعه .

الكتاب : علم الله .

مسطور : ثابت لا يتبدل .

ما منعنا : الحكمة التي من أجلها لم نظهر ما طلبوه من الآيات .

نرسل : نظهر الآيات .

مبتغرة : واضحة للدلالة .

بيان المعنى الإجمالي :

من الحجج التي مكن الله منها رسوله ﷺ ليوحداهم ويظهر بصفة واضحة خطأهم. قل لهم يا محمد: ادعوا البشر والملائكة الذين زعمتم أنهم آلهة ليكشفوا عنكم أي ضرر يصيبكم، بكل تأكيد لا نجون منهم جواباً أبداً. إن الذين تدعونهم هم فقراء إلى الله يفتنون مرضاته، والأشد قرباً منهم من الله يطلب الوسيلة التي تزيد قرباً منه فكيف بغيرهم. وهم جميعاً متعلمون بروحمة التي هي خير ما يتمسكون به للتجاة، ويخشون عذابه، وعذاب ربك حقيق بأن يحذره العارفون بحلاله وقدرته.

وليحذروا فإن كل قرية ظالمة سيهلكها الله قبل يوم القيامة، أو يسلط عليها عذاباً شديداً، إن هذا الحكم ثابت في علم الله لا يتغير ولا يتبدل.

والحكمة التي من أجلها لم نستجب لما طلبوه من الآيات، أن الآيات التي يقرر بها المعصرون على الكفر لا تزيد ولا تنقص بصائرهم إلى الإيمان. على هذا جرى للمكذبون من الأمم السابقة. وقرى تمود المدمرة، التي تمرّون عليها في رحلاتكم إلى الشام، تكشف لكم نهاية من جاءته آية واضحة فكذب بها. فإنما قد أعطيتهم الناقة آية مع أخيبهم صالح الله، فظلموها وعفروها.

بيان المعنى العام :

آية قل ادعوا الذين زعمتم من دونه - ولا تحويلا.

تقابلت الآيات السابقة من قوله تعالى : **لَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** (4) وما بعدها تبطل الشرك بصفة عامة، لو تبطل مقالاتهم أو تبين إعراضهم عن الحق تعصبا. وانتهت إلى ضرب مجموعة من مقالاتهم ضربة واحدة، عندما بين في الآية السابقة أن خير محمد والمرسلين من قبله كان مبنياً على علم شامل لمن في السماوات والأرض. وأن كل واحد في وقته هو أفضل من جميع معاصريه، ويتفق كل المرسلين على التوحيد، والقلاع الأوهام التي عشت في العقول فأنقضتها. تولت هذه الآية رداً عاماً شاملاً لكل لحرف جعل من هؤلاء آلهة يعبدون، فقد ألوهوا عيسى عليه السلام، ودعى آخرون أن عزيز بن الله، واتخذ بعضهم الملائكة آلهة. فأنقضت الآية السابقة أنهم عبد الله خيرهم الله لتحمل ما حملهم إياه. وأنقضت هذه الآية أنهم لضلالهم رفعهم لمربية الألوهية وهم براء منها. ينفي للوحيته أن عبادة الرسل والملائكة كلما دخلوا في أزمة واستغاثوا بهم لم تفرج كربتهم، إذ ليست لهم قدرة تسعدهم بإزالة الضرر النازل بهم عندما تضيق بهم سبل العلاج. وكلما دعواهم للوحيته ما من مجيب، بل لا يستطيعون حتى تحويل ما نزل بهم إلى موطئ آخر. وبذلك انقضت للوحيته، لأن شأن

المعبود أن تكون له القدرة على إنقاذ عابديه من الضرر أنازل بهم إذا استأثروا به . فلا لم تتحقق منهم إجابة ولو مرة واحدة فهم ليسوا آلهة.

57- أولئك الذين يدعون يبتغون -آيات عذاب ربك -كان محذورا-

بعد أن أبطلت الآية 56 كونهم آلهة، بدليل أنهم لا يستطيعون نصرهم في الأموات عندما يدعونهم، نكّى هذه الآية مبينة لحقيقة أمر أولئك المتميزين من خلق الله الذين عبدوهم، فيقول القرآن لعبدتهم :إن الذين تدعونهم من دون الله، هم يسيرون في خط معاكس لتصوراتكم، فهم يعملون جاهدين للظفر بالوسيلة التي يكونون بها أقرب إلى الله، هم عبيد له خاضعون، وكل همهم أن يتفضل الله عليهم برحمته، وهم يخشون عذابه، وكيف لا يخشون عذابه ! فإن العذاب الذي يسلطه ربك يا محمد عذاب يعرفون شدته ويحذرونه أشد الحذر .

وبما أن الفصل في نسج الآية لرفع بعض ما يتعرض التالي من غموض، فقول: أولئك الأنبياء والملائكة الذين يدعونهم من دون الله، هم يطلبون راضين إلى ربهم بالوسيلة التي يرون فيها أنها تكسبهم رضاه، يفعل هذا أي واحد منهم هو أقرب منزلة من الله، وإذا كان هذا حال الأقرب فإن غيره أشد رغبة في ذلك . وجمعهم كلهم أنهم يرجون رحمته، لأهم يذكرون لكم الإنذار شدة حاجتهم لهذه الرحمة التي لا يستغنون عنها، بل هي غاية ما يمعون إليه . وهم جالسون من عذابه، فإن من يعرف مكانة المعبود من العابد، ومكانة الإنسان الضعيف بالنسبة إلى الله العلي الأعلى الكامل القوي المتين، لا يكون إلا حذرا من غضبه وعقابه، فاستقام بذلك حصدا ما استقر في تفكيرهم، من أن الملائكة والأنبياء أحرياء بأن يفلسوا تقديس العبادة، وفي هذا ما يدعو المسلمين أن يفرّدوا الله بالتوجه . وأن لا يتخذوا وسيلة إليه إلا دعاء هو الإخلاص في عبادته . فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

58- وإن من قرية إلا نحن مهلكوها -على الكتاب مسجلون-

كل أهل قرية فشا فيها الظلم، وخرج أهلها عن حدود الله، ولم يحصنوا أنفسهم بما شرعه الله من التحصينات الخفية والمادية، يسلط الله عليهم ما يهلكهم بشرا أو بشرا ومباني . أو يسلط عليهم عذبا شديدا . فليس المراد من الآية إهلاك جميع القرى، فإن تلك الإهلاك يكون عند قيام الساعة عندما تتعلق الإرادة الإلهية بإفناء الأرض. والله يقول: وما كنا ربك -فيئذ- -القرى- يقتل -وأهلها مصلحون¹ - هذا

محقق لا يتخلف، إنه مسجل في علم الله الأزلي الذي لا يتغير. وفي هذه الآية تهديد للمشركين بأن استئصالهم قد يكون محققا إذا هم لم يؤمنوا.

59- وما منعنا أن نرسل بالآيات...إلا تخويفا.

يواصل القرآن محاجة المشركين ونقص ما يستدلون به. فمن ذلك أنهم برزوا بعدم إيمانهم بعدم الاستجابة لما طلبوه من رسول الله ﷺ : أن يأتيهم بمعجزات عيونها كقولهم : أن تؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء نقرأه حتى يكون لك بيت من زخرف . حتى يكون معك ملك. وهذا رشح ندية كفرهم وجهلهم بالعزة الإلهية التي لا تنزل إلى استجابة المطالب التي يقترحونها، كما قال تعالى : **(وما قدرنا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على شيء من شيء)**¹ ولم يجبه الله لما طلبوه ليضاء، لأن المعاندين شأنهم شأن واحد في الحاضر والماضي . وقد طلبت الأمم الرافضة من أنبيائهم معجزات لم تصرفهم عن كفرهم لما جاءتهم . من أمثلة ذلك قوم ثمود الذي يمر القرشيون على ديارهم الخربة المدمرة في طريفهم إلى الشام. فقد أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام وأيده بالذاقة التي كانت آية واضحة، فما كان منهم إلا أن ظلموها ففعلوها ودمروها ودمروا إثر ذلك كدميرا.

لتعلموا أن لا نرسل آياتنا بإظهارها إلا تخويفا بالعذاب للملزم لظهورها وعدم الإيمان بها. والله قد قدر أن يبقى على قريش، لأن من حكمته الأزلية قدر أن يلبسوا للإسلام بعد عنادهم. ويكون منهم ومن ذرياتهم دعاة لدين الله ناشرين له في الأفق، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وبشارة للمؤمنين معه وقت نزول الآية.

**وَإِذْ قُلْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَحَابُ وَالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّسُلَ الَّتِي أَرْسَلْنَا إِلَّا بَشَرًا
لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَعَذِّبُهُمْ فَمَا يَمْنَعُهُمْ إِلَّا مَلْفُفَةً كَبِيرًا ٥٩
وَإِذْ قُلْنَا لِلنَّاسِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْمَأُ لِمَنْ خَلَقْتُ
مِثْلًا ٦٠ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخْرِجْتِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ٦١ قَالَ أَذْهَبَ غَمْرُ قَيْمِكَ مِنْهَا نَارَتْ جَهَنَّمَ
خَزَاؤُكَ خَرَا ٦٢ مَوْلُودًا ٦٣ وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْتَفْلَعْتَ مِنْهُمْ سَعَتَكَ وَأَجَلْتَ عَلَيْهِمْ**

تَكَلِّبُكَ وَزَجَلَتِكَ وَشَارِكِيكَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِبَادِهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ۝ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَرُوا بِرَبِّكَ وَجَعَلْنَا

بَيَانُ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ .

أَحَادِلُ بِالْأَنفَاسِ : غلبهم فلا يستطيعون الانفلات مما قضى به عليهم.

الْفَنَاءُ : اضطراب الرأي .

الْمَلْعُونَةُ : المذمومة، لو التي هي مكان ملعون لا يطعمها إلا الملعونين.

لَا تُحْسِنُ : أصله لوضع الفارس اللجام في حنك الفرس ليحكم في تمزيقه. كما يطلق على الاستئصال ومنه احتك الجراد الأرض إذا أكل ما عليها.

مُؤَفَّرٌ : كثر .

الْإِسْتَفْزَ : الإثارة بثارة تمنع الثقل.

الصَّوْتُ : اللوسومة.

الْجَنِبُ : أجمع وألب.

الْخَيْلُ : أصله الأفراس، والمقام بصرفه للقادة الذين هم تحت إمرتك.

الرَّجُلُ : اسم جمع للرجال.

عَدَدٌ : أمر بتقديم الوعود التي نظمهم.

تَفَرُّوهُ : إظهار المكروه في صورة المحبوب

السُّلْطَانُ : الملكية والنفوذ.

وَكَيْدٌ : حيلًا وقبما على هدايتهم.

بَيَانُ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي .

أذكر يا محمد ما أخبرناك به: أن ربك أحاطت قدرته بالإنس فهو يتصرف فيهم تصرفًا لا يجدون عنه محيدًا، فلا تأسف لما تلقاه منهم فإنهم في قبضتنا، ونمسك ولا نحزن من تكذيبك لما أخبرتهم بما أكرمناك به في الإسراء والمعارج، فقد جعلنا ذلك سببًا لتعميق همتهم . وكذلك ما كشفناه في القرآن من شجرة الزقوم في جهنم واستبعادهم مكذبين أن تنبت النار شجرة وهي توفد بالشجر . فقد كشفنا عن نبله لتخوفهم ليرتدعوا ولكن لكون الكفر قد طبع على قلوبهم فقد زادوا استكبارًا وطغيانًا شديدًا.

وهذا الاستكبار الجور إليهم من إبليس الذي أمره الله بالسيادة مع الملائكة لأنهم فاطمات الملائكة وعصى إبليس . وخاطب رب العزة وقد ملأت نفسه شحنة من الحسد والاستكبار، فصرح معترصًا كيف أسجد لمن هم مخلوق طينا! فأسقط ما

تميز به آدم من العقل والروح والتحولات التي نخلت في قلوبهم وحولته إلى الخلقة الإنسانية الجميلة، وواصل: أخبرني ما هي ميزة هذا المخلوق التي بها كرمته علي! تؤكد تأكيداً كبيراً أنك إن لم تقض علي وأخرتني إلى يوم القيامة لأتسلط على ذريته مسلطاً يمكنني من التحكم فيهم وفيلتهم إلى حيث أشاء، إلى الكفر والعصيان، كما يفود الراكب دابته بلجامها، وينفلت قسم قليل من قبائلي يكون صالحاً.

لزمهم إثارة قوية يتبعونك بها بولسطة وسومك، ويلتاضعون من اتباعك المتمسكين بالغواص، وبرجالك، وليلبغ تأثيرك أن لا تبصرهم في أموالهم إلا في الوجه الذي يرضيك شأن الشريك مع شريكه، كذلك اصصرف إنجابهم لأولادهم إلى ما ينقض صفاء الانتساب ويغريهم من الأصنام، وأخرجهم عن الواقع إلى الخيال فعددهم للوعود التي لا تتحقق، والوعود التي ظاهرها محبوب وباطنها خراب لهم ولمجتمعهم، والشيطان لا يعد لاتباعه إلا وعداً يفرط به.

ويختم المقطع بمخاطبة إيليس ما يفيد أنه عاجز عن إغواء من تعلق بربه تعلق للعابد بالمعبود، وأنه لا يتغلب على من عمر قلوبهم ضوء الإيمان بالله وتقواه، وإن ذهل بعضهم لغرة قصيرة فإنه يستيقظ سريعاً ويعود إلى ربه ثانياً ضارِعاً، وكفى بربك يا محمد حافظاً للمؤمنين.

يبدأ المعنى العام :

60- وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَادُ الْثَامِنِ.....إِلَّا ظَنَيْنَا كَبِيرًا.

أفكر ما بخوف المشركين، أو كن ذاكرًا ما ثبتناه في قلبك: إن ربك أحاطت قدرته بالناس فلا يستطيع أي منهم أن ينفك من نفاذ ما قدره سبحانه. وفي ذلك تأكيد لرسول الله ﷺ، وتقوية لعزيمته على الصبر، وإشارة بنصره. فلا تحزن من مواقفهم التي فصلتها الآيات السابقة والتي أتت عليها من القواعد.

وبناء على أن الجملة الأولى ترمي إلى تثبيت النبي ﷺ وتأكيد نصره، فقد عطف عليها ما لقيه النبي ﷺ بعد أن أخبر قريشا بإسرائه، ما ساعده عندما غرج به إلى السماء. اتخذ المشركون ما رآه وما أخبر به مخرجاً في صدقه، وقالوا: إن المسافة بين مكة وبين العنفس لا يقطعها للتجار إلا في شهر ذهابا وشهر إيابا، فادعاء محمد أنه قطعها في فترة قليلة من الليل دعوى لا يمكن تصديقها. وفنن بعض ضعفة الإيمان، يقول الله لنبيه لقد رأيت رأي العين ما حققته لك في الإسراء والمعراج. وكانت هذه الرواية رويها في البقعة لا في المنام كما ذهب إليه المحققون. ذلك لأنها لو كانت رواية منامية فإنه لا موجب لاستبعادها ولا للافتتان بها. والقرآن

يثبت أن المشركين قُتِلُوا وقتلوا صِغَةً المؤمنين، فما كانت هذه الكرامة التي لكَ منك بها إلا السبب في عمق فتنة المكذِبين الكافرين.

وكذلك ما جاء في القرآن من إثبات أن شجرة الزقوم شجرة في جهنم قال تعالى في وصفها (**أَلَا خَيْرٌ لَّكُمْ شَجَرَةُ الزَّوْقِمْ إِنَّا جَعَلْنَاهَا نَبْأً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّمَا أَشْجُرٌ مَّخْرُجٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ فَلَهَا كُتِبَ رُؤُوسُ السَّيِّئِينَ**)¹ فأخذ المشركون هذا الخبر مثلاً للتسخرية والتكذيب والاستهزاء، ونسب إلى أبي جهل أنه قال : إن محمداً ينوعكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تقبض للشجر، والنار تأكل للشجر، وما نعرف الزقوم إلا الثمر بالزبد، ثم أمر جارية له فأحضرت تمراً وزبداً وقال لصاحبه : ترَقَّمُوا استهزاء . ووصفت الشجرة في هذه الآية بالملعونة، باعتبار أن مكانها مكان اللعنة، أو بالنظر إلى أنه لا يأكل منها إلا الملعون المطرودون من رحمة الله . وبالجملة فقد زأدهم هذا الخبر من الغيب فتنة.

إن ما أخبر به القرآن من وصف النار ومن بعض أحوال القيامة، ومما يترصدهم من عذاب الدنيا والآخرة إن هم لم يؤمنوا بالفرض منه أن يكسر شيئاً من طغيانهم، ويعرفهم بما يخوفهم ليمرعوها إلى تحصيل أنفسهم بالإسلام. ولكن العناد المتأصل والكفر الشديد جعل قلوبهم قسية لا تلين، بل كائن إصرارهم بضماغم طغيانهم.

61- 62، **وَلَا قَلِيلًا لِّلْمَالِ الْكَثِيرَةِ اسْجُدُوا... لَّا حَتَمَكَ ذِيئِهِ إِلَّا قَلِيلًا.**

لما ذكر في الآية السابقة أن تخويفهم ما يزيدهم إلا استكباراً وطغياناً، وصل لذلك بأصل هذا الاستكبار، الذي يرى إليهم من إيليس. فأمر نبيه بأن يذكر لهم قصة إيليس التي قد تقدمت في مسورتَي البقرة والأعراف، ونخص بإيليس هذا عالم تعرض له في الموقعين السابقين. سجل القرآن أن إيليس عزم على الاعتراض على الأمر الإلهي بمجرد ما سمعه، وبوقاحة فيبحة استنكف كيف أسجد للذي خلقه طيناً، فمن شدة تهيظه واحتقاره لادم لم ير فيه إلا العنصر الترابي وتجاهل ما ركز فيه من سلامة الفطرة وفتح الروح للسمو . ثم واصل بقوله أخبرني ما وجه تكريم هذا الكائن وتقديسه علي؟ فهو يحقره ولا يسميه باسمه ويشير إليه كشيء لا قيمة له ولا تميز . ثم واصل: بكامل التأكيد لأن لم تقص علي وأمهلتني فسوف أقسود بالإغواء نزيته وأطوع الكثيرة الكاثرة لما أريده منهم من العصيان والكفر، أو لاستأصل منهم جوالب الخير، ولا يسم حني إلا القليل، وما أعالته إيليس هو ما

سيفع فعلا، ولكن لا يُظن أنه مطلع على الغيب، فإنه أحقر من ذلك، ولكن العلم الإلهي: أن أغلب بني آدم سيضعفون أمام وسوسته الخبيثة، ويفضلون ما يدعوهم إليه، فآلفى الله في نفس إيليس ما نطق به .

63- قال اذهب فمَنْ تبعك منه ... جزاءكم جزاء موقورا.

افتتحت الآية بكلمة: اذهب التي هي بمعنى انصرف، وهي مضممة بمعنى الطرد والاحتقار . يقول الله : قترت أن من تبعك منهم وخضع لإغوائك، أن تكون عاقبته كماقبتك وأن جراكم جميعا جهنم جزاء . ولها غير منقوص .

64- واستقرز من استخفتم يوما بعدهم الشيطان إلا غرورا .

تسلط عليهم بكل قوتك وإمكاناتك، وفصل ذلك : أثر من استطعت أن تتسلط عليه منهم إثارة تحركهم فيندفعون في متابعتك غير متأنين ولا مترددين، بوسوستك التي تبلغ أعماق شعورهم (واستقرز من استطعت منهم بصوتك) واهجم عليهم بالقادة من أعوانك وبأولي أئليس منهم المترددين الذين يحسبون الفكر والفكر، ويحيطون بهم من حيث لا يدرون . (ولجلب عليهم بغيتك وربيتك) تجسيم لمعركة شرمة بين ما استقر فيهم من الفطرة، وبين نوازع الشهوة وظلام العواطف . ووجههم توجيها في التصرف في أموالهم، تطوعهم به تطوعا لا يخرجون معه عما تحده لهم كأنك شريك لهم، فتسليهم الاختيار بين الإنفاق الصالح فيبتعدون منه، وبين الإنفاق الخبيث فيبتعدون عليه . فيجعلون نصيبا منها لأصنامهم، ولقضاء شهواتهم، ولمقاومة الإسلام . وتشاركهم في أولادهم، فند سول إيليس للعربي الذي يرغب في نجابة الولد أن يمكن الفتى الذي يراه قد جمع صفات الرجولة من زوجته وعزلها حتى نحمل منه، ومن تيسير الزنا بالغياب، وأن من البغيت البغي مولودها به من الذين ضاجعوا الفتح به . وسما أولادهم عبد العزى وعبد اللات . ومن ذلك الولد خوفا من العار، وقتل الأولاد خوفا من الفقر . فإيليس يوجههم إلى طريق الشر بقوة تأثيره فيهم فيبتعدونه، وتسلط عليهم بسعة الأمالي فيبتعدون عن الحياة الواقعية الخاضعة لصرامة التفكير . وتختم الآية بقول فصل من الله، يصلح أن يكون مثلا بجري على كل من كان غير والهي (وما يخدم الشيطان إلا غرورا)، فالشيطان يخدم بما تكون عاقبته فسادا . فيحبب لهم القتل لشفاء غيظهم، والزنا لإشباع الشهوة، والغارة للاستيلاء على الأموال والثمناء، فيغترون بالصورة للظاهرة المحبوبة، ويقع بينهم بذلك البغضاء وسفك الدماء، والاستكبار، ونحو ذلك .

65- ابن عبادي ليس، لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيل.

هذه الآية تختم الخطاب الذي توجه به الله إلى إيليس ليقمعه، ويعلن رب العزة أن البشر الذين ربطوا عقولهم وأرواحهم بالله مستشرقين دوما أن شارقهم في كونهم

عباداً له، الذين لم ينقطع الخيط النوراني الذي يصلهم بخالقهم. هؤلاء أنتم عاجز
عن إغوائهم أو التغلب على مقاومتهم للذيلة والكفر. هم متحصنون بعبوديتهم لى
فأنت مهزوم أمامهم، وكفى بربك يا محمد قبيحاً على هدايتهم. وليس معنى هذا أن
عباد الله معصومون من الوقوع في الإثم، ولكن معنى ذلك أنهم يستيقظون سريعاً
إذا انجذبوا إلى وسوسته فيبطلون بالتوبة التي تطفى ظلمة الخطيئة وغيش الإثم.
قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا سَأَلُوا عَنْهُمْ شَيْئاً قَالَوا نَسِئُوا إِنَّا فَكَّرْنَا بِإِذَا عَمِ
مَصْرُوناً)^١

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِر لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهَ كَانَتْ بِكُمْ
رَحِماً ۖ وَإِذَا سَأَلَ الضُّرُّ الْبَحْرَ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا يَأْتِ فَكَا تَجْعَلُونَ الْبَرْ
أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴿١٠﴾ أَفَأَمْسَتْ أَنْ تَحْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ آلِهِ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكَرَّ وَحِكْماً ﴿١١﴾ أَمْ أَمِيتَ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِ نَارُ الْآخِرَى
فَتُرْسَلَ عَلَيْكَ نَاصِباً مِنَ الْوَيْحِ يُخَوِّدُكَ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكَرَّ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيعاً
﴿١٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نَبِيَّ إِدْرِيسَ وَخَلَقْنَاهُ فِي آلِهِ وَالْبَحْرِ وَزَوَّجْنَاهُمْ نِسَاءً الْعُلَمَانِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كُلِّ بَحِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِلاً ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

يزجر : يسوق سوقاً بطيئاً.

البحر : الماء الكثير بما يشمل الأنهار الجارية كالنيل.

الامتفاء : الطلب.

فضله : رزقه.

ضر البحر : خوف الغرق.

ضل : فقد.

أعرضتم تركتم دعاء الله.

كلوروا : جاحدا للنعمة. غير شاكر.

الخمسة : انقلاب ظاهراً الأرض في باطنها.

الضلي : الجانب .

التحاسب : الرامي بالحصباء .

توكيل : المدافع عن موكله .

ثارة : مرة .

المكسر : للمكسر .

شبيع : من يتبع الأخذ بثأركم .

بيان المعنى الإجمالي :

لقد ألقا القرآن الأنظار إلى بعض الممن الإلهية وموقف بعض الناس منها. فمن ذلك أن الله هو الذي سخر لكم الفلك في البحر فسيرها سيرا مستويًا وبقا مساعدكم على نيل فضل الله عليكم من تجاره وتواصل بشري واستفاد . كان ذلك بفضل رحمة . وقد يهيج البحر فتخافون من الغرق، وتجارون بالدعاء طلبا للألطاف وللعون ولا تجدون محببا لكم إلا الله . أما معبوداتكم فهي مغفلة، تدركون أنها لا تستطيع مساعدتكم . عجب لأمركم أنه بمجرد ما نزلتم إلى البر تركتم دعاء الله وعندتم إلى ما كنتم عليه . والإنسان من طبعه كفر النعمة التي تتردد بين السهو عن شكر مستيها وبين الإنكار له ولما يمنحه .

أجهلتم أن الله قادر على أن يخسف بكم الأرض التي ظننتم أنكم تكونون في أمن على ظهرها ؟ . أو أن يرسل عليكم حصى من السماء يحصركم بها ثمزقكم، ثم لا تجدوا من يدافع عنكم؟ هل تأمنون أن يجلبكم مرة أخرى للسفر في البحر فيرسل عليكم ريحا عاصفا تكسر صواري سفنكم وتحطمها فيبتلعكم البحر وتذهبون لا قيمة لكم ولا من يتبع روالكم بطالب بتعويض عن ذنبكم .

لقد كرّمنا بني آدم من خمسة أوجه : أنا كرّمناهم، وجعلنا لهم حرمة تمنع إزلالهم، وسخرنا لهم البحر لتحملهم السفن، وسخرنا لهم ما يركبون من الحيوانات، ومكناهم من أطيب المأكولات والمشارب، وجعلناهم مفضلين على كثير من مخلوقاتنا . فهي من تدعو إلى شكر المنعم باللسان، وبصرف النعم فيما خلقت له بالوجه الحلال .

بيان المعنى العام :

66- ربك الذي يرزقكم الفلك في البحر، فإنه حكيم بحكمه وحيمه .

لقد ألقا الناس جميعا إلى نعمه المتنوعة، والطاقة الميسرة للانتفاع بما في الكون، فمن ذلك أنه بعنايته قدر الأسباب التي بها تيسر الفلك على سطح البحار والأنهار سيرا مستويًا ؛ وبذلك أوجد لكم طريقا من طرق طلب الرزق بالتجارة والاتصال بين القارات، وبلوغ مقاصدكم العبادية والدينية . إن ذلكم الترتيب الذي

شمل كل جزئية من جزئيات الرحلات البحرية، كتفيع الماء للقلل الذي تحويه السفن بمقائير محدنة مضبوطة، والرياح الممسيرة والطاقمة المحركة، والعلامات الضابطة للاتجاه، وغير ذلك، كل ذلك لتعلموا أن الله رحمكم رحمة تشمل ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم.

67- وإذا مسككم الضر في البحر وسوكنكم الإنعان سكتوا.

بعد أن بسط نعمة السير في القلك، ذكر البشّر بأحوال استثنائية في ركوب البحر. ذلك أن ركاب البحر قد يتعرضون لهياجه وتلاطم أمواجه، ويسري في قلوبهم الخوف من الغرق. وفي هذه الحالة يُذكر، بصفة خاصة، المشركين فيقول لهم: إنكم تدعون الله وحده لكشف كربكم، وغاب عنكم كل الذين تتوسلون إليهم عادة، ولتعجب أنكم إذا أتتكم ساحل النجاة ونزلتم إلى البر عديتم لما كنتم عليه من دعاء الأصنام. ركب في طبع الإنسان كفره بالنعمة. هذا الكفر الذي أدنى درجاته سيقن النعمة ويتبع ذلك الذهول عن شكرها، وأعطى درجاته في السوء للكفر والعياذ بالله. في الإنسان لصعفه يكون شعوره خلدا بالنعمة في أول أمرها، فإذا استمرت معه ضعف شعوره بها إلى حد نسيان شكر الله عليها. إنه من أعظم المنى على الإنسان نعمة الإيمان، ثم نعمة العقل، وتتوالى النعم في كل لحظة بما يسره للإنسان من التفتس إلى استقامة الحولس إلى ما لا نخصي له عبدا. وما منّا إلا وهو غافل عن الفضل الإلهي بتفاصيله، فليعود كل مؤمن نفسه على شكر الله في جميع أوقاته بلسانه وبصرف النعم فيما خلفت له. وصدق الله: ولتليل من عبادي الشكور.

68- أمانتم أن يخسف بكم جالب البرسنة لا تجدوا نعمة وكريلا.

نبيهم إلى غفلتهم بظلمهم أنه إذا بلغوا الساحل ونزلوا فقد لجوا نجاه لا خوف بعدها : نبيهم إلى أن هذا وهم وسألهم سؤال إكثار : كيف ناملون أن يخسف الله بكم الرصيف الذي نزلتم به ففتلعمكم الأرض، فيكون إهلاكهم من الأسفل ؟ لم أمانتم أن يسلط الله عليكم بردا شديدا يضربكم ضرب الحصباء المتتابعة، وفي الحاصلين لا تجنون وكريلا يدفع عنكم بما يحميكم من قدر الله؟

69- أمانتم أن يهدمكم فيه سدة لا تجدوا نعمة علينا به تبيها.

بل هل أنتم في أمن من أن ييسر لكم الأسباب فتعودون مرة أخرى لغرض عياب البحر، وفي لحظة يرسل عليكم الريح التي تكسر الصواري وتنفخ أمواج البحر

دفعاً يحطم سفنكم وتغرقون؟ إن عرفكم ورفع الأطفاف عنكم هو بسبب كفركم، وأنتم في هذه الحالة عاجزون عن رد البلاء، كما أنه ليس لكم من يأخذ بثأركم، فيبطلكم البحر وتذهب أثاركم، هذا جزاء من يغفل عن النعمة ولا يشكر عنها ربه العالمين المنفذ اللطيف الكريم.

70- ولقد صكرنا بني آدم وحملناهم سمن خلقنا نفضيلاً.

عموم بعد خصوص إذ أبرزت الآيات السابقة تمكين الإنسان من قطع البحار في وفق ولين، وإنجائهم عند ما تتلاطم الأمواج وهم يستصرخون ربههم، ومن لطفه بهم لم يخيف بهم الأرض بعد أن نزلوا إلى البر، ولانسج تهديد المشركين بأنهم في قبضة الله. أما هذه الآية فقد بسطت خمس من جليلاته انعم الله بها على البشر جميعاً:

أولاً: تكريم الإنسان. ويشمل ذلك أموراً منها -أ- تحريم إذلاله نفسياً لو ببثيا -ب- الصورة التي خلقه عليها في شكله، فهو أجمل المخلوقات على الإطلاق -ج- في نقله في الحياة في مشيه وأكله وشربه -د- في ذوقه ورفى حاسة الجمال فيه -هـ- في ارتقائه حضارياً في لباسه وسكنه وأثاثه وفي أنواع طعامه، وفي نظافته ونظافة محيطه -و- في قدرته على المزج بين قوتين العقل وتجليات الروح، وبيل للمشاعر وغير ذلك مما لا يحصى عدا. ثانياً: الحمل في البر يتمخيز الحيوانات ليركب ظهورها فتحمله وتحمل متاعه، ثم ما ولد بفضل اكتشافه لقوانين القوة من أنواع المركوبات.

ثالثاً: الحمل في البحر بإلهام قولين بناء السفن، والطرق المساعدة على تسييرها من المجاديف إلى المحركات الصغيرة والملاحة.

رابعاً: ما يسره الله للإنسان من التعرف على مختلف أنواع الطعومات، التي تلتهم فيها لذة الطعم وطوبى الرائحة المثيرة للمشبهة.

خامساً: تمثيله على كثير من المخلوقات التي تشرفت بحلقه مبعاله إياها، فجعل الإنسان لفصل منها يستطيع أن يتحكم فيها ويطلعها لتحقيق أغراضه.

وإن كان التكريم يشمل التفضيل، إلا أن التفضيل أخصر من التكريم لأن التفصيل ينتظر فيه إلى جعل مرتبة فوق مرتبة بقية كثير ممن خلق الله. وفي التعبير بكلمة [كثير] تدقيق يشير إلى أن بعض مخلوقات الله قد لا تكون الإنسان مفضلاً عليها، قد تكون مساوية له في التفضيل، وهذه الفاحية تؤخذ من تخصيص الشارع إذ هو وحده الذي بيده التفضيل، والتمرض للتفاضل بين الملائكة والبشر اعتبره خارجاً عن مهمة المفسر ولا دليل عليه يبلغ درجة اليقين.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ فَمَنْ أَوَّحَىٰ كِتَابُهُ بِسْمِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
 كِتَابَهُمْ وَلَا يَذَلُّونَ لَيْلًا نَّ وَالْجَنَّةِ وَمَنْ كَانَتْ مِنْهُ أَعْيُنُ فَأُولَٰئِكَ يَخْرُجُونَ
 وَأَضَلُّ سَبِيلًا نَّ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ غَيْرَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَنُنْظِرَ عَلَيْنَا
 غَيْرَهُ وَإِنَّ لَأَمْتَدُونَكَ حَبْلًا نَّ وَلَوْلَا أَنْ تَحْبَبَنَّكَ لَفَدَّ بِكَ تَرْكُوكَ إِلَيْنَا فَمَا
 لَيْلًا نَّ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصْرًا
 نَّ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَإِنْ لَّا يَلْبِثُونَ
 خَلْقًا إِلَّا لَيْلًا نَّ سَنُفَصِّلُكَ مِنَ الْأَرْضِ لَأَخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَإِنْ لَا يَلْبِثُونَ
 خَلْقًا إِلَّا لَيْلًا نَّ سَنُفَصِّلُكَ مِنَ الْأَرْضِ لَأَخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَإِنْ لَا يَلْبِثُونَ

بيان معاني الألفاظ ،

الإمام : مبین الدین .

باللهم : یتقصد من جزاء أعمالهم .

الذليل : الخيط في شق النواة ، تمثيل للتأله .

في هذه أعني : ضال عن الحق في الدنيا .

ولتفزونك : الفتن معاملته بفصد منه لإخلاق ضرر على النفس بعسر دفعه .

للخاليل : الصديق الخالص .

ثبتلك : جعلنا اقتناعك ثابتاً باقياً على ما أنت عليه .

تركن : توالق .

الضعف : المعامل للمقدار .

يستفزونك : يضيغون عليك ليخرجوك من مكة .

يلبثون : لا يستقرون في مكة .

خلقتك : بعثك .

سنة : العادة التي جرى عليها الأمر .

تحويلاً : تبديلاً وتغييراً .

بيان المعنى الإجمالي ،

يا أم الله نبيه أن يعرف البشر بشأن من شؤون يوم القيامة . ينادي المنادي كل الناس باسم
 قائدهم الديني الذي اتبعوه في الدنيا . فالمسلمون ينادون : يا أمة محمد ، والنصارى ، يا أمة
 عيسى . والزرادشتيون يا أمة زرادشت ، والمزدكيون ، يا أمة مزدك ، والبوذيون يا أمة بوذا .

وهكذا ... ويتلقى كل مبعوث صحيفته، يلهم الصالحون تلقيا باليمين فيسرعون إلى قراءة ما هو مثبت فيها، فيجتنون كل أعمالهم الصالحة جليها وصغيرها مسجلا لم ينقص منه شيء. وبالمقابل فإن القسم الآخر الذي عمى في حياته الدنيا فلم ينظر في الآيات البينات وصمم على الرفض، فإنه يجد عماء مصاحبا له يوم القيامة فهو في حال من التردد والحيرة أشد مما كان عليه في الدنيا لا يأمل أن يجد منه مخرجا .

لقد قوي مكر المشركين بك فقاربوا في ظنهم أن يفتنوك عن بعض ما أوحاه الله إليك من الهدى فتحوله إلى ما يرضيهم مما ينالض صراحة الحق المتزل، قصد أن يتخذوك صديقا خالصا، يربونك منهم وينتهي الجدل بينك وبينهم .

لقد كانت الشبهكات التي دبروها لإكراك على ما يريثون فوبة جدا، ولكنك أقوى من مكرهم وتكبرهم. فإني أنا الله القوي العزيز، قد ثبتك فرددت مكرهم في نحرهم، ولولا هذا التثبيت فإن الناظر فيما دبروه يكاد يجزم أنهم سيذلون مبغضاهم فتوصل إليهم ميلا قليلا، ولكن عصمة الله كانت لها الكلمة العليا وسقط ما مكروا به .

ومصانعة الكافرين في الثوابت غير مقنولة، فلو ملئت إلى ما يريدون منك ولو قليلا لسلطنا عليك عذبا مضاعفا في الدنيا وعذابا مضاعفا أيضا يصحبك من الممات، والمقصود تقبيح المذمومين أن لا يتهادوا مع الكفرة في الدين، وأن لا يبرروا تخاذلهم بعبورات مرفوضة من رب العالمين، فوفا ذلك لا نجد نصيرا ينصرك ويخلصك من العذاب.

ومن تأييد الله لك أن مشركي مكة عملوا على إلجائك للخروج من مكة ضعيفا فريدا، فسلطوا عليك ضروب الإبداء لينفذ صبرك وتترك الدعوة وتترك لهم مكة . وما علموا أنه لو تحقق لهم ما أرادوا، لحل بهم الهلاك العسمر بعد زمن قليل من خروجك، ذلك أن منة الله التي لم تتغير: أن كل الذين أخرجوا رسولهم الذي بعث فيهم قسرا، أنهم لا يبقون بعده إلا قليلا ليُعاجلهم العذاب المستاصل .

بيان المعسر العام :

71- يوم ندمو سكر الناس بإمامهم ... ولا يظلمون فتيلًا.

تأتي هذه الآيات رابطة لظواهر سلطان الله في الآخرة على مظاهر سلطانه تعالى في الدنيا. فيقول القرآن لنبيه: اذكر يوم ينادي المنادي كل الناس سجموعات مجموعات باسم إمامهم للذي كانوا يتبعون هديه في تصوراتهم الدينية فتدعى أمة الإسلام بأمة محمد، وبو إسرائيل بأمة موسى، واليونانيون بأمة يوزا، والأحمديون باسم ميرزا أحمد . وبعد أن تنقسم الخلائق إلى مجموعات، يعطى كل فرد كتابه الجامع لأعماله في الدنيا وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: من يلهمه الله أن يأخذ كتابه بيمينه، وأخذ الكتاب باليمين فيه إشارة أولى بإقدامه على تناول كتابه بقوة ولطمئنان وبدون خوف، شأن الإنسان في تناول المحبوب بيمينه. ويميز الله هؤلاء (أولئك) بتكوين داعية قبيهم تسرع بفتحهم وقراءة ما سجل فيه. وكم يعظم مسرورهم عندما يجدون أن ربهم سجل لهم كل صالح أعمالهم ولم يهمل حتى البسيط منها والنافع الذي لم يلق له صاحبه بالا في الدنيا!

72 ومن حكايا في هذا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سبيلا.

القسم الثاني هو مقابل القسم الأول، ولم يذكره القرآن بوصف معاكس لفظا للقسم الأول، ولكن من بلاغة القرآن أن ذكره بوصف معبر عن سبب وضعه الخاص، وهو أنه كان في هذه الدنيا ضالا لم يميز للحق الذي جاءه من عند الله، فيكون ذلك دالا على أنه أوتي كتابه بشماله بسبب اختياره الإعراض عن الحق. ويكون وضعه في الآخرة مناسبا لميلوكه الدنيوي. فهو أيضا أعمى في الآخرة. وليس عماء عمى النعمون ولكن ما ينشأ عن العمى من الحيرة والتخبط، بل هو أشد ضلالا في وضعه هذا من وضعه في سابق حياته الدنيا، فتخلط عليه السبل وتتملكه الحيرة وبالتالي الضلال، فعماء في الآخرة أشد من عماء في الدنيا إذ يكون عماء السابق عمى يمكن له أن يرفع الحجاب، فيرى الصواب. ولما عماء في الآخرة فهو لازم، وهو النتيجة السليمة لعماء الدنيوي.

73 وإن حادوا له يستولنك رمز الذي أوحينا إليك ... خليلا.

تضيف هذه الآية لضلال المشركين في أنفسهم تناولهم بما مهدت لهم نفوسهم الخبيثة، أن يؤثروا في رسول الله ﷺ بما يحوله عن الطريق المستقيم الذي هو سائر فيه، وعن الخط الواضح البين الذي هو ماله لا يحيد عنه. كان قصدهم أن يخروه بمختلف الإغراءات ليتحول قليلا عن منهجه، وأن يصيرح لو بفعل مساير رضي شركهم وكبريائهم. علما أن كل هم للنبي ﷺ أن يجلب البشر إلى الدين الإسلامي، فمرضوا عليه، أنه إذا فعل ما يقترحونه عليه يدخلون في دينه. مما روي بأن يبعد ضعة المؤمنين من مجلسه، لرضاء لعناظهم وكبريائهم، أو أن لا يقبل الحجر الأسود إلا بعد أن يتمسح بالهئتهم ليظهر عظمتها وإقراره بمكانتها، أو أن لا يذكر الآيات التي تحطم قداسة الهتهم. وألحوا في عروضهم تلك، وبالفوا في اللب والدوران حتى قاربوا في ظنهم أن يصرفوك عن النور الذي أوحيناه إليك. ليس معنى هذا أنهم قاربوا التأثير عليه ﷺ فعلا، ولكن هو حاصل ما استقر في نفوسهم لقوة إغراءاتهم، ودخلهم عليه من الناحية التي يعتقدون أنها تؤثر فيه. هم لم

يرغبوا في الصدق، وإما يرغبوا أن يحولوك عما طُبعت عليه من الصدق والثبات، إلى مستواهم بالكذب على الله وتغيير ما أنزل عليك أو كتمانته أو الرضا بمنهج غير المنهج الذي أنت ملتزم به. ولو أشروا عليك فصرفوك إلى الذين يقبلون بعض مقترحاتهم لأقبلوا على تفريقك تقريبا للخليل الصديق القريب.

74-75. ولولا أن ثبتناك لقد كدت بلالا تجد لعمد صليبا نصيرو.

من الذي حمى محمدا من أن يلين ويضعف، أو أن يميل إليهم، ما الذي حمىه يرفض كل الإغراءات كدخولهم في الإسلام، وإقامة السلم بينهم وبينه واعتباره خليلا مصافيا لهم؟

جاء الجواب في هذه الآية: والمقصود الأول هو التأكيد على قوة الإعراء، وإن انتقاء تأويله كان بتأييد من الله الذي بيده الأمر.

يقول الله تعالى: **لولا أن ثبتناك لقد كدت بلالا تجد لعمد صليبا** نصيرو. نوبتك وتثنيك وحضنتك من اللؤلؤ لاستطاع المشركون أن يفرطوك منهم قريبا قليلا. إن كلمة **لولا** في التعبير العربي تدل على أن جوابها لم يقع لوجود الشرط الملاصق لها. نقول: **لولا الجفاف لبنت الزرع**. فهي تدل على أن الزرع لم ينبت بسبب ذلك الجفاف، وفي الآية أن النبي ﷺ لم يميل إليهم ولم يسركن. لأن الله معه ثبت عقله وفكره وعقيدته، فالمنفي الميل القليل، وهو ما يحقق أن إعراءاتهم لم تؤثر فيه ولم يعلق بفكره. ما يؤثر في اختياراته ليحيد عن منهجه ولو كان ميلا قليلا. فكانت حصانته بفضل التثبيت الإلهي سدا منيعا من بلوغهم ما خططوا له ودروا.

ثم يواصل القرآن التأكيد على التأييد مع تنبيه المؤمنين إلى أن الثوابت لا تقبل التهاون بها ولا النزول عنها سيما كانت الأسباب.

إنه لو ملئت إلى ما يدعوكم إليه، وتراخيت ههنا تفريق مجالسك بين كبراه قريش والمستضعفين من المؤمنين، مبررا أن الضعفة لا يحرمون من هدايتك، ولكن تكون لهم مجالس خاصة بهم فقط، أو أن تسمح بيحك على أصنامهم مع أن قلبك مبغض لهم محقر غير راض، أو أن تبقى في شرك بعض ما أنزل إليك من تفريعهم على الشرك، حتى بالقوا الإسلام ويستقر في قلوبهم فقلع عند ما كتبت أخفيته. إن انهزامك بقبول شيء مما يتناقض مع ثوابت الدين بتعلات، يتبعه حتما العذاب المضاعف في الدنيا، فتتراكم عليك المصائب ويخطبك التأييد الذي وعدتك به من انتشار دعوتك، وحمابتك من أن يصل أعداؤك إلى الإضرار بك كما في قوله

تعالى: **وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** - وكذلك العذاب المضاعف عند المعات، وعذاب المعات المضاعف يبدو في الكمد التابع للإتهزام . وفوق ذلك لا تجد من ينصرك من الفضب الإلهي، واليأس من الخلاص لقوى من العذاب الأول.

ولقد تحير بعض المفسرين في تأويل هذه الآية، والراجح عندي أن القرآن يهدف من تهويل عقاب التميل إلى الكفار بالإغضاء عن ثوابت الدين، وقبول الحلول الواسطي، إلى أنه أمر مرفوض قطعاً، حتى إنك يا محمد، على علو منزلتك وقربك مني، لو فعلت ذلك لواصلت عقوبتك في الدنيا وعند المعات وبعده . فالفرض يقصد به تظلم مثل هذا الاجتهاد، وتبئيه المؤمنين إلى الخطوط الحمراء التي لا يقبل تجاوزها بأي مبرر كيفما كان حاله . وكتظلمير، والله المثل الأعلى ولكنه لتقريب الفهم، كان يقول الملك لوزيره إنك لو هادئت عدوي لعلقت جنتك حتى تأكلك الطيور الكاسرة، وهو لا يقصد ولا يخطر بباله أن وزيره وصفه يقوم بمثل ذلك، ولكن ليبين لكل فرد من أتباعه والدخيلين تحت سلطانه المال الذي ينظره إذا هو خائنه وهادن عدوه، وعلى هذا أفهم قوله تعالى: **وَلَمْ يَتَقَمَّرُوا شَيْئاً بَعْضُ الْأَقْبَرِ** **لَا كُنَّا لَهُم بِالدِّينِ ثُمَّ لِنَنْفَعَهُمُ الْيَوْمَ** - أفهم منها شدة الزجر وعدم غفران القول على الله بغير علم.

وقد رأينا في عصرنا هذا تغيير الشريعة والتساهل في الثوابت بتعلات، كإعمال قاعدة التيسير في غير مواضعها، وكاعتماد القول باختلاف الأحكام كلها باختلاف الزمان، حتى انقلب الشريعة عند عصر المتفهمين إلى هبولى قابلة للتشكل حسب الهوى .

78-77 زين حكاذاوا ليستفتروا من الأرض...ولا نجد لمنقلنا تبديلا.

مجل القرآن ما عزم عليه المشركون وما هبوا له من إلحاق الأذى برسول الله ﷺ حتى يضطروا لمناذرة مكة فصرأ، بالتضييق عليه وعلى أصحابه، ومنعه بكل الوسائل أن يقوم بمهمة التبليغ، وقد تغل المشركون في ذلك ما شاء لهم للتفنن. وثبت الله لبيده ففرس في عالي نفسه التصميم على تحدي الشرك والمثابرة، ولم يستطيعوا أن يخرجوه كما أرادوا مضطراً بدون ترتيب لما يستقبله من أمره. إنهم لو أخرجوك منها مضطراً مدفوعاً، ما بقوا بعدك في مكة إلا قليلاً من الزمان ويستأصلهم الله بعد خروجك. على هذا مضت سنة الله في المرسلين من قبلك، أن

المبعوث إليهم كلما ضيقوا على رسول وأخرجوه إلا وثب على ذلك إهلاكهم، وهذه السنة هي سنة ماضية طريقة مسترسلة وعادة لا تتخلف، ولا تتحول.

إن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليست الخروج الذي تحدثت عنه الآية. ذلك أن الخروج الذي كانوا يسعون لتحقيقه يختلف أوجه الضغط أو لونه خروجاً قسرياً، فيفاندر مكة وهو ضائع لا يدري ما يفعل، خروجاً يقف معه مد الدعوة . وهذا ما لم يحدث، ولذلك لم تعقب هجرته ﷺ إلى المدينة بإياداة قريش. لقد كانت الهجرة إلى المدينة تحولاً راشداً في مركز الإشعاع الديني، فقد انتظم أمر المسلمين بها أصبحوا قوة ولم يكونوا مشردين ضعفاء.

ولذا فإن ما ذهب إليه بعضهم من أن الآية مثلية بعيد عن مضمونها الحقيقي.

أَمَّا الصَّلَاةُ فَادْعُكَ إِلَيْهَا إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا ﴿٢٠﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ بِهِ قَابِلَةً لَّكَ عِشَىٰ أَوْ يَتَعَفَّكَ مِنْهُمَا مُغْمُودًا ﴿٢١﴾
وَلَوْ رَتَّبْنَاهُ مِنْكُمْ مُدْخِلٌ مُّذْخِلٌ مُّصَدِّقٌ وَأَخْرَجِي مُصَدِّقٌ أَجْعَلْ لَّيْلٌ مِنْ لَدُنْكَ
سُلْطٰنًا حَكِيمًا ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَ الْمُحْلِفِينَ بِالْحَيْثُورِ إِنَّ الْبَيْتَ لَأَنْزَلُوهَا ﴿٢٣﴾ وَتَقُولُ مِنْ
الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْجُوا الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإقامة : الأداء على الوجه الأكمل، مع المواظبة.

الذئبوك: حالة من حالات مسير الشمس، تطلق بمعنى ميل الشمس عن كبد السماء بما يتجه من زوال الظل، و تطلق بمعنى وقت بلوغ ظل كل شيء مثله، وتطلق بمعنى غروبها .

الفرق : الظلمة، عند انقطاع شعاع الشمس.

النهج : الصلاة أثناء الليل.

ملف: زيادة في الأمر المحبوب،

المقام المحمود : المكان الذي تميز بخلوص النشأ للعالم فيه.

المنطل والمخرج : مكان الدخول ومكان الخروج.

مصدق : هو أكمل ما يكون عليه في نوعه. فيرتفع الذم ويعم المدح.

المسؤوليات : يجمع السلطة، والحجة، والقيادة.

المتمم: القوي النصر.

الحق : كل ما جاء على لسان الرسل من الهدى .

زهي : لضمحل .

الباطل : ضد الحق مما محض النني ❧ جهده لهدمه .

نساء : ذهاب الداء الجسدي، ومثله الداء العقدي والتصوري .

الظالمين : المشركين .

بيان المعنى الإجمالي .

أوجب الله على الأمة خمس صلوات في اليوم وذلك لفيلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقات الصلوات. فحمت أوقاتا ثلاث صلوات هي الظهر والعصر والمغرب، من ثلوك الشمس، أي من ميلاتها عن وسط السماء إلى أن تغيب في الأفق الغربي . ووقت العشاء عندما تظم ظلمة الليل بمغيب الشفق (غسق الليل) ووقت الصبح عند طلوع الفجر وغير عنها بقران الفجر، لطول القراءة فيها وكثرة من يحضرها مع نشاط يستقر به القران في نفوسهم. وهو وقت يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . وأمر ❧ أن يتجهد في وقت من الليل، والتجهد واجب عليه ❧، مرغب فيه لأمنته، ووعد جزاء على صلاة الليل: أنه سيعطه يوم القيامة في المقام الذي يحمد به البشر جميعا ويثنون عليه من آمن به في الدنيا ومن لم يؤمن . من جاء معه ومن يجيء بعده، ومن مضى قبل ذلك في تاريخ البشرية، عندما يشفع فيهم فينكلون من المحشر إلى الحساب بعد العناء الشديد من طول الانتظار .

ويلقن نبيه دعاء جامعا للخير : أن يؤيده كلما دخل مكانا وكلما خرج منه ليكون في رعاية الله ويتيسر أمره حتى يلازم الحق . وأن يقوي جانبه في الهدى ويتصبر فيمكنه من نشر الإسلام والنجاح في مهمته الشريفة . وكل معننا في وثوق: إن جولات الكفر وما يقوم عليه قد انهزم، وإن الله أظهر الحق الذي جئت به، وهذه سنته في الكون: أنه كلما نشبت المعركة بين الحق والباطل وقام أهل الحق بحقهم، أن يتغلبوا على الباطل ويهزموه. لأن الباطل هو عكس لطبيعة الكون فلا يستقيم له وجود إلا بقوة خارجية، فوحد ويذهب بمجرد ما يضعف للتأييد له، وبذلك يكون ما نزل متابعا عليك من القران بذهب الحيرة والشك والخوف من قلوب المؤمنين، وتشملهم من آياته الرحمة والطمأنينة. ويكون في المقابل زيادة في خسارة المشركين بتضاعف آثامهم وإغراقهم في الضلال .

بيان المعنى العام .

78 أله الملاحة لثلوك الشمس، إلى غسق . سكان مشهودا .

بعد الآيات التي أفادت عنابة الله برسوله، توجه إليه الأمر بالموافقة على الصلاة، وأدائها على أكمل الوجوه من الإقبال على الله، والطهارة الجسمية والمكانية، وإتمام أركانها وشروطها، ليزداد بها سموا وقربا من الله. وكل خطاب توجه به القرآن إلى النبي ﷺ، هو شامل لأمته إلا ما قام الدليل على أنه من خصائصه. وللصلاة فرض ليلة الإسراء، وبيئت هذه الآية أوقاتها بعد الأمر بها؛
أولا : دلك الشمس، وهو ميلان الشمس إلى أن تغرب في الأفق وقسم هذا التوجه إلى الغرب بثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى: عندما تزول الشمس عن كبد السماء، وهو الوقت الذي تبدأ فيه مسارها عكسيا لوقت شروقها، وهذا وقت الظهر .

المرحلة الثانية: من الزوال إلى أن يبلغ ظل ما على الأرض مثله، وهو وقت العصر .

المرحلة الثالثة: عندما يختفي الحجاب الأعلى لقرص الشمس، وهو وقت صلاة المغرب. فمثل قوله تعالى لدلك الشمس أوقات ثلاث من الصلوات حسبما بينه النبي ﷺ قولا وعملا، وإن اتفقت كلمة علماء السنة على وقت الظهر والمغرب، فإنه في ضبط دلك الشمس الذي يدخل به وقت العصر خلاف.

ثانيا: إلى غسق الليل، وغسق الليل هو استئثار ظلامه بغيب الفسق، وهو وقت دخول صلاة العشاء المعبر عنها بصلاة العتمة.

ثالثا: وقرآن الفجر، أي قم قرآن الفجر. وهو وقت دخول صلاة الصبح، وأسندت صلاة الصبح للقرآن لما اختلفت به من عدم الإسراع بالقرآن فيها، ولأن السنة بطالة للثلاوة فيها، وشهوده، يقصره ما رواه مالك والشيخان وأحمد وغيرهم، واللفظ لمالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يتماقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين أتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم يصلون وأقرباهم وهم يصلون^١ ولأن الصفاء الروحي الذي يكون عليه المصلون بعد أن استجمعوا بالنوم، يجعل استقراء القرآن للمجهور به والمطول في صلاة الصبح أكثر نفلا وتأثيرا.

79 ومن الليل فتهجد به نافلة لصحتك وريحتك مقاما محمودا.

عطف بالأمر بالتهجد على الأمر بالصلاة في أوقاتها الخمسة . وليرر القرآن من لول الآية الوقت (بعض الليل) لأنه وقت يدفع فيه النبي ﷺ وكذلك من يتهدد من

للمؤمنين، يدفعون داعية النوم القوية وينشطون للقيام بالصلاة، فالتعهد إذن ترك الهجود أي النوم والتكرب إلى الله بالصلاة، وهذه صيغة في اللغة العربية نظير ما تحنت أي ترك الحنت، وتأثم ترك الإثم، وتخرج ترك الحرج، والتعهد واجب على النبي ﷺ، مرغّب فيه للمسلمين.

وقوله تعالى: **عسى أن يبعثك ربك مقبلاً محموداً** - صيغة الرجاء من الله تفيد الوعد، فهو في قوة أنك أن يبعثك ربك. ولبعث هو التوجيه إلى المقام المحمود الذي يكون من حل به محل للناء والتقدير. وقسر المقام للمحمود بالشفاعة العظمى، وقد ثبت في الصحيح أن للأنبياء يستشفون بالمرسلين واحداً واحداً فكل يحيل على غيره حتى يستشفوا بمحمد ﷺ فيؤمن ويقبل الله شفاعة فينتقل البشر من المحشر إلى الحساب. فينثي عليه البشر جميعاً.

80- **وقل رب ادخلني مدخل صدق - سلعلنا نصيراً.**

تتوالى رعاية الله برسوله فبعد أن شرع له الصلاة التي بها يسمو إلى أعلى مقامات القرب كما قال الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله، والمصلي يناجي ربه. لومته للدعاء الذي يثبته في جميع الأحوال، قل يا محمد داعياً متوسلاً إلى ربك : رب أدخلني إله من شأن الإنسان أن تكون حياته سلسلة من التقلبات في الأمكنة، فساد يدخل مكاناً حتى يخرج منه إلى غيره، وكلما ضاقت مسلكه للتكفل بين المدخل والمخرج فهو السجن أو المرض أو العجز. وكل مدخل مجهول عاقبته، فيؤمن الله نبيه موالاة الإنعام عليه أن يجعل تقلباته مصحوبة بالألطاف الإلهية والعناية الربانية ليكون ما يجده في كل مكان يدخله من الخير واليسر والنجاح أحسن تقدير، ويجعل ما يجده في المكان الذي يخرج إليه نفس التوفيق والعناية. وحقيق بالمؤمن أن يواظب على هذا الدعاء، فهو من مجامع الكلم التي تمتع أفاضل مشمولاته إلى الحياة كلها.

ويختار الدعاء بطيئة أن يهيء له من عده ما يؤيده بسلطان من الحق، ومن قوة الحجّة، ومن التمكين في الأرض بقيادة الأمة إلى ما يعزز جانبها ويعلي دين الإسلام وينصر جيوشه، فيثبت الرعب في قلوب أعدائه.

81- **وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.**

أمر من الله لنبيه أن يعلن في وثوق أن الله استجاب دعاءه، ونصر الإسلام فعلاً. وفي هذا الإعلان ما يثبت المؤمنين ويقنعهم بأن كلمة الله هي العليا، وأن المعركة الدائرة بين ما أتى به النبي ﷺ من العقائد ومن التشريع أنه حضر حضوراً ثابتاً في الكون، وبين ما عمل على هدمه ونقضه من العقائد والأحكام قد تم القضاء عليه.

وتختم الآية بإعلان إلهي هو سنته في الكون وفي الصراع الذي ينشب بين الحق والباطل؛ أن الباطل ينتهي بالانحجار والهزيمة ويتغلب الحق.

وهذه الآية هي التي كان ﷺ يرددتها يوم فتح مكة، عندما دخل الكعبة، فأسقط كل الأصنام وأكثبها على الأرض وهو يتلو هذه الآية. لقد كانت تمثل ما أقام الله به عليه من نصر التوحيد والقضاء على الشرك.

82- وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ لِّمَن يَشَاءُ ۚ وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

إن حضور الحق وظهوره مستند أولاً وبالذات، إلى السوحي الذي أنزل من الله على قلب رسوله، وأعلاه القرآن. فتثبت الآية أن الله يواصل إنزال القرآن على قلبك، الذي هو شفاء للنفوس من الحرافات والضلالات والأوهام، وتبديد للشكوك والقلق والخوف. فيجد تاليه من الحكم والتشريع والتذكير وإحياء الروح وتوضيح المنهج ما يأنس به العقل والضمير. وبمقدار ما يزداد المؤمنون به قرباً من ربهم وطمانينة واستقامة، بمقدار ما تبتعد الشقة بينهم وبين المشركين في ذلك، فيزدادون خساراً في دنياهم بحرق الضلال، وخسارة في آخرتهم بالخزي والعذاب يوم القيامة.

وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ائْتَرَضَ وَنَحْنُ كَاجِدِينَ ۚ وَإِذَا نَسْنَاهُ الْغَمُّ كَانَ ثَوْمًا ۚ قُلْ كَلَّا لَنَعْمَلَنَّ عَلَىٰ شَاكِلَتَيْهِ ۚ فَرُتْكُهُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۚ وَنَسْنَاهُ نَاسِيًا ۚ قُلْ الْوَيْلُ ۚ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ۚ وَمَا أَوْفَيْتُهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۚ وَلَٰكِن يَفْقَهُ الْغَافِلُونَ ۚ بِأَلْبَسِي أَوْخَعْنَا الْفَلَكُ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ ۚ عَلَيْنَا نَكْبَلُكَ ۚ إِلَّا زَحْمَةً تَنْ رَأَيْتَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَظَرًا ۚ

بيان معاني الألفاظ :

لنعمنا : مكانه من النعم الدنيوية .

أعرض : صد .

ونأو بجالبه : صد عن العبادة والشكر .

الشائلة : الطريقة التي ألفها الإنسان في حياته .

الويل : المدافع والشفيع .

بيان المعنى الإجمالي :

يبي الإنسان على ضعف يفقد معه التوازن فيخسر إذا لم يتحصن بالإيمان . فهو إذا نال النعم لطهرته النعمة أعرض وصد عن السبيل الرابطة بينه وبين الله، ومضى لا

يشكر ولا يعبد، وليس وضعه خيرا إذا منه الشر وسلبت منه النعمة، يحل اليأس في كيانه ويقلط وتضييق الدنيا في ناظره رغم سعتها. قل لهم يا محمد: كل فرد من المؤمنين يسير في حياته على الطريقة التي اختارها وألفها، وهو مسؤول، وربيك عليهم بالمعراج الصالح الذي بحث به رملته لهداية البشر.

سجل القرآن أنهم سألوا النبي ﷺ عن ماهية الروح فأوحى الله لرسوله: إن الروح مخلوق لله، ثم إن المستوى المعرفي للبشر في ذلك الوقت لا يسمح لهم بإدراك ماهية الروح إدراكا كاملا.

وكما أن معرفة ماهية الحياة متوقفة على مستوى علمي، فكذلك ما عند الإنسان من العلم لا يستمر معه إلا بفضل من الله، ويقول للقرآن إننا لو شئنا أن نرفع من قلبك القرآن الذي أوحيناه إليك لأعطينا، ولا تجد من يدافع عنك ليعيده، ولكن الرحمة العظيمة من ربك هي التي تكتف في نفسك نصا وقهرا. وإن فضل الله عليك كبير،

بيان المعنى العام :

83- وإذا أنعمنا على الإنسان سيؤثر

يعتني القرآن بتحليل أحوال النفس الإنسانية، ليكون في ذلك الكشف ما يوقظه إلى تحصين نفسه مما يضر به عن غفلة منه. والإيمان بتقلب في حياته بين أوقات المسرات والتوفيق، وبين أوقات الشدة والبلايا، ينال من نعم الله عندما يفتح له من خيرات الدنيا وتنسيه ضروب الإنعام ربه الذي أنعم عليه. ويجسم القرآن صورة إعراضه بالذي يلتفت سريعا بعد أن كان مقبلا، وبمعضي إلى حال سبيله فلا ترى منه إلا جانبيه. وهذا ضيق في الإنسان، ذلك أنه عندما تأثره النعمة تستولي عليه وتغطي عنه وضيعه الحقيقي: أنه محتاج إلى وإهبها ليؤلى عليه فضله، ويمكنه من الاستمتاع بما أنعم عليه، بشكر النعمة والعبادة، فيجمع بين البعد عن ربه وبين عدم القيام بما يقتضيه الفصل الإلهي من إخلاص العبادة والشكر.

وكذلك تضيق النفس الإنسانية إذا لم يعمرها الإيمان، فإنه إذا مسه الشر وذهبت عنه النعمة لا يستطيع بل ينقل عليه وضعه ويعمر اليأس قلبه. فهو في الحالين منفصل عن العبد الرباني الذي يمكن النفس من تولذها.

والنبي الذي ترتوي منه النفس ويشفيها من سقامها هو القرآن، فظهر بهذا صلة هذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة: **ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة.**

84 قل كل يعمل على شاكلته سيأهدي سبيلا.

هكذا اختار البشر إلى مؤمن تزيد النعمة قبالا على ربه وشكرا له، ويبغى فيقوى تعلفه بالرحمة ويعظم رجاءه، فهو في الحالين أحسب إلى ربه - وإلى كافر يبتعد

على نفسه الآية السابقة . فوجه الله خطابه لنبيه ﷺ ، قل للناس جميعا : كل فرد يسير على الطريقة التي اختارها لنفسه، أي إنه مسؤول عنها . والله هو العظيم بمن كان سائرا على طريق الهدى، ومن كان سائرا على طريق الضلالة، وتبعا لطعمه ولطفا بخلقه أرسل رسلا لهداية الناس إلى الحق.

85- ويسألونك عن الروح -سوما أوتيتهم من الله إلا قليلا-

يتابع القرآن الكشف عن طبيعة الخلق الإنساني. فيصل ما طبع عليه من بطر للنعمة وشدة الجزع من النعمة، وتأثير الأنف فيه، يصل ذلك بالجواب عن سؤال أهم الناس ولم يجدوا له جوابا، وذلك تابع لما فطر عليه الإنسان من حب المعرفة، وجهاده ليكتشف له كل شيء. وهذه الفطرة في الإنسان هي سر استخلافه، وبها استطاع أن يعضي فاتحا مجاهيل الكون، ثم يعضي بما حصل عليه من معلوم لينفذ إلى حقيقة المجهول عنه . فسجل القرآن أنه مثل ﷺ عن الروح، قبل السؤال ولم ينف السائل، ولكنه أجابه بما شاء من ربه، ولتتابع النص الدقيق:

لولا: من السائل؟ اختلف الروايات : فذهب بعضهم إلى أن فرشا اتصلت باليهود في المدينة لما كان بين الفريقين من صلاته، وطلبوا منهم أن يساعدوهم بمظلمات من العلم الذي عندهم ليسألوا عنه النبي ﷺ ليشككوا في صدقه، وذهب بعضهم إلى أن اليهود سأله عن الروح في المدينة فأجابهم بما أنزل عليه في هذه الآية. وهذه الرواية تفهم على أن اليهود سأله في المدينة بعد أن سأله القرشيون وأجابهم بهذه الآية، إذ الآية مكية. وفي إيهام السائل في النص القرآني ما يغنينا عن تعيينه إذ تعيينه لا يزيد ولا ينقص لا في تصور الواقع ولا في الجواب.

ثانيا : ما هي الروح المسؤول عنها ؟ وردت الروح في القرآن بما يفيد القوة الخفية المخبئة في الجسم التي تقتن بها الحياة بما يصحبها من آثار في الإرادة والحركة، وتسلب من الجسم فينارق الإنسان الحياة . وأطلقت الروح أيضا على أشرف الملائكة ومنه قوله تعالى : **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** - **تخرج الملائكة والروح إليه**² - وأطلقت على جبريل -ومنه قوله تعالى : **نزل به الروح الأمين** .

والأرجح أن السؤال كان عن ماهية الروح بالإطلاق الأول.

ثالثاً: ما هو الجواب الذي أجاب به القرآن عن هذا السؤال ؟ الجواب: قل يا محمد: الروح شيء مخلوق لله اخص بخلقه. ويكون القرآن لم يسعهم بيان ماهية الروح، ولكن الآية أفادت أن الروح ليس شيئاً مَخْلُوعاً، ولكنه حقيقة موجودة فعلاً. ثم أضلقت الآية قوله تعالى: **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** - وما أطلعت عليه من كلام المفسرين في بيان المراد من ذلك لم ينتج له الصدر، ولم يصل إلى الكشف عن سره. والذي تفتح لي من تأملتي والله أعلم: أن القرآن يشير إلى منهج علمي، حاصله أن الإيمان ممكن من المعرفة، ولكن بلوغه للتعرف على ما هو مجهول لا يحصل دفعة واحدة، ولكنه بناء متتابع، تكون كل مرحلة بُعداً لمرحلة لسمى منها وأعمق، وكلما بلغ العقل الفطري مستوى تطلع إلى ما وراءه، خذ لذلك مثلاً مجهود العلماء للتعرف على كوكب المريخ، خطت العلوم الفيزيائية مراحل هامة، واللمع العلم الإلكتروني في الليثوث، ونجح المسبار الأول فوصل إلى القمر، ونزل الإنسان على سطحه، فكان ما تحقق فعلياً فاتحاً للتجارب للوصول إلى المريخ، ثم إليه بعد النزول عليه، وأخذ عينات منه وتحليلها، ومتابعة تطوراتها، فد يصل العلم في يوم من الأيام للكشف عن جميع أسرارها. فاقول: إن السؤال عن ماهية كوكب المريخ كان مطعماً للعلماء منذ أكثر من ثرون، وجواب تساؤلهم في بداية البحث: ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، ويكون الكشف عن أمر الروح كذلك متوقفاً على بلوغ مستوى علمي، وليس أمراً مستحيلاً.

والذي اعتقده أيضاً أن الروح ليس كائناً أزلياً، بل هو مخلوق لله، تاريخ خلفه من عالم الغيب، وكذلك ما يجري على الروح قبل اتصاله بالجسد وبعد فراقه له من عالم الغيب، ولا يمكن أن نجد تعبيراً أدق على كل هذا من قوله تعالى: **من أمرهم** وفي فكل المعجولات لتجاوز ما هو في مقدور الإنسان بالمقدمات الباطنة هو تحديف وإسقاط للخيال الذي لا يقوم على أساس.

86-87، ولئن شئنا لنذهبن بالذي...إن فضلته مكان عيسى ككبيرا.

الذي طهر لي في هذه الآية والله أعلم أنها مع سابقتها تدعو العلماء أن لا يزدحموا بما عندهم من العلم، وأن يتواضعوا، لأن ما اتاهم الله من العلم هو قليل بالنسبة لما يجهلونه. يتبين ذلك أن كل عقري مختص في باب من العلم يدرك أفضل من غيره أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، ويقضي حياته قبل أن يتمكن من الإجابة عن جميع تساؤلاته. وإذا كان هذا حاله في ميدان اختصاصه، فإن جهله ببقية الفروع العلمية أظهر وأعظم. وفي السؤال عن الروح والإجابة عنه بالإجابة القرآنية الحكيمة ما

يؤدي إلى ما ذكرناه. ثم يزيد القرآن تأكيداً لهذه الترتيبية التي توجه بالخطاب إلى النبي ﷺ، وقد اتاه القرآن الذي ينقضي الكون ولا تنقضي عجايبه، فيقول لنبيه: إن ما عندك من علم الوحي ثبت في نفسك بفضل مني، ولو شئنا أن نحول بينك وبينه فلا تجد له أثراً في نفسك لفعلنا، وفوق ذلك لا تجد من يمكنه أن يدافع عنك فيعيد لك ما كنت مالكا له، ولكن الرحمة من ربك الذي تولاك هو الذي يثبتك في صدرك. وما أجمل هذا الامتحان الذي خُصمت به الآية: **إِنْ قَضَيْتَهُ عَلَىكَ كَيْبَرًا**، فموقع كلمة كان تعيد دلول هذا الفصل.

وهذه النسق القرآني يتكرر أكثر من مرة، فيخاطب رب العزة رسوله بهذا النوع من الخطاب الوارد في هذه الآية: **وَلَنْ نُّنْزِلَهُ إِلَّا نَارًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ -** وكقوله: **وَأَوْ تَقُولُ حَلِيلًا بَعْضُ الْأَقْوَالِ أَهْلًا لَنَا سِنَّةً بِأَلَمِينَ** . والذي استقر في فهمي والله أعلم أنه سحق لهدفين :

الهدف الأول: أن يقضي على كل ظاهرة تطلع في الحاضر أو المستقبل تغلو في تقديس الرسول ﷺ تقديساً يرفعه إلى مقام العبادة أو الألوهية، فهي تأكيد لبشريته، وأن ما هو عليه من سامي المقام لا يخرج عن كونه عبداً لله، وبهذا يتحقق النفاء في التوحيد، ولا تسقط أمته فيما سقط فيه النصارى.

الهدف الثاني: إبراز أن مضمون النصوص على تلك الطريقة من الصياغة تحفك عظم الأمر الذي يريد القرآن لجنته، فهو مرفوض إلى درجة أن محمداً لو فعله لكانت عقوبته شديدة، وفي هذا أشد التحذير. وفي هذا المقام يقوم النص القرآني بتجسييس العلماء موه آثار زُهِوهم بما عندهم، واستكبارهم بمعارفهم، لما يؤدي إليه من توقف سير العلم من ناحية، ولأنه يقطع الصلة بينهم وبين الناس فلا يؤدون دورهم في الإصلاح. ولهذا نجد الآية تختم بالتوثيق بمقام رسول الله عند ربه .

فَلَا تَبْتَغُوا الْإِسْرَ وَالْجَزْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بِغَضَبِي بَعْضُهُمْ أَوْفَىٰ بِمَا لَقَدْ عَمَرْنَا النَّاسَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَلَوْ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَأْتِنَا بِالْآيَاتِ مِنَ الْأَرْضِ بِئْسَ مَا أَنتَ بِمُتَّبِعٍ أَوْ تَكُونُ لِلَّهِ خِلَةً مِنْ خَلْقٍ وَعَبَدٍ فَتَقْضَىٰ الْأَقْبَرُ خِلَتُهَا فَتَجْعَلُ أَوْ تَمْسُقَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِالنَّارِ وَالْمَلْبَكَةِ فَبَلَاءٌ ﴿١٨﴾ أَوْ

يَكُونُ الْكَافِرُ مِنْ أَخْرَجْنَا أَوْ نَرْفِقُ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مُزَكَّرًا قُلْ نَسْخَرُ مِنْهُ مَنْ مَشَاءُ نَزَلَ الْغَمَامُ فَنَلْزِمُكَ الْأَشْخَارَ أَشْوَابًا ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ .

نظير: ! تعلمون الإنس والجن .

صرفنا : نوعنا في البيان .

لن نؤمن لك : لن نصنقك .

الأرض : أرض مكة .

نخبر : نحدث شقا كبيرا ينساب منه الماء بقوة .

كسبا : جمع كسب وهو القطعة من الشيء .

زنت : قلت قولا مستبعدا .

القبيل : الجماعة الذين هم من جنس واحد .

الزخارف : الذهب .

بيان المعنى الإجمالي .

أعلن الله في كتابه أن القرآن معجز سما لفظيا ومعنى، وطاقات المخلوقات من الإنس ومن الجن عاجزة عن الإتيان بكلام مثل القرآن في نظمه ومضامينه. بل لهم لو تركوا كل شيء وتعاونوا على معارضة القرآن بمثلته لمشلوا فشلا ذريعا. فما اختص به هذا القرآن، أنه عرض بمنازع العرض للمقصد الواحد، فكان في كل موقع يأتي تعبيرا بطريقة تتناسب مع الموضوع الذي هو فيه ومع ما تقدم عنه أو تأخر، ويلبس التالي والسامع بما يسمعه، ومع ذلك فإن أكثر الناس لمقتعوا من الإذعان لما جاء به ورفضوا كل شيء إلا الشدة في الكفر .

فما كان جوابهم عن حثهم للتأمل في القرآن والافتداء به ؟ قالوا : لن نؤمن لك ولن نصدق أبدا حتى تحقق لنا ما نعرضه عليك ؟ أن نتشوق الأرض فيصدق منها نبع فياض لا ينقطع مأواه . لو أن تتقلب طبيعة جبل مكة فيكون فيها جنة من نخيل وأغاب تتخللها المياه الجارية، ترضى بهذا وإن كنت أنت الذي تملكها . لو أن تنزل علينا كما ادعيت، قطعا من السماء التي هددتنا بها، أو أن ياتينا وفد من الملائكة يصحبهم الله، لو أن تتميز علينا بيت من ذهب مزين بأنواع الزخارف . لو أن تصعد إلى السماء، ولا نؤمن بأنك بلغت السماء إلا إذا عدت تحمل كتابا كاملا نستطيع أن نقرأ محتوياته .

أوحى الله لنبيه ما يجيبهم به جوابا بشقين :

أولهما: أنزه الله عما قلتم تزويها من يأتي مع الملائكة، أو أن يكون تقديره لمجاري الأمور في الكون على مقياس ما تطلبون.
وثانيهما: إن ما دعوتكم إليه لا يدعو أنني بمرسل من عنده لأبين لكم ما ينقاذكم من الضلال ويهيئكم سبل السلام.

فيما بين المعنى العاشر ،

88- قل لنن اجتماع الإنس والجن - لبعض قائلهم.

تفتتح هذه الآية مجموعة الآيات في هذا المقطع لتكون المتوجة له في هذه الآية تدويه بالقرآن بإثبات أنه من عند الله، لا مدخل لأي كان في نظمته، وبقسيم دليله على ذلك من أول الأمر فيقول : بأعظم تأكيد وأكمله لو اجتمع كل المكلفين من البشر ومن الجن وبثلا كل طوائفهم ليتخلبوا على جميع المشاكل ويحاولوا أن يقيموا نصا يبلغ مستوى معانلا لمستوى القرآن، ما استطاعوا أن يأتوا بمثله في النظم والسعة في المضامين التي لا تقف عند حدود الزمان الذي أنزل فيه، بل تغطي مع حياة الإنسان ليجد فيها كل جيل حلا لمشاكله، وخطابا غير بعيد عنه، إلهم عاجزون! ولو تعاونوا على ذلك الأمر فإن تعاونهم يؤدي بهم إلى القشل الذريع، فصدر الآية يتعلق بإثبات العجز لجنس الإنس والجن بشؤون تعاون وخلفتها تنبئ للعجز مع التعاون.

89- ولقد صرفنا للناس ما أكرهوا إلا مكفورا.

إعلان لبعض وجوه إعجاز القرآن؛ يبدو ذلك في ترديد التصوير للمقصود بضروب من البلبان تكون خصائصها في موقعها أوفق وأكمل وأرشق، بصفة لو حاولت تقديم أو تأخير لو إبدال كلمة بأخرى لأختل النظم وسقط عن حد البلاغة . ومن ذلك ورود مضمون القصة الواحدة في أكثر من سورة، وهي في كل موقع يأتى نظمها وخصائصها التعبيرية متسقة مع ما تقدمها وما لحقها، دون أن تغمط الحقيقة، أو نجد مللا من عودة عرضها .

ورغم هذه المعجزة الظاهرة التي تتحدى بصديق الرسول % فإن أكثر الناس امتنعوا عن أي شيء إلا عن شيء واحد هو العناد والإصرار على الكفر.

90- وقالوا لن لؤم لك حتى تصجر لنا من الأرض ينبوعا.

هذه الآية وما يتلوها محقة لما ختمت به الآية السابقة من أن إصرارهم على الرفض جعل القرآن ما يزيدهم إلا كفرا، يوضح ذلك الإصرار ما سجلته الآيات التالية من المفترحات التي ربطوا إيمانهم بتحقيقها فقالوا له :

أولاً: أن تطمع في الإيمان بما تدعونا إليه، ولن نصدقك في أنك مرسل من عند الله، حتى تشق لك الأرض فيقجر منها نبع غزير متدفق في الأرض لا يقطع نميره، في أرض مكة المعروفة بتضاريسها الجبلية وعدم وجود أي نهر فيها .

91-حاثيا: لو أن تحول شينا من تضاريس الجبال إلى سهل، وإن كنت لتتملكه، فيكون لك منه جنة تتكاثف فيها أشجار النخيل والعنب، وتتخلل أرضها أنهار لا تنضب، تتساب خلالها فتمضي جميع الأشجار، مما يفي على خضرتها ونضارتها. وكلا المقترحين يصب في معنى واحد، هو تحويل طبيعة أرض مكة إلى ما عرفوه في أرض الشام. وهما معا يدلان على شدة تعلقهما بالمادة والأرض. ومن ضعف مستواهم العقلي جعل للدليل على صدق الرسول ﷺ أنهارا تجري وجفات من نخيل وأعناب، التي هي منبثة في أرض الله، دون أن يكون لوجودها أثر في سمو البشر من المادة المينة إلى اتفاق التوحيد، والمبادئ السامية، والملوك الذي يهدي البشر إلى حسن الاستخلاف في الكون .

92 أو تقطع السماء سحبا رطبت عليها كسفا.

ثالثاً: أو أن تحقق فعلاً ما زعمته، والزعم يطلق بمعنى القول للمبتعد صدقه وتحققه، وأودعنا من إقطاع قطع من السماء علينا، كما جاء في قوله تعالى: **لئن نشأ خلاف بعد الأرض أو نزل عليهم كسفا من السماء¹** . وهذا الوعيد المذكور في الآية قد يكون أو عند به النبي ﷺ قبل نزول الآية لئلا كانت سورة مسياً نزلت بعد سورة الإسراء كما هو عند البغاعي وغيره .

رابعاً: لو أن تأتي بفوج من الملائكة مع الله، يسنمون علينا ونراهم ويثبت صدقك بالك مرسل من عند الله مؤيد بملائكته الذين منهم جبريل الذي ينزل عليك بالوحي.

93-أو يحسون نكت بيت من زخرفه...هل كنت إلا بشرا رسولا.

خامساً: أو أن يكون لك بيت من ذهب، واختار القرآن التعبير عن طلبهم بالزخرف عوض الذهب، لأن الشان في الذهب أن لا تتخذ مبياتك على طبيعتها، بل يعمل فيها الفن أجود ما يؤثر به في المعادن لتقبله لذلك، ولأن المهرة من الفنانين يجشون من قيمة الذهب ما يضمن لهم وفاء قيمة صناعتهم .

سادساً: أن تخترق الأبعاد فتقرى إلى السماء. وادعوا لك أنك ارتقيت إلى السماء لا نصدق به إلا إذا أثبتنا بكتاب كامل من السماء نستطيع قراءته. وفي هذا إظهار لطعنهم في القرآن بأنه ليس من عند الله لما نزل منجماً.

أجبههم يا محمد جواباً قاطعاً للجأهم وعنادهم: مفتتحاً بقرينه الله أن يكون طوع مفترحاتهم ينفذ ما يرغبون فيه، أو أن يتحرك كتحرك الناس ويضم إليه ملائكته فيقبل عليهم ويخاطبونه، ثم من ناحية أخرى أعرفكم بأنني بشر كسائر البشر، طاقاتي هي الطاقات البشرية، ولذي يأمر الأشياء فستجيب لأمره هو الله وحده، ولكن الله فضلني على البشر بتحملي رسالة الهداية إليكم.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا لَغِيَابُ اللَّهِ عَمَّا يُشْرُونَ ﴿١٠١﴾
 قُلْ لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْأَرْضَ مَثَلَكُمْ خُلُقًا ۖ سَاءَ مَا يَحْكُمُ بِأَرْوَاحِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ ﴿١٠٢﴾
 قُلْ يَبْنَؤُا نَفْسٌ فَأَنْتُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْفِتْنَةِ ۚ وَمِنْ يَحْدِثُ الْفِتْنَةَ اللَّهُ ۚ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْنَةً فَلَا هَاجِرَ وَلَا مَصِيرًا ۚ ﴿١٠٣﴾
 وَخَشَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُرْيًا وَنُكَصًا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۚ ﴿١٠٤﴾
 ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِي ۚ وَأَنَّهُمْ كَانُوا عَظِيمًا ۚ ﴿١٠٥﴾
 وَذُنُوبُهُمْ أَنَّ السَّاعِقُونَ خَلَقُوا خَلْقًا جَدِيدًا ۚ ﴿١٠٦﴾
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَلَّا الْغَالِبُونَ إِلَّا كَذَّبُوا ۚ ﴿١٠٧﴾
 قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ حَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذْ لَا مَسْكَكُمْ حَشِيَّةَ الْإِنْفَادِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا ﴿١٠٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

مُخْتَلِفِينَ : غير مضطربين عليهم السكينة.

الشهيد : المخبر بالأمر الواقع كما وقع.

خبير : عليم بما يجري في بواطنكم.

يصير : لا يخفى عليه شيء من ذنوبكم وأفعالكم.

أولياء : أنصارا.

الحشر : جمع الناس من أماكن متفرقة إلى مكان واحد .

ماواهم : منزلهم ومقرهم.

خبت النار : نقص لهيبها.

المعير : لهب النار .

الجزاء : العوض عن العمل.

يروا : يعتقدوا .

تنورا : شديد البخل .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما يقتضيه النظر بعد التأمل في مصامين الرسالة المتناسقة مع العقل والظنور يثور سؤال : ما الذي منع الناس قديما وحديثا من الإيمان ؟ إنهم لم يقبلوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم . ولو كان المرسلون غير بشر لكانوا ملائكة ، والملائكة لا يستطيعون القيام بدور الرسالة التي تقتضي من الرسول أن يختلط بالناس لينبئهم وليبين لهم وليكشف لهم الشبه التي تعرضهم ، ويعيش معهم كما يعيشون ويتنقل كما يتنقلون . ولو كان الملك هكذا لما امنوا به ووقفوا في لبس هل هو ملك أو بشر ؟ وفوق كل ذلك فانه يكفيني أن يكون الله حاكما بيلي وبينكم ، فانه سبحانه عليم بما تطوي عليه الصدور ، ولا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان ، فهو يعلم المبجل من المحق والمصلح من المفسد ، والناس قسمان مهتد وضال . أما المهتدي فهو الذي أقبل على ما جاءه من ربه فأعمل فيه عقله وسار فيه فزرقه الله العطفه فكان هو المهتدي بحق . والضال هو الذي جاءه الهدى فأعرض عنه وجعل بينه وبين الحق حجابا من العناد والمكابرة فحرمه الله العطفه فكان من الضالين لأنك لا تجد لهم بصيرا من دون الله يحولهم عما محضوا أنفسهم إليه . ثم يوم القيامة يحشرهم ماشين من كل مكان على وجوههم وقد فتقوا جميع حواسهم فهم عمي وبكم وصم ، ينتهي بهم السير إلى جهنم التي من جملة وفودها جلود هؤلاء المشحورين . كلما خفت نارا باحترق الجلود بعيد الله لهم جلودا فيزداد لهيبا . إن جراهم هو الجزاء العادل يوازي كفرهم بالآيات والأدلة الواضحة ، ولتصريحهم باستحالة البعث خلقا جديدا بعد أن تتحلل أجسامهم فينقلبون إلى كتل من العظام ، أو إلى مسحوق متناثر .

وعجب من أمرهم ألم يتأملوا في حقيقة يعترفون بها ، وهي أن الله هو خالق السموات والأرض على عظمها ونفثة قولانيها وانتظام سيرها ، أفلا يكون قائرا على أن يخلق مثلهم بعد التحلل لجسامهم ؟ فإين خلقهم من جنود أمور بكثير بمقاييس العقل البشري من خلقها أولا ، وثانيا إين الله قد جعل لهم أجلا تنتهي فيه حياتهم ، وهذا مما لا يرثاب ولا يشك فيه أحد ، فإذا كانت حياتهم التي بين جنبيهم لا يتحكمون فيها ويمليها الله متى يشاء فإين إعادتهم للحياة أمر معقول جدا . ولكنهم رفضوا كل شيء إلا أمرا واحدا هو التصميم على الكفر بلم الله وعدم شكرها .

قل لهم يا محمد : إين نفوسكم طيعت على الشح حتى إنكم لو ملكتم خزائن رحمة الله ، لقام مرض الشح في نفوسكم فحكمكم على الإمساك عن العطاء خشية من نقصان ما

تتمكنون بالإتفاق منه. فتخليكم أن ما لقرحتموه شيء لا يمكن تحقيقه لكثرة هو ناشئ عن النقص الذي جبلتم عليه، فإن الإنسان من طبعه أن يشح بما عنده.

بَيَانُ الْمَعْنَى الْعَامِ :

94- وما منع الناس أن يؤمنوا.. أبعد الله بشرا رسولا.

بواصل القرآن الكشف عن أغوار النفس، وإظهار ما كمن فيها، ليجلي الأوهام ثم ينفيها، إن المتأمل ليجب من إصرار المشركين على شركهم وانحرافهم إلى مقترحات لا تمت إلى جوهر الدين الذي يبشر به رسول الله ﷺ، والتي لا تعدو أن تكون قلبا لمن الكون أو نقضا لمقتضيات العقل. فما الذي حولهم عن التأمل في طبيعة ما يدعوا إليه، ووزنه يميز أن القطرة والعقل؟ أتى الجواب من القرآن؛ بأنهم يعجبون من تكليف بشر مثلهم بحمل رسالة الله إلى العالمين، ويقدمون استبعادهم هذا في صورة سؤال إنكاري. هذه منه الكافرين المكذبين للرسول حكايا القرآن عن قوم نوح وعن كثير من الرسل الذين جالوا بعده.

95- قل لو سكان في الأرض ملأناكم.. علقكم رسولا.

تولى القرآن تأكيد رسوله بالجواب المفهم يقول القرآن : إن الرسول إما أن يكون بشرا أو يكون ملكا كما تتوهمون. إذ الرسول مهمته أن يتصل بالإنسان ويعرض عليهم وينفي الشبهة التي تعلق بأذهانهم، ولا يقع هذا الاتصال والتمازج إلا إذا كانت الملائكة تعيش على سطح الأرض وتشمي مطمئنة ثابتة لا تجد فرقا بينها وبين الناس في حركاتها وتشمي كما يشمي للأنس. ومعنى هذا أن تتحول طبيعة الملائكة من الخلق الذي هم عليها إلى خلقه أخرى متفانية لخصائصهم، وبهذا لا يكون الملك ملكا.

96- قل كف عن بالله شهيدا يبش ويمنكم.. عجبها بصيرا.

وحجة ثانية مؤيدة في الرد على مقترحاتهم وعنادهم. قل لهم: يكذبني ذليلا على صدقي وعلى مخالفتكم لما تقتضيه الفطرة والعقل، يكذبني الله الذي يحق الحق ويبطل الباطل حاكما لا ترد حكمته ولا يطعن في علمه. إننا جميعا عباده، وهو العليم بما يجري في التوابع وما يختلج في الضمائر. يعلم من همة بشر الخير والحق والعدل، ومن همة المراءغة والتباعد الشهوات، والمجادلة بالباطل لصدحض الحق. وحكمه سبحانه حكم حق عادل لأننا جميع من خلقه، هو العليم العلم الكاشف عما تخفيه التوابع وما تستبطنه العقول. ولا يخفى عنه شيء من الفعال ومتقلب جميع الأحوال.

97- ومن يهدين الله فهو المهتدي زلزالهم سعيرا.

ولما رجع علمه كل ما احتضنه الضمير من خير أو شر. فلن الناس على قسمين : قسم جاءه الهدى من ربه فأعمل فيه عقله، وأرصف سمعه، ووزن ما جاءه بالتعمق في مضامينه، فأسعفه الله بالأطراف المساعدة على تمكن ما هيا نفسه لقبوله من الهدى. فكان المهنكي بما قام به من جهود، ويعون من الله على أن تكون جهوده منتجة. وقسم بمجرد ما جاءه الهدى أعرض عنه، وكوّن بينه وبين الحق حجاباً من العناد والرفض، وعطل عقله فلم يتكبر شيئاً مما جاءه، فحرمه الله لطفه ولم يرفع عنه ما اكتسبه، وخلفه لما اختاره نفسه من الضلال، ومن يخذله الله فلن تجد له نصيراً يأخذ بيده ويساعده على الإيمان . ثم إن هؤلاء سيجمعهم الله يوم القيامة من جميع الأمكنة الذين هم فيها، ويأتون مائتين على وجوههم، فجمع الله لهم بين الإهالة وبين العذاب، إذ الرجل تحمل من الأرض ما لا يتحمله الوجه لللطيف في تركيبه. وكون المحصور ساقطاً منكبا على وجهه مظهر إهانة. وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ : كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم، وأضافت الآية إلى الحشر على لوجوه سلب لمصارهم فيحشرون عينا حيارى لا يعيرون طريقهم، ولا ينفسون عن الأهم بالتطرق لأهم بكم. ولا يتصلون بغيرهم لأهم صمم. فيكونون في المحشر مسلوبى الحواس، ثم يساقون إلى منزلهم المقدر لهم الذي كتبت لهم الخلود فيه: جهنم، هي تضطرم داراً كلما احترقت جلودهم فحمت نار جهنم من وقود الجلود بدلهم الله جلوداً غيرها فتزداد ناجحاً واشتعالاً.

98- ذلك جزاءهم بكفروا... لم ينجسوا خلقاً جديداً.

يثبت القرآن العدل الإلهي الكامل، فلن الذين كفروا بالآيات الواضحة ولطرحوها، وقابلوا عناية الله بهم ببعث الرسل إليهم وتأييدهم بالحجج والمعجزات، بالإنكار للحق ومواصلة الكفر، ثم نهوا لغياً فاطما أن يحاسب الناس على ما كفروا ببعثهم يوم القيامة، مستبعدون تلك يالاه لا يتصور أن تعود لهم الحياة بعد أن تحولوا إلى كتلة من العظام أو إلى أجزاء دقيقة متناثرة . مما يفيد حسب قصورهم الفكري عجز الخالق على إعادة الخلق من جديد.

99- أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوى الخالقون إلا هم.

إن استبعادهم للبعث استبعاداً بلغ درجة إنكارهم له قد صيرهم كحالة النعمة التي تنس راسها في التراب إذا أطبق عليه الصيادون. عجيب أمرهم ألم يستفهم مما يوجبهم النظر من أن الله خلق السموات والأرض، وهم لا ينسجون خلقها إلى الهتهم

ويعترفون أنه من خلق الله . وخلق السموات والأرض بعظم أحجامها ودقة قوانينه ، وانتظام حركاتها انتظاما سنرا نون اختلال . إذا تأمل العقل في ذلك فإنه لا يستطيع أن يستبعد قدرة الله على أن يخلق عبادا مثلهم يحشرون إليه يوم القيامة . وكلمة مثلهم تحتل أنها مخلوقات جنودة لا تختلف عنهم (صورة كالأصل) ويحتمل أن يخلقهم مما بقي من أجسامهم فيجمعها بأمره ويعيد لها الحياة ، والأول أولى في نظري . لأن بقاء أجزاء لا تبقى بعيد في نظري سواء أكان عجب النجب (السل عظم في العمود الفقري) أو غيره من الأجزاء .

هذا من ناحية ، ودليل آخر لم يلحظوه من أنفسهم : أن الله جعل بتقديره لكل نفس أجلا لا تتعداه ، وزمانا تنتهي فيه الحياة . وهذا أمر لا شك فيه ، فإنه لا يعرف أحد متى يموت ، فإذا كانت الحياة في ظاهرها الأمر ملكا لصاحبها ولا يسري متى تسلب منه ، أفلا ينل ذلك على أن المالك الحقيقي لها ليس صاحبها وإنما هو الله خالقها ؟ وإذا كانت مملوكة ومخلوقة له فلا ريب أن تكون طوع أمره فمتى أراد أن يعيدها للجسم أعادها إليه والبناء للعادي هو أهون بالتقدير الإنساني من الروح .

ومع وضوح الدليلين وقوتهما في إثبات البعث ، إلا أن المشركين رفضوا كل دليل واعتصموا من يقول أي حقيقة إلا حقيقة واحدة وهي التكفر بأنعم لا الاعتراف بها ولا شكرها . وأداموا على عبادة أصنامهم .

100- قل لو أنتم تملكون خزائن .. وسكان الإنسان فتورا.

جواب جامع لما عرضه القرآن من وجوه عناد المشركين وإسقاط شبهاتهم واحتجاجاتهم ، هو أن ما اقترحوه على رسوله كان نابعاً من تصورهم الفاسد وما طبعوا عليه من خوف الفقر وحسب الكثر فظنوا أن ما اقترحوه لا يمكن تحقيقه ويعجز الرسول لأن ما اقترحوه شيء كبير جدا . فالأنهار والجنات والبسات من الذهب المزخرف والاحتجاج بخلق السموات والأرض وإمدانها بما تواصل به مسيرتها ، كل ذلك مبني على ما طبعوا عليه من خوف الفقر ، والخوف المستكن من نفوسهم ، حتى إنهم لو ملكوا خزائن الرحمة التي لا تقف والتي فهي تواصلها من مبدأ الخليفة حتى وصلت إليهم ، وميتال منها من بعدهم شاهد على سعة الرحمة الإلهية سعة لا يحيط بها الوصف ولا يحدها حتى الخيال . ومع ذلك فهم لو قدر لهم أن يملكوا خزائن الرحمة لأمسكوا عن العطاء ، وخالفوا من الإنفاق . فأين الإنسان المعني على الشح وخوف الفقر من سعة الرحمة الإلهية والفضل الذي لا تحده حدود . وإله من طبع الإنسان أنه صحيح شديد البخل .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْتَفْتَىٰ إِلَىٰ إِثْرِهِمْ لِإِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَهُودِيٌّ مِّنْ يَّهْيَؤُا ۚ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَهْلُ مَثَلٍ هُنَالِكَ إِلَّا رُبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِضَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَهُودِيٌّ مِّنْ يَّهْيَؤُا ۚ فَازَادَ أَن يُسْتَفْتِيَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَرْمِئَهُ جِهًا ۖ وَكُلًّا بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ إِنِّي امْرُؤٌ بَاطِلٌ ۖ وَمَا أَرْسَلْتُكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

التهافت : الحجج المفيدة للعلم .

المتشاور : الذي أصابه الشك والظن وهو الهالك .

يستفتيهم : يستخفهم ويقلقهم .

استنوا الأرض : أروى الشام .

وعد الأخرى : يوم القيامة .

لحقنا : الجمع المختلط الذي لف بعضه ببعض .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما افترخته فرعون من المعجزات ليؤمنوا ، لا يحقق إيمانهم ، ذلك أن موسى لو قف فرعون على تسع آيات ، ومع ذلك كان جوابه : لك يا موسى مسحور مختلط للعقل . إن بني إسرائيل يعلمون ذلك ، فاستألفهم إن أردت . كان جواب موسى : إنك يا فرعون متيقن من أن الآيات التي شاهدتها لا يمكن أن تأتي إلا من رب السموات والأرض لأنها آيات واضحة صحتها وإعجازها ، لكنك يا فرعون مهلكة ، فدفعه استكباره إلى التسلط على موسى وقومه ، ولما لم يفلحهم بإخراجهم من أرض مصر ، فعاجله الله بالغرق وأغرقه مع جنوده ، ونصر الله بني إسرائيل وأباح لهم سكنى أرض الشام ، وأعلمهم بأنهم سيحاسبون على ما يفعلونه وسيأتي بهم جماعات لا يربط بينها نسب ولا قبيلة .

إن هذا القرآن الذي رفضه المشركون هو كتاب حق صديق لا ياطل فيه ولا ريب ولا شك ، هو منزل من عند الله ، ومضامينه كلها حق تهدي إلى الصراط المستقيم ، ولست بظاهر أحدا على الإيمان به ، ولكنك تبشر به المؤمنين ليزدادوا طمأنينة وانشراحا ، وتذكر به الكافرين حتى يكونوا على علم من مصائرهم الخاسرة .

بيان المعنى العام :

101 - 102 ، ولقد آتينا موسى تسع آيات... وإني لأظنك يا فرعون مشهورا..

قصة موسى مع فرعون موصلة للرد على المشركين بطريقة أخرى، حاصلها : أن الخوارق والآيات على كثرتها لا تنتمي للإيمان في القلوب التي استكبرت عن الحق، وأبوت للنظر فيها ، وهذه هي السمة الماضية مع المرسلين في أقوامهم . فهذا موسى عليه السلام آتاه الله تسع آيات معجزات ، ظاهرة لها بتقدير الله لخروجها عن طوق البشر : 1 - بياض يده كلما أدخلها وأخرجها من جيبه - 2 - انقلاب العصا حبة - 3 - الطوفان - 4 - الجراد - 5 - القمل - 6 - الضفادع - 7 - الدم - 8 - الرجز - 9 - الدمل - 10 - الفحط ، وقد تقدمت في سورة الأعراف .

ونظمها الفيروز آبادي في قوله :

عصا، سدة، رجز، جراد، وقمل *** يده، ودم، بعد الضفادع، طوفان -

هذه المعجزات التسع قدم بعضها موسى دليلا على كونه مرسلًا من عند الله، إلى فرعون وعلمته من أول الأمر . وبعضها أخبر به قبل حصوله ليرتدعوا ويحذروا من التكذيب بآيات الله، وحصلت ، وهي من الأمور التي ما يزال بنو إسرائيل يروونها متيقنين حصولها ، فاسألهم إن أردت يخبروك بذلك . وفي هذا تعريض بهم ، إذ أنهم عملوا على غش أهل مكة لما سألوهم عن نبوة محمد ﷺ ، كتموهم الحقيقة وعملوا على التمس وتلقين الشبه والإمعان في التضليل .

إن تلكم الآيات التسع لم تهد فرعون، بل أعمن في الكفارة وقال: إني لأظنك يا موسى رجلا قد أثر فوق المسحرة فاختلت مداركك، وهذا ما بدا لي فبك بعد التأمل فيما جئت به . أجابه سبحانه موسى عليه السلام : لقد توكلت يا فرعون أن المعجزات التي شاهدتها يستحيل أن تكون من تأثير المسحرة، إذ لا يسدر عليها غير الله، والذي دفعك للقول: بأن تظن أنني مسحور مغالطة، إنها حجة مفيدة للعلم اليقيني لنزولها المتصرف في لتكون كله سمواته ولرضه، ولا تسفل تحت فترة من قدرات المخلوقين ، والذي أظنه أن الله سيهلكك، جزاء تضلوك نفسك واستكبارك عن قبول الحق النازل من الله . والظاهر أنه لم يجزم بأن الله سيهلكه بناء على أنه لم يتلق وحيا من الله بأنه هالك لامحالة، ولكن ظن موسى فعلا لسفن الله في الذين يستكبرون عن هداية الله أنهم ايلون إلى السمار . وفي ذكر هذا وعيد مبطن للمشركين: أن سنة الله ستغد فيهم .

103 - 104 ، فأراد أن يستعزهم من الأرض... سجدا بحسب نعيمها.

الَّذِي لَهُ يُصْحَفُ وَأَلَّا وَلَمْ يُخْرِ لَهُ شَيْءٌ وَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينُ الدَّالِّ وَ كَثِيرُ

تَكْوِينُ ﴿١٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

منه : متمهلاً .

خروا : سقطوا سجداً، مع صوت هو التسميع

وعند معلول : وعد منجز .

بيان المعنى الإجمالي :

إنزل القرآن ملتبهاً بالحق، ونزله رب العزة مفرقا لا جملة واحدة لتتلوا يا محمد آياته على الناس، لتقرأ مؤتيا له حق الأداء في غير عجلة، وبعبايتنا نزلناه متتابعاً.

وللتفت القرآن إلى المشركين معرفاً لهم حقيقة قولهم : سواء أأنتم بالقرآن أو لم تؤمنوا به، فإنكم جهلة لا وزن لكم، ولا يزيد إيمانكم القرآن قوة وصدقاً ولا ينقص منه كفركم . وإن العلماء الذين تمكنوا من الكتب السابقة وتحقق عندهم ما وعد الله به من بعثة محمد ﷺ ومع القرآن، إنهم إذا سمعوا القرآن امتلأت نفوسهم بهجة فيخرون ساجدين مسحون تفيض أسنتهم بالتسبيح لله والحمد له على ما أنعم عليهم، فلبعضهم الوقت الذي خستم فيه رسالاته للعالمين، وتفيض عيونهم بدموع الفرح، ويواصلون تلاوته وتتلأ في فيتضاعف خضوعهم به.

بيان المعنى العام :

106 وفرقنا فرقاناً... ونزلناه نزيلها.

ومع إنزال القرآن كما جاء في الآية 105 - فرقنا القرآن فرقاناً بحكمتنا أنزلناه منجماً، لم نزله عليك مرة واحدة، فاستطاع المسلمون أن يلقوه شيئاً فشيئاً، وأن يسيروا معه وأن يسير معهم في حياتهم، وأن يحولهم من الوضع الجاهلي الذي كانوا عليه، إلى وضع جديد في خير إرهاب، بنى صرحه العقدي والتشريعي والتهذيبي موزعاً على السنوات التي قضاهما ﷺ والتي سيقضيها بعد نزول الآية . فكان وعيهم له ميسراً، ومن ناحية أخرى لتقرأ عليهم وهم أخذون عنك طريقة أدله، فقرأ متمهلاً بدون عجلة على النحو الذي ينبغي أن يتلى به، كما جاء في قوله تعالى: (كَذَلِكَ نُنْزِلُ فِي لُؤْلُؤَاتِكُمْ وَرَتِّلْنَاهُ لِرَتِيلَا)¹ وبذلك يثبت في قلوبهم ويرسخ في حافظتهم. وكان تنزيهه على ذلك النحو بعبايتنا فنزلناه متتابعاً.

107، 109، قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَقُولُوا... وَتَزِيدُهُمْ خُشُوعًا.

تتابعت الآيات تقيم الحجة على المشركين بصدق الرسالة، ومرايا القرآن، وأنه منزل من عند الله، وأنه والحق شيء واحد. وإن تفريقه هو الحكمة إلى آخر ما فصل. بعد ذلك تخاطب هذه الآية الثابتين على الشرك: إن كفركم لا يلوثر في انقصار الإسلام ولا يؤخر من أمر ربائكم شيئاً، فمسوا أمستم أو لم تؤمنوا لا يضررك يا محمد ولا يضر الدعوة، وإنما ضرره على أنفسكم أيها المشركون، وما هي منزلتكم الفكرية إن هي إلا منزلة تلهة بالنسبة للذين أسرعوا للإيمان بالإسلام من الذين كان عظم من العلم موفورا، بل إنهم أملاوا به بناء على ما وجدوه في كتبهم، وما يشر به من قبل موسى وعيسى. والآية على الصورة التي عرضت بها يفهم منها تعرض للمشركين بأنهم جهلة.

لقد غمر القرآن هذه الصفوة من العلماء بفداسته، ونفذ إلى أرواحهم فعضم شمولها إلى بارئها، واعتزوا استبشارا بحضورهم مشهد بعثته، فخرّوا لله سجدا تعطلت نسبتهم بتسبيحه مثلين على فضله الذي ثم ببعثة النبي ﷺ، لتعبد الهداية الإلهية للعلمين. وابتغوا معلنين ما استقر في نفوسهم: إن وعد الله لا يخلف تحقق فعلا. وقد اشتد إحساسهم بالبهجة ففاضت عيونهم بدموع الفرح والرضا، وفي التعبير بخزور الذي أصله السقوط ما يشير إلى اندفاعهم للسجود اندفاعا كان متفسا طبيعيا عندما يكون المؤثر بالغاً من القوة مستوى رفيعا متساميا. وكذلك قوله للأذقان فالأذقان لا نفس الأرض، ولكنه تجسيم لتلك الاندفاع من المشاعر الباطنية الجياشة. وهم إلى جانب ذلك وجدوا في القرآن النهر المتدفق فعتفوا عليه، ليضاعف خضوعهم لله، إذ هو كلام ربهم الذي تطمئن به القلوب وتخشع. يدل على هذا قوله تعالى: ويزيدهم خضوعا، دون وزادهم خضوعا بل مستمر ففقه.

بإجماع العلماء بمن السجود عند تلاوة قوله تعالى: **وَيَذِيعُهُمْ مُشْرِعًا** . أينما نظم المؤمنون في مظهر واحد، مظهر السجود لله، وأقرب ما يكون للعبد من ربه وهو **ساجد**.

قُلْ أَذْعُوا اللَّهَ أَوْ أَذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّهَا الَّذِينَ دَعَا إِلَى الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَلَا تَهْزُوا بِأَعْيُنِكُمْ وَلَا تَحَابِسْهَا وَأَتَّبِعْ نَهْجَ الْبَلِّ سُبُلًا ۖ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ يَنْشَجُ وَاللَّهُ وَلَهُ يَخْرُجُ سُبُلُهُ وَالْمَلَكُ لَهُ يَخْرُجُ فَلَا بَأْسَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۝

بيان معاني الألفاظ :**الجهر :** رفع الصوت بالكلام .**تمخضته :** الإبرار**ولي :** نصير**بيان المعنى الإجمالي :**

هو الله الواحد له الأسماء الحسنى الدالة على الكمال والجلال، فدعوه بأي اسم من أسمائه التي أقر في نطقه بها. وخذ مستوى ومسطا بين الجهر وخفض الصوت في صلاتك، إذ الإسلام يقيم للمسلمين على التوسط . فقل الحمد لله الذي تعالى أن يلحقه نقص. لم يكن له ولد كما يزعم النصارى، ولم يكن له شريك بصرف سعة أي شيء من أمر الكون. وليس له نصير يدافع عنه ويرفع عنه الذل والحاجة، واعتد له أكبر من كل شيء. وكبره تكبيرا كثيرا .

بيان المعنى العام :**110- قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن - يعني ذلك سبيلا.**

قل لأمتك إن الله تميز بأسماء الحسنى التي كنا بنهاها في سورة الأعراف آية 180 - والتي يجب الاختصار على ما ورد منها، فإذا تحدثتم عن ذاته العلية، فسواء سمعتموه في كلامكم (الله) أو سمعتموه (الرحمن) فالكل سواء، لأنهما من أسمائه الدالة على الكمال والجلال. ومعظم المفسرين رأوا أن موقع هذه الآية هنا سببه : أن نزولها كان عقب نزول الآية السابقة . إذ كان النبي ﷺ يتجهد حول الكعبة وذكر في سجوده : يا الله يا رحمن ' فسمعه أبو جهل وقال : إن محمدا يدعو إلى التوحيد وها هو يدعو إليهن- فنزلت الآية.

والذي وقع في قلبي : أن هذه الآية مرتبطة بآياتة السورة التي ورد فيها أن الله أسرى عبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأراه من عظيم آياته ما لم يبلغه أحد من رسله الأكرمين في حياتهم، فقد امتزج في المشهد آيات عظمة الله، واسم الجلال والعظمة هو ' الله'. ثم نعم عليه بمظاهر التكريم فنعمه للصلاة بالأنبياء، وبلغه مدى لم يبلغه أحد من العالمين، وهذا أوسع مظهر من مظاهر الرحمة. والا سم الدال على هذه الصفة ' الرحمن' فكان خاتمة السورة: قل ادعوا الله أو الرحمن .

واصلت الآية بالتوجيه إلى المستوى للصوتي في الصلاة والإسلام مبني على التوسط، فقال تعالى: **ولا تجهروا أصواتكم**، لا ترفع صوتك كثيرا في قرأتك، ولا تخفضه خفضا لا يسمع، بين الرفع والخفض اتخذ طويفا، وبهذا تمنع المؤمنين

الذين مع قراءتك، ولا يصل صونك للمشاركين الذين يتخفون كلام الله عزوا .
روي أن لباكر رضى الله عنه كان يخلف بقرايته فسمعت لما قال: فقال: أناجي ربي،
وهو يعلم حاجتي . وكان عمر يجهر فسمعت لما قال: أنا أجور الشيطان، وأوقظ
الوسنان (من أخذه للناس). فلما نزلت الآية قيل لأبي بكر: أرفع صونك قليلا، وقيل
لعمر: اخفض أنت قليلا. والمناسبة متصلة بأول السورة أيضا إذ أن الصلاة
فرضت ليلة الإمام.

111. وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، وسكبه تسبيرا.

تكرر الأمر بالقول في هذه السورة واحدا وعشرين مرة. والأمر بالقول، مع أنه من
المعلوم أن النبي في مكلف بالتبليغ وإعلام الناس بما ينزل عليه من الله، يدل على
شدة الاهتمام بما تبعه. قل: وختمت السورة بكلمة قل: فها هو هذا الأمر المهم
الذي ختمت به الآية ولقد عليه بالأمر ٢ هذا الأمر هو ما تجرئ به النفس فتتمتلي
بالمعاني التي كثيرا ما يعجز اللسان عن التعبير عنها، فلا يبلغ المستوى المؤدي
للعظمون. فأسعد الله المسلمين بتوفيقهم إلى تعبير يزيد تكلم للمعاني وضوحا ونورا
ويثبتها في النفوس. ويتضمن أمورا:

الحمد لله: الثناء على الله المنزل للقرآن، والباعث للرسول، والذي ختمها برسالة
محمد ﷺ ولزل معه القرآن، الذي نوهت به السورة أيضا تقويه، والمفيض
للأطراف التي بها يتم الاعتناء إلى الصراط المستقيم، زيادة على النعم للذيوة التي
لا تحصى لها عدا.

الفتنة عما سوغه الخيال من إلحاق الصفات به سبحانه مما يظن معه أصحابه أنهم
يمجدونه به، كإثبات تولد عند النصارى الذين يقتسمون ولده مبالغة في تقدسه، أو
إثبات شركاء له يكونون هم الوسطاء بينه وبين عباده باعتبار أن الإنسان الملوث
بالآثام غير مؤهل للاتصال المباشر به. وتقسيم الألهة حوله، يختص كل واحد
منهم بناحية من النواحي كإله النور وإله الظلمة ولحو ذلك من التخيلات الفاسدة، أو
ما ينجح به الخيال المريض: أن له أولياء يملكونه من أن تسلط عليه قوة ليفنى على
عزته بهم، كمالك الذي يحمي ملكه بالجيش وقائمه. وهؤلاء أخط المفكرين في الله،
إذ تفكيرهم يؤدي إلى أن الله قليل غير عزيز بذاته، وإنما يكتسب عزته من حمايته،
فلذلك قرنت الآية قولهم بلازمه: ولي من الدن.

واعتمدوا ونطقوا بأملا نفسك بعظمة الله التي تتظلل بها، وترى آثارها في كل ما
يدخل تحت حواسك في هذا الكون المترامي. فإذا شاهدت جمالا متميزا يخلب

نظرك فقل : الله أكبر ، وإذا نظرت في السماوات ونظالمها فقل: الله أكبر ، وإذا كنت عالما فأنكشفت لك عجائب الخلق فسي كبيرة أو صغيرة فقل: الله أكبر . وإذا كنت في ساحة الجهاد فقل الله أكبر من كل القوى التي يتقوى بها عدوك، وألزم التكبير هكذا كلما أردت أن تتقوى في جميع المشاهد فبالتكبير يطرد الضعف. وكبره تكبيرا يليق بعظمته وكماله وجلاله.

اللهم لك الحمد كما يرضيك وكما يليق بفصلك وجلالك. والله أكبر كبيرا والشكر لك على ما يسمو -

فقد أتممت ليلة الجمعة بعث صلاة العشاء ببيان ما فتحه علي فسي فهم سورة الإسراء 5 ربيع الأول 1433-2012/1/27.

سورة الكهف

الاسم المشهور لهذه السورة سورة الكهف وهكذا كتبت في المصاحف وهذا الاسم هو المطابق لما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. وعند ابن مردويه "سورة أصحاب الكهف" وهي السورة الثامنة عشرة حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول السورة الثامنة والستون نزلت بعد الغاشية وقبل الشورى عند جابر بن زيد. وعند البقاعي بعد الغاشية وقبل النحل. وهي من السور المكية وامتنعت بعضهم آيات منها نزلت بالمدينة.

ورد في فضلها أحاديث كثيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: من قرأ بها أعطى نورا بين السماء والأرض. ووقى بها فتنة القبر. وعن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، إن رسول الله ﷺ قال: "ألا أنلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملا عظمتها ما بين السماء والأرض لتأليها من الأجر مثل ذلك" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء، ووقى فتنة الدجال.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَهُ يَحْكُمُ لَهُ يُزْجَىٰ فِي فِجْمَا يُخْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ الصَّلَاةَ أَن لَّهَا أَجْرًا حَسْبًا ﴿١﴾ مَّكَرَتْ فِيهِ أَيْدَا ۖ يُنْفِذُ الْبُرْءَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَثُرَتْ حَكِيمَةً خَفَّتْ مِّن قُلُوبِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٢﴾ فَلَعَلَّكَ خِجَمٌ لِّنَفْسِكَ ۚ إِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ بِهَذَا الْخَبَرِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى الْأَرْضِ رَيْبًا مَّا يَبْتَلُونَهُ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ،

الكتاب: القرآن

عوج : عدم استقامة.

آية : صفة مبالغة من القيام. بمعنى موالاة التعهد والتوجيه.

مستقرين فيه .

ت : تعجب من عظم شأنها.

نم : مقابلهم: اتخذ الله ولدا.

بحر : قلل.

الأثر : ما يبقى بعد ذهاب صاحبه.

تعميت : للقرآن.

أسفا: حزنا.

صعدا: التراب.

جزءا: قلحلا أجرد.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالثناء على الله، فله الحمد الكامل، توالى نعمه، وأجلها نعمة إنزال القرآن على قلب مريدنا محمد الذي بلغه للعالمين. إنه الكتاب الهادي إلى الطريق المستقيم فالمهتدي به لا يدرى عن الحق، وهو الكتاب الذي يكون مع الإنسان في جميع ما تعرض له، فيساعده على الفوز في الدارين. إنه يقيم الإنسان بين قطبين: قطب الخوف من الضلال بإظهاره للعذاب الذي يوفعه الله فلا مفر منه، وبين قطب فتح الآمال بالبشارة بالنسبة لمن جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، وأن الله سيجازيهم بالأجر الحسن الذي لا سوء معه، الأجر للمعتد إلى لبد الأبدن يحيط بهم من جميع الجوانب الروحية والجسدية. وينذر الذين قالوا : إن الله اتخذ ولدا، من مشركي مكة وكذلك من اليهود والنصارى. ما أشنع من قول اختلقوه، وهو صادر عن جهل منهم ومن أبائهم، إن مخالفتهم عن الله أو عن الرسول، أوفى القرآن، لو في الدين الإسلامي أقوال كلها كذب وإفراء. هوّن على نفسك يا محمد ولا تحزن من إصرارهم على الكفر، أثق على فوك لتواصل الدعوة إلى الله. إننا جاهدنا ما على الأرض زينة لها ليقلوا عليها ويعملوا فيها، ونحن نختبرهم بذلك ليظهروا المحسن من المفسد وسيتهي الكون وما فيه من جمال، وينقلب ترابا لا حركة فيه ولا حياة، ثم يوقنون جميعا لمحاسبتهم على عملهم. فلا تحزن عليهم هي سنة الله ماضية فيهم.

بهاج المعنى العام :

1-3، الحمد لله الذي أنزل على عبده... ما صكتين فيه أبدا.

ترتبط فاتحة المورة بخاتمة سورة الإسراء (وقل الحمد لله) ونذكر من البداية بالتصور والتطبيق الذي يجب أن يعمر نفس المؤمن وبعيش به ومعه: التناء على الله بما أنعم. وأفضل نمعه وأجلها وأبلغها أثرا في حياته القرآن المنوه به قريبا في الآيات -108/107/106/89/88- من سورة الإسراء. ولذا ربطت الآية بين حمد الله وبين أخص موجبات الحمد: إزال القرآن على رسوله الذي شرفه بنسبته إليه عبدا. ومقام العبودية يشعر بفضل المقرّبون من خلقه. قال تعالى: (**لَنْ يَسْتَنْفِذَ الْمَسِيحُ أَنْ يَشْفِيَ عِبَدَ اللَّهِ وَلَا قَدِ اسْتَفْعَى الْمَقْرِبُونَ**) ثم إن هذا القرآن يختص بمزايا :

أولا: أنه الهادي إلى الصراط المستقيم، فإن نجد في هدايته الحرافاء، فالملتزم لهداه يتضح له مسار، الأمن والواضح بدون متعطفات، فسي حياته الدنيا والآخرة ولم يجعل له عوجا.

ثانيا: أنه يصحب البشر موقفا لهم، مما يجعله واقفا عليهم يحفظهم من الزلل والحيرة والشبهات. ويشجعهم على الاستقامة، ويردهم عن تباع سبل الضلال والفساد. قبيحا

ثالثا: أنه يزيل سجوف الغفلة عن مآلهم المحبوب عنهم في الحال، الذي هو حلول العذاب بهم في الدنيا بتسليط جلد الإيمان عليهم يهزمون عليهم حدود الله، والعذاب الأخروي إذا هم لم يؤمنوا ويستقيموا. إنه عذاب شديد لا يقدرونه حتى كثرة الآن ولا يستطيعون له ردا، لأنه من لدن الله ذي البطش الشديد.

رابعا: أنه ييسر. واليسارة هي اللذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والقيام بالأعمال الصالحة، وبم ييسرهم ؟ ييسرهم بأن الله قد كتب لهم أجرا وثوابا لا نقص فيه ولا خلل يبهج النفس لحسنه وكماله، مع خلودهم فيه يحيط بهم من جميع الجوانب. عبر القرآن عن هذه الإحاطة التي تشمل النعيم السعوي والنعيم الجسمي بقوله ماكتين فيه.

4-5- وَيُنَادِ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ إِلَهًا كُنْهًا.

عود لتفصيل أحد موجبات الإنذار بالعذاب - لينذر بأسا شديدا من لدن - وهو في الآن نفسه مرتبط بالآية التي خاتمت بها سورة الإسراء - الذي لم يتخذ ولدا - نصحح الآية بأن من ألقب ما صدر عن المنكرين ادعاهم أن الله قد اتخذ ولدا. لما جمع هذا القول من ضروب للنقص. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والذين قالوا اتخذ الله

ولذا معظمهم عند نزول الآية مشركو مكة، وتشمل ما سيقوله النصاري عند مواجهتهم بالدعوة إلى الإسلام، وكذلك لليهود، لأن القرآن لا يقتصر دلالاته على الواقع عند نزوله، بل تمتد لما يصلح له النقص إلى أبد الأبد. ثم يبطل القرآن قولهم المنكر هذا، وأنه اختلاق لا أساس له. إن مقالتهم تلك كانت رشح جهلهم. إن ما نسبوه إلى الله من الولد منفي لا أصل له، وما عندهم ولا عند أبائهم من دليل قريب ولا بعيد عنه.

عظم قبح هذه المقالة، وما أشنعها، تحركت في لهزاتهم دون أن تستند إلى شبهة ولا إلى فكر. ثم أخرجوها من أفواههم، إنهم فارغون لا يؤمنون بفهم ولا يراقبون أنفسهم، فلا يقولون إلا قولا لا أصل لها، كاذبة، سواء فيما صوروا به الخالق، أو فيما يرمون به الرسول ﷺ، لو فيما يروجونه عن الإسلام.

6. **هَلْ مَلَكٌ يَخْتَصِمُ عَلَى أَثَارِهِمُ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا.**

تحذير للرسول من أن شدة حزنه وغمه من إعراض قومه عن الإيمان قد يصل به ذلك إلى درجة الهلاك، فهو ينظر إليهم وقد تولوا عنه، تشهد أثارهم الدالة على عصيانهم وإعراضهم، فيتجدد أساء لئلا يتركهم. لقد كان ذو محبا للناس حريصا أشد الحرص على هدايتهم، كل همه أن يحولهم من الجاهلية للعمياء إلى نور الإسلام.

7. **إِنَّمَا جَعَلْنَاهَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً مَّحْشُودًا جَزَاءً.**

تفيد الآية لفت الأنظار إلى ما جعله الله على سطح الأرض من كائنات تشكل فيما بينها صورة جميلة للكون، يظهر ذلك بالمقارنة بين سطح الأرض على ما هو عليه، وبينما لو كان مجرد لا نبات فيه ولا حيوان. إنه في الصورة الأولى حي ليس تتكون من مجموعة صورة تسقوي الإنسان، فينفعل معها. وهو في الصورة المفترضة للفاشية يمثل الموت والوحشة، ينفر منها ويبتعد عنها.

فإن الصورة الأولى تفريه بالتأثير فيها، ويعمل فعلا، ولكن المهم ليس العمل كيفما كان، ولكنه العمل الذي يؤديه على الصورة الحسنة الكاملة. وهذا الأداء المعتبر حسنا عند الله هو الأداء الذي يجمع بين تقدير الإنسان أنه محاسب على ما استخلف فيه، من ناحيتين:

(1) ربط ما يعمل فيه بمبدعه فيشكره على ما يمر له العمل فيه من أجزاء للكون، ويتجنب الإسراف والتفريط.

(2) الالتزام بقيم خلقية في الانجاز من النجود والصديق وعدم الفش، والإخلاص ونحو ذلك.

بيان معاني الألفاظ :

الكهف : الغار الواسع في الجبل.

الزقيم : كتاب كان مع أصحاب الكهف.

أورثتني إلى الكهف : اتخذوه مسكنا.

أمرنا : حالنا.

فرس : الخير .

نمرونا على أذانهم : جعل أذانهم لا نسمع الأصوات.

مستاهم : أيقظناهم بقطة للمفروع.

الحزب : الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد.

لخصي : أدق في تقدير الزمن.

نقص : نسرده عليك خبرهم مجموعا، لا مفرقا.

كتبا : الخبر المهم.

زملناهم فدى : قرينا الهدى قبيهم.

ربطنا على قلوبهم : ثبتناهم ثباتا لا ترد فيه.

المنقلب : الإقراط في مخالفة الصواب.

سلطان بين : حجة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إذ أن من أول الآية بالانتقال من الغرض السابق للكلمة ألم لتنبه السامع كي يستعد لما يلي إليه. أحسبت أيها المتعجب من قصة أصحاب الكهف والوثيقة الضابطة لشرعهم، له أمر عجب حق ؟ إن ما يجري في الكون من التصرف الإلهي لا يعد معه أمر هذه القصة مستغربا. اسمع إلى ما تم في هذه الأمر : ذهب شبان أصحاب قوة ورأي وخلق ودين إلى كهف في الجبل واتخذوه مسكنا يأوون إليه، فرأوا من فتنة التسلط العاشم على الإيمان، توجها إلى الله أن يؤتيهم رحمة خاصة من عنده وأن ييسر لهم أسباب للخير في إقامتهم تلك، تقبل الله خالص دعائهم وسأل منهم لليقظة فناموا نوما عميقا قطعت فيه مداركهم عن الإحساس بالأصوات. ثم إنه بعد للمدة المقررة بعضهم من نومهم فزعين، وسيترتب على ما تم لاختلاف الناس في المدة التي قضوها نائمين فمنهم مصيب ومنهم مخطئ. والله يعلم، بمجرد إخبار كل فريق عن وجهة نظره للمصيب الذي كان أضبط إحصاء.

أخذ الله بعزته وجلاله يسرد في قرآنه القصص الحقيقية لأهل الكهف فقال : إن أهل الكهف فتية قديراء نبلاء على خلق رفيع، آمنوا بربهم إيماناً صحيحاً وتفضل الله عليهم فزادهم إلى إيمانهم توفيقاً في الرأي والعمل. يظهر ذلك عندما أعلنوا في شجاعة بعد أن قسوى الله عزائهم وثبتتهم، ربنا هو رب السموات والأرض، لن نذلي ولن نؤسل ولن نطلب أحداً غيره، إننا ندرك مقدار الخطأ المبين والمنقضة للصواب لدعوة غيره إليها.

ثم التفتوا إلى قومهم منفصلين عنهم مشيرين إليهم بقولهم هؤلاء قومنا حملوا لأنفسهم آية لا تمت إلى الله بصلة. عجب أمرهم! إنه لم يستقوا في دعواهم إلى حجة واضحة ، بل كلامهم مخالف للواقع فهم كذبة، وإنه لا يوجد ظلم لقبح معنى يفترى للكذب على الله.

بيان المعنى العام :

١- أم حسبت أن أصحاب الكهف سمعنا آياتنا عجباً.

الفتح الآتي بلفظ "أم" وهي كلمة يردى بها للإضراب أي الانتقال عن الكلام السابق إلى عرض جديد، وتعد السامع لما يسرد عليه بعدها، بإيقاظه إلى أن ما سيذكر أمر هام، وذلك يحتمل أحد أمرين :

الاحتمال الأول: الاستغراب من بحث الناس في لهفة عن خبر أهل الكهف واعتباره أمراً عجباً، مع أن ما يشاهدونه في الحياة ويتكرر على أنظارهم أشد إثارة للعجب، ذلك أن أصحاب الكهف استصحبوا الحياة التي كانت فيهم زمناً طويلاً، أي إنهم بقوا أحياء مدة طويلة، ومن القواعد المسلمة : الأمل بقاء ما كان على ما كان، إذ الاستمرار لا يقتضي سبباً جديداً يحدث أثره، بينما الانتقال يبحث له عن سبب مؤثر، فاشتغل الناس بخبر أصحاب الكهف هو غفلة عجيبة منهم عما هو أمامهم من الآيات البينات عن قدرة الله بتصرله في الكون بعظمته، وخاصة بالهدم والبناء، فيكون معنى الآية: حسبت، المخاطب به كل من يصح أن يتوجه له الخلل، أن أصحاب الكهف والرفيق كانوا آية عجيبة من آياتنا، ففي الكون آيات أعجب.

الاحتمال الثاني: السؤال عن علمه بأن أصحاب الكهف والرفيق كانوا أمراً عجباً، أي إثبات أن أمرهم عجب، فيتهيأ لمتابعة خبرهم.

وأصحاب الكهف الذين لزمو الكهف (المقبرة الواسعة في الجبل) زمناً طويلاً، وكان معهم رقيم، قيل في معنى الرقيم أنه من الرقيم، أي الكتابة، إثبات مرقوم عليه أصول دينهم، أو الشرع الذي تمسكوا به، لو أسماهم وتاريخ اختفائهم، وقيل هو

اسم مكان الجبل الذي كان فيه للكهف أو البلد المجلور البخ كما قيل إن الرقم كان على لوح أو على لوحين من رصاص أو من حجر. وكل هذه الاحتمالات تصورات ليس عليها دليل ظني فضلاً عن كونه يقينياً. وتدقيقه لا يزيد العبرة وضوحاً، ولا ينقص منها، فلننعمد لنهم لجأوا إلى مغارة في جبل تعجبهم عن أعين الناس، وأنهم كانوا يصبحون كتاباً، منوناً فيه ما وصلهم من الحق ليكون مرجعاً لهم بتدليسونه. وكذلك هم جماعة من الأمم المابقة، قد يكونون نصارى، وقد يكونون من أتباع الديانات السابقة للذين فروا من العصف ورضوا بالعزلة ليثبتوا على إيمانهم في وقت عصت فيه فئة المؤمنين، ثم إنه لما جرى في بعض الأعراف نفن الموتى في الكهوف، واشتهرت قصة أصحاب الكهف، أخذ كثير من الناس في مختلف بقاع الأرض ينسبون ما يعرفون عليه إلى هؤلاء الفتية، فقد رأيت مغارة في الأردن يحرم الناس هناك بأنها لأصحاب الكهف، ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: يوجد مكان بضاحية سكرة قرب ضاحية المرسى كهوف صناعية حقق له بعض علماء الآثار من الرهبان للنصارى بتونس: أنها كانت مخايل لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان الفرجانيين¹ وكثرت ادعاءات مكان معين لهم من الأنسلس إلى مملكة الروم لشرقية.

10- إذ أوى القسوس إلى الكهف فقالوا... من أمونا رشداً.

أخذ القرآن في ذكر قصة أصحاب الكهف، فافتتحها بقوله: اذكر إذ همد للفتية، عبر عنهم بالفتية، إشارة إلى أنه قد اكتملت فيهم صفات الرجولة من قوة البنية وصلح التفكير، ونبيل الأخلاق، وسجل أول ما سجل مما يعبر عن صفاء عقيدتهم وحسن توكلهم على الله فقالوا: ربنا مكاناً من رحمة خاصة عظيمة تناسب ما هديتنا إليه من التمسك بدينك، وأقدر لنا الأحوال التي نكون فيها آمنين على ديننا نتيكسر لنا الأسباب لتكون حياتنا حياة مطمئنة، موفين للحق. يقول ابن عطية: وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كالإيه.

11- فضرربنا على الألهم... مستين عدداً.

تقبل الله دعاءهم، فأعقبه بتقدير ما يحقق ما طلبوه من فضله، بتدبير حكيم ماله سبحانه. ولول شيء أن الله غطى على حواسهم بنوم ثقيل فصل بينهم وبين الأصوات، وعبر عنه بالضرب على الأذان بالنظر إلى أن الإنسان توقفه

الأصوات وينام عندما لا تبلغه المجموعات. واستمر وضعهم على هذا النحو مستغرقين في النوم مئين كثيرة ومعدودة ستكشف عند قيامهم من نومهم.

12- ثم بعثناهم نعلموهم... لما ثبتوا أمداء.

وبعد مدة طالت أيقظهم الله فزعين، شأن اللذائم الذي أفاق بعد أن طال نومهم، وهنا يأخذ الناس في تقدير زمير نومهم وانقطاعهم عن الناس في كهفهم، ويختلفون ففريق على صواب في تقديره، وفريق بعيد عن الصواب، مما يدل على شدة اهتمام الناس بأمرهم، وقوة عنايتهم بتقدير الزمن الذي فضوه في كهفهم منقطعين عما تضطرب به حياة مدبنتهم. ليظهر في الوجود أي الفريقين المختلفين كان أشد إحصاء، واضبط للتقدير الصحيح، وكل ما يقع في الوجود يكون يعلمه الله في الأزل، كما يعلمه علما واقعا عند حدوثه.

13- نحن نقص عليك قباهم بالحق...وؤدناهم هدى

الخبر من الله الذي لا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وكل علم سوى علمه مقصور. فابتدأت الآية بكلمة "نحن" المفيدة لعظمة المتكلم، فاستمعوا للحق الذي تولينا تعريفكم به في قصة أهل الكهف، إن الجامع للحديث عنهم: أنهم قية تحقق سلم الإيمان الواضح الثقي بأنهم مرتبطون بربهم الذي تولاهم وأسعدهم بعولته بربهم" وتفضلنا عليهم فأضينا إلى إيمانهم توفيقا للرأي السديد والعمل الصالح.

14- وبعثنا على قلوبهم إذ قاموا...بعد قلنا إذا شعظا.

وثبتناهم ثباتا عصمهم من الشك والتردد، فزعنا منهم الخوف وقربنا قلوبهم على لجهر بالحق. يبدو هذا التثبيت والتأييد والافوة في الموقف الشجاع الذي وقفوه، فقالوا: ربنا الذي نعبد ونطيعه ونقرب إليه: هو رب السماوات والأرض، هو رب للكون كله. نحن ثابتون على هذه العقيدة إلى أبد الأبد، إن نحيث عنها ولن نزلدي ولن نتفرب ولن نتومل إلى أحد غيره. إننا ندرك ما نقول إدراكا بينا واضحا، لو خرجنا عن ذلك لكنا لخطأ في القول الخطأ المخالف للحق والصواب.

15- هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلها...ممن اتخروا على الله مكانها.

لشاروا لقومهم مستحضرين لهم باسم الإشارة "هؤلاء" لإظهار الفرق بينهم، اتخذوا بخيالهم آلهة من دون الله، أي أصناما لا رابطة بينها وبين الله. يقولون ما لهم انصرفوا إلى هذا الجدة إنه ليس لهم أي دليل من العقل العقل الذي به البرهان والحجة. ولنتفاء البرهان العقلي لا يبقى معه إلا أن إعطاء هذه الآلهة صفة الألوهية

والتوفيق في الأعمال، فهم المهتدون. ومن لم يعنه الله بهدایتة فهو ضال لا يجد من يبين له طريق الهدى والرشد.

إنك تظنهم إذا رأيتهم من علو أنهم غير دائمين، والواقع أن النوم استولى عليهم، وتجدهم يتحركون فينتقلون في وضعهم من اليمين إلى الشمال. ومن ناحية أخرى فإن كلهم ساكنين معهم في مدخل الكهف منذ ذراعيه. إنها صورة توأملت عليها لتعلكك الخوف ورعبت منها، ولم يكن لك إلا قرار واحد وهو أن تفر من ذلك المكان.

بيان المعنى العام :

16- وإذا اعتزلتهم وما يعبدون...مرفقا.

انتقل القران في بيان القصة إلى المستوى الذي تم الانفصال بينهم وبين قومهم بعد أن سجلوا عليهم ضلالتهم وكذبهم. عند هذا الحد خاطب بعضهم بعضا بقول هو خلاصة ما انتهى إليه الأمر : إذ فررتم قرارا لا رجعة فيه لكم تنفصلون عنهم، وأن تقطعوا العلاقة معهم ومع ما يعبدونه من دون الله، فإنه نعم لذلك لم يبق وجه للمقام معهم، فلنتوجه إلى الكهف ونحسن أملون فسي عور الله فتشعلنا رحمتة، ونعينا بصفة لا نخشى معها ضيفا ولا إشكالا. وإليه سبغنا في حياتنا بالأسباب التي يصحبنا بها الرفق واليسر.

17- واترى الشمس إذا خلفت...فلن تجد له ولها مرشدا.

ومرض القران شديدهم وهم في الكهف عبر متبع للتفاصيل التي لا أثر لها في العبارة، جاعلا التالي كأنه ينظر إليهم، لم يفصله عنهم القرون المتطاولة؛ تراه في كهفهم وضوء الشمس ينفذ إلى داخل الكهف مع الطاف، فلا تتكسر الأشعة على أجسامهم فتؤذيها بحرما، ولكن تقوم بوظيفتها المظهرة للداخل ملالة إلى اليمين صباحا وإلى جهة الشمال مساء، ومع الإضاءة المظهرة وغير المؤذية تراه في فسحة الكهف الداخلية "حجرة منه". ولما كان الفصد من القصة ليس التملية، وإنما الاعتبار والاعتنان إلى أن رعاية الله تقرر للصالحين الخير والحفظ، لفنت الآية النخل إلى أمرين:

أ) إن وضع باب الكهف من الشمس من آثار قدرة الله وحسن صنيعه. وهدايتهم إلى هذا الكهف من آثار عنايته التي تتعدى النولحي المادية إلى التوفيق إلى طريق الرشd والثبات عليه. إنها لطاف تحف بالإيمان فإذا هو يختار ما هو أوفق له وأفضل عاقبة، وإذا هو منعطف إلى الخير مشعر من الشر، يجد راحته في طاعة الله والتقرب منه. يمو في مرآب الكمال بصفة متتابعة. وفي المقابل فإن من

بحرم لهداية أي الألطاف المساعدة، ويُترك لنفسه واختياراته لمن يُلقي في حياته من يبين له طريق الرشد ويسعده على اتباعه.

18- وتحصروهم أيلافاً وهم رقود وسوت منعت منهم رعباً.

يوصل القرآن عرض المشهد فيعرض صورتهم في الكهف؛ إنك إذا ثبتت بصرك فيهم، تجد من عجيب أمرهم أنك تظن من ملامحهم أنهم في حال يقظة وراحة، والواقع أنهم نائمون. فلهذه لطيف الله بهم بخدعك بصرك، ومما يزيد هذه الصورة بيانا، أنهم يتحركون مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، لئلا تتأثر أجسامهم تأثراً غير مناسب. إذا هي استمرت على وضع خاص.. والكلب ماد ذراعيه بمدخل الكهف على الهيئة التي يكون عليها الكلاب في وقت راحتهم. فالجو كله سيكون وطمانينة.

في هذا الجو الساكن الهادئ، يحرك التصوير القرآني للتالي المتتابع للمشهد، حركة سريعة تخرج به من الهدوء إلى التفاعل معه، فيقول: إنك لو قدر لك أن تشرف عليهم فتراهم على تلك الصورة لتملكك الرعب وفرت منهم. ولماذا يرتعد الناظر إليهم خوفاً لا يرى بعضهم أن صورتهم قد تغيرت تغيراً مرعباً فطالعت أظفارهم واسترسلت شعورهم. ولم يرض المحققون هذا لأنهم لو تحولوا إلى صورة مرعبة لتعطوا لأنفسهم لما استيقظوا على ما سيأتيها في النص، وهو ما لم يحصل. ويرى الشيخ ابن عاشور أن المطلع عليهم يظنهم جماعة من اللصوص كمنوا في الكهف، لأن من شأن الشطار أن يختفوا في الكهوف، فيمتلئ المطلع عليهم رعباً، وبقر قبل أن يتنظروا له. ويرى ابن عطية: أن الله أنزل عليهم من المهابة والخوف مذهباً ما يدخل الرعب على المطلع عليهم ويفر، وتخريج ابن عطية أقرب لروح النص القرآني. ولزيد هذا التخريج بيانا فاقول: إن الجو العام بما فيه من سكون وأخذ اللوم من جميعهم أخذاً يجعل الناظر إليهم متحيراً هل هم رقود أو ليقاظ، والكلب على مدخل الكهف لا يتحرك ولا يتنظن للمطلع، الكلب الذي له من قوة في حاسة الشم ما يجعله ينتبه لكل وارد. ومع ذلك هو هادئ ساكن لا يتحرك ولا ينبج، هذه سريرة عجيبة لم يتعود بها الإنسان في حياته، تؤثر في نفس المطلع وهو في مكان غير أهل الخوف والرعب، فالاختيار الأوفق: أن يفر. وهو تصوير بديع يتفاعل به القارئ مع المشهد حتى لا يكون للعرض القرآني المعجز تصويراً ميتاً للمشهد.

وَكَذَلِكَ حَقَّقْنَاهُ لِإِيضَائِهِمْ نَالُوا نَائِلَ مَتْنِهِمْ مَكَّةَ لَيْقَنَّهُ قَالُوا لَيْقَنَّا وَمَا أَوْ
بَعْضُ نَوْمِهِمْ قَالُوا رَيْبُكُمْ أَعْلَهُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ خَدَمُهُ إِلَى

الْمُتَبِينَ لَنَنْظُرَ إِلَيْكَ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ بِالْعَافِيَّتِ وَلَا تَسْعُرْ سَعَةً
أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنْ يَنْظُرُوا عَلَيْكَ يُرْجِعْهُمُ كَيْدًا أَوْ يُجِدْكُمْ فِي بُلَاهٍ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا
أُبْدِلْتُمْ

بيان معاني الألفاظ :

الزور : الفضة.

أزكى طعاما : أطيب طعاما.

ولننظف : ليكن حذرا حتى لا يتعرفوا عليه.

لا تسعرون : لا يطمئن.

ينظروا عليكم : يغيلبوكم.

الرجم : الرمي بالحجارة إلى تحقق القتل.

شيلة : اللادين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد نومهم الطويل تحركوا متيقظين، وأخذوا يتساملون كم مدة قضيناها نائمين، فذروها بيوم
أو بعض يوم، ثم أعرضوا عن الاستمرار في الاهتمام بهذا الأمر وقالوا: الله أعلم مفوضين
الأمر إليه، وتحولوا إلى ما يهمهم وقد أحسوا بالجوع، فاتفقوا على أن يبعثوا أحدهم بما معهم
من فضة ليختار لهم طعاما جيدا، وأوصوه أن يكون حذرا فلا يحدث أي مشكلة في تعامله
بتبعية إيقافه وبحثه، ولا أن يتكلم إلى أي شخص يلقاه عن أمرهم. وذكروا بعضهم بأن الحذر
مؤكد لأن الملك وزبائنه لو عرفوا مكانهم لقتلهم رميا بالحجارة أو لأجبروهم على ترك
دينهم والدخول في ملة الكفر بالله وعبادة الأصنام، وتلك هي الخسارة الكبرى التي ليس
بعدها فلاح.

بيان المعنى العام :

19، 20، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم...ولن تفلحوا إذا أبدا.

على ذلكم النحو المجيب مما فصله القرآن في شأنهم، ثم تحريك حواسهم
فاستيقظوا ونهضوا من نومهم، ليكون هذا التحول مفضيا إلى التساؤل بينهم، فاللام
في قوله تعالى ليتساءلوا بينهم يعبر عنها بلام الصيرورة وليس للتعليل، كقوله
تعالى فلننظف ال فرعون ليكون لهم عدوا^١ شأن القائم بعد فترة من يقظته يعود له

نشاطه الفكري، وأول ما يتساءل عنه ليتبينه، كم طال أمده نومه؟ قد يكون هذا بين النائم وبين من كان نائما معه، أو مع نفسه. ويسجل الحول الدائر بينهم، قال بعضهم لبنا نائمين يوما كاملا، وقال آخرون: لا، بل لبنا نائمين بعض يوم. ويشير التسجيل إلى جنبة هؤلاء الفتية، إذ البحث في هذا أمر لا فائدة منه. وريكم أعظم بالضبط التدقيق للزمن الذي قضيتوه نائمين: أي إن هذا أمر لا يتركب عليه نفع لئلا، وهو ما يُلَمَع إلى وثوق صلتهم بربهم، واستحضارهم أنه معهم وهو المحصى لما يتقلبون فيه.

ثم إنك تراهم أيها القتالي لقضيتهم أنهم اعرضوا عن مواصلة الحديث في مدة نومهم، وعوا بما ينفعهم. قالوا: ليتوجه أحدنا حاملا معه شيئا من الفضة التي معنا إلى المدينة ليكون وكيلنا علينا لشراء ما نحن في حاجة له من القوت، ويبدو أنهم أحسوا جميعا بالجوع عندما استيقظوا، فاقتاروا أحدهم، لو تطوع أحدهم للقيام بذلك؛ ولوصوه بثلاثة أمور: أن يتخير من القوت لجوده وأحسنه فيشتري منه ما يكفيهم - أن يتوخى اللطف في التعامل فلا يثير مشاكل قد تعرضه للمساءلة فيفضحوا - أن لا يعلم أي أحد عنهم. لما توقعوه أن يلتقي بأحد من معارفه فيجرحه الحديث معه إلى إمكان اكتشاف أمرهم. وهذه الوصايا الثلاث بالتأمل فيها نجد أن أكبر مهمهم أن يسلموا من الطلب السذي يتوقعونه. ذلك أن شئنا المستبدين في الحكم، أنهم لا يرضون إلا بالطاعة العمياء لما يقررون. فهم يعلمون أن الملك للكافر الظالم لا يرضى منهم إلا أن يكونوا مطيعين لما اختاره من عبادة غير الله، فذلك كان ثلثا الوصايا التي تكتم عليها والحذر من كشف أمرهم. وحققوا هذا المعنى بما صرحوا به وهم يتواصلون بالحذر من السلطة الغاشمة: إنهم إن يتمكنوا منكم فسيحكم أحدكم أمرين لا ثالث لهما: إما أن يقتلوك رميا بالحجارة، وإما أن يجبروك على أن تملأوا بصفة صريحة أنكم تركتم دينكم وعنتكم إلى دينهم. وتلك هي الخسارة العظمى والدمار الأبدي.

لطيفة: ذكر الزركشي أن الغناء الأولى في قوله تعالى فليتلطف نصيب حروف القرآن التي عددها 340740 حرفا. البرهان ج 1 ص 250 -

وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَ بَيْنَ يَدَيْهَا إِذْ يَقُولُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ شَيْئًا مَّا عَلَّمُوا بِهِ قَالُ الْيَتِيمَ عَلَيْهِمْ عَلَى أَمْرِهِمْ انْخَبِرُوا عَلَيْهِمْ تَسْجِدًا ﴿٢٥﴾ سَيَقُولُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَيْهِمْ كَافِرِينَ

وَيَقُولُونَ حَسْبُ سَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ بِهَا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةُ وَثَامَتِهِمْ كُلُّهُمْ
 قُلْ إِنِّي أَعْلَمُ بِمَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ قَلِيلًا تَمَارُ فِيهِمْ إِلَّا مَرَاءَ ضَيْرِهَا وَلَا تَشْفَقُ
 فِيهِمْ مَتَّعْتُهُمْ أَجْدَادًا وَلَا تَحُولُونَ بِشَايٍ إِنْ قَابِلٌ لِّبَلَدِكَ عَدَاةٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَأَذْكُرْ تِلْكَ إِذَا نُسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

المتحور : الظفر بالشيء بعد الطلب له.

وعد الله : إحياء الموتى.

التمزيق : الجدل القوي.

رجما بالغيب: إلقاء للكلام من غير مستند.

لا تمار : لا تجادل.

الظاهر : الذي لا يوجب متابعة الاحتجاج.

الاستئناء : طلب الفتوى بالإخبار عن أمر علمي يعلمه الخواص.

عنا: زمن مستقبل.

الرشد : الهدى والخير.

بيان المعنى الإجمالي :

وعلى ذلكم النحو العجيب الذي مكلوا في كهفهم ثياما محفوظين بحفظ الله، ثم أوصوا النباة
 الناس لأمرهم. وقد استفاد الذين عثروا عليهم علما تجريبيا وعلما مفاده أن ما وعد الله به من
 بعث الأموات أحياء وعد حق، وأن يوم القيامة سيحصل في اللحظة المفترقة يقينا،
 وذكر ذلك المشهد وقد اهتموا بهم اهتماما بالغا فكل يقدم الحبل الأمثل في نظره في
 التعامل مع أهل الكهف، وقد غابوا عن الأنظار. فقال بعضهم: لنبن عليهم بناء
 يحفظهم، وقال أهل السلطة في البلد: نقيم عليهم مسجدا.

ثم اختلف الناس الذين تتبعوا القصة من القرآن في عددهم، فسيقول بعضهم هم
 ثلاثة رجال واربعم كلبيهم، وسيقول آخرون خمسة رجال وسادسهم كلبيهم، وهم
 كمن يأخذ حجرا فيرمي به هنا بعيدا عنه لا يراه فقلما يصيبه. وسيقول آخرون
 سبعة وثمانهم كلبيهم، ولا فائدة من تتبع ما سيقولونه، فإنه وحده هو العلم بحقيقة
 أمرهم وعددهم. وقد نطلع الله بعض المقربين على عددهم، ولذا فلا ندخل معهم
 في جدال لا فائدة من وراءه. (إلا إذا كان ردا مسكنا واضحا كقولك: الله أعلم

بعددهم. والمشركون وأهل الكتاب سواء في جهلهم بعددهم، فلا تُعَدُّ لأي منهم تطلب منه ما عتده من العلم إذ لا علم لهم. ومن الأئمة الذي نزل مع هذه القصة ما أمر الله به نبيه المؤمنين أن يتبعوا كلامهم عن الأمور التي سيفعلونها في المستقبل بقولهم: 'إن شاء الله' وأن يذكروا الله إذا نسوا التصريح بالمشيئة.

وثلى القرآن بدعوة الرسول أن يقول أيضاً: إني راج أن يواصل ربي ما خصني به من القيام بأمر ليبلغ رسالة الإسلام التي هي أقرب إلى الخير وإلى نفع البشرية من معرفة قصة أهل الكهف. وإن كانت قد تضمنت قدراً غير قليل من الحق.

بيان المعنى العام :

21- وكذلك أكثرنا عليهم ليعلموا: صلى الله عليه وسلم.

ينقل المشيد من الحديث عن أهل الكهف إلى ما اتصل به بعد أن بعثوا أحدهم إلى المدينة. ويطوي القرآن ما وقع للوكيل الذي فصد المدينة ليشتري الطعام. ويبرز المشيد على غير ما كان متوقعا، فجاء التالي له على ذلكم النحو العجيب من صنع الله فيهم بإيفائهم بعد نوم طويل، يتم العشر عليهم من سكان المدينة. تحدثت الروايات التي حاول أصحابها الكشف عن الطريقة التي تم بها الأمر، وما وقع لأصحاب الكهف بعد ذلك، وهي روايات تعطي تصورا لتسلسل أحداث القصة، ولكنها لا تستند إلى نص ولا إلى وثيقة. ولذلك عرضت عنها كما عرضت عن كثير من التفاصيل التي عمرت بها كتب التفسير، واقتصرنا على ما يدل عليه النص القرآني وحده.

إن الحديث عنهم يتقلبه أهل المدينة الأخلاف عن الأسلاف، وإذا بهم يعثرون عليهم بصنع الله المتصرف في أحداث الكون، وتكون عاقبة العشر عليهم ما حصل لهم من علم مشاهد يقرن إلى ما استقر في عقبتهم من إحياء الموتى والبعث **ليظنوا أن وعد الله حق** كما يعلمون بصورة من مشاهدة أصحاب الكهف كيف إن نومهم المدة الطويلة وهم غائبون عن الحياة تبعه إحياءهم إبرتب على حياتهم الجديدة ما رثيه سبحانه، فهو أمر قريب من قيام الساعة وبعث الناس لتكون لهم حياة أخرى. وبذلك اجتمع لهم مع العقيدة اليقينية في البعث، وضوح التصور للكيفية التي ما كانت واضحة عندهم. وهذا كما جاء في سورة البقرة مخاطبا لإبراهيم: **قال أولم تؤمن قال بلى ولكن أبغضن قبلي** -آية 260-

وفي هذا الظرف الذي عثر أهل المدينة على أهل الكهف اختلفوا في شأنهم. ويبين النص أن أهل الكهف بعد العشر عليهم اختلفوا من المشهد، ولا استطاع أن

أجزم بضبط طريقة اختفاتهم، إذ هي حسب فهمي من الأسرار التي طويت في القصة ولم يكشف عنها. ولكن الذي سجله القرآن هو اختلاف الناس حول الوضع الغامض وما يتحتم اتخاذه لعلاجهم. فما سجله القرآن من الحلول المقدمة قول بعضهم: ابتوا عليهم بنينا يحفظهم ويحميهم من الفضوليين ومن لا يقدرهم حق قدرهم. والله أعلم بهم فلا نجزم في أمرهم ومقامهم عند ربهم برأي مؤكد. وتقدم أصحاب السلطة برأي لقي حاصله: أن يكون البناء على شكل مسجد، معبد، مكان مقدس بقداسة المدفونين فيه. وهذا ما جرى عليه النصارى وقبلوه.

ملاحظة: إن اتخاذ المساجد على قبور من يظن بهم الصلاح هو كما قلنا ثقافة نصرانية. وكذلك نجده في النونية، وفي ديانات أخرى. والإسلام قطع مع هذه التقاليد. فخير رسول الله ﷺ في غرفة عائشة لا في المسجد وبجواره قبر أبي بكر وعمر، وكذلك قبور العلماء كائنة المذاهب والصالحين، فمالك مثلاً، رضي الله عنه قبره بالبقيع كبقية المسلمين. ولكننا نجد معادلة في حياة المسلمين: أنه كلما زاد ضعف الفهم للتوحيد، انتشر بناء المساجد على القبور وظهرت القباب. بل أبلغ من ذلك أن حصل الظن ببعض المعتوين والمختلين ومن يميل لعابهم على صدورهم، ظن بهم درجات عالية من الصلاح، وبلى الجهلة على قبورهم مساجد، وتغربوا إليهم بالقرنين. ولا أقول هذا شرك، ولكنه إيمان مدخول ومرضى في العقيدة. أخرج البخاري بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره. غير أنني أخشى أن اتخذ مسجداً. علق عليه ابن حجر بقوله: وهذا قلته عائشة قبل أن يوضع المسجد النبوي، ولهذا لما وضع للمسجد حُملت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يئتي لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة¹ - كما أخرج عن عائشة أيضاً أن لم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحشة فيها تصاوير، فنكرتا للنبي ﷺ فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير، فأولئك شرار القوم عند الله يوم القيامة²، فخرج مسلم بسنده إلى جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم **مساجد** ولا فلا يتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك³.

22 سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...ما يعلمه إلا قليل.

¹ فتح الباري ج 3 ص 441

² فتح ج 2 ص 170

³ بمال الإجمال ج 2 ص 234

انتقل الحديث عن أهل الكهف في الزمن الذي تم فيه من أمرهم ما تم، إلى أثر القصة في السامعين لها بعد أن سجلها القرائن. فقد أكتسبت بذلك رواجاً في المجالس. وأخذوا يتحدثون عنهم، وتساملوا عن عددهم، وعن الزمن الذي قضوه نائمين، وكنمو فروضا لا تستند إلى دليل قبيضهم سيقولون: هم ثلاثة من الرجال، والرابع الكلب في عدد الذين ضمهم الكهف، وغد الكلب بالنظر إلى أنه جرى عليه ما جرى عليهم من النوم والحفظ، ويقولون آخرون: خمسة والسابع الكلب، وتقدير الفريقين لا يستند إلى دليل، ولكنه كلام بلفظي، كما يرمى المراجع بحجر شيئا بعيدا عنه لا يراه فلا يصيبه إلا قليلا، ولا عيب مستور لا يعلمون من أمره شيئا. وقد أصبح هذا للتعبير "رجما بالغريب مثلا جسمم النخرص، ويقولون: سبعة وثمانهم كلبهم، ويرشد القرائن التنبؤ إلى الموقف الذي يتعين اتخاذه في هذه القضية وفي أمثالها، إن العلم الحق المصبوط هو العلم الإلهي، فإنه هو المتفرد بعلم الأشياء على حقيقتها، وإن علم الناس المبني على التخمين لا قيمة له، فلا فائدة من مواصلة عرض أحوالهم. وهو سبحانه يُطلع من يشاء من عباده، وهم قلة، على العبد الصحيح.

22. فلا تعاز فيهم إلا مراة ضلالتهم منهم أحد.

ولما كان الله لم يبق دليلا على عددهم، وضبطه عند الله، وذلك لا ينقص من عبرتها جهله، ووقت أن من أن تتفهم فيما افترضوه لو نرد عليهم فيما احتجوا به، فأعرض عن متابعة لخطهم ولغوهم، وقف عند ما هو يقيني ظاهر، كقولك الله أعلم بعنهم؛ والمشركون يستوون في جهل عددهم مع أهل الكتاب فلا تعد لأحد منهم تسأله عما يعلم من شأنهم. وعلى ذلك تكون هذه الوصايا منهج الإسلام في كل ما لا دليل عليه من العقل أو النقل.

23. 240. لا تقولن لشيء إني... لا أقرب من هذا رشدا.

في قبايع ما سبق من قصة أهل الكهف بهذه الآية توقف لإبراز الاتصال، وكل الذين تبعات كلامهم سجمعون على أن الرسل، هي أن المشركين أقتوا من أهل الكتاب أن يسألوا النبي ﷺ عن خبر أهل الكهف، وسأله فعلا فوعدهم: أنه سيخبرهم غدا، ولطفا عليه الوحي ثلاثة أيام، أو خمسة عشر يوما، ثم أتاه جبريل فأنزل عليه سورة الكهف، فتكون هذه الآية على ما روي عتبا لجزمه بأن موعد الإجابة سيكون غدا، وهذا العتاب هو تعليم لأمته المنهج في الالتزامات: أن لا يلتزم المؤمن إلا بما يعلم أنه ممكن من الوفاء به، فإن كان غير متيقن من ذلك فليقل أثر

كلامه : إن شاء الله. ويكون نسخ الآية المبني على الإيجاز ينحل إلى :ولا تقولون لشيء إن فاعل ذلك غدا إلا، تقول : إلا أن يشاء الله. أي إلا مع نكر المثبته. وليس المراد من قوله تعالى **غَدَا** : اليوم للموالي ليومك، ولكن هو دال على المستقبل قريبا كل لو بعيدا.

وسع الله على نبيه وعلى المؤمنين أن يذكروا : إن شاء الله بعد مدة إن غلبهم النسيان عن ذكرها مقارنة للكلام.

وذكرها بعد مدة ينحل إلى قسمين : قسم مجمع عليه، وهو أن ذكرها بعد مدة يحقق التزام المؤمن بالأدب مع الله المالك لما يستقبل من الأمور. فلا يجوزم بفعل شيء في المستقبل ليس هو في ملكه ولا في طوقه. وقسم مختلف فيه وهو حل الالتزام إذا أتبع بقوله " إن شاء الله " وخاصة في الأيمان فالذي عليه الجمهور أن الاستثناء ينفع المستثنى وتحل بمنه إذا وصله بالاستثناء. فإذا قال للحائف : والله سأترك غدا إن شاء الله، تحل من يمينه في الوقت. فغدا كأنه لم يحلف وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والشافعي؛ وإن كان المروي عن مالك أن قوله هذا ليس مستندا إلى الآية التي تنحصر دلالتها على ذكر الله عند طرؤ النسيان على الإنسان، ومستند قوله من السنة. وفيهم علماء آخرون أن الاستثناء تحل به اليمين وإن انفصل عنها بزمان. فدره عطاء بحوالي، خمسة عشر دقيقة (قدر حلب الناقة الغزيرة) وعند قتادة: ما لم يرق من مكانه، وعند الإمام أحمد ينفعه ما دام لم يتحول عن الموضوع الذي كان يتحدث فيه عنما أقسم.

كما أمر النبي ﷺ بقول :إن شاء الله فيما بعده من الأمور المستقبلية. انضمت هذه الآية إرشادا آخر له ولأمته حاصله : أن ييسر له من أسباب الخير والهدى ما يكون لولي وانفع. وارتبط هذا الأدب بقصة أهل الكهف التي دعا إليها وعده بإجابتهم عنها غدا، وفيها إيعاء: أن الوظيفة التي كلف بها من هداية البشرية إلى المعقودة الصحيحة، والتشريع المحقق للعادلة، والأدب العالي في العلاقات البشرية، ذلك أبلغ في الخير من معرفة قصة أصحاب الكهف.

وَلِهَؤُلَاءِ كَهْفُومُهُمْ ثَلَاثِينَ سَنًا مِّنْ عَمَلِهِمْ وَآزَادُوا سَنَآتِهِمْ إِلَى ثَمَنِينَ أَهْلَ الْكَهْفِ عَزَّ وَجَلَّ قُلْ اللَّهُ أَغْنَىٰ عَنَّا لِهَؤُلَاءِ مَا لَمْ يَكُن لَّهُمْ شِرْكٌ مِّنْ دُونِهِ وَمَن يَرْجُ مِن دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهٗ يَفْزَعُ عَنْ يَمِينِهِمْ خُفْيَةً خَافِئَةً

بيان معاني الألفاظ :

غيب السموات والأرض : ما غاب علمه عن الناس فيهما.
ابصر به واسمع : ما أتم علمه بالمبصرات والمسموعات.

بيان المعنى الإجمالي :

كشف القرآن عن المدة التي قضتها أهل الكهف نواصاً، فحددها بثلاثمائة سنة، وذكرت الآية أنهم زادوا عليها ثلاثين سنة. ويرى بعض حذائق المفسرين أن ثلاثمائة من السنين هي بالحساب الشمسي، وأن ثلاثمائة وتسعة هي عدد السنين القمرية. وقال الذين يقدمون بتدويرات تختلف عن هذا التحديد: إن التحديد الحق هو ما حدده القرآن، فالله العالم وحده بكل ما يجري في السموات والأرض، فما أتمم وما أوسع ما يعلمه الله من المبصرات والمسموعات، وإن المشركين ليس لهم ولي يعينهم من دون الله. فهو المتفرد بالتصرف والحكم في الكائنات جميعاً، وليس لأي أحد نصيب في ما يحكم به وينفذه.

بيان المعنى العام :**25- ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنٍ وَارْتَدُوا عَنَّا.**

في مستوى قيام أهل الكهف من نومهم، تساءلوا عن المدة التي قضوها في سباتهم، ولهم فوضوا ضبطه لله ليتبين يوماً لو بعض يوم* بل ربكم أعلم بما لُبِثْتُمْ* وهذه الآية تكيد أنهم بقوا في كهفهم على الحالة العجيبة التي كانوا عليها ثلاثمائة سنة بزيادة تسع سنين. وفهم بعض الحذائق من هذا التعبير القرآني المعجز، أن مدة مكثهم ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي للسنين، ولما كانت السنة القمرية تُنقص أيامها عن السنة الشمسية، فإنه يضاف لكل مائة سنة ثلاث سنوات، فكان العدد إن نظر فيه للسنوات الشمسية ثلاثمائة سنة، وإن نظر فيه للعام القمري كان تسع سنوات وثلاثمائة.

26- قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا. إِنِّي صَدَقْتُكُمْ قَوْلًا وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا شَرًّا فَمَوْلَايَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

لما حقق القرآن مدة لبثهم في الآية السابقة أعقبه بآيات من الكتاب الذين قدموا متداً أخرى. فأمر الرسول ﷺ أن يقول بوصوح كامل : الله أعلم بالمدة التي بقوا فيها نائمين. وكل قولكم المخالفة لقول باطله نشأت عن جهل لاعن علم. والله سبحانه هو الذي تفرد بعلم كل الكائنات والأحوال التي حدثت في السموات وفي الأرض. وإذا استحضرت الإنسان معة علم الله لكل حادثة في السموات أو في الأرض، فإنه يعجب لاشك من سعة العلم الإلهي. فمثلاً كل ورقة عند بروزها وعند

المترادف : كلمة اصلها قارسية تعيد للخيمة أو ما يحيط بها.

يستأجروا : يطلبوا الفوت.

المهل : دردي الزيت.

مرنفل : ما هو رفق للإنسان.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القرآن الذي أوحيناه إليك، عليك أن توصل قراءته على الناس كما أنزل إليك بدون زيادة ولا نقص ولا إخفاء ولا تحوير، إن كلام الله لا يتجزأ أي كان على تغييره. هو كلام من لا يجد أحد ملجأ ينجيه من عقابه.

واحبس نفسك يا محمد مع الذين ظهرت عقائدهم من الشرك، وأصنامهم من الخبيث، وهم متعلقون بربهم بدعونه صباح مساء يبتغون رضاه، وأعرض وأرفض دعوة الذين طبعنا على قلوبهم فكانوا مبشرين في غفلاتهم لا يذكرون ربهم، يفودهم هواهم ويتبعون دواعي غرائزهم، وكانت كل حياتهم ظلماً وسبقاً إلى الشر.

وكلها مزاحمة تقع بها أطماع المشركين أن يستزلوك: جاني الحق الواضح من ربكم، وكل ما سواه باطل. ولست مسيطراً عليكم فمن شاء أن يتبع ما أنزل إلي من الهدى فلياب الإيمان مفتوح، ومن اختار الاستمرار على الكفر فله ذلك. ومع ذلك فاعلموا أن ربنا أعد للظالمين بكفرهم ذراً من صفاتها أنها تحيط بهم إحاطة الخيمة بساكنيها، تطبق عليهم فلا يستطيعون الخروج منها. وتحترق ألبانهم عطشاً فيستغيثون طلباً للري، فيستجاب لاستغاثتهم بماء ضارب لونه إلى السواد هو كدردي الزيت كدر" تلو حرارته على حراة الماء، يشوي وجوههم بمجرد ما تقترب شفاههم منه. ما أسوأه من شراب، وما أسوأ جهنم مكاناً يرتفون فيه ويستريحون!

بيان المعنى العام :

27- وأتينا ما أوحى إليك من كتاب ويحكم عن دوله ملتحداً.

لهذه الآية تعليق بقصة أهل الكهف. بيان ذلك أن الله يقول لنبيه: وأصل ثلثوه ما أنزلناه عليك من القرآن، على النحو الذي تلقينته عن جبريل بدون زيادة ولا نقصان، ولا تلحق بالآلما يعرضونه عليك، ويطلبونه من إجابة عن أسئلتهم في قصة أهل الكهف وغيرها. فإن ما جاءك من القرآن هو ما أردت إبلاغه للناس بواسطة. وكلامي لا يغفل التثليل. فلا تُنصف ولا تُقص ولا تكتم ولا تحور، إنك لا تجد ملجأ، ولا حامياً ولا من ينجيك سواء، فبلغ ما أنزل إليك بشجاعة وعزم كما أنزل، سواء أَرْضِي به المشركون أم سخطوا.

28- واسمير تقمصت مع الذين يريدون وجهة...أمره قريشا.

يوصل القرآن تأكيد رسول الله ﷺ وتبتيته، أمر في الآية السابقة بأن يصدع بما أنزل عليه مطابقا لما أنزل عليه، وفي هذه الآية يرشده للوحي إلى حبس نفسه مع الذين تار الإيمان قلوبهم، وحرر عقولهم، فهم يتصلون بربهم اتصالا لا ينقطع من الفجر إلى العشي. ولا أنهم من هذا أنهم منقطعون عن الدنيا مشغولون بالذكر فقط، ذلك أن الإنسان ما دام يعمل في الدنيا مستحضرا رقابة ربه عليه ملتزما بأحكام الإسلام فهو في عبادة. إن دواعي الغريزة والأنانية وحب الخير لنفسه تدعوه بطرق عديدة من الإغراء ليمسك الممالك التي ترزق الشيطان، وتدعوه رقابته لربه وعمق إيمانه للاستقامة مستحضرا يوما أنه في حضرة ربه، يتطلع عليه، ويجزيه بالطمأنينة والرضا والسكينة والهنو. ولا يشغله عمله عن القيام بما يزيده قربا من ربه من القيام بالفرائض، والنوافل، وحضور مجالس العلم والذكر.

والذين هداهم الله فاسرعوا بالذخول في دين الله، منهم أصحاب الحظ الاجتماعي المرموق كعلي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، ومنهم الفقراء كسلمان وأل ياسر. وكان المجتمع الجاهلي فارغا من كل القيم إلا القيم المادية كالقوة والجاه. وكانت الطبقة الفقيرة مسحوقة محتقرة، تمنعهم كبريائهم من الجلوس معهم. فكان من تعالأت رؤوس الشرك أن مركزهم الاجتماعي لا يسمح لهم بالجلوس مع المستضعفين وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعدهم من مجلسه حتى يربط أول خيط بهم. ولعلظ حاستهم الاجتماعية ما دروا أن الإسلام قد جاء ليقلب الموازين التي كانت تسود مجتمعاتهم، جاء ليعيد للإنسان كرامته وقيمه الإنسانية، هذه القيمة التي يتفاوت فيها البشر تبعاً لمواهبهم، ولاستعداداتهم، ولدورهم المصالح في المجتمع. فلا يعلو شري معلم من الأخلاق، ولا ينزل فقير من المال غي بخلفه وأدبه. والرسالة التي جاء بها محمد هي إقناع البشر جميعاً بأنهم عباد الله، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم، فكان مقترح المشركين من قريش بإبعاد الفقراء من مجلسه مقترحا مناقضا لأصل الدعوة وقيمة الإنسان في الإسلام. فهذه الآية مع غيرها تؤكد تلكم المفاهيم. أمر الله رسوله أن يحبس نفسه ويلتزم هؤلاء المؤمنين الصالحين، وإن كانوا فقراء مما دام صفاء أرواحهم قد برزت آثاره في قبائلهم على الله صابحا ومساء. ثم ضاعف للتأكيد بالنهاي عن ضد موقف حبس النفس ومعهم، فيها عن مجاورة النظر إليهم إلى الذين جمعوا رتبة الحياة الدنيا، التي عرفها القرآن في قوله تعالى : **(الملك والذين يؤمن من آل عمران)**

الندوة ١ فيؤول معنى لا تغذ عيناك، أي لا تعرض عنهم مفضلا من كان ذا مال وعزة إذا كان خاويا من الفضائل. ولا تطع، واغص ولا تتبع من كان عقله وقلبه لا يذكر الله أبدا، وعنى ذلك أن الأمر لا ندعهم الفطرة في أول حياتهم للتفكر في الله ثم لا يزالون يواصلون طرد هذه الخواطر الفطرية عنهم حتى تغيب تماما، ويصبحون في غلة عنها، وعندما ينقطع خيط اتصالهم بربهم ينطلق مسار الهوى فيتولي حياتهم وتقلب حياتهم إلى اللهوت وراء المتعة المادية كيفما اتفق، فيكون أمر كل فرد منهم فرطا، ظلما لنفسه وظلما لأسرته، وظلما لمن يتعامل معه. إذ هو مأسور لنفقه وشهوته.

29 وقال الحق من يهلكه الله سبحانه وسألت موقمًا.

لمر النبي ﷺ أن يعلن ويصرح بصريحا واضحا بقطع على المشركين كمل أطعاعهم أن يستأذوا النبي ﷺ ليذهب فيما يرغبون فيه. قل: إن الذي جاعلي من ريكهم هو الحق، وكل ما سواه باطل، وإذ تبين الحق وجلا فإن إيمانكم أو كفركم بما جاعلي من الحق لا يغير موقفني مما جاعلي، فأنتم بالخيار بين قبوله والإيمان به، وبين الإعراض عنه والكفر به، فكونوا يائسين بأسا لا تنتظر بعده أن أهانكم فيما ترغبون فيه من التنازل عما أمرني به ربي في الأصول أو الفروع. واعلموا أن جزاء من أعرض فظلم نفسه، وظلم للحقيقة، مقرر ثابت هو النار التي تطبق عليهم فتحيط بهم كما تحيط للخيمة وما حولها يستلكنها.

ثم عرجت الآية على فعل النار فيهم وهم 'تهكما بهم' في المراقب الذي لا مخرج منه، تسمع صوت الاستغاثة منهم، لا تبع حناجرهم من تكرار النداء طلبا للغوث، لتمكينهم شيئا يخفف عنهم حر النار. وما بقي في أذهانهم من للحياة الدنيا أن الماء هو الذي يخفف النار ويطفئها، فتقع الاستجابة لاستغاثتهم بماء أثبت ما يكون بدردي لزيت في لونه الضارب إلى السواد، وفي خاصيته. تلك الخاصية هي أن الماء مهما أوقدت النار تحته لا تزيد درجة حرارته عن مائة درجة، أما الزيت والدردى فحرارتهما تعلون على مائة درجة، فيشويان وجوههم كما تشوي بالنار، وملط الشيء على الوجوه لأن الوجه أشد إحساسا بالحر. وتستأنف الآية كصوت ينطلق في المشهد يعلن النكال بهم، ما أسوأ من شراب! وما أسوأ مكائهم في جهنم! يرتاحون فيها تهكما بهم. بنس شرابهم شرابا، وبنس جهنم ومادة يتكون عليها.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۚ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَالِدُونَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ ۖ غُلَّتْ فِيهَا بِنُورٍ مِنْ ذَهَبٍ
وَنُفُوسُهُمْ فِيهَا تُخَادَعُ مِنْ سُوءٍ ۚ وَاسْتَقَرَّتْ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْزَاقِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ
وَحَسَنَتْ مَرْثَقَانِ ۝

بيان معاني الألفاظ ،

لا نضيع : لا نحرم أجر من أحسن عملا. أي نمكثهم منه.
عدن : إقامة.

لسور : جمع سور حلى يحيط بالمعصم.

سننن : صنف من الثياب رقيق بليس فوق الجلد.

الاستبرق : ثياب من حرير أغلظ من السننن، أو منسوجة من ذهب وحرير.

بيان المعنى الإجمالي ،

إن من جمع بين الإيمان الواضح، والعمل الصالح، يحنق الله له بفضلته وعدله كتابة
جميع ما قام به من عمل حسن في صورته وقصده ويجزيه عنه.
يميزهم الله بأن جزاءهم سيكون جنات يقومون فيها إقامة أبدية، من صلتها أن
الأنهار تتخللها فتروبيها ريثا متواصلا، يزيدها جمالا ولطفا، ويكسوهم ربهم ثيابا من
حرير ناعم رقيق 'سننن' وفوقه ثياب خضر من حرير مختلط بالذهب، وهذا
تقريب للبشر بما يعرفونه في الدنيا، ولكن ما أعد لهم هو فوق ما تدل عليه الألفاظ
بمدلولاتها المعروفة في هذه الدار الدنيا، والجو كله أنس وراحة، فهم متكئون في
مجالس رائعة على الأرائك، وبصفة عامة نعم الثواب الذي حصل لهم، ونعمت
الراحة التي يستمتعون بها.

بيان المعنى العام ،

30-إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ ۖ

وصفت الآية السابقة جزاء الكافرين، وشأن القرآن أن يزواج بين التهديد والرجاء،
وبيّن ذكر النعمة للكافرين، والتكريم للمؤمنين. وعلى هذا النسق فصارت هذه الآية
جزاء المرضى عنهم، فبينت :إن الذين جمعوا بين صفاء العقيدة فتحقق منهم
الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم استقاموا
فكانت أعمالهم مطابقة لما شرعه الله فقاموا بما أمروا به، ولتتهوا عما نهى الله

لكلها : ثمرها.

لم نعلم : لم نقص عما هو متوقع.

التمر : المال الكثير .

الصحاب : الرجل الآخر في المثل.

الحوار : مراجعة الكلام بين متكلمي.

أعز : أعظم عزة . ضد النذل.

الغار : عشيرة الرجل الذين يؤيدونه، والمقصود هنا الأولاد.

ذلكم لغة : مشرك.

تبريد : تهلك.

أبدا : أبدا طويلا كما يبقى أمثالها.

منقلباً : المكان الذي يرجع إليه.

بيان المعنى الاجمالي :

لغت القرآن عقول المخاطبين بما يقرئ لهم العاقبة بشرب مثل لرجلين أحدهما كافر مستكبر والآخر مؤمن واتق بربه دار بينهما حوار . كان الكافر ثريا مستغنيا بما يتصرف فيه من املاك، له جنتان نمت فيهما أشجار العنب وأحاط بكل جنة أشجار النخيل، وبين الجنتين مزارع الحبوب والبقول، ثمرت كل جنة ما هو المأمول منها من غير نقصان. ومع ذلك أتاه الله أموالا كثيرة.

انفتح كبرياءه بما جمعه فخاطب صاحبه المؤمن بقوله: أنا أكثر منك مالا ولى من الأولاد والأتباع ما يمكن لعزتي فلا يستطيع أحد أن ينال مني. ودخل جنته وهو متغلب محجوب عن الحقيقة بكفره فقال : أعتقد أن هذه الجنة لا يمكن أن تفسد، ولا اعتقد في البعث ولا في يوم القيامة، وحتى على ظنك لو بعثت فساجد جنسين خيرا من هاتين الجنتين ألقب فيهما.

بيان المعنى العام :

32- 34، واشرب لهم مثلا وجعلنا...واعر نفرا.

من أنواع البيان القرآني ضرب الأمثال المبررة عن واقع متحقق، أو صورة قريبة للتحقق، ليكون ذلك لوقع في نفس المخاطبين ولشد تأثيرا. فهذا المثل يمكن أن يكون موجها إلى المستكبرين الذين طمعوا في طرد ضيفة المؤمنين، كما يمكن أن يكون مقصودا به المؤمنين لتثيتهم، والكافرين لتهديدهم.

هذا العقل يصور رجلين أحدهما متفطرس بما جمع من مال، وماله من اتباع، كافر بالله والمعك. والآخر مؤمن متعلق بربه. جرت بينهما محاوره. سجلها القرآن للعبارة. يميز العرض حسب المراحل الآتية :

ولاد بصفت للقرآن ثروة المستكبر : إنه يتصرف في جنتين قامت أشجار للعنب فيهما، وكل جنة تحرق بطرافها نخيل بامقة، وبين الجنتين مزارع تثبت مختلف للحبوب والبقول. ولتلاحظ دقة التعبير القرآني، جعلنا لأحدهما، وجعلنا بينهما، فهو يوحي من طرف خفي إلى أن الجنتين وإن كان يتصرف فيهما صاحبهما إلا أن هذا الخصب الواضح في الجنتين، هو من الجعل الإلهي ولا يملك للمتصرف فيهما شيئاً من التأثير الباطن الذي يمرر أن نكون على ذلك التوضيح.

ثم يضيف إلى الصورة الجميلة في تنظير الجنتين، أن الخصب والإثمار ظاهرة فيهما، فقد أثمرت كل واحدة من الجنتين الإثمار المنتظر منهما، ولم تنقص شيئاً عن ذلك المستوى شيئاً، إذ انضم إلى خصوبة الأرض مياه متدفقة من نهر بعد العروق بما تتطلبه من ري. ومع هاتين الجنتين كان هذا الرجل يملك أموالاً أخرى من الذهب والفضة وغيرها. وكان له ثمر :

ثانياً: بُنِيَ القرآن بعد ذلك ببيان أثر هذه الثروة على صاحبهما، فيصوره وهو يخاطب للرجل المؤمن الذي لا يرى قيمة للثراء، ومتاع الحياة الدنيا، وأن للقيمة الحقيقية هي في رضا الله. فخلقت الفنى المتفطرس إلى الرجل الصالح، ويقول له في غلظة وكبرياء : أنا أكثر منك مالاً، وأنا أعز منك بالعدد الولد من أولادي وأنباي الذين يقومون لنصرتي. فلا بلحقتي ذل أبداً، وكأله يشير إلى أن صاحبه منضع لا يجد من يدافع عنه ويتقوى به إذا طلبه من يريد إزالته.

35 36. ودخل جنته وهو نكاحاً... حيناً منهما منقلباً.

ثالثاً : سجل القرآن بعد ذلك وقد عظم أعزله بما أوتيته وهو دخل جنته التي ضاعفت إحصاءه بثروته وزادت في كبريائه وغطرسته، وحججه كفره الذي ظلم به نفسه فأصاه عن العقابية : إنني معتقد أن هذه الجنة التي توفر لها للتربة الصالحة، والماء الوفير، هي جنة باقية خالدة لا تفتي. والفرد الدخول إلى ' جنته ' ولم يقل: إلى جنته لأن الدخول يكون من إحدى الجنتين. وأكد فصر نظره بنفسه قيام الساعة وطرح هذه العقيدة من فكره، وفيكما من صاحبه اضاف : إنه لو فرض لنا سنعود بعد الموت إلى ربى (أي حسب معتقدك) فإن مآلى لا يختلف عن حاضري، فسلكون في مقام رعد أجد عنده جنتين خيرا من جنتي هاتين أمتع بهما.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِاللَّهِ يَا لَيْلَى خَلَقَكَ مِنْ نَرٍّ اسِرٍّ ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ ثُمَّ
 مَوْتٍ رَجُلًا ۚ لَنُبَكِّنَا هَؤُلَاءِ نَرًا وَلَا أَشْرَكَ مِنْ أَجْدَادِهِمْ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
 قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ فَأَنْصِتْ لِلْآيَاتِ ۚ وَقَدْ أَنْشَأَ
 لَكُم مِّنْ خَلْقِكُمْ أَهْمًا مِّنْ خَلْقِهَا وَلَئِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۚ فَاصْبِرْ صَبِيرًا زَلَّاقًا ۚ
 يُضِلُّ مَن يَافُوهُ غَوًى ۚ لَّئِنْ سَأَلْتَهُ لَمَنِ الْكَلْبُ ۚ

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : اللقحة التي لاحت فيها البيضة بالحيوان المنوي.

حسباناً : يطلق بمعنى هلاكاً مفترداً، أو سلباً قصاراً، أو اسم جمع يدل الصاعقة،
 أو الجرد. والمعاني الأربعة تتلاءم مع الآية.

زلقاً : لا تثبت عليها للرجل عند المشي.

غورا : غارقاً في طبقات الأرض لا يبلغ وجهها.

بيان المعنى الإجمالي :

رد المؤمن على عجيبة المشرك بقية فقال له : عجباً لك كيف تكفر بالله الذي
 خلقك من عناصر التراب التي تحولت في داخل أبوك فالرزق نطفة من بيضة
 الأم ونفاح الأب، ولمترجماً ثم والى عليك عنايته حتى تطورت إلى رجل مكتمل
 الخلق والقوة. لكني أنا، أنا مؤمن بأن الله هو ربي لا شريك له. ولا أشرك بربي
 أحداً من الكائنات. لقد كان الواجب عليك أن يمتلئ قلبك من عظمة الله وتفرد
 بالتدبير والتصرف، عندما انبهرت لجمال جنتك، وأن تقول : ما كان لهذه الجنة أن
 تبلغ ما بلغت إلا بفضل مشيئة الله، فإنه لا قوة تؤثر في الكون إلا قوته.

وواصل إن كنت تعتبرني أقل منك ثراء وولداً، فإن هذا لا يضيرني. فأنا أمل في
 فضل ربي، أرحوه أن يرزقني جنة خيراً من جنتك، وأن يرسل علي جنتك من
 السماء ما يسحقها سحقاً فلا يبقى فيها شجرة ولا نباتاً، تزلق الأقدام على أرضها ولا
 تثبت. وعسى أن يذهب الماء الذي كان يرويهما في باطن الأرض، فلا تستطيع أن
 تطلبه فيبس كل ما فيها عطشاً.

بيان المعنى العام :

37 11. قال له صاحبه وهو يحاوره...هل تستطيع له طلباً.

بعد تسجيل القرآن على المشرك المتفعلوس مقالته، ودخائل نفسه، نشى بسرد المؤمن في محاورته له الذي لم يسكت على الباطل، ولم يلن في الحق، فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله، ألم تنظر في خلقك ! لقد خلقك الله من عناصر من التراب تحولت إلى نبات وإلى لحوم واللبان ثم دخلت في تركيب والشدك فكانت جزءا منها بيوضة من الأم وحيوانا منويبا من الأب، ثم التفتيح بينهما، ثم والى عليك غنونه والطفاه حتى بلغت مستوى الرجولة والقوة التي أنت عليها. لكن أنا أعترف بأن الله هو ربي، ولا أشرك به سبحانه أحدا في الخلق والتدبير والتصرف. وكلمة "كنا" مركبة من كلمتين "لكن" أنا فأدغم الكلمتان وليست لكن ألحقت بها ألف كما قد يتبادر وتقرأ بدون ألف عند الوصل، ثم وأصل كلامه محرضا له على تغيير موقفه منكرا عليه نصريحاته، معرفا له بما كان ينبغي عليه أن يصرح به لما دخل جنته، كان عليه أن يقول: ما شاء الله. هو من باب الاختصار على معنى ما شاء الله كان. اعترفا بأن النضرة والخضرة، والأشجار المحملة بالثمار، والماء المتاجر الذي عم ربة الجنين ما كان ليجمع كل ذلك لولا أن الله شاء ذلك، فهو الميسر للأسباب. وإن قولك لتضعف عن إنشائهما، فالقدرة والقوة المسخرة هي قدرته سبحانه.

ثم أضاف: إن استكررت علي فحسبتي، لما كنت أقل منك حالا وولدا، أقل شأنا منك، فإن ذلك لا يضرنى، ولا أراه موجبا لتفضيلك علي، إن ما يعمر به قلبي من الإيمان والتعلق بالخير والتواضع لله هو فضل دائم يصحبي في حياتي وبعد مماتي، ولنا أمل منتظر فضل ربي علي فهو قادر على أن يرزقني جنة خيرا من جنتك. أما ما هزك الطرب لجمعه فأنت مهتد فيه، فالله قادر على أن يرسل على جنتك من الآفات ما يحطبها، صواعق من السماء أو قذائف متتابعة لا تبقي فيها لا شجرا ولا ترابا فتتحول إلى أرض لا تثبت الأقدام عليها. وأن يذهب الماء الجاري في أعماق الأرض بعيدا فتبس الأشجار والنبات، مما أنت مراد به. وتعجز عن استخراج بعد أن ابتلعت الأرض في جوفها.

وَأَحْبَطَ نُفُورَهُ فَأَصْنَعَ يَقَبَ كَلْبِهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهُوَ خَائِفٌ عَلَى عُرْوَتِهِ يَقُولُ
يَلَيْسَ لِي أَشْرَكَ يَرَى أَحَدًا ۖ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَةٌ يَتَمُنُّونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنْضِئًا ۖ هَٰذَا بَلَدُ الْوَلَدِ ۖ وَأَخْرَجَ مُنَادٍ نَوَاجِدًا يَخْتِمْ عَصَاكَ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

لحبط نفوره : عم الفساد ممتلكاته.

خولية : خالية.

عرش : السقف.

تلة : الجماعة التي يلجأ إليها.

ولاية : الرئاسة. ومن قرأها الولاية فهي بمعنى الموالاة والنصرة.

خفي : اخرة الأمر. ما يروجه المرء من سميه

بيان المعنى الإجمالي :

يبدو المتبهد في سرعة وقد ذهب المال وخربت الجنة، وهو قابع في ركبن يقلب كفيه حصرة ونمنا، ويستحضر ما كان ينفقه فيها راجيا مصاعفة أمواله، فتصاعف حسرته وأساه، ويقول يا ليتني لم أنزلق إلى الشرك واتخذ لها من دون الله، ويتراكم حزنه لما خاب ظنه في القوة التي كان ينتظر منها أن تحميه وتساعدته، لم يجد من النذر الذين يتجح بهم أحدا يصبره، لا أمل له في قريب يدافع عنه غي هذا المشهد يتحقق أنه لا ولي إلا الله الحق، وأن ما عداه زائف لا حفيقة له، وأن ثوابه هو الثواب الحقيقي الدائم وكذلك العقبة التي يمكن منها الصالحين، هي العقبة الحسنة، وما عدا ذلك باطل وبهرج ليس له ثبات ولا دوام.

بيان المعنى العام :

42- 43، وأحييت يثمره فأصبح يقلب..وما مكان متعسا.

بلغ العمل الذي ضربه الله أن كل واحد من الرجلين كشف عما في نفسه، وارتفعت صورة الكافر ضامخا يأنفه مستكبرا لا يخشى الله ولا يقيم في حسابه وزنا للنصرف الإلهي. ويدون مقدمات يعم جنبيه وما يملكه من أموال فساد ماحق، فلم يبق له من ممتلكاته شيء. وإذا صورته صورة اللبائس الحسير الذي يقلب كفيه ندما على ما أنفقه في عمارة للجنين. ينظر إلى الخراب وقد عم كل ما وملكه، مجسما كأنه السف سفط على الأرض ثم انقلبت الجدران عليه. وبجانب منظر الخراب المفزع نفس تاكل ذاتها ندما على انحرالها وكفرها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، حق عليه العذاب وذهب المال وعصفت المواصل بالأشجار والثمار فما بقي من ممتلكاته شيء، وغاب ما كان يتجح به من كثرة أولاده ومواليه، لم يجد منهم جماعة تنصره وقد حلت الكارثة الماحقة. وما كان له أي طريق ينتصر به فهو مهمل للحصرات والكابة والخسران.

44. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا.

تتجمع الصورة لخصير إليها القرآن بقوله: هنالك. يبدو للناظر المتبج لما ساقه المثل من تفصيل كأنه في مكان محصور. تظهر الولاية والنصرة مختصة بالله

للموصوف بأنه حق، بمعنى أن ما عداه زائف لا حقيقة له، وهو أضعف من أن يُمدَّ بمصادرة. فإن ثواب الله سبحانه أفضل وخير من جميع أنواع الثواب اللواردة من غيره. إذ هي منقوصة في ذاتها، لا دوام لها ولا ثبوت. وما يقدره للإنسان في عقبته أفضل أيضا.

في هذا المثل ما يوفق المشركين الذين طلبوا أن لا يشرك النبي ﷺ في مجالسه ضعفة المسلمين، وأن يصانع كبريائهم فيطردوهم من مجلسه، فيه تجسيم للعاقبة الخامرة للمستكبرين، وأن المال بيد الله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وسيجل بهم من الخسرين ما حل بهذا المشرك الغليظ للمستكبر.

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْفُتُورَةِ الدُّخَانِ كَمَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْطَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ شَيْبًا زُرَّةً أَلْيَنُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿١٠﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَهِيمَةُ الْمُسْلَمَةُ حُزْنٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾ إِنَّهَا آتِلَةٌ

بيان معاني الألفاظ :

الحياة الدنيا: الأمد الذي يبقى فيه نظام الكون. ومدة حياة كل فرد.
أحطط به نبات الأرض : وفرة النبات والثفاف بعضه على بعض.

شيبا : مسطحا مفتتا.

زُرَّة : يتفرق متطائرا.

البهائم المسلمات : الأعمال الصالحة التي تبقى ثوابها.

بيان المعنى الإجمالي :

جبلت النفوس على حب الحياة الدنيا ونعيمها، وهذا لا مانع منه، ولكن ذلك قد يؤثر في تقدير الأمور فتدبرا خاطئا يتبعه التعلق بالحياة الدنيا تعلقا يغفل به الإنسان عن ربه، فأيقظه القرآن بمقارنة بين الحياة الدنيا وبين الماء النازل من السماء الذي يسري في الأرض فتصبح الأرض مخضرة، وما يزال ينمو نباتها وتتشكل ألوانه مع الخضرة بالزهور فيبهج للنفس، ولكن بعد مدة لا تطول تجف المروق والأوراق والأغصان، وتفتت ويسفها الرياح فتتطاير في الجو هباء منثورا، ويكون ذلك مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهكذا الدنيا بالتمسية للأخرة.

إن من أفضل مباحث الحياة الدنيا المال والبنون. فهي نعم تعطي للحياة زينة وجمالا. ولكنها نعم غير باقية تفنى الأموال فيها بغنائها. وفي المقابل فإن الأعمال الصالحة لا يضيع شيء من أجرها، ثوابها عند الله، وصلحها على أمل العون من ربه في الدنيا والأخرة.

ديان المعنى العام :

45- واضرب لهم مثل الحياة الدنيا..سعالى حكل شيء مقتدر.

يشد الواقع الحاضر الفكر ليطنه بالقياس، ويمضي على غفلة تلك، فيوقفه الوحي بضرب المثل القريب ليؤلف منه نظيرا يقرب للحقيقة التي لم ينتبه إليها، إن الذي يحجب العقل عن استحضار المال هو ما يحيط به من نعيم، فيظن أن ذلك النعيم لا يزول، ولكنه زال غير باق، فيقرب للفران ما تقدمه الحياة الدنيا للبشر من ترفيه، وما يحضره من أنواع النعيم، بالماء النازل من السماء، يسري في طبقات الأرض فيخرج بسببه مختلف أنواع الثبات، وما زال الري يجري في العروق حتى ينمو ويلتف بعضه على بعض ويكسو وجه الأرض بخضرته البانعة، وبزهوره المشككة الأكلون، فتراه بحتك بالحياة وبالجمال.

وفي وجه آخر من هذا المشهد الجميل تذهب الخضرة، ويجف الرواء، وتتكسر الفروع ثم تنفتت، فتطير هباء في الجو، والحالتان تسيلان مظهرًا يدل على كمال القدرة الإلهية، والتصرف في الكون بالبناء والهدم، ويخضع الثبات إلى الزوال والموت كما خضع إلى الحياة، وهكذا أمر البشر، نعيم للحياة بالنسبة لكل فرد زائل، والأرض وما عليها والسموات وما تحويه لمرما إلى زوال.

46- المال والبنون زينة الحياة الدنيا... وخير أملا.

إن الذي يخشي على بساتن المشركين هو ما جمعه من مال، وما رزقوا من أولاد، وقد رأينا صورة ذلك في المستكبر صاحب الجنتين ' أنا نكسرهم مالا واعز نفوس ' وهذا يبين من ناحية أخرى ما ورد في الآية السابقة التي تمت فيها المقارنة بين الحياة الدنيا وما تنبته الأرض. فلفتت هذه الآية النظر إلى مقارنة بين المال والبنين من ناحية، وبين الأعمال الصالحة من ناحية أخرى. نعم للمال والبنين قيمة إيجابية في الحياة، ولكنها قيمة ظاهرية غير نافذة إلى الهيكل الحقيقي، هما زينة للفتان النظر، محبوبان للنفس، وخير منهما الأعمال الصالحة، ذلك أن المال والبنين زائلان لا يصفان بالبقاء السرمدي، ولا بالنفع الدائم، بينما الأعمال الصالحة ثوابها مدخر عند ربك الذي لا تضيع الودائع عنده، ومن المقرر أن العاملين للصالحات سيلقون عونا في الدنيا ورضا من ربهم. قال تعالى: **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزينها حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**!

وَيَوْمَ نُسَوِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُم مُّجَادُونَ مِنَّا أَمَّا بَنُو إِدْرِيسَ وَعُضُودُ
عَلَىٰ ذَٰلِكَ صَافًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا
وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ بِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا
الْكِتَابِ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ صُدُورُهُ وَلَا كُتُبُهُ إِلَّا أُخْضِرُوا مَا عَمِلُوا خَاصِرًا وَلَا يَهْدِيهِمْ رَبُّكَ إِلَّا ضَلَالًا عَظِيمًا

بيان معاني الألفاظ :

بارزة : ظاهر وجهها وقد فني كل ما عليها.

وعرضوا : أخضروا غير محجوبين بحجاب.

الزعم : القول الخاطي والاعتقاد للمخطئ.

موتها : حياة بعد الموت.

مفسس : خائفين.

لا يهتدي : يسجل ولا يترك.

الإحصاء : العدد.

بيان المعنى الإجمالي :

لذكر يا محمد يوم نفثت الجبال فتسير هباء، وترى، كأنك تشاهد، مظهر الأرض وقد زال كل ما كان على ظهرها من نبات وحيوان، وجمع المشركون كلهم فلم يتخلف منهم أحد، ثم عرضوا صفا كحال المجرمين الحاملين لوثائق اعترافاتهم بما فعلوه وما اعتقدوه، ثم يخاطبون من رب العزة خطاب التقرير والتكليم : ها أنتم قد جئتمونا مضطربين لا خيار لكم ولا قدرة، كحالكم يوم خلقناكم أول مرة في الدنيا، إذ ما كان لكم اختيار في يوم خلقكم الأول ، بل إنكم كنتم بدعواكم أنه لا بعث.

ومن شؤون الآخرة أن الله يضع الكتاب المحصى على البشرية عامة ما صنعت، ويمكن كل مجرم من كتبه الخاص، فيرى كل من تمكن منه الروية على وجوه المجرمين الخوف مما حواه، ويقولون في حسرة وتعجب : ما الذي جعل هذا الكتاب بلغ من الدقة في التسجيل أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها ووثقها ! وجدوا كل أعمالهم ناطقة بما صنعوه، والله لا يظلم أحدا، فقد بعث إليهم الرسل وبين لهم الخير والشر، وما سجل في صحائفهم إلا ما صدر عنهم فعلا.

بيان المعنى العام :

47- ويوم نسير الجبال وترى الأرض.....قللر نقادر منهم أحدا.

الآيات السابقة تشير إلى الحياة الأخرى، وهنا نصريح ببعض ما يتم يوم القيامة. نذكر يا محمد اليوم الذي نسير فيه الجبال مما يقيد أنها تتقلب هباء فتتحرك حركة كثبان الرمل، ولا يقف المشهد عند الجبال التي كانت راسية عالية قممها، بل الأرض كلها تبدو جرداء لا نبات ولا حيوان. والحال أننا حضرنهم وجمعناهم من الأماكن التي كانوا فيها، ولم نبق أحدا. دُعُوا فاجابوا الداعي، كما يجلب المضطرب جزيئات الحديد إليه.

48- وعرضوا على ربكم: سنا نقدر...فإن لن نجعل لكم موعدا.

جلبوا من مرقدهم ليتم عرضهم على خالقهم، كما يعرض المجرمون على القضاء يحملون وثائق اعترافهم، ثم يواجهون بخطاب من الله، فيه تقريع وتهديد وإشارة للندم على ما اعتقدوه من أنهم غير مبعوثين. مع تذكير بأن خلقهم في هذا اليوم هو كخلقهم يوم وجدوا في الدنيا، ويقع الإضراب عن الكلام الأول ليواجهوا بما كانوا يقولونه معتقدين له: أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا.

49- ووضع الكتاب فترى المجرمين...ولا يظلم ربك أحدا.

يتلو الحشر العام والحضور في المجمع المقدس. وضع الكتاب للعام الحاوي لجميع ما عمله البشر في حياتهم الدنيا. نسخة من الكتاب مسجل فيها أعمال كل فرد، ويفتضح المجرمون فكل من تصح منه الرواية يشاهد الفزع الذي عليه المجرمون، وقد استولى عليهم الخوف مما تضمنه الكتاب الحاوي لأعمالهم، هم يقولون في أسف وحيرة ونعجب بما الذي جعل هذا الكتاب مختصا بتسجيل كل أعمالنا، عجا له لم يترك صغيرة من أعمالنا التي فعلناها في الدنيا، ولا كبيرة، إلا حفظها ووثقها! ويحقق القرآن أنهم استوعبوا في سرعة عجيبة هي من أحوال الآخرة، إذ وجدوا كل أعمالهم حاضرة أمامهم. ويأتي التعليق المقرر للحقيقة السرمدية التي ذكروا بها في الدنيا فلم يذكروا: إن ربك يا محمد لا يظلم أحدا، أمر ولهي وبعث رسله، ويثبت في كتاب أعمالهم ونياتهم ويعرضها عليهم فيقروا بها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَخَافُونَ أَنَّ يَأْتِيَهُمُ الْغَمُّ مِنْ غَدٍ
وَنَبِيٍّ أُنْتِزَعَتْهُ ذَرْبَتْهُ أُولِيَاءُ بَيْنَ دُورٍ وَهُمْ لَكُمُ عَذَابٌ لَئِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بَدَلًا
مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُخْلِئِينَ

عَصَاهُ أَنْ يَقُولَ تَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَعَصَوْا أَمْرًا أَكْبَرًا ۚ فَاذْكُرُوا الْفَصْلَ الْكَبِيرَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

المعنى :

معاني المعاني :

١- : خرج عن الطاعة إلى المعصية.

٢- : النمل.

٣- : القريب الصديق المعتمد عليه.

٤- : ما احضرنهم.

٥- : الشياطين.

العضد : العظم الذي بين المرفق والكتف. وشاع إطلاقه بمعنى المعين على العمل.

موتوا : سلكوا مكان هلاكه.

أتقوا : اتقوا هذا بمعنى التحق.

مواقعها : واقعوا فيها.

مصرف : مكان للتخلص.

بيان المعنى الإجمالي :

تكبير بقصة خلق آدم. لذكر يا محمد مجددا ما نسم يوم قلت للملائكة اسجدوا لآدم
سجود تكريم بطريقة تناسب الملائكة، وليست بوصف الجبهة على الأرض إذ
للملائكة ليست لهم جباه ولا مفاصل، ولكنه سجود يتناسب مع خلقهم ومع تلاميذ الله
سبحانه. وإن الملائكة أطاعوا وسجدوا، وإن إبليس الذي كان من الجن وليس من
جنس الملائكة وشمله الأمر عصى ربه ولم يمسجد مستكبرا، وجسد آدم جسدا سري
في ذريته، وتمكنت عداوتهم للجنس البشري، فالعجب من الذين يتخذون الشياطين
وزريته عمدة يتبعونهم ويلتمسون بأوامرهم، مع هذا العداوة المتأصلة المستحكمة، ما
أسوأها صفة يستبدلون فيها طريق الهدى بسلك مسالك الضلالة.

كيف يعبثون الشياطين أو الشياطين ما كانوا مخلوقين يوم خلق الله السماوات
والأرض، وكذلك ما تسلم من ذرية الشياطين تم خلقهم بقدرة الله وحده، إذ لا
يتصور أن يكون الشيطان مصدر الشر والخبيث، مساعدا لله مصدر الكمال والخير.

ولنذكر أيضا عارضا، مشهدا من مشاهد يوم القيامة، يوم يقول الله يوم الحشر
للمجرمين: اطلبوا من شركائي الذين ادعيتهم باطلا فإني الله فعبثتموه فسي الدنيا

وتقربتم إليهم لأمرهم والمشفاعة لكم. وصدرت منهم صيحة الفاقة للنصير مستغيثة بهم، ولشد ما كانت خبيثتهم لم يسمعوا منهم جواباً، بل جعل الله بينهم فوهات من النار. ثم ظهرت لهم نار جهنم تستمر فحصل لهم اليقين أنهم يقعون فيها ويكونون جزءاً منها يتوقد بهم، وحل اليأس محل الأمل، وأحيط بهم لم ينجوا عن جهنم أي ملجأ ولا مخلص.

بؤى المعنى العام :

50- وافقنا للملائكة اسجدوا... للخلائع بدلا.

انقسم هذا التذكير في الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أمر الله ملائكته بالسجود لأنهم أطاعوا وسجدوا. وقد تقدم ذلك في سورة البقرة، وكان الأمر شاملاً لإيليس، باعتبار أنه كان يعيش مع الملائكة، وإن كان عنصره من نار، وعنصر الملائكة من نور، وظهر الفرق بينهما بخروجه من الطاعة إلى المعصية **الخلق عن أمر ربهم** فتم تسجيل موقف إيليس الوقح، للموقف الذي زاد في شفاعته أنه كان مدركاً لوضعه : أن الذي خلقه وتولاه بعنايته هو الذي أمره "ربهم" ومع ذلك خرج من دائرة الطاعة إلى دائرة العصيان والاعتراض.

القسم الثاني: الإنكار على من يعتمد إيليس ونسله مع ما طبعوا عليه من الشر ومن عدواة بني آدم وخبثهم بالموسومة ما يوقعونهم به في الضلال والكفر. يتبعونهم معرضين عن الاعتماد على هداية الله، مع أن الله يدعوهم إلى الطريق الراسخ الآمن الذي يبعدهم في الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: التوبيخ لاتباعهم الشياطين أولياء من دون الله : هو أسوأ حاضراً وعاقبة، وضلال مبين باستبدال النور الذي يأتيهم من الله باتباع الشيطان وتزيينه. فما أمواه يتدل للذين ظلموا أنفسهم : بنس للخلائع بدلا.

51- ما أشهدتهم خلق السماوات... المختلق عبادا.

استدلال على مضمون الآية السابقة الذي تكرر على المتمردين نعلهم بالشمسطين وانصرافهم عن هداية الله التي تفضل بتوجيههم إليها عن طريق رسوله ﷺ. وحاصل ذلك : أن الشياطين الذين يتعلقون بهم ويأتمرون بما يدعونكم إليه من الشرك والضلال، هم محدثون سبق العلم عليهم، وما وجدوا إلا بعد خلق السماوات والأرض، فما كانوا موجودين يوم نفذت الإرادة الإلهية إحداثهما فضلا عين مشاركتهم له في الخلق، فما أشهدتهم تدل على نفى مشاركة الشياطين في الألوهية

والخلق على مبلغ وجه. وما كانت للشياطين بمساعدة الله على خلق الشياطين ولا حاضرة، فهم غائبون. لا أثر لهم لا في خلق السماوات والأرض ولا في خلق ما يتتابع من نسلهم.

وكيف يكون الكامل في ذاته وفي تصرفه، الحكيم الذي يقدم لعباده ما يهديهم إلى الرشd والحق، كيف يكون مستعينا بمن محض نشاطه للشر والإغواء، وما كنت متخذ المضلين عضداً، على معنى أن مفيض الخير لا يعقل أن يستعين بمن لا ينشط إلا في التضليل والإغواء. إنه لا يتم التعاون إلا بين المتجاسين تعالى الله علواً كبيراً، الله هو الخير المطلق والشيطان هو الشر المطلق. وتكون الآية رداً على المشركين وعلى الطبيعيين وعلى كل متخرف يقول بغير علم ولا دليل.

52- ويوم يقول نادوا شركائهم موثقاً.

والذكر أيضاً مشهداً من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد يخاطب الله فيه للمشركين بما يحدث فيهم داعية لمناداة شركائهم الذين كانوا يستندون إليهم في الدنيا، هؤلاء الذين كانوا يزعمون أنهم شركاء الله في الخلق، أحقاء بالعبادة والتقرب والاستغاثة؛ اطلبوا منهم أن يغفروا عليكم لنصرتكم وليشفعوا لكم. وتطلق حناجرهم منادية داعية مستغيثة، وتخيب آمالهم فلا من مجيب، مما بضاعف حسرتهم على الضلال الذي كانوا عليه. ويقترن بذلك الأكم النفسي أن الله يجعل بين المشركين وبين الهتهم، أثر دعائهم، فوهات من نار جهنم. ستزيد الآلة التالية تعصيلاً لما يتبع هذا الكشف الحاصل إثر النداء.

53 وراى المجرمون النار فولم يجدوا عنها مصرفاً.

انفتحت تلك الفوهات من جهنم، وراى المجرمون، بالكفر والإعراض عن هداية الله، نار جهنم تستعر، وهي محيطه بهم من كل جانب، وبمن كانوا يعظمونه من الآلهة وهم في مواقع الذل يحيط بهم ما أحاط بهم. فتقنوا أنهم سيقعون فيها فتحويهم وينقلبون جزءاً منها، كما قال تعالى: **والودعنا الشجر والعجوة**^١، وعبر عن تخفهم ذلك بالظن استهزاء بهم. ولم يجدوا في ذلك الموقف الحرج أي مخلص ولا منفذاً للنجاة، ولم يجدوا عنها مصرفاً.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقْوًا
 جِدًّا ۖ وَمَا يَشْعُرُ بِهَا ۚ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ كُفْرُهُ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَتَشْتَغَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ
 تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۚ وَمَا يُؤْمِلُ الْآثِمِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَمُجْرِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالتَّبَوُّلُ لِحَدِّ حَصْوَاهُ الْخَوَّ وَأَتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ
 أَندَادًا لِّهِمْ ۚ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ ۚ فَاعْرِضْ عَنَّا وَنَبِيٍّ مَا قَدَّمْتَ يَدَاہُ
 إِنَّا نَحْنُ عَلٰی قُلُوبِهِمْ أَكْبَرُ ۚ أَنْ نَسْفَهُوہُ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ ۚ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ
 فَلَنْ يَّهْتَدُوا ۚ أَلَمْ تَكُنْ

مبيان معاني الألفاظ :

صرفنا : نوعدنا ولم نجعلها نمطا واحدا.

الدار : اسم جامع لكل من يبلغه القرآن في الحاضر والمستقبل.

الجذل : المنازعة في القول، قد تكون بحق وقد تكون بالباطل عدا.

الأولين : الضالين قبل عهد البعثة للمحمدية.

سنة الأولين : الحالة المألوفة.

قبلا : جمع قبل بمعنى أنواع من العذاب.

حضر الحق : إزالته وإبطاله.

الهيؤ : السخرية.

أكثنة : جمع كنان وهو الغلاف السلتر.

ما تقدمت يده : ما قدم من سوء عقيدة وعملا.

القلوب : المدارك.

الأكثنة : جمع كنان بمعنى الفطاء الحاحب.

يفقهوه : يدركوا باطنه.

مبيان المعنى الإجمالي :

نوع القرآن الأمثلة الواقعية التي تقرب هداية الإسلام إلى العقول وإلى القلوب،
 وبالنظر إلى طبيعتها فإنه كان من المفروض أن يقبلها المخاطبون بها، ولكن ما
 فطر عليه الإنسان من النزاع لتثبيت ما هو عليه ولو بالباطل، جعلهم يجادلون
 ويحاولون رد الحق الذي جاء به الإسلام عقيدة وتشريعا.

إن الذي منع الكافرين من الإيمان والدخول في دين الله، وإدراك أنهم على ضلال يحتم عليهم طلب المعرفة، بعد ما وضح لهم من الهدى بضرب الأمثال، وبيان الرسول والدلائل التي ترفع الشك في صدقه، إن الذي منعهم هو انتظارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة من أنواع العذاب المستأصل الذي ذكره القرآن، أو يستقبلوا أنواعاً أخرى لا عهد للبشرية بها.

وما بعث الله رسلاً إلا ليعرضوا بالتم بيان وأوضحه ما يبشر بالسمعة المتقين، ويذكر بالعذاب الكافرين الرافضين. وما يعشوا ليشتغلوا أنفسهم بالجدال مع الذين صمموا على الرفض، والجدال بالباطل، والعزم على هدم الحق. وضموا إلى ذلك الاستهزاء بما توعدهم القرآن وما أنذرهم من سوء مصيرهم.

إنه لا يوجد ظلم أشد من ظلم الذين تفضل الله عليهم بعنايته وأرسل لهم رسلاً، وعرض على عقولهم وحولهم الآيات البينة، ومع ذلك أعرضوا عن الالتفات إليها وتكبرها. وبلغ من غفلتهم أن ما قاموا به من مسيء الأعمال أصبح نسباً منسياً لا تلوهم نفوسهم عليه. صمموا على الكفر والعداوة فجاءهم الله من حيث لم يحتسبهم أن جعل قلوبهم محجوبة بحجاب لا تستطيع أن تعمل أسرار آيات كتابه، وأصم أذانهم عن الاستماع لدعوة رسوله. ولذلك فإنك وإن بالغت في دعوتهم إلى الهدى فإنهم لا يهتدون.

بيان المعنى العام

54: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ما كانوا شاكين فيه

غير بعيد عن هذه الآية صوب القرآن مثلاً وأصل تفصيلاته من آية 32 إلى آية 43 وأتبعه بمثل آخر آية 44 - وضرب الأمثال بطريقة قرآنية تساعد على التأثير على السامعين بالبيان والخوف والرجاء. وهي متنوعة للمواضيع مختلفة المطلوب في العرض تحريك مدارك غير المعتادين الرافضين لقبول ما يقصد إليه القرآن في الغرض الخاص، أو في الهداية الشاملة لاتباع طريق الحق. ونظراً إلى أن الأمثال متفرسة في الواقع تقم مقارنة بين الواقع وبين الحقيقة التي يعمل القرآن على تركيزها في القول والقرآن، ونظراً إلى أنها متنوعة، ونظراً إلى أنها تكررت تكررًا بطلي جوانب عديدة، فإنه كان من المنتظر أن يحصل الاهتمام بما يدعو إليه الإسلام من عقيدة وتشريع. ولكن لم ينفع فيهم تنويع الأمثال وتعددتها، فثار فيهم ما فطر عليه الإنسان من غريزة الأنانية وحب الذات، الأمر الذي يدفعه إلى رفض ما يرد عليه مما يغير النقط الذي يميز عليه، فكان عامل الغريزة المنحرفة حاجباً عن

تبين ما في هذه الأمثال من تقريب لما ورد على لسان رسول الله مما يغير ما ألفوه، والمجادلة قد تكون حسنة مقبولة إذا كان هدفها إظهار الحق أو دحض الباطل. وبها يقع الصالحون المنحرفين وبها تتم هداية الضالين، وقد تكون نعيمة إذا كانت يدافع التصميم على الباطل ومحاولة دحض الحق.

55- وما منع الناس...أو يأتيهم العذاب قبلاً.

تكميلاً لما أفادته الآية السابقة تكشف هذه الآية : أنه بالرغم من تعدد الأمثال، وتنوع البيان، ومنطقية هذا الدين ومساوفته للفطرة واعتماده قواعده العقل، فإن السؤال المحير للناس هو : ما الذي منع الكافرين من قبول الدين الإسلامي ولماذالم يستيقظ ضمائرهم فيذكروا قصاد ما هم عليه، ويُعجّلوا بطلب المغفرة عن ذنوبهم؟ إن الذي منعهم هو الذي منع من كان قبلهم من الأمم التي رفضت دعوة الرسل وأعرضوا عما ناهوهم من الآيات والدلائل القائمة على صدقهم، هو العناد والاستكبار عن قبول الحق إلى أن يتسلط عليهم العذاب. على معنى أن للكافرين بالقرآن ليم لهم ما يبرر امتناعهم من قبول هداية الله، إلا أمر واحد، هو أن تتحقق فيهم سنة الله في الذين كانوا قبلهم من المكذبين، أي إنه يتعاملهم بنوع من أنواع ما سلطه الله على الأمم السابقة كالطاغية، والعاصفة، والريح الصرصر، والفرق، والرجة، مما ذكره القرآن جزاء للمكذبين. أو يسلط عليهم أنواعاً أخرى من العذاب التي منها القتل كما تم في بدر.

56- وما أرسل المرسلين إلا مبشرين...وما أنذروا هؤلاء.

الآيتان السابقتان كشفتنا عن داء الجدل المستحكم من الكافرين، كلما قام برهان ورفعت الشبهة وتجلت الحقيقة، ظهروا بمظهر استيلاء العناد عليهم والمكابرة وعدم الرضوخ للحق، مع أن رسل الله للبشرية لم يبعثهم ربهم للجدل ولا ليصرفوا جهودهم للمعتدين المصممين، وإنما بعث رسله لينبئوا الخلق بعاملي البشارة لمن اتبعهم وعمل صالحاً، والإنذار من سوء العاقبة لمن أعرض عنهم وأساء. فوظيفتهم هي إخراج الناس من غفلتهم وبيان العقيدة والتشريع بآيات مقنعة، ولكن الذين كفروا بصرفون جهودهم للجدل، وتقديم أباطيلهم بضروب من التلبيس لبشغوا الرسل عن مهمتهم، وليقللوا الحق الذي معهم حتى يحذف عن مسارهم، إذ الدحض في أصل معناه، يقال في الرجل إذا نزلت ولم تثبت في المكان الذي تحولت إليه.

و يجمعون إلى جعلهم بالباطل لإزالة تأثير الهدى، اتخاذهم آيات القرآن وما نزل فيه من النذر الموقظة مجالاً للسخرية والاستهزاء والاستخفاف، مما يصرف الدماء والعلوم عن الإيمان.

57- ومن أظلم ممن ذكر بآياته، فلما يهتدوا إذا أيّدا.

تفتح الآية بالسؤال الإنكاري (من) فكانت صياغتها مثيرة للذهن ليبحث ويأمل في الساحة ويقارن بين أوضاع البشر ليتبين من أشد الناس إغراقا في الظلم، فينتهي إلى الإقرار بأن أشدهم ظلما لنفسه وللحقيقة، هو الذي تم تحريك ذهنه ومداركه بالأدلة والآيات البينات؛ فأسرع لاتخاذ موقف غريب هو عدم الالتفات إليها، ورفض التأمل فيها. ووجه الغرابة أن ما جاءه من ربه ينبيهه إلى فساد ما قدمه وسوء عمله. فهي آيات توفقه وتكشف له مآلات أفعاله التي كانت محجوبة عنه. وشأن العاقل أنه إذا نيه أن يهتدي، فإعراض المشركين عن مراجعة أنفسهم عن قبائح أعمالهم ظلم لأنفسهم، فسورتهم الآية في سورة من بلغت به الغفلة بالناس، لذاته تبيحا لشأنهم وتقريعا لهم.

إن هذا الموقف الرافض قد استولى عليهم فأقبلوا غفولهم عن التدبر في آيات الله، وبمجرد ما يقرع أسماعهم صوته رسول الله يدعو إلى ربه ويبلغ آياته وهداه، ينصرفون عنه، جازأهم الله عن تصميمهم على الرفض والعناد أن حرّمهم لطافه، وغطى على غفولهم بغطاء حقيق لا يمكنهم من النفاذ إلى فهم أسرار القرآن، وأصم أذانهم عن سماع صوت الحق.

إن من سنن الله في الخليقة، أنهم إذا عزموا على منهج في الحياة، وتواصل تطبيقيه له، والفعل به، وصمموا على الالتزام به وأصروا على التمسك به، فإنه مع هذه الخلفية لا يحاولون بعد انقراض ذلك، بالاختيار والعمل والتطبيق. وعلى هذا النحو يعلم الله نبيه ﷺ أن هؤلاء المشركين لا يهتدون لا في الحاضر ولا في المستقبل، ومقتضى حياتهم الدنيا وهم على ضلالهم، فلا تحزن ولا تفتن، فلك مسنة الله الماضية في البشر.

وَمَا لَكُمْ أَلْفُورُ دُونَ الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُ بِمَا كَسَبُوا فَجَرُّ لَهُمُ الْعَذَابُ لَوْلَا أَنَّهُمْ لَمَسُوا مَا فِي الْقُبُورِ
لَأَجْلَسُوا
وَعِدَا

بيان معاني الألفاظ :

اللفور : شديد الغفران لكثرة ما يغفر ولفوة غفراته الذي لا يدع أثرا للذنوب.
موسلا : منجى.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ربك الذي تولاك بعنايته، وواصل لمداد إيمانه عليك هو الكريم الذي يغفر ذنوب التائبين مهما عظمت. و هو الرحيم بعباده تشمل رحمته ما لا يحصى من الذنم، من الخيرات التي يوصلها لهم، و ما يدفع عنهم من الشرور والآلام، و من عظيم رحمته إيماله بعدم تمليط العقوبة في الحال، عسى أن يؤمن الكافر و يتوب للعاصي.

و لولا رحمة ربك لمحقهم بمجرد ما يظهر منهم من الكفر أو المعاصي، نون أن يجدوا منجى ينجيهم، و تقوم أمام لفظكم شواهد من القرى التي أهلكتها مع ساكنيها لما صمموا على الشرك و استمروا عليه، نحقق إهلاكهم في الموعد المقرر .

بيان المعنى العام :

58- ويذكر المفسرون أن يجدوا من دوله موثلا.

إذا كانت الآية السابقة حقت أن الله طبع على قلوب المعاندين وسمعهم، فإنه سبحانه مع ذلك يتولى المذنبين فيستر عليهم ذنوبهم، ويمحو آثارها السيئة من سجلاتهم، إذا هم أقبلوا وتابوا، إن مغفرة ربك يا محمد مغفرة عظيمة شملت عددا لا يحصى من المذنبين، وأنواعا مختلفة من الذنوب وفتجاوزت ما عدا للشرك بالله. وبهذا تكون هذه الآية مؤكدة لمضمون الآية السابقة، أن ما حل بهم من الطبع على قلوبهم وعلى سمعهم كان جزاء ما رغبوا فيه وعملوا عليه، إذ عرضوا عن التعرض لمغفرته ورحمته. ومن ناحية أخرى فإن موقع هذه الآية جاز على سعة القران في الهداية أن يقرن بين التوحيب والتزهيب، والبنارة والندارة.

ورحمته سبحانه شملت حتى الكافرين، فإنه سبحانه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أجمع لهم المجال، ليقلعوا عن ضلالهم، وعندها يغفر لهم ما سبق. **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتُوبُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** فإيمالهم محقق للرحمة، وقبولهم محقق لوصف الغفر.

و ليس الإمهال إلا رحمة منه، لا مطمع لهم في النجاة والانفلات من العقوبة، فإن الله قد ضرب لهم الموعد الذي يجزيهم فيه، عما قبحوا. وهو موعد لا يجدون منه نجاة ولا ملجأ يحميهم. يتحقق في الزمن الذي قدره وفي المكان الذي أعده للحساب.

59- وتلك القرى أهلكناهم... لمهلكهم موعدا.

يحق ما جاء في الآية السابقة، من أن المشركين لا يفتنون من عذاب الله. ما جرى على أهل القرى الذين أهلكهم الله ومحققهم، وهي معلومة لهم حاضرة في أذهانهم، تبعاً لما شاهدوه من خراب ديارهم، ولما تكرر على أسماعهم من أهل الكتاب عن أخبار قوم نوح وفرعون وغيرهم. وحقق أن استئصالهم كان بسبب ظلمهم. وأن الله قد حدد لكل شيء أجله، وما حده لا يختل ولا يتقدم ولا يتأخر عن مواعده.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا تُرْسِخْ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِ حُقُمًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا لَبِسا خَوْفَهُمَا فَاتَّخَذَ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ نَرًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ إِفَّا عَذَابَنَا لَعَنَ لِقِينَا مِنْ سَمَرْنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَفْسَيْتُ بِهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۖ وَاتَّخَذَ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ

بيان معاني الألفاظ :

القنى : الشاب، والمقصود به هنا التابع للخدمة.

لا أبرح : أواصل المير ولا أفك عنه.

مجمع البحرين : روايات عديدة في تحديده من أرض فلسطين قد يكون مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية، أو ملتقى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أو هو مضيق جبل طارق.

امحس : أمير

حفا : رمنا طويلا.

السرب : النفق.

العذاء : طعام النهار .

انصب : التفت.

بيان المعنى الإجمالي :

أذكر هذه القصة العجيبة إذ أعلم موسى الله قضاء وهما مسافرين: أن سفرهما هذا سيستمر حتى يصلا إلى مجمع البحرين. وإذا لم يبلغاه عن قرب فسيواصلان متابعة الطريق حتى يصلا إليه. وبلغا فعلا مجمع ما بين البحرين دون أن يعلما أنه الموعد

الذي يملأ في موسى الخضراء الذي سيأخذ عنه العلم الذي فلقته مرفقه. ونام موسى وبقي غلامه يقظان.

وتحرك الحوت في ذلك المكان وعادت له الحياة وسلك طريقه إلى البحر وأخذ يعوم في الماء. نسي موسى أن يتفقد الحوت، ونسى الفتى أن يخبر موسى بما حصل. فأنشأ السير من جديد إلى أن لحق النعيا موسى ^{عليه} من السير. وقد ارتفع النهار، فطلب من غلامه أن يعد الغذاء وقال له : لقد نهكنا السير. وتذكر الفتى ما كان نسيه. فأعلم نبيه أنه لما أخذنا من الصخرة مكانا لسترأحنا فيه وأخذ موسى فيه حظه من النوم، في ذلك المكان تحرك الحوت وخرج من المكمل وتوجه إلى البحر وعادت إليه الحياة كاملة، وأخذ يسبح في البحر على طبيعته كأنه لم يفارق الحياة أصلا. وواصل : إنه لأمر عجب.

بيان المعنى العام

60- وإذا قال موسى لفتهاه أو امض حقيقا.

أذكر للناس هذه القصة العجيبة التي تكثف عن نظام في الكون الذي لا يبلغ إلى الإحاطة به إلا رب العالمين. قد يعرفنا من إدراك مشاهدنا ما رواه الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه. أثرت أن لعله عنه.

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدثني أبي بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا - فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه (أي لم يقل: الله أعلم) فأوحى الله إليه أن لي عيدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب كيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله في مكمل، فانطلق وانطلق معه قناه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر - **فأخذ سبيله في البحر سربا** - وأمسك الله عن الحوت جريئة للماء فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقرية يومهما وليتئهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتهاه: **أتنا عداها لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** - قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به. فقال له قناه: **أرأيت إذ أونا إلى الصخرة فبني نصبت الحوت وما أيماناه إلا الشيطان أن أنكره وأخذ سبيله في البحر عجبا** - قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتهاه عجبا. فقال موسى: **ذلك ما كنا نبغ فارتددا علم أنهما نصبا** - قال: رجعا

يقتصن آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوباً، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً - قال: إنك لن تستطيع معي عميراً - يا موسى إني علمي علم من علم الله علمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، فقال موسى - مستخفياً إن شاء الله حالاً ولا يحصى لك فيه لهما - فقال له الخضر: فإن اتبعني قبلنا نملأ عن شيء: حشر أجنت لك فيه نكراً، فإطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فحرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم لحرقتهما فتغرق أهلها لقد جنت شيئا إراء، قال: لا أعلم إنك لن تستطيع معي عميراً - قال لا تأخطني بها نسيت ولا ترهقني من أمري، عميراً - قال: وقال رسول الله ﷺ، وكانت الأولى من موسى نسياناً قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فحفر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فأقبله بيده فقتله، قال له موسى: أأكلت نفساً زكية بغير نفس، فبنت شيئا نكراً - قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي عميراً - قال وهذا أشد ممن الأولى - قال إن سألتك عن شيء فلا عسألني كبد بنفس من لدني عسلاً - فإتلفا حتى إذا أتيا هل قرية مستقمة، أهلها شيوخ أن يضربوها فوجدها فيها جداراً يبره أن ينقص - قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيئوا - لو شئت لاتخذت عليه أجراً - قال هذا فرأى بيئي وببيك - إلى قوله - ذلك ناول ما لم تستطع عليه، عميراً - فقال رسول الله ﷺ: ودعنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما، قال سعيد بن جبور: فكان ابن عباس يقرأ - وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصصاً - وكان يقرأ - وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين¹.

المشهد الأول: يخاطب موسى الله فتهادى وهما يسيران، فيعلمه من أول الأمر أنهما سيواصلان سفرهما إلى أن يبلغا مجمع البحرين، أو أن يتأخرا المسير لزماناً، ومجمع

البحرين مكان أوحى الله إلى موسى أنه يجد الخضر عنده، وهذا الرجل الصالح قد حصل على علم من عند الله لا يعلمه موسى. والذي فهمته من هذه الآية أن الله أعلم موسى أنه سيدجد الخضر في مجمع البحرين، وأن موسى الذي لا يعلم على وجه الدقة المسافة التي سيفصلها حتى يبلغ تلك المكان، وأن الله قد أقام له أسيرة عليه، هي أن تمود الحياة للحوت الذي تزود به، فيكون المعنى أنه سيواصل السير إلى أن يبلغ مجمع البحرين الذي يحيا فيه الحوت، فإن كان غير بعيد ظفر ببقيته، وإن كان بعيدا واصل السير إلى أن يلقاه. وفي هذا المشهد من التعبير:

(1) أن علم الإنسان مهما بلغ هو علم محدود، وأن وراء كل منزلة منزلة أسعى تتحرك الهمم الرفيعة لبلوغها، فلن موسى الخط وهو من الرسل لولي العزم المقربين، تأتت همته العلمية إلى الاستزادة من المعرفة، والمسفر ليلقى الرجل العالم الذي يكشف له ما جهله.

(2) أن السفر يساعد على تحصيل العلم. ذلك أن الله كما خص كل ناحية من نواحي الكون بعنجات لا تجدها في غيرها، فكذلك المعرفة والذكاء وزعتهما الحكمة الإلهية في الكون، ونال كل قوم ما كتب لهم. والسفر يكشف لمطالب العلم ما يضمه مخزونه المعرفي فيكتمل، وكانت الرحلة في طلب العلم بابا من أبواب التبوغ العلمي في الحضارة الإسلامية.

(3) الأدب الذي يستقيده التالي في التعبير عن العلاقات البشرية، فالذي كان يصعبه موسى عليه السلام هو معين خادم له سواء أكان عبدا أو حرا، بسبيل أنه طلب منه أن يمد لهما غداءهما مما استخفظ عليه، وسماء القرآن فتى: أي شاب، ثم إن موسى راعى كرامته البشرية، وأنه إنمى بصحبته لا دابة يركبها، فرفقه بفصدهما، ولم يقل أحمل وسر وراني.

61- فلما بلغا مجمع البحرين... في البحر مريا.

المشهد الثاني: موسى وفناء يواصلان السير، حتى توفقا عند صخرة على البحر. ويبدو في المشهد موسى، وقد هدده النسيم اللطيف البحري فأثقل جفونه وتام. وبجانبه فتاه بظنان لم يأخذه ما أخذ سيده، ما كان أحدهما يظن أن ذلك المكان هو المكان المقصود.

و بينما هو نائم اضطرب الحوت في المكمل، وعادت له الحياة. واتخذ لنفسه طريقا إلى البحر فأخذ يعم في الماء كشأنه قبل أن يكون زلدا. ولما كانت حياة الحوت تمثل النقطة المرجحية في سفرهما، فإنه مع ذلك نسي موسى أن ينفذ الحوت بمجرد ما اتفق ونسي غلامه أن يعلمه بما حصل.

علما : وحيا بيقينيا .

أنبيك : أصحابك .

رُسا : حبرا .

نحيط : نتمكن .

خبراء : علما .

نكرا : لبين لك بالعلمان .

بيان المعنى الإجمالي :

لم يعنف موسى فتاه، وتهلك وجهه للخبر، وقال إن المكان الذي عاد فيه لحوت حيا إلى البحر هو المكان الذي نريده. فلنعد ملتزمين الطريق الذي سلكناه بعد نومي، حتى يبلغ مجمع البحرين وسارا. فوجدنا عنده رجلا صالحا يخبره الله وأمام عليه من القرب ما نصبه به إلى نفسه (من عبائنا) وميزه بما أعطاه من العلم الخاص الذي لم يمكن منه البشر بما لوئوه من قوى العقل والإدراك.

عرض موسى على هذا الرجل الصالح العالم، أن يصحبه ليأخذ عنه العلم الذي خصه به الله والذي فيه خير كثير .

كان رد الخضر: يا موسى إن الشرط الذي يبلغ به طالب العلم المعرفة الواضحة غير متوفر إليك، يا موسى إنه الصبر، ولنت لا نستطيع أن نصبر على أمور تراها أمامنا، ولم يبلغ مستوى علمك إدراك كلها. إذ شأن الإنسان أن تحفز جميع قواه أمام المجهول وتنبعث غريزة حب المعرفة قوية دافعة حسب الطبع.

ولما كان موسى من الرسل أولي العزم، لم ير في جواب الخضر ما يجرمه من التعلم منه، فهو من أشد الناس صبرا. فقال له: كن مطمئنا فستجدني بفضل الله وعونه صابرا لا أشوش عليك متعجلا. وأيضا فمأكون لك مطيعا لا أعصيك فيما يطلبه مني، فقد جمعت حمد الله الوصفين الأساسيين في التعلم ' الصبر والطاعة '

كان جواب الخضر بعد هذا التأكيد: أن الشرط بيني وبينك: أنك تسكت ولا تبادر بالسؤال عن أي شيء أقوم به، وتنتظر الوقت الذي أراه أنسا مناسبا لأبين لك سر عملي. عللة وغاياته.

بيان المعنى العام :

3-4 قال ذلك ما حكنا نبي... أشارهما قصصا.

المشهد الثالث : قبل موسى عذر فتاه ولم يعنفه، بل صرح له أنها بشارة منه لما كان يطلبه وسافر من أجله، وبدأت علامات الاستبصار على وجهه، لقد تحققت

الأمارة التي أوحى الله بها إليه : أن الخضر تجده في المكان الذي يعود فيه زللكم من الحوت إلى البحر حيا، وتبرزه الآية وقد ولى ظهره وقفل راجعا متبعا الخط الذي سار فيه متتبعا من ذلك حتى لا يخطئ للمكان الذي خرجا منه بعدما أخذوه للنوم.

65- هوجدا عبدا من عباده...من لنا علما.

للمشهد الرابع: اللقاء المرتقب عند مجمع البحرين، بين موسى وبين الخضر، وبصوره لقرآن بأنه عبد من عباد الله، كرمه الله فنسبه لنفسه تشريفا له وتمييزا من عباده) وبكصل الآية شيئا من مزايده أن الله أسبغ عليه رحمته فقدر أن يكون موافقا فيما يختاره، وينتج به غيره من آثار تلكم الرحمة، ومع الرحمة في السلوك والاختيارات ونفع الناس به، علمه الله بوحى منه علما صادرا من مكتون العلم الإلهي الذي لا ينال بالحواس ولا بالعقل، وهو العلم اللدني، وسيظهر لنا بمتابعة القصة خصائص هذا العلم.

66- قال له موسى هل أتبعك سمعا علمت، وشذا.

بعد التعرف البطوي في القصة، يفتح للتسجيل لما دار بينهما. موسى: هل تسمح لي بأن أتبعك وأصحبك على أن أعلم منك مما علمك الله من الخير، فمصاحبة موسى للخضر مشروطة بأن يعلمه ولا يكتمه ما خصه الله به من العلم. هذا العلم الذي هو غير علم التشريع وإصلاح المجتمع الذي مكن الله حظه موسى بما أوحاه إليه وبما تصمنته التوراة. وإنما هو علم آخر مفقوب عن البشر لا يدرك مره إلا بتبصير من الله.

67- 68- قال إنك لن تستطيع...على ما علمت به خيرا.

الخضر: بكل تأكيد لن تستطيع أن نصير على ما استشهاده معي، يشير إلى شدة غرابته وخروجه عن المألوف المتعارف. ذلك أن موسى لاقى الخضر يطبق الشرع الذي يحكم بالظاهر، فيقبل ويقر ما ظاهره معروف، ويرفض ما ظاهره منكر. والخضر مغفوح عليه، فقد يفعل ما هو في النظر الأول منكر وفي العاقبة حسن ومعروف، وبالعكس، ويبدو هذا لتأكيد لفظا بكلمة (إن) وكلمة (لن) ووصياغة بدخول النفي على صبرا المفيد أن كل رتب الصبر مذبذبة، وواصل بأنك معذور إن كان صبرك لا يتحمل الصكوت عما ترى. إذ كيف تستطيع أن تسكت صابرا على أمور لا تقرأها عند حدوثها لكونها منكورة، ولا تعلم ما لاتها الصالحة إذ هي من الغيب المستور. فكيف نصبر على ما لم تبلغ العلم به ؟ ويؤول الاستفهام إلى: لئن لا نصبر.

69- قال ستجدني إن شاء الله..ولا اخصى لك أمرا.

موسى: كن مطمئنا فإني ستجدني ملتزما بالصبر، لا أغير عليك شيئا مما تقوم به. كان الخضر يخشى أنه إن صحب موسى، وهو مكلف بإنجاز ما يراه الأصلح من الأفعال الخفية مصلحتها عن لم يحصل له العلم الذي علمه الله إياه، قد يفسد عليه أمره بالإسراع إلى الإنكار، خاصة وشخصية موسى عليه السلام كما قدمها القرآن في أكثر من موقف شخصية شديدة في الحق. وعطف موسى على التزامه بالصبر وعدم العجلة، أنه سيظهر منه في صحبته الطاعة له. فعبّر موسى عن عزمه على أن يتعلم من الخضر* وهو من الرسل أولي العزم*، وأنه لذلك أظهر أنه ملتزم بالوصفين الأساسيين للعلم، الصبر على تحصيل العلم، وعدم التسرع لإدراك الغايات من أول الأمر، وثانيا الطاعة للمعلم الصالح الذي يرعى ما يبلغ من يأخذ عنه العلم، مستوى التحصيل والاقتناع.

70- قال فإن التبهتني-حتى أحدث لك منه ذكرا.

الخضر: لك ما عرضه أولا، بعد سماعه ما بطلنته من موسى أنه لا يفسد عليه بعجلته وتدخله فيما يقوم به، فبين ما يعنيه من قوله: **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** فقال: **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ** فلا نسألني عن أي شيء يحصل مني. وإن بدا لك أنه غريب وغير مقبول، والنظر الوقت الذي لراه مناسبا لاكتشف لك عن مبادئه وغاياته فأحدثك بما يعرفك بما فمت به ما يكشف غولمضه وعلاه - لاحظوا واستكثروا -

لَا تَدْرِي مَا أَتَى السَّعْيَةَ حَرْقَهَا قَالَ حَرِّقْهَا النَّارُ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۚ قَالَ لَا نَأْمُرُ بِمَا نَهَيْتُ وَلَا تَرْهَقُنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ۖ أَتَعْلَمُ خَيْرٌ إِذَا لَبِيتَ غُلَامًا فَقَدْ كُنْتُ أَفْكًا نَسْمًا زَكِيًّا وَلَمْ يَكُنْ لِنَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ذَكْرًا ۝٧٠

بيان معاني الألفاظ :

المرء : القتب والشق.

الامر : الفظيع

ولا ترهقك : ولا تكن شديدا علي.

زكية: طاهرة.

ذكر: لا ثقيله العقول وتستهجنه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن قبل موسى شروط الصحبة، أخذوا يسيران على سيف البحر، وكانت سفينة قريبة منهما فطلبا من نوبيتهما أن يحملوهما معهم، وبمجرد ما ركبا فتحتي الخضر ناحية وأحدث نقبا فيها، سارع موسى بالإتكار عليه إن فعلتلك هذه ستعرض للسفينة وركابها للغرق فكيف نسيه إليهم، وهم قد أحسنوا البناء، إن هذا أمر فظيع، ذكره للخضر بما سجله عليه من أول الأمر: أنه لا يستطيع أن يصير على ما يراه مما هو مرفوض بذممة، طلب منه موسى أن لا يؤاخذ، لأنه نسي وصيئته، وإن لا يعامله بشدة.

صفح الخضر عنه وسارا معا حتى لقيهما علام، فأسرع الخضر وقتل ذلك الغلام، لم يصير موسى على كبيرة قتل غلام لم يقتل لقسا، وغير مكلف، وصفحته ما تزال غير ملوثة بالآثام، وصرح بأنه هذا أمر منكر.

بيان المعنى العام :

71-73 (الخالق حتى... ولا ترهقني من أمر عسرا).

المشهد الخامس : بعد أن تم الاتفاق بينهما والالتزام من كل طرف للآخر: موسى بالصبر وعدم المبادرة بالسؤال، والخضر بالتعليم والبيان في الوقت الذي يراه مناسباً.
الصوره : اصطحبيا ومارا على سيف البحر، ومربيا بجانبهما سفينة فطلب الخضر من نوبيتهما أن يحملهما على سفينتهم، وبمجرد ما استقرا على ظهرها أخذ الخضر آلة حادة وأحدث بها نقبا ١ وموسى يشهد ويستغرب كيف إن أصحاب سفينة حملوهم معهم ولم يشترطوا عليهم مقابلا لحملهم، وأحسنوا قبولهم، والسفينة صورد رزقهم، كيف يحدث فيها ما يعرضها وركابها إلى الغرق والموت، وموسى رمول من رمل الله قويت فيه ملكة النهي عن المذكور؛ فيادر بالاعتراض على الخضر وقال له في صيغة المنكر لفعله: إن ما فعلت غير مقبول كيف تخرق سفينة أكرمت أصحابها، فتجازيهم بتعرضهم للغرق، إن هذا أمر فظيع غير مقبول.

ويمتدأ ما كان يلوح على موسى من الغضب، كان في المقابل يبدو على الخضر الهدهو، فاجاب : أسألك لأثير ذكرك، لم أخبرك عندما طالبت أن تصحبني، أنك لا تملك القدر من الصبر الذي تستطيع به عند مصاحبتى ومشاهدة ما أصليح، أن تسكت وتنتظر ؟

اعترف موسى بتسرع، وطلب من معلمه الصفيح وعدم المجازاة والمواخذة على تسرع بالاعتراض، وعلى نسيانه ما التزم به، ففي مضمون كلامه ما يدل على أن

نسيانها قد يعرضه لإقصائه عن مصاحبة الخضر. لا تضيقْ علي ولا تعاملني بشدة.

74- فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا...لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا

المشهد السادس: قبل الخضر ما اعتذر به موسى، ونزلاً من السفينة وواصل السير. ويعترضهما في طريقهما غلام، فيقتل الخضر على لي عنقه وقتله، وتما لك العجب موسى من فعل الخضر. فهذا غلام ما يزال في بواكير صباه غير مكلف وبالغ لم يرتكب ذنباً، وما تزال صفحة أعماله نقية، ولم يقتل نفساً حتى يؤخذ بالقصاص. ولم يجتمل موسى وهو الرسول الكريم أن يُهدر أصل من أصول شريعته وشرائع جميع المرسلين (التعدي على الحياة)، فيأثر بذكر هذا الفعل وخاطب الخضر بقوله: كيف سمحت لك نفسك أن تقتل نفساً طاهرة في غير قصاص؟ إن ما فعلته أمر منكراً، وعبر عن الأول ياله "إمرو"، وعن هذا بأنه منكراً. فاختلف في أي التعبيرين كان أشد؟ الأول خرق السفينة وهي تسير في البحر بركابها فظلم - لأن فيه هلاك جماعة لا فرد - ولم يتحقق ضرره ولكنه متوقع. وأما هذا الفعل قد تحقق ضرره في الخارج والقتل واحد، فاختلفت الأختار تبعاً لذلك.

الفهرس

- مسبورة التوبة : 3
- إنما المنيبل على أقدس مستأنوثك لما رضى عن الفوم الخامس (93- 96) : 3
- الأخرى أشد كفاً ومقادير ... خالين فيها ليد تلك الفوم العظيم (97- 100) : 5
- ومضى حولكم من قاع آب ... فستنكم بما كنتم تعملون (101- 105) : 8
- واخرون مزجون ليلز الله ... والله عليهم حكيم (106- 110) : 11
- لي الله الشرى من المؤمنين أنفسهم ... ومن المؤمنين (111- 112) : 15
- ما كان لئسني ... وما كنتم من ذوي الله من وني ولنا نصير (113- 116) : 19
- لقد تاب الله على النبي ... ما كنتم تعملون (117- 124) : 24
- وما كان المؤمنين أبغوا ... بأنهم قوم لا يفقهون (122- 127) : 25
- لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... هو رب العرش العظيم (128- 129) : 29
- مسبورة يونس : 32
- لقد تلك البات الكتاب الحكيم ... بما كنتم تكفرون (1- 4) : 32
- هو الذي جعل النصص صماء ... لي الحصد لله رب العالمين (5- 10) : 36
- ولو يعمل لله الناس ... انظر كيف يعملون (14- 14) : 39
- واذا نأى عنهم ابغوا نجات ... سبحانه وتعالى عما تشركون (15- 18) : 42
- وما كان للنبل إلا لغة واحدة ... لي رسلنا يفتنون ما تشركون (19- 21) : 45
- فم الذي نسرركم في البر والبحر ... بما كنتم تعملون (22- 23) : 47
- إنما من الجدة الدنيا كماء أرزاقاً من السماء ... فم فيها خاللون (24- 27) : 50
- ويوم يحشرهم جميعاً ... وصل عنهم ما كنتم يفترون (28- 30) : 53
- قل من يرادكم من السماء والناس ... إن الله علم بما يعملون (31- 36) : 55
- وما كان هذا القرآن أن يفترى من لوى الله ... ولكن الناس أنفسهم يظفون (37- 44) : 60
- ويوم يحشرهم كل لم يفتوا ... ألعلموا فلا يستأخرون ساعة ولا يستفتنون (45- 49) : 64
- قل أرأيتم إن أنتم عدالة ... هم يحيى ويميت وإليه ترجعون (50- 56) : 67
- يا أيها الناس قد جاءكم موعظة ... ولكن أكثرهم لا يستفرون (57- 60) : 70
- وما تكون هي نأى وما تلو سنة ... إن العرب لله جميعاً هو المصعب العظيم (61- 65) : 73
- هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ... بما كنتم تكفرون (67- 70) : 77

80. ...وَأَنَّا عَلَيْنَاهُمْ نَبَأَ نوحٍ ... كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ (71-74):
 82. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (75-82):
 86. لَمَّا آمَنَ لِمُوسَى إِذْ أَوْتِيَهُ مِنَ قَوْمِهِ ... مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (83-86):
 88. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ... وَلَا تَتَّبِعْ خَافِلَ الشَّيْءِ لَا يَعْلَمُونَ (87-89):
 91. وَجَاءَنَا بِهَبْيٍ لِسِرَائِيلَ الْبَحْرَ ... فِيمَا كَانُوا بِهِ يَخْتَلِفُونَ (91-93):
 94. لَمَّا كُنْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ مِمَّا لَوْ أَنَّا بَلَّغْنَاكُمْ ... حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (94-97):
 97. لَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ ... كَذَلِكَ جَعَلْنَا نَجَّى الْمُتَمَسِّينَ (98-103):
 101. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... هُنَّ بَحْثُكُمْ لَكُمْ وَهُوَ حِزْبُ الْحَافِينَ (104-109):
 105. سورة هود:
 105. لَئِنْ كُنَّا أَكْثَرُ آيَاتِهِ ... كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (1-6):
 108. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ... أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَعْرُوفًا (7-11):
 112. فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَى ... فَهَلْ أَتَيْنَا بِمَنُورٍ (12-14):
 114. مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (15-17):
 117. وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ شَيْءٍ عَلَى اللَّهِ كِتَابًا ... أَفَلَا تَعْلَمُونَ (18-24):
 120. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... فِي إِذْ آمَنَ الْفَاطِمِينَ (25-31):
 124. فَأَوَّاها نُوْحٌ فِي جَارِئَتِهَا فَكَتَرَتْ ... وَأَنَّا بِرَبِّهِمْ مَعْرِضُونَ (32-35):
 126. وَنُوحٍ الَّذِي نَادَى ابْنَهُ أَنْ يَأْمُرْ ... وَمَا أَمَرَ إِلَّا قَلِيلٌ (36-40):
 129. وَفَلَا تَرْكَنُوا إِلَيْهَا ... وَقِيلَ لِلَّذِينَ الظَّالِمِينَ (41-44):
 131. وَيَدْعَى نُوْحٌ ربه ... فَاصْبِرْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ لِلْمُصْطَفَى (45-49):
 134. وَإِلَى عَادِ إِبْرَاهِيمَ هودًا ... أَوَلَمْ يَرَوْا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَصِطًا (50-57):
 139. لَمَّا جَاءَ إِبْرَاهِيمَ بِمِثْلِهِ هودًا ... أَلَيْسَ الْبِرُّ لِلْعَادِلِينَ هودًا (58-60):
 140. إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا هَال ... لَئِنْ بَعَثْنَا لُوطَ (61-68):
 144. وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَانْهَى ... إِبْرَاهِيمَ حَمْدًا (69-73):
 147. ثُمَّ ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ ... وَأَتَيْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشَرَ مَرَدَّدًا (74-76):
 148. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا ... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (77-83):
 152. وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا هَال ... إِلَيْكَ لَأَتِيَنَّكَ الْجَحِيمُ الرَّسِيذَ (84-87):
 155. قُلْ يَا قَوْمِ لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ... كَمَا يُحِبُّ تَمُودَ (88-95):
 159. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ... وَبَوَّأَ الْفِرْعَوْنَ لِلرَّعْدِ الْمَرْهُودَ (96-99):
 160. ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْعَزْزِ بِهَضْمَةِ عَالِك ... وَإِنَّا لَهُمْ قَوْمٌ عَصِيْبُهُمْ عَزَّ مَرْغُومٌ (100-109):
 164. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ... فَبِذَلِكَ لَمْ يُصْبِحْ لَعْنُ الْمُضْطَلِّينَ (110-115):
 167. وَلَوْ أَنَّا كُنَّا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَوْمِكُمْ ... وَمَا تَرْكُوكُمْ إِلَّا لَعْنُ الْمُضْطَلِّينَ (116-123):

- صــــــــــــــــورة يوسف:.....172
- الر تلك ايات الكتاب المبين ... ان ربك علیم حكيم (1 - 6):.....172
- فقد كان في يوسف وابخونه ايات لتلفتين ... ان كنت خائضين (7 - 16):.....176
- قلوا يا اهلنا ما لك لا تأمنا على يوسف ... وهم لا يشعرون (11 - 15):.....178
- وجاءوا اليهم بشاء يبكون ... والله المستعان على ما تصفون (16 - 18):.....181
- وجاءت سيرة فارموا وارودهم ... وكانوا فيه من الفاضلين (19 - 20):.....182
- وقل الذي لشراء من مصر ... وكذلك نجو في الفتنين (21 - 22):.....183
- وارودته التي هو في بيتها عن نفسه ... فك كنت من الخاضعين (23 - 29):.....185
- وقال يسوء في المتبعة امرأ للعرب ... ليمسحني حتى حين (30 - 35):.....190
- ودخل معه المخدر ههنا ... فقلت في المخدر صنع مين (36 - 42):.....194
- وقال الملك اني اري سبع دواب يسبي ... وهم يعضون (43 - 49):.....198
- وقال الملك لقنوني به ... ان ربي عفو رحيم (50 - 53):.....201
- قال اجعلني على خزائن الارض ... وكانوا يتقون (54 - 57):.....203
- وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه ... لمعلمهم يرجعون (58 - 62):.....205
- فلما رجعوا الي ابيهم قالوا ... عليه فليؤكل السواكلون (63 - 67):.....207
- ولما دخلوا من حيث امرهم فوجئهم ... وفوق كل ذي علم عليم (68 - 70):.....210
- قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له ... ولنا لصافون (77 - 82):.....215
- قال بل سولت لكم لتمتكمنوا ... واعلم من الله ما لا تعلمون (83 - 86):.....217
- فلما دخلوا عليه ... ولقوني باهلكم لجمعين (88 - 93):.....220
- ولما فصلت العير قال ابوهم ... انه هو القفور الرحيم (94 - 98):.....224
- فلما دخلوا على يوسف ... الخفني بالصالحين (99 - 101):.....225
- وما اكثر للناس ... وما يؤمن اكثرهم بالله ابا وهم مشركون (102 - 106):.....228
- اماموا ان ناتيهم غاشية ... وما لنا من المشركين (107 - 108):.....229
- وما ارسلنا من قبلك ... فذوقوا عذابي ورحمة لعوم يؤمنون (109 - 111):.....231
- صــــــــــــــــورة الزعد:.....234
- المر تلك ايات الكتاب ... ان في تلك لآيات لعوم يحطون (1 - 4):.....234
- وان تغيب عنهم قوتهم ... فما فت مضر ولكل فرد هاد (5 - 7):.....238
- الله يعلم ما تحمل كل لفتى ... وما لهم من نومة من وال (8 - 11):.....241
- هو الذي يريكم النور حوت ... ساعفوا وانصافا (12 - 15):.....245
- قل من رب السموات والارض ... وما لهم جهنم وبئس المهاد (16 - 18):.....248
- فمن يعمى لما امر بالذك ... ولهم سوء الذكر (19 - 25):.....253
- الله ينشط الزرق لمن يشاء ... هو ربي له اله انا هو عليه توكلت وابته صاف (26 - 30):.....258

- ولما أن قرأنا منيرنا ... فإن الله لما يخلق الميعاد (31).....: 261
 ولقد استنيرت برؤسك من هتك ... وغشى لكافريين القار (32-35).....: 262
 وأنتى ابتداءه العذاب ... بمحو الله ما يشاء وبمشأ وعنه أم الكتاب (36-39).....: 266
 وإن ما قرئك بعض الذي يذقه ... ومن عدة علم الكف (40-43).....: 270

سورة ابراهيم: 274.....

- الر كنفت الزلفاء ... أولئك في صلال بعد (1-3).....: 274
 وما أرسلنا من رسول ... فإن الله لعن حميد (4-8).....: 276
 ألم يأتكم بأ الدين من قبلكم ... وعلى الله هلنوكلك المتوككون (9-12).....: 281
 وقال النبي كرهوا الرسلهم ... ومن ورثته عذبت عليم (11-17).....: 285
 مثل الذين كرهوا ابراهيم ... خالدين فيها بائس رهم تعنتهم بها سلم (18-23).....: 287
 ألم ير كيف صرت الله ... وبفعل الله ما يشاء (24-27).....: 291
 ألم ير إلى الذين ... أن يأتي يوم لما يبيع فيه ولا حلال (28-31).....: 294
 الله الذي خلق السماوات والأرض ... في الإنسان لظلم كفار (32-34).....: 296
 وإن قال إبراهيم رب احمل هذا البلد أمنا ... في الأرض ولا في السماء (45-48).....: 299
 الحمد لله الذي وهب لي ... يوم بعم الحساب (39-41).....: 302
 ولا تحسب الله غافلا ... وإن كان مكرهم لتكول منه الجبل (42-46).....: 303
 لما تحسب الله مخلف ... ولتذكر أولئك العذاب (47-52).....: 306

سورة الحجر: 310.....

- الر تلك آيات الكتاب ... وما يستأخرون (1-5).....: 310
 وإنا أنزلنا ... وإنا أنزلناهم من (6-9).....: 313
 ولقد أرسلنا من هتك ... بل نحن مستخرون (10-15).....: 315
 ولقد جعلنا في السماء نزجا ... وما أشبهه بحازين (16-22).....: 317
 وما نحن نجى ونعت ... والحق حلفاء من حق من نار السجوم (23-27).....: 321
 ولا قال ربك للملائكة ... وإن عليك للجنة إلى يوم الدين (28-35).....: 324
 قال رب فاصبر ... لكل باب منهم جزء مقسوم (36-44).....: 326
 إن الشجر في جباب وغور ... وما هم منها بمخرجين (45-48).....: 329
 بنى عادي إلى أبا العفور الرحمة ... أبا العفالك (49-56).....: 331
 قال فما جئكم بها المرسلون ... أن نمر هؤلاء مقطوع مصبحين (57-66).....: 333
 وجاء أهل المدينة يستنكرون ... في في ذلك لية للمؤمنين (67-77).....: 335
 وإن كل أصحبه الفكة ... ما كانوا يكفون (78-84).....: 338
 وما خلقنا السماوات والأرض ... وإن لنا للنير الشين (85-89).....: 340

- كما قَرَّلْنَا عَلَى الْمَغْشِينَ ... وَاعْتَدِ رَبُّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَعِينُ (90-99): 343
- مسورة التحمل: 349
- لَحْنِي أَمْرُ اللَّهِ ... عَمَّا يَشْرُكُونَ (1-3): 349
- خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ... وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (4-9): 352
- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ... إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (10-18): 358
- وَاللَّهُ يَعْظُمُ مَا شَرُّونَ وَمَا تَعْلَمُونَ ... آيَةٌ لَنَا يُحِبُّهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ (19-23): 364
- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ ... جَاءَتْنِي فِيهَا قُلَيْسُ مَتَوَى الْمُسْتَكْبِرِينَ (24-29): 366
- وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ... مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30-34): 371
- وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (35-37): 375
- وَالْمُتَّقِينَ إِلَى اللَّهِ ... كُنْ هَكُودٌ (38-40): 378
- وَالَّذِينَ هَلَعُوا فِي اللَّهِ ... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (41-42): 381
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... وَلَوْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ... وَيَهْجُرُونَ مَا يُبْجُرُونَ (43-47): 382
- وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَفُوا إِيَّاهُ ... شَوْكَاتٍ تَعْلَمُونَ (51-55): 387
- وَيُجَاهِلُونَ أَمَّا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبَنَا ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (56-60): 390
- وَلَوْ يَرَاهُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ... وَرَحْمَةً لَوْعَمُ يُؤْمِنُونَ (61-64): 393
- وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا ... لِلَّهِ لَوْعَمُ يَعْلَمُونَ (65-67): 396
- وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... لِلَّهِ لَوْعَمُ يَفْقَهُونَ (68-69): 399
- وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ ... هُمْ يَكْفُرُونَ (70-72): 402
- وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73-76): 405
- وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (77-78): 409
- الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الطَّيْرِ ... وَكَثِيرٌ هُمْ الْكَافِرُونَ (79-83): 410
- وَيَوْمَ نَضْغُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84-88): 414
- وَيَوْمَ نَبْذِي فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... وَيُشْرَى الْمُسْلِمِينَ (89): 417
- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (90-94): 419
- وَلَا تَشْعُرُوا بِعِذِّ اللَّهِ شِمًا قَلِيلًا ... مَا كَثُرَ يَسْتَلُونَ (95-96): 427
- فَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِتَشْكُنَ بِاللَّهِ ... وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (98-100): 429
- وَلَا يَذْكُرُ آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (101-105): 431
- مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ... وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (106-111): 434
- وَضُوبِ اللَّهِ مِثْلًا قَرِيبَةً ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (112-115): 438
- وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّبْحُكُمْ تَكْفِي ... إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (116-119): 442
- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120-123): 444

147.....: (124) ... فيه يختلن
148.....: (128-125) ... والذين هم محسبون

سورة الاسراء.....: 453

453.....: (1) ... فيه هو السميع العليم
458.....: (8-2) ... وجمعنا جهنم للكافرين حصيرا
464.....: (10-9) ... عذابا ألينا
465.....: (15-11) ... حتى نبعث رسولا
469.....: (22-16) ... مأموماً محضولا
475.....: (39-23) ... ملوماً مخفواً
491.....: (44-40) ... فيه كان خليفاً لهم
494.....: (48-15) ... فلا يستطيعون سبيها
496.....: (52-49) ... أين ليقيمنا عذاباً
498.....: (55-53) ... ولينا داوود وزكورا
501.....: (59-56) ... وما أرسلنا بالآيات إلا تحذيراً
504.....: (65-60) ... وكفى بربك وحكماً
509.....: (70-66) ... ممن خلقنا نفسياً
513.....: (77-71) ... ولا تجد لمن آمننا تحويلاً
518.....: (82-78) ... ولا يزيد الظالمين إلا خساراً
522.....: (87-83) ... ولينا عيسى
526.....: (93-88) ... ولينا يسرا
530.....: (100-94) ... وكان الإنسان خفواً
535.....: (105-101) ... مبغضاً وبغواً
537.....: (109-106) ... وبزيتهم حطوا
539.....: (111-110) ... وكثرة تكفيرا

سورة الكهف.....: 543

543.....: (8-1) ... حصيداً جزواً
547.....: (15-9) ... على الله كذا
552.....: (18-16) ... ولما كنت منهم راعياً
554.....: (20-19) ... إذا أذا
556.....: (24-21) ... لأقرب من هذا رشداً
561.....: (26-25) ... في حكمه أحداً

- 563..... وَاَنْتَ مَا اَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ ... وَمَا عِثَ مَرْتَقَاً (27-29):
- 567..... إِنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... وَحَسُنَتْ مَرْتَقَاً (30-31):
- 568..... وَاصْزَبْ لَهُمْ مِثْلًا مِمَّا جَفَلْنَ ... فَاجْعَلْ خَيْرًا مِنْهَا مِثْلًا (32-36):
- 571..... قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ... فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ مِثْلًا (37-41):
- 572..... وَاحِيطٌ بِتَمْرِهِ فَاصْبِرْ بَقَلْبِهِ كَقِيهِ ... خَيْرٌ تَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (42-44):
- 574..... وَاصْزَبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (45-46):
- 576..... وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ... وَلَهَا نُظْلِمُ رَبِّكَ أَخَذًا (47-49):
- 577..... وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ... وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَا مِصْرَفًا (50-53):
- 581..... وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ... وَإِنْ نَشَأْهُمْ إِلَى الْيَهُدَى لَنْ يَسْتَنُوا إِذَا أَهَدَا (54-57):
- 584..... وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ... وَجَعَلْنَا لِمِثْلِهِمْ مَوْعِدًا (58-59):
- 586..... وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ ... وَلَقَدْ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (60-63):
- 590..... قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَمُحُّ ... حَتَّى أَخْبَدْتُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (64-70):
- 593..... فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّيْفَةِ خَرَقَهَا ... شَيْئًا ذِكْرًا (71-74):

